المملكـة العربيـة السعوديـة
وزارة التعليم العالي
جامعـة الملك سعـود
عمادة الدراسات العليا
كليـة التربيـة
قسم الثقافـة الإسـلاميـة

الـدعــاة من غير الأنبيـــاء
في القـــرآن
(دراسة موضوعية)

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في تخصص التفسير والحديث قسم الثقافة الإسلامية بكلية التربية بجامعة الملك سعود

أعدها الطالب :
عقيل بن سالم بن عقيل الشمري

إشراف :
الأستاذ الدكتور / شافع الحريري

الفصل الدراسي الثاني ١٤٢٨/١٤٢٩هـ

الدعاة من غير الأنبياء في القرآن

(دراسة موضوعية)

إعداد الطالب :

(عقيل بن سالم بن عقيل الشمري)

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ٢٣ / ٤ / ١٤٢٩هـ ، وتم إجاز ا

المشرف :

الأستاذ الدكتور : شافع الحريري

أعضاء لجنة الحكم :

١ ـ الدكتور : عادل الشدي :

٢ ـ الدكتور : صالح الناصر :

بســــم اللـــــه الرحمــــن الرحيــــم

المقدمة

وتشتمل على ما يلي :

أولاً :التمهيد .

ثانياً :مشكلة البحث.

ثالثاً : حدود البحث .

رابعاً : أهمية البحث وأسباب اختياره.

خامساً :الدراسات السابقة.

سادساً :أهداف البحث.

سابعاً :أسئلة البحث.

ثامناً :منهج البحث.

تاسعاً : إجراءات البحث.

أولا :التمهيد

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أما بعد :

فإن عقيدة أهل السنة في القرآن أنه كلام الله على الحقيقة منه بدأ ،وإليه يعود[١] ، وفضلُ كلام الله على كلام غيره ، كفضله سبحانه وتعالى على غيره .

من هنا فُضلت العلوم التي ترتبط بكتاب الله على غيرها من العلوم ،وإذا ذكرت العلوم التي تتعلق بكتاب الله تقدمها علم التفسير ، الذي يبين معاني كلام الله[٢]؛لذلك رغبت في أن أعيش معه ، وأستنبط من فوائده ، وأمعن فكري في أسراره الإيمانية ، وهو ما أهدف إليه في هذه الحياة ، أسأل الله الإعانة عليه ، ومما ساعدني في ذلك عملي في الدعوة إلى الله ، فأردت أن أجمع بين هدفي وعملي فاستخرت الله في دراسة موضوع الدعاة إلى الله في القرآن ، ممن خلدهم الله في القرآن الكريم من غير الأنبياء .

وهم من أمم شتى ممن ساروا على درب الأنبياء ، وحازوا الفضل لما قدموه من جهد وتضحية ، ونحن بحاجة ماسة وملحة لتكرار هذه الظاهرة اليوم ؛لحاجة الدعوة إلى دعاة يقدمون أرواحهم وأموالهم للنهوض بدعوة الله تعالى .

ومما رغبني في اختيار هذا الموضوع كذلك أهمية م لة الدعوة إلى الله ، والتي تجب على المسلمين على فرض الكفاية ، " وهذا شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتبليغ ما جاء به الرسول ﷺ والجهاد في سبيل الله ، وتعليم الإيمان والقرآن "[٣] وغير

---

(١) انظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ، أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي ، تحقيق الدكتور أحمد سعد حمدان :١٥١/١،{دار النشر، الرياض : ١٤٠٢هـ } . ونقض الإمام عثمان بن سعيد الدارمي على المريسي الجهمي العنيد ، أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي، تحقيق رشيد بن حسن الألمعي :١٦٤/١،{ ط١، مكتبة الرشد ،الرياض: ١٤١٨هـ } .

(٢) الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ٤٦٠/٢،{شركة أبناء شريف الأنصاري ، المكتبة العصرية ، الدار النموذجية ، بيروت:١٤٢٤هـ } .

(٣) مجموع الفتاوى ، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم ، وساعده ابنه محمد : ١٦٦/١٥{طبع بأمر خادم الحرمين الشريفين الملك فهد آل سعود } .

ذلك من أمور الدين .

فالدعاة إلى الله أولى الناس بالأنبياء في جميع الأمم،وهم أولى الناس بالنبي ﷺفي هذه الأمة،كما قال تعالى:﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾[1][2].

وسوف تكون دراستي لأحوال مجموعة من الدعاة إلى الله ممن ذكرهم الله في كتابه ، يختلفون في مكانتهم الاجتماعية ، وظروفهم المعيشية ، وصفا م الذاتية ، وذلك وفق ضوابط دعوية يعمل ا الداعية في دعوته إلى الله .

وهذا الموضوع - إضافة لكونه تفسيراً لآيات من كتاب الله - من حقوقهم على إخوا م الدعاة بأن يتأملوا في قصصهم ، ويتدبروا معانيها ، ويقتنصوا فوائدها ؛ لتكون لهم عوناً بعد الله على طريق دعو م .

ثانياً : مشكلة البحث

الدعوة الإسلامية اليوم لها حضور واسع بفضل الله ، ومع التطور الهائل اليوم في مجالات كثيرة ؛ أصبح من الضروري أن تبرز مناهج للدعوة تضاهي م لتها ، وتؤصل قواعد دعوية لبقاء مسير ا ، وأفضل تلك الطرق أن يستنبط جميع ذلك من كتاب الله ، ومن قصص الدعاة من غير الأنبياء تحديدا ، لذا أحببت أن أجمع قصصهم ،وأدرس مناهجهم،وأجمع ما تفرق من اللطائف التفسيرية في كلامهم فيما يخص الجانب الدعوي .

ثالثاً :حدود البحث

بعد استقرائي للدعاة في القرآن من غير الأنبياء ، وقفت على مجموعة ممن سأتناولهم - إن شاء الله - بالبحث والدراسة وهم :

١ ـ أصحاب الكهف .

٢ ـ الرجل الذي حاور صاحب الجنتين في سورة الكهف .

٣ ـ ذو القرنين .

---

(١) يوسف :١٠٨ .

(٢) وهذا المعنى على أحد التفسيرين في الآية ، ورجحه الطبري وقال " وبنحو الذي قلنا قال أهل التأويل " . انظر : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ،أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري :٧٩/١٣، {دار الفكر ،بيروت: ١٤٠٥هـ } .

٤ ـ مريم .
٥ ـ أهل العلم من قوم قارون .
٦ ـ لقمان .
٧ ـ مؤمن آل يس .
٨ ـ الرجل الذي خاطب قرينه في سورة الصافات .
٩ ـ مؤمن آل فرعون .
١٠ ـ نذُر الجن .
١١ ـ آسية امرأة فرعون .
١٢ ـ الأخ الأوسط في قصة أصحاب الجنة في سورة القلم .

والأسباب التي جعلتني أحدد البحث ـؤلاء ما يلي :

١ ـ اختلاف أزمنتهم ، وأمكنتهم ، وبيئا ـم ، وهذا أمر مفيد ، فإن من يرد دراسة منهج الدعوة ، وتقديم قواعد دعوية من خلال القرآن ؛يلزمه أن ينوع الدعاة ، ويعدد الظروف والبيئات التي عاشوا فيها .

٢ ـ تنوع اتجاها ـم في الدعوة ، وذلك كما يلي :

فمنهم الرجل المغمور في قومه ، لا يعبأ به، ومنهم الرجل صاحب المكانة الاجتماعية المرموقة كمؤمن آل فرعون ، ومنهم المرأة الصابرة المحتسبة ، ومنهم الفقير المعدم ، ومنهم الشباب الفتية ، وغير ذلك مما سيتضح .

وفي القرآن قصص أخرى ليست واقعة في حدود بحثي؛لعدم ظهور الدعوة فيها وهي :

١ ـ قصة العزير في سورة البقرة .
٢ ـ أم موسى .
٣ ـ أصحاب الأخدود ، وإن ورد في السنة ما يدل على صبرهم ، وتكلم الطفل في المهد في زما ـم ، إلا أن حدود بحثي فيما ورد في الدعوة في القرآن من لفظ صريح ، وقصة أصحاب الأخدود وردت مجملة .

رابعاً : أهمية البحث وأسباب اختياره

تكمن أهمية البحث ، وسبب اختياره في الأسباب التالية :

١ ـ ارتباط الموضوع بالدعوة إلى الله ، من خلال القرآن الكريم ، والتي هي وظيفة الأنبياء ، والتي سار عليها أتباعهم من بعدهم ، فأهميته ترتبط بم لة الدعوة عند غير الأنبياء في القرآن الكريم .

٢ ـ الحاجة الماسة إلى بيان مناهج الدعاة من غير الأنبياء ، الذين خلد الله ذكرهم ، وأساليبهم الدعوية ، وانعكاس ذلك في دعوتنا المعاصرة .

٣ ـ اختلاف البيئات التي عاش فيها أولئك الدعاة من غير الأنبياء ، واختلاف قدرا م ، وتنوع مناهجهم ، وأساليبهم كما صورها القرآن الكريم .

٤ ـ يحتاج الوسط الدعوي إلى ضوابط دعوية تأصيلية ، منبثقة من القرآن الكريم يرجع إليها الدعاة في قضاياهم ، ويحتكمون إليها في تصرفا م ، ومن عرف فائدة القواعد الفقهية ، والقواعد الأصولية ، أدرك أهمية استنباط قواعد خاصة بالدعوة مستنبطة من القرآن الكريم،خاصة بالدعوة يصح تسميتها "بالضوابط الدعوية " مثل:

الضابط الدعوي الأول : الدعوة للتوحيد تقدم على سائر أمور الدين .

الضابط الدعوي الثاني : تجب الدعوة على حسب القدرة والاستطاعة .

الضابط الدعوي الثالث : الأصل في الدعوة الرفق .

الضابط الدعوي الرابع : يختلف تعامل الداعية مع المدعوين حسب تنوعهم، واختلاف أحوالهم .

تنبيه :

الحكم على أمر بأنه ضابط يحتاج إلى استقراء كليات الأدلة ، على اختلاف تنوعها ، وهو أمر ليس من السهولة بمكان ، إلا أنه لا يغيب عن البال بأن مصدر الضابط الأول كتاب الله ، وليس بالضرورة أن أذكر كل الأدلة لإثبات ضابط ما ، ما دام هناك نصوص أخرى تؤيدها ، وطريقتي في استنباط الضوابط تتلخص فيما يلي :

أنني أنظر لقصص الدعاة من غير الأنبياء في القرآن الكريم ، فإن ظهر لي أمر من خلال عموم الأدلة ، ورأيت نصوص القرآن الكريم تؤيده أثبته على أنه ضابط .

٥ ـ ذكر المفسرون في تفاسيرهم استنباطات،ولطائف مبثوثة، فأحببت جمعها في مكان واحد،حيث وقفت في قصة مؤمن آل يس على " خمس وستين " فائدة .

٦ ـ رغم وفرة الكتب التي تكلمت عن الدعوة ، والقصص القرآني ، إلا أن قصص الدعاة في القرآن من غير الأنبياء ، وإبراز الفوائد ، واستنباط قواعد دعوية منها لم أجد من أفردها بتصنيف يخصها حسب علمي ، وإن وجد بعض الدراسات التي تناولت الدعوة عموما ، لذا فسوف أخصص بحثي في الأمور الثلاثة ، وهي :

الأمر الأول : الكلام على الدعاة من غير الأنبياء في القرآن .

الأمر الثاني : التعرف على مناهجهم الدعوية من خلال القرآن الكريم .

الأمر الثالث : استنباط قواعد دعوية مما سبق .

خامساً : الدراسات السابقة :

أولاً : الكتب

بعد البحث والتحري عن الدراسات السابقة في هذا ا ال وقفت على الكتب التالية التي تناولت هذا الموضوع بدرجات ومناهج مختلفة ، وهي :

١ ـ تيسير المنان في قصص القرآن ، لمؤلفه : أحمد فريد

وهو عبارة عن سلسلة في قصص القرآن في ثلاثة أجزاء ، اقتصر الحديث في الجزأين الأولين على قصص الأنبياء ، وفي الجزء الثالث ذكر قصص القرآن الأخرى ، وطريقته في البحث أن يذكر القصة ، ثم ينقل شرحها من أحد كتب التفسير ، ثم يتبعها بفصل جميل يتعلق بالآثار والفوائد الإيمانية فيها .

إلا أنه لا يغني عن بحثي الذي قدمته ، للأسباب التالية :

أ ـ الاختصار الشديد في الشرح .

ب ـ الجزءان الأولان في قصص الأنبياء لم يقتصر فيهما على ذكر الدعاة من غير الأنبياء .

ج ـ اغفل الفوائد الدعوية ، واقتصر على الفوائد الإيمانية ، وذكرها باختصار .

د ـ لم يتعرض لبعض القصص الرئيسة في الموضوع ، كقصة لقمان ، ونذر الجن ، وقصة آسية ، وقصة مريم .

هـ ـ تضمن بحثي كثيراً من المباحث التي لم يتناولها المؤلف المذكور .

٢ ـ قصص القرآن في ظلال القرآن ، لمؤلفه : أحمد فائز الحمصي.

وهو فهرسة وترتيب لقصص القرآن في كتاب " في ظلال القرآن " لسيد قطب يرحمه الله ، ويتميز بأسلوب مؤلفه الرائع ، وقلمه السيال ، إلا أنه غير كاف للأسباب التالية :

أ ـ لم يقتصر على الدعاة من غير الأنبياء في قصصه ، وإنما كان عاماً .

ب ـ كتابه عبارة عن مجرد جمع لما في كتاب " في ظلال القرآن " .

ج ـ لم يتطرق للضوابط الدعوية ، ومناهج الدعاة .

٣ ـ قصص القرآن ، لمؤلفه : صلاح الدين محمود .

وهو عبارة عن مجموعة في عموم القصص القرآني ، لكنه لم يذكر قصص الأنبياء ، واستبعدها من كتابه ، ويختلف عن بحثي فيما يلي :

أ ـ كتابه عبارة عن جمع عام للقصص القرآني ، دون تمييز في جمعه بين الدعاة إلى الخير ، والدعاة إلى الشر .

ب ـ لم يعقب على القصص بفوائد تربوية ، أو دعوية .

ج ـ شرحه للآيات عبارة عن نقل مجرد عن التوثيق ، والعزو إلى المصادر الأصيلة.

٤ ـ قصص القرآن ، لمؤلفه : حمدي آل نوفل .

وهو عبارة عن جمع لبعض قصص القرآن ، توسع قليلا في شرحها ، إلا أنه يختلف عن بحثي فيما يلي :

أ ـ انتقى بعض القصص ، وترك بعضها الآخر ، مثل : أهل العلم من قوم قارون ، والرجل الذي خاطب قرينه في سورة الصافات ، ونذر الجن ، وآسية امرأة فرعون ، والأخ الأوسط في قصة أصحاب الجنة في سورة القلم .

ب ـ لم يعقب على القصص بفوائد .

ج ـ كان تفسيره للآيات مجرد نقل مختصر .

ثانيا : الرسائل العلمية

أما بالنسبة للرسائل العلمية ، فقد وقفت على رسالة دكتوراة بعنوان " الدعاة إلى الله في القرآن الكريم ومناهجهم " لمؤلفها : د محمد طلعت أبو صير، وهي موجودة في مكتبة جامعة الأزهر ، وحصلت على نسخة منها ، وتعتبر أفضل ما خدم الموضوع ، إلا

أن هناك عدة ملاحظات حول الرسالة ، اذكرها باختصار :

أ ـ أنها رسالة عامة في الدعاة بمن فيهم الأنبياء الذين ذكرهم الله في كتابه ، وليست متخصصة في الدعاة من غير الأنبياء .

ب ـ ذكر خمسة فقط من الدعاة من غير الأنبياء ، في حين أن بحثي يشمل اثنا عشر داعية .

ج ـ لم تخدم الرسالة هدايات الآيات ، وأساليب الدعاة من غير الأنبياء من خلال دعوتهم.

د ـ لم تتعرض الرسالة للضوابط الدعوية التي يحتاجها الداعية في زماننا .

سادساً : أهداف البحث

١ ـ حصر الآيات الدالة على دعوة الدعاة من غير الأنبياء في القرآن الكريم ، في مؤلَف مستقل .

٢ ـ الكشف عن مناهج الدعاة من غير الأنبياء في القرآن الكريم ، وربطها بالواقع الدعوي المعاصر ، وبيان حاجتنا إليها اليوم .

٣ ـ مقارنة الأحوال والظروف التي مرت بالدعاة من غير الأنبياء بالواقع المعاصر .

٤ ـ استنباط ضوابط دعوية خاصة بالعمل الدعوي من خلال الأسس التي استند عليها الدعاة من غير الأنبياء في القرآن الكريم ، فيجاب من خلالها على كثير من العوائق التي تعترض الدعوة .

٥ ـ استخلاص الهدايات ، واللطائف الدعوية في قصص الدعاة من غير الأنبياء.

سابعا : أسئلة البحث :

١ ـ ما الآيات الدالة على الدعوة والدعاة من غير الأنبياء من القرآن ؟ وما تفسير تلك الآيات ؟

٢ ـ ما مناهج الدعاة من غير الأنبياء في القرآن الكريم ؟

٣ ـ ما الظروف التي مرت بهم ؟ وكيف استطاعوا القيام بمهمة الدعوة معها ؟ وكيف نستفيد من دراسة أحوال الدعاة من غير الأنبياء في واقعنا المعاصر ؟

٤ ـ ما الضوابط التي يستند إليها الداعية في دعوته في ضوء دعوة الدعاة من غير

الأنبياء في القرآن الكريم ؟

٥ ـ ما اللطائف الدعوية في قصص الدعاة من غير الأنبياء ؟

ثامنا : منهج البحث :

ستكون الطريقة التي سأسير عليها بإذن الله في بحثي هي الطريقة الاستقرائية.

تاسعا : إجراءات البحث

أ ـ استقراء الدعاة من غير الأنبياء في القرآن .

ويتضمن ذلك :

التعريف بالدعوة ، والدعاة ، وبيان فضلها ، وبيان الحاجة لها ؟.

ب ـ جمع الآيات التي وردت فيها أسماء وقصص الدعاة من غير الأنبياء ، وتفسيرها من كتب التفسير المعتبرة .

ج ـ الموازنة بين أساليب الدعاة من غير الأنبياء حسب ما أورده المفسرون ، من خلال كتب التفسير القديمة والحديثة ، وذلك لعناية بعض المفسرين بمناهج الدعاة ، وأساليبهم ، والقضايا الاجتماعية التي كانت تعترضهم .

د ـ استنباط واستخراج الضوابط الدعوية ، ومنهجي في استنباط الضابط :

١ ـ معرفة الرابط المشترك بين الدعاة في دعو م ، واشتراكهم في الاستناد إلى الضابط .

٢ ـ ذكر عدد من الأدلة على هذا الضابط ، والحرص على ذكر الدليل من قصص الدعاة من غير الأنبياء على وجه الخصوص .

هـ ـ توثيق المادة العلمية على النحو التالي :

١ ـ عزو الآيات إلى سورها .

٢ ـ تخريج الأحاديث والآثار من مصادرها الأصلية .

٣ ـ بيان معنى الألفاظ الغريبة .

٤ ـ التعريف بالأعلام جميعا .

٥ ـ عمل الفهارس اللازمة .

لذا فقد قسمت البحث إلى :

مقدمة، وخاتمة،وفهارس،وثلاثة فصول،وتحتها مباحث ،وذلك على النحو التالي :

المقدمة : وتتضمن الأمور التالية :

أولاً : تعريف الدعوة لغة واصطلاحاً .

ثانياً : تعريف الدعاة .

ثالثاً : فضل الدعوة .

رابعاً : حاجة الأمة اليوم للدعوة .

الفصل الأول : قصص الدعاة من غير الأنبياء في القرآن ، وفيه اثنا عشر مبحثاً كما يلي :

المبحث الأول : أصحاب الكهف ، وفيه مطلبان :

المطلب الأول : تفسير الآيات الواردة في شأن أصحاب الكهف .

المطلب الثاني : اللطائف الدعوية المستنبطة من الآيات .

المبحث الثاني : الرجل الذي حاور صاحب الجنتين في سورة الكهف، وفيه مطلبان :

المطلب الأول : تفسير الآيات الواردة في شأن الرجل الذي حاور صاحب الجنتين .

المطلب الثاني : اللطائف الدعوية المستنبطة من الآيات .

المبحث الثالث : ذو القرنين ، وفيه مطلبان :

المطلب الأول : تفسير الآيات الواردة في شأن ذي القرنين .

المطلب الثاني : اللطائف الدعوية المستنبطة من الآيات .

المبحث الرابع : مريم ، وفيه مطلبان :

المطلب الأول : تفسير الآيات الواردة في شأن مريم .

المطلب الثاني : اللطائف الدعوية المستنبطة من الآيات .

المبحث الخامس : أهل العلم من قوم قارون ، وفيه مطلبان :

المطلب الأول : تفسير الآيات الواردة في شأن أهل العلم من قوم قارون .

المطلب الثاني : اللطائف الدعوية المستنبطة من الآيات .

المبحث السادس : لقمان ، وفيه مطلبان :

المطلب الأول : تفسير الآيات الواردة في شأن لقمان .

(١) قد يحدث تكرار في بعض المواضع ، وسيعالج من خلال : التقليل منه إلا لضرورة ، وكذلك الإحالة .

المطلب الثاني : منهج الدعاة في تبليغ الدعوة من خلال الآيات .

المطلب الثالث : منهج الدعاة في تعاملهم مع غيرهم ، وفيه مقصدان :

المقصد الأول : منهج الدعاة في تعاملهم فيما بينهم في ضوء الآيات .

المقصد الثاني: منهج الدعاة في تعاملهم مع الصادين عن دعو م على ضوء الآيات .

الفصل الثالث : الضوابط الدعوية المستنبطة من قصص الدعاة من غير الأنبياء في القرآن ،وفيه مبحثان :

المبحث الأول : تعريف الضوابط الدعوية .

المبحث الثاني : بيان الضوابط الدعوية من خلال الآيات .

الخاتمة : وفيها أبرز النتائج التي تم التوصل إليها ، والتوصيات المقترحة .

الفهارس العلمية : وضعت في نهاية البحث فهارس لما يلي :

الآيات ، والأحاديث ، والأعلام ، والأماكن ، والفرق ، واللطائف الدعوية ، والضوابط الدعوية ، والمصادر ، والموضوعات .

وبعد :

فهذا جهدي الضعيف ، بذلت فيه وسعي ، وطاقتي في البحث في كتاب الله ، وتحليل آيات الدعاة فيه ، واستنباط دررها ، ومكنوزها ، وجمع بعض الضوابط الدعوية التي اعتمدت في استنباطها على أقوال ، وأفعال أولئك الدعاة .

وإني أحمد الله تعالى على ما شرفني به من الانتساب للعلم الشرعي ، كما أحمده على ما شرفني به من العمل الدعوي ، وأنعامه علي لا تعد ولا تحصى ، فأحمده حمدا طيبا مباركا فيه ، كما يحب ربنا ويرضى .

وأتقدم بالشكر الجزيل ، والثناء العاطر ، والتقدير المبجل لوالدي – مد الله في عمرهما على الطاعة – ويكفيني منهما ما يخصاني به من دعاء بالتوفيق والسداد ، وإني لن أنسى أبدا تلك اللحظات الإيمانية التي أدخل فيها على والدي حفظه الله ، وهو رافع يديه لربه ، يستجديه ، فاستغل تلك الفرصة لأقول على مسمع منه " لا تنسني من دعائك " ، فأنطلق أكمل بحثي وأنا أحس بتأييد الله لي ، وهذا من حسن ظني باستجابة ربي .

كما أشكر شيخي ، الأستاذ الدكتور شافع الحريري ، المشرف على الرسالة ،

والذي رفع همتي بكلمة قالها لي في أول لقاء بيني وبينه ، حيث قال : " احرص على الجِدة " ويعلم الله أني كلما فترت عزيمتي رنت في أذني تلك الكلمة ، فأغوص في معاني الآيات ؛بحثا عن الجديد ، واستجابة لطلب شيخي ، كما أشكر له ما اقتطعه من وقت ؛وخصني به ، وتسهيله علي عناء السفر .

كذلك لا يفوتني أن أشكر وزارة الشؤون الإسلامية ، والأوقاف والدعوة والإرشاد ،والتي أتشرف بالعمل في قطاعها ، وأخص بذلك معالي الوزير فضيلة شيخنا صالح بن عبد العزيز آل الشيخ ، والذي وافق على إكمالي الدراسة ، وفضيلة الدكتور توفيق السديري وكيل الوزارة لشؤون المساجد والدعوة والإرشاد والذي له تشجيع خاص لمن يتولى البحث والكتابة من الدعاة في وزارة الشؤون الإسلامية ، وكذلك فضيلة شيخنا عبد الله بن سليمان اللحيدان ، المدير العام لفرع الوزارة بالمنطقة الشرقية والذي كان يتابعني ، ويطمئن على دراستي ويقترح لي بعض العناوين للكتابة فيها .

وأشكر بعد ذلك مشايخي الذين كانوا يخصونني بمتابعة،وسؤال،وتقديم مساعدة، ولا أرغب في ذكر أسمائهم ؛خوفاً من نسيان بعضها،إلا أني أعمهم بدعوات في ظهر الغيب.

وأشكر كذلك إخواني في الله من الدعاة ، والشباب الذين رفعوا همتي في إكمال الدراسة ، وتسهيل عناء السفر ، وترتيب تجهيزات الرحلات ، ومساعد م بالدلالة على الكتب التي تخدمني في موضوعي .

كما أشكر زوجتي وأولادي الذين ساعدوني على الدراسة ، وقد كان التفرغ للبحث ، والسهر في المكتبة إلى الصباح ، والسفر الأيام والليالي ؛ كل ذلك على حساب راحتهم ، والجلوس معهم .

وأخيرا :

أسأل الله أن يجعل ما كتبته في هذا البحث من العلم النافع ، ومما يدل على العمل الصالح الذي أجده في ميزان حسناتي يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد ، وعلى آله ، وأصحابه ، وأتباعه .

مدخل إلى البحث :

وفيه :

١. تعريف الدعوة .

٢. تعريف الدعاة .

٣. فضل الدعوة إلى الله .

٤. حاجة الأمة اليوم للدعوة إلى الله .

مدخل إلى البحث :

١. تعريف الدعوة :

لا بد من بيان معنى الدعوة في اللغة والاصطلاح ، وهي كما يلي :

تعريف الدعوة في اللغة :

مصدر دعا ، وهي : أن تميل الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك [١]، ودعوت فلانا أي : ناديته ، وطلبت إقباله [٢] .

فمفهوم الدعوة في اللغة تعني : إمالة شيء ما إليك بحق أو باطل [٣] .

تعريف الدعوة في الاصطلاح :

عرفت الدعوة في الاصطلاح بتعريفات كثيرة متنوعة ، منها :

١ ـ قيل:هي:" قيام من عنده أهلية النصح،والتوجيه السديد، في كل زمان ومكان ؛ بترغيب الناس في الإسلام اعتقادا ، ومنهجا ، وتحذيرهم من غيره بطرق مخصوصة "[٤] .

وهذا التعريف اعتنى بجانب الداعية فشرط له الأهلية ، وحدد دوره ، والجدير في الذكر أنه التفت إلى التحذير من غير دين الإسلام ، ليدخل الرد على الأديان الباطلة ، والفرق البدعية في الدعوة .

إلا أنه يلاحظ على هذا التعريف قصر الدعوة على تبليغ الدين ، والتحذير من غيره ، وهذا وإن كان هو المعنى الذي يتوجه إليه الفهم عند إطلاق لفظ الدعوة ؛ إلا أن البلاغ جزء من الدعوة وليس هو كل مفهومها .

٢ ـ وقيل:" قيام الداعية المؤهل بإيصال دين الإسلام إلى الناس كافّة ، وفق الأسس ، والمنهج الصحيح،وبما يتناسب مع أصناف المدعوين ، ويلائم أحوال وظروف

---

(١) ينظر : معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس ، تحقيق عبد السلام هارون ، مادة (دعو) :٢٧٩/٢، ،{ط٢، دار الجيل ، بيروت : ١٤٢٠هـ } .

(٢) ينظر : المصباح المنير ، أحمد محمد الفيومي ،مادة (دع ا):ص١٩٤،{ المكتبة العلمية ،بيروت، بدون } .

(٣) ينظر: منهج الدعوة إلى الله على ضوء وصية النبي ﷺ لمبعوثه إلى اليمن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، الدكتور عبد الرحيم بن محمد المغذوي :ص٩٥،{ط١، دار إشبيليا ،الرياض: ١٤٢٠هـ } .

(٤) الدعوة إلى الله ، خصائصها،مقوما ا ، مناهجها ، أبو ا د نوفل ، { بدون } .

المخاطبين"[1].

وهذا التعريف وسع دور الدعاة إلى الله ، واشترط للدعوة أن تكون على المنهج الصحيح ، وهذه لفتة طيبة ؛لتكون الدعوة على منهج أهل السنة والجماعة ، كما أن من حسنات التعريف عنايته باختلاف الظروف ، وتنوع حال المدعوين .

ولكن يلاحظ على التعريف قصره لدور الدعاة على التبليغ لدين الله فقط ، وهذا وإن كان هو الأهم في دور الدعاة إلا أنه جزء من دورهم .

٣ ـ وقيل:" قيام العلماء والمستنيرين في الدين بتعليم الجمهور من العامة ما يبصرهم بأمور دينهم ودنياهم ، على قدر الطاقة "[2] .

وهذا التعريف جعل تعليم أمور الدنيا من الدعوة إلى الله،وهي لفتة جميلة توسع دور الدعاة في مجتمعا م .

إلا أن الملاحظ في التعريف أنه قصر دور الدعاة على مجتمعا م فقط،فكأن المتبادر للفهم من التعريف أنه يخص ا تمعات المسلمة،ودعو م بتعليم أمور دينهم ودنياهم، بينما دور الدعاة في الحقيقة يتعدى لدعوة غير المسلمين،وتعريفهم بدين الله .

٤ ـ وقيل:" صرف أنظار الناس وعقولهم إلى عقيدة تفيدهم ، أو مصلحة تنفعهم ، وهي أيضا ندبة لإنقاذ الناس من ضلالة كادوا يقعون فيها،أو من معصية كادت تحدق م "[3].

وهذا التعريف أوسع من التعريف السابق ، إلا أن قصره الدعوة على الدعوة للعقيدة يعتبر قصورا في التعريف ، فالعقيدة وإن كانت أهم أمور الدين ، وأول ما يدعى إليها ، إلا أن الدعوة ينبغي أن تشمل جميع أمور الدين ، حسب الحاجة .

٥ ـ وقيل:" نداء الناس إلى الله تعالى ؛إيماناً به ،وتصديقاً ،وإلى دين الإسلام إجابة وتحقيقا "[4] .

---

(١) منهج الدعوة إلى الله ، ص٩٧ .

(٢) ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، د. مصلح سيد بيومي :ص١٢،{ط٢،المكتبة التوفيقية ،القاهرة: ١٣٩٩هـ } .

(٣) تاريخ الدعوة بين الإمس واليوم ، آدم عبد الله الألوري ص١٧،{ط٢، مكتبة وهبة ،القاهرة: ١٣٩٩هـ }.

(٤) مبادئ علم أصول الدعوة ، محمد يسري إبراهيم حسين :ص١٤،{ط١،دار طيبة ،الرياض: ١٤٢١هـ }.

وهذا التعريف وإن كان مختصراً ، وفيه بيان للهدف من الدعوة ، وهو إرجاع الناس لر م ، ولكن من الملاحظ عليه أنه قصر دور الدعاة على النداء ، بينما دورهم يتعدى ذلك .

٦ ـ وقيل :" قيام من له أهلية بدعوة الناس جميعا في كل زمان ومكان لاقتفاء أثر الرسول ﷺ والتأسي به قولا ، وعملا ، وسلوكا "(١) .

وهذا التعريف وسع دور الدعاة ، في الزمان والمكان ، والجميل فيه أن لفت الانتباه إلى التأسي بالرسول ﷺ ، كما أن من حسنات التعريف أنه جعل التأسي بالنبي ﷺ يشمل التأسي به في باب السلوك .

والملاحظ على التعريف كما سبق بيانه على غيره من التعريفات أنه قصر دور الدعاة على تبليغ الدين ، بينما دورهم يشمل جميع جوانب الحياة .

٧ ـ وقيل:" البيان والتبليغ لهذا الدين أصولا ، وأركانا وتكاليفا ، والحث عليه ، والترغيب فيه "(٢) .

وهذا التعريف اهتم بذكر أصول الدين ، والأركان ، وهذا من حسناته ، إلا أن المتأمل فيه يجد أنه لم يشمل جوانب عدة من جوانب الدعوة مع أهميتها .

٨ ـ وقيل:" نقل الأمة من محيط إلى محيط "(٣) .

وهذا التعريف على سعته ، إلا أنه إلى بيان مهمة الدعاة أقرب منه إلى تعريف الدعوة .

٩ ـ وقيل: " حركة إحياء للنظام الإلهي ، الذي أنزله الله عز وجل ، على نبيه الخاتم ﷺ "(٤) .

وهذا التعريف تعرض لجانب مهم أُغفل عند غيره من التعاريف ، وهو أن الدعوة

---

(١) الدعوة إلى الله في سورة إبراهيم الخليل ، محمد بن سيدي بن الحبيب :ص٢٧،{ط١،دار الوفاء ،جدة: ١٤٠٦هـ }.

(٢) فصول في الدعوة الإسلامية ،حسن عبد الظاهر :ص٢٦،{ط١،دار الثقافة ،قطر: ١٤٠٦هـ } .

(٣) تذكرة الدعاة ، البهي الخولي :ص٣٥،{ط٦، مكتبة الفلاح،الكويت: ١٣٩٩هـ } .

(٤) الدعوة الإسلامية في عهدها المكي ، مناهجها ، وغايا ا ، رؤوف شلبي :ص٣٢،{ط٢،دار القلم،الكويت: ١٤٠٢هـ } .

فيها إحياء للأمر المدعو إليه، فكأنه ميت،إلى أن أحيي عن طريق الدعوة ،وهو كذلك .

إلا أن التعريف اشتمل على لفظ النظام الإلهي ، وهي لفظة غير دقيقة في هذا ا ال .

١٠ ـ وقيل: " حث الناس على الخير والهدى ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ ليفوزوا بسعادة العاجل والآجل "[١] .

وهذا التعريف من ميزاته أنه وسع مجال الدعوة،كما أنه أدخل الأمر بالمعروف،والنهي عن المنكر من ضمن جوانب الدعوة ، وهي لفتة مهمة في مثل هذه الأزمان التي كثرت فيها الفتن.

إلا أنه يلاحظ أنه قصر الدعوة على جانب الحث ، وهو جزء من الدعوة ، وليس كل مفهومها .

١١ ـ وقيل: " تبليغ الإسلام للناس،وتعليمه إياهم ، وتطبيقه في حيا م "[٢].

وهو تعريف حسن اعتنى بذكر تطبيق الإسلام واقعا عمليا ، وجعل التطبيق من مجالات الدعوة ، وهو كذلك .

إلا أنه يلاحظ عليه كما سبق في غيره من التعاريف أنه قصر الدعوة على جانب التبليغ ، وهو جزء من الدعوة ، وليس كل مفهومها .

١٢ ـ وقيل:" برنامج كامل يضم في أطوائه[٣] جميع المعارف التي يحتاج إليها الناس ؛ لِيبصروا الغاية من محياهم ، وليستكشفوا معالم الطريق التي تجعلهم راشدين "[٤] .

وهو من أدق التعاريف من وجهة نظري ، إلا أن كلمة " برنامج " لا تستعمل عادة في التعاريف .

وقيل غير ذلك من التعاريف،وأحب أن أنبه في اية هذه التعاريف إلى أمور هي:

---

(١) الدعوة إلى الإصلاح ، محمد الخضر حسين :ص١٧،{المطبعة السلفية ،القاهرة: ١٣٤٦هـ } .

(٢) المدخل إلى علم الدعوة ، دراسة منهجية شاملة لتاريخ الدعوة ، وأصولها ، ومناهجها ، وأساليبها ، ووسائلها ، ومشكلا ا في ضوء النقل والعقل ، محمد أبو الفتح البيانوني :ص١٧،{ط٣،مؤسسة الرسالة ،بيروت: ١٤١٥هـ } .

(٣) الطي : ضمن الشيء ، أو داخله . انظر : المعجم الوسيط ، إبراهيم مصطفى وآخرون ، تحقيق مجمع اللغة العربية ،مادة (طوى):٥٧٣/٢،{دار الدعوة ، بدون } .

(٤) مع الله ،دراسات في الدعوة والدعاة،محمد الغزالي: ص١٧،{ط١، دار القلم ،بيروت: ١٤٠٩هـ } .

١ ـ أنه لا يوجد – حسب علمي – تعريف اصطلاحي للدعوة عند السلف الصالح ، بالمعنى الاصطلاحي المعروف في هذا الزمن[١] ، وأكثر ما يذكر عندهم في هذا الباب يكون في بيان أبواب الدعوة ، أو ما يدعى إليه ، ومن ذلك :

أ ـ قول ابن تيمية [٢]رحمه الله ، حيث قال عن الدعوة : " الدعوة إلى الله ، هي : الدعوة إلى الإيمان به ، وبما جاءت به رسله ، بتصديقهم فيما أخبروا به ، وطاعتهم فيما أمروا ، وذلك يتضمن الدعوة إلى الشهادتين ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت ، والدعوة إلى الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والبعث بعد الموت ، والإيمان بالقدر خيره وشره ، والدعوة إلى أن يعبد العبد ربه كأنه يراه "[٣] .

ب ـ قول ابن كثير[٤] رحمه الله : " الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يدعو إلى الله ا على بصيرة من ذلك ، ويقين ، وبرهان "[٥] .

وإنما ورد الاختلاف في زماننا هذا حينما أصبح للدعوة كليات جامعية ، ومناهج تدرس .

٢ ـ سبب اختلاف أهل العلم في التعريف يرجع إلى اتساع مجال الدعوة ، وتنوع

---

(١) انظر : قواعد وضوابط فقه الدعوة عند شيخ الإسلام ابن تيمية دراسة فقهية ، عابد الثبيتي ، تقديم الدكتور عابد السفياني ، والدكتور أحمد بن حميد:ص٩٥،{ط١، دار ابن الجوزي ،الدمام: ١٤٢٨هـ } .

(٢) شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني الحنبلي ، ا تهد المطلق ، ولد بحران ، عنى بالحديث ، وما لا يحصى من الكتب ، برز في جميع العلوم ، ونظر في الكلام ، والفلسفة ، وأفتى من قبل العشرين أيضا ، وأمده الله بكثرة الكتب ، وسرعة الحفظ ، وقوة الإدراك ، والفهم ، وأوذى في ذات الله من المخالفين ، وتوفي سنة ثمان وعشرين وسبعمائة . انظر : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي ، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط ، محمود الأرناؤوط :٨٠/٦،{ ط١، دار بن كثير ،دمشق:١٤٠٦هـ } .

(٣) الفتاوى ١٥٧/١٥-١٥٨ .

(٤) عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي الشافعي ، الإمام ، الفقيه ، المفسر ، المحدث ، كان كثير الاستحضار ، قليل النسيان ، جيد الفهم ، توفي سنة أربع وسبعين وسبعمائة للهجرة . انظر : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٢٣٠/٦ ، والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، العلامة محمد بن علي الشوكاني :١٥٣/١،{ دار المعرفة ، بيروت :بدون } .

(٥) تفسير تفسير القرآن العظيم ، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير ،تحقيق : مصطفى السيد محمد ،وآخرون ٩٠/٨-٩١،{ط١، دار عالم الكتب،السعودية:بدون } .

موضوعا ا ، وتداخلها .

٣ ـ كثير من التعريفات سابقة الذكر هي من باب اختلاف التنوع ، فكل واحد من هؤلاء العلماء نظر إلى جانب مشرق من جوانب الدعوة ، فعرفها بناء على ذلك .

ومن أفضل التعاريف من وجهة نظري ، أن الدعوة هي :

" عملية شاملة لتطبيق شرع الله في حياة الناس ، على المستويات كافة ، وفي جميع ا الات ، وفق المناهج ، والأساليب المشروعة "[(١)] مع الأخذ بالاعتبار أن تطبيق شرع الله كلٌ فيما يخصه .

٢. تعريف الدعاة :

جمع داعية ، وهو الذي يقوم بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، فإن " الدعاة قوم يدعون إلى بيعة هدى ، واحدهم داع ، ورجل داعية إذا كان يدعو الناس إلى بدعة ، أو دين ، أدخلت الهاء فيه للمبالغة "[(٢)] .

٣. فضل الدعوة إلى الله :

الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى من أجل الأعمال الإيمانية ، ويرتبط فضلها بتعلقها بالدلالة إلى الله جل جلاله ، فلها فضائل يصعب حصرها ، ومنها على سبيل المثال ما يلي :

١ ـ أ ا دلالة للخلق إلى ر م سبحانه وتعالى ، فالداعية يهدي الناس إلى الله ، ويرد منحرفهم إليه ، ويثبت سائرهم في طريقه ، ويحفز مقصرهم .

٢ ـ أ ا وظيفة الرسل جميعا عليهم السلام ، ومن ذلك :

نوح عليه السلام ، قال الله عنه: ﴿ ولَقَد أرسَلْنا نوحاً إلَى قَومِهِ فَلَبِثَ فِيهم أَلْف سنةٍ إلا خمسِين عاماً فَأَخذَهم الطوفَانُ وهم ظَالِمونَ ﴾[(٣)] .

وإبراهيم عليه السلام ، قال الله عنه: ﴿ وإبراهِيم إِذْ قَالَ لِقَومِهِ اعبدوا الله واتقُوه ذَلِكُم

(١) العلاقة بين الفقه والدعوة ، مفيد بن خالد بن عيد ،{ط١،دار ابن حزم ،بيروت: ١٤١٦هـ } .

(٢) ينظر : لسان العرب ، محمد بن منظور ، مادة (دعا) :٢٥٩/١٤،{ط١، دار صادر،بيروت،بدون } .

(٣) العنكبوت : ١٤ .

خير لَكُم إِنْ كُنتم تعلَمونَ ﴾(1) .

وهود عليه السلام ، قال الله عنه : ﴿ وإِلَى عادٍ أخاهم هوداً قَالَ يا قَومِ اعبدوا الله ما لَكُم مِن إِلَهٍ غَيره أَفَلا تتقُونَ ﴾ (2)

وموسى عليه السلام ، قال الله عنه: ﴿ ولَقَد أرسلْنا موسى بِآياتِنا وسلْطَانٍ مبِينٍ ❁ إِلَى فِرعونَ وهامانَ وقَارونَ فَقَالُوا ساحِر كَذاب ﴾ (3) .

وعيسى عليه السلام ، قال الله عنه :﴿ وإِذْ قَالَ عِيسى ابن مريم يا بنِي إِسرائيلَ إِني رسولُ اللهِ إِلَيكُم مصدقاً لِما بين يدي مِن التوراةِ ومبشراً بِرسولٍ يأْتي مِن بعدِي اسمه أحمد فَلَما جاءَهم بِالْبيناتِ قَالُوا هذَا سِحر مبِين ﴾(4) .

وأخيرا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ،قال الله عنه :﴿ ادع إِلَى سبِيلِ ربك بِالْحِكْمةِ والْموعِظَةِ الْحسنةِ وجادِلْهم بِالَّتِي هِي أحسن إِن ربك هو أَعلَم بِمن ضل عن سبِيلِهِ وهو أعلَم بِالْمهتدِين ﴾(5) .

والدعاة إلى الله أولى الناس بالرسل،سائرون على طريقتهم،ومتبعون لسنتهم.

٣ ـ " الدعاة هم المفلحون في الدنيا والآخرة ، لقوله تعالى: ﴿ ولْتكُن مِنكُم أُمةٌ يدعونَ إِلَى الْخيرِ ويأمرونَ بِالْمعروفِ وينهونَ عنِ الْمنكَرِ وأُولَئِك هم الْمفْلِحونَ ﴾(6).

فالفلاح مختص بمن قام بواجب الدعوة إلى الله ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر"(7) .

والفلاح الذي رتبه الله في الآية فلاح عام ، يشمل الدنيا والآخرة ، فيأتيه من معونة الله ، ومساندته ، وتأييده ، ونصرته ما يكون له فلاح في دنياه ، وفي الآخرة الجنة .

٤ ـ " الدعاة أحسن الناس حديثا(8)؛لقوله تعالى : ﴿ ومن أَحسن قَولاً مِمن دعا

---

(1) العنكبوت :١٦ .

(2) الأعراف : ٦٥ .

(3) غافر : ٢٣-٢٤ .

(4) الصف : ٦ .

(5) النحل : ١٢٥ .

(6) آل عمران : ١٠٤ .

(7) الدعوة ص٤٨ .

(8) الدعوة ص٤٨ .

﴿إلى اللهِ وعمِلَ صالِحاً وقالَ إنني مِن الْمسلِمين﴾[1] .
فإن كلام الدعاة دلالة على الله ، وهذا أحسن الحديث ، لا يخوضون في باطل ، ولا يلهون في غفلة ، وقد جمعوا مع القول الحسن العمل الصالح فاجتمعت لهم الحسنيان .

٥ ـ الداعية له مثل أجور من تبعه لقول النبيﷺ :" من دل على خير فله مثل أجر فاعله "[2] .

وهذا من أشد ما يرفع همة المسلم للدعوة إلى الله ،فإن المؤمن لا يعتمد على أعماله ، ويركن إليها ، كما أنه لا يريد انقطاع أجره بعد موته ، ففتح الله له باب الدلالة على الخير .

٦ ـ الدعوة إلى الله سبيل النجاة في الدنيا والآخرة[3].

٧ ـ الداعية يمارس العبودية لله سبحانه وتعالى أثناء دعوته ، فقد قال الله : ﴿ وما خلَقْت الْجِن والْإنس إلا ليعبدون ﴾[4] .

والعبادة بمعناها العام تدخل فيها الدعوة إلى الله دخولا أوليا ، فكل ما يفعله الداعية لدعوته ، حتى الهم يصيبه يدخل في عبوديته لله .

٨ ـ الدعوة تحصن المسلم من الفتن بنوعيها،الشبهات،والشهوات،أما الشهوات فلأن دعوته تمنعه من ارتكاب المنهيات ،والإصرار عليها إن زلت به القدم .

وأما الشبهات فلأنه منهمك في إعداد دعوته ، وترتيبها ، والعناية بنجاحها ، فالدعاة أبعد الناس عن تتبع الشواذ من المسائل ، والأقوال الغريبة ، والتي هي بوابة الدخول في الفتن .

٩ ـ الدعوة ترقي الداعية في منازل الإيمان ، فيتجدد له نية صالحة ، وعمل نافع ، ودعاء من قلب خاشع ، والإيمان يزيد بالأعمال .

---

(١) فصلت : ٣٣ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ،مسلم بن الحجاج القشيري ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ،{دار إحياء التراث العربي،بيروت:بدون} ،كتاب الإمارة ، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب أو غيره ، برقم (١٨٩٣) ١٥٠٦/٣.

(٣) قواعد الدعوة إلى الله ، الدكتور همام سعيد ص١١،{ط١،دار الفرقان ،الأردن: ١٤٢٥هـ } .

(٤) الذاريات : ٥٦ .

١٠ ـ الدعوة حماية للأمة من الأمراض التي تصيبها ، كالفتور ، واتباع سبيل الكافرين ، وضعف الإيمان ،فالداعية يوجه دعوته على مظاهر الخلل في مجتمعه ، ويبتكر لها الوسائل الشرعية لمعالجتها .

١١ ـ الدعوة تربي في المسلم تحمل المسؤولية ، فإن حمل هم دين الله ، وتبليغه ، يزيد من كفاءة الشخص،وتكميل شخصيته المناسبة لمهمته العظيمة .

وفضائل الدعوة قدمت فيها دراسات ورسائل كثيرة[1] .

حاجة الأمة اليوم للدعوة إلى الله :

لم تتوقف حاجة الأمة عن الدعوة إلى الله ، فمنذ بعثة النبي ﷺ وقيامه بالدعوة سرا ، ثم جهره ا حين رقى النبي ﷺ الصفا ، فهتف يا صباحاه ، فقالوا: من هذا الذي يهتف ؟ قالوا : محمد ، فاجتمعوا إليه ، فقال : يا بني فلان ، يا بني فلان ، يا بني فلان ، يا بني عبد مناف،يا بني عبد المطلب ، فاجتمعوا إليه ، فقال:أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا : ما جربنا عليك كذباً ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد "[2].

وإلى اليوم والحاجة للدعوة إلى الله قائمة ، وستبقى إلى ما شاء الله ، وتزداد الحاجة للدعوة ضرورة كلما بعد العهد عن الزمن النبوي ؛ لتكاثر الجهل ، وازدياد الفتن .

وسأبين الحاجة الملحة للقيام بواجب الدعوة في العصر الحديث ، من خلال ما يلي :

١ ـ " في أعقاب إلغاء الخلافة الإسلامية على أيدي العملاء المتآمرين تغير كل شيء في العالم الإسلامي ، حيث فصل الدين عن الدولة في أكثر البلاد الإسلامية ، وتغلغلت

---

(١) انظر : فضل الدعوة إلى الله في ضوء الكتاب والسنة ، العلامة محمد زكريا الكاندهلوي ، اعتنى به سيد عبد الماجد الغوري ،{ط١،دار وحي القلم ،بيروت: ١٤٢٥هـ } . والدعوة الإسلامية مفهومها وحاجة ا تمعات إليها ، محمد خير يوسف ،{ط٢،دار طويق ،الرياض: ١٤١٤هـ } .

(٢) متفق عليه ، أخرجه البخاري في الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله وسننه وأيامه،محمد بن إسماعيل البخاري ، تحقيق مصطفى البغا ،{ط٣، دار اليمامة ،بيروت: ١٤٠٧هـ } كتاب التفسير ، باب تفسير قول الله تبت يدا أبي لهب وتب ، برقم (٤٦٨٧) ١٩٠٢/٤، وأخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب وأنذر عشيرتك الأقربين ، برقم (٢٠٨)١٩٣/١ .

المخططات التخريبية التي تديرها اليهودية إلى بلاد الإسلام "[١] .

فتعينت الحاجة الملحة لقيام الأفراد ، والجماعات بواجب الدعوة إلى الله ، وهداية الخلق إليه ، ورفع ما نزل بالأمة .

٢ـ التمزق الذي عصف بأرض الأمة،وهو نتيجة لضياع الخلافة الإسلامية،وتبعه تعصب بين أفراد الأمة ،وتخلى بعضهم عن بعض،حتى وصل الأمر أحيانا إلى أن يكون بعضهم ضررا على البعض الآخر؛وهذا ما يحتم على الدعاة تبليغ دين الله،وتأليف المسلمين على قلب واحد.

٣ـ تأسست في كثير من بلاد الإسلام منظمات مشبوهة،تعمل على هدم الإسلام، مستغلة تبعية المسلمين للغرب،والضعف الاقتصادي عند المسلمين ، وغير ذلك من مظاهر الضعف.

٤ـ " هيمنة الحضارة المعاصرة ، ذات البعد الغربي المادي ، فكريا ، وثقافيا ، وسلوكيا ، وقد أدى ذلك إلى قيام محاولات عديدة للسعي إلى تسويق قيم الحضارة المعاصرة من خلال ترويج فكرة العالمية "[٢] .

٥ـ استهداف العالم الإسلامي من قبل الغرب الكافر ، ويشمل الاستهداف جميع مجالات الحياة ، الاقتصادي منها بسلب خيراته ، والاستيلاء على أرضه ، وا ال الثقافي ، والفكري ، ويرتبط ذلك وغيره با ال العقدي ، مما يجعل الدعاة أمام أمر لا مفر منه ، وهو قيامهم مثنى وفرادى بواجب الدعوة إلى الله .

٦ـ اتباع هذه الأمة سبيل اليهود والنصارى ، ومن ذلك ظاهرة الغلو " فإن الغلو في النصارى كثير ، فإ م غلو في عيسى عليه السلام ، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلها من دون الله يعبدونه كما يعبدون الله،ومن ذلك غلوهم بابتداع رهبانية تعبدوا الله ا "[٣] ، وتخصيص هذه الظاهرة نظرا لشدة أثرها السيئ على الأمة ، فمن خلالها عظمت

---

(١) سلسلة مدرسة الدعاة فصول هادفة في فقه الدعوة والداعية ، عبد الله بن ناصح العلوان :٨٤/١،{ط٢،دار السلام ،مصر: ١٤٢٤هـ } .

(٢) العدوان على المرأة في المؤتمرات الدولية ، الدكتور فؤاد بن عبد الكريم العبد الكريم :ص٦ ،{سلسلة تصدر عن مجلة البيان : ١٤٢٦هـ } .

(٣) الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة ، دراسة علمية حول مظاهر الغلو ومفاهيم التطرف الأصولية ، عبد

القبور ، ودخل الشرك ، وولج الإرجاء للأمة .

٧ ـ كثرة الزوابع[1] التي تقف في وجه السنة [2] ، من الفرق العقدية ، أو المذاهب الفكرية المعاصرة ، حيث جعلت من أولويا ا محاربة السنة النبوية ، والتلبيس عليها ، والجري وراء بدعة رد خبر الآحاد في الاعتقاد ، وتحكيم العقل على السنة .

٨ ـ ظاهرة الجهل التي ضربت بأطنا ا في أركان الأمة ، حتى وصل الأمر ا إلى الجهل بما يعرف من الدين بالضرورة ! .

٩ ـ " استخدام الطوائف غير الإسلامية ، وإحياؤها ، ففي بلاد الشام تعهدت فرنسا بدعم النصارى ، وسلمتهم الوظائف العليا ، ونظمت فلولهم في جمعيات ومؤسسات عسكرية،ومدنية،أما الطوائف الباطنية فقد استطاعت بواسطة المستشرقين أن تبعث عقائدها ، وتنشر كتبها ، وسمى الفرنسيون النصيرية " علويين " اصطنعوهم عملاء لهم ، وحرضوهم على الالتحاق بالجيش حتى احتلوا قياداته العليا "[3] .

فلهذه الأسباب وغيرها أصبحت الحاجة ملحة لقيام أفراد الأمة الإسلامية بواجب الدعوة إلى الله ، ولم تمر الأمة بوقت تزداد الحاجة فيه للدعوة مثل العصر الحديث .

١٠ ـ الانحرافات في العبادة والسلوك ، وانتشار الذنوب وضعف الإيمان ، والتهاون بحرمات الله ، وهجران السنة ، حتى أصبح المستمسك بدينه يعيش غريبا بين بني جنسه .

الرحمن اللويحق : ص٦٦،{ط٣،مؤسسة الرسالة ،بيروت: ١٤١٦هـ } .

(١) جمع زوبعة وهي : الإعصار ، ويقال أم زوبعة ، وهي ريح تثير الغبار ؛ فيرتفع إلى السماء كأنه عمود . انظر : مختار الصحاح ، محمد بن أبي بكر الرازي ، تحقيق محمود خاطر ،مادة (ز ب ع):١١٣،{مكتبة لبنان ،بيروت: ١٤١٥هـ} .

(٢) انظر : زوابع في وجه السنة قديما وحديثا ، صلاح الدين مقبول أحمد ،{ط٢،دار عالم الكتب ،بيروت: بدون} .

(٣) العلمانية ، نشأ ا وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة ، الدكتور سفر بن عبد الرحمن الحوالي :ص٥٤١،{ط١، مطابع جامعة أم القرى : ١٤٠٢هـ } .

الفصل الأول

قصص الدعاة من غير الأنبياء في القرآن

وفيه اثنا عشر مبحثا :

تمهيد .

المبحث الأول : أصحاب الكهف .

المبحث الثاني :الرجل الذي حاور صاحب الجنتين في سورة الكهف .

المبحث الثالث : ذو القرنين .

المبحث الرابع : مريم .

المبحث الخامس : أهل العلم من قوم قارون .

المبحث السادس : لقمان .

المبحث السابع : مؤمن آل يس .

المبحث الثامن :الرجل الذي خاطب قرينه في سورة الصافات .

المبحث التاسع : مؤمن آل فرعون .

المبحث العاشر : نذر الجن .

المبحث الحادي عشر :آسية امرأة فرعون.

المبحث الثاني عشر :الأخ الأوسط في قصة أصحاب الجنة في سورة القلم .

الفصل الأول

قصص الدعاة من غير الأنبياء في القرآن

تمهيد :

سأتناول في هذا الفصل إن شاء الله قصص الدعاة من غير الأنبياء في القرآن ، وذلك بعد استقرائي لهم في القرآن ، حيث إن هناك من الدعاة من استبعدته لحصول خلاف قوي بين أهل العلم في الحكم بنبو م ، كالخضر ﷺ وهناك من لا يدخل تحت مسمى الداعية بداهة كهدهد سليمان ﷺ ، والنملة ، كما استبعدت مجموعة لا أرى أ م يدخلون في حدود بحثي أيضا ؛ لأسباب بينتها في المقدمة[(1)] .

وتناولي لهذه القصص بتفسير الآيات الواردة في شأ م أولا ، ثم أستنبط ما يختص باللطائف الدعوية ، والتي لها تعلق بمجال الدعوة ، إما بذكرها وسيلة دعوية ، أو أسلوبا دعويا ، أو فقها يتعلق بالواقع الدعوي .

وهي قصص متفرقة ، مختلفة في دعا ا ، وصفا م الذاتية ، ومكانتهم الاجتماعية ، مما يعطينا الفرصة الأكبر لأخذ الدروس المتنوعة ، وتنوعهم يظهر فيما يلي :

فأصحاب الكهف: نموذج لتطبيق الاعتزال الناجح عن ا تمع في حالات معينة،بشروط خاصة .

والرجل الذي حاور صاحب الجنتين في **سورة الكهف:**نموذج لأسلوب الحوار في الدعوة إلى الله،وكيفيته ، وطريقة الاستدلال ، ومعرفة ما عند الآخر ، وحصر الحوار ، واختصاره وتركيزه ، وتقديم الأمور المشتركة بين الخصمين في حال الحوار.

وذو القرنيين : نموذج للداعية الذي مكّن الله له في الأسباب أكثر من غيره ، وكيفية استغلال ذلك الفضل الرباني في الدعوة إلى الله ونشر الخير ، ودفع الضر .

ومريم : - بالإضافة لكو ا صورة من صور الدعوة عند المرأة - ففي قصتها دروس من التوكل ، والتضحية جديرة بالاهتمام .

وأهل العلم من قوم قارون:نموذج للقيام بواجب النصيحة،وتقديم حلول عملية .

---

(١) ص٥ .

ولقمان : أنموذج للأب الواقعي ، وبيان لكيفية دعوة الأبناء .

ومؤمن آل يس: نموذج لداعية من عوام أمته،لا يتميز بشرف نسب،ولا مهنة،ولا منصب ، ولكنه برز في النصيحة لقومه .

والذي خاطب قرينه في **سورة الصافات:** نموذج للصاحب ،والجليس الصالح ودوره في الدعوة،وتأصيل للحل الأمثل في التعامل مع الأصدقاء،وبيان أثر الجليس على جليسه .

ومؤمن آل فرعون : نموذج لداعية من عِلْية[1] القوم ، تمتع بمقام ومكانة عالية ، فسخر مكانته للدعوة إلى الله ، وهو يعرف مصيره في ذلك ، فلئن تجرأ فرعون على ادعاء الألوهية ، وعلى حرب نبي من أنبياء الله ، فهو أشد تجرؤاً على قتل رجل يقف في وجهه ، ومع ذلك لم يثنه هذا عن دعوته ، ولم يكن المنصب حاجزا له عن القيام بدوره المنشود ولو ترتب على ذلك فقد المنصب ، بل فقد الروح ، فإن الدعوة في بعض الحالات "قد تكون فرض عين إذا كنت في مكان ليس فيه من يؤدي ذلك سواك "[2] .

وأما نذُر الجن : فنموذج للدعوة على وجه العموم .

وأما آسية امرأة فرعون : فنموذج للمرأة الداعية في محيط النساء ، وتسخير المرأة لم لتها وواقعها وموقعها للدعوة إلى الله .

والأخ الأوسط في **قصة أصحاب الجنة** في **سورة القلم:** مثال للدعوة والتناصح بين الإخوة، وبيان لتوبة التائبين،وأنموذج لرعاية حق ا تمع على الدعاة ، وقد رتبتهم حسب ترتيبهم في القرآن .

فإلى بيان هذه القصص ، واللطائف الدعوية منها ، سائلا الله الإعانة .

---

(١) أشراف القوم ، انظر : مختار الصحاح ، مادة (ع ل ي) ، ص١٩٠ .

(٢) الدعوة إلى الله سبحانه وأخلاق الدعاة ، لفضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز :ص١٤،{ مكتبة المعارف ،الرياض: ١٤٠٦هـ } .

المبحث الأول

أصحاب الكهف

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : تفسير الآيات الواردة في شأن أهل الكهف .

المطلب الثاني :اللطائف الدعوية المستنبطة من الآيات .

المطلب الأول

تفسير الآيات الواردة في شأن أهل الكهف

سورة الكهف مكية ، أي أ ا نزلت قبل الهجرة على الصحيح من أقوال العلماء في التفريق بين المكي ، والمدني[١] .

وقبل أن أبدأ بتفسير الآيات ؛ يحسن بي أن أذكر سبب نزولها ، فقد جاء في سبب نزولها أن " قريشا بعثت نفرا إلى أحبار يهود بالمدينة ، فقالوا لهم : سلوهم عن محمد ، وصِفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله ، فإ م أهل الكتاب الأول ، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجوا حتى قدموا المدينة ، فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفوا لهم أمره ، وبعض قوله وقالوا : إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا ، فقالت لهم أحبار يهود : سلوه عن ثلاث نأمركم ن ، فإن أخبركم ن فهو نبي مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقَول ، فتروا فيه رأيكم ، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ، ما كان من أمرهم ؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغار ا ، ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ما هي؟ فإن أخبركم بذلك فإنه نبي فاتبعوه ، وإن هو لم يخبركم فهو رجل متقَول ، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم "[٢] .

ومن خلال سبب ال ول أستطيع أن أقول بأ ا نزلت في السنوات الأولى من ظهور دعوة النبي ﷺ بدليل أن قريشا أرسلت إلى أهل الكتاب لسؤالهم عنه ، وهذا الأسلوب كان من قريش في بداية ظهور الدعوة حيث كانوا يحاولون " شيئا فشيئا إحباط الدعوة بعد ظهورها في بداية السنة الرابعة من النبوة ، ومضت على ذلك أسابيع وشهور ، وهم

---

(١) البرهان في علوم القرآن ، أبو عبد الله محمد بن ادر الزركشي ،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم :١٨٧/١،{ دار المعرفة ،بيروت: ١٣٩١هـ } .

(٢) لباب النقول في أسباب ال ول ، أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي :ص١٤٣،{ دار إحياء العلوم ، بيروت: بدون} .

مقتصرون على هذه الأساليب لا يتجاوزو ا إلى طريق الاضطهاد والتعذيب "[1].

وعلى هذا تكون نزلت في السنوات الأربع الأولى من بداية الإسلام .

وهذا فيه دليل واضح على تعنت اليهود ، ووجه التعنت أ م خصموا أنفسهم بإقرارهم بأنه إن أجاب فهو نبي ، ومع ذلك لم يتبعوه ، ولهذا والله أعلم تغير صدهم عن دعوة النبي ﷺ عندما هاجر للمدينة ، فلم يتعنتوا له بالأسئلة ، وإنما خصوا دعوته بالعرب ، فكشفت القصة تعنتهم في اتباع الحق .

والآن أشرع في تفسير الآيات مستعينا بالله سبحانه وتعالى :

قال تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾[2].

فقوله :﴿ أم حسِبت﴾ فإنه يقص على نبيه ﷺ قصة أصحاب الكهف ، "ويبدؤها بأم الملازمة لتقدير الاستفهام معها "[3] والتقدير :أحسبت يا محمد أن أصحاب الكهف كانوا عجبا من بين آياتنا ؟ .

و﴿ أم ﴾ يقدرها النحاة على أ ا للإضراب والانتقال على تقدير : بل أحسبت ؛لأن أم لا بد من سبقها باستفهام ، وتقدير الاستفهام بالهمزة دون " هل ، ومتى ، وكيف ؛ لأن الهمزة هي أم الباب ، والسؤال ا استفهام بسيط مطلق غير مقيد بوقت ، ولا حال ، والسؤال بغيرها استفهام مركب مقيد إما بوقت كمتى ، وإما بمكان كأين ، وإما بحال نحو كيف "[4]والواقع أ ا على با ا في الاستفهام " وليس هذا استفهام استعلام ؛ بل تقريع وتوبيخ ، وإنكار ، وليس بإخبار ، فهو إذا متضمن لاستفهام سابق ، مدلول عليه بقوة الكلام ، وسياقه ، ودلت أم عليه "[5] فيكون التقدير " أبلغك خبرهم أم حسبت أ م كانوا من آياتنا عجبا "[6] .

---

(١) الرحيق المختوم ، صفي الرحمن المباركفوري :ص١٢٨،{ط١، دار الكتاب والسنة ،باكستان:١٤١٧هـ }.
(٢) الكهف : ٩ .
(٣) التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور :٢٥٩/١٥،{ دار سحنون،تونس:بدون } .
(٤) بدائع الفوائد ، محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية ، تحقيق هشام عطا ، وآخرون :٢٠٩/١،{ط١،مكتبة نزار مصطفى الباز ،مكة: ١٤١٦هـ } .
(٥) بدائع الفوائد ٢١٣/١ .
(٦) بدائع الفوائد ٢١٣/١ .

و﴿الْكَهفِ﴾ هو الغار في الجبل ، وهذا يدل على أن المنطقة التي كانت تحيط بمدينتهم كانت جبلية ؛ لأن الكهف: "كالبيت المنقور في الجبل "[1] أما الذي يكثر في الأراضي المستوية فهو الدحل ، وهو: " نقب ضيق فمه، ثم يتسع أسفله حتى يمشى فيه ، وقيل هو مدخل تحت الجرف ، أو في عرض خشب البئر في أسفلها ، ونحو ذلك من الموارد والمناهل "[2] .

والصحبة تعني طول الملازمة ، ولهذا نسب أولئك الفتية إلى الكهف لطول لبثهم فيه ، فقيل لهم : ﴿أصحاب الْكَهفِ ﴾ وإن كان غيرهم ممن يضطهد من الأمم السابقة يأوي إليها ، لكن ليس بمقدار ذلك اللبث ، ولهذا اختص أولئك الفتية بأصحاب الكهف .

قوله:﴿الرقِيمِ﴾ فقد اختلف فيه على أقوال[3] أصحها في نظري ما وافق معنى الرقيم في لغة العرب[4] ؛ وهو الكتابة[5] ، فيظهر لي أن معهم كتابا يتدارسونه ، واجتمعوا على القول به ، ومما يؤيد ذلك واقع الحال ، فاجتماعهم ثم تآلفهم ، والفترة التي قضوها في المدينة ، ثم هروبهم ، كل ذلك يقتضي أن عندهم ما يجتمعون عليه من دينهم وأقل ما يكون من ذلك هو وجود كتاب يحفظ عليهم دينهم ، ومن قال " قيل : كتبوا فيه ما يدينون به من التوحيد ، وقيل : هو كتاب دينهم ، وقيل : كتبوا فيه الباعث الذي بعثهم على الالتجاء إلى الكهف فرارا من كفر قومهم "[6] وقول من قال " إن ذلك لوح كتب فيه أسماء أصحاب الكهف ، وخبرهم حين أووا إلى الكهف "[7] كل هذه الأقوال لا تعارض بينها ، فقد يكون كتبوا عقيدتهم عندما كانوا في المدينة ، وتعاقدوا على ذلك ،

---

(١) مختار الصحاح ،مادة (كهف)، ٢٤٢/١ .

(٢) لسان العرب ،مادة (دحل)، ٢٣٧/١١ .

(٣) ذكر منها ابن الجوزي في زاد المسير ستة أقوال وهي مختصرة :

الأول : لوح من رصاص ، أو صخرة كتبت فيها أسماؤهم ، والثاني : اسم القرية ،والثالث : اسم الجبل ، والرابع : الداوة بلسان الروم ، والخامس : اسم الكلب ، والسادس : اسم الوادي . ١٠٧/٥ .

(٤) انظر تفصيل ترجيح هذا الأمر في (قواعد الترجيح عند المفسرين ، الدكتور حسين الحربي ٣٤٧/٢) و (قواعد التفسير جمعا ودراسة ، د . خالد السبت ٢١٣/١) .

(٥) انظر لسان العرب ، مادة(رقم) ، ٢٤٨/١٢ .

(٦) التحرير والتنوير ٢٦٠/٩ .

(٧) تفسير الطبري ١٩٩/١٥ .

على عادة الفئة المطاردة في كل زمن ، ودونوا أساءهم زيادة في التوثيق ، ولهذا نسبهم الله إلى الرقيم الذي كتبوه لما فيه من توحيده .

والمراد هل حسبت أن أصحاب الكهف الذين معهم كتبهم كانوا عجبا ؟ .

ولم يصب من جعل أهل الكهف ، وأهل الرقيم ؛ طائفتين مختلفتين[1] ، ولا من جعلهم الثلاثة نفرٍ الذين أطبقت عليهم الصخرة[2] ، فدعوا الله بأعمالهم الصالحة ، " كان فيمن كان قبلكم " الحديث [3] ، لاختلاف القصة ، واختلاف العدد .

وجاء عن ابن عباس [4] ﷺ " لا أدري ما الرقيم أكتاب أم بنيان ؟" [5] وهذا يدل على أن الجهل بمعنى كلمة على وجه التحديد لا ينافي تدبر القرآن وفهمه وتعقّل معناه ، فابن عباس ﷺ يعرف على وجه الإجمال أن الرقيم يعود معناه لأهل الكهف ، وأنه يحتمل أن يكون معهم كتاب ، كما يحتمل أن يكون بني عليهم بنيانا وكتبت فيه أسماؤهم ، وليس عنده ما يقطع به ﷺ فلم يؤثر على فهمه للآية ، كما أنه لا يؤثر على إمامته في التفسير .

وقوله تعالى:﴿ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً ﴾أي :" فإن خلق السموات والأرض،واختلاف

---

(١) روح المعاني ، شهاب الدين محمود الألوسي :٢١٠/١٥، { دار إحياء التراث ،بيروت:بدون } .

(٢) أضواء البيان ، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ، تحقيق مكتب البحوث والدراسات:٢٠٦/٣، { دار الفكر ، بيروت:١٤١٥هـ } .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب البيوع ، باب من اشترى شيئا لغيره بغير إذنه فرضي ، برقم (٢١٠٢)٧٧١/٢ .
وصحيح مسلم ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال ، برقم (٢٧٤٣) .

(٤) أبو الفضل عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ ، وأمه أم الفضل لبابة الهلالية ، أخت ميمونة بنت الحارث زوج النبي ﷺ ، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ، دعا له النبي ﷺ بالفقه في الدين ، أخذ العلم عن عدد من الصحابة ، كان عمر بن الخطاب ﷺ يستشيره في بعض المسائل ، توفي سنة ثمان ستين للهجرة بالطائف . انظر : مشاهير علماء الأمصار ، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي ، تحقيق: م. فلايشهمر :ص٩،{دار الكتب العلمية ، بيروت:١٩٥٩م} . والطبقات الكبرى ، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري ٣٣٦/٢ { دار صادر ، بيروت: بدون } .

(٥) أخرجه الطبري عن ابن جريج ، عن عمرو بن دينار ، عن عكرمة به (١٩٩/١٥) وعبد بن حميد بسنده عن ابن عباس (الدر المنثور ٣٠٧/٤) .

الليل والنهار،وتسخير الشمس والقمر والكواكب؛أشد عجبا من أصحاب الكهف " [١].

" فدل ذلك على أن المراد أن قصتهم لا عجب فيها بالنسبة إلى ما خلقنا مما هو أعظم منها "[٢] من خلق السموات والأرض ، وهذا يثير عقولنا إلى أن نتفكر في السموات والأرض ، وما عليهما من زينة ، لأنه ذلك أعظم عجبا من أهل الكهف ، و"وظيفة المؤمن التفكر بجميع آيات الله التي دعا الله العباد إلى التفكير فيها فإ ا مفتاح الإيمان وطريق العلم والإيقان "[٣]

كما يدل على أن آيات الله تتفاوت من حيث الإعجاز ، والفضل ، فبعضها عجيب ، والبعض أعجب ، وهذا كما أنه يشمل الآيات الكونية ، فكذلك يشمل الآيات الشرعية ، فبعض القرآن أفضل من بعض كما هو مذهب السلف رحمهم الله[٤] .

ويؤخذ من الآية أن الإنسان لا يلام إذا ظن أمراً ، وبنى هذا الظن على دليل عنده ، فلا يتوجه له اللوم ، ولو كان ظنه في غير محله ، فقد ظن النبي ﷺ أن قصة أصحاب الكهف عجبا من أجل سؤال من سأل وتعجبه ، فبين الله له أ ا ليس بأعجب الآيات،" بمعنى إنكار ذلك عليه ،أي لا تعظم ذلك بحسب ما عظمه عليك السائلون من الكفرة ، فإن سائر آيات الله أعظم من قصتهم وأشنع"[٥] .

كما أنه يؤخذ من الآية التشويق لغيرها من آيات الله ، فإذا قرأ المسلم قصة أصحاب الكهف ، وعلم أ ا ليست بأعجب آيات الله ، مع ما يراه فيها من العجائب التي تبهر العقل ، تشوق لسماع وقراءة غيرها من الآيات مما هو أعجب منها .

وعلى القول بأن الخطاب في هذه الآية للنبي ﷺ دون غيره[٦]؛فإ ا تفيد بشرية النبي

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم ١٠٥/٩ .

(٢) أضواء البيان ٢٠٥/٣ .

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تقديم : ابن عثيمين :ص٤٧١، {مؤسسة الرسالة ، بيروت:١٤٢١هـ } .

(٤) درء تعارض العقل والنقل ، أحمد بن عبد السلام بن تيمية ، تحقيق عبد اللطيف عبد الرحمن :١٢/٧،{ دار الكتب العلمية ،بيروت: ١٤١٧هـ } .

(٥) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي ، تحقيق عبد السلام ابن عبد الشافي محمد : ٤٩٧/٣ ،{دار الكتب العلمية ، بيروت:١٤١٣هـ } .

(٦) تفسير الطبري ١٩٧/١٥ .

ﷺ فهو بشر يحسب كما يحسب الناس ، ويظن كما يظنون ، ويتعجب مما يتعجبون منه.

وقال تعالى : ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾(١).

فقوله تعالى ﴿إِذْ أوى الْفِتيةُ ﴾ أي : التجئوا ، واعتصموا (٢)، وهذا يدل على أ م هاربون من أمر عظيم ، خافوا منه أشد الخوف ، كما يدل على أ م مطاردون ، وأ م " فروا بدينهم من قومهم لئلا يفتنوهم عنه ، فهربوا منهم ، فلجئوا إلى غار في جبل ليختفوا عن قومهم "(٣)وهذا قدر كاف لا يحسن الخوض بعده في سبب المطاردة حيث لم يأت ا نص ، و"في القصة روايات شتى ، وأقاويل كثيرة ، فقد وردت في بعض الكتب القديمة، وفي الأساطير بصور شتى ،ونحن نقف عند حد ما جاء في القرآن،فهو المصدر الوحيد المستيقن،ونطرح سائر الروايات والأساطير التي اندست في التفسير بلا سند صحيح "(٤) .

وقوله:﴿ أوى ﴾ يدل أيضا على قوة عدوهم الذي يطاردهم ، وشدة بطشه ، وعلى استضعافه لهم ، وشدة التهديد الذي توعدهم به ، وهذا الذي حملهم على الإيواء إلى كهف ، والمكث فيه ، إذ لو كان لهم من القوة شيء لما رضوا بالكهف مكانا ، وفي المقابل يدل على ضعفهم وقلة حيلتهم ، وهي صفة أتباع الرسل .

كما تدل على أنه لا ناصر لهم في المدينة ، ولا من حولها ، وتدل على تخلي الناس عنهم جميعا ، إذ لو كان لهم من ناصر لأخبروه بمكا م على أقل تقدير ؛ ليمدهم بحاجتهم من الطعام وغيره ، وهذا يدل على غربتهم في ذلك الزمن ، وفيها أيضا أن خبر أولئك الفتية انتشر في المدينة ، وهذا يبين أ م مارسوا من العبادة ما خالفوا به الناس في ذلك ا تمع ، أو أ م مارسوا الدعوة إلى معتقدهم ، وهذا هو الأقرب ؛لأنه لو كان أمرهم مجرد مخالفة لما استدعى الأمر مطارد م من قبل ملِك المدينة ، ولأن مجرد المخالفة

---

(١) الكهف : ١٠ .

(٢) أضواء البيان ٢٠٧/٣ .

(٣) تفسير ابن كثير ١٠٧/٩ .

(٤) في ظلال القرآن ، سيد قطب :٢٢٦١/١٥،{ط٩، دار الشروق ،بيروت:١٤٠٠هـ } .

لا تسبب للملأ إزعاجا غالبا ، لكنهم فيما يظهر قد مارسوا شيئا من الدعوة إلى دينهم ، مما جعل أمرهم ينتشر ، ويكثر المخالف ، ويزداد المبغض ، ويظهر المعرض عن الحق ؛ حتى وصل الأمر إلى مطاردة الملِك الجهة العليا في المدينة،وهذا شأن أصحاب الدعوات .

وقوله :﴿ الفتية ﴾ المراد بهم : أصحاب الكهف ، وهذا من الإظهار في مقام الإضمار ؛ لأن مقتضى الظاهر أن يقال : إذ أووا ، فعدل عن ذلك :

١ ـ لما يدل عليه لفظ الفتية من كونهم أترابا متقاربي السن .

٢ ـ وذكرهم بهذا الوصف للإيماء إلى ما فيه من اكتمال خلق الرجولة المعبر عنه بالفتوة الجامع لمعنى سداد الرأي ، وثبات الجأش ، والدفاع عن الحق ، ولذلك عدل عن الإضمار فلم يقل : إذ أووا إلى الكهف "[1] .

ويدل لفظ الفتية أيضا بالإضافة لما سبق على :

٣ ـ أنهم شباب لا شيب[2] .

٤ ـ أنهم قلة .

وقوله : ﴿ فَقَالُوا ربنا آتِنا مِن لَدنك رحمةً وهيئْ لَنا مِن أَمرِنا رشداً﴾ .

" دلت الفاء في قوله :﴿ فَقَالُوا ربنا آتِنا ﴾ على أنهم لما أووا إلى الكهف بادروا بالابتهال إلى الله "[3] وهذا يحكي لنا التوحيد الذي ملأ قلوبهم ، فلم يتعلقوا إلا بالله ، ولم يرجوا غيره ، إذ لو كان لديهم تعلق بغير الله لفكروا فيه ، وبالوصول إليه ، لكن خلت قلوبهم إلا من الله تعالى .

وأُخذ من الآية " أنه إذا أراد الهرب بدينه خوف الفتنة ؛ أن يدعو بالدعاء الذي حكاه الله عنهم ، لأن الله قد رضي ذلك من فعلهم ، وأجاب دعاءهم ، وحكاه لنا على جهة الاستحسان لما كان منهم "[4] .

ودعاؤهم بلفظ الربوبية في قولهم ﴿ ربنا ﴾ يناسب حالهم ، فحالتهم حالة خوف ،

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦٦/١٥ .

(٢) أضواء البيان ٢٠٧/٣ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٦٦/١٥ .

(٤) أحكام القرآن ، أحمد بن علي الجصاص ، تحقيق محمد صادق قمحاوي :٤٠/٥،{ دار إحياء التراث العربي ،بيروت: ١٤٠٥هـ } ، والتعبير بحكاية الله ليس دقيقا ، والأصح أن يقال : " فيما قاله الله عنهم " .

وذعر ، واضطراب ، فناسب أن يدعوا الله باسم الرب المستلزم ربوبيته لجميع عباده ، وحفظه لهم ، وقيامه بشؤو م ، وقد تكرر هذا الاسم " الرب " في كلام أصحاب الكهف أكثر من غيره كما سيأتي .

وقالوا في دعائهم :﴿ ربنا آتِنا ﴾ ولم يقولوا :" أعطنا " ؛لأن طلب الإيتاء أبلغ في الضراعة ، والافتقار من طلب الإعطاء ، فإن طلب الإعطاء قد يشعر أن لك حقا فيما تطلب ، بخلاف طلب الإيتاء فهو محض فضل ، ومن هنا كثر اقتران لفظة " إيتاء " مع كلمة " الفضل " في القرآن الكريم ، مثل : ﴿فَرِحِين بِما آتاهم الله مِن فَضلِهِ﴾(١) .

وقوله: ﴿أم يحسدونَ الناس علَى ما آتاهم الله مِن فَضلِهِ فَقَد آتينا آلَ إبراهِيم الْكِتاب والْحِكْمةَ وآتيناهم ملْكاً عظِيماً﴾(٢) .

وقوله : ﴿فَلَما آتاهم مِن فَضلِهِ بخِلُوا بِهِ وتولوا وهم معرِضونَ﴾(٣) .

أما الإعطاء فلا يكون فضلا محضا إلا إذا صدر القول من المعطي ، مثل :﴿ إنا أعطَيناك الْكَوثَر﴾(٤) .

أما في حال الطلب فالأنسب أن يقال " آتنا " ومن تأمل الأحاديث النبوية يجد أنه يكثر " اللهم آتنا " بينما يقل " اللهم أعطنا " ؛لأن افتقار العبد بين يدي ربه يناسبه طلب الإيتاء ، وهو واقع حال فتية الكهف .

وقد ظهر الافتقار إلى الله في دعاء الفتية من عدة أوجه :

١ ـ ﴿ آتِنا ﴾ وقد مضى بيانه .

٢ ـ قولهم ﴿ مِن لَدنك ﴾ وهي أبلغ في الاختصاص بالافتقار من " عندك " ولهذا - والله أعلم – فرق في حال الخضر عليه السلام فقال تعالى : ﴿ آتيناه رحمةً مِن عِندِنا وعلمناه مِن لَدنا عِلْماً﴾(٥) .

فاستعمل " عند " في الرحمة لأن هناك من وهبه الله رحمةً غير الخضر ، بينما اختص

---

(١) آل عمران : ١٧٠ .

(٢) النساء : ٥٤ .

(٣) التوبة : ٧٦ .

(٤) الكوثر : ١ .

(٥) الكهف : ٦٥ .

الخضر ﷺ بعلم من الله لا يشاركه فيه أحد فاستعمل في حقه " لدنا " لأ ا أبلغ في الاختصاص .

٣ ـ تقديم ﴿ مِن لَدنك ﴾ على ﴿ رحمةً ﴾ وهذا من أساليب الاختصاص[1] التي تدل على شدة افتقارهم إلى الله .

٤ ـ تنكيرهم الرحمة ، فكأ م مفتقرون إلى أي رحمة من رحمات الله ، سواء أمان ، أم طعام ، أم حفظ ، أم رعاية ، وهذا يشبه من وجه دعاء موسى ﷺ: ﴿فَقَالَ رب إِني لِما أنزلْت إِلَي مِن خيرٍ فَقِير﴾[2] .

فتنكير الرحمة يأتي للتنويع،كما يأتي للتعظيم[3]،وكلا الأمرين جائز المعنى في الآية.

٥ ـ تبرؤهم من حولهم وقو م ، وإسناد الأمر كله لله ، وهذا غاية التوكل والافتقار لله سبحانه ، فطلبهم الرحمة يتضمن معنى لا حول ولا قوة إلا بالله ، أي نطلب رحمة " لا نحصلها بأعمالنا ولا بحيلتنا "[4]

٦ ـ قولهم ﴿ مِن أَمرِنا ﴾ يشمل جميع أمورهم ، وماضي أحوالهم،ومستقبل أيامهم، حيث فوضوها لر م سبحانه ، طلبا منه الرشد ، وهذا شعور إذا خالط قلب المؤمن حال دعائه قلما يخطئ له دعاء،ولهذا فإن دعاءهم " من جوامع الدعاء التي تشمل كل خير"[5].

وهو يشبه قوله تعالى : ﴿إِياك نعبد وإِياك نستعِين اهدِنا الصراطَ الْمستقِيم ﴾[6] .

وبيان ذلك أن قولهم ﴿ ربنا آَتِنا مِن لَدنك رحمةً ﴾ " هذا عبودية ؛ لأن إفراده بالافتقار إليه ، والاستعانة به ، والتوكل عليه ، والالتجاء إليه ، وإفراده بالسؤال ، والطلب ، والتذلل والخضوع ، والتحقق بأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا يملك أحد

---

(١) فتح القدير ، محمد بن علي الشوكاني :٢٧٢/٣ {دار الفكر،بيروت:بدون } .
(٢) القصص : ٢٤ .
(٣) فتح القدير ٢٧٢/٣ .
(٤) تفسير آيات من القرآن الكريم ، راجع أصوله ، وصححه ، ووضع هوامشه ، وأعده للطبع الدكتور محمد بلتاجي :٢٤٢/١،{ط١، مطابع الرياض ، الرياض:بدون }.
(٥) انظر : أضواء البيان ٢٠٦/٣ . و سلاح المؤمن في الدعاء ، محمد بن محمد بن سرايا بن داود ، تحقيق محي الدين مستو :ص٤٩٣،{ط١،دار ابن كثير ،دمشق: ١٤١٤هـ }.
(٦) الفاتحة : ٥-٦ .

سواه لهم ضرا ولا نفعا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا فهذا إياك نعبد "(١)،وطلبهم ذلك من الله وحده هو قوله ﴿ إياك نستعين ﴾.

وقوله:﴿وهيئْ لنا من أمرنا رشداً ﴾ أي : " يسر لنا كل سبب موصل إلى الرشد "(٢) وهذا موافق تماما لقوله : ﴿اهدِنا الصراطَ المستقِيم﴾ .

لأن الرشد :"يدل على استقامة الطريق "(٣) .

وقوله :﴿ وهيئْ لنا من أمرنا رشداً﴾ .

قوله :﴿ من أمرنا ﴾ يحتمل وجهين :

" أحدهما : أ ا هنا للتجريد ؛ وعليه فالمعنى اجعل لنا أمرنا رشداً كله ، كما تقول لقيت من زيد أسداً ، ومن عمرو بحراً .

والثاني : أ ا للتبعيض ؛ وعليه فالمعنى واجعل لنا بعض أمرنا ؛ أي وهو البعض الذي نحن فيه من مفارقة الكفار ؛ رشداً حتى نكون بسببه راشدين مهتدين "(٤)،والآية تحتملهما ، وحالهما يؤيد أن مرادهما جميع أمرهم ، وأوله وأولاه مفارقتهم لقومهم بدينهم ، وأبدا م .

وقوله: ﴿ رشداً ﴾ " طلبوا من الله أن يجعل لهم من ذلك العمل رشداً ؛ مع كونه عملا صالحاً فما أكثر ما يقصر الإنسان فيه ، أو يرجع على عقبيه ، أو يثمر له العجب والكبر "(٥)، والمؤمن يعمل العمل ، ويجتهد ، فيشفق من خشية ربه خوفاً من التقصير ، وعدم القبول ، تصديقا لقوله ﷺ في تفسير قوله تعالى : ﴿والذِين يؤتونَ ما آتوا وقُلُوبهم وجِلَةٌ أنهم إلى ربهم راجِعونَ﴾(٦) .

قال ﷺ : " الرجل يصوم ، ويتصدق ، ويصلي ، وهو يخاف أن لا يتقبل منه "(٧) ، وهذا

---

(١) انظر : مدارج السالكين ،محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية ، تحقيق محمد حامد الفقي :١٦٢/١،{ط٢،دار الكتاب العربي ،بيروت: ١٣٩٣هـ } .

(٢) تفسير السعدي ، ص ٤٧١ .

(٣) معجم مقاييس اللغة، مادة (رشد) ، ٣٩٨/٢ .

(٤) أضواء البيان ٢٠٧/٢ .

(٥) تفسير آيات من القرآن الكريم ٢٤٢/١ .

(٦) المؤمنون : ٦٠ .

(٧) أخرجه ابن ماجة في سننه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ،{دار الفكر،بيروت:بدون} كتاب الزهد ، باب

حال فتية الكهف كما نطق به دعاؤهم ، ولهذا أخطأ من قال في هذه الآية " وهذا الدعاء منهم كان في أمر دنياهم ، وألفاظه تقتضي ذلك ، وقد كانوا على ثقة من رشد الآخرة ، ورحمتها " [(١)] .

ودعاء فتية الكهف فيه تقديم وتأخير في موضعين :

الأول : قولهم :﴿ مِن لَّدنك رحمةً ﴾ وقد مضى الكلام عليها .

الثاني : قولهم : ﴿وهيئْ لَنا مِن أَمرِنا رشداً ﴾ والأصل رشدا لنا من أمرنا ، وذلك يفيد أمرين :

١ ـ الاهتمام بهذا الأمر الذي طلبوا فيه الرشد[(٢)] .

٢ ـ شدة الافتقار في الطلب .

وطلبهم الرشد يتضمن ما يلي :

١ ـ طلب الهداية ؛ لأن الرشد من معانيه الهداية[(٣)] .

٢ ـ الاستقامة ؛ لأن الرشد يدل على استقامة الطريق ، كما مضى .

٣ ـ الثبات على الحق ؛ لأن الراشد :الثابت"على الحق مع تصلب فيه "[(٤)]،" والرشد الاهتداء والديمومة عليه "[(٥)]

٤ ـ التوفيق ، والتيسير ؛ لأن الرشيد من " رشد أمره ، ووفق له "[(٦)] ويؤيد ذلك قولهم في بداية الدعاء ﴿وهيئْ﴾ أي يسر ، وسهل .

وهذه الأمور كان فتية الكهف في أشد الحاجة لها ، فيحتاجون للهداية ، والاستقامة

التوقي في العمل ، برقم (٤١٩٨) ١٤٠٤/٢. وأخرجه الحاكم في المستدرك ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ،{ط١، دار الكتب العلمية ،بيروت: ١٤١١هـ }كتاب التفسير ، باب تفسير سورة المؤمنون ، برقم (٣٤٨٦) ٤٢٧/٢وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(١) المحرر الوجيز ٥٠٠/٣ .

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، أبو السعود محمد بن محمد العمادي : ٢٠٦/٥ ،{ إحياء التراث العربي ،بيروت:بدون} .

(٣) المعجم الوسيط ، مادة (رشد) ،ص ٣٤٦ .

(٤) المعجم الوسيط ، مادة (رشد) ،ص ٣٤٦ .

(٥) أضواء البيان ٢٠٧/٣ .

(٦) المعجم الوسيط ، مادة (رشد) ،ص٣٤٦.

، والثبات على دين الله الذي فارقوا قومهم من أجله ، كما هم بحاجة إلى تيسير الله ، وتوفيقه ، ودلالته لهم إلى الخير والصلاح .

ومناسبة الاقتران بين : ﴿ربنا آتنا من لدنك رحمةً ﴾ وقوله :﴿ وهيئْ لنا من أمرنا رشداً ﴾ أن الجملة الأولى من الدعاء لما كان فيها طلب رحمة الله ، وهي لا تتهيأ إلا بأسباب ، طلبوا في الجملة الثانية من الدعاء الإعانة على الأسباب الموصلة لتلك الرحمة ، والثبات عليها حتى تدوم رحمة الله .

وقال تعالى : ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ﴾[1] .

فقوله تعالى : ﴿ فضربنا ﴾الضرب يحتمل ثلاثة أوجه من التفسير :

١ ـ أن المراد أنه سبحانه وتعالى أنامهم نومة ثقيلة ، وعليه أكثر المفسرين[2] ، ويكون على هذا جملة ﴿فضربنا على آذانهم﴾ من الجمل التي تستعملها العرب في لغتها للدلالة على النوم .

٢ ـ أن المراد أنه سبحانه ضرب على آذا م حجابا يمنع نفاذ الأصوات إليها[3] ، ويكون على هذا المفعول " حجابا " محذوفا دل عليه السياق .

٣ ـ أن المراد أنه سبحانه وتعالى عطّل آذا م عن وظيفة السماع ، كقول العرب ضرب الأمير على يد الرعية ، أي منعهم عن العمل[4] .

والتعبير بالضرب يدل على " قوة المباشرة ، وشدة اللصوق في الأمر المتكلم فيه ، والإلزام "[5] ، وظهر آثار ذلك في طول مدة نومهم .

وفيه تشبيه الإنامة الثقيلة المانعة عن وصول الأصوات إلى الآذان ؛ بضرب الحجاب

---

(١) الكهف :١١ .

(٢) انظر: تفسير البغوي ، أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي ، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك:١٥٢/٣،{دار المعرفة ،بيروت:بدون}. وأضواء البيان ٢٠٧/٣ . وتفسير السعدي ص ٤٧١ .

(٣) انظر : الكشاف عن حقائق الت يل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي ٦٥٩/٢،{ دار إحياء التراث العربي ،بيرو:بدون } .

(٤) روح المعاني ٢١٢/١٥ ، ولسان العرب ،مادة (ضرب) ٥٤٥/١ .

(٥) المحرر الوجيز ٥٠٠/٣ .

عليها "[1] وهو ما يسمى بتشبيه التمثيل ، وجعلها بعضهم [2]استعارة مكنية[3].

وقوله : ﴿ عَلَىٰ آذَانِهِمْ ﴾ تخصيص الأذن بالضرب في الآية ؛لأ ا " الجارحة التي منها عِظَم فساد النوم ، وقلما ينقطع نوم نائم إلا من جهة أذنه ، ولا يستحكم نوم إلا مع تعطل السمع "[4] ، ولهذا والله أعلم قال ﷺ للرجل الذي نام حتى أصبح " ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه ، أو قال أذنه "[5] .

وأما الضرب على العين " وإن كان تعلق النوم ا أشد ، فلا يصلح كناية ، إذ ليس المبصرات من طرق إزالته حتى يكون سد الأبصار كناية ، ولو صلح كناية فعند ابتداء النوم لا النومة الثقيلة "[6].

وذكر الأذن أيضا يفيد زيادة في المعنى ، فليس عدم سمعهم الأصوات لصمم في آذا م لكن أراد " لا إحساس بآذا م من غير صمم "[7].

والفاء في قوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ﴾يدل على التعقيب : إما تفريع على " جملة دعائهم :﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ فيؤذن مضمو ا استجابة دعو م ، فجعل الله إنامتهم كرامة لهم " وإما على جملة ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ ﴾ فيؤذن بأن الله عجل لهم حصول ما قصدوه مما لم يكن في حسا م "[8] ،فعلى التفريعين دل على قرب فرج الله من عباده المضطهدين .

---

(1) تفسير أبي السعود ٢٠٦/٥ .

(2) روح المعاني ٢١٢/١٥ .

(3) الفرق بينهما أن تشبيه التمثيل : هو " أن وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد " بينما الاستعارة المكنية : " تشبيه حذف منه المشبه به ، ورمز له بشيء من لوازمه " ، انظر :البلاغة الواضحة ودليل البلاغة الواضحة ، علي الجارم ، ومصطفى أمين :ص١٢٣،٥٥{الدار المصرية السعودية ، مصر:٢٠٠٤م} .

(4) المحرر الوجيز ٥٠٠/٣ .

(5) متفق عليه ، أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده ، برقم (٣٠٩٧) ١١٩٣/٣، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فيمن نام الليل أجمع ، برقم (٧٧٤) ٥٣٧/١.

(6) روح المعاني ٢١٢/١٥ .

(7) إعجاز القران ، أبو بكر محمد الباقلاني ، تحقيق السيد أحمد صقر :ص٢٦٨،{ط٥،دار المعارف ،مصر: ١٩٩٧م }.

(8) انظر التحرير والتنوير ٢٦٨/١٥ .

وقوله :﴿سِنِين عدداً ﴾ يحتمل وجهين :

١ ـ " التكثير ، وهو الأنسب بإظهار كمال القدرة " .

٢ ـ " التقليل ، وهو الأليق بمقام إنكار كون القصة عجبا من بين سائر الآيات العجيبة ، فإن مدة لبثهم كبعض يوم عنده عز وجل "[(١)] .

والأظهر والله أعلم أن المراد التكثير ، ويؤيد ذلك :

١ ـ أن هذا الإجمال بين بعد آياتٍ بقوله تعالى:﴿ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِين وازدادوا تِسعاً﴾.

٢ ـ أن التكثير يناسب سياق الآية نفسها،فإن أول الآية﴿فَضربنا علَى آذَانِهم ﴾ وذلك على وجه الإعجاز ، فمن اللائق أن تكون المدة التي تبين مدة الضرب على الآذان ؛ تناسب معجزة الضرب .

٣ ـ سعة علم الله - المراد تحقيقها من خلال أن تلك السنوات كبعض يوم عند ربك على القول الأول – تتحقق بشكل أعظم في القول الثاني عندما نعلم أن الله علم وأحصى تلك السنوات مع طولها .

٤ ـ الجمع بين ﴿سِنِين﴾ و ﴿عدداً﴾ في الآية له دلالته الظاهرة على أن عدد السنين كثير ، لأن لفظ ﴿عدداً﴾ كالتأكيد .

ويدل قوله ﴿سِنِين﴾ على أن مدة لبثهم في كهفهم " سنين عددا ، أنه لم يكن فيها شهور ، ولا أيام ، إنما هي كاملة "[(٢)] .

وقال تعالى : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً ﴾[(٣)] .

فقوله تعالى: ﴿ ثُم بعثْناهم ﴾ يدل على أن النوم موتة صغرى ، لأمرين :

١ ـ أن الله أنامهم هذه المدة الطويلة المشا ة للموت .

٢ ـ عبر عن يقظتهم بلفظ البعث في قوله ﴿ بعثْناهم﴾ .

و" المقصود من هذه القصة إثبات البعث بعد الموت ، فكان في ذكر لفظ البعث تنبيه

---

(١) انظر : تفسير أبي السعود ٢٠٧/٥ .

(٢) زاد المسير في علم التفسير ، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي :١١٤/٥،{ط٣، المكتب الإسلامي ،بيروت: ١٤٠٤هـ } .

(٣) الكهف : ١٢ .

على أن في هذه الإفاقة دليلا على إمكان البعث وكيفيته "[١] .

وقوله:﴿ لِنعلَم ﴾ فيه إثبات الحكمة لله سبحانه وتعالى ، لأن اللام في قوله:﴿لِنعلَم ﴾ هي لام التعليل ، وهذا من كمال الله وصفاته،فمن يفعل لحكمة ، أكمل ممن لا حكمة له في أفعاله ، وهذا يتعلق باسم الله الحكيم ، والذي " ورد أربعا وتسعين مرة "[٢]وهو " واسع العلم والإطلاع على مبادئ الأمور وعواقبها "[٣] .

وقد وردت لام التعليل في هذه القصة أكثر من مرة : كما في هذه الآية ، وقوله : ﴿وكَذَلِك بعثْناهم لِيتساءَلُوا بينهم﴾[٤] ،وقوله :﴿ وكَذَلِك أَعثَرنا علَيهِم لِيعلَموا أَن وعد اللهِ حق ﴾[٥].

وهناك من نفى الحكمة والتعليل عن الله سبحانه وتعالى ؛ "لأن التعليل بالغرض إنما يصح في حق من لا يمكنه تحصيل ذلك الغرض إلا بتلك الواسطة ، وهذا يقتضي العجز ، وهو على الله محال "[٦]، وما فر منه نافي الحكمة عن الله وقع في أشد منه ، حيث لزم على كلامه نسبة الجهل لله تعالى الله عن ذلك ، وقد أخطأ في تفسير هذه اللفظة كل من ليس من أهل السنة والجماعة ، وكان بعدهم عن الصواب على قدر بعد أصولهم عن أصول أهل السنة ، وأبعدهم من كان أصله العقل قبل الكتاب والسنة ، ولذلك قال عن الإشكال المزعوم في الآية ونظائرها مما فيها تعليل أفعال الله سبحانه وتعالى : " وجوابه أنه لما ثبت بالعقل امتناع التعليل ، وجب صرفه إلى التأويل "[٧] ، ومن اعتزاليات صاحب الكشاف ، والتي دسها دسا قوله عند هذه الآية :" أي يتضمن معنى الاستفهام ، فعلق عنه لنعلم فلم يعمل فيه "[٨] وملخص مراده بهذا الوجه الإعرابي نفي التعليل .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦٩/١٥ .

(٢) النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى ، محمد الحمود :٢٢٦/١،{مكتبة الذهبي ،الكويت: ١٤١٣هـ } .

(٣) شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة ، الدكتور سعيد بن وهف القحطاني ، راجعه فضيلة الدكتور عبد الله الجبرين :ص١٠٠،{توزيع مؤسسة الجريسي ،السعودية: ١٤١٥هـ}.

(٤) الكهف :١٩ .

(٥) الكهف : ٢١ .

(٦) التفسير الكبير ٦٨/٢١ .

(٧) التفسير الكبير ٥١/٢٠ .

(٨) الكشاف ٦٦٠/٢ .

ومجمل الأخطاء الواردة في معاني لفظة ﴿لِنعلَم﴾ ومثيلا ا في القرآن كما يلي :

١ ـ من فسر قوله: ﴿لِنعلَم﴾ عبارة عن خروج ذلك الشيء إلى الوجود "[١]،ومثله من قال :" ليتعلق علمنا تعلقا حاليا مطابقا لتعلقه أولا تعلقا استقباليا "[٢] ومراده من هذا التفسير :" أن الله لم يتجدد له علم عند تجدد المعلومات إلا تعلق العلم ا ، وهذا يقوله أكثر الأصوليين من أهل الكلام ، فالعلم عند هؤلاء لا يقف على شيء أصلا ، بل هو حاصل أزلا وأبدا على وجه واحد "[٣] .

٢ ـ من فسر قوله :﴿لِنعلَم﴾ أنه عبارة عن الاختبار مجازا ، بطريق إطلاق اسم المسبب على السبب ، والمعنى :بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبرهم "[٤] .

لكن هذا الهروب من معنى التعليل لا يفيده شيئا إذ يجاب بأن " ما ذكره مع تكلفه وقلة جدواه غير مستقيم ؛ لأن الاختبار الحقيقي لا يتصور ممن أحاط بكل شيء علما "[٥] إلا لحكمة علمها الله سبحانه .

٣ ـ تقدير مضاف " ليعلم الرسول والمؤمنون ، ويجوز في إسناد فعل بعض خواص الملك إليه ؛ تنبيها على كرامة القرب والاختصاص ، فهو كقول المِلك فتحنا البلد ،وإنما فتحها جنده"[٦] وهذا وإن كان يتأتى على قراءة من قرأ بالياء للمعلوم " ليعلم " فإنه لا يتأتى على القراءة الأخرى ﴿ لنعلم﴾.

٤ ـ من ضمن العلم معنى التمييز[٧]، والمعنى لنميز أي الفريقين أحصى ، وهذا تفسير بلازم الحكمة وثمر ا ، وإن كان التمييز ليس كل معاني الحكمة التي لأجلها بعث الله سبحانه وتعالى أهل الكهف .

---

(١) المحرر الوجيز ٥٠٠/٣ .

(٢) تفسير البيضاوي ، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي :٤٨١/٣،{ دار الفكر،بيروت:بدون } .

(٣) انظر : المسائل المشتركة بين أصول الفقه وأصول الدين،محمد العروسي عبد القادر:ص٣٧،{ دار حافظ ،جدة:١٤١٠هـ } .

(٤) انظر : تفسير أبي السعود ٢٠٧/٥ .

(٥) روح المعاني ٢١٥/١٥ .

(٦) روح المعاني ٦/٢ ، وانظر زاد المسير ١١٤/٥ .

(٧) روح المعاني ٦/٢ .

٥ ـ " أن المراد به الجزاء ؛ أي لنجازي الطائع والعاصي "[١]، وهذا تقييد لإطلاق العلم في الآية .

وقال أصحاب هذه التأويلات " فهذه كلها تأويلات في قوله لنعلم ، فراراً من حدوث العلم ، وتجدده ، إذ ذلك على الله مستحيل ، وكل ما وقع في القرآن مما يدل على ذلك أول بما يناسبه من هذه التأويلات "[٢] .

ورحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية إذا قال في مقدمة التفسير مبينا الخطأ في التفسير " قوم اعتقدوا معاني ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها "[٣] .

وقوله:﴿ لِنعلَم﴾ "لا يدل على أنه لم يكن عالماً بذلك قبل بعثهم،وإنما علم بعد بعثهم كما زعمه بعض الكفرة الملاحدة،بل هو جل وعلا عالم بكل ما سيكون قبل أن يكون،لا يخفى عليه من ذلك شيء ،والآيات الدالة على ذلك لا تحصى كثرة"[٤].

وقوله : ﴿أي الْحِزبين﴾ تعددت الآراء في الحزبين المختلفين من أهل الكهف على عدة أقوال ، هي :

١ ـ أن المراد بالحزبين " الملوك الذين تداولوا المدينة مِلكاً بعد مِلك ،فالملوك حزب وأصحاب الكهف حزب " .

٢ ـ أن المراد ما حزبان من هؤلاء الفتية .

٣ ـ أن المراد ما " طائفتان من المسلمين في زمان أصحاب الكهف "[٥] .

٤ ـ المراد بأحد الحزين " أصحاب الكهف ،والحزب الثاني هم أهل المدينة " .

٥ ـ المراد حزبان " من أهل المدينة المذكورة كان منهم مؤمنون وكافرون "[٦] .

٦ ـ المراد حزبان من " قوم الفتية "[٧] .

---

(١) البحر المحيط ، محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي ، تحقيق عادل الموجود ، وآخرون :٥٩٨/١،{ط١، دار الكتب العلمية ،بيروت:١٤٢٢هـ } .

(٢) البحر المحيط ٥٩٨/١ .

(٣) شرح مقدمة التفسير ، الدكتور مساعد الطيار :ص٤٧،{ط١، دار ابن الجوزي ، الدمام:١٤٢٧هـ }.

(٤) أضواء البيان ٢٠٩/٣ .

(٥) ينظر القول الأول والثاني والثالث في : التفسير الكبير ٧١/٢١

(٦) ينظر القول الرابع والخامس والسادس في : أضواء البيان ٢٠٨/٣ .

(٧) الدر المنثور ، عبد الرحمن السيوطي :٣٧٠/٥،{دار الفكر ،بيروت: ١٩٩٣م} .

٧ ـ المراد حزبان " من الكافرين من أهل المدينة "[١] .

٨ ـ المراد حزبان " من الكافرين ، والمراد بهما اليهود والنصارى الذين علّموا قريشاً سؤال رسول الله ﷺ "[٢] .

٩ ـ المراد بهما " المسلمون الأولون أصحاب الملك ، والمسلمون الآخرون الذين أسلموا حين أوى أصحاب الكهف "[٣] .

١٠ ـ المراد بهما " الله سبحانه وتعالى ، والخلق "[٤] .

هذا ما وقفت عليه من أقوال لأهل التفسير في بيان الحزبين ، ويظهر جليا أن القول الأخير بعيد كل البعد لأن لفظ الحزب لا يؤيد ذلك ، والقول بأنهم من قوم الفتية قول عام ، وتحديد الكافرين بأنهم اليهود والنصارى لا يؤيده سياق الآيات ، حيث جعل البعث له حكمة في وقتهم .

وعلى العموم لا يوجد دليل على أحد من الأقوال ، ولا يوجد قول يرتبط " بألفاظ الآية "[٥] ، إلا أن هناك معالم للحزبين تؤخذ من لفظ الآية ، وهي :

١ ـ أنهما حزبان .

٢ ـ أنهما من قوم الفتية كما قاله مجاهد [٦]رحمه الله ، فسياق الآية يدل على ذلك ، بغض النظر عن تحديد أكثر من ذلك فيما يتعلق بالزمن ، أو الديانة .

---

(١) المحرر الوجيز ٥٠٠/٣ .

(٢) روح المعاني ٢١٢/١٥ .

(٣) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي :١٥٨/٦،{ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات،بيروت:بدون } .

(٤) روح المعاني ٢١٢/١٥ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي :٣٦٤/١٠،{ دار الشعب،بيروت:بدون } .

(٦) أبو الحجاج مجاهد بن جبر مولى السائب بن أبي السائب ، وقيل مولى عبد الله بن السائب ، أحد الأئمة الأعلام ، شيخ القراء في زمانه ، ومفسر بارع ، أخذ التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما ، مات بمكة سنة ثنتين ومائة للهجرة . انظر : الطبقات الكبرى ٤٦٧/٥، ومشاهير علماء الأمصار ص٨٢ ، وسير أعلام النبلاء ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، تحقيق شعيب الأرناؤوط , محمد نعيم العرقسوسي ،الطبعة التاسعة :٤٤٩،٤٥١/٤،{مؤسسة الرسالة ، بيروت:١٤١٣هـ } .

٣ ـ أن أحد الحزبين أصاب ، والآخر أخطأ في إحصاء المدة .

وقوله : ﴿أي الْحِزبين ﴾ يلاحظ فيه ارتفاع ﴿أي﴾ مع أ ا في محل نصب مفعول به ثانٍ ، وللعلماء " في ذلك أجوبة :

منها : أن ﴿أي﴾ فيها معنى الاستفهام ،والاستفهام يعلق الفعل عن مفعوليه .

ومنها : أن الجملة بمجموعها متعلق العلم ؛ولذلك السبب لم يظهر عمل قوله:﴿لِنعلَم﴾ .

ومنها : أن لفظة أي موصولة استفهامية ، وأي مبنية لأ ا مضافة ، وصدر صلتها محذوف ، ولبنائها لم يظهر نصبها "[1] ، وهو ما رجحه العلامة الشنقيطي[2]رحمه الله

وقوله : ﴿أحصى لِما لَبِثُوا أمداً﴾ لأهل التفسير في الفعل ﴿أحصى﴾ قولان :

" ١ ـ أنه فعل ماض ، و﴿أمداً﴾ مفعوله ، وما في قوله:﴿لِما لَبِثُوا﴾ مصدرية ، وتقرير المعنى على هذا : لنعلم أي الحزبين ضبط أمدا للبثهم في الكهف ، وممن اختاره الزمخشري [3]، وابن عطية [4]، وغيرهما .

---

(١) أضواء البيان ٢١٢/٣ .

(٢) العلامة محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر بن محمد بن نوح بن محمد ، من أولاد الطالب أوبك ، الجكنيين ، يرجع نسبة هذه القبيلة إلى حمير ، ولد في قرية تنبه ، من أعمال مديرية كيفا من شنقيط ، حفظ القرآن في بيت أخواله ، وتعلم النحو ، والأدب ، وله نظم ، تبحر في الفقه ، والأصول ، وسائر العلوم ، والمنطق ، له استحضار شديد للقرآن ، والحديث ، استقرت به القدم في المدينة النبوية ، وجلس للتدريس ، وتوفي سنة ثلاثة وتسعين وثلاثمائة وألف للهجرة . انظر : أضواء البيان ١٩/١٠ في الجزء الملحق في آخر التفسير .

(٣) أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر العلامة الزمخشري الخوارزمي ، النحوي ، اللغوي ، المعتزلي ، المفسر ، يلقب جار الله لأنه جاور بمكة زمانا ، ولد في رجب سنة سبع وستين وأربعمائة بزمخشر قرية من قرى خوارزم ، صنف التصانيف ، ودخل خراسان عدة نوب ، وما دخل بلدا إلا واجتمعوا عليه ، وتلمذوا له ، وكان علامة الأدب ، ونسابة العرب ، توفي ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة للهجرة . انظر : طبقات المفسرين ، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، تحقيق علي محمد عمر :ص١٢٠،{ مكتبة وهبة ،القاهرة: ١٣٩٦هـ } .

(٤) أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الملك بن غالب بن تمام بن عطية ، الإمام الكبير ، قدوة المفسرين ، حدث عن أبيه الحافظ الحجة أبي بكر ، وكان فقيها ، عارفا بالأحكام ، والحديث ، والتفسير ، بارع الأدب ، بصيرا بلسان العرب ، واسع المعرفة ، توفي سنة ست وأربعين وخمسمائة للهجرة . انظر : طبقات المفسرين ، أحمد بن محمد الأدنه وي ، تحقيق سليمان بن صالح الخزي :ص١٧٥،{مكتبة العلوم والحكم ، السعودية: ١٤١٧هـ} .

٢ـ أنه صيغة تفضيل،وأمدا تمييز،وممن اختاره الزجاج[١]،والتبريزي[٢] وغيرهما"[٣].

وسبب الخلاف يرجع إلى مسألة نحوية وهي : هل يصاغ لأفعل التفضيل من غير الفعل الثلاثي ؟ " فقيل يجوز مطلقا ، وقيل يمتنع مطلقا ، وقيل يجوز إن كانت الهمزة لغير النقل[٤] نحو ما أظلم الليل ، وما أقفر هذا المكان "[٥] .

والراجح ما ذهب إليه مجمع اللغة العربية بالقاهرة " فقد رأى التخفف من شرط تجرد الفعل الثلاثي،موافقة لسيبويه[٦]،والأخفش[٧] في ذلك، مع اشتراط أمن اللبس "[٨] .

---

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري الزجاج البغدادي ،مصنف كتاب معاني القرآن ،وله تآليف جمة ،لزم المبرد فكان يعطيه من عمل الزجاج كل يوم درهما ،فنصحه وعلمه ،ثم أدب القاسم بن عبيد الله الوزير فكان سبب غناه ،ثم كان من ندماء المعتضد ،مات سنة إحدى عشرة وثلاث مئة ،وقيل توفي سنة ست عشرة وثلاث مائة . انظر : سير أعلام النبلاء ٣٦٠/١٤ .

(٢) أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد بن حسن بن بسطام الشيباني الخطيب التبريزي ، وتبريز بكسر ،ارتحل وأخذ الأدب عن أبي العلاء المعري وغيره ،وسمع بصور من الفقيه عبد الكريم بن محمد السياري ،وأبي بكر الخطيب ،وأقام بدمشق مدة ،ثم ببغداد ،وكثرت تلامذته ،وأقرأ علم اللسان ،قال ابن نقطة :ثقة في علمه ،مخلط في دينه ،ولعبة بلسانه ،وقيل :إنه تاب ،وقال أبو منصور بن خيرون :ما كان بمرضي الطريقة ،توفي لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمس مئة . انظر :سير أعلام النبلاء ٢٦٩/١٩ .

(٣) أضواء البيان ٢١٠/٣ .

(٤) أي نقلت الفعل إلى المتعدي .

(٥) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، جمال الدين بن هشام ، تحقيق محي الدين عبد الحميد :٣٦٦/٣،{ط٥، دار الجيل ،بيروت: ١٣٩٩هـ } .

(٦) إمام النحو حجة العرب ،أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الفارسي ثم البصري ،وقد طلب الفقه والحديث مدة ،ثم أقبل على العربية فبرع وساد أهل العصر ،وألف فيها كتابه الكبير لايدرك شأوه فيه ،استملى على حماد بن سلمة ،وأخذ النحو عن عيسى بن عمرو ،ويونس بن حبيب ،والخليل وأبي الخطاب الأخفش الكبير ،وقال إبراهيم الحربي:سمي سيبويه لأن وجنتيه كانتا كالتفاحتين بديع الحسن ،مات سنة ثمانين ومئة . انظر : سير أعلام النبلاء ٣٥١/٨ .

(٧) أبو الحسن سعيد بن مسعدة البلخي ثم البصري مولى بني مجاشع ،أخذ عن الخليل بن أحمد ،ولزم سيبويه حتى برع ،وكان من أسنان سيبويه بل أكبر ،وله كتب كثيرة في النحو والعروض ومعاني القرآن ،مات الأخفش سنة نيف عشرة ومئتين . انظر : سير أعلام النبلاء ٢٠٦/١٠ .

(٨) القرارات النحوية والتصريفية مع اللغة العربية بالقاهرة جمعا ودراسة وتقويما إلى اية الدورة الحادية والستين عام ١٤١٥هـ ، خالد بن سعود العصيمي :ص٢١٩،{ط١،دار التدمرية ،السعودية: ١٤٢٣هـ }.

وينعكس هذا الخلاف في لفظة " أحصى " على كلمة " أمدا " فقيل منصوب على المفعولية ، وقيل أ ا تمييز .

والآية تدل على أن قوم أهل الكهف " كأنه وقع بينهم تنازع في مدة لبثهم في الكهف بعد خروجهم من بينهم ، فبعثهم الله ليبين ذلك "[1] .

وهذا يقتضي أن خبر خروجهم انتشر ، وأمرهم ظهر ، وأصبح الناس يتناقلونه على أنه معجزة من المعجزات ، وكان من أكثر ما يحصل تجادل القوم فيه هو مدة غياب أهل الكهف ، فبعثهم الله ليبين أي الفريقين أضبط للأمد .

ولهذا فإن في الآية إشارة إلى علم الله الذي وسع كل شيء ،وأنه هو أحصى وأعلم .

وقال تعالى:﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً﴾[2].

فقوله : ﴿ نحن نقُص علَيك نبأهم ِبالْحق ﴾ المناسبة بينها وبين ما قبلها أنه " لما اقتضى قوله تعالى ﴿لِنعلَم أي الْحِزبينِ أحصى ﴾أن في نبأ أهل الكهف تخرصات ، ورجما بالغيب ؛ أثار ذلك في النفس تطلعا إلى معرفة الصدق في أمرهم ، من أصل وجود القصة إلى تفاصيلها من مخبر لا يشك في صدق خبره ؛ كانت جملة ﴿ نحن نقُص علَيك نبأهم ِبالْحق﴾ استئنافا بيانيا لجملة لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا "[3] .

والآية فيها تعظيم لله سبحانه وتعالى ، وتشريف لرسوله ﷺ وبيان ذلك :

أما التعظيم فلقوله: ﴿ نحن﴾ وهي من صيغ التعظيم ، ولقوله أيضا: ﴿ِبالْحق﴾ فكل ما تكلم الله به فهو حق لا مرية فيه ﴿ ومن أَصدق ِمن اللهِ حدِيثاً﴾ [4] .

وأما التشريف للنبي ﷺ فلأن الله يقص نبأها عليه بالحق ، قال تعالى :﴿ نحن نقُص علَيك ﴾ .

و" تقديم المسند إليه على المسند الفعلي في جملة﴿نحن نقُص علَيك ﴾يفيد

---

(١) زاد المسير ١١٤/٥ .

(٢) الكهف : ١٣ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٧١/١٥ .

(٤) النساء : ٨٧ .

الاختصاص ، أي نحن لا غيرنا يقص قصصهم بالحق "[١] .

وقوله:﴿ ِبِالْحق﴾ أي الصدق ، يفيد أن ما عند أهل الكتاب من أخبار عن أهل الكهف ليس كله حقا ، بل دخله ما دخل غيره من الزيادة ، والتحريف .

كما يفيد " أن في عهده ﷺ من يقص نبأهم ؛ لكن لا بالحق "[٢] .

وفيها معجزة للنبي ﷺ إذ لا يمكن معرفة خبرهم الحق إلا عن طريق الوحي .

وتخصيص ﴿ِالْحق﴾ لقصة أصحاب الكهف ، مع أن كل ما قاله الله فهو حق لإفادة بطلان ما جاء عن أهل الكهف من غير طريق القرآن .

قوله:﴿ إنهم ِفتيةٌ ﴾ افتتاح الجملة بحرف التأكيد؛ لمجرد الاهتمام لا لرد الإنكار"[٣].

والفتية جمع فتى جمع تكسير ، وهو من جموع القلة ، ويدل لفظ الفتية على أنهم :

١ ـ شباب لا شيب .

٢ ـ وعلى قلتهم[٤] .

وهذا من جموع القلة يدل ذلك على أنهم دون العشرة [٥] .

وكونهم فتية يدل على أعمارهم ، وأنهم من " الشباب وهم أقبل للحق ، وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل ، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شبابا ، وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم ، ولم يسلم منهم إلا القليل "[٦] .

كما يفيد أن دين الله إذا وافق قلبا صادقا ، سليما من الهوى ، موافقا للفطرة ، مؤيدا بتوفيق الله ؛ تمكّن منه بغض النظر عن عمر صاحبه ، فقد كان أصحاب الكهف مع تضحيتهم فتية في أعمارهم .

وهذا يدل على أن رسل الله في جميع الأمم بلغوا دين الله حق البلاغ ، ونشهد نحن

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧١/١٥ .
(٢) روح المعاني ٢١٦/١٥ .
(٣) التحرير والتنوير ٢٧١/١٥ .
(٤) ينظر : أضواء البيان ٢٠٧/٣ .
(٥) ينظر : تفسير السعدي ، ص ٤٧١ .
(٦) تفسير ابن كثير ١٠٩/٩ .

الأمة المحمدية على ذلك ، وبيان هذا الأمر من الآية يظهر من خلال إسلام هؤلاء الفتية من بين قومهم ، مما يعطينا الدلالة الواضحة على أن رسل تلك الأمة لم يستثنوا أحدا ممن أمرهم الله بإيصال الرسالة إليه ولو كانوا شبابا أحداثا في السن ، وهذا على القول بأن هؤلاء الفتية أدركوا رسل تلك الأمة ، فإن لم يدركوهم بأبدا م فقد أدركوا بقاء دعو م من خلال الكتب ، وهي أحد الأقوال في الرقيم .

وقد ضل من أخذ منه م لة إيمانية أسماها الفتوة ، لأن " اسم الفتى لا يشعر بمدح ولا ذم ، كاسم الشاب والحدث ، ولذلك لم يجيء اسم الفتوة في القرآن ، ولا في السنة ، ولا في لسان السلف ، وإنما استعمله من بعدهم في مكارم الأخلاق ، وأصلها عندهم أن يكون العبد أبدا في أمر غيره "[١] .

وقوله:﴿آمنوا ِبربهم وزدناهم هدى﴾ جاء بوصف الربوبية ؛ليشعِر بأن ربوبية الله للخلق ، ورعايته لهم ، وقيامه بشؤو م مما هو من خصائص الربوبية ؛ يقود إلى الإيمان بالله .

وزيادة الهدى دليل لأهل السنة والجماعة في معتقدهم بالإيمان ؛ وأنه يزيد وينقص[٢] ، قال الإمام الشافعي [٣]رحمه الله على هذه الآية : " ولو كان هذا الإيمان كله واحدا لا نقصان فيه ، لم يكن لأحد فيه فضل ، واستوى الناس فيه ، وبطل التفضيل ،ولكن بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة ،وبالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله في

---

(١) مدارج السالكين ٣٤١/٢ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ، باب الإيمان وقول النبي ﷺ بني الإسلام على خمس وهو قول وفعل ويزيد وينقص .

(٣) أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد ابن عبد يزيد بن هشام بن المطلب بن عبد مناف بن قصي بن كلاب ، القرشي ثم المطلبي الشافعي الإمام ، عالم العصر ، ناصر الحديث الفقيه ، نشأ بمكة ، وأقبل على الرمي حتى فاق فيه الأقران ، وصار يصيب من عشرة أسهم تسعة ، ثم أقبل على العربية ، والشرع فبرع في ذلك ، وتقدم ، ثم حبب إليه الفقه فساد أهل زمانه ، وصنف التصانيف ، ودون العلم ، ورد على الأئمة متبعا الأثر ، وصنف في أصول الفقه وفروعه ، وبعد صيته ، وتكاثر عليه الطلبة ، وقد أفرد الدارقطني كتاب من له رواية عن الشافعي في جزأين ، وصنف الكبار في مناقب هذا الإمام قديما وحديثا ، وتوفي سنة خمسين ومائة . انظر : سير أعلام النبلاء ٥/٨ .

الجنة ,وبالنقصان من الإيمان دخل المفرطون النار "[1].

بخلاف جميع الفرق الكلامية والتي "اتفقت على أصل واحد انطلقوا منه ، هو : أن الإيمان شيء واحد لا يزيد ولا ينقص "[2] .

ولهذا كل من أخطأ في باب الإيمان فقد أخطأ في تفسير هذه اللفظة﴿ وزدناهم هدى ﴾ بناء على خطئه في مذهبه في الإيمان ، فقد قال الزمخشري رحمه الله ﴿ وزدناهم هدى ﴾ :"بالتوفيق والتثبيت"[3]، ويوضح مراده بزيادة التوفيق والثبات في موضع آخر قائلا :"فزاد م إيمانا لأ ا أزيد لليقين والثبات ، وأثلج للصدر ، أو فزاد م عملاً فإن زيادة العمل ؛ زيادة في الإيمان ، لأنّ الإيمان يقع على الاعتقاد والعمل "[4] ، فعنده أن الإيمان يزيد لا بذاته ، بل لأن صاحبه يزداد يقينا ، ويضعف عنده الشك كلما عمل عملا صالحا ، فعادت الزيادة عنده على نتيجة الإيمان لا الإيمان نفسه .

وقال القرطبي [5]، وابن عطية رحمهما الله :"وقوله:﴿ وزدناهم هدى﴾أي :يسرناهم للعمل الصالح ، والانقطاع إلى الله عز وجل ، ومباعدة الناس ، والزهد في الدنيا وهذه

---

(1) تفسير الإمام الشافعي ، جمع وتحقيق ودراسة الدكتور أحمد الفران :١٠٥٧/٣،{ط١، التدمرية ،السعودية: ١٤٢٧هـ } .

(2) ظاهرة الإرجاء في العالم الإسلامي ، سفر بن عبد الرحمن الحوالي ، بإشراف الأستاذ محمد قطب :٤٠٢/٢،{ط١،مكتبة الطيب ،مصر: ١٤١٧هـ } .

(3) الكشاف ٦٦١/٢ .

(4) الكشاف ٣١٠/٢ .

(5) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح بإسكان الراء والحاء المهملة ، الإمام الأنصاري الأندلسي القرطبي ، المفسر ، كان من عباد الله الصالحين ، والعلماء العارفين الورعين ، الزاهدين في الدنيا المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة ، أوقاته معمورة ما بين توجه ، وعبادة ، وتصنيف ، جمع في تفسير القرآن كتابا كبيرا في التفسير ، سماه كتاب جامع أحكام القرآن ، وهو من أجل التفاسير ، وأعظمها نفعا ، أسقط منه القصص ، والتواريخ ، وأثبت عوضها أحكام القرآن ، واستنباط الأدلة ، وذكر القراءات ، والإعراب ، والناسخ والمنسوخ ، وله أرجوزة جمع فيها أسماء النبي ﷺ ، وله تآليف ، وتعاليق مفيدة غير هذه ، وكان مستقرا بمنية بني خصيب ، وتوفي ا ودفن في شوال من سنة إحدى وسبعين وستمائة للهجرة . انظر : الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمري المالكي :ص٣١٧-٣١٨،{ دار الكتب العلمية ، بيروت: بدون} .

زيادات على الإيمان "[١]، وذلك لأن الإيمان عندهم التصديق ، والتصديق عندهم غير قابل للزيادة والنقص ، فكانت زيادة الهدى لأهل الكهف زيادة في غير الإيمان ، بل بأشياء خارجة عنه .

ولا شك أن كل ذلك مجانب للصواب ، فأهل الكهف آمنوا بر م ، وعملوا الأعمال الصالحة ، فزادهم الله إيمانا إلى إيما م ، وإخلاصا كما قاله بعض السلف[٢] ، والهدى يطلق على الإيمان في آيات كثيرة منها قوله : ﴿ ولَو شاءَ الله لَجمعهم علَى الْهدى﴾[٣] ، وقوله :﴿ أنحن صددناكُم عنِ الْهدى﴾[٤] ، وقوله : ﴿ ولَقَد جاءَهم مِن ربهم الْهدى﴾[٥] .

ولفظ الهدى والإيمان كلفظ " الفقير والمسكين ، إذا أفرد أحدهما تناول الآخر ، وإذا عطف أحدهما على الآخر فهما صنفان " ، وفي " هذا التفصيل في الإيمان ، هو كذلك في لفظ البر والتقوى ، والمعروف ، وفى الإثم والعدوان ، والمنكر ، تختلف دلالتها في الإفراد والاقتران لمن تدبر القرآن "[٦] .

ويفهم من قوله : ﴿ آمنوا ِبربهم وزِدناهم هدى﴾ أن من آمن بربه وأطاعه ؛ زاده ربه هدى ، لأن الطاعة سبب للمزيد من الهدى ، والإيمان "[٧] .

كما يفهم منها أيضا أن الإيمان هو أهم المهمات ، وفاتحة لكل خير ، ومقدم على جميع الأعمال ، وكل عمل لا إيمان معه فهو باطل ، ويؤيد ذلك حديث عائشة [٨]رضي

---

(١) تفسير القرطبي ٣٦٥/١٠ ، والمحرر الوجيز ٥٠١/٣ .
(٢) الدر المنثور ٣٧١/٥ .
(٣) الأنعام : ٣٥ .
(٤) سبأ : ٣٢ .
(٥) النجم : ٢٣ .
(٦) مجموع الفتاوى ٣٩/١٣ .
(٧) أضواء البيان ٢١٣/٣ .
(٨) عائشة بنت أبي بكر الصديق ، زوج النبي ﷺ وأمها أم رومان بنت عامر بن عويمر بن عبد ، تزوجها رسول الله ﷺ بمكة قبل الهجرة بسنتين ، وهي بنت ست سنين ، وقبض عنها وهي ابنة ثماني عشرة سنة ، أفقه الناس ، وأعلم الناس ، وأحسن الناس رأيا في العامة ، توفيت سنة ثمان وخمسين . انظر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر ، تحقيق علي محمد البجاوي :١٨٨١/٤،{ دار

الله عنها أ ا قالت : يا رسول الله ، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه ، قال : لا ينفعه إنه لم يقل يوما : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين "[١].

ولهذا بدأ الله بذكره في قصة أصحاب الكهف ﴿ وزدناهم هدى إنهم فتيةٌ آمنوا بربهم ﴾ وتدل الآية على أن المؤمن لا غنى له عن هداية الله طرفة عين ، وأنه محتاج إلى إعانة الله كل وقت ، وكلما ازداد إيمانا ازداد تعلقا بربه ، والتجاءً إليه ، فلا يركن إلى إيمانه ، ولا يعتمد على نفسه ، فمع إيمان أهل الكهف زادهم الله هدى ، ورعاهم برعايته ، وربط على قلو م ، ولم يكلهم إلى أنفسهم ،"و ذا يعلم أن ضرورة العبد إلى ربه فوق كل ضرورة ، ولا تشبهها ضرورة تقاس ا ، فإنه إن أمسك عنه رحمته وتوفيقه وهدايته طرفة عين ؛ خسر وهلك "[٢] .

وفي قوله :﴿ وزدناهم هدى ﴾ بشارة لأهل الإيمان بأن الله مع عباده المؤمنين ، ومؤيد لهم ، ويتولاهم بنفسه ، ولهذا جاءت الصيغة﴿ وزدناهم هدى﴾ولم تأت وازدادوا هدى .

كما تدل على أن الهداية ملك لله ، وعنده منها مزيد ، فعلى العبد أن يلح على الله بطلبها ، ويتضرع إليه ليمده منها ، وتدل على بيان فضل الله على عباده ، وأنه يجازيهم بأكثر من أعمالهم ، فأهل الكهف آمنوا ، فجازاهم الله وزادهم هدى إلى هداهم ، وإيمانا إلى إيما م ، ومن فضل الله " الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة "[٣] ، " ومن تقرب إلى الله شبراً تقرب منه ذراعاً، ومن تقرب منه ذراعاً تقرب إليه باعاً "[٤] .

الجيل ،بيروت: ١٤١٢هـ } .

(١) أخرجه مسلم ،كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل ، برقم (٢١٤)١٩٦/١ .

(٢) إغاثة اللهفان ، محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية ، تحقيق محمد حامد الفقي :٧٧/١،{ط٢،دار المعرفة ،بيروت: ١٣٩٥هـ } .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب إذا هم العبد بحسنة ، برقم (١٢٩) .

(٤) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب الإيمان ، باب قول الله " كل شيء هالك إلا وجهه " برقم (٦٩٧٠) ، وأخرجه مسلم ، كتاب التوبة ، باب الحض على التوبة ، برقم (٢٦٧٥) .

وكما في الحديث الصحيح " ما تصدق أحد بصدقة من طيب ولا يقبل الله إلا الطيب ، إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة ، فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل ، كما يربي أحدكم فَلُوه أو فَصيله[1] "[2] .

وقوله :﴿ آمنوا بربهم وزدناهم هدى ,وربطْنا علَى قُلُوبِهِم ﴾ فيها فضائل الإيمان ، ومنها :

١ ـ أنه سبب للزيادة من كل خير ، فما ازدادوا هدى إلا بسبب إيمانهم بعد فضل الله سبحانه .

٢ ـ وأنه " يقوي القلب ، ويثبته على تحمل الشدائد ، والصبر الجميل "[3] ولذلك قال :﴿ وربطْنا علَى قُلُوبِهِم ﴾ قال قتادة [4]رحمه الله:"وربطنا على قلوبهم بالإيمان "[5].

وقوله :﴿ وربطْنا علَى قُلُوبِهِم ﴾ يتضمن عدة نعم منها :

١ ـ صبرهم على ما سيأتيهم من أذى "فيصبرون على فراق الأهل والنعيم ، والفرار بالدين في غار في جبل لا أنيس به ، ولا ماء ، ولا طعام "[6] .

٢ ـ تثبيتهم على ما هم عليه من الحق ، وهذا أحد نتائج الربط .

٣ ـ حصول الطمأنينة لهم،فإن الإنسان إذا ربط على قلبه اطمأن،واستقر فزعه.

٤ ـ حصول اليقين لهم[7] ، فإن من اطمأن ، وثبت ، وربط على قلبه حصل له من

---

(١) الفلو : المهريفصل عن أمه ، والفصيل ولد الناقة لأنه يفصل عن أمه . انظر : المصباح المنير ، مادة (فلو) و(فصل) ، ٤٧٤/٢و ٤٨١ .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الزكاة ، باب قبول الصدقة ، برقم (١٠١٤) ٧٠٢/٢.

(٣) أضواء البيان ٢١٤/٣ .

(٤) أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسي الأعمى الحافظ ، أخذ القرآن ومعانيه ، وروى عن أنس بن مالك ، وعبد الله بن سرجس ، وعنه أيوب ، وشعبة ، وأبو عوانة ، قال الحافظ ابن حجر : " ثقة ثبت " ، توفي سنة سبع عشرة ومائة للهجرة . انظر : طبقات المفسرين ص١٤ ، والكاشف ، الحافظ الذهبي ، تحقيق محمد عوامة :١٣٤/٢،{ط١، دار القبلة ،جدة: ١٤١٣هـ } . والتقريب ، الحافظ ابن حجر ، تحقيق محمد عوامة :ص٤٥٣،{ط١، دار الرشيد ،سوريا، ١٤٠٦هـ } .

(٥) الدر المنثور ٣٧١/٥ .

(٦) أضواء البيان ٢١٤/٣ .

(٧) تفسير الواحدي ، أبو الحسن علي الواحدي ، تحقيق صفوان عدنان داوودي :٦٥٥/٢،{ط١، دار القلم ،دمشق: ١٤١٥هـ} .

اليقين ما لا يحصل لغيره من فزع،وجزع ،وهذا أحد ثمرات الربط على القلب.

٥ ـ شجاعتهم " على القيام بكلمة الحق "[١]، فإن من معاني ربط " اشتد قلبه فلم يفر عند الفزع "[٢] ،وشجاعتهم في الآية ظاهرة ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا ربنا رب السمواتِ والْأَرضِ﴾.

٦ ـ حِفْظ الله لإيما م من أن يضيع في حال المواجهة مع قومهم ؛ لأن الإنسان قد يبتلى فلا يصبر ، وقد يكون ابتلاؤه فتنة له ، ولهذا ى النبي ﷺ فقال : " لا تتمنوا لقاء العدو ، وإذا لقيتموهم فاصبروا "[٣]،فحفظ الله لأهل الكهف إيما م بالربط على قلو م .

" وهذا من لطفه تعالى م وبره أن وفقهم للإيمان ، والهدى ، والصبر ، والثبات ، والطمأنينة "[٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً﴾[٥] .

فقوله:﴿ وربطْنا علَى قُلُوبِهم﴾ تدلنا على شدة ما لقيه أصحاب الكهف من أذى على صدعهم بالحق ؛ لأن الربط فيه معنى الشد بإحكام[٦] ، فأحكم الله الثبات على قلوب أوليائه من أهل الكهف زيادة على صبرهم ؛ لأن ما يلاقونه لا يثبت معه إلا المؤمنون حقا ، وبالمقابل تدلنا على جبروت أولئك القوم ، وشدة بطشهم لمن خالفهم حيث احتاج أهل الكهف لذلك من التثبيت ما وصفه الله بقوله﴿وربطْنا علَى قُلُوبِهم﴾ ويؤيد جبروت قومهم قولهم في آخر الآيات ﴿ إِنهم إِنْ يظْهروا علَيكُم يرجموكُم أَو

---

(١) الكشاف ٦٦١/٢ .

(٢) المعجم الوسيط ، مادة (ربط) ،ص ٣٢٣ .

(٣) متفق عليه أخرجه البخاري ، كتاب الجهاد والسير ، باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس ، برقم (٢٨٠٤)١٠٨٢/٣، ومسلم ،كتاب الجهاد والسير ، باب كراهية تمني لقاء العدو ، برقم (١٧٤١) ١٣٦٢/٣.

(٤) تفسير السعدي ، ص ٤٧٢ .

(٥) الكهف : ١٤ .

(٦) معجم مقاييس اللغة مادة(ربط) ،٤٧٨/٢ .

يعِيدوكُم ِفي ِملِتِهم ﴾فهي تصور التسلط البين .

كما يدلنا الربط على القلب على أن القلب له عمل كما أن الجوارح لها عمل، وهذا معتقد أهل السنة والجماعة في الإيمان[1]،ولهذا احتاج القلب إلى ربط ليؤدي عمله من الإيمان والجهاد والدعوة،وبالمقابل تدل الآية على أن القلب يمرض ويضعف.

فيربط على القلب قدر ما مع صاحبه من إيمان وتعلق بالله وإخلاص للقيام بأمره ، ولهذا فسر بعض السلف:﴿ وربطْنا علَى قُلُوبِهم ﴾ أي بالإيمان[2] ، والقلب الذي لا يربط عليه يضعف ، فلا يستطيع القيام بأمر ربه ، ويخذل فلا يوفق ، ولا يعان ، نسأل الله التوفيق والسداد .

وتعدية فعل﴿وربطْنا﴾ بحرف الاستعلاء (على) للمبالغة في الشد ، لأن حرف الاستعلاء مستعار لمعنى التمكن من الفعل "[3] .

وقيل في معنى حرف الجر (على) :" إن القلوب امتلأت من ذلك الربط ؛ حتى كأنه علاها ، وارتفع فوقها "[4] .

قوله : ﴿ ِإذْ قَاموا ﴾ يدل على أن تثبيت الله لقلب عبده ، وربطه على جأشه يأتي في الوقت الذي يكون العبد في أشد الحاجة إلى التثبيت ، فأهل الكهف آمنوا بر م ، وازدادوا هدى ، وعملوا الصالحات ، وسألوا الله وألحوا عليه بالدعاء ، فلما حان الوقت لقيامهم بقول الحق ، والصدع به ؛ ربط الله على قلو م في أشد الأوقات حاجة لذلك ، ويدل على ذلك الحرف " إذ " .

وقد ذكر المفسرون عدة أقوال في المراد بالقيام ، وهي :

١ ـ قيل : قاموا بين يدي الملك ، وهذا ذكره أكثر المفسرين[5] .

٢ ـ وقيل : المراد حين قاموا من النوم[1] ، وهذا قول ضعيف لا يؤيده سياق القصة

---

(١) الفتاوى ٦٧٢/٧ .

(٢) الدر المنثور ٣٧١/٥ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٧٢/١٥ .

(٤) القلب ووظائفه في الكتاب والسنة ، سليمان اليماني :ص١٨٨،{ط١، دار ابن القيم ،السعودية: ١٤١٤هـ } .

(٥) أضواء البيان ٢١٤/٣ .

، فإ م قالوا هذا القول قبل الاعتزال في الكهف .

٣ ـ وقيل : " أن يعبر بالقيام عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله ، ومنابذة الناس ، كما تقول قام فلان إلى أمر كذا ؛ إذا اعتزم عليه بغاية الجد "(٢) ، وهذا وإن كان سائغا لغة إلا أن قوله : ﴿وربطْنا علَى قُلُوبِهم ِإذْ قَاموا ﴾ يؤيد أن القول منهم كان لحدث من الأحداث جعلتهم يصدعون ذا القول .

٤ ـ وقيل : " كانوا عظماء مدينتهم ، فخرجوا فاجتمعوا وراء المدينة من غير ميعاد ، فقال رجل منهم أكبر القوم : إني لأجد في نفسي شيئاً ما أظن أن أحداً يجده ، قالوا : ما تجد ، قال : أجد في نفسي أن ربي رب السموات والأرض "(٣)،وهذا القول يؤيده الحديث الصحيح عن النبي ﷺ "الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف "(٤) ،ولعلهم لما تعارفوا بينهم ، وتآلفوا أصبحوا يذكرون هذا القول بينهم .

٥ ـ وقيل:"المراد بقيامهم انتصا م لإظهار شعائر الدين"(٥)،وهذا من لازم صدعهم بالحق ، أن يظهروا شعائر دينهم الذي يدينون به،ويستعدون نفسيا لتبعات ذلك.

٦ ـ وقيل:"قاموا في قومهم فدعوهم إلى التوحيد"(٦)،وهذا قريب من القول السابق.

٧ ـ وقيل : قاموا " على أرجلهم "(٧) ، ولعل من فسرها ذا لا يريد حقيقة القيام على الأرجل ، وإنما يريد أ م جهروا بدعو م في محافل واجتماعات القوم ، وقاموا ا خير قيام .

وما ذكره أكثر المفسرين من أ م قاموا بين يدي الملك ، لا يمنع أن يكون ذلك بعد أن اجتمعوا وتآلفوا ، وتعارفوا فيما بينهم على التوحيد ، فازدادوا مع الأيام بصيرة

---

(١) التفسير الكبير ٨٣/٢١ .

(٢) المحرر الوجيز ٥٠١/٣ .

(٣) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ،فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي :٨٣/٢١،{ط١، دار الكتب العلمية ،بيروت: ١٤٢١هـ ـ } .

(٤) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب الأرواح جنود مجندة ، برقم (٣١٥٨) ١٢١٣/٣، ومسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب الأرواح جنود مجندة ، برقم (٢٦٣٨) ٢٠٣١/٤ .

(٥) تفسير أبي السعود ٢١٠/٥ .

(٦) زاد المسير ١١٥/٥ .

(٧) البحر المحيط ١٠٢/٦ .

بدينهم وهدى ، ثم انتقلوا إلى دعوة قومهم حسب استطاعتهم ، واستغلوا أماكن اجتماعا م ، عند ذلك رفع أمرهم إلى الملك ، والذي طلب إحضارهم ، فلما قاموا بين يديه وسألهم ، ربط الله على قلو م فقالوا : ﴿ ربنا رب السمواتِ والْأرضِ ﴾ فيكون بعض أقوال المفسرين يمثل مرحلة من حياة أهل الكهف قبل هرو م للكهف ،والله أعلم .

وقد " تعلقت الصوفية في القيام ، والقول بقوله: ﴿ ِإذْ قَاموا فَقَالُوا ربنا رب السمواتِ والْأرضِ ﴾ وهذا تعلق غير صحيح ؛ هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته وشكروا لما أولاهم من نعمه ونعمته ، ثم هاموا على وجوههم منقطعين إلى ر م ، خائفين من قومهم ، وهذه سنة الله في الرسل والأنبياء والفضلاء الأولياء ، أين هذا من ضرب الأرض بالأقدام والرقص بالأكمام وخاصة في هذه الأزمان عند سماع الأصوات الحسان من المرد والنسوان ، هيهات بينهما والله ما بين الأرض والسماء ،ثم هذا حرام عند جماعة العلماء "[(١)] .

وقوله : ﴿ ربنا رب السمواتِ والْأرضِ ﴾ اختاروا ربوبيته للسموات والأرض دون غيرهما ؛ إما لعظمتهما ، فربوبيته لما دو ما أولى ، وإما لأن " ربوبيته عز وجل لهما تقتضي ربوبيته لما فيهما ، أي اقتضاء "[(٢)] .

وقد احتج أهل الكهف بتوحيد الربوبية ﴿ ربنا رب السمواتِ والْأرضِ ﴾ لأن المشركين يقرون به ، فبدأوا بما هو متفق عليه بينهم ، وهو أقوى في الحجة ، ومعلوم أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية[(٣)] ؛" فاستدلوا بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية "[(٤)] .

وقوله : ﴿ لَن ندعو ِمن دونِهِ ِإلَهاً ﴾ مع قوله ﴿ هؤلاءِ قَومنا اتخذُوا ِمن دونِهِ آلِهةً ﴾ تدلنا على أن تلك الأمة التي عاش فيها أصحاب الكهف أمة وثنية تعبد الأصنام من دون الله .

كما يدل على أن أي واسطة تدعى من دون الله فهي آلهة تعبد من دون الله ، وهذا

---

(١) تفسير القرطبي ٣٦٦/١٠ .

(٢) تفسير أبي السعود ٢١٠/٥ .

(٣) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز :ص٨٦،{ط٤،المكتب الإسلامي ،بيروت:١٣٩١هـ } .

(٤) تفسير السعدي ص ٤٧٢ .

شرك بالإجماع(١) .

كما تدل الآية أيضا على أن شرك الدعاء قديم عند الأمم ، حتى في نشأته الأولى فقد نشأ في جانب الدعاء .

وقولهم : ﴿لَن ندعو مِن دونِهِ إِلَهاً ﴾ تدل على ما هم عليه من كمال الإيمان ؛ والذي جعلهم ينفون دعاءهم لغير الله ويؤكدون النفي من جهات :

١ ـ النفي بلن " ولن لنفي التأبيد ، أي لا يقع منا هذا أبدا "(٢)،" وجاءوا بلن ؛ لأن النفي ا أبلغ من النفي بغيرها ، حتى قيل : إنه يفيد استغراق الزمان ، فيكون المعنى لا نعبد أبدا من دونه إلها أي معبودا آخر ؛ لا استقلالا ولا اشتراكا "(٣).

٢ ـ قولهم :﴿إِلَهاً ﴾وهي نكرة في سياق النفي فتعم(٤) .

٣ ـ القسم المقدر في قولهم :﴿ لَقَد قُلْنا إِذاً شطَطاً ﴾ لأن " في الكلام قسم مقدر ، واللام واقعة في جوابه "(٥) .

٤ ـ حكمهم على أنفسهم بالشطط وهو الجور لو قالوا ذلك ،مع علمهم أن تبعات هذا النفي والقسم ستكون الأذى بجميع صوره .

وقد غايروا بين اللفظين ، فقالوا :﴿ ربنا رب السمواتِ والْأرضِ﴾ ثم قالوا :﴿ لَن ندعو مِن دونِهِ إِلَهاً﴾ فغايروا بين اللفظين ﴿ربنا رب ﴾و﴿إِلَهاً ﴾ومن الحِكَم في ذلك ما يلي :

١ ـ " للتنصيص على رد المخالفين ، حيث كانوا يسمون أصنامهم آلهة .

٢ ـ وللإشعار بأن مدار العبادة وصف الألوهية .

٣ ـ وقد يقال إ م أشاروا بالجملة الأولى إلى توحيد الربوبية ؛ وبالجملة الثانية إلى

---

(١) نقل الإجماع ابن تيمية في الفتاوى ١٢٤/١ .

(٢) المصباح المنير في ذيب تفسير ابن كثير ، إعداد جماعة من العلماء ، بإشراف الشيخ صفي الرحمن المباركفوري :ص٦٣٣،{ط١، دار السلام ،الرياض: ١٤٢٠هـ }.

(٣) روح المعاني ٢١٨/١٥ .

(٤) انظر : روضة الناظر ، عبد الله بن أحمد المقدسي ، تحقيق الدكتور عبد العزيز السعيد :ص٢٢٢،{ط٢،جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ،الرياض: ١٣٩٩هـ} . وكذلك البحر المحيط ، بدر الدين بن ادر الزركشي ، تحقيق محمد بن محمد تامر :٢٧٠/٢،{ط١، دار الكتب العلمية ،بيروت: ١٤٢١هـ} .

(٥) روح المعاني ٢١٩/١٥ .

توحيد الألوهية،وهما أمران متغايران،وعبدة الأوثان لا يقولون ـذا ويقولون بالأول "[١] .

٤ ـ أو لعلهم أرادوا إفحام الخصوم بأن معرفتنا لرب السموات والأرض، جعلتنا نعبده وحده،ولا ندعو إلا إياه،فتوحيد الربوبية دعانا لتوحيد الألوهية.

وقد بدأ أهل الكهف بتقرير توحيد الربوبية بقولهم: ﴿ربنا رب السمواتِ والْأرضِ﴾ لأنه:

١ ـ " أول مراتب التوحيد .

٢ ـ والتوحيد الذي أقرت به الأرواح في عالم الذر[٢]، قال لها سبحانه : ﴿ أَلست بِربكُم ﴾[٣]"[٤].

٣ ـ ولأنه متفق عليه بين الناس ، ولم ينكره إلا مكابر .

وتخصيص أهل الكهف عبادة الدعاء من بين أنواع العبادة الأخرى يدل على أن الدعاء يجمع أنواعا كثيرة من العبادة ، حتى أطلق عليه في حديث النعمان بن بشير[٥] رضي الله عنه مرفوعا " الدعاء هو العبادة "[٦] .

---

(١) انظر روح المعاني ٢١٨/١٥ .

(٢) يشير إلى حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى " وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا " وأخرجه الترمذي في سننه ، محمد بن عيسى الترمذي ، تحقيق أحمد شاكر ،وآخرون ،{ دار إحياء التراث العربي،بيروت:بدون }كتاب التفسير ، باب ومن سورة الأعراف برقم (٣٠٧٥) .

والمستدرك على الصحيحين ،كتاب التفسير ، باب تفسير سورة الأعراف برقم (٣٢٥٦) وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

(٣) الأعراف : ١٧٢ .

(٤) انظر روح المعاني ٢١٨/١٥ .

(٥) النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة الأنصاري من بني كعب بن الحارث ابن الخزرج ، وأمه عمرة بنت رواحة أخت عبد الله بن رواحة ، ولد قبل وفاة النبي ﷺ بثماني سنين ، وهو أول مولود ولد للأنصار بعد الهجرة ، يكنى أبا عبد الله ، توفي سنة أربع وستين للهجرة . انظر : الاستيعاب ١٤٩٦/٤ .

(٦) أخرجه أبو داود في سننه ،سليمان بن الأشعث ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ،{دار الفكر،بيروت:بدون }. كتاب الصلاة ، باب الدعاء ، برقم (١٤٧٩)٧٦/٢، والترمذي ، كتاب التفسير ، باب ومن سورة البقرة ، برقم (٢٩٦٩)٢١١/٥ وقال : حسن صحيح ، وقال الحافظ في الفتح ، تحقيق محب الدين الخطيب :٤٩/١{ دار المعرفة،بيروت:بدون} : إسناده جيد .

فمن ذبح أو نذر أو استغاث أو توكل ورجا ؛ فهو في حقيقة الأمر يمارس نوعا من الدعاء لمن يتقرب إليه ـذه الأفعال ، فمن أفرد الله ـا فهو الموحد ، ومن أشرك فيها مع الله غيره فهو المشرك ،" فثبت ـذا أن الدعاء عبادة من أجل العبادات ،بل هو أكرمها على الله،فإن لم يكن الإشراك فيه شركا فليس في الأرض شرك،وإن كان في الأرض شرك فالشرك في الدعاء أولى أن يكون شركا من الإشراك في غيره من أنواع العبادة "[1] .

وتقديم الجار وا ـرور في قوله : ﴿ لَن ندعو مِن دونِهِ إِلَهاً﴾ أبلغ في النفي ، وهو يستلزم اليقين الذي وقر في قلوب الفتية ، وخرج على لسا ـم ، وصدقته أفعالهم ، فإن اليقين " له جهتان :

١ ـ اليقين من حيث هو أصل الإيمان ، إذ لا إيمان مع الشك .

٢ ـ اليقين من حيث هو درجة عليا من درجات الإيمان .

فاليقين في الجملة متعلقه الاعتقاد،وذلك أن مجمل الإيمان القلبي هو الإيمان بالغيب ،فإذا رسخ هذا الإيمان وارتقى عن الشكوك حتى يصبح كالمعاينة فهو اليقين"[2].

وذكروا أولا الفعل ﴿لَن ندعو ﴾ ثم ذكروا القول ﴿لَقَد قُلْنا﴾ لأن مقصودهم بالدعاء في قولهم ﴿ لَن ندعو ﴾ هو الدعاء المعروف بالتضرع إلى المعبود[3] .

وفيه وجه آخر وهو أن الفعل يرتبط بالقول ؛ فمن أشرك في أفعاله ؛ أشرك أيضا في أقواله ، وهذا أوفق لأنه يتمشى مع مذهب أهل السنة والجماعة في أن الإيمان قول وعمل ، وبالتالي الشرك يقع فيهما أيضا .

وقول أهل الكهف:﴿ لَن ندعو مِن دونِهِ إِلَهاً ﴾ تفسير لكلمة (لا إله إلا الله) فالنفي في : ﴿لَن ندعو ﴾ يقابل النفي في " لا إله " ، وإثبات الألوهية في الهاء في﴿دونِهِ﴾ يقابل الإثبات في " إلا الله " فقول أهل الكهف تفسير عملي للمطلوب الحقيقي من قول لا إله إلا الله ، " فمعنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله أن لا يعبد إلا الله ، ولا يعتقد النفع

---

(١) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ، تحقيق محمد أيمن الشبراوي :ص١٧٧،{ط١، عالم الكتب ،بيروت: ١٩٩٩م} .

(٢) انظر : ظاهرة الإرجاء في العالم الإسلامي ٥٩٢/٢ .

(٣) انظر : تفسير روح المعاني ٢١٩/١٥ بتصرف .

والضر إلا في الله ، وأن يكفر بما يعبد من دون الله ويتبرأ منها ومن عابديها "[1] ، كما فعل أهل الكهف .

وقد جمع أهل الكهف في أقوالهم أركان العبادة الثلاثة ؛ المحبة والخوف والرجاء ، وبيان ذلك كما يلي :

أما المحبة : فمن دلالة قولهم: ﴿ ربنا رب السمواتِ والْأرضِ﴾ وقولهم :﴿ لن ندعو مِن دونِهِ إِلَهاً ﴾ فهذا النفي لا يكون إلا مع كمال المحبة .

وأما الخوف : فمن دلالة قولهم ﴿ لقد قُلْنا إِذاً شططاً﴾فإن نتيجة الشطط مما يحذرها المسلم .

وأما الرجاء : فلقولهم : ﴿ربنا آتِنا مِن لَدنك رحمةً وهيئْ لنا مِن أمرِنا رشداً﴾ . ولقولهم : ﴿ ينشر لَكُم ربكُم مِن رحمتِهِ ويهيئْ لَكُم مِن أمرِكُم مِرفَقاً﴾ وهذه الأركان الثلاثة " عليها مدار مقامات السالكين جميعها "[2] .

كما أن أقوال أهل الكهف في هذه السورة جمعت أعظم الأعمال القلبية،ومنها :

المحبة ، والخوف ، والرجاء ، واليقين ، وقد مضى بيا ا ، وكذلك الزهد والذي ظهر من خلال زهدهم في أفعال قومهم ، وإيثارهم اعتزال الحياة المدنية بنعومتها ، سواء أكانوا أبناء ملوك[3] ، أم من عوام أهل المدينة .

وقولهم :﴿ ينشر لَكُم ربكُم مِن رحمتِهِ ﴾ " فيه ما كانوا عليه من التوكل ، حيث أووا إلى كهف ، ورتبوا على مأواهم إليه نشر رحمة الله عليهم ، و يئة رفقه تعالى م ؛ لأن من أخرجه من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان لا يضيعه "[4] ، فقاموا بأمر الله وهم يعلمون أن أحدا لن يقف معهم تجاه طغيان الملك وأعوانه ، والتجاؤهم للكهف يؤيد أ م لا يعرفون أحدا ينصرهم .

ومقام الإخلاص والصدق ظاهر في:﴿ لن ندعو مِن دونِهِ إِلَهاً ﴾وصدق ذلك فعلهم.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص ١١٦ .

(٢) طريق الهجرتين ، محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية ، تحقيق عمر أبو عمر :ص٤٢٢،{دار ابن القيم ،الدمام: ١٤١٤هـ } .

(٣) انظر الدر المنثور ٣٦٧/٥ .

(٤) البحر المحيط ١٠٣/٦ .

ومن أعمال القلب أيضا حسن ظنهم بر م في قولهم: ﴿ ينشر لَكُم ربكُم مِن رحمتِهِ ويهيئْ لَكُم مِن أمرِكُم مِرفَقاً ﴾ مع أ م يعلمون حقيقة الكهف ، وضيقه .

ومن مقاما م مقام التسليم لأمر الله ولو خالف عادات ا تمع ، ويقصد به " تسليم لحكمه الديني الأمري ، وتسليم لحكمه الكوني القدري "[1] .

وصبرهم على مفارقة قومهم ، وعلى الأذى الذي سينالهم ، حققوا به مقام الصبر .

وم لة الثقة بنصر الله في قولهم: ﴿ ينشر لَكُم ربكُم مِن رحمتِهِ ﴾ " وساقه مساق الحاصل ؛ لشدة ثقتهم بلطف ر م بالمؤمنين "[2] .

بل أستطيع القول بأن أهل الكهف حققوا أعمال القلب الذي لا يكون الإنسان مؤمنا إلا ا غاية التحقيق ، ومعلوم أن أعمال القلب متداخلة يستلزم بعضها بعضا ، وبعضها أرفع من بعض .

وقوله : ﴿لَقَد قُلْنا إِذاً شطَطاً﴾ فيه إظهار لقبائح الشرك ، لأن الشطط يجتمع فيه :

البعد عن الصواب ، والتعدي ، والجور [3]، والظلم[4] ، والكذب[5] ، والخطأ[6] ، والزيادة[7] ؛ وكلها أوصاف لائقة بالشرك بالله ، فالمشرك بعيد جدا عن الصواب إذ كيف يسوي غير الله بالله ، ومتعد وجائر في أقواله وأفعاله ، وظالم لنفسه ، وكاذب في ادعائه على الله ، ومخطئ في تصوره ، وزاد على ما شرعه الله .

ولهذا بالغ أهل الكهف في وصف الشرك بقولهم :﴿شطَطاً﴾وهو وصف " بالمصدر مبالغة ، أي هو عين الشطط،ثم اقتصر على الوصف مبالغة على مبالغة"[8] .

وقال تعالى:﴿هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ

---

(١) مدارج السالكين ١٤٦/٢ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٧٧/١٥ .

(٣) الأقوال الثلاثة الأولى انظرها : لسان العرب مادة (شطط) ٢٥٧/٦ ، و ٣٣٣/٧ .

(٤) الكشاف ٦٦١/٢ .

(٥) فتح القدير ٢٧٤/٣ .

(٦) الدر المنثور ٣٧١/٥ .

(٧) الأفعال ٢٩٥/٣ .

(٨) انظر : تفسير أبي السعود ٢١٠/٥ بتصرف .

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾[١] .

فقوله:﴿ هؤلاءِ قَومنا اتخذُوا مِن دونِهِ آلِهةً ﴾ " اسم الإشارة تحقير لهم"[٢]،"وتعريض بالتعجب من حالهم ، وتفضيح صنعهم "[٣]،فهم لا يقيمون وزنا لكل من لم يعبد الله ، فمدار التزكية عندهم يدور على عبودية الله .

وقد جمعوا في هذه الآية أركان تحقيق لا إله إلا الله ، وهما شرطان :

١ ـ الكفر بما يعبد من دون الله ،وقد حققوه بقولهم: ﴿لَن ندعو مِن دونِهِ إلَهاً ﴾ .

٢ ـ البراءة مِن كل من لم يعبد الله ولو كانوا ذوو قربى ، وقد حققوه بقولهم :﴿ هؤلاءِ قَومنا اتخذُوا مِن دونِهِ آلِهةً ﴾ومعلوم أن قومهم فيهم ذوي قرابة لهم ، فلم يمنعهم ذلك من البراءة منهم بعد دعو م .

وقولهم :﴿ هؤلاءِ قَومنا اتخذُوا مِن دونِهِ آلِهةً ﴾ جملة خبرية ، وهي " إخبار في معنى إنكار "[٤]، ويرجع ذلك إلى تحقيق التوحيد الكامل في قلو م ؛ حيث إ م جمعوا بين دعوة قومهم ، والبراءة من معبودا م ، والإنكار عليهم .

وهذا القول من فتية الكهف يحتمل أن يكون مقالة قالوها في مقامهم بين يدي الملك ، وتصلح أن تكون من قول بعضهم لبعض ؛ عند قيامهم للأمر الذي عزموا عليه فإن قالوها بين يدي الملك ففيها الشجاعة والصدع بالحق ، وإن كان فيما بينهم فعلى المؤمن أن يتذاكر مع إخوانه مظاهر الخلل في ا تمع ، وعليهم تدارس أهم المسائل ، وتقوية بعضهم لإيمان بعض ؛ خاصة في زمن الغربة الذي يقل فيه النصير .

وقولهم :﴿ هؤلاءِ قَومنا ﴾ يدل على أن الكثرة لا تعني الصواب ، حيث إن كثيرا ما يكون الصواب مع الفئة القليلة ، وهذا يرد به على من جعل الكثرة مرادفة للصواب .

قوله :﴿ لَولا يأْتونَ علَيهم بِسلْطَانٍ بينٍ ﴾ " لولا في هذه الآية الكريمة للتحضيض ، وهو الطلب بحث وشدة ، والمراد ذا الطلب التعجيز ؛ لأنه من المعلوم أنه لا يقدر أحد

---

(١) الكهف : ١٥ .

(٢) تفسير أبي السعود ٢١٠/٥ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٧٤/١٥ .

(٤) الكشاف ٦٦١/٢ .

أن يأتي بسلطان بين على جواز عبادة غير الله تعالى "[1] .

وفيه " تبكيت ؛ لأنّ الإتيان بالسلطان على عبادة الأوثان محال "[2] .

وإنما قال:﴿علَيهم﴾ والأصنام مؤنثة ؛ لأن الكفار نحلوها العقل والتمييز ، فجرت مجرى المُذَكرين من الناس "[3] ،ويصح أن يعود الضمير على الاتخاذ ، أي لولا يأتون على الاتخاذ من دون الله بسلطان بين .

والآية تدل على أن أهل الكهف مارسوا الدعوة واقعا عمليا ، وخالطوا قومهم ، وسمعوا حججهم ، وتحاوروا معهم ، وهذا الذي يفيده نفي أهل الكهف من عدم وجود حجة عند قومهم ، وهكذا أولياء الله ينصرهم الله بالحجة والبرهان ، كما ينصرهم بالسيف والسنان .

كما تدل الآية على أن الإيمان بالله لا يكفي فيه التقليد ، وإنما لا بد من اليقين بدليل ، وهذا في الجملة دون التفصيل .

وذكر السلطان في كلام أهل الكهف دليل على أن معهم كتبا يقرءو ا ، هي بقايا من دين نبي قبلهم ، ويؤيد ذلك :

١ ـ لفظ الرقيم ، وقد مضى تفسيره .

٢ ـ طلب أهل الكهف الحجة من قومهم ، يشعر بأن لهم حججا في عباد م لله ، غير الاحتجاج بربوبيته ، وخلقه للسموات والأرض ، وهذا لا يكون غالبا إلا من أثارة من علم .

وقولهم: ﴿ لَولا يأْتونَ علَيهم ِبسلْطَانٍ بينٍ ﴾ قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب [4]رحمه الله : " فهذه المسألة مفتاح العلم وما أكبر فائد ا لمن فهمها "[1] ويظهر لي أن

---

(١) أضواء البيان ٢١٦/٣ .

(٢) الكشاف ٦٦١/٢ .

(٣) زاد المسير ١١٥/٥ .

(٤) الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد التميمي ، ولد في بلدة العيينة ، ورباه والده فأحسن تربيته ، وقرأ القرآن وحفظه في صغره ، كثير المطالعة لكتب الحديث ، والفقه ، درس على كثير من أهل العلم المتقنين في زمانه ، منهم والده ، والشيخ عبد الله بن سالم البصري ، والشيخ عبد الله بن سيف الشمري ، ومن تلاميذه ابناؤه حسن ، وعبد الله ، وعلي ، وإبراهيم ، والشيخ حمد بن معمر ، وغيرهم كثير ، وله مؤلفات جليلة ، ومنها كتاب التوحيد ، وآداب المشي إلى الصلاة ، والقواعد الأربع ،

بيان ذلك من أوجه :

١ ـ أن الإنسان لا بد أن يكون على بصيرة من أفعاله،ومن ذلك الدليل القاطع.

٢ ـ وأن العبادة تكون توقيفية ، مبنية على دليل .

٣ ـ وأن الأدلة على أنواع ، فمنها البين الظاهر ، ومنها دون ذلك .

٤ ـ وفي حال وجود الدليل البين الظاهر،يجب التسليم بمدلوله؛لأن السلطان يطاع ، والحجة تتبع .

٥ ـ ونفت الآية وجود أي دليل على صحة معتقد كفري .

٦ ـ وأن العلم النافع هو الحجة المحكمة، وهذا من دلالة وصف الدليل بأنه سلطان .

٧ ـ وأن عبادة الله سلطا ا بين ظاهر ، إذ نفي الشيء عن أحد المتقابلين إثبات لضده .

٨ ـ وأن الدليل القوي ما كان قريباً في فهمه ، ظاهراً في دلالته ، يصعب رده ، وهذا هو السلطان البين .

٩ ـ وأن الأدلة المعقدة التركيب ، غير مترابطة الأجزاء،والتي ينقصها البيان ، ليست من العلم ، ومما يمثّل له في ذلك أدلة المتكلمين في تقريرهم لعقائدهم .

١٠ ـ وتوجه الآية العناية بالأدلة الظاهرة ، والاكتفاء ا دون غيرها .

١١ ـ وأن مسائل التوحيد أدلته ظاهرة .

١٢ ـ وأن الدين لا يؤخذ إلا بالحجة الظاهرة .

١٣ ـ وأن أدلة الشبهات ليست بينة محكمة، ولهذا يسهل تفنيدها على من وفقه الله سبحانه وتعالى .

وقوله : ﴿ فَمن أَظْلَم مِمنِ افْترى علَى اللهِ كَذِباً ﴾ يدل على أن كل من لم يعبد الله ؛ فهو كاذب على الله في عبادته غيره ، وأن " هذا من افتراء الكذب على الله ، وأنه

وتوفي سنة ست ومائتين وألف للهجرة . انظر : عنوان ا د في تاريخ نجد ، للأديب عثمان بن عبد الله بن عثمان الحرقوصي ، تحقيق عبد اللطيف آل الشيخ :١٠٩/٢،{طبع وزارة المعارف ، الرياض :١٣٩٤هـ} ومنهج الإمام محمد بن عبد الوهاب في مسألة التكفير ، أحمد بن جزاع الرضيمان ، بإشراف الدكتور ناصر العقل : ١٧-٢٠ باختصار ،{ دار الفضيلة ،الرياض: ١٤٢٦هـ }.

(١) تفسير آيات من القرآن الكريم ، ص ٢٤٤ .

أعظم أنواع الظلم ولو كان صاحبه لا يدري ، بل قصد رضا الله "[١]، فالنية لا تكفي لتصحيح الفعل ، بل لا بد أن يكون موافقا لما شرعه الله على نبيه ﷺ .

كما تدل على أن كل من خالف في أمر من أمور العقيدة فقد ناله من الافتراء على الله نصيب على قدر مخالفته ، فمن عبد مع الله غيره فقد افترى على الله كذبا ، كما أن من عطّل الله عن صفاته فهو مفتر ، ومن نسب لله الولد فقد افترى ،ومن أخرج الأعمال عن الإيمان فهو مفتر على دين الله ، ومن شبه الله بخلقه فهو أيضا مفتر على ربه ، فلا يصدق صدقاً كاملاً إلا الفرقة الناجية ، والتي أطاعت الله بما أمرها به ، وتركت ما اها الله عنه .

وقال تعالى : ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً﴾[٢] .

فقوله : ﴿ وإذِ اعتزلْتموهم وما يعبدونَ إلا الله ﴾ " خطاب من بعضهم لبعض حين عزموا على الفرار بدينهم "[٣]، والمراد " اعتزال قومكم في أجسامكم وأديانكم "[٤] ، وهذا يؤكد " اعتزال أهل الشرك واعتزال معبوديهم "[٥] ، إلا أن مما ينبغي التنبيه إليه أن الاعتزال لا يعني ترك الدعوة ، وإنما ترك الركون إليهم ، وإلى معبودا م ، وترك الرضا باعتقادهم ، وموافقتهم ، ومداهنتهم ، فأصحاب الكهف دعوا قومهم ، كما نص عليه المفسرون ، على اختلاف بينهم في طريقة الدعوة ، ومكا ا ، وفئا ا ، كما مضى بيانه .

والآية تدل على " جواز الفرار من الظالم ، وهي سنة الأولين "[٦] .

كما تدل على أنه لا يلزم الإنسان المقيم بديار كفار أن يقاتلهم،حيث لا يستطيع

---

(١) تفسير آيات من القرآن الكريم ، ص٢٤٤ .

(٢) الكهف : ١٦ .

(٣) التسهيل لعلوم الت يل ، محمد بن أحمد الكلبي : ١٨٣/٢،{ط٤،دار الكتاب العربي ،بيروت: ١٤٠٣هـ } .

(٤) تفسير السعدي ، ص٤٧٢ .

(٥) تفسير آيات من القرآن ، ص٢٤٤ .

(٦) أحكام القران،محمد بن عبد الله بن العربي،تحقيق محمد عبد القادر عطا:٢٣٢/٣،{ دار الفكر العربي، بيروت: بدون} .

مقاتلتهم لكثرة عددهم[1]،وإنما يعتزل كحال أهل الكهف ، أو " الهجرة لسلامة الدين ، وقبح المقام في دار الكفر إذا لم يمكن المقام فيها إلا بإظهار كلمة الكفر"[2].

وقوله : ﴿ وما يعبدونَ إلا الله ﴾يحتمل ما يلي :

١ ـ أن يكون استثناء متصلاً ؛ على ما روي أ م كانوا يقرون بالخالق ويشركون معه ، كما أهل مكة .

٢ ـ وأن يكون منقطعاً .

٣ ـ كلام معترض؛إخبار من الله تعالى عن الفتية أ م لم يعبدوا غير الله[3].

والقول بأ ا جملة معترضة لا يناسبها السياق ، وأما أن الاستثناء متصل فجائز ، ويؤخذ منه أن اعتزال الكفار ، وبغضهم " لا يجرك إلى ترك ما معهم من الحق "[4] .

وأقوى الوجوه أن يكون الاستثناء منقطعا ، وهو اللائق بحال أهل الكهف في براء م من قومهم ، ومعبودا م ، واعتزالهم ، فلم يبق لهم إلا الله ، فالاستثناء يتضمن معنى الانقطاع لله وحده ، والتبتل إليه ، وهذا يناسب حال فتية ردت دعو م في أمة وثنية ، دعوها فلم تستجب ، فرأوا غربتهم بينهم ، فاعتزلوا مجالسهم ، وأنديتهم ، واجتماعا م القائمة على عبودية غير الله ، وانقطعوا لعبادة ر م ، ويؤيد ذلك أ ا في مصحف ابن مسعود[5] رضي الله عنه ﴿وما تعبدون إلا الله ﴾[6] .

---

(١) انظر : تفسير السعدي ، ص ٤٧٢ .

(٢) روح المعاني ٢٢١/٢ .

(٣) ينظر : الكشاف ٦٦١/٢ .

(٤) تفسير آيات ، ص ٢٤٤ .

(٥) أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود بن غافل بالغين المنقوطة والفاء ، الهذلي ، حليف بني زهرة ، وكان أبوه مسعود بن غافل قد حالف في الجاهلية عبد الله بن الحارث ، وأمه أم عبد بنت عبد ود بن سواء ، كان إسلامه قديما في أول الإسلام ، وكان سبب إسلامه أنه كان يرعى غنما لعقبة بن أبي معيط ، فمر به رسول الله ﷺ ، وأخذ شاة حائلا من تلك الغنم فدرت عليه لبنا غزيرا ، وكان يعرف في الصحابة بصاحب السواد ، والسواك ، شهد بدرا ، والحديبية ، وهاجر الهجرتين جميعا الأولى إلى أرض الحبشة ، والهجرة الثانية من مكة إلى المدينة ، فصلى القبلتين ، وشهد له رسول الله ﷺ بالجنة ، وتوفي سنة اثنتين وثلاثين ودفن بالبقيع . انظر : الاستيعاب : ٩٨٧/٣ .

(٦) الدر المنثور ٣٧١/٥ .

قوله : ﴿ فَأْووا إِلَى الْكَهْفِ ﴾ " التعريف في الكهف ، يجوز أن يكون تعريف العهد ، بأن كان الكهف معهودا عندهم يتعبدون فيه من قبل ، ويجوز أن يكون تعريف الحقيقة ، أي فأووا إلى كهف من الكهوف "[1] .

قوله : ﴿ ينشر لَكُم ربكُم مِن رحمتِهِ ويهيئْ لَكُم مِن أَمرِكُم مِرفَقاً ﴾ " يدل على أن اعتزال المؤمن قومه الكفار ومعبوديهم ؛ من أسباب لطف الله به ورحمته "[2] ، وقد جاء في الحديث " من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه "[3] .

وطلبهم انتشار الرحمة في الكهف يدل على أنه ليست العبرة بسعة المسكن ، وإنما العبرة بما ينشره الله في المسكن من رحمته وبركته ، ومثله المركب ، ومظاهر الحياة الدنيوية .

والملاحظ اختلاف ألفاظ فتية الكهف فمرة يقولون:﴿ربنا رب السمواتِ والْأَرضِ﴾ ،ومرة قالوا:﴿ لَن ندعو مِن دونِهِ إِلَهاً﴾ ،وأخرى قالوا :﴿ ينشر لَكُم ربكُم مِن رحمتِهِ ﴾ ،وكل لفظ اختاروه في مكانه المناسب ، ففي مقام محاجة الكفار ، ذكروا جانب ربوبية الله التي لا ينكرها أحد ، وفي جانب تحقيق التوحيد ذكروا الألوهية ؛ لأن الشرك يقع فيها ، وعندما أرادوا الاعتزال في الكهف ذكروا ربوبيته التي تعم جميع الخلق ، وهذا من فقه الدعوة .

وسر قول فتية الكهف ﴿ ينشر ﴾ :

١ ـ مقابلة لضيق الكهف ، فلأن الجميع يعلم أن الكهف ضيق ، وليس بالمكان الآمن من الهوام وغيرها ، وينعدم فيه الطعام والشراب ، فأتوا بكلمة ﴿ ينشر ﴾ للدلالة

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧٧/١٥ بتصرف يسير .

(٢) أضواء البيان ٢١٧/٣ .

(٣) أخرجه في حلية الأولياء،أحمد بن عبد الله أبو نعيم الأصبهاني :١٩٦/٢،{دار الكتاب العربي ،بيروت: ١٤٠٥هـ }، وقال أبو نعيم : غريب لم نكتبه إلا من هذا الوجه . وأخرجه في تاريخ دمشق،ابن عساكر ، تحقيق محب الدين العمري :٣٤٧/١٠،{دار الفكر،بيروت: ١٩٩٥م} . وقال السخاوي : لكن له شواهد . انظر المقاصد الحسنة فيما اشتهر على الأسنة ، أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي ، تحقيق محمد الخشت :ص٥٧٧،{ط١،دار الكتاب العربي ،بيروت: ١٤٠٥هـ } . وقال المناوي : والمعروف وقفه . انظر :التيسير بشرح الجامع الصغير،لزين الدين المناوي:٣٤٦/٢، {ط١، مكتبة الإمام الشافعي ،الرياض: ١٤٠٨هـ } .

على أن المكان وإن ضاق ، إلا أنه يتسع لما تنتشر فيه رحمة الله ، ويؤيد ذلك أن " مفعول ينشر محذوف أي : الخير ونحوه "[1] .

٢ ـ تفاؤلا بأن الله سيعطيهم القدر الكافي من الرحمة ، حيث " شبه تعلق الصفة المتكرر بنشر الثوب في أنه لا يبقى من الثوب شيئا مخفيا "[2] .

والملاحظ أنه لا يوجد فرق بين دعاء أهل الكهف لما أووا إلى الكهف حيث قالوا : ﴿ ربنا آتِنا مِن لَدنك رحمةً وهيئْ لَنا مِن أمِرنا رشداً﴾ ,وبين تخاطبهم فيما بينهم لما قرروا الاعتزال ، حيث قال بعضهم لبعض : ﴿فَأْووا إلى الْكَهفِ ينشر لَكُم ربكُم مِن رحمِتِه ويهيئْ لَكُم مِن أمِركُم مِرفَقا﴾ .

فقولهم:﴿من لَدنك رحمةً ﴾ هو قولهم:﴿مِن رحمِتِه ﴾فالجملتان تفيدان طلب الرحمة الخاصة من عنده .

وجزمهم في قولهم:﴿ويهيئْ لَكُم مِن أمِركُم مِرفَقا ﴾ قيل: "إما أن يقولوا ذلك ثقة بفضل الله ، وقوة في رجائهم لتوكلهم عليه ، ونصوع يقينهم ، وإما أن يخبرهم به نبي في عصرهم ، وإما أن يكون بعضهم نبيا "[3].

وأبعد الأقوال عن الصواب أن يكون بينهم نبي إذ لا دليل عليه من الآيات ، ولا من السنة ، وكذلك القول بأن نبياً لهم معاصر أخبرهم بذلك ، فالذي يظهر أن نبي تلك الأمة غير معاصر لهم ، لكن دينه وصل لأهل الكهف ، ولعل الرقيم والألواح التي كانت معهم فيها شيء من كتاب ذلك النبي فآمنوا به وصدقوه ، فكان عندهم من اليقين ، والثقة بنصر الله ، وفضله ما جعلهم يحسنون الظن بر م في يئته لهم مرفقاً .

وقال تعالى:﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً﴾[4] .

---

(١) روح المعاني ٢٢١/١٥ .
(٢) التحرير والتنوير ٢٧٧/١٥ .
(٣) الكشاف ٦٦١/٢
(٤) الكهف : ١٧ .

فقوله : ﴿ وترى الشمس إِذَا طَلَعت تزاور عن كَهفِهم ذَات الْيمِين ﴾ يبين جهة الكهف وفيها أقوال :

١ ـ جهته إلى الشمال،وهو ترجيح ابن كثير رحمه الله وغيره من المفسرين[(١)] .

٢ ـ جهته إلى الجنوب[(٢)] .

٣ ـ جهته إلى الشمال الغربي ، وهو ما يميل إليه العلامة أبو السعود[(٣)]رحمه الله ، فقال: " ولعل ميل الباب إلى جانب الغرب كان أكثر ، ولذلك أوقع التزاور على كهفهم ، والقرض على أنفسهم "[(٤)] .

٤ ـ جهته إلى الشمال الشرقي ، وهو ترجيح الطاهر ابن عاشور[(٥)] رحمه الله[(٦)] .

وذكرت هذه الفائدة لأن لها تعلقا بالآيات ، إذ أن صاحب كل قول من هذه

---

(١) انظر تفسير زاد المسير ١١٨/٥ ، تفسير ابن كثير ١١٣/٩ .

(٢) انظر تفسير البيضاوي ٤٣٨/٣ ، و الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في قصة أهل الكهف والرقيم ، مجدي إبراهيم السيد إسماعيل :ص٥١،{ دار طيبة الخضراء ،مكة :بدون} .

(٣) محمد بن محمد مصطفى العمادي ، الحنفي ، ولد بقرية قريبة من القسطنطينية ، من بيت علم ودين ، قرأ كثيرا من العلوم على والده ، وتتلمذ على كثير من جلة العلماء ، فاستفاد علما جما ، وذاع صيته ، وفاضت شهرته ، وتولى التدريس في كثير من المدارس التركية ،ثم تولى القضاء في كثير من المدن ، ومكث في منصب الإفتاء نحوا من ثلاثين سنة ، يكتب الجواب على منوال ما يكتبه السائل ، فإن كان منظوما أجاب بنظم ، وإن كان مسجوعا أجاب بسجع ، وهكذا ، وتوفي بالقسطنطينية سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة للهجرة . انظر : التفسير والمفسرون ، محمد حسين الذهبي :٣٤٥/١،{ط٢، دار إحياء التراث العربي ،بيروت: ١٣٩٦هـ } .

(٤) تفسير أبي السعود ٢١٢/٥ .

(٥) العلامة الشيخ محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور ، ولد في ضاحية المرسى في تونس ، شب في أحضان أسرة علمية ، التحق بجامع الزيتونة ، ذا أسلوب محكم النسج ، شديد الأسر ، يذكر بأرباب البيان الأوائل ، حافظ للحديث ، راسخ في الفقه ، وأصوله ، متمكن في اللغة ، والأدب ، ومما يثير الاستغراب فهو أن له صلة بالطب ، وله مخطوطات في التاريخ ، وأول من جمع بين منصب شيخ الإسلام المالكي ، وشيخ الجامع الأعظم الزيتونة ، وأول من تقلد جائزة الدولة التقديرية للدولة التونسية ، وأول من أحيا التصنيف في مقاصد الشريعة في عصرنا الحاضر ، وتوفي سنة ١٣٩٤ للهجرة . انظر : مدخل لتفسير التحرير والتنوير ، محمد بن إبراهيم الحمد :ص١٣-٢٨باختصار شديد،{ط١،دار ابن خزيمة، الرياض: ١٤٢٨هـ } .

(٦) التحرير والتنوير ٢٧٩/١٥ .

الأقوال حاول أن يجد له مستندا من الآيات ، بخلاف الخوض في أسماء أصحاب الكهف فهو مما لا فائدة تحته ، ولا طائل من ورائه ولذلك لم أتعرض لذكره .

فعلى القول بأن وجه الكهف لجهة تصيبها الشمس لكن يحجب الله أشعتها عن أن تصيبهم ؛ فيها دلالة على أن مخلوقات الله من الشمس وغيرها ؛ يسخرها الله لخدمة عباده المؤمنين ، وهي مطيعة لربها سبحانه بما أمرها .

وقوله :﴿ وإذَا غَربت تقْرِضهم ذَات الشمال ﴾ فيها قراءتان ، ولهما تعلق بمعنى الآية وهما[1] :

١ ـ قراءة الجمهور " بفتح التاء " ، وعلى هذه القراءة فالمعنى فيه أقوال :

أ ـ الجمهور من المفسرين على أنه بمعنى : تتركهم ،وإن اختلفت عباراتهم في ذلك[2] .

ب ـ وقيل تقرضهم أي تعطيهم من ضوئها شيئا يسيرا ، " ورد :بأنه لم يسمع للقرض بهذا المعنى فعل ثلاثي ليفتح حرف المضارعة "[3] .

٢ ـ قراءة " فتح الياء " " يقرضهم " وعلى هذا فالمراد بالمُقرِض ، قيل :

أ ـ الكهف ، أي يقتطعهم الكهف بظله من ضوء الشمس .

ب ـ وقيل غروب الشمس .

وقوله : ﴿ وهم ِفي فَجوةٍ ِمنه ﴾تدل على أمور هي :

١ ـ أن الشمس تصيبهم لولا رحمة الله ، وهذا أظهر في الإعجاز , وبيان قدرة الله .

٢ ـ أنه من داخل الكهف فيه متسع لهم ، فلم يكن الكهف ضيقا جدا،لا يتمكنون فيه من الاجتماع،ولم يكن واسعا يضيع معه معنى الكهف ، ولعل هذا يؤيد ما سبق من أن الكهف كان معروفا عندهم من قبل ، فقد كانوا يتعبدون فيه بعيدا عن أذى قومهم،وقد قالوا في بداية إيوائهم إليه:﴿وإِذِ اعتزلْتموهم وما يعبدونَ إِلا الله فَأْووا ِإلَى الْكَهفِ ينشر لَكُم ربكُم ِمن رحمِتِه ويهيئْ لَكُم ِمن أَمِركُم ِمرفَقاً﴾ فعرفُوه ولم ينكروه ،

---

(١) انظر : معجم القراءات ،عبد اللطيف الخطيب،١٦٨/٥،{ط١،دار سعد الدين ، دمشق :١٤٢٠هـ}. والمحرر الوجيز ٥٠٣/٣ ، وتفسير القرطبي ٣٧٩/١٠ .

(٢) قال ابن عباس رضي الله عنهما : تذرهم ، وقال مجاهد رحمه الله : تتركهم ، انظر : الدر المنثور ٣٧٢/٥ .

(٣) روح المعاني ٢٢٣/١٥ .

وتعبدهم فيه يقتضي أ م اختاروه لمميزات تجعله صالحا للتعبد فيه،ومنها السعة لهم .

٣ ـ وأنه"ينالهم فيه روح الهواء،وبرد النسيم،ولا يحسون كرب الغار "[١]،و"ليطرقهم الهواء والنسيم،ويزول عنهم الوخم،والتأذي بالمكان الضيق خصوصا مع طول المكث"[٢].

٤ ـ ويدل على أ م " في وسطه "[٣] أي الكهف ، وهذا يرد على من قال بأ م في زاوية منه[٤] .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ ﴾ فائدة اسم الإشارة في الآية " للتعظيم "[٥] .

وذكر المفسرون قولين في المراد بآيات الله :

١ ـ أن المراد أن الشمس تقابل كهفهم ، لكن أشعتها لا تصيبهم كرامة لهم ، فهذه الكرامة من آيات الله[٦] .

٢ ـ أن المراد أن وجودهم في الكهف هذه المدة الطويلة ؛ من غير ضرر يصيبهم ، ووجودهم في كهف لا تصله أشعة الشمس لأنه مستقبل الشمال ، هذا من آيات الله[٧] .

والفرق بين القولين أن أصحاب القول الأول لم يتكلفوا جهة معينة ، بل الكرامة عندهم لأهل الكهف أن أشعة الشمس يحجبها الله عنهم مع أ ا مقابلة لكهفهم ، بينما القول الثاني يرى أن الكرامة لأصحاب الكهف أن الله هداهم لكهف اتجاهه يؤهلهم للمكث فيه ، لأن اتجاهه غير مسامت[٨] للشمس .

وكلا الأمرين صالح لأن يكون كرامة من الله سبحانه ، والأظهر القول الأول ، ويؤيده قوله في بداية القصة: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾ .

وقوله : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾ تدل على أن :" الهدى والإضلال بيده وحده

---

(١) الكشاف ٦٦٢/٢ .

(٢) تفسير السعدي ، ص ٤٧٢ .

(٣) تفسير البيضاوي ٤٨٣/٣ .

(٤) أضواء البيان ٢١٨/٣ .

(٥) التحرير والتنوير ٢٧٩/١٥ .

(٦) انظر : التسهيل لعلوم الت يل ٢/ ١٨٤ ، وتفسير أضواء البيان ٢١٨/٣ .

(٧) انظر : تفسير ابن كثير ٩/ ١١٣ .

(٨) أي : مقابل ، انظر : المصباح المنير، مادة (سمت) ، ص١٥٠ .

جل وعلا ، فمن هداه فلا مضل له ، ومن أضله فلا هادي له "[1]، وقد حصرت الهداية الحقيقية بمن هداه الله فقط ؛ فمنه تطلب الهداية ، وبه يستعاذ من الضلال ؛ إذ إن من أضله فقد ضل ضلالا بعيدا من وجهين :

١ ـ نفيه بحرف النفي ﴿ لن ﴾ وهو أبلغ في النفي .

٢ ـ قوله :﴿ وليا ﴾ نكرة في سياق نفي فتعم أي ولي له ،فإنه لا ينفعه .

وهذه الآية مما يبين به فساد مذهب القدرية الذين يزعمون أن العبد لا يفتقر في حصول هذا الاهتداء ؛ بل كل عبد عندهم فمعه ما يحصل به الطاعة والمعصية ، لا فرق عندهم بين المؤمن والكافر ، ولم يخص الله المؤمن عندهم بهدى حصل به الاهتداء "[2]

ووجه الرد :أن الآية أثبتت أن الهداية بيد الله .

كما أن الآية رد على جميع الفرق التي ضلت في باب القضاء والقدر،وهي كما يلي:

١ ـ الجبرية[3]الذين قالوا : " إن العباد مجبورون على أعمالهم ، لا قدرة لهم ولا إرادة ولا اختيار ، والله وحده هو خالق أفعال العباد وأعمالهم ، وإنما تنسب إليهم مجازا "[4].

ومثلهم جمهور الأشاعرة[5] الذين قالوا : " إن أفعال العباد كلها مخلوقة لله تعالى ،

---

(١) أضواء البيان ٢٢٣/٣ .

(٢) الفتاوى ٤٠٠/٢٢ .

(٣) أحد الفرق الكلامية المنحرفة التي تقول بالجبر ، أي العباد مجبورون على أعمالهم ، وأن الله يخلق أفعالهم على الحقيقة ، وأول من قال هذه لمقالة الجعد بن درهم . انظر : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ، إشراف الدكتور مانع الجهني :١٠٤٥/٢،{دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع : ١٤١٨هـ } .

(٤) القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه ، الدكتور عبد الرحمن المحمود :ص٢٠٣،{ط١،دار النشر الدولي ،الرياض: ١٤١٤هـ } .

(5) فرقة كلامية كبرى ، تنسب لأبي الحسن الأشعري ، ظهرت في القرن الرابع ، بدأت جذورها بـ عات كلامية خفيفة أخذها الأشعري عن ابن كلاب ، تدور على مسألة كلام الله ، وأفعال الاختيارية ، مع القول بالكسب ، ثم تطورت الأشاعرة ، وتعمقت ، وتوسعت في المناهج الكلامية ، حتى أصبحت من القرن الثامن فرقة كلامية عقلانية ، فلسفية ، صوفية ، مقابرية ، مرجئة جبرية . انظر : الفرق الكلامية المشبهة – الأشاعرة – الماتريدية نشأ ا وأصولها وأشهر رجالها ومواقف السلف منها ، الدكتور ناصر بن عبد الكريم العقل :ص٤٩،{ط١،دار الوطن ،الرياض: ١٤٢٢هـ } .

وهي كسب للعباد ، وعلى ذلك يترتب الثواب والعقاب،ولا تأثير لقدرة العبد في الفعل "[1] .

ووجه رد الآية لهذين المذهبين أ ا أثبتت أن العبد مهتد ، فسمته مهتديا ، إضافة إلى أ ا أثبتت بطريق مفهوم المخالفة أن الولي المرشد له أثر على المهتدي في زيادة هدايته ، والتعاون معه على البر والتقوى ، والمهتدي والولي المرشد أفعالهم قائمة بأنفسهم يفعلو ا بإراد م واختيارهم ، فنسبت إليهم .

٢ـ المعتزلة[2] الذين قالوا : " إن أفعال العباد ليست مخلوقة له ، وإنما العباد هم الخالقون لها ، فهم ينكرون الدرجة الثانية من درجات القدر ، والتي تشمل مرتبتي الإرادة والخلق ، فينفو ا عن الله ، ويثبتو ا للإنسان "[3] .

ووجه رد الآية لهذا المذهب أ ا أثبتت أن الله هو الذي بيده الهداية والضلال ، فيهدي من يشاء بفضله ، ويضل من يشاء بعدله .

ولهذا كان قول صاحب الكشاف رحمه الله وعفا عنه في تفسيره لهذه الآية شوكة اعتزالية حينما قال : " ثناء عليهم بأ م جاهدوا في الله وأسلموا له وجوههم ؛ فلطف م وأعا م وأرشدهم إلى نيل تلك الكرامة السنية ، والاختصاص بالآية العظيمة ، وأن كل من سلك طريقة المهتدين الراشدين فهو الذي أصاب الفلاح واهتدى إلى السعادة ، ومن تعرض للخذلان فلن يجد من يليه ويرشده بعد خذلان الله "[4] .

حيث يدور تفسيره على نفي الهداية والضلال عن الله ، وصرفها إلى فعل العبد وحده ، ولهذا قال : " ومن تعرض للخذلان " ولم يقل : ومن يضله الله ويخذله .

وهذه الآية تتعلق باسم الله الحكيم الذي يقتضى أن لا يسأل عما يفعل وهم يسألون

---

(١) القضاء والقدر ، ص ٢٠٨ .

(٢) فرقة نشأت في أواخر العصر الأموي ،وازدهرت في العصر العباسي ، وقد اعتمدت على العقل ا ـرد لتأثرها ببعض الفلسفات المستوردة ، مما أدى إلى انحرافها عن عقيدة أهل السنة والجماعة ، ولهم أصول خمسة ، وتسمى الوعيدية ، وأهل العدل والتوحيد ، ومن رجالها : واصل بن عطاء ، والقاضي عبد الجبار ، والعلاف ، وغيرهم . انظر : الموسوعة الميسرة ٦٩/١ .

(٣) القضاء والقدر ، ص ٢٠٤ .

(٤) الكشاف ٦٦٢/٢ .

، فتاهت عقول من يناقشون في الحكمة ، وينكرو ا ، وينسون سؤال الله فضله من الهداية ، فإن الهداية فضل من الله يؤتيه من يشاء .

كما تدل على أن من أضله الله فقد ضل على بصيرة ، لوجود الولي المرشد الذي يحذره ، وينصحه ، ويبين له النور ، لكنه أبى وأعرض فعند ذلك لم ينفعه وليه المرشد ، فإضلال الله له لم يسلبه قدرته واختياره على طاعة وليه .

وقال تعالى:﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾[1] .

فقوله : ﴿ وتحسبهم أيقَاظاً وهم رقُود ونقَلبهم ذَات الْيمِينِ وذَات الشمالِ وكَلْبهم باسِطٌ ذِراعيهِ بِالْوصِيدِ﴾ ذكر الله في هذه الآية الوسائل التي حفظ ا أولياءه من أهل الكهف ، وهي :

١ ـ تزاور الشمس عن كهفهم حال طلوعها .

٢ ـ قرض الشمس لهم حال غرو ا .

٣ ـ أ م في فجوة من الكهف .

٤ ـ أن الرائي لهم يحسبهم أيقاظا فلا يطمع م .

٥ ـ أ م رقود وهم أيقاظ في الظاهر .

٦ ـ تقليب الله لهم ذات اليمين وذات الشمال ، وقد قيل في حكمته " ولولا ذلك لأكلتهم الأرض "[2] ورد بأن " هذا عجيب ؛ لأنه تعالى لما قدر على أن يمسك حيا م مدة ثلثمائة سنة وأكثر ، فلِم لا يقدر على حفظ أجسادهم أيضا من غير تقليب ؟ "[3] .

٧ ـ كلبهم باسط ذراعيه بمدخل الكهف يحرسهم ، ومن رأى الكلب في مدخل الكهف ظن عدم وجود شخص فيه ، وهذا يدل على أ م فتية مطاردون .

٨ ـ من رآهم ولى هاربا فزعا .

---

(١) الكهف : ١٨ .

(٢) التسهيل ١٨٤/٢ .

(٣) التفسير الكبير ٨٦/٢١ .

٩ ـ " جعلهم بحيث كل من رآهم فزع فزعا شديدا ، فأما تفصيل سبب الرعب فالله أعلم به "[١] ، فجمع الله لهم بين الهروب لكل من رآهم ، ويمتلئ قلبه رعبا منه بحيث لا تراوده نفسه في الرجوع إليهم والتأكد منهم ، لأن الر عب جند من جند الله ينصر الله به أولياءه .

وقوله : ﴿الْوَصِيد ﴾ المراد به على الصحيح مدخل الكهف[٢] ، وهذا يدل على أن لكهفهم مدخلا ثم يتسع من الداخل ؛ وهي الفجوة التي هم فيها ، كما يدل على أن الكهف غير مفتوح الجوانب إذ لو كان كذلك لكانت كل الجهات له مدخل .

وقوله : ﴿لَوِ اطَّلَعت علَيهم ﴾ يستنبط منه أنه " يلزمك أن ترقى للوصول إليهم "[٣] ، كما يدل تركيب الكلمة ﴿لَوِ اطَّلَعت﴾ على صعوبة الوصول إليهم ، لوجود الشدة في اللفظ والتي تدل على زيادة في المعنى .

وتدل الآية على أن الهيبة التي يعطيها الله لأوليائه لا تقف أمامها شجاعة الشجعان ، فالنبي ﷺ معروف الشجاعة ، ومع ذلك لو نظر إليهم لولى هاربا ، ولملئ رعبا ، فهي منحة ربانية لأهل كرامته ، كما لا يعني هذا بالضرورة أن أهل الكهف أفضل منه ، فقد صح قوله ﷺ " نصرت بالرعب مسيرة شهر "[٤]، بخلاف أهل الكهف فلابد لهيبتهم من اطلاع عليهم .

وقوله : ﴿ وكَلْبهم باسِطٌ ذِراعيهِ بِالْوصِيدِ ﴾ " اعلم أن ذكره جل وعلا في كتابه هذا الكلب ، وكونه باسطا ذراعيه بوصيد كهفهم في معرض التنويه بشأ م ؛ يدل على أن صحبة الأخيار عظيمة الفائدة "[٥] ، " وشملت كلبهم بركتهم ، فأصابه ما أصا م من النوم على تلك الحال "[٦]،فدل ذلك على أن الصحبة أمر مقصود شرعا ينبغي العناية به .

---

(١) التفسير الكبير ٨٦/٢١ .

(٢) انظر : أضواء البيان ٢٢٥/٣ .

(٣) الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في قصة أهل الكهف والرقيم ، ص ٥١ .

(٤) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب التيمم ، قول الله " فلم تجدوا ماء فتيمموا " برقم (٣٢٨) ١٢٨/١، ومسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، برقم (٥٢١)٣٧٢/١ .

(٥) أضواء البيان ٢٢٦/٣ .

(٦) المصباح المنير ، ص ٦٣٤ .

وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً ﴾[1] .

فقوله:﴿وكَذَلِك بعثْناهم لِيتساءَلُوا بينهم ﴾ اللام في قوله:﴿لِيتساءَلُوا ﴾ لام العاقبة[2] ، وقد مضى تقرير ذلك .

وتساؤل أهل الكهف في مدة حفظ الله لهم ؛ يدل على أن حفظ الله يأتي وقد لا يشعر به صاحبه إلا بعد انتهائه ، فلا يغتر بظواهر الأمور .

وقول أحدهم :﴿ كَم لَبِثْتم ﴾ وجوا م له ، يدل على أنه رأى ما يستدعي السؤال ، بقطع النظر عن ذلك ؛ لعدم وروده من طريق صحيح ، لكن حكمة الله في التساؤل بينهم وجد لها سبب ظاهري يقود لها .

وقوله :﴿ لَبِثْنا يوماً أو بعض يومٍ ﴾ فيه دليل على جواز الاجتهاد ، والقول بالظن الغالب ، وأنه لا يكون كذبا ، وإن جاز أن يكون خطأ "[3]، ولا تثريب على المخطئ في الظن .

وقوله : ﴿ ربكُم أعلَم ِبما لَبِثْتم ﴾ " ردوا العلم إلى المحيط علمه بكل شيء جملة وتفصيلا "[4]، وهذا سلوك المسلم عندما يقول بظنه .

وهو رد منهم على الأولين بأجمل ما يكون من مراعاة حسن الأدب "[5] ، وذلك فيما لا تعلم حقيقته .

وقوله : ﴿ فَابعثُوا أحدكُم ِبورِقكُم هذِهِ ِإلَى الْمدِينةِ ﴾ الربط بين تساؤلهم عن مدة لبثهم وبين قولهم ﴿ فَابعثُوا ﴾ هو:"كأ م قالوا :ربكم أعلم بذلك لا طريق لكم إلى علمه

---

(١) الكهف : ١٩ .

(٢) انظر : تفسير البغوي ١٥٥/٣ .

(٣) الكشاف ٦٦٣/٢ .

(٤) تفسير السعدي ، ص ٤٧٣ .

(٥) تفسير أبي السعود ٢١٣/٥ .

؛ فخذوا في شيء آخر مما يهمكم "[1] ، فقالوه " إعراضا عن التعمق في البحث ، وإقبالا على ما يهمهم بحسب الحال "[2] ، وعلى هذا يسير المؤمن المحافظ على وقته من الضياع ، ولا يتهاون باللحظات اليسيرة .

كما يدل على أن :" التزود للمسافر أفضل من تركه "[3] ، وعلى أن " السعي في إمساك الزاد أمر مهم مشروع ، وأنه لا يبطل التوكل "[4] ، ويقتضي هذا التعفف عما في أيدي الناس .

وقوله:﴿بِوَرِقِكُم هَذِهِ ﴾ دليل على جواز خلط دراهم الجماعة ، والشراء ا ، والأكل من الطعام الذي بينهم بالشركة وإن تفاوتوا في الأكل "[5] .

وقوله :﴿فَلْيَنظُر أيها أزكى طَعاماً فَلْيَأتِكُم بِرِزقٍ مِنه ﴾ فيها عدة أقوال :

أحدها :أحل ذبيحة ، والثاني :أحل طعاما فقد كانت أكثر أموالهم غصوبا ، والثالث : أكثر ، والرابع : خير أي أجود ، والخامس : أطيب ، والسادس : أرخص [6] .

وأكثر هذه الأقوال لا تعارض بينها ؛ والذي يظهر أن مرادهم الطعام الحلال[7] ، سواء أكان ذبيحة أو من سائر الأطعمة ، ويدخل في ذلك الحلال من جهة أنه لم يذبح للأصنام ، لأن تلك الأمة كانت وثنية ، أو من جهة سلامته من الظلم والغصب الذي كان سائدا في ذلك ا تمع ، وما كان هذا شأنه فهو أطيب وألذ وأجود فليكثر منه .

وهذا يؤيد أن في المدينة أناسا يخفون إيما م[8] ، كما تدل الآية على أن الإنسان عليه أن يحتاط في حال المعاملات المشتبهة ، ويتحرى الحلال ، ويعمل بناء على احتياطه ، وتدل أيضا على جواز معاملة الكافر بالبيع والشراء ، وأن ذلك لا يعارض الولاء والبراء .

كما تصور لنا الآية الكريمة﴿فَلْيَنظُر أيها أزكى طَعاماً ﴾ حال تلك المدينة الشركية

---

(١) الكشاف ٦٦٣/٢ .
(٢) انظر تفسير أبي السعود ٢١٤/٥ .
(٣) التسهيل ١٨٤/٢ .
(٤) التفسير الكبير ٨٨/٢١ .
(٥) روح المعاني ٢٣١/١٥ .
(٦) انظر الأقوال في زاد المسير ١٢١/٥ .
(٧) انظر : الدر المنثور ٣٧٤/٥ .
(٨) انظر : تفسير الثعلبي ١٦١/٦ ، والبغوي ١٥٥/٣ .

التي أزالها الله ، وكيف أن الشرك إذا فشى في ا تمع انتشرت فيه أنواع الظلم والتسلط ، حتى أن الإنسان إذا أراد الطعام فعليه أن يتحرى ويبحث عن الحلال بحثا دقيقا ، فكان ذلك دليل على أن التوحيد يصلح الفرد وا تمع ، وهذا واجب الدعاة إلى الله .

وقوله:﴿ولْيتلَطف ولا يشعِرن ِبكُم أحداً ﴾ تصور لنا الحذر الذي بذله أهل الكهف من عدة أوجه :

١ ـ اللام في قوله ﴿ولْيتلَطف ﴾ وهي لام الأمر وتفيد التوكيد .

٢ ـ قوله ﴿ولْيتلَطف ﴾ فيها تكلف التلطف ، ومن هنا اقترنت بالتشديد .

٣ ـ النهي في قولهم ﴿ ولا يشعِرن ﴾.

٤ ـ التوكيد في هذا النهي في نون التوكيد ﴿ ولا يشعِرن ﴾ .

٥ ـ لا يريدون أي أحد أن يشعر م ، فقوله ﴿أحداً ﴾ نكرة في سياق نفي .

وقال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً﴾[١] .

فقوله : ﴿ ِإنهم ِإنْ يظْهروا علَيكُم يرجموكُم أو يعِيدوكُم ِفي مِلِتهم ﴾ ذكر فيها مفاسد ظهور أهل الكفر على أهل الإسلام ، والتي تتلخص في أمرين :

١ ـ الرجم والذي يعني القتل ، وتعبيره بالرجم لأن الرجم " فيما سلف كانت ِقتلة مخالفة دين الناس ؛ إذ هي أشفى لحملة ذلك الدين ، ولهم فيها مشاركة "[٢]، أو لأن الرجم " أخبث أنواع القتل "[٣]، ومثله في زماننا التعذيب حتى الموت ، والتمثيل ، والإبادة الجماعية ، وقتل الإنسان على يد أقرب الناس له تنكيلا ، فنسأل الله أن يصلح حال الأمة .

٢ ـ اتباع ملة الكفر ، وترك دينه ، وهو المقصود بقولهم :﴿ يعِيدوكُم ِفي مِلِتهم ﴾ وهذه سبيل الكافرين سار عليها أولهم ، ويمضي عليها آخرهم ، ويشهد لها واقعهم المعاصر ، فإذا حلوا بديار قوم أكرهوهم على اتباع ملتهم ، لا يعرفون وسيلة الإقناع ،

---

(١) الكهف : ٢٠ .

(٢) انظر : المحرر الوجيز ٥٠٦/٣ .

(٣) التفسير الكبير ٨٨/٢١ .

ولا يقارعون الحجج ، وسيلتهم التعذيب ، ودليلهم السلاح ، وبرها م الموت ، فسبحان من جعل التاريخ يعيد نفسه .

والعود في قوله:﴿ أو يعيدوكُم في مِلتِهم ﴾يحتمل أمورا ذكرها أهل التفسير،وهي :

١ ـ أن الفتية كانوا أولا على دين قومهم ، فمن الله عليهم بالهداية[(١)] .

٢ ـ أن المراد يصيرونكم " ولا يلزم من العود إلى الشيء التلبس به قبل ؛ إذ يطلق ويراد به الصيرورة "[(٢)] .

٣ ـ أن " العذر بالإكراه من خصائص هذه الأمة ، لأن قوله عن أصحاب الكهف : ﴿ إنْ يظْهروا علَيكُم يرجموكُم أو يعيدوكُم في مِلتِهم ﴾ ظاهر في إكراههم على ذلك ، وعدم طواعيتهم ، ومع هذا قال عنهم :﴿ ولَن تفْلِحوا إذاً أبداً﴾ ، فدل ذلك على أن ذلك الإكراه ليس بعذر ، ويشهد لهذا المعنى حديث طارق بن شهاب[(٣)] في الذي دخل النار في ذباب قربه مع الإكراه بالخوف من القتل، وفيه " فقدم ذبابا فدخل النار "[(٤)] ؛ لأن صاحبه الذي امتنع أن يقرب ولو ذبابا قتلوه ، ويشهد له أيضا دليل الخطاب أي مفهوم المخالفة في قوله ﷺ " إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان ، وما استكرهوا عليه "[(٥)] ، فإنه يفهم من قوله " تجاوز لي عن أمتي " أن غير أمته من الأمم لم يتجاوز

---

(١) انظر تفسير أبي السعود ٢١٤/٥ .

(٢) البحر المحيط ١٠٨/٦ .

(٣) أبو عبد الله طارق بن شهاب البجلي الكوفي ، من بجيلة أدرك الجاهلية ، وغزا في خلافة أبي بكر ، وعمر ، رضي الله عنهما ثلاثا وثلاثين ، أو ثلاثا وأربعين بين غزوة ، وسرية ، توفي سنة ثلاث وثمانين . انظر : الاستيعاب ٧٥٥/٢ .

(٤) حديث طارق عن سلمان ونصه " قال : دخل رجل الجنة في ذباب ، ودخل رجل النار ، مر رجلان على قوم قد عكفوا على صنم لهم ، وقالوا : لا يمر علينا اليوم أحد إلا قدم شيئا ، فقالوا : لأحدهما قدم شيئا ، فأبى فقتل وقالوا للآخر : قدم شيئا ، فقالوا قدم ولو ذبابا ، فقال : وإيش ذباب ، فقدم ذبابا فدخل النار ، فقال سلمان : فهذا دخل الجنة في ذباب ، ودخل هذا النار في ذباب " أخرجه الإمام أحمد في الزهد ، تحقيق عبد العلي حامد :ص٢٥،{ط٢،دار الريان،القاهرة،بدون} . وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ، تحقيق الحوت :٤٧٣/٦،{مكتبة الرياض ،الرياض: ١٤٠٩هـ} . والبيهقي في الشعب ، تحقيق محمد بسيوني زغلول :٤٨٥/٥برقم(٧٣٤٣)،{ط١،دار الكتب العلمية ،بيروت: ١٤١٠هـ} .
وجميعهم أخرجوه موقوفا على سلمان ﷺ .

(٥) أخرجه ابن ماجه ، كتاب الطلاق ، باب طلاق المكره والناسي ، برقم (٢٠٤٥) ٦٥٩/١ والحاكم برقم

لهم عن ذلك "[1] .

والأمور الثلاثة محتملة ، وأقربها أن المراد يصيروكم في ملتهم ، وأما القول بأن الفتية كانوا على دين قومهم فإن حدث فيكون في بداية الأمر ثم تركوهم وأصنامهم ، وأما الاحتمال الثالث فالذي يظهر عدم صوابه ، فالحديث فيه ضعف ، وأمور الاعتقاد الأصل أنها متفق عليها بين الأمم .

والملاحظ أنه قال:﴿ في مِلَّتِهِم ﴾ وإيثار حرف ﴿ في ﴾ على الحرف (إلى) للدلالة على الاستقرار الذي هو أشد شيء عندهم كراهة "[2] .

قوله : ﴿ ولَن تفْلِحوا إِذاً أبداً﴾ إيمان الفتية جعلهم ينفون الفلاح عن كل من لم يكن مؤمنا وذلك من خلال :

١ ـ أداة النفي ﴿ لَن ﴾ وهي تفيد النفي المؤبد .

٢ ـ حرف الجزاء والجواب ﴿ إِذاً ﴾ وله فائدة في استغراق النفي .

٣ ـ قوله ﴿ أبداً﴾ نكرة في سياق نفي ، فعمت نفي أي جزء من أجزاء الزمان في الدنيا أو في الآخرة .

وهذه هي نظرة المؤمن لكل من كان مشركا ، فلم يكن لأهل الكهف مقياسا يقيسون به الفلاح وعدمه إلا الإيمان ، أما مباهج الحياة الدنيا ، فلا يعني لهم شيئا ، مع يقينهم أنهم لو تابعوا قومهم على دينهم الباطل لحصل لهم الأمن من المطاردة ، والسكن في البيوت بدلا من الكهف ، والشبع بدلا الجوع .

والرجم عند أهل الكهف أهون من العود في ملة الكفر ، فانظر لهم كيف رتبوا﴿ولَن تفْلِحوا إِذاً أبداً﴾ على العود في ملة الكفر ، بينما لم يرتبوا شيئا على﴿ يرجموكُم ﴾

(٢٨٠١) ٢١٦/٢وقال : صحيح على شرطهما ، وصححه ابن حبان (٧٢١٩) ، وأعله بالانقطاع أبو حاتم كما في العلل لابنه ، تحقيق محب الدين الخطيب :٤٣١/١، {بيروت : ١٤٠٥هـ } .

وأنكره أحمد فقال : "ليس يروى فيه إلا عن الحسن مرسلا " انظر: العلل ومعرفة الرجال ، تحقيق وصي الله بن محمد عباس :٥٦١/١،{ المكتب الإسلامي ،بيروت: ١٤٠٨هـ }.

وله طرق عدة لكنها لا تخلو من مقال ، انظرها في شرح ابن رجب للأربعين النووية :ص٣٧١،{ط٢، مؤسسة الكتب الثقافية،بيروت:بدون } .

(١) أضواء البيان ٢٥١/٣ .

(٢) تفسير أبي السعود ٢١٤/٥ .

وهذه يستطيعها أهل الإيمان الكامل .

" وتقديم احتمال الرجم على احتمال الإعادة ؛ لأن الظاهر من حالهم هو الثبات على الدين المؤدي إليه "[١] ، ولأنه أقوى الاحتمالين فتلك الأمة همجية لا تتحاور مع من خالفها ، وإنما تفتك به .

والمتحدث بهذه الأمور من فتية الكهف جمع الضمير،مع أن المبعوث واحد " للمبالغة في حمل المبعوث على الاستخفاء ، وحث الباقين على الاهتمام بالتوصية "[٢] ، ولأن حالهم جميعا واحدة ، فما سيفعل بواحد فهو مصير البقية ، فكان الكلام بضمير الجمع .

كما أن الآية ﴿ولن تفلحوا إذاً أبداً﴾ فيها رد على أهل الإرجاء ، حيث نفوا الفلاح إن عادوا في ملة الكفر ، " ولو كان في قلوبهم محبة الدين ، وبغض الكفر "[٣] فدل على أن الإيمان لا بد فيه من عمل الجوارح ، ولا يكفي الاعتقاد القلبي .

وقال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾[٤] .

فقوله : ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها﴾ الضمير في ﴿ ليعلموا ﴾ يحتمل أنهم :

١ـ الناس من أهل المدينة الذين كانوا في زمن أصحاب الكهف ، يعلمون ذلك أيضا[٥] .

٢ـ ويحتمل أنهم أصحاب الكهف[٦] ، فقد كانوا يقرءون في كتبهم التي كانت معهم ، بأن الله حافظ أولياءه ، وناصر أحبابه ، فسألوه الرشد ، والرفق من الأمر ، فبعد بعثهم علموا تحقق ذلك .

---

(١) تفسير أبي السعود ٢١٤/٥ .

(٢) تفسير أبي السعود ٢١٤/٥ .

(٣) تفسير آيات من القرآن الكريم ، ص ٢٤٥ ، وعلى على القول بأن العذر بالإكراه من خصائص هذه الأمة .

(٤) الكهف : ٢١ .

(٥) وعليه أكثر المفسرين ، انظر : زاد المسير ١٢٣/٥ .

(٦) انظر : المحرر ٥٠٧/٣ .

ولعل الآية تشمل الفريقين ، وهي من حِكم الله على بعثهم ، فيزداد المؤمنون إيمانا ومنهم أهل الكهف ، ويزول من في قلبه شك من أهل المدينة ، وهذا مبني على قاعدة " إذا كان في الآية ضمير يحتمل عوده إلى أكثر من مذكور ، وأمكن الحمل على الجميع ، حمِل عليه "[١] .

وقوله:﴿إِذْ يتنازعونَ بينهم أمرهم﴾ متعلق بقوله:﴿ أعثَرنا﴾[٢]،والمعنى" أي :أعثرناهم عليهم حين يتنازعون بينهم "[٣]، واختلف المفسرون في الأمر المتنازع عليه ، وملخص الأقوال[٤] يرجع إلى أن حالات الاختلاف المتنازع عليها ثلاث :

الحالة الأولى : متنازعون في أمرٍ قبل العثور على أصحاب الكهف ، ومن ذلك أمر البعث والساعة والحشر .

الحالة الثانية : متنازعون في أمرٍ أثناء العثور على أصحاب الكهف ، ومن ذلك تنازعهم في :

مدة مكثهم ، وعددهم ، وأسمائهم وهل عادوا نياما كالمرة الأولى أم ماتوا ؟ وغير ذلك .

الحالة الثالثة : متنازعون في أمرٍ بعد العثور على أصحاب الكهف ، ومن ذلك تنازعهم في :

تركهم على حالهم ، أو البناء عليهم ، ونوعية البناء .

والراجح في نظري أن وقوع قوله:﴿ إِذْ يتنازعونَ بينهم أمرهم ﴾ متأخرا عن معموله وهو قوله:﴿ أعثَرنا﴾وترتيب ما بعده عليه بالفاء وهو قوله:﴿ فقالوا ابنوا عليهم ﴾ له فائدة ، وهي أن التنازع كان من شأن تلك المدينة ، فتنازعوا قبل العثور عليهم ؛ كما تنازعوا بعد العثور عليهم بأشياء أخرى ، ويؤيد ذلك قوله عن أهل الكتاب:﴿ سيقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعهم كَلْبهم ويقُولُونَ خمسةٌ سادِسهم كَلْبهم رجماً بِالْغيبِ ويقُولُونَ سبعةٌ

---

(١) قواعد التفسير للسبت ٤٠٠/١ .
(٢) الكشاف ٦٦٥/٢ .
(٣) التفسير الكبير ٨٩/٢١ .
(٤) انظر الأقوال في : الكشاف ٦٦٥/٢ ، وزاد المسير ١٢٣/٥ ، والتفسير الكبير ٨٩/٢١ ،.

وثَامِنهم كَلْبهم ﴾[1] فما زال التنازع موجودا ، والله أعلم .

وترتيب العلم بأن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها على الإعثار عليهم ظاهر في أن " من شاهد أنه جل وعلا توفى نفوسهم وأمسكها ثلثمائة سنة وأكثر ؛ حافظا أبدا ا من التحلل ، والتفتت ، ثم أرسلها إليها ؛ لا يبقى له شائبة شك في أن وعده تعالى حق ، وأنه يبعث من في القبور فيرد إليهم أرواحهم ؛ فيحاسبهم ويجزيهم بحسب أعمالهم "[2] .

ومن الغريب حقا قول العلامة الألوسي[3] " في ترتب العلم بأن البعث سيقع لا محالة على نفس الاطلاع على حال الفتية خفاء " وقوله " وكذا في ترتب العلم بأن كل ما وعده الله تعالى حق على نفس الاطلاع خفاء "[4] .

وقوله:﴿ قَالَ الذِين غَلَبوا علَى أَمرِهِم لَنتخِذَن علَيهم مسجِداً﴾ اختلف المفسرون في ﴿الذِين غَلَبوا﴾ اختلافا متناقضا ، فقال إمام المفسرين أبو جعفر الطبري[5]رحمه الله: " وقد اختلف في قائلي هذه المقالة أهم الرهط المسلمون أم هم الكفار ؟"[6] ، ومال الحافظ ابن كثير رحمه الله إلى التوقف[7] ، وفي روح المعاني حصر الأقوال فيما يلي :

---

(١) الكهف : ٢٢

(٢) تفسير أبي السعود ٢١٤/٥ .

(٣) أبو الثناء شهاب الدين السيد محمود أفندي الألوسي البغدادي ، نشأ في قرية ألوس من قرى الفرات ، شيخ علماء العراق في زمانه ، جمع كثيرا من العلوم العقلية ، والنقلية ، أخذ العلم عن والده ، والشيخ علي السويدي ، اشتغل بالتدريس والتأليف وهو ابن ثلاث عشر سنة ، وتتلمذ عليه خلق كثير ، شديد الحافظة ، أتم تفسيره المعروف روح المعاني ، وتوفي سنة سبعين ومائتين بعد الألف من الهجرة . انظر : التفسير والمفسرون ، ٣٥٢/١ .

(٤) روح المعاني ٢٣٣/٥ .

(٥) أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، الإمام ا تهد ، صاحب التصانيف البديعة ، من أهل طبرستان ، وأكثر الترحال ، وكان من أفراد الدهر علما ، وذكاء ، وتصنيفا ، وطلب العلم بعد الأربعين ، من كبار أئمة الاجتهاد ، له تصانيف تدل على سعة علمه ، ثقة حافظا رأسا في التفسير ، وإماما في الفقه والإجماع والقراءات والتاريخ واللغة ، توفي سنة عشر وثلاثمائة للهجرة . انظر : سير أعلام النبلاء ٢٦٧/١٤ ، ٢٨٢ ، و تأريخ بغداد ، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي :١٦٢،١٦٩/٢،{ دار الكتب العلمية ،بيروت: بدون } .

(٦) تفسير الطبري ٢٢٥/١٥ .

(٧) تفسير ابن كثير ١٢٠/٩ .

١ ـ أن المراد الملك المسلم ، ورد هذا القول بقوله:"ويبعد الأول التعبير بما يدل على الجمع ، أي قوله :﴿ غَلَبوا﴾ بصيغة الجمع .

٢ ـ أن المراد م أولياء أصحاب الكهف ، ورده بقوله:" إن أريد من الأولياء الأولياء من حيث النسب كما في قولهم أولياء المقتول ؛ أنه لم يوجد في أثر لأصحاب الكهف حين بعثوا أولياء .

٣ ـ المراد م رؤساء البلد .

ويعود أثر الخلاف في ذلك إلى الخلاف في القائلين: ﴿ ابنوا علَيهم بنياناً ربهم أعلَم ِبهم ﴾ لأ ما على سبيل المقابلة للآخرين .

ويصعب جدا الترجيح بين هذه الأقوال ، إلا أن الأقرب في نظري أن يقال : بأنه بعد العثور على أصحاب الكهف ، وثبوت الكرامة لهم عند أهل تلك المدينة ، انقسموا إلى طائفتين :

الطائفة الأولى : " كانوا مؤمنين عالمين بعدم مشروعية اتخاذ المساجد على القبور ؛ فأشاروا بالبناء على باب الكهف وسده ، وكف التعرض عن أصحابه "[1]، وهؤلاء هم الطائفة الذين معهم التوحيد الخالص ، ويؤيد ذلك ظاهر كلامهم في إرجاع الأمر لله﴿ربهم أعلَم ِبهم﴾ على عادة المؤمنين الموحدين حين يلتبس عليهم أمر من الأمور.

الطائفة الثانية : وهم أهل الحل والعقد من الأمراء والرؤساء ، فقالوا نتخذ عليهم مسجدا ، ويظهر من قولهم:﴿ لَنتخِذَن علَيهم مسجِداً﴾ أنه حدثت مشادة بين الطائفتين ، وأن الطائفة الأولى أنكروا عليهم فعلهم ، ولذلك فزع أهل الغلبة إلى القسم كعاد م حين تعجزهم الحجة ، وظاهر قوله تعالى:﴿ غَلَبوا علَى أَمرِهِم ﴾ أنه على سبيل الذم لرأيهم ،بينما الطائفة الأولى يشعر قوله تعالى:﴿ربهم أعلَم ِبهم﴾ أن رأيهم هو الصواب .

أما المسجد الذي أقسموا على اتخاذه " فلا يصح أن يراد بالمسجد هنا ما يطلق عليه اليوم من مصلى المحمديين ، بل المراد به معبد المؤمنين من تلك الأمة "[2] ، كما لا يصح أن يقال بأن ذلك من شرائع من قبلنا لأن النبي ﷺ أخبر أن " أولئك إذا كان فيهم الرجل

---

(١) روح المعاني ٢٣٩/١٥ .

(٢) روح المعاني ٢٣٩/١٥ .

الصالح فمات ، بنوا على قبره مسجدا ، وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة "[1] ومسائل الاعتقاد متفق عليها بين الأمم .

وقال تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾[2] .

فقوله : ﴿سيقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعهم كلْبهم ويقُولُونَ خمسةٌ سادِسهم كلْبهم رجماً بِالْغيبِ ويقُولُونَ سبعةٌ وثَامِنهم كلْبهم ﴾ دخلت السين هنا ، ولم تدخل في بقية الأقوال "والسبب فيه أن حرف العطف يوجب دخول القولين الآخرين فيه "[3]، وأيضا يصح أن تريد " بيفعل معنى الاستقبال الذي هو صالح له "[4] .

فقد بين قوله تعالى:﴿سيقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعهم كلْبهم ﴾ مع قوله : ﴿رجماً بِالْغيبِ ﴾ أن العلم الذي لدى أهل الكتاب عن هذه القصة يبين ما يلي :

١ ـ أ م أمة متنازعة فيما بينها ، فما يقرره عالم يخالفه غيره .

٢ ـ أن تنازعهم في بعض القضايا التي لا يترتب عليها فائدة عملية ، فهم قوم أهل جدل .

٣ ـ أن مستند علمهم عن ماضيهم الظن والرجم بالغيب ، فلا كتاب محفوظ ، ولا عالم مؤتمن .

وهذه المميزات وإن كانت عن قصة أهل الكهف إلا أن ذلك يعطينا تصورا عاما عن ضبط أهل الكتاب لما يخصهم ، وحال علومهم .

وبالنسبة لعدد فتية الكهف فإن جميع المفسرين رجحوا في العدد أ م سبعة وثامنهم

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب الصلاة ، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكا ا مساجد ، برقم (٤١٧) ١٦٥/١، ومسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها ، والنهي عن اتخاذ القبور مساجد ، برقم(٥٢٨) ٣٧٥/١.

(٢) الكهف : ٢٢ .

(٣) التفسير الكبير ٩١/٢١ .

(٤) الكشاف ٦٦٦/٢ .

كلبهم[1]،بقرينة " تدل على أن القول الثالث هو الصحيح ، والأولان باطلان ؛ لأنه لما ذكر القولين الأولين بقوله:﴿سيقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعهم كَلْبهم ويقُولُونَ خمسةٌ سادِسهم كَلْبهم رجماً بِالْغيبِ ويقُولُونَ سبعةٌ وثَامِنهم كَلْبهم ﴾ أتبع ذلك بقوله :﴿رجماً بِالْغيبِ ﴾ أي قولا بلا علم ؛ كمن يرمى إلى مكان لا يعرفه فإنه لا يكاد يصيب وإن أصاب بلا قصد ، ثم حكى القول الثالث بقوله:﴿ويقُولُونَ خمسةٌ سادِسهم كَلْبهم ﴾فأقره ولم يذكر بعده أن ذلك رجم بالغيب فدل على أنه الصحيح "[2] .

وقوله:﴿ قُلْ ربي أَعلَم بِعِدتِهم ﴾ فيه "تعليم للناس أن يردوا علم الأشياء إلى خالقها"[3].

كما أن قوله:﴿ ما يعلَمهم إِلا قَلِيلٌ ﴾ يفيد أن معرفة عددهم ممكنة، ولهذا جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله "أنا من القليل ،كانوا سبعة "[4]،لكن هذه المعرفة ينبغي أن تقيد بأمر الله لنبيه الكريم ﷺ في قوله له:﴿ فَلَا تمارِ فِيهِم إِلا مِراءً ظَاهِراً ﴾ .

وقد كثر كلام المفسرين في فائدة الواو الداخلة في قوله:﴿وثَامِنهم كَلْبهم ﴾فمما قيل في فائد ا :

١ ـ أ ا " هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة ، كما تدخل على الواقعة حالا عن المعرفة ؛ في نحو قولك :جاءني رجل ومعه آخر ،ومررت بزيد وفي يده سيف ، وفائد ا توكيد ثبوت الصفة للموصوف ، والدلالة على أن اتصافه ا أمر ثابت مستقر ، فكانت هذه الواو دالة على صدق الذين قالوا إ م كانوا سبعة وثامنهم كلبهم ،

---

(١) انظر : الدر المنثور ٣٧٥/٥ ، وتفسير ابن زمنين لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن زمنين ، تحقيق أبو عبد الله حسن بن عكاشة ، ومحمد الك :٥٤/٣،{ط١، دار الفاروق الحديثة ،القاهرة: ١٤٢٣هـ }. والبغوي ١٥٦/٣ ، وتفسير أبي السعود٢١٦/٥ .

(٢) انظر : أضواء البيان ٢٥٢/٣ بتصرف يسير .

(٣) أضواء البيان ٢٥٢/٣ .

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما وفيه ذكر أسماء أصحاب الكهف ، ثم قال :"لم يرو هذا الحديث عن أبي روق إلا ابنه يحي".انظر: معجم الطبراني الأوسط تحقيق طارق بن عوض الله ، وعبد المحسن الحسيني :١٧٥/٦،{دار الحرمين ،القاهرة: ١٤١٥هـ } . وصححه العقيلي بدون زيادة الأسماء ، انظر : الضعفاء للعقيلي،تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي :٤٢٢/٤،{ط١، دار المكتبة العلمية ،بيروت:١٤٠٤هـ }، وصححه السيوطي في الدر المنثور ٣٧٦/٥ .

وأ م قالوا قولا متقررا متحققا عن ثبات وعلم وطمأنينة .

٢ ـ أن السبعة عند العرب أصلٌ في المبالغة في العدد ، قال تعالى : ﴿ إن تستغفر لهم سبعين مرة﴾ وإذا كان كذلك فإذا وصلوا إلى الثمانية ذكروا لفظا يدل على الاستئناف فقالوا وثمانية ، فجاء هذا الكلام على هذا القانون ، والناس يسمون هذه الواو واو الثمانية " ورد هذا الوجه :" بأنه ليس بشيء "[(١)] .

٣ ـ أ ا " تدل على أن هذا اية ما قيل "[(٢)]،أي لا يوجد أقوال أخرى في عددهم .

ومن المعلوم أن دخول حرف الواو له فائدة ، وتلمسها يزيد المؤمن يقينا بكلام ربه ، ولم يصب من قال " طلب الحكمة والعلة في مثل هذه الواو تكلف بعيد "[(٣)]، وعمل أهل العلم من المفسرين يرد ذلك أيضا .

وقوله : ﴿ فَلا تمارِ فِيهِم إلا مِراءً ظَاهِراً ﴾ يدل على أن ا ادلة تقدر بقدر أهمية المسألة المتنازع فيها ، وعلى قدر أدلتها ، فما كان من فروع المسائل لا يعامل معاملة أصولها ، وما كانت أدلته غير ظاهرة فيبقى في محيط الظن ، ولهذا لا يعامل معاملة المسائل ظاهرة الأدلة .

وقوله : ﴿ ولا تستفْتِ فِيهِم مِنهم أحدا﴾ " فيها دليل على المنع من استفتاء من لا يصلح للفتوى ، إما لقصوره في الأمر المستفتى فيه ، أو لكونه لا يبالي بما تكلم به ، وليس عنده ورع يحجزه "[(٤)] ،وأولى هذا الصنف هم أهل الكتاب .

وقال تعالى : ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً﴾[(٥)] .

هذه الآية الكريمة فيها تربية للنبي ﷺ من عدة جهات :

١ ـ أن يبقى معتمدا في أقواله ، وأفعاله ؛ على الله وحده دون ما سواه ، وبالمقابل يتبرأ من حوله وقوته .

٢ ـ أن يرد علم الأمور التي لا يعلمها إلى الله سبحانه .

---

(١) انظر : التفسير الكبير ٩١/٢١ بتصرف .

(٢) المحرر الوجيز ٥٠٨/٣ .

(٣) القرطبي ٣٨٣/١٠ نقله عن القشيري .

(٤) تفسير السعدي ص٤٧٤ .

(٥) الكهف : ٢٣ .

٣ ـ اختبار وامتحان ، هل سيتحرج النبي ﷺ من عدم إخبارهم ؟ وماذا سيقول لهم؟ وهل يصبر على انتقادهم وفرحهم بعدم إخباره إياهم ؟ وهذا بناء على ما ذكره أهل التفسير أن الوحي تأخر عن النبي ﷺ بشأن إخباره عن الأسئلة الثلاثة(١).

وتأخر الوحي،يدل على أن حكمة الله لا تتعلق بظواهر الأمور،فإن ظاهر تأخر الوحي عن النبي ﷺ مع أن الفترة حرجة بالنسبة له،وبالأسئلة أيضا نوع تحد له ،وهو في بداية الرسالة،وأعداؤه يحاولون أن يجدوا أي ثغرة في الجواب،فضلا عن ألا يجدوا جوابا،لكن الله حكيم عليم،فقد نتج عن تأخر الوحي حكم عظيمة،ومن ذلك:

١ ـ الآثار الإيمانية المترتبة على إرجاع المشيئة إلى الله ، وعدم تركه ﷺ لها في مستقبل حياته .

٢ ـ ظهور حقيقة نبوته في أنه لا يتقول على الله ، وصدقه في أن خبره يأتيه من السماء فإن انقطع عنه فلا يعلم الغيب .

٣ ـ بيان أنه مبلغ عن الله أمره وخبره .

وقال تعالى : ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً﴾(٢) .

فقوله:﴿ واذْكُر ربك إذَا نسِيت﴾ذكر لها المفسرون عدة أقوال ، ترجع إلى قولين :

١ ـ " أن هذه الآية الكريمة متعلقة بما قبلها ، والمعنى أنك إن قلت سأفعل غدا كذا ونسيت أن تقول إن شاء الله ثم تذكرت بعد ذلك ؛ فقل إن شاء الله ، أي اذكر ربك معلقا على مشيئته ما تقول أنك ستفعله غدا إذا تذكرت بعد النسيان "(٣) .

٢ ـ وقيل بأن الآية لا تعلق لها بما قبلها ، وعلى هذا يصح في تأويلها ما يلي :

قيل : " اذكر ربك إذا نسيت شيئا ليذكرك ما نسيت "(٤).

وقيل : " واذكر ربك بالتسبيح ، والاستغفار إذا نسيت كلمة الاستثناء ، والمراد منه

---

(١) انظر : تفسير الطبري ٢٢٨/١٥ ، وفتح القدير ٢٧٨/٣ .

(٢) الكهف : ٢٤ .

(٣) أضواء البيان ٢٥٤/٣ ، وهو ترجيح ابن القيم رحمه الله ، انظر : بدائع التفسير ، جمع يسري السيد محمد :١١٧/٣،{ط١، دار ابن الجوزي،الدمام، بدون } .

(٤) التسهيل ١٨٦/٢ .

الترغيب في الاهتمام بذكر هذه الكلمة " .

و"حمله بعضهم على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها [(١)] .

وقيل : واذكر ربك إذا تركت بعض ما أمرك به [(٢)] .

وقيل : واذكر ربك إذا غضبت [(٣)] .

والأولى القول الأول ، أما هذه المواطن فينبغي فيها ذكر الله ، ويتأكد في بعضها ، كحال الغضب ، والمعصية ، وهو من باب التفسير باللازم ، ولا علاج للناسي إلا أن يذكر الله ، لأن النسيان غفلة ، والغفلة من خطور ا " أن العدو – الشيطان - لا يدخل إلا من باب الغفلة ، فإن غفل وثَب عليه وافترسه " [(٤)].

وذكر الله لا يؤمر به العاصي دون غيره ، وإنما ذكر الله طريق لتحصيل الكمال ، والتزود منه ، ومن هنا أُمر النبي ﷺ بالذكر في هذه الآية ، فإن نسيانه تعليق إخبارهم عن جواب الأسئلة الثلاثة التي سألوا عنها ، لا يعد ذنبا لذاته ، وإنما نقصان عن الكمال المراد تحصيله للنبي ﷺ فأمر بالذكر لتحصيل الم لة التي تليق به ﷺ .

وقوله :﴿ وقُلْ عسى أَنْ يهدِينِ ربي لِأَقْرب مِن هذَا رشداً﴾ اسم الإشارة يعود لقصة أصحاب الكهف[(٥)] ، وعلى هذا القول فيها :

١ ـ إرشاد الله لنبيه ﷺ إلى الالتجاء إليه بطلب الهداية منه .

٢ ـ الحرص على هداية الناس ، لأن طلب الآيات ، والبينات الواضحات من أجل هداية الناس .

وأما القول بأن المراد بالآية " عسى أن يعرفني جواب مسائلكم قبل الوقت الذي حددته لكم ، ويعجل لي من جهته الرشاد "[(٦)]؛ لا يحتمله السياق ، لأن الأمر بالدعاء في

---

(١) انظر هذه الأقوال في : التفسير الكبير ٩٤/٢١ .

(٢) الكشاف ٦٦٩/٢ .

(٣) تفسير ابن كثير ١٢٤/٩ .

(٤) الوابل الصيب لأبي بكر بن القيم الجوزية ، تحقيق محمد عبد الرحمن عوض :ص٥٦،{ط١،دار الكتاب العربي ،بيروت: ١٤٠٥هـ } .

(٥) تفسير أبي السعود ٢١٧/٥.

(٦) زاد المسير ١٢٩/٥ .

ـاية القصة ، جاء بعد تأخر الوحي عنه ، كما يفيده سياق القصة .

والقول بأن هذا الدعاء " مما أُمر النبي ﷺ أن يقوله إذا نسي الاستثناء في كلامه الذي هو عنده في أمر مستقبل ، مع قوله إن شاء الله إذا ذكر "[1]ذكره الإمام الطبري رحمه الله وفي إسناده من لا يعرف[2] .

وقال تعالى :﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً﴾[3] .

هذه الآية قيل فيها :

١ ـ أ ا " حكاية كلام القوم ، والدليل عليه أنه تعالى قال:﴿ سيقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعهم كَلْبهم ﴾ وكذا إلى أن قال :﴿ ولَبِثُوا فِي كَهفِهم ﴾ ، أي أن أولئك الأقوام قالوا ذلك ، ويؤكده أنه تعالى قال بعده:﴿ قُلِ الله أعلَم بِما لَبِثُوا ﴾ ، وهذا يشبه الرد على الكلام المذكور قبله،ويؤكده أيضا ما روي في مصحف عبد الله ﷺ:وقالوا ولَبِثُوا في كَهفِهم"[4].

٢ ـ أ ا " كلام الله تعالى فإنه أخبر عن كمية تلك المدة وأما قوله:﴿ سيقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعهم كَلْبهم ﴾ فهو كلام قد تقدم ، وقد تخلل بينه وبين هذه الآية ما يوجب انقطاع أحدهما عن الآخر ؛ وهو قوله:﴿ فَلا تمارِ فِيهِم إلا مِراءً ظَاهِراً ﴾ وقوله:﴿قُلِ الله أعلَم بِما لَبِثُوا لَه غَيب السمواتِ والْأَرضِ ﴾ لا يوجب أن ما قبله حكاية ؛ وذلك لأنه تعالى أراد﴿ قُلِ الله أعلَم بِما لَبِثُوا لَه غَيب السمواتِ والْأَرضِ﴾ فارجعوا إلى خبر الله دون ما يقوله أهل الكتاب "[5] .

ولا شك أن المتبادر في فهم الآية هو أن هذا القول من الله سبحانه وتعالى لبيان مدة لبث أهل الكهف في كهفهم ، وهو خبر مستقل،ولا يعارض ذلك قوله بعده :﴿ قُلِ الله أعلَم بِما لَبِثُوا﴾ ؛لإفاد ا إرجاع تمام العلم لله ، وأن خبره هو الخبر الفصل بين

---

(١) تفسير الطبري ٢٣٠/١٥ .

(٢) قال الطبري في إسناده : "حدثنا بن عبد الأعلى ،قال :ثنا المعتمر ،عن أبيه ،عن محمد رجل من أهل الكوفة كان يفسر القرآن ،وكان يجلس إليه يحيى بن عباد " . انظر : تفسير الطبري ٢٣٠/١٥ .

(٣) الكهف : ٢٥ .

(٤) التفسير الكبير ٩٥/٢١ .

(٥) التفسير الكبير ٩٥/٢١ .

المختلفين،بالإضافة إلى أن الفصل بين قولهم:﴿ سيقُولُونَ ثَلاثَةٌ﴾ وما بعدها ظاهر[1] .

وقال تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً﴾[2] .

هذه الآية فيها ثناء عظيم من الله جل جلاله لنفسه المقدسة،ويظهر من خلال ما يلي:

١ ـ أمر الله لنبيه ﷺ أن يقول للناس:﴿الله أعلَم بِما لَبِثُوا ﴾وهذا إظهار للثناء العام .

٢ ـ إرجاع العلم كله لله في مدة لبث أهل الكهف :﴿ الله أعلَم بِما لَبِثُوا ﴾ .

٣ ـ بداية الجملة بالجار وا رور ، وهو يفيد زيادة الاختصاص:﴿ لَه غَيب السمواتِ والْأرضِ ﴾ .

٤ ـ اختصاصه سبحانه بعلم غيب السموات والأرض دون غيره .

٥ ـ قوله : ﴿أبصِر بِهِ وأسمِع ﴾ وهي صيغة تعجب تفيد التعظيم .

٦ ـ نفي الولاية عن غيره لأهل الكهف،وهذا يفيد الثناء من جهة إثبا ا لنفسه.

٧ ـ نفي إشراكه أحد معه في الحكم ، وتفيد الثناء من جهة أن الأمر كله له " وهذا يشمل الحكم الكوني القدري ، والحكم الشرعي الديني ، فإنه الحاكم في خلقه قضاء وقدرا ، وخلقا وتدبيرا ، والحاكم فيهم بأمره ، و يه ، وثوابه ، وعقابه "[3] كما أن ﴿أحداً﴾ نكرة في سياق نفي فتعم .

وقوله : ﴿ ما لَهم مِن دونِهِ مِن ولي﴾يحتمل أن المراد:

١ ـ أهل الكهف[4] ، أي ليس لأهل الكهف من دون الله من ولي .

٢ ـ ويحتمل أهل السموات والأرض[5]، فالله وليهم ، وليس لهم من دونه ولي ولا شريك .

٣ ـ ويحتمل أن يراد م معاصروا رسول الله ﷺ من الكفار ومشاقوه ، وتكون

---

(١) انظر تفسير الطبري ٢٣٢/١٥ .

(٢) الكهف : ٢٦ .

(٣) تفسير السعدي ص ٤٧٥ .

(٤) تفسير السعدي ص ٤٧٥ .

(٥) تفسير البغوي ١٥٨/٣ .

الآية اعتراضا بتهديد[1] .

والراجح أن المراد م أهل الكهف على وجه الخصوص ، والآية وإن كان لفظها عاما لأهل السموات والأرض ، فإن السياق في شأن أهل الكهف ، وإظهار ولاية الله لهم ؛ ليفيد أن من كان الله وليه فلا خوف عليه ، وأبعد الأقوال من قصرها على المعادين للنبي ﷺ إذ لا يوجد ذكر لهم سابق.

كما أن قوله : ﴿ما لَهم مِن دونِهِ مِن ولِي ﴾ يفيد أمرين :

١ ـ شدة تعلق أهل الكهف بر م ، فلم يكن لهم من دون الله ولي يدعونه ، ويرجونه ، ولهذا تكرر حرف الجر ﴿ مِن ﴾ ويؤيده لفظ " الولاية " فهي أقرب من غيرها من الألفاظ .

٢ ـ قُرب الله لهم لما تعلقوا به ، ورجوه ، فلم يكن بينه وبينهم ولي يدعى ، ولذلك تولاهم بحفظه ، ورعاهم في يقظتهم ، ونومتهم .

وقد حصرت الآية جميع الوسائل والطرق التي يشرك فيها مع الله غيره ونفتها ، فأثبتت الآية أن هناك طريقين لمن يدعى :

١ ـ وجود ولي يدعى عند الشدائد .

٢ ـ أن يكون مع الله أحد في ملكه فيدعى .

فنفت الآية النوعين ، فلم يبق إلا الالتجاء إلى الله ، فلا ولي من دونه نافع ، ولم يشرك الله في ملكه أحدا.

وهذا الحصر أيضا يفيد بطلان الشفاعة من دون الله ؛ لأ ا نوع من التشريك في ملك الله .

---

(١) المحرر الوجيز ٥١١/٣ .

المطلب الثاني

اللطائف الدعوية المستنبطة من الآيات

الآيات الكريمات في قصة أصحاب الكهف تحمل في ثناياها الكثير من اللطائف والدرر ، وسأكتفي بذكر اللطائف التي تتعلق بالدعوة ، تمشياً مع بحثي ، وهي كالتالي :

اللطيفة الأولى :

للقصة تأثير واقعي على النفس ، ويزداد الأثر حينما يكون منادي الفطرة حيا في الضمير ، فإن من ميزات السور المكية " قصص الأنبياء ، والأمم الغابرة ، والدعوة إلى التوحيد ، وعبادة الله وحده ، وإثبات الرسالة ، وإثبات البعث والجزاء "[(١)] وآيات قصة أصحاب الكهف تؤكد ذلك ، ففيها قصة من قصص الأمم الغابرة ، تتجلى فيها الدعوة لإثبات البعث والجزاء ، من خلال ضرب الله سبحانه على آذا م ، ثم بعثهم من مرقدهم .

وهذا يجعل الدعاة يولون جانب القصص ، والفوائد المستنبطة منها اهتماماً كبيراً ؛ لأن " القصة تمتاز بأ ا تصور نواحي الحياة ، فتعرض لك الأشخاص ، وحركا م ، وأخلاقهم ، وأفكارهم ، واتجاهات نفوسهم ، وبيئتهم الطبيعية ، والزمنية ، تعرضهم عليك بعرض أعمالهم ، وتصرفا م ، ونقاشهم ، فإذا رأيت هذه التصرفات والأعمال ، ومضيت مع الحوار والنقاش ، عرفت ما يستكن في النفوس من طباع ، وما يهجس فيها من خواطر ، وانشرح صدرك لأهل الخير ، وضقت ذرعا بذوي النفوس المظلمة ، والوسائل الملتوية .

وتمتاز القصة كذلك بأن النفس تميل إليها ، فغريزة حب الاستطلاع تعلق عين السامع وأذنه وانتباهه بالنسق القصصي البارع ، إشرافا لمعرفة ما خفي من بقية الأنباء "[(٢)].

اللطيفة الثانية :

على الداعية أن يأتي من القصص بما يناسب الحال ، ويخدم الهدف ، فقد جاءت قصة أهل الكهف في وقت يتناسب مع حالها ، فقد كانت قريش تكفر بالله ، وكانت القضية التي تشغل بالها ، وتستغلها للطعن في الرسالة هي قضية بعث الموتى ، وإرجاعهم للحياة

---

(١) مباحث في علوم القرآن ، مناع القطان :ص٦٣،{ط٢٤، مؤسسة الرسالة ،بيروت: ١٤١٤هـ } .

(٢) تذكرة الدعاة ، البهي الخولي :ص٥٥،{ط٢، دار القرآن : منشورات الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ، ١٤٠٣هـ } .

بعد أن أصبحوا رفاتا ، فناسب هذا الحال من القصص ما يشتمل على إثبات قضية البعث ، دون غيرها من القصص .

اللطيفة الثالثة :

مع فورة الحماس الديني ، والهم الدعوي ، وشدة الارتباط بالله ، قد يغيب عن بال الداعية أن للأسباب عبودية تناسبها ، فكما أنه " ليس في فعل الأسباب ما ينافي التوكل ؛ مع اعتماد القلب على خالق الأسباب ، وليس التوكل بترك الأسباب ؛ بل التوكل من الأسباب ، وهو أعظمها ، وأنفعها ، وأنجحها ، وأرجحها "[(١)]، فهؤلاء الفتية مع شهادة الله لهم بالإيمان ، والهدى ، إلا أ م بذلوا الأسباب فهربوا من سلطة المتسلط،وبطش الكافر .

وهذا ما يربي في نفس الداعية الواقعية وهو يمارس الدعوة واقعا عمليا في حياته ، فيلتفت للأسباب ، ويعتني ا ، ويرتبها ، ويأتي بما يستطيع منها ، وهو ذا يتعبد لربه سبحانه في فعله لها ، ويفوض أمره لله .

اللطيفة الرابعة :

من سنن الله التي قضاها أن يكون لهذا الدين مناوؤن ، وإكمالا للسنة هيأ لهم أسباب القوة ، وجعل التمكين الآني بأيديهم ، فكانت سنة الهروب حينما تقتضي أسبا ا ، " ففيه الدلالة على أن ضرورة أن يهرب المسلم بدينه إذا خاف الفتنة فيه ، وأن عليه ألاّ يتعرض لإظهار كلمة الكفر ؛ وإن كان على وجه التقية "[(٢)]، وهذا يضبط لنا سلوك الداعية ، وتقديره الأمور حسب الفقه الدعوي لديه ، فإن سلامة الدين لا يعادلها شيء ، كما ينبغي للدعاة ألا يتمنوا البلاء ، فإن ابتلاهم الله فليصبروا ، " فعلى الداعية إذا وجد جماعته في خطر على حيا م ، أو معتقدا م من الفتنة ؛ أن يهيئ لهم مكانا يأمنون فيه من عدوان المبطلين ، ولا ينافي ذلك ما يجب على دعاة الحق من تضحية ، فإ م إذا كانوا قلة استطاع المبطلون أن يقضوا عليهم قضاء مبرما ، فيتخلصوا من دعو م ، وفي وجودهم

---

(١) معارج القبول ، حافظ حكمي ، تحقيق عمر أبو عمر:٩٨٨/٣،{ط١، دار ابن القيم ،الدمام:١٤١٠هـ }.

(٢) أحكام القرآن ، أحمد بن علي الجصاص ، تحقيق محمد صادق قمحاوي :٤٠/٥،{ دار إحياء التراث العربي ،بيروت: ١٤٠٥هـ } .

في مكان آمن ضمان لاستمرار الدعوة وانتشارها "[1] .

اللطيفة الخامسة :

سؤال الله الثبات على دينه هم يشغل بال الدعاة ، لأن الله يقلب الأمور ، والقلب يتقلب في أحواله ، والفتن تحيط بالإنسان ، ومن هنا لهج فتية الكهف بقولهم ﴿وهيئْ لَنا مِن أمرِنا رشداً﴾ وهذا يتضمن سؤال الله الثبات على دينه ، فإن معنى ﴿ مِن أمرِنا ﴾ أي: ما نحن عليه من أمر من مفارقة الكفار ، وترك معبودا م[2] ، فعلى الداعية ألا يغفل عن مثل هذه الأدعية التي تربي فيه الافتقار لله سبحانه ، وعدم الأمن من مكره .

اللطيفة السادسة :

ساعات الخلوة بالله هي زاد الدعاة إلى الله كما فعل فتية الكهف لما أووا إليه ، شرعوا إلى الله بالابتهال ، والتضرع بين يديه " فقالوا ربنا آتنا " وعلى هذا ينبغي أن يتربى ا تمع المسلم والدعاة على وجه الخصوص ؛ في جعل النصيب الأوفر من جهدهم لساعات خلوة مع الله ، يبتهلون إليه سبحانه ، ويستمدونه الإعانة والسداد .

اللطيفة السابعة :

عرض القرآن لقصة أصحاب الكهف يفيد في دلالتنا على طريقة مناسبة لعرض القصة ، لها قَنها ، فقد فصلها بعد إجمال ، وهو نوع من التشويق للمستمعين ، حيث يحمل الإجمال المدعوين إلى متابعة تفاصيلها ، وهم في شوق داخلي للوصول إلى النهاية التي ذُكرت لهم أولا .

اللطيفة الثامنة :

التفاوت العمري بين المدعوين له أثره الدعوي على توجيه الخطاب الديني لهم ، فأعمار فتية الكهف تدلنا على أهمية العناية ذه الفئة العمرية من الناس ؛ لقرب قلو م من الحق ؛ ولأ م أكثر لينا وانقيادا له ؛ وأقوى على تحمل المشاق في سبيله ، وفي المقابل يعطينا خطور ا لتفانيها في سبيل ما تعتقده ، وأصدق مثال لذلك الخوارج فهم " أحداث

---

(١) السيرة النبوية دروس وعبر ، مصطفى السباعي :ص٥٠،{ط٩،المكتب الإسلامي ،بيروت:١٤٠٦هـ } .

(٢) الكشاف ٦٥٩/٢ .

الأسنان ، سفهاء الأحلام "[1] .

وهذا ما يؤكد على الدعاة إعداد البرامج القوية ؛ لتأهيل الشباب ؛ واستغلال طاقتهم ، وعدم إهدارها كما فعل ملك المدينة التي خرج منها أولئك الفتية .

اللطيفة التاسعة :

وصول دين الله إلى أولئك الفتية يرسم لنا طريقنا الدعوي في خطاب جميع طبقات ا تمع ، ويأمرنا بإعطاء كل ذي حق حقه من الدعوة ، وألا يحول حرصنا على هداية أناس بعينهم دون دعوة آخرين ، وأن يكون من أول مقاييسنا الدعوية هو : من الأكثر سماعا ؟ حتى نؤدي له رسالتنا صافية خالصة .

اللطيفة العاشرة :

التدرج في الدعوة إلى الله من أنجح الوسائل الدعوية ؛ لأن المدعوين يرفضون الحق لما يأتيهم جملة ، وهذا من الفقه الدعوي الذي ينبغي أن يدرس ؛ لأن هناك ما يحتمل التدرج ، بينما لا يحتمله أمر آخر من أمور الشريعة .

فإن انتقال أهل الكهف في الحجة من توحيد الربوبية إلى الألوهية يفيد التدرج في الدعوة ، والاستدلال[2] ، وهو من ضرورات وأولويات الدعوة اليوم .

اللطيفة الحادية عشرة :

الداعية من أشد الناس تحريا في ألفاظه ، ودقة في معانيها ، خاصة مع تربص الكثيرين لما يصدر عنه من أفعال ، وأقوال ، ولهذا فإن فتية الكهف لما بعثهم الله من مرقدهم ، وتحاوروا في مدة لبثهم ، قالوا:﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يوماً أو بعض يومٍ ﴾وذكرهم بعض اليوم قالوه " توقيا من الكذب "[3] ، وهكذا يتربى الداعية على دقة الألفاظ ، ووز ا ، والحذر من الكذب ، أو ما يقود إليه ، ويتعود ويعود نفسه على الصدق في النطق ، والذي

---

(1) جزء من حديث علي ، أخرجه البخاري في كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم ، باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة ، برقم (٦٥٣١) ٢٥٣٩/٦، ومسلم في كتاب الزكاة ، باب التحريض على قتل الخوارج ، برقم (١٠٦٦) ٧٤٦/٢.

(2) انظر روح المعاني ٢١٨/١٥ .

(3) الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي :١٦١/٦،{ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ،بيروت:بدون} .

بدوره يقوده للصدق في الأفعال بعد الأقوال ، كما يفيد ذلك في انخفاض مستوى العمومية التي يدخل من خلالها التلبيس .

اللطيفة الثانية عشرة :

مع تزاحم الأعمال الدعوية، وتقاطعها في كثير من الأحيان ، فلا بأس من وقوع الخلاف فيما يقبل الاجتهاد ، ما لم يولد التعصب للآراء ، وهو كثير في حياة الدعاة اليوم .

فإن فتية الكهف لما اختلفوا في مدة لبثهم ، وقالوا أقوالا عدة ، وكل منهم قاله بناء على اعتقاده ، لم يحملهم ذلك على التعصب ، ورمي التهم ، وتسفيه الآخرين ، أو الاستهزاء بأقوالهم ، فقالوا: ﴿ لَبِثْنا يوماً أو بعض يومٍ قَالُوا ربكُم أعلَم بِما لَبِثْتم ﴾ .

وهذا يرجع إلى عدم معاملة المسائل المختلف فيها على درجة واحدة من الحماس ، والأخذ ، كما يقرره علم فقه الدعوة ،كما ترشد الآية المختلفين في القول إلى أن يرجعوا علمه إلى الله سبحانه .

اللطيفة الثالثة عشر :

الأخوة الإيمانية هي حبل الصلة بين الدعاة إلى الله ، والتي ينبغي مراعا ا كثيرا ، ومن مظاهرها ألا يتميز أحد عن أحد ، أو يتكبر على أخيه ، ولهذا فإن الله قال عن فتية الكهف:﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنهم ﴾ مع قولهم:﴿ فَابعثُوا أحدكُم ﴾ ،وهذا يدل على أنه لم يتميز أحد منهم على أحد ، وهو مقتضى الأخوة الإيمانية التي تقوم على الحب في الله ، بغض النظر عن خصائص أخرى ، وهو تطبيق عملي للتواضع بين المتحابين .

كما أن عدم رفض أحدهم المبعوث أو مراجعته تعطي صورة واضحة عن عبودية خدمة الإخوة في الله .

اللطيفة الرابعة عشر :

يعتقد البعض أن مهمة الدعاة تنحصر بتوجيه الناس ، وإرشادهم ، وهو مفهوم صحيح ، إلا أنه ينبغي ألاّ يقتصر دورهم على ذلك ، فمن سلوكيات الداعية الناجح ، تعاهد إخوانه الدعاة بالإرشاد ، والتوجيه ، والتعليم ، وقد يصل أحيانا إلى الإنكار عليه .

ولعل إرشاد فتية الكهف لصاحبهم المبعوث ، بأن ينظر أزكى الأطعمة ، وأن يتلطف في الخروج ، وأن يحذر العدو ؛ فيه ما يجب أن يكون عليه الدعاة من التواصي بالخير ،

والتوجيه والإرشاد فيما بينهم ، كما هو حالهم مع الناس .

اللطيفة الخامسة عشر :

قوله:﴿ولْيتلَطف ولا يشعِرن ِبكُم أَحداً﴾ فيها توجيه للمؤمنين المطاردين بسبب دينهم واعتقادهم ؛ لئلا يفتنوا عن دينهم ، من خلال توفير الأمن لهم بالوسائل التالية :

١ ـ تكلف التلطف في القول حتى لا ينكشف أمرهم .

٢ ـ تكلف التلطف في الأفعال في الدخول والخروج .

٣ ـ ألا يعلم م أحد كائنا من كان حتى ولو كان ممن يخفي إيمانه ، فقد يضعف أمام الابتلاء ، ومن هنا لم يستثن أهل الكهف أحدا للإشعار بمكا م .

٤ ـ التوكيد على هذا الجانب والتواصي به ، ولهذا تكرر التوكيد في كلام أهل الكهف ، مع أن الذاهب لجلب الطعام على علم بأهمية ذلك .

٥ ـ إخبارهم بالمفاسد التي ستحدث لو ظهر عليهم عدوهم ، وعدم غشهم بتعميتها ، بل تذكر لهم ولو كانت شديدة ، ومن هنا ذكر لهم ﴿إنهم ِإنْ يظْهروا علَيكُم يرجموكُم أَو يعِيدوكُم ِفي مِلتِهم ولَن تفْلِحوا ِإذاً أَبداً﴾ حتى يأخذوا الأمر بجد .

اللطيفة السادسة عشر :

مع اتصال الحضارات اليوم ينبغي على الدعاة التحذير من تتبع سبيل اليهود والنصارى ، وتقليدهم ، فإن قصة أصحاب الكهف فيها بيان لحال تلك الأمة من حيث فعلها بصالحي قومها ، وتحذير لهذه الأمة ألا تتبع سبيلهم ، ومن ذلك أول خطوات الشرك ؛ وهي الغلو في محبة الصالحين ، ويدخل فيما ينبغي التحذير منه مظاهر الشرك العصرية ، والبدع المستحدثة تقليدا لهم ؛ كتبديل شرع الله ، وإحياء الأعياد .

اللطيفة السابعة عشر :

الآيات تحمل في طيا ا توجيها ربانيا بشأن الضوابط الدعوية لمحاورة أهل الكتاب ، وهذه التوجيهات هي :

١ ـ " لا تجادلهم إلا جدالا ظاهرا نطق به الوحي المبين "[(١)]،والوحي يشمل آيات الكتاب العزيز ، وصحيح السنة النبوية .

---

(١) تفسير أبي السعود ٢١٦/٥ .

٢ ـ النهي عن التعمق في القصص التي وردت في القرآن على سبيل الإجمال ، وأخذ العبرة منها ، وترك ما لا يتعلق بهدف القصة .

٣ ـ أن يكون الجدال " من غير تجهيل لجميعهم فإن فيهم مصيبا وإن قل "(١) .

٤ ـ النهي عن البدء باستفتائهم عن ذلك ، لقوله:﴿ ولا تستفْتِ فِيهم مِنهم أَحداً﴾.

اللطيفة الثامنة عشر :

ذِكر الله لأقوال الناس في عدد فتية الكهف يفيد في بيان المنهج الصحيح في ذكر المسائل المتنازع فيها ، " فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام ، وتعليم ما ينبغي في مثل هذا ، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال ، ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث ؛ فدل على صحته ، إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما ، ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته ، فيقال في مثل هذا:﴿ قُلْ ربي أَعلَم بِعِدتِهم ﴾ فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه ، فلهذا قال:﴿فَلا تمارِ فِيهم إِلا مِراءً ظَاهِراً ولا تستفْتِ فِيهم مِنهم أَحداً﴾ أي لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ، ولا تسألهم عن ذلك ، فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب ، فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام ، وأن ينبه على الصحيح منها ، ويبطل الباطل ، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته ؛ لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته ؛ فيشتغل به عن الأهم . فأما من حكى خلافا في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها ؛ فهو ناقص إذ قد يكون الصواب في الذي تركه ، أو يحكى الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال ؛ فهو ناقص أيضا فإن صحح غير الصحيح عامدا فقد تعمد الكذب ، أو جاهلا فقد أخطأ ، كذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته ، أو حكى أقوالا متعددة لفظا ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى ، فقد ضيع الزمان ، وتكثر بما ليس بصحيح "(٢) .

اللطيفة التاسعة عشر :

تربية الداعية على الورع يعود نفعه على دعوته ، وعلى قبوله عند الناس ، تبعا لقبول الله

---

(١) تفسير أبي السعود ٢١٦/٥ .

(٢) مجموع الفتاوى ٣٦٨/١٣ .

له ، فإن قوله:﴿ولا تقُولَن لِشيءٍ إني فَاعِلٌ ذَلِك غَداً إلا أنْ يشاءَ الله ﴾ فيها تربية للورع في ترك الفتوى في المسائل التي لا يعلمها الإنسان ، كما أ ا تدل على أن الإنسان إن لم يكن عنده علم ودليل على ما يقول فسكوته من الإيمان ، خاصة إن كان الأمر يتعلق بأمور هامة في حياة الأمة الإسلامية ، ومن كبرى قضايا المسلمين .

المبحث الثاني

الرجل الذي حاور صاحب الجنتين في سورة الكهف

وفيه مطلبان :

المطلب الأول :تفسير الآيات الواردة في شأن الرجل الذي حاور صاحب الجنتين .

المطلب الثاني :اللطائف الدعوية المستنبطة من الآيات.

المطلب الأول

تفسير الآيات الواردة في شأن الرجل الذي حاور صاحب الجنتين

قال الله تعالى:﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً﴾[(١)] .

فقوله: ﴿واضرب لهم مثلاً ﴾ الضمير في ﴿لهم﴾ يصح أن يعود إلى المشركين من أهل مكة ، كما يصح أن يراد به جماعة المؤمنين والكافرين[(٢)] ، وظاهر السياق يؤيد أن المراد به أهل مكة ، إلا أن ذلك لا يمنع أن يستفيد منه المؤمنون ، فإن لهم فيه أيضا دروسا وعبرا .

وقوله:﴿ مثلاً رجلين ﴾ أي : خبر رجلين[(٣)] ، ويحتمل أن يكون هذا من باب ضرب الأمثال[(٤)] ، ويجوز أن يكون المراد بما قصة حقيقية ، " والأظهر من سياق الكلام ، وصنع التراكيب مثل قوله : ﴿قال له صاحبه وهو يحاوره ﴾ فقد جاء (قال) غير مقترن بفاء،وذلك من شأن حكاية المحاورات الواقعة "[(٥)]،وعلى هذا أكثر أهل التأويل[(٦)].

وقوله:﴿جعلنا لأحدهما جنتين من أعنابٍ وحففناهما بنخلٍ وجعلنا بينهما زرعاً﴾ . أي:جعلنا له بستانين من كروم،وهو العنب،وأطفنا هذين البستانين بنخل على حافتيهما ،وجعلنا وسط هذين البستانين زرعا[(٧)]،وهذا أفضل ما يكون من هيئة الزرع الناضج، والبستان الخلاب، ويؤخذ من الآية أن الله يقّسم رزقه بين عباده،وأن الرزق لا يرتبط بالإيمان ، فقد يعطي الكافر ، استدراجا ، ويحرم المؤمن ابتلاء واختبارا .

---

(١) الكهف : ٣٢ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير ٣١٦/١٥ بتصرف .

(٣) تفسير البغوي ١٦١/٣ .

(٤) المحرر الوجيز ٥١٥/٣ .

(٥) التحرير والتنوير ٣١٧/١٥ .

(٦) المحرر الوجيز ٥١٥/٣ .

(٧) انظر : تفسير الطبري ٢٤٤/١٥ .

ولو قال قائل بأن ترتيب الزرع على نفس الهيئة التي ذكرها الله له تأثير على نمو النبات ؛ لكان القرآن يؤيد كلامه ، إلا أن ذلك يحتاج إلى إثبات من المختصين ، ولا أجزم به لأني لم أجد به قائلا .

وقال تعالى:﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً﴾[١].

فقوله:﴿كِلْتَا الْجنتينِ آتت أُكُلَها ﴾ أي : كلا البستانين أطعم ثمره ، وما فيه من الغروس ، من النخل والكرم ، وصنوف الزرع ، و" كلا اسم مفرد معرفة ، يؤكد به مذكران معرفتان ، وكلتا اسم مفرد يؤكد به مؤنثان معرفتان "[٢] ، ثم قال ﴿ آتت ﴾ " فأنث ؛ لأنه ضمير مؤنث ، فصار نظير قولهم طلع الشمس ، وأشرقت "[٣] أي أعاد الضمير على اللفظ ، فلفظ ﴿ كِلْتا ﴾ مؤنث .

وقوله : ﴿ولَم تظْلِم مِنه شيئاً ﴾ الظلم في لغة العرب : وضع الشيء في غير موضعه تعديا[٤] ، ومثل ذلك أن ينتقص مما يطلب منه ؛ لأن من نقّص من حق غيره فقد وضع مقدار النقص في غير موضعه ، ومن ذلك سمي نقص الثمار هنا ظلما .

وأشار العلامة الطاهر بن عاشور رحمه الله إلى معنى لطيف ، فقال : " واستعير الظلم للنقص على الطريقة التمثيلية ، بتشبيه هيئة صاحب الجنتين في إتقان خبرهما ، وترقب إثمارهما ، بهيئة من صار له حق في وفرة غلتها ، بحيث لم تأت الجنتان بما هو مترقب منهما ، أشبهتا من حرم ذا حق حقه فظلمه ، فاستعير الظلم لإقلال الإغلال ، واستعير نفيه للوفاء بحق الإثمار "[٥] .

ومعنى الآية : أن البستانين لم تنقص من ثمارها أدنى شيء[٦]، فالجنتان ليستا " كما يعهد في سائر البساتين ، فإن الثمار غالبا تكثر في عام ، وتقل في آخر ، وكذا بعض

---

(١) الكهف : ٣٣ .

(٢) التفسير الكبير ١٠٦/٢١ .

(٣) البحر المحيط ١١٩/٦ .

(٤) معجم مقاييس اللغة ، مادة (ظلم) ، ص٦٤١ .

(٥) التحرير والتنوير ٣١٨/١٥ .

(٦) انظر تفسير السعدي ص ٤٧٦ .

الأشجار ، يأتي بالثمر في بعض الأعوام دون بعض "[1] .

وقوله تعالى :﴿ وفَجرنا خِلالَهما نهراً ﴾ فجرنا بالتشديد للمبالغة[2] ، فكأن النهر الذي يجري من وفرة مائه ، وشدة تدفقه ، وكثرة فروعه ؛ كأنه أ ار ، وهذا من نعمة الله على صاحب الجنتين .

وقال تعالى :﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾[3] .

فقوله:﴿وكَانَ لَه ثَمر ﴾ قرئ بفتح الثاء المثلثة ، وضمها[4] ، وكلاهما تفيد كثرة ما يتقلب فيه صاحب الجنتين من النعم ، فعلى قراءة الفتح تفيد الآية كثرة ما تخرج جنتاه من الثمار لإطلاق لفظ الثمر ، ومن جهة أخرى تدل كثرة ثماره على وفرة أمواله الأخرى من الذهب ، والفضة بطريق اللازم ، حيث يلزم من كثرة الثمار كثرة عائدها المادي .

وعلى قراءة الضم فإن معنى الثُمر أي : أصناف المال ، فكان للرجل صاحب الجنة ، أنواع أخرى من الأموال ، كالذهب ، والفضة ، والرقيق ، وغير ذلك[5] ، فلا تعارض بين معنى القراءتين .

وقوله:﴿ فَقَالَ ِلصاحِبِه وهو يحاوِره أنا أَكْثَر ِمنك مالاً وأعز نفَراً ﴾ أي : هذا الذي جعلنا له جنتين من أعناب ، قال لصاحبه الذي لا مال له وهو يخاطبه : ﴿ أنا أَكْثَر ِمنك مالاً وأعز نفَراً﴾ أي : أنصارا ، وحشما ، وقيل : يقصد الأولاد الذكور على وجه الخصوص ، لأ م ينفرون معه[6] ، وقيل : عشيرة ورهطا ، وهذه غاية أمنية الفاجر ،

---

(١) تفسير أبي السعود ٢٢١/٥ .

(٢) التفسير الكبير ١٠٦/٢١ .

(٣) الكهف : ٣٤ .

(٤) قرأ عاصم بفتح الثاء والميم في الموضعين ، وهو جمع ثمار ، أو ثمرة ، وقرأ أبو عمرو بضم الثاء وسكون الميم في الحرفين ، والباقون بضم الثاء والميم في الحرفين ، انظر : الكافي في القراءات السبع ، أبو عبد الله محمد بن شريح الأندلسي ، :١٤٧ ، {ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت:١٤٢١} .

(٥) انظر : الدر المنثور ٣٩٠/٥ .

(٦) الكشاف ٦٧٤/٢ .

كثرة المال ، وعزة النفر[١] ويدخل في عزة النفر كثرة الأولاد[٢] .

وهذه الأقوال يسهل جدا الجمع بينها ، فمن تمام نعمة الله على صاحب الجنتين أن الله أنعم عليه بكثرة الخدم ، والرقيق ، يقومون بشأن الجنتين ، ولضخامة الجنتين فإن ذلك يستدعي كثرة الأعوان والأنصار والخدم ، وأما كثرة الأولاد فتستفاد من قوله تعالى على لسان صاحبه المؤمن: ﴿ أنا أقل مِنك مالاً وولَداً﴾ .

قال ابن عطية رحمه الله " واستدل بعض الناس من قوله:﴿وأعز نفَراً ﴾ على أنه لم يكن أخاه "[٣]، وهذا على تفسير النفر بأنه العشيرة ، والآيات لم تتعرض للأخوة بينهما فلا يوجد دليل ينفي ، كما لا يوجد دليل يثبت ، فالأصل عدم التعرض لذلك .

واستدل البعض من قوله تعالى:﴿ لِصاحِبِهِ ﴾ على " جواز صحبة المؤمن للكافر ، ولكن بشرط ألاّ يتأثر المؤمن بهذه الصحبة ، وأن يبقى على إيمانه ، وأن ينكر على صاحبه الكافر إذا نطق بما يستوجب الإنكار "[٤] .

ويظهر لي أن هذا استدلال بمفهوم كلمة﴿ لِصاحِبِهِ ﴾ ، لكن هذا المفهوم لا يوازي منطوق الآيات والأحاديث التي تأمر المؤمن بمفارقة الكافر،وعدم مصاحبته ،مع بذل الدعوة له ، ولا يشترط لبذل الدعوة أن يصاحبه ، خاصة بعد أن يتبين للمؤمن عدم استجابة الكافر ، وأما تسمية الآيات له صاحبا ، فالذي يظهر منها أنه من التسمية اللغوية ، والتي تفيد مطلق المقارنة ، ولا يلزم منها المقارنة الدائمة ، وفرق بينهما، أو " بمعنى المقارن في الذكر، حيث انتظمهما خبر المثَل ، أو أريد به المُلابس المُخاصم "[٥] .

وقال تعالى :﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً﴾[٦]

فقوله : ﴿ودخلَ جنته وهو ظَالِم لِنفْسِهِ ﴾ أي : حال كونه ظالما لنفسه[٧]، " إما بكفره

---

(١) انظر الطبري ٢٤٦/١٥ .

(٢) الكشاف ٦٧٤/٢ .

(٣) المحرر الوجيز ٥١٦/٣ .

(٤) المستفاد من قصص القرآن ، ١٦٠/١ .

(٥) التحرير والتنوير ٣١٩/١٥ .

(٦) الكهف : ٣٥ .

(٧) أضواء البيان ٢٧٣/٣ .

، وإما بمقابلته لأخيه فإ ا تتضمن الفخر ، والكبر ، والاحتقار لأخيه "[1] ، وهذا يدل على أن احتقار الغير ظلم للنفس ، ولعل السبب ؛ أن الاحتقار يستلزم الكبر ، والمؤمن ممنوع منه .

وقد قيل في سبب إفراد الجنة بعد أن ثناهما قبل هذه الآية ، ما يلي :

١ ـ إما لأن المراد " ودخل ما هو جنته ، ماله جنة غيرها ، يعني أنه لا نصيب له في الجنة التي وعد المؤمنون ، فما ملكه في الدنيا هو جنته لا غير "[2] وهذا بعيد ، خاصة على قول بعض المفسرين أنه تاب من الشرك ، والآيات لم تذكر حاله بعد هلاك بستانه ، إلا تحسره على شركه ، وندامته عليه ، فالأصل أن يتوقف عما لم تتكلم عنه الآيات .

٢ ـ وإما " لعدم تعلق الغرض بتعدادها " وهو قوي .

٣ ـ " وإما لاتصال إحداهما بالأخرى " فتكون الجنتان بم لة الجنة الواحدة ، إلا أن تسميتهما جنتين قبل ذلك لا يؤيده .

٤ ـ " وإما لأن الدخول يكون في واحدة فواحدة "[3] ولعله الأولى .

وقوله تعالى : ﴿قال ما أَظُن أنْ تبِيد هذِهِ ﴾ أي : أن الرجل صاحب الجنتين ، عندما رأى جمالهما ، وراقه حسنهما ، وغرته زهر ما ، توهم أ ا لا تفنى أبدا ، وأنكر البعث[4] ، وقوله ﴿ ما أَظُن ﴾ الظن هنا إما أن يكون :

١ ـ " عالما بحقيقة الحال ، فيكون كلامه هذا ، على وجه التهكم والاستهزاء ، فيكون زيادة كفر إلى كفره .

٢ ـ وإما أن يكون هذا ظنه في الحقيقة ، فيكون من أجهل الناس ، وأبخسهم حظا من العقل "[5] .

وقوله ﴿ تبِيد ﴾يحتمل أن يكون المراد : ما أظنها تفنى أبدا ، ويحتمل أن يكون المراد

---

(١) التسهيل لعلوم الت يل ١٨٨/٢ .

(٢) الكشاف ٦٧٤/٢ .

(٣) الأقوال بين الأقواس ، ينظر فيها : تفسير أبي السعود ٢٢٢/٥ .

(٤) تفسير البغوي ١٦٢/٣ .

(٥) تفسير السعدي ، ص٤٧٧ .

ليس على ظاهر الفناء ، وإنما : " أنه يعيش فيها حتى يأكلها حياته "[١] .

والاحتمال الثاني أقرب لأن فناء الأشياء مما يتفق عليه بنو البشر جميعا ، فيكون مراد صاحب الجنة أ ا لا تفنى طيلة حياته .

وقوله:﴿ ما أَظُن أَنْ تِبيد هذِهِ ﴾ اسم الإشارة في رجوعه أقوال للمفسرين،وهي :

١ ـ أنه يرجع " للهيئة من السماوات ، والأرض ، وأنواع المخلوقات " وليس بظاهر ، إذ لم يسبق ذكر لهذه الأشياء .

٢ ـ وقيل : يرجع إلى " جنته "[٢] وهو الأولى كما يفيده سياق الآيات ؛ ولأن جنته هي مصدر إنكاره للبعث لما فيها من الحسن والنضارة .

٣ ـ وقيل : يرجع إلى ما لديه من مال[٣] ، ولا يختلف هذا القول عن سابقه .

وقال تعالى:﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً﴾[٤] .

والمعنى العام من الآية : إن مثل هذا الملك العظيم الراسخ لا يمكن أن يفنى ، ولا أعتقد أن ثمة بعثا بعد الموت ، وحتى لو كان هنالك حياة بعد الموت فسوف أكون أحسن منك ، كما كنت في الدنيا أغنى منك[٥] .

فقوله:﴿وما أَظُن الساعةَ قَائِمةً ﴾ هذا نتيجة حتمية لتعلق القلب بالدنيا ، والافتتان ا ، فقد أنكر قيام الساعة ، والبعث والنشور ، والراجح أن الظن هنا يراد به الشك ، فالرجل صاحب الجنتين لا يجهل تماما قيام الساعة ، لكنه يشك فيها ، فلم يتحقق لديه شرط من شروط التوحيد ، وهو اليقين القلبي ، إذ لو كان يجهل تماما لما أتى بذكر الساعة ، والساعة لفظ شرعي ، مما يدل أن العلم بقيام الساعة بلغه لكنه لم يحصل له اليقين القلبي .

وتكرار لفظ " الظن " يدل على أن الكافر في اضطراب دائما في أفعاله وأقواله .

---

(١) تفسير ابن زمنين ٦٢/٣ .

(٢) ينظر في القولين الأوليين : المحرر الوجيز ٥١٧/٣ .

(٣) انظر : روح المعاني ٢٧٦/١٥ .

(٤) الكهف : ٣٦ .

(٥)من لطائف التفسير،للشيخ أحمد فرح عقيلان : ٢٦٥/٢ ، {ط١،دار اليقين ، مصر : بدون} ٢٦٥/٢ .

قوله: ﴿وَلَئِن رُدِدتُ إِلَى رَبِي لَأَجِدَن خيراً مِنها منقَلَباً ﴾ هذا " إقسام منه على أنه إن رد إلى ربه،على سبيل الفرض والتقدير،وكما يزعم صاحبه،ليجدنّ في الآخرة خيراً من جنته في الدنيا"[١] فتضمن قسمه عدة مغالطات مليئة بالكبر وهي :

١ـ قسمه على هذا الاعتقاد ، مع أنه يظنه ظنا .

٢ـ أكد كلامه بلام التوكيد ونونه ، ولم يكتف بالقسم .

٣ـ جعل الجنة التي سيجدها عند الله جعلها أفضل من جنته في الدنيا ، ولم يجعلها مساوية لها،أو هي بعينها على أقل تقدير ، وما حداه إلى ذلك إلا الكبر ، عافانا الله منه .

وكونه أنكر الساعة أولا ،ثم قال:﴿ وَلَئِن رُدِدتُ ﴾ لا تعارض بينها لأن قوله:﴿وَلَئِن رُدِدتُ ﴾ هو على سبيل التنزل مع الخصم [٢]، أو على الافتراض .

وقوله:﴿ لَأَجِدَن خيراً مِنها منقَلَباً﴾ السبب في وقوع هذه الشبهة له ، اعتقاده أنه تعالى إنما أولاه ما أولاه في الدنيا ؛ لاستحقاقه الذاتي ، وكرامته عليه سبحانه[٣] ، ولأنه قاس الآخرة على الدنيا ، كما قال قارون :﴿ إِنما أُوتِيته عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾[٤] أي: " أن الله تعالى أعطاني هذا المال؛ لعلمه بأني استحقه ، ولمحبته لي ، وأني أهل له "[٥].

وقوله:﴿خيراً مِنها﴾ قرئ الضمير بالإفراد ، والتثنية[٦] ، ففي حال الإفراد يعود الضمير على الجنة التي دخلها ، وفي حال التثنية يعود على الجنتين .

وقال تعالى :﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾[٧] .

الاستفهام في قوله:﴿أَكَفَرت﴾ قيل:"إنه ليس على حقيقته ؛لأنه يعلم أن صاحبه مشرك

---

(١) الكشاف ٦٧٤/٢ .

(٢) معاني القرآن ٢٤١/٤ .

(٣) روح المعاني ٢٧٦/١٥ .

(٤) القصص : ٧٨ .

(٥) انظر : المصباح المنير ، ص٨١٩ بتصرف يسير .

(٦) ينظر : الكافي في القراءات السبع ١٤٨ .

(٧) الكهف : ٣٧ .

".[1]ويحتمل أن يكون على الحقيقة ، فيكون الرجل صاحب الجنتين غير مشرك في بداية الأمر ، لكن زاد إعراضه ، وفجوره ، مما جعل صاحبه المؤمن يبادره النصيحة في جنته ، فإذا بصاحبه تردى حال إيمانه إلى درجة إنكار الساعة ، فقال المؤمن عند ذلك : ﴿ أَكَفَرت﴾ مستفهما ؛ لأنه لم يكن كذلك قبل .

كما يفيد قوله تعالى : ﴿ أَكَفَرت﴾ أن الشك في الساعة ، وإنكار البعث ، أنه كفر بالله تعالى[2] .

وقوله :﴿ بِالَّذِي خلَقَك ﴾ عبر عن الله بالاسم الموصول " ؛للإشعار بعلية ما في حيز الصلة ، لإنكار الكفر ، والتلويح بدليل البعث "[3] .

وقوله :﴿ خلَقَك مِن ترابٍ ﴾ المقصود به آدم عليه السلام ، وقيل في سبب نسبة الرجل الكافر للتراب مع أنه لم يخلق منه ؛ لأن التراب أصل خلق البشر ، و" خلق أصله سبب في خلقه ، فكان خلقه خلقا له "[4]، أو أن المراد " الإشارة إلى الأجزاء التي تتكون منها النطفة ، وهي أجزاء الأغذية المستخلصة من تراب الأرض "[5] .

والإشارة إلى التراب تتضمن تذكيره بالموت ؛ لأن الخلق سيرجعون إلى التراب ، ويعالج الكبر بتذكيره بأصله الذي خلق منه ، كما يفهم منها التلميح إلى أنك من ضمن بني آدم ، لا تختلف عنهم في نشأتك ، ولا هيئتك .

وقوله :﴿ ثُم مِن نطْفَةٍ ﴾ المعنى أنك خلقت من نطفة ،وفيه التلميح إلى أنك لم تكن شيئا مذكورا ،وأن الضعف والعجز أصل فيك،وأن الله هو الذي أمدك بنعمه.

وقوله :﴿ ثُم سواك رجلاً ﴾ المراد بالتسوية " إذا قرن بالخلق والإيجاد ، كما هنا فالمراد به الخلق على أتم حال ، وأعدله "[6] .

والنص على الرجولية في الآية يحتمل أن يكون المراد :

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢٢/١٥ .
(٢) انظر : التفسير الكبير ١٠٧/٢١ .
(٣) تفسير أبي السعود ٢٢٢/٥ .
(٤) الكشاف ٦٧٥/٢ .
(٥) التحرير وتنوير ٣٢٢/١٥ .
(٦) روح المعاني ٢٧٦/١٥ .

إنسانا سويا[١] ، ويقرب من هذا القول أن المراد معتدل القامة[٢] ، ويحتمل أن المراد جعلك رجلا ذكرا ولست أنثى[٣] ، ويحتمل التأكيد[٤] .

وهي أقوال محتملة ، وأقواها أن المراد جعلك بشرا سويا ، لا نقص في خلقك ، ولا عيوب فيك ، ويرجح ذلك أنه تدرج معه في تذكيره بالنعمة ، ابتداء من التراب ، ثم ، النطفة ، ثم كمال الخلق سويا .

وقال تعالى : ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً﴾[٥].

فقوله: ﴿لَكِنا﴾ " أصله لكن أنا ، فحذفت الهمزة وألقيت حركتها على نون لكن ، فاجتمعت النونان ، فأدغمت نون لكن في النون التي بعدها "[٦] .

وفي هذه الآية:﴿ لَكِنا هو الله ربي ولا أُشرِكُ بِربي أحداً ﴾ " أكد إثبات اعترافه بالخالق الواحد بمؤكدات أربعة ، وهي : الجملتان الاسميتان ، وضمير الشأن ، وتعريف المسند ، والمسند إليه في قوله ﴿ الله ربي ﴾ المفيد قصر صفة الربوبية على نفس المتكلم ، قصرا إضافيا بالنسبة لمخاطبه ، أي :دونك إذ تعبد آلهة غير الله ، ثم بالتوكيد اللفظي للجملة بقوله ﴿ ولا أُشرِكُ بِربي أحداً ﴾ "[٧] .

وقال تعالى : ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً﴾[٨] .

فقوله:﴿ولَولا إِذْ دخلْت جنتك﴾تحضيض وحث[٩]،"ويتضمن معنى التوبيخ، والوصية"[١٠]، "وتقديم الظرف على المحضض عليه ، للإيذان بتحتم القول في أن الدخول ، من غير

---

(١) تفسير البغوي ١٦٢/٣ .

(٢) تفسير السمرقندي نصر بن محمد ، تحقيق محمود مطر جي :٣٤٧/٢،{دار الفكر ، بيروت:بدون} .

(٣) تفسير الطبري ٢٤٧/١٥ .

(٤) المحرر الوجيز ٥١٧/٣ .

(٥) الكهف : ٣٨ .

(٦) التفسير الكبير ١٠٧/٢١ .

(٧) التحرير والتنوير ٣٢٣/١٥ .

(٨) الكهف : ٣٩ .

(٩) تفسير ابن كثير ١٣٨/٩ .

(١٠) تفسير القرطبي ٤٠٩/١٠ .

ريث "[1]، وفيه المبادرة لقول الذكر ، وهذا يستلزم تعلق قلب المؤمن بربه .

وقوله : ﴿ ما شاءَ الله ﴾ تقديره ما شاء الله كان[2] ، وفيه إثبات المشيئة لله ، وأما قول الرازي[3] رحمه الله وعفا عنه :" واحتج أصحابنا ـذا على أن كل ما أراده الله وقع ، وكل ما لم يرده لم يقع ، وهذا يدل على أنه ما أراد الله الإيمان من الكافر ، وهو صريح في إبطال قول المعتزلة "[4].

فهو غلط ؛ لأنه خلطٌ بين الإرادتين الشرعية ، والكونية ، و" ينبغي أن يعرف ، أن الإرادة في كتاب الله على نوعين :

أحدهما : الإرادة الكونية ، وهي الإرادة المستلزمة لوقوع المراد ، التي يقال فيها ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وهذه الإرادة في مثل قوله:﴿فَمن يرِدِ الله أَنْ يهدِيه يشرح صدره ِللإِسلامِ ومن يرد أَنْ يضِله يجعلْ صدره ضيقاً حرجاً﴾[5] .

وأما النوع الثاني : فهو الإرادة الدينية الشرعية ، وهي محبة المراد ، ورضاه ، ومحبة أهله ، والرضا عنهم ، كما قال تعالى: ﴿ ما يرِيد الله ِليجعلَ علَيكُم ِمن حرجٍ ولَكِن يرِيد ِليطَهركُم ولِيتِم ِنعمته علَيكُم لَعلكُم تشكُرونَ﴾[6] .

فهذه الإرادة لا تستلزم وقوع المراد إلا أن يتعلق به النوع الأول من الإرادة "[7] .

---

(1) تفسير أبي السعود ٢٢٣/٥ .

(2) انظر : فتاوى ابن تيمية ٣٢١/١٣ .

(3) أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي الطبرستاني الأصل ، الرازي ابن خطيب الري الشافعي ، المفسر ، المتكلم ، صاحب التصانيف ، اشتغل على والده الإمام ضياء الدين ، وصنف التفسير الكبير في اثني عشر مجلدا ، سماه فتوح الغيب ، أو مفاتيح الغيب ، وفسر الفاتحة في مجلد مستقل ، وضخم سماه مفاتيح العلوم ، وصنف البرهان في قراءة القرآن ، وله المصنف في إعجاز القرآن ، وكتاب المطالب العالية في ثلاثة مجلدات ، ولم يتمه ، وهو من آخر تصانيفه ، وكتاب عيون الحكمة ، وكتاب في الرمل ، وكتاب في الهندسة ، وعدة مصنفاته كثيرة ، وتوفي سنة ست وستمائة للهجرة . انظر : طبقات المفسرين للداودي ص٢١٣ .

(4) التفسير الكبير ١٠٨/٢١ .

(5) الأنعام : ١٢٥ .

(6) المائدة : ٦ .

(7) دقائق التفسير ، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، تحقيق محمد السيد :٥٢٩/٢،{ط٢،مؤسسة علوم القرآن ،دمشق: ١٤٠٤هـ } .

وقوله تعالى:﴿ لا قُوةَ إلا بالله﴾ أي :" لا قوة لأحد على أمر من الأمور ، إلا بإعانة الله وإقداره "[1]، وفيه الاعتراف " بالعجز على نفسك ، والقدرة لله ، وأن ما تيسر لك من عمار ا ، وتدبير أمرها ؛ بمعونته وإقداره "[2] .

ولهذا كانت هذه الجملة :﴿ ما شاءَ الله لا قُوةَ إلا باللهِ﴾ " يؤمر ذا من يخاف العين على شيء ، فقوله: ما شاء الله تقديره ما شاء الله كان ، فلا يأمن ، بل يؤمن بالقدر ، ويقول :﴿ لا قُوةَ إلا بالله﴾ "[3] ، وقد وردت الآثار بذلك[4] .

وقال تعالى : ﴿ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً﴾[5] .

فقوله تعالى :﴿ فَعسى ربي أَنْ يؤتينِ خيراً مِن جنتِك ﴾ هذا جواب شرط لقوله : ﴿ إِنْ ترنِ أنا أقَل مِنك مالاً وولَداً﴾ [6] .

وقد ذكر بعض المفسرين أن المراد بالجنة يحتمل إما في الدنيا ، وإما في الآخرة[7] ، وظاهر السياق يقتضي طلب جنة الآخرة ، لأن روح المؤمن معلقة بالآخرة ، والترفع عن الدنيا ، وتخصيصه الرب هنا لأن إعطاء النعمة يتعلق بالربوبية ، وفي الآية إشارة إلى أن جنة الآخرة لا تعادل بجنة الدنيا مهما كانت نضار ا ، كما أن في الآية يقين المؤمن بوعد ربه ، مع أنه لم ير جنة الآخرة .

وقوله : ﴿ويرسِلَ علَيها حسباناً مِن السماءِ﴾ ذكر المفسرون أقوالا عدة في الحسبان ، وهي من باب اختلاف التنوع ، فقيل : المراد عذابا ، أو تخريبا ، أو صواعق[8] ، وقيل : مطر عظيم ، مزعج يقلع زرعها وأشجارها[9] ، وقيل أيضا : المراد به البرد[1] ، وقيل :

---

(١) التفسير الكبير ١٠٨/٢١ .
(٢) تفسير البيضاوي ٤٩٨/٣ .
(٣) الفتاوى ٣٢١/١٣ .
(٤) انظر : الدر المنثور ٣٩١/٥ .
(٥) الكهف : ٤٠ .
(٦) تفسير البيضاوي ٤٩٨/٣ .
(٧) التسهيل لعلوم التنزيل ١٩٨/٢ .
(٨) التفسير الكبير ١٠٩/٢١ .
(٩) انظر : المصباح المنير ص ٦٣٩ .

: قضاء من الله يقضيه ، أو المراد حساب من الله ، أي يرسل عليها عذاب حساب ما كسبت يداه[٢] ، وقيل : المراد أعم من ذلك[٣] .

والجمع بين هذه الأقوال أن نقول : بعضها متداخل في بعض ، فالعذاب من السماء عام ، يدخل فيه المطر العظيم الذي يصاحبه برد ، ومعه صواعق ، فإذا أصاب أرضا حل ا الخراب ، وهذا كله بقضاء الله ، جزاء ما كسبت يدا صاحب الجنتين .

وقوله:﴿فَتصبِح صعِيداً زلَقاً﴾ هذه نتيجة العذاب ، فتصبح أرض تلك الجنتين ظاهرة ، غير مغطاة بالأشجار كما كان ، وزلقا أي : تزلق به القدم ، فلا تستقر ، للوحل المصاحب للمطر ، وعبر بالمصدر ﴿ زلَقاً﴾ مبالغة [٤]،ولذلك فلا نبات فيها ، ولا أشجار ، ولا بناء[٥] .

وقال تعالى : ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً﴾[٦] .

فقوله:﴿أو يصبِح ماؤها غَوراً ﴾ أي :"غائرا منقطعا ذاهبا ،لا تناله الأيدي،ولا الدلاء"[٧] ،وعبر بالمصدر للمبالغة[٨] .

وقوله : ﴿فَلَن تستطِيع لَه طَلَباً﴾ فضلا عن وجدانه ، ووروده[٩] إشارة إلى أنه غير ممكن ، فدعا المؤمن لهلاك جنة الرجل الكافر بآفة سماوية ، أو آفة أرضية[١٠] .

وقد يقال :" كان الظاهر أن يتعرض في الجزاء لأمر الولد ، كما تعرض لأمر المال ، بأن يقال :وعسى أن يؤتيني خيرا من ولدك ، ويصيبهم ببلاء فيصبحوا هلكى ، وأجيب : بأنه إنما لم يتعرض لذلك إشارة إلى استيلاء حب المال على قلب ذلك الكافر ، وأنه

---

(١) تفسير الواحدي ٦٦٢/٢ .
(٢) انظر : زاد المسير ١٥٤/٥ .
(٣) انظر : روح المعاني ٢٨١/١٥ .
(٤) روح المعاني ٢٨١/١٥ .
(٥) تفسير أبي السعود ٢٢٣/٥ .
(٦) الكهف : ٤١ .
(٧) تفسير البغوي ١٦٣/٣ .
(٨) انظر : روح المعاني ٢٨١/١٥ .
(٩) تفسير أبي السعود ٢٢٣/٥ .
(١٠) انظر : روح المعاني ٢٨١/١٥ بتصرف .

يكفي في نكايته وإغاظته تلف جنته ، وإعطاء صاحبه المؤمن خيرا منها ، وقيل : إنما لم يتعرض لذلك لما فيه من ترجي هلاك من لم يصدر منه مكالمة ، ومحاورة ، ولم ينقل عنه مقاومة ، ومفاخرة ، بل مجرد إغاظة كافر حاور ، وكاثر ، وفاخر "[1] .

وقال تعالى :﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً ﴾[2] .

فقوله: ﴿ وأُحِيطَ بِثَمرِهِ ﴾ " وأصله من إحاطة العدو ؛ لأنه إذا أحاط به فقد ملكه ، واستولى عليه ، ثم استعمل في كل إهلاك "[3] وهو يفيد أن العذاب نزل من جميع الجهات بالجنتين .

وقوله :﴿ فَأَصبح يقَلب كَفيهِ علَى ما أَنفَق فِيها ﴾ استظهر البعض بأن العذاب نزل ليلا[4] ؛ لقوله:﴿ فَأَصبح﴾ وهذا إذا كان المراد الصبح على حقيقته ، إلا أن المعنى المؤكد هو أن " إهلاكها واستئصال نباتها،وأشجارها ، كان دفعيا بآفة سماوية ، ولم يكن تدريجيا "[5]،أما الوقت فلم ترد الإشارة إليه في الآية ، وكونه ليلا أشد نكاية ، وهو يناسب تلك الحال .

وتقليب الكفين يحتمل أن يكون : " يبدي بطن كل منهما ، ثم يعوج يده حتى يبدو ظهر كلٍ ، يفعل ذلك مرارا ، وقال غير واحد : هو أن يضع باطن إحداهما على ظهر الأخرى ، ثم يعكس الأمر ، ويكرر ذلك،وأياً ما كان فهو كناية عن الندم،والتحسر "[6].

وتخصيص الإنفاق بالندم عليه ؛ لأن الندم إنما يكون على الأفعال الاختيارية ؛ ولأن ما أنفق في عمارتها،كان مما يمكن صيانته عن طوارق الحدثان ، وقد صرفه إلى مصالحها،

---

(١) انظر : روح المعاني ٢٨١/١٥ بتصرف يسير .

(٢) الكهف : ٤٢ .

(٣) التفسير الكبير ١٠٩/٢١ .

(٤) انظر : تفسير ابن زمنين ٦٥/٣ .

(٥) روح المعاني ٢٨٣/١٥ .

(٦) روح المعاني ٢٨٢/١٥ .

رجاء أن يتمتع ا أكثر مما يتمتع به ،وكان يرى أنه لا تنالها أيدي الردى [1]،فجمع الله له بين العذاب الحسي ، والعذاب المعنوي .

وقوله تعالى : ﴿ وهِي خاوِيةٌ علَى عروشِها ﴾ الضمير يحتمل رجوعه للجنة على وجه العموم ، فتكون هذه الصيغة عبارة عن هلاك الجنة ، وتدميرها[2] .

ويحتمل رجوعه للأعناب ، وتخصيصها بالذكر " دون النخل والزرع ؛ إما لأ ا العمدة ؛ وهما من متمما ا ؛ وإما لأن ذكر هلاكها على ما قيل مغنٍ عن ذكر هلاك الباقي ؛ لأ ا حيث هلكت وهي مسندة بعروشها ، فهلاك ما عداها بالطريق الأولى ؛ وإما لأن الإنفاق في عمار ا أكثر "[3] .

والذي يظهر أن مرجع الضمير للجنة على وجه العموم ، فلم يبق منها إلا العروش ، وهذا يفيد هلاك الزرع والثمر ، وتخصيص العروش ؛لأ ا من ذات البستان ، دون غيرها من الوسائل ، ولهذا لو قال قائل : لم يبق من البيت إلا الأسس ، دل هذا على قوة العذاب ، وشدة الدمار ، " وفي ذلك زجر للكفرة من قريش وغيرهم ؛ لئلا يجيء لهم حال ، يؤمنون فيها بعد ِنقَم تحل م "[4] .

وقوله:﴿ يا لَيتنِي لَم أُشرِك ِبربي أَحداً﴾ " كأنه تذكر موعظة أخيه ، وعلم أنه إنما أوتي من قبل شركه ، فتمنى لو لم يكن مشركاً ، فلم يصبه ما أصابه قبل ، ويحتمل أن يكون ذلك توبة من الشرك ، وندماً على ما فرط منه "[5]، وهذا يدل على أنه وقع في الشرك ، كما يفيد شؤم المعصية ، وأشدها شؤما الشرك بالله ، ولم تتكلم الآيات عن حاله بعد هلاك جنته ، فأقف عند حدود الآيات .

وقال تعالى : ﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً ﴾[6] .

---

(1) تفسير أبي السعود ٢٢٤/٥ .
(2) انظر : روح المعاني ٢٨٣/١٥ .
(3) روح المعاني ٢٨٣/١٥ .
(4) البحر المحيط ١٢٤/٦ .
(5) تفسير أبي السعود ٢٢٤/٥ .
(6) الكهف : ٤٣ .

فقوله : ﴿ولَم تكُن لَه ِفِئَةٌ ﴾ أي فرقة من الناس[1] ينصرونه ، وهذا من قوة العذاب ، لأنه قد سبق أن قال :﴿ وأعز نفَراً ﴾ .

وقوله: ﴿ وما كَانَ منتصِراً﴾ نفي عن نصرته لنفسه ، فشملت الآية نفي النصرة من نفسه ، أو من غيره .

وقال تعالى : ﴿ هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً﴾[2] .

فقوله:﴿ هنالِك الْولايةُ ﴾ اختلف المفسرون في موضع الولاية المراد في الآية على أقوال:

١ ـ أن المراد : في مثل ذلك الوقت ، وفي مثل ذلك المقام ، تكون الولاية لله ، يوالي أولياءه ، فيغلبهم على أعدائه ، ويفوض أمر الكفار إليهم ، فقوله هنالك إشارة إلى الموضع ، والوقت الذي يريد الله إظهار كرامة أوليائه ، وإذلال أعدائه .

٢ ـ أن يكون المعنى ، في مثل تلك الحالة الشديدة ، يتولى الله ، ويلتجئ إليه كل محتاج مضطر ؛ لأن الرجل لما اضطر قال :﴿ يا لَيتِني لَم أُشرِك ِبربي أَحداً﴾ .

٣ ـ هنالك الولاية لله ، ينصر ا أولياءه المؤمنين على الكفرة ، وينتقم لهم ، ويشفي صدورهم من أعدائهم .

٤ ـ أن قوله:﴿هنالك﴾إشارة إلى الدار الآخرة،أي في الدار الآخرة الولاية لله [3].

وأرجحها القول الأول ، أما الثاني فبعيد ، والقول الثالث من لوازم ولاية الله ، والقول بأن المراد ا في الآخرة ، تؤيده أدلة كثيرة ، لكن في غير هذا الموضع .

وقوله : ﴿الْولاية﴾ قرئ بالفتح ، والكسر[4] ، وهو " بالفتح النصرة والتولي ، وبالكسر السلطان والملك "[5] .

وقوله : ﴿ هو خير ثَواباً وخير عقْباً﴾ أي : في " العاجل والآجل ثوابا ، وخيرهم عاقبة في الآجل،إذا صار إليه المطيع له،العامل بما أمره الله، والمنتهى عما اه الله عنه "[6] .

---

(١) أضواء البيان ٢٨٠/٣ .

(٢) الكهف : ٤٤

(٣) التفسير الكبير ١١٠/٢١ باختصار .

(٤) انظر : الكافي في القراءات السبع ١٤٨ .

(٥) انظر : الكشاف ٦٧٦/٢ .

(٦) تفسير الطبري ٢٥٢/١٥ .

المطلب الثاني

اللطائف الدعوية المستنبطة من الآيات

الآيات الكريمات في قصة هذين الرجلين تحمل في ثناياها الكثير من اللطائف والدرر ، وسأقتصر على ذكر اللطائف التي تتعلق بالدعوة ، تمشيا مع بحثي وهي :

اللطيفة الأولى :

أبرزت الآيات وسيلة دعوية لها أثرها البين في الخطاب الدعوي ، تتمثل في ضرب الأمثال ، ولهذه الطريقة أهمية في " إبراز خفيات الدقائق ، ورفع الأستار عن الحقائق ، وتبكيت للخصم الشديد الخصومة ، وقمع لسورة[1] الجامح الأبي "[2] ، وينطبق هذا على الأمور التي تضرب لأخذ العبرة ، لو كانت حقيقة لا مجرد خيال ، وهذا المثل في سورة الكهف يحتمل أنه خيال ، والأقرب أنه واقع موجود[3] .

اللطيفة الثانية :

فَضل الله هذه الأمة المحمدية على بني إسرائيل ، حيث ضرب لها الأمثال من سيرة بني إسرائيل ؛ حتى لا تتبع سبيلها فيما غوت فيه ، وهذا على القول بأن الرجلين المضروب بهما المثل هما من بني إسرائيل[4] ، ويؤكده أن ضلال هذه الأمة يكون جراء تتبعها سنن من كان قبلها من أهل الكتاب ، كما قال ﷺ " لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه ، قلنا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ، قال : فَمن ؟ "[5].

وعلى هذا ينبغي التنبه لما عند اليهود والنصارى من أمور مضلة ، أنتجتها عقيدتهم المنحرفة ، وواقعهم المتهالك ، وأصدق الأدلة على ذلك ، " المذاهب الفكرية المعاصرة في

---

(١) السور : الحِدة ، انظر : المصباح المنير ، مادة (سور) ،ص٢٩٤ .

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٣٨/٤ .

(٣) المحرر الوجيز ٥١٥/٣ ، ويبعد جدا أنه خيال إذ القصة فيها التصريح بأنهما رجلان ، مع ذكر التحاور بينهما ونزول العذاب على الجنتين مما يجعلها قصة حقيقية ، والله أعلم .

(٤) انظر : تفسير الثعلبي ١٦٩/٦ .

(٥) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ، برقم (٣٢٦٩)١٢٧٤/٣ ، ومسلم ، كتاب العلم ، باب إتباع سنن اليهود والنصارى ، برقم (٢٦٦٩) ٢٠٥٤/٤.

الغرب أولا ، ثم امتدت إلى مختلف شعوب العالم ، ثم زحفت بويلا ا وأل ـوان زيوفه ـا وفجورها إلى شعوب الأمة الإسلامية "[١] .

اللطيفة الثالثة :

في الآية قول آخر له فائدته الدعوية ، وهو أن الرجلين أخوان من ب ـني مخ ـزوم[٢] ، أو غيرهما[٣]، وبذلك تتحرر لنا فائدة تتعلق بتعميم الخطاب ، حين يكون في التعمية مصلحة ؛ لأن القصد من ضرب المثل ، أو ذكر القصة ، أخذ العبرة منها ، سواء عرف صاحبها أم لا ، فالداعية يراعي أحوال الناس ، مع مراعاته النصح والبيان .

اللطيفة الرابعة :

هناك وجه تشابه بين المثل المضروب هنا ، وبين ما قبلها من الآيات ، فإن كفار ق ـريش قالوا للنبي ﷺ :" اطرد هؤلاء لا يجترؤون علينا ، قال سعد : كنت أنا ، وابن م ـسعود ، ورجل من هذيل ، وبلال[٤] ، ورجلان لست أسميهما ، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع ، فحدث به نفسه ، فأنزل الله " ولا تطرد الذين يدعون ر ـم بالغ ـداة والعشي "[٥] .

فكفار قريش نظروا إلى ظواهر الأمور ، واغتروا ا ، لما رأوا من فقر الصحابة ، وقل ـة مكانتهم الاجتماعية ، فضرب الله لهم مثلا يدل على أن ظواهر الأمور لا يغتر ـا ، ولا يقاس عليها .

---

(١) كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة ، عبد الرحمن بن حسن بن حبنكة الميداني :ص٢١،{ط١، دار القلم ،دمشق: ١٤٠٥هـ } .

(٢) تفسير الثعلبي ١٦٩/٦ أخرجه بسنده عن عطاء مرسلا .

(٣) المصدر السابق .

(٤) بلال بن رباح مولى أبي بكر ويكنى أبا عبد الله ،وكان من مولدي السراة ،واسم أمه حمامة وكانت لبعض بني جمح ،وكان من المستضعفين من المؤمنين ،وكان يعذب حين أسلم ليرجع عن دينه فما أعطاهم قط كلمة مما يريدون ،وكان الذي يعذبه أمية بن خلف ،فأتى عليه أبو بكر فقال :علام تعذبون هذا الإنسان ،قال: فاشتراه بسبع أواق فأعتقه ،وكان رجلا آدم شديد الأدمة ،نحيفا طوالا أجنأ له شعر كثير ،خفيف العارضين به شمط كثير، وتوفي أبو بكر سنة ثلاث عشرة وهو بن ثلاث وستين سنة . انظر : الطبقات الكبرى ٢٣٢/٣ .

(٥) أخرجه مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل سعد بن أبي وقاص ﷺ ، برقم (٢٤١٣)١٨٧٨/٤ .

وعلى هذا يوجه الداعية دعوته لكل أحد ، ولا يخص ا أحدا دون أحد ، وقد يكـون قصده لعامة الناس ، وفقرائهم أولى في كثير من الأحيان ، من قَصدِ الكبراء .

اللطيفة الخامسة :

من تأمل ما أعطاه الله لأحد الرجلين من نعمة وجد أنه لا حد لوصفه ، فقد بلغ الغايـة في الجمال ، وبإطلالة سريعة على الآيات نجد أن جنته اشتملت على ما يلي :

١ ـ كو ما جنتين ، وهي أفضل ممن يملك جنة واحدة .

٢ ـ " كو ا جنة ، وسمى البستان جنة ؛ لاستتار ما يستتر فيها بظل الأشجار ، " وهذا يدل على كثافة ما ا من الأشجار .

٣ ـ هذه الجنة محفوفة بالنخل ، وهذا " مما يؤثرها الدهاقين[1] في كرومهم ، وهـي أن يجعلوها محفوفة بالأشجار المثمرة ، وهو أيضا حسن في المنظر " .

٤ ـ الجنتان " جامعة للأقوات ، والفواكه " .

٥ ـ ودل قوله:﴿وجعلْنا بينهما زرعاً﴾ على " أن تكون تلك الأرض متسعة الأطراف ، متباعدة الأكناف ، ومع ذلك فإ ا لم يتوسطها ما يقطع بعضها عن بعض " .

٦ ـ تنوع الثمار فيها يدل على أن " مثل هذه الأرض تأتي في كل وقت بمنفعة أخرى ، وهي ثمرة أخرى ، فكانت منافعها دارة متواصلة "[2]، وتنكير قوله:﴿ثَمر﴾ "يفيد كثـرة الثمر ، أي قد استكملت جنتاه ثمارهما "[3] .

٧ ـ أن الجنتين تؤتي أكلها ، وثمارها ، كاملة موفورة ، لا ينتقص منها شـيء ، وهـذا أفضل ما تكون عليه الأرض ، وأجود ما ينعم به الله على العبد .

٨ ـ يزيد البستانين جمالا النهر الذي يتدفق فيهما ، وإضافة للجمال فإنه يـوفر علـى صاحب البستانين جهد جلب الماء ، أو حفر بئر ، أو قلة مورد .

٩ ـ من نعمة الله على ذلك العبد أن ذلك النهر أصبح في وسط البستانين ، وهذا أفضل من حيث جمال البستان ، ومن جهة أخرى لنمو الزرع ، وكـذلك لاسـتغلال أكـبر

---

(١) الدهاقين : التجار ، انظر : لسان العرب ، مادة (دهق) ، ١٦٣/١٣ .

(٢) مابين الأقواس من الأقوال السابقة ، انظر : التفسير الكبير ١٠٦/٢١ .

(٣) تفسير السعدي ، ص٤٧٦ .

مساحة ممكنة من الأرض ، إذ لو كان في أحد طرفيها لشق استغلال الطرف الآخـر ، فسبحان من أكمل نعمه على عبده .

١٠ـ يكفي لكي نعرف مدى الجمال والنضارة وكثرة الثمار في الجنتين ، أن ندرك أن الرجل صاحب البستان لما رأى بستانه ودخله قال:﴿ ما أَظُن أَنْ تَبِيد هـذِهِ أَبـداً﴾ولم يعرف أن الرجل مختل العقل ، أو لا يدرك معاني الكلام ، لكنه رأى شيئا أ ره .

١١ـ قول الرجل:﴿ ما أَظُن أَنْ تَبِيد هذِهِ أَبداً﴾ يفيد كثرة الأشجار ، وجمالها ، وحيوية النهر ، وكثرة الثمر ، وتنوع المحصول ، فلو كانت مزرعة من المزارع المعتادة لما توهم أ ا لن تبيد .

١٢ـ اختياره لكلمة ﴿ تَبِيد﴾ تؤيد كثرة الأشجار وضخامة البستان ، فهـو لم يقـل تنقص ، أو تقل ؛ لأ ا مع كثرة ثمرها قد تنقص ، وهذا لا يستغرب في حال البساتين ، لكن المستبعد عنده ائيا أن تبيد وتفنى ، فهذا ما لا يمكن القول به ، والذي حداه لذلك بالتأكيد تكامل تلك الجنة .

١٣ـ حتى الرجل المؤمن أقر له بجمال بستانه ، فقد قال:﴿ولَولا إِذْ دخلْت جنتك قُلْت ما شاءَ الله لا قُوةَ إِلا بِاللهِ ﴾ وهي كلمة تقال حينما ينبهر الإنسان بما رآه .

وهذا يقودنا إلى أن الإنسان عليه أن يتفكر فيما أعطاه الله من النعم ، فيتحقق له عـدة فوائد هي :

١ـ أن ينشغل بشكرها عن حسد غيره ، أو التكبر عليهم .

٢ـ ألا يعترض على قسمة الله في رزقه .

فلما فُقِدت نعمة التفكر في النعمة عند الرجل الأول ، وقع في عدة محذورات ، هي :

١ـ أعرض عن شكر نعمة الله عليه .

٢ـ قاده إعراضه إلى التكبر على غيره .

٣ـ اغتر بتوالي النعم عليه ، فتعلق بالدنيا ، وأنكر البعث .

فعلى الداعية أن ينظر لنعم الله عليه ، ويشغله التفكر فيها عن الاشتغال بعيوب الآخرين ، كما أن في ذلك أسلوبا دعويا لمعالجة كثير من مشاكل الناس ، التي تتعلق بالأمور المادية ، فحينما يطالع الإنسان نعم الله ، ويفتش عنها ؛ سيجد أنه يتقلب فيها مـن حيـث لا يشعر ، وهذا له دوره في شكر النعم .

اللطيفة السادسة :

من تأمل حال الرجل صاحب الجنتين علم أن الله قد يعطي الكافر من حظوظ الدنيا ما لا يعطي المؤمن ، ولا يتعلق بهذا العطاء لازم من محبة أو مدح ، كما لا يتعلق بحرمان المؤمن من الدنيا لازم من بغض أوذم ، فقد أعطى الله الرجل الأول ما يبهر الناظر من جمال البستانين ، وكثرة الأولاد ، والعشيرة ؛ مع أنه مهزوز الإيمان ، وحرم منها الآخر مع أنه كامل الإيمان ، وهذا يلقم به المفتون بما لدى الكفار من بهرج الحياة الدنيا ، والحضارة الغربية " وتطلعهم إليها بشغف،وانبهارهم بمنجزاتها،ورافق هذه الفتنة تصورات خاطئة أوهمت طلائع المثقفين أن التقدم الحضاري المادي ، هو مظهر للتقدم في كل ما يضمن سعادة الناس،من خلق ، وألوان سلوك في الحياة ، ونظم اجتماعية مختلفة "[(١)] .

اللطيفة السابعة :

ما كان إعراض الرجل عن دين الله ليأتي إلا من مرض قلبي دفين ، فأظهرت الآيات ما عند الرجل الكافر من الكبر ، والذي تمثل فيما يلي :

١ ـ ابتداء كلامه ، حيث ابتدأه بقوله:﴿ أنا﴾ وهي من الألفاظ المشعرة بمرض القلب .

٢ ـ ذكر كثرة ماله .

٣ ـ ذكر لصاحبه أنه أعز نفرا منه ، وهو يشمل الأولاد ، والخدم ، والأعوان .

٤ ـ تنويعه بين ألفاظ الكبر " أنا ، أكثر ، أعز " وهي ألفاظ تدل على الكبر غالبا حينما تقترن بها قرائن أحوال .

٥ ـ تخصيصه المؤمن بالكلام بقوله:﴿مِنك﴾ ولو قال : أنا أكثر مالا لاستقام الكلام ، لكن أتى بقوله ﴿مِنك﴾ لما في قلبه من تكبر على الناس .

٦ ـ قياسه الآخرة على الدنيا ، وهو قوله:﴿ وَلَئِن رُدِدتُ إِلَى رَبِي لَأَجِدَن خَيراً مِنهَا مُنقَلَباً﴾ .

٧ ـ تحكمه بالرجل المؤمن ، كما تفيده صيغة الخطاب معه .

وهذا السلوك يجعلنا بالمقابل لا نزكي أنفسنا ، ونرجع الفضل لربنا سبحانه ، ونتواضع لغيرنا ، وندخل في حديثنا : ما شاء الله ،أولا قوة إلا بالله،أو بفضل الله ، أو الحمد لله .

---

(١) كواشف زيوف ، ص ٩٩ .

اللطيفة الثامنة :

الرجل المؤمن دفعته غيرته الإيمانية إلى موعظة صاحبه ، وكان مدار الحـديث حـول " تذكيره بفناء جنتيه ، و يه عن الاغترار ما ، وأمره بتحصيل الباقيات الصالحات "[1] .

وهذا مثال يحتذي به الداعية لربه في تقديم النصح لجميع فئات الناس ، بما فيهم العصاة ، وأصحاب المنكرات ، والآية تدل على أن الرجل المؤمن ذهب إلى الآخر في جنته ، بدلالة قوله تعالى:﴿ودخلَ جنته ﴾ وذهابه إليه في جنته يدلنا أيضا على أنه رأى من إعراضـه ، وتكبره ، وبذخه ، ما جعله يؤدي أمانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،ويدخل على صاحب المنكر في مكانه .

اللطيفة التاسعة :

مع المعترك الدعوي تصل ألفاظ نابية إلى أذن الداعية ، دفعها جهل بـالحق ، وانتـصار للنفس ، فالداعية إلى الله لا يلتفت إلى ما لا يليق من الألفاظ التي توجه إليه ، ولا تكون تلك الألفاظ عائقا عن مسيرة الدعوة ، فقد قال الرجل الكافر للمؤمن:﴿ أنا أَكْثَر مِنك مالاً وأعز نفَراً﴾ ،فعيره بقلة المال ، وضعف الأولاد ، وقد يكون الرجل المؤمن عقيمـا ليس لديه أولاد ، فيكون وقع الكلام أشد ألما وحزنا ، لكنه لم يلتفت ، ولم تثنـه عـن عزمه في مواصلة النصح له ، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حـسنة ، حيـث تعـرض " للسخرية ، والتحقير ، والاستهزاء ، والتكذيب ، والتضحيك ، لتخـذيل المـسلمين ، وتوهين قواهم المعنوية ، فرموا النبي ﷺ بتهم هازلة ، وشتائم سفيهة "[2] فصبر وصابر ، ليعطينا درسا في الصبر في سبيل الله سبحانه وتعالى .

اللطيفة العاشرة :

من النتائج التي جلاها ضرب هذا المثل لتبقى حقيقة في قلوب المـؤمنين ؛ أن التعلـق ، والافتتان بالدنيا ، يجر على الإنسان ويلات عظيمة ، تصل به في النهاية إلى إنكار البعث ، فالرجل الكافر لما رأى ما عنده من نعمة ، نظر إلى نعمته بعين الإعجاب ، والإكبار ، فتعلق قلبه ا ، حتى استولى حبها على كامل قلبه ، كما يفيده وصـف الله لأقوالـه ،

---

(١) تفسير أبي السعود ٢٢٢/٥ .

(٢) الرحيق المختوم ، ص ٧٢ .

عندها قال : ﴿ ما أَظُن أَنْ تَبِيد هٰذِهِ أَبداً﴾.

فنصل إلى نتيجة حتمية في ظلال هذه الآيات ، ألا وهي ربط المدعوين بالله ، وتزهيدهم في مظاهر الحياة الدنيا الفاتنة الفانية ، من خلال عدم تعلق قلوبهم بها ، وإن أمسكتها أيديهم ، فإن الزهد " خلاف الرغبة ، يقال فلان زاهد في كذا ، وفلان راغب فيه ، والرغبة هي من جنس الإرادة ، فالزهد في الشيء انتفاء الإرادة له ، إما مع وجود كراهته ، وإما مع عدم الإرادة والكراهة بحيث لا يكون لا مريدا له ، ولا كارها له ، وكل من لم يرغب في الشيء ويريده ؛ فهو زاهد فيه "[1] .

اللطيفة الحادية عشرة :

الآيات " ترسم نموذجين واضحين للنفس المغترة بزينة الحياة الدنيا ، والنفس المعتزة بالله ، وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس ، صاحب الجنتين نموذج للرجل الثري تذهله الثروة ، وتبطره النعمة ، فينسى القوى الكبرى ، التي تسيطر على أقدار الناس والحياة ، ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى ، فلن تخذله القوة ولا الجاه ، وصاحبه نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه ، الذاكر لربه ، يرى النعمة دليلا على المنعم ، موجبة لحمده وذكره ، لا لجحوده وكفره "[2].

فتبين لنا الآيات أن من الأساليب الدعوية ذكر أمرين متعارضين ، ونتيجتهما ، ليبقى الخيار مفتوحا أمام المدعوين ، وتقام الحجة من خلال اختيارهما .

اللطيفة الثانية عشرة :

قياس الآخرة على الدنيا سبيل قديم لأهل الكفر ، فالرجل الكافر قاس جزاء الله في الآخرة ، إن كان هناك بعث - على حسب زعمه – على جزاء الله في الدنيا ، فمن كان غنيا في الدنيا أغناه الله في الآخرة ، والمستضعف في الدنيا مستضعف في الآخرة ، وقد بين الله ذلك في موضع آخر ،فقال تعالى:﴿ ولَئِن أَذَقْناه رحمةً مِنا مِن بعدِ ضراءَ مسته لَيقُولَن هذَا لِي وما أَظُن الساعةَ قَائِمةً ولَئِن رجِعت إِلَى ربي إِن لِي عِنده لَلْحسنى﴾[3] .

---

(١) مجموع الفتاوى ٦١٦/١٠ .

(٢) في ظلال القرآن ٢٢٧٠/٤ .

(٣) فصلت : ٥٠ .

ومعرفة هذا المسلك يفيد الداعية في مخاطبته لهم ، فيظهر فساد ذلـك بالأدلـة العقليـة الصحيحة ، ومن تلك الأدلة ، ما يلي :

١ ـ أن هذا خلاف ما تقتضيه حكمة الله .

٢ ـ أن الآخرة دار جزاء وثواب ، فلو كانت تقاس على الدنيا لأصبحت صورة مكررة منها ، وهذا باطل لأنه يفسد الغاية من الآخرة ، ويعود عليها بالبطلان .

٣ ـ أن هذا يقود إلى أن يكون الأنبياء فقراء في الجنة ، لأن الأنبياء فقـراء في الـدنيا ، وهذا يؤدي إلى أن يكون غيرهم أفضل منهم ، وهذا ما لا يمكن عند جميع الملل .

اللطيفة الثالثة عشر :

في هذه الآيات تأصيل لأسلوب الحوار ، وآدابه ، ومن ذلك :

١ ـ يجوز التحاور مع الكافر لهدايته إلى الإسلام .

٢ ـ لا يقدح في أسلوب الحوار ما يصاحبه من شدة على الطرف الآخر ، حـين يلـزم ذلك ، وإن كان الأصل " أنه ينبغي للمحاور أن يكون رفيقا حليما ، هينا ، لينا ، يتسم بالصبر وعدم الغضب ، أو الانفعال ، لكن قد يواجه أحيانا مواقف يستلزم فيها الغضب ، ولكن لنصرة الحق ، وتستدعي منه قوة في الحق وصلابة ، وجرأة على مواجهة الخصوم ، وصراحة لا يخاف صاحبها في الله لومة لائم "[(١)] .

فالرجل المؤمن حين سمع صاحب الجنة منكرا للبعث ، مغترا بما لديه من نعمـة ، قابـل النعمة بالإساءة ، بل تجاوز ذلك بمراحل حتى قاس الآخرة على الدنيا ، واجهه بخطـاب قوي يليق بالمقام .

٣ ـ من أساليب الحوار الاستفهام الإنكاري ، الذي لا يراد منه سماع الجـواب ، بـل التقريع ، والإنكار ، فقول الرجل المؤمن:﴿ أَكَفَرتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن ترابٍ ﴾ "مستعمل في التعجب والإنكار ، وليس على حقيقته "[(٢)] .

٤ ـ يستعمل المؤمن في حواره مع الكافر الأدلة الحسية المشاهدة ، فهي أبلغ في الواقع ،

---

(١) الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة ، يحيى زمزمي :ص٢٦٩،{ط٢، دار المعالي ،عمان: ١٤٢٢هـ } .

(٢) التحرير والتنوير ٣٢٢/١٥ .

حيث استدل الرجل المؤمن على البعث بدليل حسي مشاهد ، وهو خلق الإنسان .

اللطيفة الرابعة عشر :

سماع الحق له مرارته ، كما أن له وقعه الخاص المؤلم ، فالداعية يصدع بالحق ، ولو كان ظاهره يسبب أذية للطرف الآخر ، لكن ذلك في حدود مراعاة المصالح والمفاسد ، فـإذا اقتضت المصلحة أن يصدع بفسق الآخر ، أو كفره ، صدع بهذا ، ومن هذا الباب قال الرجل المؤمن لصاحبه الكافر : ﴿ أَكَفَرتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن ترابٍ ثُم مِن نطْفَةٍ ثُم سواك رجلاً﴾ " وهذا الثاني- المؤمن – كفّره "[1] أي كفر الرجل الأول ، وهذا من النصح له ، وعدم غشه ، فلا يعني نصحه ودعوته تغييب حقائق شرعية يرى الداعيـة أنـه مـن الضروري إطلاع الطرف الآخر عليها ، و" اعلم أن ذكر الإنسان بما يكره محـرم , إذا كان المقصود منه مجرد الذم والعيب والنقص ، فأما إن كان فيه مصلحةٌ لعامة المسلمين , أو خاصة لبعضهم ، وكان المقصود منه تحصيل تلك المصلحة , فليس بمحرم , بل مندوب إليه "[2] .

اللطيفة الخامسة عشر :

للنصيحة المكانة التي تجعلها من ركائز الدين ، ولها آداب بينتها الآيات ، وهي :

١ ـ الذهاب إلى مكان من يحتاج النصيحة ، كما ذهب الرجل لصاحبه في جنته .

٢ ـ محاورة الطرف الآخر ، والمجادلة معه ، ومحاولة إقناعه .

٣ ـ تبيين أخطائه ، وعدم كتمها عنه ، وإطلاعه عليها ، كما فعل الرجل المـؤمن مـع صاحبه الكافر فيما وضحته الآيات .

٤ ـ مناقشته في تلك الأخطاء ، ومحاولة إبطالها بالدليل الشرعي ، والعقلـي ، فالرجـل المؤمن أبطل إنكار البعث بأدلة سيأتي ذكرها .

٥ ـ إرشاد الطرف المنصوح للطريق السليم ، والفعل الصحيح ، وعدم الاكتفاء بالإنكار ، كما قال:﴿ولَولا إِذْ دخلْت جنتك قُلْت ما شاءَ الله لا قُوةَ إلا بِاللهِ ﴾.

---

(١) التفسير الكبير ١٠٧/٢١ .

(٢) مجموع رسائل ابن رجب ، دراسة وتحقيق أبي مصعب طلعت الحلواني :٤٠٣/٢،{ دار الفاروق الحديثة، مصر: بدون} .

٦ ـ وإكمالا للفائدة أذكر أهم آداب النصيحة مختصرة " فمنها : لا تبادر إلى تصديق ما يقال عن جارك ، أو صديقك ، بل تثبت في ذلك حتى تستيقنه ، فإن النـاس اعتـادوا إشاعة السوء .

ومنها : أن تقدر طباع الناس وغرائزهم ، وأ م ليسوا ملائكة ، ولا أنبياء ، فلا تطمع ألاّ تعثر على زلة ، أو هفوة لأحد من إخوانك .

ومنها : ألا تحاكم الأمر الذي تريد إنكاره ، وتحكم عليه بالخطأ ، والانحـراف ، مـن وجهة نظرك فحسب ، بل انظر إليه من وجهة نظر صاحبك أيضا .

ومنها : ألا تؤدي النصيحة إلى شر أكبر مما تريد إنكاره ، كإيقاع فتنة ، وازدياد المعصية ، وتفرقة كلمة الجماعة "[(١)] ؛إلا في حدود قواعد الشريعة المبنية على نصوص الوحي .

اللطيفة السادسة عشر :

قد تبتلى الدعوة الإسلامية بملحد ينكر بدهيات الأمور من وجود الله ، أو إنكار البعث ، فأرشدت الآيات إلى أنجح الأدلة في مجادلة الملحد ، بالاعتماد على أسلوبين :

١ ـ الاستدلال عليهم بالنشأة الأولى :

ولذلك قال الرجل المؤمن:﴿ أَكَفَرتَ بِالذِي خلَقَكَ مِن ترابٍ ثُم مِن نطْفَةٍ ﴾ فنبهنا على إحياء النطفة التي هي ميتة ، وخلق الحيوان منها ؛ على قدرته على إحياء الموتى ، قال عز وجل في هذا :﴿كَيف تكْفُرونَ بِاللهِ وكُنتم أَمواتاً فَأَحياكُم﴾[(٢)] .

يعني نطفا في الأصلاب والأرحام ، فخلقكم منها بشرا تنتشرون ، وقال تعـالى:﴿أَلَـم نخلُقْكُم مِن ماءٍ مهِينٍ فَجعلْناه فِي قَرارٍ مكِينٍ إِلَى قَدرٍ معلُومٍ فَقَدرنا فَنِعم الْقَادِرونَ﴾[(٣)].

فأعلمهم أنه إذا أخرج النطفة من صلب الأب فهي ميتة ، ثم إنه جل ثناؤه جعلها حية في رحم الأم يخلق من يخلق منها ، ويركب الحياة فيه ، فهذه إحياء ميتة في المشاهدة ، فمن يقدر على هذا لا يعجز عن أن يميت هذا الخلق ثم يعيده "[(٤)]، ومثل هذا كثير في القرآن .

---

(١) أخلاقنا الاجتماعية ، مصطفى السباعي :ص٥٩-٦٤،{ط٣، المكتب الإسلامي ،بيروت: ١٣٩٣هـ } .

(٢) البقرة :٢٨ .

(٣) المرسلات :٢٠-٢٣ .

(٤) شعب الإيمان ، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول:٢٤١/١، {ط١،دار الكتب العلمية ،بيروت: ١٤١٠هـ } .

٢ـ تذكيره بنعم الله عليه :

فالرجل المؤمن عدد نعم الله على هذا المنكر للبعث ،فقال:﴿ خلَقَك مِن ترابٍ ثُـم مِـن نطْفَةٍ ثُم سواك رجلاً﴾ .

اللطيفة السابعة عشر :

في تأملٍ لحجة الداعية المؤمن ، وحواره مع صاحبه ، نستنتج أن الحجة القوية تشتمل على ما يلي :

١ـ الإنكار على الآخر فيما لا يحتمل القبول إنكارا مباشرا وصريحا ، وذلك في قوله له : ﴿ أكَفَرت﴾ فإنكار البعث أمر لا يقبل الهوادة ، فمن محاجة صاحبه أن يسمع حكمـه في شرع الله ، خاصة إن كان ا ادل لم يخطر على باله أنه كفر بربه .

٢ـ قِصر الحجة مع قو ا ، فحجة الداعية يستحسن أن تكون قصيرة قويـة ، فقـصر الجملة في الآية ظاهر ، وأما قو ا فمن جهة أنه جمع بين توحيد الربوبية والألوهية فيها ، فقال:﴿ لَكِنا هو الله ربي ولا أُشرِك بِربي أَحداً﴾ ،فقدم توحيد الربوبية لأنـه يـستلزم الألوهية ، ولأنه متفق عليه بينهما ، فحتى الرجل الكافر مقر به ، فقـال: ﴿ أكَفَـرت بِالذِي خلَقَك مِن ترابٍ﴾ ثم قال:﴿لَكِنا هو الله ربي ولا أُشرِك بِربي أَحداً﴾ .

٣ـ ذكر دليل مشاهد محسوس ، لا يمكن إنكاره .

٤ـ بيان الوجه الشرعي الصحيح ، وذلك من قول المؤمن : ﴿لَكِنا هو اللـه ربـي ولا أُشرِك بِربي أَحداً ولَولا إِذْ دخلْت جنتك قُلْت ماشاءَالله لا قُوةَ إِلا بِاللهِ﴾ .

٥ـ الوضوح ، فالرجل المؤمن لم يستعمل أسلوبا معقد التركيب ، متعدد المقدمات ، بل اعتمد على الأسلوب الظاهر ، وهذا أنفع من حيث إقامة الحجة ، وسـهولة الفهـم ، وصعوبة الرد عليه و" إن قوة التعبير وفصاحة اللسان ، وحسن البيان ، وجودة العرض ، من عوامل نجاح الحوار ، ويكون له الأثر الأكبر في إيضاح الفكرة وقبول الطرف الآخر لها ، وربما ضاع الحق لسوء التعبير عنه ، وظهر الباطل لفصاحة قائله وبلاغته "(١) .

اللطيفة الثامنة عشر :

الإنسان المؤمن واضح العقيدة ، بين المنهج ، يذكرها ويشيد ا ، فالرجل المؤمن ذكـر

---

(١) الحوار آدابه وضابطه ، ص٣٢٥ .

عقيدته ؛لأنها واضحة بينة ، فقال:﴿لَكِنا هو الله ربي ولا أُشرِك بِربي أحداً﴾ ، فالداعية يجب أن يكون واضحا وهو يذكر عقيدته للناس ، لا يخفي منها شـيئا ، ولا يعممهـا بحيث تكون ملبسة على من سمعها .

اللطيفة التاسعة عشر :

الآيات الكريمات التي بين الله فيها حال الغني ، وما أداه إليه غناه ، فيها عزاء للفقراء من المسلمين ، خاصة في مشهدها الأخير ﴿وأُحِيطَ بِثَمرِهِ فَأَصبح يقَلب كَفيهِ علَى ما أَنفَـق فِيها وهِي خاوِيةٌ علَى عروشِها ويقُولُ يا لَيتِني لَم أُشرِك بِربي أحداً﴾ فإن الإنسان المؤمن " يدرك ببصيرته وبنوره وإيمانه ، أن فقره ، وغنى غيره ، هو للابتلاء ، ولا علاقـة ، ولا دلالة في هذا العطاء القليل ، أو الكثير ؛ على الإهانة ، أو الإكرام "(١) .

اللطيفة العشرون :

الدلالة على أداء شكر النعم مهمة تجد لها عناية في جدول الدعاة ، ولهذا أمـر المـؤمن صاحب الجنتين أن يشكر نعمة ربه عليه فقال:﴿ولَولا إِذْ دخلْت جنتك قُلْت ما شاءَ الله لا قُوةَ إِلا بِاللهِ إِنْ ترن أنا أَقَل مِنك مالاً وولَداً﴾ أي:" الأمر ما شاء الله ، وهذه الجنـة هي ما شاء الله ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، اعترافا بأنها ، وكل خير فيها ، فإنما حصل بمشيئة الله وفضله ، وإن أمر جنتك بيده ، إن شاء تركها عامرة ، وإن شـاء خربها ، وقلت : لا قوة إلا بالله ، إقرارا منك بأن ما قويت به على عمارتـها ، وتـدبير أمرها ، إنما هو بمعونة الله تعالى ، وتأييده ، إذ لا يقوى أحد في بدنه ، ولا في ملك يده ، إلا بالله تعالى "(٢) .

اللطيفة الحادية والعشرون :

مهمة إرشاد الناس التي يقوم بها الدعاة ، يكمل نفعها حين يصاحبها تطبيق عملـي ، " فالداعية يعلم الناس بالتطبيق العملي لهم ، فالرجل المؤمن قال لصاحبه نفس القول المراد : ﴿ ما شاءَ الله لا قُوةَ إِلا بِاللهِ﴾ وقد كان النبي ﷺ يعلم الناس بالتطبيق العملي لأنه أرسخ

---

(١) المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة ، عبد الكريم زيدان :٦٠٧/٢،{ط١،مؤسسة الرسالة ،بيروت: ١٤٢٦هـ} .

(٢) المستفاد من قصص القرآن ، ٦٠٥/٢ .

في الفهم ، وأدعى للقبول ، فقال ﷺ :" صلوا كما رأيتموني أصلي "[(١)] وصلى مرة على المنبر وقال : " يا أيها الناس إنما صنعت هذا لتأتموا بي ولتعلموا صلاتي "[(٢)] .

اللطيفة الثانية والعشرون :

مع تداعي الفتن حول الداعية ، فإن العصمة من الوقوع فيها تكون بإيمانه بالله ، فقوله تعالى على لسان الرجل المؤمن:﴿ إِنْ ترن أنا أقَل مِنك مالاً وولَداً﴾ يدل على أنه لا عاصم للإنسان من الافتتان بالدنيا ، وطغيان المال ؛ إلا الإيمان بالله سبحانه وتعالى .

فالرجل المؤمن رأى من مظاهر الدنيا عند صاحبه ، ما يفتن أصحاب القلوب المريضة ، فرأى الجنتين وما فيهما من خيرات ، ورأى صاحبه أكثر منه مالا وولدا ، والمال هنا يشمل الجنتين وغيرهما من الذهب والفضة[(٣)] ، وفي المقابل يوجد نقص عنده في المال والولد ، ولهذا قال يصف حال نفسه: ﴿ إِنْ ترن أنا أقَل مِنك مالاً وولَداً﴾ .

فتوفرت مظاهر الافتتان ، ولم يقف حائلا دونها إلا ما تحلى به من إيمان عميق ، تمثل في قوله:﴿ لَكِنا هو الله ربي ولا أُشرِك بِربي أحداً﴾ فإن " الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب ، لا يتأثر صاحبه بفقر ، أو غنى يصيبه "[(٤)]، فعلى هذا ينبغي أن يسير الدعاة في دعوتهم ، فكلما تحصنوا بحصن الإيمان ، كان هذا عونا لهم بإذن الله من الافتتان بالمشاهد التي يرونها .

اللطيفة الثالثة والعشرون :

تربية الناس إيمانيا وظيفة الدعاة إلى الله ، وذلك بعد أن يتربوا عليها ذاتيا ، فالرجل المؤمن ضمن قوله: ﴿ ما شاءَ الله لا قُوةَ إِلا بِاللهِ﴾ معنى تربويا عاليا ، وهو ربط صاحبه بالله ، وأن ما به من نعمة فمن الله ، والله شاءها ، وقدرها ، وأنه لا قوة له على شيء منها ، لو لم ييسر الله ذلك ، فرجع الأمر كله لله من قبل ومن بعد ، وتذكير الناس بهذا المبدأ ، وتربية الناس عليه من أولويات الدعاة إلى الله .

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الأذان ، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة ، برقم (٦٠٥) ٢٢٦/١.

(٢) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب الجمعة ، باب الخطبة على المنبر ، برقم (٨٧٥)٣١٠/١ ، ومسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب جواز الخطوة والخطوتين في الصلاة ، برقم (٥٤٤)٣٨٦/١ .

(٣) الكشاف ٦٧٤/٢ .

(٤) المستفاد ٦٠٨/٢ .

اللطيفة الرابعة والعشرون :

أولت الآيات توجيهات هامة لأهل الأموال ، ومن ضمنها توجيههم إلى النظر لمن دو م في الأموال ، والأولاد ، فقال الله له على لسان صاحبه: ﴿ إِنْ ترنِ أنا أَقَل مِنـك مـالاً وولَداً ﴾ ،وهذه النظرة تورثه معرفة نعمة الله عليه ، وتزرع فيه التواضع ، وتقدير النعمـة وإجلالها ، إضافة لعنايته بمن دونه حين يرى حاجتهم ، وهذا من شكر النعم .

اللطيفة الخامسة والعشرون :

" وفيه الدعاء بتلف مال من كان ماله سبب طغيانه ، وكفره ، وخسرانه ، خصوصا إن فضل نفسه بسببه على المؤمنين ، وفخر عليهم "[١] ، كما يجوز للمظلوم أن يدعو علـى من ظلمه ، كما يجوز أيضا للمسلم أن يدعو على الكافر ، يؤخذ ذلك من قول الرجـل المؤمن حينما دعا ربه فقال: ﴿ فَعسى ربي أَنْ يؤتِينِ خيراً مِن جنتِك ويرسِـلَ علَيهـا حسباناً مِن السماءِ ﴾ فهذا يجعلنا لا نتهم الداعية بالقسوة ، والشدة ، وقلة الفقه ، حينما يدعو على كافر ، أو فاسق معلن فسقه ، ولكننا نطالب المسلم بالدعوة ، كمـا فعـل الرجل المؤمن مع صاحبه ، والذي يظهر أن تمني الرجل المؤمن ل ول عذاب على جنـة الكافر ، ليس من باب الحسد ، وزوال النعمة من الغير ، وإنما غيرة لله سبحانه وتعالى .

اللطيفة السادسة والعشرون :

الداعية المؤمن رغم ضعف جانبه ماديا ، إلا أنه قوي بربه سبحانه وتعالى ، فالرجل المؤمن ابتلي بقلة المال ، وضعف الناصر ، كما يفيده قوله: ﴿ إِنْ ترنِ أنا أَقَل مِنك مالاً وولَداً ﴾ والرجل الكافر أكثر مالا ، وأعز نفرا ، كما أفاده قوله في الآيات ، إلا أن المؤمن قـوي بتوكله على الله ، ويقينه بالنصر ، وثقته بموعود مولاه .

وهذا سلاح يتسلح به المؤمن في حال أي مواجهة مع الأعداء ، فلا يبهره ما يـراه مـن ماديات عند غيره ، ما دام يقابلها بتوكله على الله .

كما تظهر الآيات سرعة استجابة الله لعبده إذا استنصره ، ودعاه .

اللطيفة السابعة والعشرون :

تحقيق الرجاء القلبي من أركان الإيمان ، فقول الرجل المؤمن: ﴿ فَعسى ربي ﴾ فيها تحقيق

---

(١) تفسير السعدي ص٤٧٨ .

له ، وضابط الرجاء الشرعي ما كان مقترنا بعمل الأسباب ، فإن خلا عنها فهو تمـنٍ " وسر المسألة أن الرجاء وحسن الظن ، إنما يكون مع الإتيان بالأسباب الـتي اقتـضتها حكمة الله في شرعه ، وقدره ، وثوابه ، وكرامته ، فيأتي العبد بها ثم يحسن ظنه بربـه ، ويرجوه أن لا يكله إليها ، وأن يجعلها موصلة إلى ما ينفعه "[1] .

وقد اقترن مع رجاء هذا الرجل المؤمن فعل سبب ، وهو الدعاء ، كما يستفاد من ذلك أيضا قوة يقين الرجل المؤمن بربه ، وثقته بالاستجابة .

اللطيفة الثامنة والعشرون :

مع قوة الأعداء ، وتمكنهم ماديا ومعنويا ، فالمؤمن الداعية قوي الجانب ؛لارتباطه بقـوة الله ،فالله شديد البطش،كما يدل عليه قوله:﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ وهي لفظة تـدل علـى أمرين :

١ ـ الهلاك ، وبهذا فسرها جماعة من المفسرين[2] .

٢ ـ أن العذاب وقع حينما ظهرت الثمار ، وهذا ليكون وقع العذاب أشد ، نـسأل الله السلامة من عذابه .

كما يؤيد ذلك قوله: ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾وهـي تشتمل على عدة أمور في شدة بطش الله وعظيم عقابه ، ومن ذلك :

١ ـ أنه لا ناصر لمن أراد الله خذلانه .

٢ ـ من أراد الله هلاكه فلن يستطيع أن يدفع عن نفسه عذاب الله .

٣ ـ ذكر الله ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ ﴾مع أن الرجل الكافر قال من قبل: ﴿ وَأَعَـزُّ نَفَـرًا﴾ ولعل السر والله أعلم ، أن الله أراد أن يبين ضعفه وضعف ناصره لما نزل عذاب الله فكأنه لم يكن له يوما من الأيام فئة تنصره ، وذلك من شدة العذاب ، وضعف الناصـر حـتى كأنه معدوم .

اللطيفة التاسعة والعشرون :

الشرك عاقبته خطيرة ، فعلى الدعاة إلى الله أن يبينوا عاقبته ، وأنها تشمل عذاب الـدنيا

---

(١) الجواب الكافي ، محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية :ص٢٤، { دار الكتب العلمية ،بيروت:بدون} .

(٢) انظر : البيضاوي ٤٩٨/٣ ، والبغوي ١٦٣/٣ ، والمصباح المنير ص٦٣٩ .

قبل الآخرة ، فالرجل الكافر أصابته عاقبة شركه ، حيث ترتب على شركه ما يلي :

١ ـ خسر جنته .

٢ ـ خسر ما أنفق فيها .

٣ ـ أصبحت خاوية على عروشها .

٤ ـ ندمه وتحسره ، وهو عذاب نفسي له .

اللطيفة الثلاثون :

الداعية لا يكره ما يـ ل بأعداء الله من مصائب ، فلعل في باطنها أمرا يحبـه الله ، فـإن الرجل بعد أن نزل بجنته العذاب ، تاب من شركه ، وهذا على القول بأن قول الرجـل صاحب الجنة:﴿ يا لَيتِني لَم أُشرِكْ بِربي أَحداً﴾ يعتبر توبة من الـشرك ، ودخـولا في الإيمان [١] .

اللطيفة الحادية والثلاثون :

الآيات تربي المؤمن عموما ، والداعية على وجه الخصوص على خطورة طول الأمـل ، فالرجل صاحب الجنتين أخبر " بالشك في بيدودة[٢] جنته ، لطـول أملـه ، واسـتيلاء الحرص عليه ، وتمادي غفلته ، واغترراه بالمهلة "[٣] ، بينما حقيقة النفس المؤمنة تتمثـل وصية عبد الله بن عمر[٤] رضي الله عنه " إذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وإذا أمسيت فلا تنتظـر الصباح "[٥] .

---

(١) الكشاف ٦٧٦/٢ .

(٢) بيدا ،و بيادا ،و بيودا ،و بيدودة : هلك و انقرض . انظر المعجم الوسيط ، مادة (باد) .

(٣) الكشاف ٦٧٤/٢ .

(٤) أبو عبد الرحمن العدوي ، المدني ، الفقيه ، الإمام ، أحد الأعلام المشهورين ، من أهل بيعة الرضوان ، أسلم ولم يبلغ الحلم ، وهاجر مع أبيه ، جمع العلم الكثير من النبي ﷺ وصحابته ، وله ذكاء حاد ، وأحد المكثرين من رواية الأحاديث ، وكان مجاهد في سبيل الله ، توفي سنة ثلاثة وسبعين بمكة . انظر : سير أعلام النبلاء ٧/٣ ، والإصابة في تمييز الصحابة ، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي ، تحقيق علي محمد البجاوي :١٩٥/٥،{ط١، دار الجيل ،بيروت: ١٤١٢هـ } .

(٥) أخرجه مسلم ، كتاب الرقاق ، باب قول النبي ﷺ " كن في الدنيا كأنك غريب " برقم (٦٠٥٣) .

اللطيفة الثانية والثلاثون :

في الآيات تأصيل قاعدةٍ تربوية للدعاة ، تتمثل في أنه لا يؤسف على جميع ما فات الداعية من حطام الدنيا ، كما أنه لا يحزن على جزائه عند الله ، فإن الله خير المثيبين ، وأفضل المعطين ، حتى أن لفظ الآية يدل على الخيرية المطلقة ، وهو أيضا سبحانه يورث المـؤمن خير عاقبة ، كما يمكن فهم الآية على معنى آخر ، وهو أن المؤمن يكفيه ألاّ يبقى له أحد إلا الله ، فمهما فات فلا يؤسف عليه ما دام الله باقيا للمؤمن ، فتصور الداعيـة لهـذه العاقبة يجعله لا يأبه بما فاته غير الله سبحانه .

المبحث الثالث

ذو القرنين

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : تفسير الآيات الواردة في شأن ذي القرنين .

المطلب الثاني : اللطائف الدعوية المستنبطة من الآيات .

المطلب الأول

تفسير الآيات الواردة في شأن ذي القرنين

قال تعالى : ﴿وَيَسْأَلونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً﴾(١) .

فقوله :﴿ويسألونك﴾ اختلف المفسرون في السائلين عن ذي القرنين ، فقيل : طائفة من أهل الكتاب ، وقيل : إنما سألته قريش(٢) ، ولا مانع من أن قريشا سألت النبي ﷺ بطلب من اليهود ، فإن العرب كانت تنظر لليهود على أ م أهل كتاب ، وعندهم من العلم ما ليس عند العرب ، وبالمقابل كانت اليهود تعرف هذه النظرة ، فلهذا كانت تأمر قريشا أن يسألوا النبي ﷺ عن أشياء لا تعلم إلا عن طريق كتاب ، ومنها قصة ذي القرنين .

وقوله ﴿ذِي الْقَرنين﴾ هذه الشخصية اختلف المفسرون فيها من عدة جهات ، وهي : اسمه ، وسبب التسمية ، وزمانه ، ونبوته ، وسأذكر من ذلك ما يدخل في حدود كشف الآيات الواردة في شأن ذي القرنين.

أولا : اسمه

اختلف المفسرون والمؤرخون في اسمه ، على عدة أقوال ، أشهرها ما يلي :

١ ـ أنه الإسكندر بن فيلوس اليوناني(٣) .

ودليلهم يرجع إلى الحس ، والنظر في التاريخ ، فإن الآيات أثبتت أن ذي القرنين ملك مشارق الأرض ومغار ا ، ولا يعلم في التاريخ من بلغ ملكه ذلك إلا الإسكندر اليوناني(٤) .

وهناك أقوال كثيرة جدا ، خالية من الأدلة ، ولا يهمني إبطالها بقدر ما يهمني إبطال

---

(١) الكهف : ٨٣ .

(٢) انظر : المحرر الوجيز ٥٣٨/٣ .

(٣) ويسمى الإسكندر الكبير ، أشهر فاتح في العهد القديم ، عاش في الفترة ٣٥٦ ـ ٣٢٣ ق.م . انظر: المئة الأوائل، للدكتور ما يكل هارت ، ترجمة : خالد أسعد عيسى ، وأحمد غسان سبانو :ص١٠٨،{ط١٣،دار قتيبة ،دمشق: ١٤٢٧هـ } .

(٤) انظر : ذو القرنين وسد الصين ، من هو ؟ وأين هو ؟ تأليف محمد راغب الطباخ ، تحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان :ص٢٨،{ط١،دار غراس ،الكويت: ١٤٢٤هـ } .

هذا القول لشدة مخالفته للصواب من عدة أوجه :

١ ـ أن هذا الإسكندر كان وثنيا ، مشركا بالله ، وكان وزيره أرسطو[١] أفضل حالا منه ، على ضلال فيهما جميعا ، بينما ذو القرنين رجل مؤمن ، صالح ، مجاهد ، " يؤمن بالله تعالى ، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وكان يغزو عباد الأصنام "[٢] .

٢ ـ " لا يعرف أن مملكة إسكندر كانت تبلغ في الغرب عين حمئة ، وفي الشرق إلى قوم مجهولين ، عراة ، أو عديمي المساكن "[٣] .

٣ ـ لقب ذو القرنين ، لقب عربي ، فلا يعقل أن قوم الإسكندر لقبوه ذا ، وأما تلقيب مؤرخي المسلمين له بذلك فبناء على ظن ظنوه .

٤ ـ الانتصارات التي حققها ذو القرنين ، تدل على أنه يؤيد من قبل الله ، يسعى لتعبيد الناس لرب العالمين ، وإقامة شريعة الله في الأرض .

وأختم بنقل لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يوضح الفرق بينهما ، فقال : " وأما أئمتكم البارعون ، كأرسطو وذويه ، فغايته أن يكون مشركا سحارا ، وزيرا لملك مشرك سحار ، كالإسكندر بن فيلبس ، وأمثاله من ملوك اليونان ، الذين كانوا أهل شرك يعبدون الأوثان ، وإنما صار فيهم ما صار من الهدى والفلاح ، لما دخلت فيهم النصرانية بعد أرسطو ، بنحو ثلاثمائة سنة وتسع عشرة سنة ، أو أكثر منها ، وقد قيل إن ذلك كان على عهد آخر ملوكهم بطليموس صاحب ا سطي[٤] ، فناهيك ممن تكون

---

(١) وهو أرسطاطاليس الحكيم ،وقيل :فيه أرسطو طاليس بن الحكيم الفيثاغوري ،وكان تلميذ أفلاطون الحكيم ،وكان أفلاطون يقدمه على غيره من تلاميذه ،وبه ختمت حكمة اليونانيين ،وكان قد صحب الإسكندر ،وقدم حلب ،فلما رأى حلب ،وصحة هوائها ،وتربتها ؛استأذن الإسكندر في الإقامة ا لمداواة مرض كان به ،فأذن له في ذلك ،فأقام ا إلى أن زال ذلك . انظر : بغية الطلب في تاريخ حلب،كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة،تحقيق الدكتور سهيل زكار:١٣٤/٣،{ دار الفكر،بيروت:بدون } .

(٢) إغاثة اللهفان ٢٦٤/٢ .

(٣) التحرير والتنوير ٢١/١٦ .

(٤) كتاب لبطليموس في الجغرافيا ،وعلم النجوم والحركات ،قسمه إلى ثلاث عشرة مقالة ، ابتدأها بالشمس ، وهي لفظة يونانية ، معناها بالعربي الترتيب ، عرب في زمن المأمون ، وشرحه الفارابي ،واختصره ابن سينا ،انظر : البداية والنهاية ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي :٢٥/١،{ مكتبة المعارف ،بيروت: بدون } .

النصارى أعقل منهم ، وأعلم وأهدى إلى الدين الأقوم ، ومن الضلال أن من يظن ذا القرنين المذكور في القرآن العزيز ؛ هو الإسكندر بن فيلبس ، الذي يقال إن أرسطو كان وزيره ، وهذا جهل ، فإن ذا القرنين قديم متقدم على هذا بكثير ، وكان مسلماً موحداً حنيفاً ، وقد قيل إن اسمه الإسكندر بن دارا ، وأما اليوناني فهو ابن فيلبس الذي يؤرخ الروم به ، وكان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة أو ما يقارب ذلك "[1] .

ثانيا : أما سبب التسمية ، فقيل فيها أقوال ، منها :

قيل : لأن له ذؤابتين من شعر ، وقيل : كان يلبس خوذة في الحرب ا قرنان ، وقيل : لأنه ملك مشارق الأرض ومغار ا ، وهذه جميعا أقوال محتملة[2] ، ولا يوجد لدي ترجيح بينها لعدم الدليل الفاصل في ذلك ، ولفظ القرنين يحتملها جميعا . وهناك أقوال أخرى تبعد عن الصواب كالقول القائل بأن له قرنين من نحاس في رأسه![3].

ثالثا : أما زمنه ، ففيه خلاف : فقيل : إنه في زمن إبراهيم ﷺ ، وقد وردت آثار في لقياه إبراهيم ﷺ قال عنها الحافظ ابن حجر[4] رحمه الله : " يشد بعضها بعضا "[5]

وتاريخ اليعقوبي ،أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر اليعقوبي : ١٣٣/١،{ دار صادر، بيروت:بدون} .

وفوات الوفيات،محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي،، تحقيق علي محمد بن عوض الله، وعادل أحمد عبد الموجود :٢٥٤/٢، {ط١، دار الكتب العلمية،بيروت:٢٠٠٠م} .

وعيون الأنباء في طبقات الأطباء،موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي ، تحقيق الدكتور نزار رضا :ص٤٤٠،{ دار مكتبة الحياة ،بيروت:بدون} .

(١) درء تعارض العقل والنقل ، أحمد بن تيمية ، تحقيق عبد اللطيف بن عبد الرحمن :٦٩/٥،{ دار الكتب العلمية ،بيروت: ١٤١٧هـ } .

(٢) انظر الأقوال في : التحرير والتنوير ١٩/١٦ بتصرف يسير .

(٣) ذو القرنين وسد الصين ، ص ١٣٣ .

(٤) الإمام الحافظ أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن علي الكناني العسقلاني المصري الشافعي ، ويعرف بابن حجر ، وهو لقب لبعض آبائه ، ولد بمصر ، ونشأ يتيما ، في كنف أحد أوصيائه ، حفظ القرآن في صغره ، ومن شيوخه الحافظ العراقي ، وأبي الحسن الهيثمي ، وابن الملقن ، وقد تتلمذ عليه برهان الدين البقاعي ، وابن قاضي شهبه ، له مؤلفات جليلة ، أعظمها فتح الباري ، وتبصير المنتبه ، والإصابة في تمييز الصحابة ، وغيرها كثير ، وتوفي سنة اثنين وخمسين وثمانمائة للهجرة . انظر : الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر ، لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي ، تحقيق إبراهيم باجس عبد ا يد { دار ابن حزم ،بيروت: ١٤١٩هـ } .

(٥) فتح الباري ٣٨٢/٦ .

وقيل : إنه التقى ببلقيس[1] ، وهي زمن سليمان بن داود عليه السلام .

ولا شك في تقادم عهده ، ولا أدل من اختلاف المؤرخين في ذلك ، وجميع الأدلة التي ذُكِر فيها له زمن معين لا تخلو من مقال ، ويترجح لي أن عهده يقرب من أحد الأنبياء ، سواء قلنا بالمعاصرة أو القرب النسبي ، فإن مثل هذه الفتوحات مؤيدة بشدة إتباعه لدين سماوي .

رابعا : أما نبوته ، فالخلاف فيها ضعيف[2] ، ودليل من قال بنبوته مستنبط من قوله تعالى " قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا " لأن أمر الله لا يكون إلا بوحي[3]، ويكفي لرده أنه فهم من ظاهر الآية دلت أدلة أخرى على خلافه .

وأضعف منه من يدعي أنه ملَك[4] .

وأكتفي بهذه المسائل لتعلقها ببيان الآية ، ويمكن الاستزادة من كتاب " ذو القرنين وسد الصين ، من هو ؟ وأين هو ؟ "[5] .

قوله : ﴿ قُلْ سأتلو عليكم منه ذِكْراً﴾ السين للتأكيد ، والدلالة على التحقيق المناسب لمقام تأييده عليه ﷺ وتصديقه بإنجاز وعده ، أي لا أترك التلاوة البتة "[6]

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ﴾[7] .

فقوله:﴿إنا مكنا له في الأرض ﴾ التمكين له ، أنه ملك الدنيا ، ودانت له الملوك[8] ، ولذلك فتح مشارقها ، ومغاربها ، وقد استدل من قال بنبوته بهذه الآية[9] ، لأن الأنبياء

---

(١) انظر : الدر المنثور ٤٤٨/٥ ، وقال أبو عبيدة مشهور بن حسن : "وهي أشبه ما تكون بالخرافة ".انظر : ذو القرنين وسد الصين ، ص١١٩ .

(٢) انظر : المحرر الوجيز ٥٣٨/٣ .

(٣) انظر : ذو القرنين وسد الصين ، ص ١٠٤ .

(٤) انظر : ذو القرنين وسد الصين ، ص ١٠٧ .

(٥) وهو أوسع كتاب في هذا المجال ، وقد ذكر في ص ٢٩ المراجع التي أفردت الإسكندر بالتأليف .

(٦) تفسير أبي السعود ٢٤١/٥ .

(٧) الكهف : ٨٤ .

(٨) التسهيل ١٩٠/٢ .

(٩) انظر : التفسير الكبير ١٤٠/٢١ .

يمكنون في الأرض ، ويرده واقع أنبياء الله ، فقد لا يستجيب لهم أحد ، كما صح في ذلك الحديث " عرضت علي الأمم ، فجعل النبي والنبيان يمرون ، ومعهم الرهط ، والنبي ليس معه أحد " [(١)] .

وقوله : ﴿وآتيناه مِن كُل شيءٍ سبباً﴾ المراد بهذا العموم فيما يتعلق بتمكينه في الأرض ، فآتاه الله " علما وفهما ؛ يتوصل به إلى معرفة الأشياء "[(٢)]،وقد خصه جماعة من السلف بالعلم[(٣)] ، لأنه مفتاح كل شيء ، وهذا تأكيد منهم على أهمية العلم ، حتى في الغزو ، والتمكين في الأرض ، كما تتضمن الآية التنويه على بذل الأسباب ، فمع تمكين الله له ، إلا أنه آتاه أسباب ذلك التمكين .

وقول الرازي في هذه الآية : " فهذه الآية ؛ تدل على أنه تعالى أعطاه الطريق الذي به يتوصل إلى تحصيل النبوة "[(٤)]

وهذا القول باطل ، وتقرير الرازي له بناء على مذهب الفلاسفة الفاسد ، في أن النبوة مكتسبة ، وقد تولى الرد عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[(٥)] .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَتبع سبباً﴾ أي :" مضى في وجه ما هو ميسر له "[(٦)] يشق طريقه في جهاده في سبيل الله ، والمعنى على هذا " أعطاه الله من الأسباب الموصلة له لما وصل إليه ما به يستعين على قهر البلدان ، وسهولة الوصول إلى أقاصي العمران ، وعمل بتلك الأسباب التي أعطاه الله إياها ، أي استعملها على وجهها ، فليس كل من عنده شيء من الأسباب يسلكه ، ولا كل أحد يكون قادرا على السبب ، فإذا اجتمعت القدرة على السبب الحقيقي ، والعمل به حصل المقصود ، وإن عدِما أو أحدهما لم يحصل ، وهذه

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب الطب ، باب من اكتوى أو كوى غيره ، وفضل من لم يكتو ، برقم (٥٣٧٨)٢١٥٧/٥ ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ، برقم (٢٢٠) ١٩٩/١، واللفظ للبخاري .

(٢) التسهيل ١٩٥/٢ .

(٣) تفسير الطبري ٩/١٦ .

(٤) التفسير الكبير ١٤١/٢١ .

(٥) انظر : الفتاوى ٣٩٨/١٠ ، وانظر : كتاب النبوات ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق الدكتور / عبد العزيز الطويان ،{ط١، مكتبة أضواء السلف ،الرياض: ١٤٢٠هـ }فالكتاب بني على هذا .

(٦) في ظلال القرآن ٢٢٩١/٤ .

الأسباب التي أعطاه الله إياها ، لم يخبرنا الله ولا رسوله ا ، ولم تتناقلها الأخبار على وجه يفيد العلم ، فلهذا لا يسعنا غير السكوت عنها "[1] .

وقال تعالى :﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾ [2].

فقوله :﴿حتى إذَا بلَغَ مغرِب الشمسِ﴾ المعنى " أنه أراد بلوغ المغرب ، فأتبع سببا يوصله إليه ، حتى بلغه "[3] والمراد بمغرب الشمس ، أي: " وصل إلى أقصى ما يسلك فيه طريقا من ناحية المغرب ، وهو مغرب الأرض ، وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فمتعذر "[4] .

قوله :﴿وجدها تغرب فِي عينٍ حمِئَةٍ﴾ " قرئ بالهمز على وزن فعلة ، أي ذات حمأة ، وقرئ بالياء على وزن فاعلة ، ومعنى حامية حارة ، ويحتمل أن يكون بمعنى حمية ولكن سهلت همزته ، ويتفق معنى القراءتين ، وقد قيل يمكن أن يكون فيها حمئة ، وتكون حارة لحرارة الشمس ، فتكون جامعة للموضعين "[5] .

وأما العين ، فمن المفسرين من أخذ بظاهرها وقال : " إن الشمس تغيب في عين كثيرة الماء ، والحمأة "[6] ، ومنهم من قال بأن المراد : أنه " رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط ، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله ، يراها كأ ا تغرب فيه "[7] ، وذهب الطاهر بن عاشور إلى أن المراد : " أن هذه العين من عيون النفط ، الواقعة على ساحل بحر الخزر ، حيث مدينة باكو[8] ، وفيها منابع النفط الآن ، ولم يكن معروفا

---

(١) تفسير السعدي ، ص ٤٨٥ .

(٢) الكهف : ٨٦ .

(٣) التفسير الكبير ١٤١/٢١ .

(٤) المصباح المنير في ذيب ابن كثير ، ص٦٤٨ .

(٥) التسهيل لعلوم الت يل ١٩٥/٢ باختصار ، والكافي في القراءات السبع ١٥٠ .

(٦) التفسير الكبير ١٤٢/٢١ .

(٧) المصباح المنير ، ص٦٤٨ .

(٨) من بلاد الشرق ، تتبع ولاية شروان ، من بلاد فارس في القديم ، وعندها باب الحديد ،ويسمونه دمرقفو . انظر : مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي: ٦٠٢/٥، {ط٥، دار القلم ،بيروت: ١٩٨٤م} .

يومئذ ، والمؤرخون المسلمون يسمو ا البلاد المنتنة "[1] .

والأولى في نظري أن: " المراد بالعين في الآية البحر المحيط ، وهو ذو طين أسود ، والعين تطلق في اللغة على ينبوع الماء ، والينبوع الماء الكثير ، فاسم العين يصدق على البحر لغة ، وكون من على شاطئ المحيط الغربي يرى الشمس في نظر عينه تسقط في البحر ، أمر معروف ، وعلى هذا التفسير فلا إشكال في الآية،والعلم عند الله تعالى "[2] .

وقوله :﴿ ووجد عِندها قَوماً ﴾ تنكير قوما يؤذن بأ م أمة غير معروفة ، ولا مألوفة ، حالة عقائدهم ، وسير م "[3] ، ومرجع الضمير " في قوله عندها ، إلى ماذا يعود ؟ فيه قولان : الأول : أنه عائد إلى الشمس ، ويكون التأنيث للشمس ، لأن الإنسان لما تخيل أن الشمس تغرب هناك ، كان سكان هذا الموضع ، كأ م سكنوا بالقرب من الشمس ، والقول الثاني : أن يكون الضمير عائدا إلى العين الحامية "[4] .

وقوله :﴿قُلْنا يا ذَا الْقَرنينِ إما أَنْ تعذب وإِما أَنْ تتخِذَ فِيهم حسناً ﴾ هذه الآية أظهر دليل لمن قال بنبوة ذي القرنين ، وأجاب أهل العلم عن ذلك بأجوبة ، منها :

١ ـ أن " إسناد القول إلى ضمير الجلالة يحتمل أنه قول إلهام ، أي ألقينا في نفسه ترددا بين أن يبادر استئصالهم ، وأن يمهلهم ويدعوهم إلى الإيمان ، وحسن العمل "[5] .

٢ ـ أن الله أوحى إلى نبي ذلك الزمان ، وهو أمر ذي القرنين[6] .

٣ ـ وهناك قول غريب ، وهو أن القائل لذي القرنين هم العلماء ، ونسب القول لله لأ م مبلغون عن الله[7].

والذي يظهر لي أن القول كان عن طريق نبي ذلك الزمن ، كأن تكون شريعتهم ،

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/١٦ .

(٢) أضواء البيان ٣٤١/٣ . تاريخ ابن خلدون ج٥/ص٦٠٢

(٣) التحرير والتنوير ٢٦/١٦ .

(٤) التفسير الكبير ١٤٢/٢١ .

(٥) التحرير والتنوير ٢٦/١٦ .

(٦) انظر : تفسير مدارك التن يل وحقائق التأويل ، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي :٢٥/٣،{ دار المعرفة ،بيروت:بدون} .

(٧) انظر : روح المعاني ٣٤/١٦ بتصرف .

أو أن ذلك النبي أذن له بناء على أمر الله ، وهذا يؤكد ما سبق ذكره من أن هذه الانتصارات التي حدثت لذي القرنين حصلت بناء على تأييد إلهي .

وذهب بعض أهل العلم إلى أن التخيير الذي خيره الله لذي القرنين ، لا تخيير تشهي ، وإنما " على معنى الاجتهاد في أصلح الأمرين "[(١)]

وهذا القول :﴿ إما أنْ تعذب وإما أنْ تتخِذَ فيهم حسناً ﴾ يدل على أن " سكان آخر المغرب كفارا "[(٢)] ، والمراد بالتعذيب القتل[(٣)] ، ويحتمل غيره .

" وفي التعبير بإما أن تتخذ فيهم حسنا ، دون إما أن تدعوهم مثلا ، إيماء إلى ترجيح الشق الثاني ، والوصف بالحسن ، وهو مصدر للمبالغة "[(٤)] .

وقال تعالى :﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً ﴾[(٥)].

فقوله:﴿من ظَلَم﴾ المراد بالظلم الشرك[(٦)] ، وهذا القول منه يدل على أنه يهدف من وراء حروبه إلى توحيد الناس لر م ، وإفراده بالعبادة .

وقوله :﴿ ثُم يرد إلى ربِهِ فَيعذبه عذَاباً نكْراً ﴾ يدل على إيمان ذي القرنين باليوم الآخر ، وأن الإيمان باليوم الآخر مما اتفقت عليه الشرائع ، وتدل أيضا على شدة عذاب الله ، وأن عذاب الدنيا بما فيه القتل أهون من عذاب الآخرة .

وقال تعالى :﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً ﴾[(٧)].

فقوله :﴿آمن وعمِلَ صالِحاً ﴾ تدل على أن العمل الصالح من الإيمان ، حتى عند الأمم المتقدمة ، فلم يكتف ذو القرنين منهم بالتلفظ بالإيمان ، وإنما قرن بين الإيمان ،

---

(١) التفسير الكبير ١٤٣/٢١ .
(٢) التفسير الكبير ١٤٣/٢١ .
(٣) الدر المنثور ٤٥٣/٥ .
(٤) روح المعاني ٣٤/١٦ بتصرف .
(٥) الكهف : ٨٧ .
(٦) الدر المنثور ٤٥٣/٥ .
(٧) الكهف : ٨٨ .

والعمل .

وقوله :﴿ فَلَه جزاءً الْحسنى ﴾ عند الله ، وقدم الجزاء عند الله على جزائه الدنيوي ، لأن المؤمن لا يريد إلا ما عند الله .

وقوله :﴿ وسنقُولُ لَه مِن أَمرِنا يسراً ﴾ سهلا ، ميسرا ، غير شاق[1] ، وقول من فسرها بالزكاة ،والخراج ،وغير ذلك ؛ فقول يحتاج إلى دليل على أ ا من شرائعهم.

وهذا القول من ذي القرنين يدل على أنه من الملوك الصالحين[2] ، حيث أظهر تمام العدل .

وقال تعالى :﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴾[3] .

أي : " مضى في طريقه إلى جهة المشرق ، بعد أن فرغ من المغرب .

وقال تعالى :﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً﴾[4] .

فقوله :﴿حتى إِذَا بلَغَ مطْلِع الشمسِ﴾ " ما قيل عن مغرب الشمس ، يقال عن مطلعها ، فالمقصود هو مطلعها من الأفق الشرقي في عين الرائي ، والقرآن لم يحدد المكان ، ولكنه وصف طبيعة وحال القوم الذين وجدهم ذو القرنين هناك "[5] .

وقوله :﴿ وجدها تطْلُع علَى قَومٍ لَم نجعلْ لَهم مِن دونِها سِتراً ﴾يحتمل عدم الستر بينهم وبين الشمس أن يكون المراد : " لا جبل فيها يستظلون بظله ، ولا شجر فيها ، فهي أرض مكشوفة ، ويجوز أن يكون المعنى ؛ أ م كانوا قوما عراة ، فالمراد بالستر ، ما يستر الجسد وفي هذه الحالة عبرة من اختلاف الأمم في الطبائع ، والعوائد ، وسير م على نحو مناخهم "[6]،والذي يظهر لي أن المراد شيء يسترهم عن حرارة الشمس ، من جبال ، أو أشجار ، أو غيرها ، لأن ستر الجسم ، والعورة على وجه الخصوص مركوز في

---

(1) انظر : روح المعاني ٣٤/١٦ .

(2) تفسير السعدي ، ص٤٨٥ .

(3) الكهف : ٨٩ .

(4) الكهف : ٩٠ .

(5) في ظلال القرآن ٢٢٩٢/٤ .

(6) التحرير والتنوير ٢٨/١٦ .

الفطر ، فيبعد أن يراد أ م لا يجدون ما يستر عورا م .

وقال تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾[1] .

فقوله ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فيها عدة أقوال للمفسرين ، منها :

" أحدها : كما بلغ مغرب الشمس بلغ مطلعها .

والثاني : اتبع سببا ، كما اتبع سببا .

والثالث : كما وجد أولئك عند مغرب الشمس ، وحكم فيهم ، كذلك وجد هؤلاء عند مطلعها ، وحكم فيهم .

والرابع : أن المعنى كذلك أمرهم كما قصصنا عليك ، ثم استأنف فقال : وقد أحطنا بما لديه "[2] .

" وقيل : إن كذلك ، راجع لما قبله ، أي لم نجعل لهم سترا ، كما جعلنا لكم من المباني والثياب "[3] .

وكلها معان محتملة ، لأن اسم الإشارة يشير إلى محذوف كالمذكور لتقرر العلم به[4] ، وأولاها في نظري أن المعنى:" كذلك فعل معهم كفعله مع الأولين أهل المغرب ، فأوجز بقوله كذلك "[5] لأن هذا هو المقصود من مسيره إليهم .

وقوله :﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ الضمير في ﴿لَدَيْهِ﴾ يعود إلى ما لدى ذي القرنين من الجنود ، والآلات[6] ، والثروة[7]،والأسباب التي يصل ا[8].

وهذه الآية تفيد أمرين :

١ ـ سعة علم الله ، حيث أحاط ذه الأمور ، وعلمها .

---

(١) الكهف : ٩١ .

(٢) زاد المسير ١٨٨/٥ .

(٣) التسهيل ١٩٥/٢ .

(٤) انظر : التحرير والتنوير ٢٩/١٦ .

(٥) المحرر الوجيز ٥٤١/٣ .

(٦) انظر : الكشاف ٦٩٦/٢ .

(٧) التحرير والتنوير ٣٠/١٦ .

(٨) انظر : تفسير أبي السعود ٢٤٤/٥ .

٢ ـ كثرة ما لدى ذي القرنين من الأسباب الموصلة للانتصارات ، والفتوحات .

وأما فيما يتعلق بموضع الآية الكريمة ، فقد جاءت بعد أن ذكر الله قوة ذي القرنين ، وكثرة ما لديه من أسباب النصر ، فحتى لا يتعلق المؤمن بهذه الأسباب ، ذكر الله علمه المحيط ، ليبقى المؤمن مرتبطا بربه سبحانه .

وقوله :﴿ثُم أتبع سبباً﴾(١) .

مضى بيانها .

وقال تعالى :﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْماً لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾(٢) .

فقوله ﴿بين السدين﴾ اتفق المفسرون على أن السدين " جبلان سدا مسالك تلك الناحية ، من الأرض ، وبين طرفي الجبلين فتح ، هو موضع الردم "(٣) .

إلا أنهم اختلفوا في موضع السدين ، فقيل : " موضع السدين في ناحية الشمال ، وقيل : جبلان بين إرمينية(٤) ، وبين أذربيجان(٥) ، وقيل : هذا المكان في منقطع أرض الترك "(٦) ، وقيل : " إن موضع السدين هو الشمال الغربي لصحراء قوبي(٧) ، الفاصلة

---

(١) الكهف : ٩٢ .

(٢) الكهف : ٩٣ .

(٣) المحرر الوجيز ٥٤١/٣ .

(٤) إرمينية بكسر أوله ، ويفتح ، وسكون ثانيه ، وكسر الميم ، وياء ساكنة ، وكسر النون ، وياء خفيفة مفتوحة،اسم لصقع عظيم واسع ، في جهة الشمال ، والنسبة إليها أرمني ، كانت بأيدي الروم حتى جاء الإسلام . انظر : معجم البلدان ، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي : { دار الفكر ،بيروت:بدون} .

(٥) أَذْربيجان بالفتح ، ثم السكون ، وفتح الراء ، وكسر الباء الموحدة ، وياء ساكنة ، وجيم ، وقد فتح قوم الذال ، وسكنوا الراء ، ومد آخرون الهمزة مع ذلك ، وحد أذربيجان من برذعة مشرقا ، إلى أرزنجان مغربا ، ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الديلم ، والجيل ، والطرم ، وهو إقليم واسع ، وقد فتحت أولا في أيام عمر ابن الخطاب ﷺ ، وكان عمر قد أنفذ المغيرة بن شعبة الثقفي واليا على الكوفة ، ومعه كتاب إلى حذيفة بن اليمان بولاية أذربيجان . انظر : معجم البلدان ١٢٨/١ .

(٦) التفسير الكبير ١٤٤/٢١ .

(٧) صحراء ممتدة شرق تركستان تغطيها طبقة كثيفة من الحصباء شديدة الصلاة ، جردتها الرياح العنيفة من العناصر الدقيقة كالطين والرمل فأصبحت قاحلة وعرة حتى ظهرت في بعض مناطقها مساحات واسعة من الصخور تبدو للرائي من بعيد وكنها جزر بحرية ، انظر ذو القرنين وسد الصين ص١٩٠ .

بين الصين وبلاد المغول ، شمال الصين ، وجنوب منغوليا[1] "[2] .

وأولى الأقوال عندي أنه لا يجزم بتحديده ، وإنما يقال:" هما في طرفي الأرض مما يلي المشرق،ويظهر من ألفاظ التواريخ،أنه إلى ناحية الشمال،وأما تعيين موضع فيضعف "[3] .

وقوله:﴿ يفقهون ﴾ قرئت بالفتح ، والضم[4] ، والقراءتان " غير دافعة إحداهما الأخرى ، وذلك أن القوم الذين أخبر الله عنهم هذا الخبر ، جائز أن يكونوا لا يكادون يفقهون قولا لغيرهم عنهم ، وجائز أن يكونوا مع كو م كذلك ، كانوا لا يكادون أن يفقهوا غيرهم ، لعلل إما بألسنتهم ، وإما بمنطقهم "[5] .

وقد مكن الله لذي القرنين بفهم لغتهم ، عن طريق الترجمة[6] ، أو يعتبر ذلك أحد الأسباب التي يسرها الله لذي القرنين[7] ، والأول أقرب .

ومن ذُكِر هؤلاء القوم نستفيد عظمة الله ، وسعة علمه ، فقوم لا يكادون يفقهون قولا لغيرهم ، ولا يفقههم غيرهم ، فمن رزقهم غيره ؟ ومن دبر حيا م ؟ وأقام أمرهم ؟ فسبحانه من خالق عظيم .

وقال تعالى :﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً﴾[8] .

فقوله :﴿ يأجوج ومأجوج ﴾فيهما كلام كثير ، قليل منه صواب ، وأكثره لا دليل عليه ، والذي يهمني في بحثي سأتناوله في عدة نقاط ، هي كما يلي :

---

(1) هضبة مغلقة تقع ضمن دائرة واسعة محيطها السلسلة الجبلية الشاهقة والمنيعة ، حيث يحدها جنوبا جبال الهملايا ، وشرقا وشمالا جبال خانجاي ، ولا ترتبط منغوليا بآسيا والعالم إلا عبر ممرات جبلية تربطها بالصين من جهة الجوب والشرق ، انظر : ذو القرنين وسد الصين ١٩٠ .

(2) التحرير والتنوير ٣١/١٦ .

(3) المحرر الوجيز ١٤٤/٣ .

(4) حمزة والكسائي بضم الياء وكسر القاف ، وفتحهما الباقون ، انظر : الكافي في القرءات السبع ١٥١ .

(5) تفسير الطبري ١٦/١٦ .

(6) المحرر ١٤١/٣ .

(7) روح المعاني ٣٨/١٦ .

(8) الكهف : ٩٤ .

أولا : " يأجوج ومأجوج ، قبيلان من خلق الله ، من ولد نوح ، وجاءت القراءة فيهما بالهمز وبغير همز ، وهما اسمان ، قيل : أعجميان "[1] .

ثانيا : هناك أقوال شاذة ، مثل : من قال : " إن يأجوج ومأجوج ما هم إلا أمم الكفار ، على اختلاف أجناسهم ، وأوطا م ، من الروس ، والصين ، والأمريكان ، واليابان ، وغيرهم "[2] .

ثالثا : ثبت بالآيات المراد شرحها ؛ أن ذي القرنين بنى بينهم وبين الناس سدا .

رابعا : ثبت بالحديث الصحيح أ م يخرجون في آخر الزمن على الناس ، ويسعون في الأرض فسادا ، فقد جاء في حديث النواس بن سمعان[3] رضي الله عنه مرفوعا ، في حديث الدجال الطويل ، وفيه ، " ويبعث الله يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون ، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية[4] ، فيشربون ما فيها ، ويمر آخرهم فيقولون : لقد كان ذه مرة ماء ، ويحصر نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه ، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرا من مائة دينار لأحدكم اليوم ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه فيرسل الله عليهم النغف[5] في رقا م ، فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة ، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض ، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم[6]، ونتنهم ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله ؛ فيرسل الله طيرا كأعناق البخت ، فتحملهم ؛ فتطرحهم

---

(١) ذو القرنين وسد الصين ص ٢٥٣ .

(٢) ذو القرنين وسد الصين ص٢٥٣ .

(٣) ابن خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن كلاب بن ربيعة ، معدود في الشاميين ، يقال : إن أباه سمعان وفد على النبي صلى الله عليه وسلم فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعطاه نعليه فقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وزوجه أخته ،فلما دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم تعوذت منه فتركها ،وهي الكلابية ،روى عن النواس جبير بن نفير ،وبشر بن عبيد الله ،وجماعة ،وتوفي في حدود الخمسين للهجرة . انظر :الوافي بالوفيات،صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق أحمد الأرناؤوط،وتركي مصطفى:١٠٨/٢٧،{ دار إحياء التراث،بيروت:١٤٢٠هـ } .

(٤) وهي في طرف جبل ، وهي من أعمال الأردن ، في طرف الغور ، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام ، وكذلك بينها وبين بيت القدس ، وبينها وبين عكا يومان .انظر : معجم البلدان ١٧/٤ .

(٥) دود يكون في أنوف الإبل والغنم . انظر : النهاية في غريب الأثر ٨٦/٥ .

(٦) رائحة اللحم ، والزهمة بالضم الريح المنتنة . انظر : النهاية في غريب الأثر ٣٢٣/٢ .

حيث شاء الله ، ثم يرسل الله مطرا لا يكن منه بيت مدر[1] ولا وبر[2] ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة[3] ، ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك ، وردي بركتك ، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ، ويستظلون بقحفها ، ويبارك في الرسل[4] ؛ حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس ، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس ، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس ، فبينما هم كذلك ؛ إذ بعث الله ريحا طيبة ، فتأخذهم تحت آباطهم ، فتقبض روح كل مؤمن ، وكل مسلم ، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها ارج الحمر ، فعليهم تقوم الساعة "[5] .

واكتفي ذا لأن به يتضح معنى الآية .

وقوله :﴿ مفْسِدونَ فِي الْأَرضِ ﴾ اختلف المفسرون في إفساد يأجوج ومأجوج في الأرض ، فمنهم من قال بأنه وقع ذلك منهم ، وسيقع في آخر الزمان[6] ، ورجح الطبري رحمه الله أن ذلك مبني على أنه سيقع الفساد منهم في مستقبل الزمن[7] ، والأرجح لدي القول الأول ، لأن شكوى تلك الأمة لذي القرنين ؛ لابد أن تكون مبنية على دليل ، خاصة وأن ذي القرنين حاكم عادل ، لا يحكم إلا بناء على دليل ثبت عنده ، ولا يمنع ذلك إفسادهم في آخر الزمن كما صح في السنة النبوية .

وعلى القول بأن فسادهم في الأرض قد وقع ، فاختلف المفسرون في نوعية ذلك الفساد ، وأرى أن اختلافهم من باب اختلاف التنوع ، فقد كان فسادهم بالقتل والظلم[8] ، كما كان بتخريب الأراضي حتى لا يستفيد منها أهلها ، وبفعل الفواحش

---

(١) المراد : أهل القرى . انظر : النهاية في غريب الأثر ٣٠٩/٤ .

(٢) المراد : أهل البوادي ، وهو من وبر الإبل لأن بيو م يتخذو ا منه . انظر : النهاية ١٤٤/٥ .

(٣) بالتحريك ، والمراد : مصانع الماء ، أراد أن المطر يغدر في الأرض فتصير كأنه مصنعة من مصانع الماء ، وقيل: الزلفة المرآة ، شبهها ا لاستوائها ، ونظافتها . النهاية في غريب الأثر ٣٠٩/٢ .

(٤) والرسل بالفتح هو : اللبن . النهاية في غريب الأثر ٢٢٢/٢ .

(٥) صحيح مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، كتاب الدجال وصفته ، برقم (٢٩٣٧)٢٢٥٠/٤ .

(٦) المحرر الوجيز ٥٤٣/٣ .

(٧) تفسير الطبري ٢٢/١٦ .

(٨) انظر : التسهيل لعلوم الت يل ١٩٦/٢ .

كاللواط[1] ، إلا أن الشائعة التي انتشرت عنهم بأ م يأكلون الناس[2] ، فلعلها من مبالغات الناس إذا عرف عن أمة من الأمم أ ا مفسدة ، أو أن المراد فيها يأكلو م بالقتل ، والله أعلم .

وهذه الآية تشعر بأن تلك الأمة رأت في ذي القرنين من الأمانة ، والعدل ، وحسن التعامل ، والوفاء بالعهد ؛ ما جعلهم يطلبون أن يجعل بينهم وبين المفسدين سدا .

وقوله:﴿ فَهلْ نجعلُ لَك خرجاً علَى أَنْ تجعلَ بيننا وبينهم سداً﴾ قرئ خرجا ، وخراجا[3] ، ولهذا اختلف المفسرون في هذا الخرج على قولين ، فقيل : إن المراد الجُعل ، أي نجمع لك من أموالنا جعلا مقابل أن تجعل بيننا وبينهم سدا ، وقيل : المراد نؤدي لك خراجا في كل عام ، مقابل ذلك العمل[4] .

والراجح في نظري أن المراد بالخرج الجُعل ، ويدل لذلك سياق الآيات ، حيث " إن القوم فيما ذكر عنهم ، إنما عرضوا على ذي القرنين أن يعطوه من أموالهم ما يستعين به على بناء السد ، وقد بين ذلك بقوله:﴿ فَأَعِينونيِ بِقُوةٍ أَجعلْ بينكم وبينهم ردماً﴾ ، ولم يعرضوا عليه جزية رؤوسهم "[5] .

وقولهم:﴿ فَهلْ نجعلُ لَك خرجاً علَى أَنْ تجعلَ بيننا وبينهم سداً﴾ " استفهام على جهة حسن الأدب "[6] ، والفاء في قولهم: ﴿ فَهلْ﴾ لتفريع العرض على إفسادهم في الأرض "[7] ، وطلبهم بناء السد بينهم وبين يأجوج ومأجوج ؛ مع ما رأوه من قوة ذي القرنين ، وتمكين الله له في مشارق الأرض ومغار ا ، دليل على شدة إفساد يأجوج ومأجوج ، وقو م ، وكثرة عددهم ، فلم يكتف هؤلاء القوم بحمايتهم من قوم يأجوج ومأجوج ، بل زادوا بناء السد حاجزا بينهم ، والله أعلم .

---

(١) انظر : زاد المسير ١٩١/٥ .
(٢) انظر : الدر المنثور ٤٥٩/٥ .
(٣) انظر القراءات : تفسير الطبري ٢٢/١٦ .
(٤) التفسير الكبير ١٤٥/٢١ .
(٥) تفسير الطبري ٢٢/١٦ .
(٦) المحرر الوجيز ٥٤٢/٣ .
(٧) تفسير أبي السعود ٢٤٥/٥ .

وقال تعالى:﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً﴾[١] .

فقوله :﴿ما مكني فِيهِ ربي خير﴾أي : " جعلني فيه مكينا ، قادرا من الملك ، والمال ، وسائر الأسباب "[٢]خير مما تعطونني من الخراج ، وقول ذي القرنين هذا يشبه قول سليمان عليه السلام :﴿ فَمَا آتَانِي الله خير مِمَّا آتاكُم﴾[٣] .

إلا أن قول سليمان عليه السلام أكمل ، وأعلى ، لرفعة مقام سليمان عليه السلام عن مقام ذي القرنين ، فإن الإيتاء من الله ؛ أفضل من تمكين الله لأحد عباده .

ورفْض ذي القرنين الجُعل يدل على أنه لم يكن " ذا طمع ، ولا رغبة في الدنيا ، ولا تاركا لإصلاح أحوال الرعية ، بل قصده الإصلاح ، فلذلك أجاب طلبا م ؛ لما فيها من المصلحة ، ولم يأخذ منهم أجرة ، وشكر ربه على تمكينه ، واقتداره "[٤] .

وقوله :﴿ فَأَعِينونِي بِقُوةٍ ﴾ الفاء " لتفريع الأمر بالإعانة ؛ على خيرية ما مكنه الله تعالى فيه من مالهم ، أو على عدم قبول خرجهم "[٥] .

والمراد بالقوة ما يحتاج إلى بذل قوة كالرجال ، والآلات ، وغيرها[٦] ، وقد ذكر الرازي رحمه الله قولا آخر ، أن المراد بالقوة ، أي : " بمال أصرفه إلى هذا المهم ، ولا أطلب المال لآخذه لنفسي "[٧]، وهو قول ضعيف في نظري لأمور:

لم يقل به أحد من السلف ، إضافة إلى أنه لا يناسب السياق ، كما أن رفض ذي القرنين المال أولاً ، لا يناسب بعد ذلك أن يشترطه بأسلوب آخر .

ويدل قول ذي القرنين هذا على فقهه ، حيث طلب منهم الإعانة على البناء لأنه

---

(١) الكهف : ٩٥ .

(٢) تفسير أبي السعود ٢٤٥/٥ .

(٣) النمل : ٣٦ .

(٤) تفسير السعدي ، ص٤٨٦ .

(٥) تفسير أبي السعود ٢٤٥/٥ .

(٦) وعليه جماهير المفسرين ، انظر : تفسير البغوي ١٨٢/٣ ، وابن كثير ١٩٢/٩ ، وتفسير لباب التأويل في معاني التنزيل ، علاء الدين علي بن محمد البغدادي ، والمشهور بابن الخازن ، تحقيق عبد السلام شاهين : ١٧٨/٣،{دار الكتب العلمية ،بيروت: ١٤١٥هـ } .

(٧) التفسير الكبير ١٤٥/٢١ .

يعلم أن هذا العمل شاق ، ولن يستطيعه ويتحمس له إلا من عرف أهميته ، فلو كلف به جنودا آخرين فقد يعجزون، أو يتأخر العمل ، أو لا يخلصون فيه ، وهذه أمور منتفية عن أولئك القوم ؛ لعلمهم بأهميته ، وإداركهم لضرورة سرعة الانتهاء منه ،فإن البلد بلدهم .

وقوله :﴿ أجعلْ بينكم وبينهم ردماً ﴾ الملاحظ أ م طلبوا سدا ، ووعدهم بالردم ، والردم أوثق من السد لأمور :

لأن الردم أكثر من السد[١] ، والأصل في الردم سد الشيء كله ، أو أكثره[٢] ، والسد أقل من ذلك بكثير ، فالردم سد وزيادة .

ولهذا يكون ذو القرنين " وعدهم بالإسعاف بمرامهم فوق ما يرجونه ، وهو اللائق بشأن الملوك " الصالحين أهل العدل في الأرض .

وقال تعالى :﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾[٣] .

فقوله ﴿آتونِي زبر الْحدِيدِ ﴾" المراد قطع الحديد[٤] مجتمعة إلى بعضها ، وعلى هذا تدور أقوال المفسرين ، والأصل في الزبر الاجتماع[٥] ، وكذلك إحكام الشيء وتوثيقه [٦] ، وهذه أمور اجتمعت في قطع الحديد التي وضعها ذو القرنين لبناء الردم .

وسبب تخصيص الحديد " دون سائر الآلات ؛ من الصخور ، والحطب ، ونحوها ؛ لأن الحاجة إليه أمس ، إذ هو الركن في السد ، ووجوده أعز "[٧] .

وقوله :﴿حتى إِذَا ساوى بين الصدفَين﴾ أي:" فأتوه إياها ، فأخذ يسد ا ، حتى إذا ساوى السد الفضاء الذي بين الصدفين "[٨]،والصدفين قيل : الجبلين[١] ،وقيل: جانب

---

(١) القاموس المحيط ، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، مادة (ردم) : ص١٤٣٧،{مؤسسة الرسالة ،بيروت: بدون }.
(٢) لسان العرب ، مادة (ردم) ،٢٣٦/١٢ .
(٣) الكهف : ٩٦ .
(٤) تفسير ابن كثير ١٩٢/٩ .
(٥) انظر : روح المعاني ٤٠/١٦ .
(٦) معجم مقاييس اللغة، مادة (زبر) ، ٤٤/٣ .
(٧) تفسير أبي السعود ٢٤٥/٥ .
(٨) روح المعاني ٤٠/١٦ .

الجبل[2]، وهو أدق في الوصف وتحديد الجهة ، "وإنما سمي لميله إلى إحدى الجهتين "[3].

ويفهم من فعل ذي القرنين " مساواة السد في العلو للجبلين "[4]، وقوة أولئك القوم الذين ساعدوه ، وفقه ذي القرنين حين طلب منهم المساعدة ، ولم يطلب المال ؛ لأن هذا العمل شاق وصعب ، وأما المساحة بين الجبلين فقيل فيها أقوال كثيرة تخلو من دليل ،ولهذا أُعرض عنها مكتفيا بأن جميع الأقوال التي قيلت دلت على اتساع المساحة بينهما .

وقوله :﴿ قَالَ انفُخوا حتى إِذَا جعلَه ناراً قَالَ آتونِي أُفْرِغْ علَيهِ قِطْراً ﴾ النفخ دليل على إيقاد النار تحت الحديد ، ومن البداهة عظم تلك النار التي يراد منها إيقاد الحديد وبتلك الكمية ، وهذا من جملة الأسباب التي مكن الله لذي القرنين فيها .

وأما القطر فقيل : " النحاس المذاب ، وهو قول الأكثرين ، وقيل : الرصاص المذاب ، وقيل : الحديد المذاب "[5] والأرجح أنه النحاس ، وهذه عادة القرآن في تسمية النحاس[6]كما قال:﴿ وأَسلْنا لَه عين الْقِطْرِ﴾[7]،وقال تعالى:﴿سرابِيلُهم مِن قَطِرانٍ ﴾[8] .

والمراد بجعل الحديد نارا أي :كالنار في حرارته ليكون أبلغ وأحكم في توثيق الردم ، وهذا تشبيه بليغ[9] .

" والإفراغ الصب ، فجعلت النار تأكل الحطب ، ويصير النحاس مكان الحطب ، حتى لزم الحديد النحاس "[10]،فكان أشد ما يكون البناء وأحكمه ، فسبحان من ألهم ذي

(١) الدر المنثور ٤٥٩/٥ .
(٢) روح المعني ٤٠/١٦ .
(٣) معجم مقاييس اللغة، مادة (صدف) ، ٣٣٩/٣ .
(٤) روح المعاني ٤٠/١٦ .
(٥) روح المعاني ٤١/١٦ .
(٦) انظر بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، تحقيق محمد علي النجار :٢٨١/٤،{ دار الكتب العلمية ،بيروت: بدون } .
(٧) سبأ : ١٢ .
(٨) إبراهيم : ٥٠ .
(٩) روح المعاني ٤١/١٦ .
(١٠) تفسير البغوي ١٨٢/٣ بتصرف يسير .

القرنين ، ومكن له في الأسباب .

وقال تعالى :﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾[١] .

فقوله :﴿فَما اسطَاعوا أنْ يظْهروه ﴾ " أصله استطاعوا ، فلما اجتمع المتقاربان ؛ وهما التاء والطاء ، خففوا بالحذف "[٢] والضمير يرجع ليأجوج ومأجوج[٣] ، والمعنى : أن يأجوج ومأجوج بعد بناء الردم ما قدروا على الصعود عليه لأجل ارتفاعه ، وملاسته[٤] .

وقوله :﴿ وما استطَاعوا لَه نقْباً ﴾ أي : ما استطاعوا على نقبه من أسفله لشدته ، وصلابته[٥] ، وبعدِ عرضه[٦] .

ومن اللطائف في التفريق بين اللفظين﴿اسطَاعوا﴾ ﴿استطَاعوا﴾، أنه لما " كان الظهور عليه أسهل من نقبه ، قابل كلا بما يناسبه ، فقال:﴿ فَما اسطَاعوا أنْ يظْهروه وما استطَاعوا لَه نقْباً ﴾ وهذا دليل على أ م لم يقدروا على نقبه ، ولا على شيء منه "[٧] ، وقد ثبت في الحديث الصحيح أنه في عهد النبي ﷺ فتح من ردم يأجوج ومأجوج مقدار يسير ، فقد قال ﷺ : " لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ، وحلق بإصبعه الإ ام والتي تليها "[٨] .

وقال تعالى :﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾[٩] .

فقوله :﴿قَالَ هذَا رحمةٌ مِن ربي ﴾ القائل هو ذو القرنين ، والضمير﴿هذَا﴾ يعود إلى

---

(١) الكهف : ٩٧ .
(٢) فتح القدير ٣١٣/٣ .
(٣) المحرر الوجيز ٥٤٣/٣ .
(٤) التفسير الكبير ١٤٦/٢١ .
(٥) فتح القدير ٣١٣/٣ .
(٦) المحرر الوجيز ٥٤٣/٣ .
(٧) تفسير ابن كثير ١٩٣/٩ .
(٨) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب قصة يأجوج ومأجوج ، برقم (٣١٦٨)٢٠٢٩/٥، ومسلم ، كتاب الفتن ، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج ، برقم (٢٨٨٠) ٢٢٠٧/٤.
(٩) الكهف : ٩٨ .

الردم الذي بناه[1].

وقوله :﴿فَإِذَا جاءَ وعد ربي جعلَه دكاءَ ﴾ الوعد يحتمل " أن يريد به يوم القيامة ، ويحتمل أن يريد به وقت خروج يأجوج ومأجوج "[2] وهما أمران متقاربان زمانا ، ومحتملان معنى ، " ونظر ذو القرنين إلى العمل الضخم الذي قام به ، فلم يأخذه البطر والغرور ، ولم تسكره نشوة القوة والعلم ، ولكنه ذكر الله فشكره ، ورد إليه العمل الصالح الذي وفقه إليه ، وتبرأ من قوته إلى قوة الله "[3] ،

وهذا من أعظم الأدلة على بطلان كل قول يذهب إلى أن ذي القرنين غير مسلم ، بل إن في الآية معنى أعمق من مجرد إسلامه ، فهو مجاهد يسير في البلاد وفق شرع الله ، وذلك على منهاج نبوة كانت في زمنه ، وعلمه بخروج يأجوج ومأجوج على القول بأنه الوعد الحق ؛ يؤكد ذلك ، وعلى القول بأنه يوم القيامة يزداد الأمر بيانا ، فلا يكون هذا العلم إلا عن طريق شرعي ، ولا يكون هذا التمكين إلا ببركة الاتباع للشريعة .

المطلب الثاني

اللطائف الدعوية المستنبطة من الآيات

---

(١) الكشاف ٦٩٨/٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٥٤٤/٣ .

(٣) في ظلال القرآن ٢٢٩٣/٤ .

اللطائف الدعوية المستنبطة من الآيات :

الآيات الواردة في قصة ذي القرنين تشتمل على كثير من اللطائف ، والفوائد ، والدرر ، وسأقتصر – تمشيا مع موضوع بحثي – على اللطائف التي تختص بجانب الدعوة إلى الله ، ومن ذلك ما يلي :

اللطيفة الأولى :

الجهاد في سبيل الله وسيلة من وسائل الدعوة ، فالأرض " هي أرض الله تعالى الذي له ملك السموات والأرض ، ومن يسكن فيها من الناس هم خلق لله تعـالى ، خلقهـم لعبادته وحده لا شريك له ، ولم يخلقهم لتستعبدهم الأحزاب السياسية الكافرة ، فـإذا تيقن المسلم من هذا الأصل من أصول الاعتقاد ، تبين له نعمة الله على العباد ، ورحمتـه م إذ شرع لهم جهاد الطلب ، وهو قتال الكفار في عقر دارهم ، لتكون كلمة الله هي العليا ، وتحرر الأرض من استيلاء الطواغيت كلها ، ويحرر الناس من العبودية لغـير الله تعالى "[1] ، وقد دل على ذلك قوله ﷺ " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلـه إلا الله وأن محمدا رسول الله "[2] .

وقد انخدع بعض المهزومين ضعاف الإيمان ، ومرضى القلوب ، فأ .رهم بريق الحياة المادية ، والركض خلف الغرب الكافر ، فوقعوا في المداهنة ، ثم ما لبثوا حتى رجع أمـ.رهم إلى طمس كل ما لا يتمشى مع أسيادهم في الغرب الكافر ، ومن ذلك إنكار جهاد الطلب ، فقالوا :" إن الهدف الوحيد المسموح به للقتال في الإسلام هو الدفاع عن العقيـدة ، أو عن النفس ، أو عن الملك المشروع ، أي أ ا في جميع الحالات حرب دفاعية ، وفي غـير هذه الحالات فإن الحياة الإنسانية مقدسة ولا يجوز المساس ا "[3] .

والقرآن ، والسنة النبوية القولية ، والفعلية ، وسيرة الخلفاء الراشدين ، والعصور

---

(١) السياسة الشرعية ، محمد بن عبد الله السيف التميمي :ص٣٩٩،{ دار المعالم ،بيروت : ١٤٢٨هـ } .

(٢) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنه ، أخرجه البخاري ، كتاب الإيمان ، باب " فإن تابوا وأقاموا الصلاة " برقم (٢٥) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الأمر بقتال الناس ، برقم (٢٢) .

(٣) الجهاد ، جمال البنا :ص٥٧،{ دار الفكر الإسلامي، بيروت:بدون } .

المفضلة كافية للرد على هذا القول ، وقد توعد الله القاعدين عن الجهاد رغبة عنه ، فقال: ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾(١) .

" فانظر رحمك الله إلى هذا الوعيد الشديد ، والخزي العظيم ، والوبال الأليم لمن تخلف عن الجهاد ، وتقاعد عنه ، وكره الإنفاق فيه ، وهذه الآيات وإن كانت نزلت في أقوام بأعيا م ، فإن فيها ترهيبا ، و ديدا لمن فعل كفعلهم ، وتخلف عن الجهاد الواجب ، كتخلفهم وناهيك في ذلك فعلا شنيعا ، ووعيدا فظيعا، ولا حول ولا قوة إلا بالله "(٢) .

اللطيفة الثانية :

من فتح الله عليه في باب من أبواب الخير ، فليستمسك به ، وليحرص على الازدياد منه ، فهذا ذو القرنين آتاه الله من كل شيء سببا ، فلم يتكاسل ، ولم يهدر نعمة التمكين ، بل أتبع سببا ، أي " عمل بكل الأسباب التي أعطاه الله إياها "(٣) .

وهذا من باب استغلال الطاقات ، والإمكانات ، فالدولة الإسلامية التي يمكن الله لها بموقع مهم ، أو خيرات وافرة ، أو تاريخ حافل ,أو رجال فكر وعلم ، وهذه من الأسباب التي مكّن الله للدولة الإسلامية فيها ،فتقتضي سيرة ذي القرنين العطرة أن تستثمر تلك الإمكانات ، وتوظفها لنفسها ،وكذلك الأمر ينطبق على الأفراد ، فليفتش الإنسان في نفسه ، عن طاقة معطلة ، وإمكانية تمناها غيره ؛ فليستثمرها في طريق حياته .

اللطيفة الثالثة :

سيرة ذي القرنين الجهادية ، والتمكين الذي حصل عليه ، توجب على الأمة الإسلامية أن تأخذ بجميع أسباب النصر ، وعدم الاقتصار على سبب دون سبب ، فهذه سنة الله في الأرض ، التي لن تجد لها تبديلا ، ولهذا مكن الله لذي القرنين من كل أسباب

---

(١) التوبة : ٨١ .

(٢) مشارق الأشواق إلى مصارع العشاق ، ومثير الغرام إلى بلاد السلام ، أبو زكريا أحمد بن إبراهيم الدمياطي ، تحقيق إدريس محمد علي ، ومحمد خالد اسطنبولي :١/١٠٥،{ط١، دار البشائر ،بيروت: ١٤١٧هـ } .

(٣) تفسير السعدي ص ٤٨٥ .

النصر ، حتى تجري سنته سبحانه وتعالى ، فقال تعالى : ﴿ وآتيناه مِن كُل شيءٍ سبباً﴾[1] .

فالعلم والتعليم ، وافتتاح الجامعات ، ومراكز البحوث ، وإنشاء المصانع ، والقوة المادية ، والبرامج الهادفة ، والإعلام النافع ؛ والوعي الثقافي ، كل ذلك وغيره مما يستلزم وجوده للأمة الإسلامية وهي من الأسباب التي يؤخذ ا .

اللطيفة الرابعة :

حددت الآيات هدفا للمؤمن ا اهد ، لا يتعداه إلى غيره إن أراد تمكين الله له ، ويتحدد الهدف بقول ذي القرنين : ﴿ قَالَ أما من ظَلَم فَسوف نعذبه ثُم يرد إِلَى ربهِ فَيعذبه عذَاباً نكْراً﴾[2] .

وقوله:﴿ وأَما من آمن وعمِلَ صالِحاً فَلَه جزاءً الْحسنى وسنقُولُ لَه مِن أَمرِنا يسراً﴾[3].

فقتال المؤمن يقف عند حدود إسلام الشخص،أو طاعته لأوامر الإسلام كالجزية مثلا ، فالانتقام ، وأخذ الثأر ،وطلب العلو،والطمع المادي ، والحقد النفسي ؛ هذه أمور لا توجد في حياة المؤمن ا اهد ، كما نراها اليوم في حياة التسلط الغربي على الأمة الإسلامية .

اللطيفة الخامسة :

بينت الآيات نظام الحكم الصالح ، القائم على شرع الله ، والذي لخصه لنا ذو القرنين بقوله : ﴿ أما من ظَلَم فَسوف نعذبه ثُم يرد إِلَى ربهِ فَيعذبه عذَاباً نكْراً ۞ وأَما من آمن وعمِلَ صالِحاً فَلَه جزاءً الْحسنى وسنقُولُ لَه مِن أَمرِنا يسراً ﴾[4] .

" وهذا هو دستور الحكم الصالح ، فالمؤمن ينبغي أن يجد الكرامة والتيسير ، والجزاء الحسن عند الحاكم ، والمعتدي الظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء ، وحين يجد المحسن في الجماعة جزاءَ إحسانه جزاءً حسناً ، ومكاناً كريماً ، وعوناً وتيسيراً ، ويجد المعتدي

---

(١) الكهف : ٨٤ .

(٢) الكهف : ٨٧ .

(٣) الكهف : ٨٨ .

(٤) الكهف : ٨٧-٨٨ .

جزاء إفساده ، عقوبة وإهانة وجفوة ، عندئذ يجد الناس ما يحفزهم إلى الصلاح والإنتاج ، أما حين يضطرب ميزان الحكم فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى الحاكم ، مقدمون في الدولة ، وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون ، فعندئذ تتحول السلطة في يد الحاكم سوط عذاب ، وأداة إفساد ، ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد "[1] .

اللطيفة السادسة :

حينما تكون الغلبة يصعب العدل ، إلا على من كان ممتثلا لأوامر الشرع ، فأظهرت الآيات عدل المجاهد المنتصر مع الخصوم حال الجهاد ، وأن هذا هو شرع الله فيهم ، ومن عدل ذي القرنين أن الله خيره على شرع نبي زمانهم ، فقال : ﴿ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً﴾[2] .

فاختار العدل معهم ، واختار أصلح الأمرين[3] ، فقال : ﴿ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً۞ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً ﴾[4].

ومن تمام عدله بناء الردم لهم ، وحمايتهم بعد أن دخلوا في دولته ، ولئن كان العـدل في الجهاد إحدى صور العدل ، فإن للعدل صوراً أخرى ، يحتاجها الداعية اليوم ، ومن ذلك " العدل مع العدو والصديق ، العدل في تقويم الكتب ، العدل في الحكم على الـدعوات والحركات ، العدل في النظر إلى الجهود والأعمال الدعوية ، العـدل في التعامـل مـع النصوص الشرعية ، العدل في النظرة الشمولية للإسلام ، العدل مع الواقع ، العـدل في التعامل مع الخلاف "[5] .

اللطيفة السابعة :

عالجت الآيات ركون المؤمن المجاهد إلى الدنيا ، حيث إنه يمر على بلدان مختلفة ،

---

(1) في ظلال القرآن ٢٢٩١/٤ .

(2) الكهف : ٨٦ .

(3) التفسير الكبير ١٤٣/٢١ .

(4) الكهف : ٨٧-٨٨ .

(5) من أخلاق الداعية ، فضيلة الشيخ سلمان بن فهد العودة :ص٣٨-٦٥باختصار شديد ،{ط١،الوطن ،الرياض:١٤١١هـ }. لم أذكر إلا عناوين العدل ، ومن أراد التوسع فليرجع إلى الرسالة .

تفوق موطنه خضرة ونضرة وجمالا ، مما قد يجعله يركن لها ووتتوقف مسيرة جهاده ، فجاءت الآيات تعالج هذه الظاهرة ، وتربي المسلم على عدم الركون إلى الدنيا ، وتحثه على مواصلة جهاده ودعوته حتى يلقى الله ، لا تحده حدود ، ولا تغره دنيا ، فمسيرة ذي القرنين إلى مغرب الشمس ، ثم سار إلى مطلعها ، ومن ثَم إلى مجمع السدين ، يدخل الناس في عبادة الله ، ويأمرهم بشرعه ، ويقيم فيهم حكمه ، فهو ـذا السلوك يرسم طريقا واضحا للدعاة إلى الله ، وا ـاهدين في سبيله ، يسيرون في مشارق الأرض ومغار ـا ، يعيدون الناس إلى ر ـم ، بعد أن اجتالتهم الشياطين ، وذلك على وفق شرع الله ، وفي حدود قدر ـم فإن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها ، وقد دلت الآيات أيضا على أن الداعية يلاقي من الإغراءات ما يصرفه عن مقصده الأعظم في دعوته ، فإن رضي ـا فقد رضي بالحياة الدنيا ، وإن استمر في دعوته وقال : ما آتاني الله من العلم والهدى خير مما آتاكم من المال والدنيا ؛ جاءه تأييد الله ، ولهذا كان جهاد أعداء الله " في الخارج فرعا على جهاد العبد نفسه في ذات الله ، وكان جهاد النفس مقدما على جهاد العدو في الخارج ، وأصلا له ، فإنه ما لم يجاهد نفسه أولا لتفعل ما أمرت به ، وتترك ما ـيت عنه ، ويحار ـا في الله،لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج "[1] .

اللطيفة الثامنة :

وصول ذي القرنين لقوم لا يكادون يفقهون قولا ، ومن ثم استطاعته التفاهم معهم ، عن طريق الترجمة على قول بعض المفسرين[2] ، يؤكد أهمية الترجمة في الدعوة الإسلامية ، وتتركز أهمية الترجمة في ناحيتين :

الأولى :إيصال الدعوة إلى أقوام لم تبلغهم.

والثانية : دفع الشرور عن الأمة الإسلامية .

وكم من اللغات اليوم تعتبر نادرة،ويصعب التعامل مع أهلها؛ لمحدودية لغتهم، وعدم انتشارها ، فينطبق عليهم سياسة ذي القرنين في تعامله مع الذين لا يفقهون قولا.

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ، محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، وعبد القادر الأرناؤوط :٣م٦،{ط١٤،مؤسسة الرسالة ،بيروت: ١٤٠٧هـ } .

(٢) المحرر الوجيز ١٤١/٣ .

اللطيفة التاسعة :

الداعية لا يرهبه ما لدى الأعداء من إمكانات ، ومن قوة ، ولا يصده ذلك عن دعوته ، كما أنه لا يعتبر عائقا أمام الأمة الإسلامية في جهادها ، وفتوحا ا ، فذو القرنين ثبت لديه أن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض ، كما قال تعالى : ﴿ ـإن يأجوج ومأجوج مفْسِدونَ ـفي الْأرضِ ﴾[1] .

ووصلت إليه أخبار من إفسادهم ، وقو م ، وشدة بطشهم ، ومع ذلك لم يرعبه ذلك ، وبنى السد حائلا دو م ، فقهر فسادهم ، وأبطل شرهم .

واليوم يسمع الداعية أخبارا كثيرة عن بطش بعض الدول ، وشدة محاربتها للإسلام ، ولتبليغ دين الله ، حتى تصل الأخبار إلى ا تمع من حوله ، فتقتضي سيرة ذي القرنين المسلم ألا يكون ذلك عائقا عن الدعوة ، والبلاغ المبين ، إلا " أنه يلزم الدعاة اتخاذ جانب الحذر ، والحيطة ، والتكتم ، حتى يشتد ساعدهم ، ويكثر أتباعهم ، ولا يتحقق ذلك إلا إذا اتبع الدعاة مناهج وأساليب دقيقة للحماية في كل خطوة يخطو ا ، في اختيار من تقدم لهم الدعوة أولا ، وكيف ، ومتى ، وأين ؟ وما هي الأساليب التي يتم التعامل ا مع المستجيبين ؟ "[2] .

اللطيفة العاشرة :

من السياسات النافعة في الأمم التي تفتحها الأمة الإسلامية ؛ أن تستغل إمكانا ا لنفع مجتمعها ، وهذا ما أظهرته الآيات ؛ فلما طلب القوم من ذي القرنين أن يبني بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدا ، لم يطلب منهم مالا ، بل طلب أن يعينوه بالقوة،فقال:﴿ ما مكني ـفِيهِ ربي خير فَأَعِينونِي ـبِقُوةٍ﴾[3] .

وهذا العمل له أكبر الأثر على إنجاح العمل ، وسرعة إنجازه ، كما أن له أثرا نفسياً على أولئك القوم ، فيرون فيه صدق الوعد ، وبذل النصح ، والورع الحقيقي عن

---

(١) الكهف : ٩٤ .

(٢) في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية ، الدكتور إبراهيم أحمد :ص٣٣،{ط١،سلسة كتاب الأمة ، تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر : ١٤١٧هـ } .

(٣) الكهف : ٩٥ .

استغلالهم بدون مقابل ، وعلى هذا أيضا ينبغي أن يسير الداعية في دعوته ، حيث يربي في نفوس المستجيبين للدعوة روح العمل في واقعهم ، ويعمل على يئتهم لاستكمال المشوار الدعوي .

والفرق واضح بين فتح ذي القرنين للبلاد ، وبين الاحتلال الغاشم للبلاد الإسلامية في زماننا على أيدي الصليبين " حيث قدمت جيوش الاحتلال العسكري إلى العالم الإسلامي ، تقودها العقلية البربرية الصليبية ، فهي تتمتع بقسط كبير من الدهاء ، والخبث ، وهي تعرف سلفا أن لها مهمة أعظم من مهمة أجدادها ، وأن نجاح هذه المهمة يتوقف على الدقة في تنفيذ الخطة الجديدة ، ومن ثم توزعت عساكر الصليبين الجدد العالم الإسلامي ، عدا أجزاء قليلة ، وابتدأت دوائر الاستعمار[1] تنفذ مخططها المرسوم ، وتتلخص جهود هذا النجاح فيما يلي :

١ ـ القضاء على الحركات الإسلامية الجهادية .

٢ ـ إلغاء المحاكم الشرعية ، وإحلال القوانين الوضعية محلها ، إذ لا تكاد جيوش الاحتلال تضع أقدامها على أرض إسلامية حتى تبادر ذا العمل ؛ لأ م يدركون نتائجه البالغة .

٣ ـ القضاء على التعليم الإسلامي ، والأوقاف الإسلامية .

٤ ـ استخدام الطوائف غير الإسلامية ، وإحياؤها .

٥ ـ اصطناع العملاء من أبناء المسلمين "[2]، وكذلك " تشكيك المسلمين في دينهم ، وتشجيع الحركات والمذاهب المعادية للإسلام ، ونشر الفساد الأخلاقي ، والجنس والدعارة ، والخمور والمخدرات ، والأدب المكشوف ، وتشويه صورة العلماء ، والغزو بأقمار البث ، والجواسيس والعملاء "[3] .

اللطيفة الحادية عشرة :

---

(١) " والأولى أن يقال : الاستعباد ، أو الاحتلال ، أو الاغتصاب ، أو التخريب ، ونحو ذلك . انظر : المستدرك على معجم المناهي اللفظية ، سليمان الخراشي :ص٢٣٣،{ط١، دار طيبة،الرياض: ١٤٢٧هـ }.

(٢) العلمانية ، ص ٥٣٨ باختصار .

(٣) مخطط تدمير الإسلام وإبادة المسلمين في العصر الحديث ، نبيل بن عبد الرحمن المحيش : ص٣٠-٣٦باختصار،{دار المنار ،الخرج: ١٤١٢هـ }.

الداعية مع تردده على مجتمعات يرى أ ا بحاجة إلى إصلاح ، ولها تأثيرها الرجعي على حياته ، وإيمانه ، وتضحياته ، إلا أنه يعمل على ألاّ يذوب حماسه ، وغيرته لدعوته ، وإنما يزداد تقدما ، وتكسبه الأيام خبرة ، ويستفيد من مخالطته زيادة دراية ، وسبراً للسنن الكونية ، فهذا ذو القرنين بلغ مغرب الشمس ، ثم سار إلى مطلعها ، يمر على أنواع مختلفة من ا تمعات متعددة الثقافات ، متباينة العادات ، ومع ذلك كانت سيرته فيهم واحدة ، ولم تغيره تلك الأسفار ، وكثرة التنقلات ، وهذا تفسير قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾[1] .

فقوله ﴿ كذلك ﴾ على قول لبعض المفسرين أن المراد : " كذلك فعل معهم كفعله مع الأولين أهل المغرب ، فأوجز بقوله كذلك "[2] .

فلم يتخل عن مبادئه ، ودعوته ، وجهاده ، ولعل السر في ذلك ، والله أعلم ، يرجع إلى النفسية التي يسير ا ذو القرنين ، فلم يسر إلى البلدان يدعوها ، ويفتحها ، بنفسية مهزوزة ، تبحث عن الكمال ، وتخجل من الا ام ، وإنما سار إليهم يقوده الإيمان ، ويحدوه اليقين ، بأن ما عنده من تمكين خير مما عندهم .

اللطيفة الثانية عشرة :

العزة الإيمانية سمة ظاهرة في قول ذي القرنين:﴿ما مكني فِيهِ ربي خير ﴾[3] .

فلم يساوم فيما لديه من علم ، وتمكين من الله له ، ورأى أنه لا يقابل بمال مهما كان ذلك الخرج ، وأفهم من ذلك العرض أنه كان عرضا مغريا ، ويدلني على هذا الفهم؛ أ م طلبوا بناء سد ، ومعرفتهم الجيدة بيأجوج ومأجوج ، والتي تجعلهم يبذلون كل ما يملكون مقابل السلامة من إفسادهم .

وعلى هذا يكون الداعية الصادق في دعوته ، فإنه يملك ما لا يقابل بثمن ؛ إنه الإيمان ، واليقين بالله سبحانه ، وهذا الشعور يدفع الداعية إلى الدعوة لجميع أمور الإسلام ، ولا يتنازل عن شيء منها ، ولا يخجل من ذكر بعضها ، أو حتى من تصرفات

---

(١) الكهف : ٩١ .

(٢) المحرر الوجيز ٥٤١/٣ .

(٣) الكهف : ٩٥ .

من أخطأ من أهلها ؛ لأن الخطأ في الأفعال لا يستلزم الخطأ في المبادئ والقيم ، فإن الأفعال تسترقها الشياطين ، أما المبادئ والقيم الإسلامية فحرست بقبس من نار لمن اقترب منها .

اللطيفة الثالثة عشر :

تنوع البيئات التي وصل إليها ذو القرنين ، واختلاف طبائعها ، يجعل الداعية يضع في مهماته دراسة بيئات ا تمعات ، حتى يصل من خلالها إلى استجابة الكثيرين بدلا من وقوعه في مصادمات ، تنعكس تبعا ا على تأخر دعوته ، وعزوف ا تمع عنها .

ولقد أدرك خطورة هذه الطريقة المستشرقون ، فصاروا يجوبون البلاد الإسلامية طولا وعرضا،يدرسون صفات كل مجتمع،ويحاولون الوصول لنتائج عملية ؛ لزعزعة الإسلام فيها ، فيأتي من بعدهم بقوته العسكرية أحيانا ،وبقوته المعنوية أحيانا كثيرة، ليكمل مشوارهم ، وينفذ خططهم ، فمثلا " حاول المستشرقون في أبحاثهم ،أن يبعثوا التاريخ السابق للإسلام في كل دولة إسلامية،ففي مصر حاولوا إحياء الآثار الفرعونية القديمة ،وفي بلاد الشام سعوا جاهدين ربط المسلمين بالحضارات الوثنية : فينيقية ، وآرامية ، عن طريق إحياء آثارها التاريخية البالية ،وفي تركيا حاولوا ربطها بالتاريخ الطوراني القديم ،وكذلك الأمر في جزيرة العرب ،وشبه القارة الهندية "[١].

اللطيفة الرابعة عشر :

الأخلاق الإسلامية العالية ، الرفيعة ، أداة لفتح البلدان ، كما أن السيف أداة ، فتعلق تلك القرية - التي لا يكاد أهلها يفقهون قولا لغيرهم ، ولا غيرهم يفقههم من باب أولى - بذي القرنين ، حتى طلبوا منه طلبا صعبا ، وشكوا إليه هماً كان يقلقهم ، وهذا لا يكون بالتأكيد إلا بعد أن رأوا منه الأخلاق العالية ، والتي نصها ﴿وأما من آمن وعمِلَ صالِحاً فَلَه جزاءً الْحسنى وسنقُولُ لَه مِن أمرِنا يسرا﴾[٢] .

و ذه الأخلاق الإسلامية يستطيع الداعية الوصول إلى قلوب الناس ، وفي هذا الزمن

---

(١) العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب ، محمد حامد الناصر :ص٥٤٤،{مكتبة الكوثر ،الرياض: ١٤١٧هـ } ، وانظر ملخصا عن أهدافهم في العلمانية ، ص٥٤٤ .

(٢) الكهف : ٨٨ .

الصعب بالذات ، يسهل تملك الشعوب غير المسلمة بهذا السلاح ، لأنها ترى الفضاء من حولها قد ملئ ظلما وجورا .

اللطيفة الخامسة عشر :

العفة عن أموال الناس منهج دعوي ، يأخذه الداعية مستمسكا له ، فقد عرض القوم على ذي القرنين مالا على أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدا ، فتورع عنه ، ومهما كان سبب تعففه إلا أن ذلك لا يخرج عن أن يكون تدينا لله سبحانه وتعالى ، فملك بهذا قلوبهم ، وكسب ودهم ، فأعانوه على العمل ، وآتوه زبر الحديد ، ينقلونها ، زبرة زبرة[1] ، وفي توقعي لو أخذ ذو القرنين منهم مالا ، لما أعانوه ، ولو فعلوا لم يخلِصوا .

والتعفف يتعلق بما له وجه حق لك ، لأن ما لا حق لك فيه فأخذه ظلم ، وتعفف ذي القرنين كان من النوع الأول ، بدلالة قرينة قوله تعالى عنه : ﴿ قَالَ ما مكني فِيهِ ربي خير فَأَعِينوني بِقُوةٍ أجعلْ بينكم وبينهم ردماً﴾[2].

فيفهم من ذلك أن ترفعه كان اكتفاء بفضل الله الذي مكنه فيه ، وليس لأنها لا تحل ، إذ لا يمدح على ترك الحرام .

اللطيفة السادسة عشر :

في اختلاف الضمير في قوله:﴿انفُخوا﴾ وقوله : ﴿ آتوني أُفْرِغْ علَيهِ قِطْراً﴾[3].

أخذ بعض المفسرين[4] من ذلك أن ذي القرنين نسب الفعل لنفسه في الإفراغ لأنه العمدة في العمل ، باعتبار أنه شاركهم وأشرف بنفسه على سير العمل ، وهذا يربي في نفس الداعية مخالطته لأعمال الناس ، والتواضع لهم ، كما ينمي في نفس الداعية الإشراف على مشاريعه بنفسه ، فلا يجمع بين الإتقان للفكرة والحماس لها ؛ أحد مثل صاحبها ، ولا يتعارض هذا مع حسن التفويض في العمل،لأن التفويض " إسناد بعض العمل

---

(١) القطعة الضخمة منه ، انظر : المعجم الوسيط مادة (زبر) ٣٨٨/١ .

(٢) الكهف : ٩٥ .

(٣) الكهف : ٩٦ .

(٤) انظر : تفسير أبي السعود ٢٤٦/٥ .

إلى غيرك تحت إشرافك ومسئوليتك"[1]. وهذا لا يلغي وجودك ، ونزولك للميدان.

اللطيفة السابعة عشر :

نجاح الداعية في دعوته يرتبط بما معه من علم شرعي ، فكل دعوة لا تقوم على العلم الشرعي عرضة للاجتهادات القابلة للرد ، وقد يؤثر ذلك على الدعوة في جعلها غير مقنعة إلى حد كبير ، ونحن في زمن الجميع يحاول تمرير سلعته بالحلف الكاذب ، ويظهر علم ذي القرنين من خلال ما يلي :

١ ـ تفريقه بين الظالم لنفسه ، ومن آمن وعمل صالحا ، فقال: ﴿ أما من ظَلَم فَسوف نعذبه ثُم يرد إِلَى ربهِ فَيعذبه عذَاباً نكْراً۞ وأما من آمن وعمِلَ صالِحاً فَلَه جزاءً الْحسنى وسنقُولُ لَه مِن أَمرِنا يسراً ﴾[2].

فدقة التفريق بين الصنفين قائمة على علم شرعي .

٢ ـ قوله : ﴿ثُم يرد﴾ يتضمن الإيمان باليوم الآخر من البعث ، والنشور ، والحساب ، والجزاء ، ثم الجنة أو النار ، فيدل على درايته بيوم القيامة ، وما يلاقيه المشرك الظالم لنفسه من جزاء نكرٍ ، وعدم استثنائه بمشيئة الله لأن الكافر خالد مخلد في النار ، كل ذلك يعطينا ما لديه من علم شرعي .

٣ ـ قوله : ﴿من آمن وعمِلَ صالِحاً﴾ فلم يكتف بالقول حتى قرن معه العمل ، واجتماع القول مع العمل حقيقة الإيمان ، وهذا لا يكون إلا بدراية شرعية .

٤ ـ قوله : ﴿ فَإِذَا جاءَ وعد ربي جعلَه دكاءَ وكَانَ وعد ربي حقّاً﴾[3] .

يعطينا علمه بعلامات آخر الزمن ، وما سيحدث فيه ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وإفسادهم في الأرض[4] .

اللطيفة الثامنة عشر :

---

(١) حتى لا تكون كلا ، طريقك إلى التفوق والنجاح ، الدكتور عوض بن محمد القرني :ص١٦١،{ط١،دار الأندلس الخضراء ،جدة: ١٤١٨هـ } .

(٢) الكهف : ٨٧-٨٨ .

(٣) الكهف : ٩٨ .

(٤) وهذا على القول بأن الوعد المراد هنا هو : خروج يأجوج ومأجوج ، وعلى القول بأنه يوم القيامة فيه أيضا دلالة على علم ذي القرنين لكن بصورة أقل ، انظر القولين في المحرر ٥٤٤/٣ .

إنشاء ذي القرنين للسد يجعل الداعية يفكر بمشاريع كبرى من بين اهتماماته ، يخطط لها ، ويسعى في تنفيذها ، فبتجوال ذي القرنين مشارق الأرض ومغار ا ، يؤكد لنا أنه قام بمشاريع إصلاحية كثيرة ؛ وذلك لتعدد ا تمعات ، وتنوع حاجات الناس ، لكن ذكر الله لهذا المشروع العظيم ، يجعلنا نجزم بأن ذي القرنين لم يقم بمشروع بمثل هذه الضخامة .

فعمر الداعية ينبغي أن يتخلله مشاريع صغيرة ينتفع ا الناس ، إلا أن ذلك لا يحول بينه وبين صناعة مشروع رائد في مجاله ، فقد استخدم ذو القرنين ما مكنه الله فيه ، وهو تخصص الداعية،وإبداعه في تخصصه،وقد حفظت الأمة لعمر بن الخطاب(١) ﷺ تدوين التاريخ الهجري، والدواوين ،كما حفظت لعمر بن عبد العزيز(٢) ﷺ كتابة السنة النبوية ،ولزبيدة(٣) طريقها الذي صنعته لحجاج العراق، وما زالت الأمة تنتظر مشاريع عملاقة .

---

(١) أبو حفص عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى القرشي العدوي ، وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة ، وكان من أشرف قريش،وإليه كانت السفارة في الجاهلية،وذلك أن قريشا كانوا إذا وقع بينهم حرب،أو بينهم وبين غيرهم بعثوه سفيرا ، أسلم بعد تسعة وثلاثين رجلا ، وعشرين امرأة ، فكمل الرجال به أربعين رجلا ، شهد المشاهد،وفتح الفتوح ومصر الأمصار ،وأدر العطاء على الناس ، ودون الدواوين ، ورتب الناس على سابقتهم في العطاء ،وله في سيرته أشياء عجيبة ، عظيمة ، لا يستطيعها ، إلا من وفقه الله تعالى ، فرضي الله عنه ، وأرضاه بمنه وكرمه ، وتوفي سنة ثلاث وعشرين للهجرة . انظر : أُسد الغابة في معرفة الصحابة ، عز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري ، تحقيق عادل أحمد الرفاعي :١٥٦/٤، {ط١، دار إحياء التراث العربي ،بيروت: ١٤١٧هـ } .

(٢) أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموي قرشي ، الإمام ، الحافظ ، القدوة ، الزاهد ، العابد ، الخليفة الراشد ، وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ﷺ ، مكث في المدينة في أول حياته ، وتلقى العلم عن كبار التابعين فيها ، شهد له بالفضل العلماء في زمانه ، وتولى الخلافة سنة خمس وتسعين ، وتوفي سنة إحدى ومائة للهجرة . انظر : سير أعلام النبلاء /١٢٠ ، والطبقات الكبرى ٣٣٠/٥ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين ، عفت وصال حمزة ،{ دار ابن حزم ،بيروت: ١٤١٨هـ } .

(٣) زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس وهي أم الأمين محمد بن هارون الرشيد ، كان لها معروف كثير ، فقد سقت أهل مكة الماء بعد أن كانت الراوية عندهم بدينار ، وإنه كان لها مائة جارية يحفظن القرآن ،وكان يسمع في قصرها كدوي النحل من قراءة القرآن ، وإن اسمها أمة العزيز ، ولقبها جدها أبو المنصور زبيدة لبضاضتها ونضار ا ، أعرس ا هارون الرشيد في ذي الحجة في سنة ١٦٥ ،توفيت سنة ست عشرة ومائتين ببغداد ، انظر : وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ، تحقيق إحسان عباس :٣١٤/٢،{ دار الثقافة ،بيروت: بدون } .

اللطيفة التاسعة عشر :

الهمة العالية زاد الداعية ، وقد بلغت همة ذي القرنين بلوغ مغرب الأرض ، ومشرقها ، وهذا يستدعي هدفاً محدداً ، وعملاً دؤوباً ، وجهداً وسرعةً للوصول للهدف ، فهو يسابق الزمن في سيره ، يؤثر في تحقيق هدفه التأخر ، كما يؤثر فيه حب الراحة ، ونشوة النصر ، وبسطة الملك ، لكنه فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ، وأسمى الهمم تلك الهمة التي تتعلق بنشر دين الله في الأرض حتى لا يبقى فيها إلا مؤمن .

اللطيفة العشرون :

الداعية جعل على عاتقه محاربه الفساد بجميع صوره ، فكما يحارب الشرك ، وهو فساد القلوب ، يحارب أيضا الإفساد في الأرض ، والأذى للغير ، فقد ذُكر من صور إفساد يأجوج ومأجوج أقوال كثيرة مرجعها إلى التخريب في كل ما لدى غيرهم ، فلم يتغافل عنه ذو القرنين ، بل لما وصله الأمر ، أعد له عدته ، وقضى عليه ،وقال:﴿ أجعلْ بينكم وبينهم ردماً﴾(١) .

لأن الأرض يجب أن تقوم على الصلاح ، والذي رأسه التوحيد ، وفرعه نفع الناس في دنياهم .

اللطيفة الحادية والعشرون :

كرم الداعية يحتم عليه أن يعطي الناس أفضل مما يتوقعون ، وأكثر مما يطلبون؛لأن رسالته أعظم مما يظنون ، فقد طلب القوم من ذي القرنين بناء سد ، فقالوا :﴿إن يأجوج ومأجوج مفْسِدونَ ـِفي الْأرضِ فَهلْ نجعلُ لَك خرجاً علَى أنْ تجعلَ بيننا وبينهم سداً﴾(٢).

فهذا غاية ما يطلبون ، لكنه بنى لهم ردما ، وهو أشد من السد ، وقد كان النبي ﷺ " يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة "(٣) ، وكان في قضائه دينه يقول:" خياركم أحسنكم

---

(١) الكهف :٩٥ .

(٢) الكهف :٩٤ .

(٣) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفضائل ،باب ما سئل النبي ﷺ شيئا فقال : لا ،برقم (٢٣١٣)١٨٠٦/٤ .

قضاء "[1] .

اللطيفة الثانية والعشرون :

ما عند المسلم من حق ، ليس كافيا في دخول الناس ، واستجابتهم له ؛ مالم يبذل الأسباب في تبليغ دعوته ، ولا يعتمد على ما مكّنه الله فيه ، باعتبار أنه حق ، وسيحقه الله ، فقد كان ذو القرنين مسلما موحدا ، يعلم كما يعلم الموحدون أن دين الله باق في الأرض ، ومع ذلك بذل الأسباب ، وسير الجيوش ، وأتعب نفسه ، ووصل لمغرب الأرض ، ثم مشرقها ، ثم بين السدين ، معتمدا على الله ، ثم على ما لديه من أسباب مكّنه الله فيها ، ولهذا تكرر قول الله تعالى عنه: ﴿ فَأَتبع سبباً ﴾[2] .

اللطيفة الثالثة والعشرون :

"التخطيط شرط للسير في الحياة بنظام،وتجنب الفوضى، والاضطراب في الحياة "[3] .

مسيرة ذي القرنين للمغرب أولا ، ثم للمشرق ، ثم لما بين السدين ، وإن لم يستطع المفسرون أن يحددوا سبب ترتيبها على وجه الدقة ، إلا أن لدي من القناعة الشيء الكبير ؛ بأ ا لم تكن عبثا ، وبدون دراسة لخطة السير ،خاصة وأن الأمر يتعلق بافتتاح البلدان .

فمن الدروس في هذا الجانب أن الداعية يخطط لأمر دعوته ، فهي أيضا فتح للقلوب ، وسأذكر أهم المبادئ في التخطيط حتى تكتمل الفائدة :

" ١ ـ لا تباشر التخطيط إلا بعد الحصول على قدر كاف من الراحة ، والهدوء ، واعتدال المزاج ، والشعور بالثقة ، وعدم القلق ، والتوتر والإحباط .

٢ ـ توفر المعلومات عن الواقع القائم ، وعن العمل الذي تسعى لإقامته ، وإيجاده .

٣ ـ تحديد الأهداف المرادة من العمل الذي تخطط له .

٤ ـ معرفة وحصر ما تحتاج إليه من وسائل ، وإمكانيات بشرية ، ومادية لتنفيذ الخطة .

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب الوكالة ، باب وكالة الشاهد والغائب ، برقم (٢١٨٢) ٨٠٩/٢، ومسلم ، كتاب المساقاة ، باب من استلف شيئا فقضى خيرا منه ، برقم (١٦٠٠) ١٢٢٥/٣.

(٢) الكهف : ٨٥ .

(٣) حتى لا تكون كلا ، ص٣٧ .

٥ ـ تحديد زمان ، ومكان تنفيذ العمل ، وإنجازه "[١] .

٦ ـ " سر إدارة الوقت الناجحة ؛ أن تتذكر أن هناك وقتا كافيا لتفعل ما هو مهم فقط ، ومن ثم تصبح المشكلة في تحديد المهم ، وترتيب الأولويات "[٢] .

اللطيفة الرابعة والعشرون :

من محاصرة ذي القرنين ليأجوج ومأجوج بالردم نستفيد أن علاج بعض الشرور يكون بمحاصر ا ،وعدم السماح لها بالتوسع،ولعل هذا يكون علاجا نافعا في بعض المظاهر التي يصعب القضاء عليها،فلا أقل من أن تبقى في حيزها ، وداخل حدودها.

اللطيفة الخامسة والعشرون :

من فقه الدعوة ؛ الموازنة بين المصالح المترتبة على العمل الدعوي ، والمفاسد الناتجة عنه ، ومن ثم فعل أحدهما ، فذو القرنين كان أمامه أمران ، وهما :

١ ـ إما قتال يأجوج ومأجوج ، لأنه يريد ملك مشارق الأرض ومغار ا .

٢ ـ وإما بناء السد دو م .

وفعل ما يراه الأصلح لدعوته ، وهذا هو فقه الدعوة[٣] .

اللطيفة السادسة والعشرون :

لما استحكم ضرر أمة يأجوج ومأجوج عزلها ذو القرنين عن مخالطة سائر ا تمعات من حولهم ، مما يرسخ لدينا أمرا مهما في الدعوة ؛ وهو أن مخالطة المفسدين في الأرض تجلب الضرر ، فإما أن يصيبنا بعض ضررهم ، وإما أن تنتقل إلينا بعض أخلاقهم ، والتي يعتبر العلو في الأرض أحدها .

وقول النبي ﷺ " مثل الجليس الصالح ، والجليس السوء ؛ كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن تبتاع منه ، وإما أن يحذيك ، وإما أن تجد منه ريحا خبيثة ، ونافخ

---

(١) حتى لا تكون كلا ، ص ٣٧ . باختصار

(٢) فن إدارة الوقت ، ويليه البرنامج التفصيلي لطالب العلم ، الدكتور عبد الله بن مبارك البوصي :ص٦١،{ط٢،دار طيبة ،الرياض: ١٤٢٥هـ } .

(٣) ممن تكلم عن المصالح والمفاسد ، الشاطبي في الموافقات ، ويمكن مراجعة الفهرس الذي وضعه المحقق مشهور ابن حسن ، فقد جمع كلام الشاطبي عنها . انظر : الموافقات {طباعة خيرية خاصة ، توزيع وزارة الشؤون الإسلامية بالمملكة العربية السعودية } ٣٩٦/٦ .

الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحا خبيثة "[1]،فهذا كما ينطبق على الأفراد ينطبق أيضا على ا تمعات ،وهذا يحكمه مقدار المخالطة ، ويلعب دورا فيه قدر الضرر .

اللطيفة السابعة والعشرون :

لم تصب الدعوة الإسلامية اليوم في مقتلها بمثل ما أصيبت من عموميات الألفاظ ، فكم دخلها داعيةُ إفسادٍ عن طريق ﴿لا إِكْراه فِي الدين﴾ ؟ وقد كان أحد وسائل تعطيل الجهاد الأمر بالبر ، ونشر الأخلاق والتسامح ، وغير ذلك من الألفاظ العامة التي يـراد منها غير ظاهرها.

ولهذا فالداعية عليه أن يكون مدققا في ألفاظه ، فنلاحظ أن ذي القرنين لما كان يتكلم عن الظلم ، والذي هو الشرك قدم العذاب الدنيوي ، فقال : ﴿ أما من ظَلَم فَسوف نعذبه ثُم يرد إِلَى ربِهِ فَيعذبه عذَاباً نكْراً﴾ [2] .

ترهيبا له في الدنيا قبل الآخرة .

ولما تكلم عن الإيمان قدم الجزاء الأخروي ، فقال : ﴿ وأما من آمن وعمِلَ صالِحاً فَلَه جزاءً الْحسنى وسنقُولُ لَه مِن أَمرِنا يسراً﴾[3] .

ترغيبا للمؤمن فيما عند الله ؛لأنه أبقى ؛ ولأن المؤمن قد لا يأخذ أجر إيمانه في الدنيا .

وهذا التدقيق هو الذي جعل النبي ﷺ يرد على الخطيب الذي قال: " ومن يطع الله ورسوله فقد رشد،ومن يعصهما فقد غوى "،فقال له النبي ﷺ :" بئس الخطيب أنت ،قل : ومن يعص الله ورسوله "[4]،وقال" جماعة من العلماء : إنما أنكر عليه لتشريكه في الضمير المقتضي للتسوية ، وأمره بالعطف تعظيما لله تعالى بتقديم اسمه "[5] .

اللطيفة الثامنة والعشرون :

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب البيوع ، باب في العطار وبيع المسك ، برقم (١٩٩٥) ٧٤١/٢، ومسلم ، كتاب البر والصلة ، باب استحباب مجالسة الصالحين ، برقم (٢٦٢٨) ٢٠٢٦/٤.

(٢) الكهف : ٨٧ .

(٣) الكهف : ٨٨ .

(٤) أخرجه مسلم ، كتاب الجمعة ، باب تخفيف الصلاة والخطبة ، برقم (٨٧٠) .

(٥) انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم ، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي : ١٥٩/٦،{ط٢، دار إحياء التراث العربي ،بيروت: ١٣٩٢هـ }.

الداعية أثناء ممارسته للدعوة ، ونزوله لميدا ا الرحب ، وبذله في سبيل الله ، يسمع عبارات الثناء ، ويرى تقدير الناس له جزاء لعمله ، وهي مزلة من عقبات إبليس ، خاصة وأن هذا الأمر يتجاذبه طرفان ، أحدهما من الله ، والآخر من الشيطان ، فالذي من الله أ ا عاجل بشرى المؤمن ، والذي من الشيطان هو العجب ، ورؤية النفس ، الذي لا شيء أفسد للأعمال منهما .

والفرق بينهما يعرف من خلال ما يترتب عليهما ، فإن كان " مطالعا في عمله منة الله عليه به ، وتوفيقه له فيه ، وأنه بالله لا بنفسه ، ولا بمعرفته وفكره وحوله وقوته ، بل هو بالذي أنشأ له اللسان والقلب والعين والأذن ، فالذي من عليه بذلك هو الذي من عليه بالقول والفعل ، فإذا لم يغب ذلك عن ملاحظته ، ونظر قلبه ؛لم يحضره العجب الذي أصله رؤية نفسه ، وغيبته عن شهود منة ربه وتوفيقه وإعانته ، فإذا غاب عن تلك الملاحظة ، وثَبت النفس ، وقامت في مقام الدعوى ، فوقع العجب ، ففسد عليه القول والعمل ، فتارة يحال بينه وبين تمامه ، ويقطع عليه ، ويكون ذلك رحمة به حتى لا يغيب عن مشاهدة المنة والتوفيق ، وتارة يتم له ولكن لا يكون له ثمرة ، وإن أثمر أثمر ثمرة ضعيفة غير محصلة للمقصود ، وتارة يكون ضرره عليه أعظم من انتفاعه ، ويتولد له منه مفاسد شتى بحسب غيبته عن ملاحظة التوفيق ، والمنة ، ورؤية نفسه "[1] .

وهذا لا يكون إلا بالتربية الإيمانية ، فذو القرنين لما بنى الردم ،ورأى أمام عينيه حصنا حصينا،ودرعا واقيا،لم يتوقع القوم أن يحصل لهم مثل ذلك،ظهرت آثار شهوده منة الله عليه ، وتربيته الإيمانية ، فقال:﴿ هذَا رحمةٌ مِن ربي ﴾ .

اللطيفة التاسعة والعشرون :

ميز الله هذه الأمة بعدم التنطع ، فمعاملتهم تكون بناء على الظاهر ، فمن أظهر خيرا قُبل منه ، ومن أظهر غير ذلك جزي بما يستحق شرعا ، فقول ذي القرنين : ﴿ أَما من ظَلَم فَسوف نعذبه ثُم يرد إِلَى ربهِ فَيعذبه عذَاباً نكْراً۝ وأَما من آمن وعمِلَ صالِحاً فَلَه جزاءً الْحسنى وسنقُولُ لَه مِن أَمرِنا يسراً ﴾[2] .

---

(١) الفوائد ، محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية :ص١٥٢،{ط٢،دار الكتب العلمية ،بيروت: ١٣٩٣هـ } .

(٢) الكهف : ٨٧-٨٨ .

تطبيق عملي لمعاملة الناس بناء على ما ظهر منهم ، يشهد له قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه" إن أناسا كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ وإن الوحي قد انقطع ، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم ، فمن أظهر لنا خيرا أمناه وقربناه ، وليس إلينا من سريرته شيء ، الله يحاسبه في سريرته ، ومن أظهر لنا سوءً لم نأمنه ، ولم نصدقه ، وإن قال :إن سريرته حسنة "[1] .

اللطيفة الثلاثون :

تختلف الأحوال والظروف الدعوية التي تمر بالداعية ، وقد يتطلب البعض منها أخذاً بالقوة ، وتقديماً للقسوة ، فمن فقه الداعية أن يستعمل القسوة في موضعها المناسب ، كما أن الرفق واللين له موضعه المناسب ، فقول ذي القرنين : ﴿ أما من ظَلَم فَسوف نعذبه ثُم يرد إِلَى ربِهِ فَيعذبه عذَاباً نكْراً ﴾[2].

لا يفسر بالقسوة وظلم الملوك ، لأنه قسوة في موضعها ، وفقه الدعوة يقتضي ذلك ، فإن الشدة تطلب في مواضع قد يفسدها اللين ، كما أن القسوة تترك في مواطن يصلحها اللين .

والداعية تمر به مواقف كثيرة، فعليه أن يستعين بالله في السداد ، ويتفقه في واقعه ، ويتفرس في نتائج أعماله .

اللطيفة الحادية والثلاثون :

نحمل الدعوة خطأ حينما نفهم أ ا تختص بإصلاح عقائد الناس ، ويكون الخطأ مركبا حينما يتعمد الداعية إهمال فساد دنيا الناس ، وما يصلح معيشتهم ، مع قدرته على وضع الحلول المثلى لذلك ، فقد دلت الآيات على أن من مشاريع الداعية إصلاح دنيا الناس ، ولا يعارض ذلك هدفه الأكبر إصلاح دين الناس ، فإن الهدف يسعى للوصول إليه بكل وسيلة جائزة شرعا.

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الشهادات ، باب الشهود العدول وقول الله " وأشهدوا ذوي عدل منكم ، برقم (٢٤٩٨) .

(٢) الكهف : ٨٧ .

فذو القرنين أصلح لأولئك القوم دنياهم حين بنى لهم السد بينهم وبين يأجوج ومأجوج ، والواقع اليوم يحتم على الدعاة أن يضعوا من ضمن أهدافهم مشاريع تستهدف دنيا ا تمعات ، كمعالجة الفقر والبطالة ، والقضاء على الجهل ، وإنشاء المستشفيات ، وغيرها .

اللطيفة الثانية والثلاثون :

الفكرة التي أتى ا ذو القرنين في بناء الردم ، وهي " جعل الفحم والحطب في خلال زبر الحديد ، ثم قال : انفخوا يعني في النار ، حتى إذا جعله ناراً ، أي : صار الحديد ناراً ﴿قَالَ آتونِي أُفْرِغْ علَيهِ قِطْراً﴾[(١)] .

أفرغ عليه قطرا " أي : آتوني قطرا أفرغ عليه ، والإفراغ الصب ، والقطر هو النحاس المذاب ، فجعلت النار تأكل الحطب ، ويصير النحاس مكان الحطب حتى لزم الحديد النحاس "[(٢)] .

هذه الطريقة المبتكرة تربي في نفس الداعية الإبداع ، والابتكار ، الناشئ عن التفكير العميق والوعي "،وعصرنا عصر انفجار المعلومات ، والذي أدى إلى ذلك هو استخدام الإمكانات العقلية التي وهبها الله لبني الإنسان بمهارة عالية ، ومن الآن فصاعدا لن يكون الحصول على المعلومات في معظم الأحيان يشكل أي مشكلة للناس ،ولن يشكل امتلاك المعلومات في المستقبل فرقا جوهريا بين الأمم والأفراد ،وإنما تأتي الفوارق الجوهرية والكبرى من خلال مهارات الناس في استخدام المعلومات وتحليلها وتوظيفها،ولهذا فإن تنمية المهارات العقلية ستكسب كل يوم أهمية إضافية"[(٣)] .

اللطيفة الثالثة والثلاثون :

لما بنى ذو القرنين السد ، أتقنه أيما إتقان ، وهذا يزرع في نفس الداعية إحسانه لعمله الدعوي ، والعناية به ، فإن الإتقان نوع من الإحسان ، وقد قال ﷺ " إن الله كتب

---

(١) الكهف : ٩٦ .

(٢) تفسير البغوي ١٨٢/٣ .

(٣) ٢٠٣ بصيرة في العقل والوعي والتفكير ومسائل أخرى ذات صلة ، استخلصها من كتب أ.د عبد الكريم بكار ، الفريق العلمي بدار الأعلام :ص١٥،{ط١،دار الأعلام ،الأردن: ١٤٢٤هـ } .

الإحسان على كل شيء "[1] .

والإحسان المراد في الحديث " من الحسن ، والإجادة في الأعمال المشروعة "[2] .

هذه ثلاثة وثلاثون لطيفة دعوية ، ولولا أني اقتصرت على الدعوية منها ، لزادت ، وما زالت شخصية ذي القرنين بحاجة إلى دراسة واعية ، خاصة في ضوء ازدهار الدراسات السياسية المعاصرة " ليكون درسا لكل من أراد أن يحكم بحق ، ويعِلم الناس ، ويهديهم إلى الطريق الصحيح ، ويساعدهم على ما فيه خيرهم وفلاحهم ، ولقد أحببته لثلاث صفات بارزة فيه ، هي ركيزة كل حاكم يريد الحق والإصلاح :

١ ـ الإيمان .   ٢ ـ العدل .   ٣ ـ العمل .

وإ ا لصفات لا بد منها ، حتى يستقر الأمر بالبشر ، ويأمنوا بحق على أنفسهم ، وأموالهم ، وأعراضهم ، وأديا م ، وعقولهم ، وهي الكليات الخمس التي أمر الإسلام بحفظها "[3] .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الصيد ، باب بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة ، برقم (١٩٥٥) ١٥٤٨/٣.

(٢) إكمال إكمال المعلم ، شرح صحيح مسلم ، محمد بن خليفة الأبي ، تحقيق محمد سالم هاشم :٤١/٧،{ دار الكتب العلمية ،بيروت: ١٤١٥هـ } .

(٣) ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح ، دراسة تحليلية مقارنة على ضوء القرآن والسنة والتاريخ ، تأليف محمد خير رمضان يوسف :ص٢٨٣،{الدار الشامية ،بيروت: ١٤٢٠هـ }.

المبحث الرابع

قصة مريم

وفيه مطلبـان :

المطلب الأول : تفسير الآيـات الواردة في شأن مريم .

المطلب الثاني :اللطائف الدعوية المستنبطة من الآيـات.

المطلب الأول

تفسير الآيات الواردة في شأن مريم

قصة مريم عليها السلام ذكرت في القرآن مبسوطة في ثلاثة مواضع ، وهي :

١ ـ سورة آل عمران في الآيات ٣٥-٤٧ .

٢ ـ سورة مريم في الآيات ١٦-٢٩ .

٣ ـ سورة التحريم في الآية ١٢ .

وبقية المواضع ذكرت فيها مريم عليها السلام مجردة عن قصتها ، وهي :

١ ـ قوله تعالى: ﴿وبِكُفْرِهِم وقَولِهِم علَى مريم بهتاناً عظِيماً﴾[١].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿لَقَد كَفَرَ الذِين قَالُوا إِن الله هو الْمسِيح ابن مريم قُلْ فَمن يملِك مِن اللهِ شيئاً إِنْ أَراد أَنْ يهلِك الْمسِيح ابن مريم وأُمه ومن فِي الْأَرضِ جمِيعاً ولِلهِ ملْك السماواتِ والْأَرضِ وما بينهما يخلُق ما يشاءُ والله علَى كُل شيءٍ قَدِير﴾[٢].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ما الْمسِيح ابن مريم إِلا رسولٌ قَد خلَت مِن قَبلِهِ الرسلُ وأُمه صِديقَةٌ كَانا يأْكُلانِ الطعام انظُر كَيف نبين لَهم الْآياتِ ثُم انظُر أَنى يؤفَكُونَ﴾[٣].

٤ ـ قوله تعالى:﴿وجعلْنا ابن مريم وأُمه آيةً وآويناهما إِلَى ربوةٍ ذَاتِ قَرارٍ ومعِينٍ﴾[٤] .

---

(١) النساء : ١٥٦ .

(٢) المائدة : ١٧ .

(٣) المائدة : ٧٥ .

(٤) المؤمنون : ٥٠ .

وسأتناول في بحثي قصتها في سورة مريم ، لأن :

١ ـ قصتها في سورة مريم ذَكرت تفاصيل لا توجد في غيرها من السور كما سيأتي في أثناء تفسير الآيات .

٢ ـ ما أشير إلى قصة مريم في السور الأخرى اشتملت عليه سورة مريم ، من غير عكس .

وبعد هذه المقدمة الموجزة أبدأ بتفسير ما يتعلق بقصة مريم من سورة مريم ، ثم أتبعها باللطائف الدعوية.

قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً ﴾[١] .

فقوله :﴿واذْكُر فِي الْكِتابِ مريم ﴾المراد بالذكر التلاوة ، وفي افتتاح القصة بهذا زيادة اهتمام بها ، وتشويقا للسامع أن يتعرفها ، ويتدبرها "[٢] .

المراد بالكتاب - في قول المحققين من أهل العلم - هو القرآن[٣] ، وقيل : إن المراد به سورة مريم[٤] ، والقول الأول أعم .

وقوله :﴿ إِذِ انتبذَت مِن أهلِها مكاناً شرقِياً ﴾ أي : تنحت عنهم ، واعتزلتهم منفردة عنهم[٥] ، واختلف أهل العلم في سبب الانتباذ ، فقيل : " انتبذت لتطهر من حيض ، وقيل : لتعبد الله ، وهذا أحسن ، وذلك أن مريم كانت وقفا على سدانة المتعبد وخدمته والعبادة فيه ، فتنحت من الناس لذلك "[٦] .

والمراد بالشرق هنا : شرقي بيت المقدس ، أو شرقي دارها[٧] ، " وقيل إنها إنما صارت بمكان يلي مشرق الشمس ؛ لأن ما يلي المشرق عندهم كان خيرا مما يلي

(١) مريم: ١٦ .
(٢) التحرير والتنوير ٧٨/١٦ .
(٣) المحرر الوجيز ٨/٤ .
(٤) تفسير أبي السعود ٢٩٥/٥ .
(٥) أضواء البيان ٣٨٥/٣ .
(٦) المحرر الوجيز ٩/٤ .
(٧) التفسير الكبير ١٦٧/٢١ .

المغرب"[1].

وقال تعالى:﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾[2].

فقوله:﴿فَاتخذَت مِن دونِهم حِجاباً﴾ الحجاب هو الستر ، واختلف أهل العلم في سبب اتخاذ الستر ؛ بناء على اختلافهم السابق في الانتباذ ، فقيل : احتجبت ؛ لتغتسل من الحيض ؛ أو لتمتشط[3] ، وقيل : لتتفرغ لعبادة ر ا ، و" لتعتزل وتنفرد بعبادة ر ا ، وتقنت له في حالة الإخلاص ، والخضوع ، والذل لله "[4] .

وقوله:﴿ فَأَرسلْنا إِلَيها روحنا ﴾المراد به الملَك المرسل ، لأن تعليق الإرسال به ؛ وإضافته إلى ضمير الجلالة دلا على أنه من الملائكة[5] ، وهو جبريل عليه السلام[6] .

وقوله:﴿ فَتمثلَ لَها بشراً سوِياً ﴾ أي : على صورة إنسان تام كامل[7] ، وإنما تمثل لها في صورة الإنسان ؛ لتستأنس بكلامه ، ولا تنفر منه ، فلو ظهر لها في صورة الملائكة لنفرت منه ، ولم تقدر على استماع كلامه[8] .

وقال تعالى :﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً﴾[9] .

قالت ذلك لما خرق عليها الحجاب،ودخل عليها في خلو ا،والمعنى:"أعوذ بالرحمن منك إن كنت ذا تقى"[10] .

وذلك لأن التقي تمنعه تقواه عن انتهاك حرمات الله،ويرتدع إذا ذُكر بالله،" ومجيء

---

(١) تفسير الطبري ٦٠/١٦ .
(٢) مريم : ١٧ .
(٣) التحرير والتنوير ٨٠/١٦ .
(٤) تفسير السعدي ص٤٩١ .
(٥) التحرير والتنوير ٨٠/١٦ .
(٦) تفسير الطبري ٦٠/١٦ .
(٧) تفسير ابن كثير ٢٢٦/٩ .
(٨) التفسير الكبير ١٦٨/٢١ .
(٩) مريم : ١٨ .
(١٠) المحرر الوجيز ٩/٤ .

هذا التذكير بصيغة الشرط المؤذن بالشك في تقواه قُصِد فيه ييج خشيته "[١] .

وفي الآية عفة مريم عليها السلام ؛ لأ ا " وهي في تلك الحالة الخالية ، والشباب والبعد عن الناس ، وهو في ذلك الجمال الباهر ، والبشرية الكاملة السوية ، ولم ينطق لها بسوء ، أو يتعرض لها ، وإنما ذلك خوف منها ، وهذا أبلغ ما يكون من العفة ، والبعد عن الشر وأسبابه ، وهذه العفة خصوصا مع اجتماع الدواعي ، وعدم المانع من أفضل الأعمال "[٢] .

ولقد خوفته أولا بالله " وهذا هو المشروع في الدفع ، أن يكون بالأسهل فالأسهل ، فخوفته أولا بالله عز وجل "[٣] .

" واختارت صفة الرحمة دون غيرها من الصفات ، لأ ا أرادت أن يرحمها الله بدفع من حسبته داعرا عليها "[٤] .

وتعوذها دليل على أ ا لم تتعود مخالطة الرجال ، وإلا فلو كانت معتادة لذلك ، لما استنكرت الأمر .

وقال تعالى :﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً﴾[٥] .

فقوله :﴿قَالَ إنما أنا رسولُ ربكِ﴾ هذا جواب الملك عليها ، وذكر لها صفة الرسالة " ليزول عنها ذلك الخوف "[٦] .

وذكر لها الملك صفة الربوبية ﴿ربكِ﴾ " مع الإضافة إلى ضميرها ؛ لتشريفها وتسليتها "[٧] ، وهذا أدعى للاطمئنان ، والراحة ، وذهاب الخوف ، والهلع .

وقوله :﴿ لِأهب لَكِ غُلاماً زكِياً ﴾ أسند الهبة إليه ، حتى تتفق مع معنى الرسول ، فإن وظيفة الرسول أن يفعل ما أمر به ، والآية فيها بشارة عظيمة لمريم بالولد ، وأنه هبة

(١) التحرير والتنوير ٨١/١٦ .
(٢) تفسير السعدي ص٤٩١ .
(٣) تفسير ابن كثير ٢٢٧/٩ .
(٤) التحرير والتنوير ٨١/١٦ .
(٥) مريم : ١٩ .
(٦) التفسير الكبير ١٦٩/٢١ .
(٧) تفسير أبي السعود ٢٦٠/٥ .

من الله .

وقوله :﴿ زكِياً ﴾ يتضمن أشياء كثيرة ، منها :

" الطاهر من الذنوب ، وأنه ينمو على التزكية ، لأنه يقال فيمن لا ذنب له زكي ، وفي الزرع النامي زكي ، وكذلك الا اهة والطهارة ، فيما يجب أن يكون عليه ؛ ليصلح أن يبعث نبيا "[١] ، والمعنى أعم من ذلك ، فيشمل " تطهيره من الخصال الذميمة ، واتصافه بالخصال الحميدة "[٢] .

قال تعالى :﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً﴾[٣].

فقوله :﴿قَالَت أنى يكُونُ لِي غُلام ﴾ هذا استغراب من مريم ،" ومحاور ا الملك قصدت ا صرفه عما جاء به لأجله ، لأ ا علمت أنه مرسل من ربه ، فأرادت مراجعة ر ا في أمر لم تطقه،كما راجعه إبراهيم عليه السلام في قوم لوط عليه السلام "[٤] .

ومقصودها في مساس البشر لها ؛ الزواج ، فلم تكن ذات زوج[٥] ، ومقصودها في البغي ؛الزانية ،فنفت عن نفسها جميع طرق إنجاب الولد ، الحلال منها،والحرام.

وقوله : ﴿ولَم أَك بِغياً ﴾ "فهو نفي لأن تكون بغيا من قبل تلك الساعة ، فلا ترضى لأن ترمى بالبغاء بعد ذلك ، فالكلام كناية عن الت ه عن الوصم بالبغاء ، بقاعدة الاستصحاب ، والمعنى : ما كنت بغيا فيما مضى ، أفأُعد بغيا فيما يستقبل "[٦] .

وقدمت ذكر المس الذي هو عبارة عن الزواج ؛ لأنه الأصل في حصول الولد .

قال تعالى :﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً﴾[٧] .

فقوله :﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ ربكِ هو علَي هين﴾ هذا جواب الملك على مريم عليها

---

(١) التفسير الكبير ١٧٠/٢١ .
(٢) تفسير السعدي ص٤٩١ .
(٣) مريم : ٢٠ .
(٤) التحرير والتنوير ٨١/١٦ .
(٥) المصباح المنير ص٦٥٤ .
(٦) التحرير والتنوير ٨٢/١٦ .
(٧) مريم : ٢١ .

السلام ، ومراده " أن الله قد قال :إنه سيوجد منك غلام وإن لم يكن لك بعل ، ولا يوجد منك فاحشة ، فإنه على ما يشاء قادر "[١] .

ويحتمل أن يكون معنى قوله:﴿ كَذَٰلِكِ ﴾ أي : إقرارا لها على قولها ، وقوله: ﴿ قَالَ ربكِ ﴾ استئناف[٢] .

وقوله :﴿ هو علَي هين ﴾ الضمير يعود إلى خلق الغلام من غير زوج ، والمعنى : الأمر علي هين لا يتعذر علي خلقه ، وهبته لك من غير فحل[٣] ، وفي الآية إثبات عظيم القدرة لله سبحانه وتعالى ، وفائدة كون الجملة اسمية " دالة على لزوم الهون ، مزيلة للاستبعاد "[٤] .

وقوله :﴿ ولنجعلَه آيةً لِلناسِ ﴾ الضمير يعود على الابن ، وهو عيسى عليه السلام ، والمعنى : لنجعله " دلالة ، وعلامة للناس ؛ على قدرة بارئهم ، وخالقهم الذي نوع في خلقهم ، فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى ، إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر ، فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته ، وعظيم سلطانه ، فلا إله غيره ، ولا رب سواه "[٥] .

كما أن في خلقه لعيسى عليه السلام آية أخرى ، وهي :" أن الأسباب جميعها لا تستقل بالتأثير ، وإنما تأثيرها بتقدير الله ، فيري عباده خرق العوائد في بعض الأسباب العادية ، لئلا يقفوا مع الأسباب ، ويقطعوا النظر عن مقدرها ومسببها "[٦] .

وبالتأكيد فإن خلقه سبحانه وتعالى لعيسى عليه السلام بدون أب ، فيه من الآيات ما يزيد على ذلك .

وقوله :﴿ ورحمةً مِنا ﴾ أي : أجعله رحمة ، والمراد عموم الرحمة له ولغيره ، وجميع مظاهر الرحمة تتضمنها النبوة ، وفي الآية دليل على أن الأنبياء عليهم السلام رحمة من الله

---

(١) تفسير ابن كثير ٢٢٧/٩ .

(٢) انظر : تفسير أبي السعود ٢٦١/٥ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ٦٢/١٦ . بتصرف يسير .

(٤) روح المعاني ٨٠/١٦ .

(٥) تفسير ابن كثير ٢٢٨/٩ .

(٦) تفسير السعدي ص٤٩١ .

للناس ، بما في ذلك جهادهم للكفار[(١)] .

وقوله:﴿ وكَانَ أمراً مقْضِياً ﴾أي : مقدرا في الأزل ، مسطورا في اللوح المحفوظ ، لا بد من وقوعه ، فهو واقع لا محالة "[(٢)] .

ويحتمل أن يكون هذا القول من أقوال الملَك ، ويجوز أن يكون مستأنفا[(٣)] ، فإن كان من قول الملك فيفيد قطع المنازعة ، والمراجعة ، والاستسلام لأمر الله .

وقال تعالى :﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً﴾[(٤)] .

فقوله:﴿فَحملَته﴾الفاء للتفريع ، والتعقيب ، أي : فحملت بالغلام في فور تلك المراجعة "[(٥)] .

وقوله :﴿ فَانتبذَت بِهِ مكَاناً قَصِياً ﴾ انتبذت أي : اعتزلت ناحية[(٦)] ،وسبب الابتعاد عن الناس ؛خوفا من " تعنيف الناس،وأن يظن ا الشر، فتنحت مكانا بعيدا حياء "[(٧)] .

وقد أكثر بعض المفسرين عند هذه الآية في الكلام حول كيفية حملها ، وموضع نفخ الملك ومدة حملها،والمكان الذي اعتزلت فيه،إلا أن القرآن لم يتعرض لهذه التفاصيل إذ لا طائل تحتها،فالأولى عدم الخوض فيها،والاكتفاء بما ذكره كتاب الله.

وقال تعالى :﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً﴾[(٨)] .

فقوله :﴿فَأَجاءَها الْمخاض إِلَى جِذْعِ النخلَةِ﴾ أجاء " منقول من جاء ، إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء "[(٩)] ، والمعنى " أن طَلقَها ألجأها إلى جذع

---

(١) خصصتها بالذكر لما يثار دائما حول الجهاد من إشكالات .

(٢) أضواء البيان ٣٨٩/٣ .

(٣) انظر : التحرير والتنوير ٨٤/١٦ .

(٤) مريم : ٢٢ .

(٥) التحرير والتنوير ٨٤/١٦ .

(٦) المعجم الجامع لغريب مفردات القرآن الكريم ، إعداد وترتيب الشيخ عبد العزيز عز الدين السيروان :ص٣٩٨،{دار العلم للملايين ،بيروت: ١٩٨٦م} .

(٧) المحرر الوجيز ١٠/٤ . بتصرف يسير .

(٨) مريم : ٢٣ .

(٩) الكشاف ١٢/٣ .

النخلة ، ثم يحتمل أ ا إنما ذهبت إلى النخلة طلبا لسهولة الولادة للتشبث ا ، ويحتمل للتقوية والاستناد إليها ، ويحتمل للتستر ا ممن يخشى منه القالة إذا رآها "[1] .

والمخاض ، بالفتح " وقرئ المخاض بكسر الميم ، وكلاهما مصدر مخضت المرأة ، إذا تحرك الولد في بطنها للخروج "[2] .

وقوله :﴿ قَالَت يا لَيتِني مِت قَبلَ هذَا ﴾ هذا القول من مريم عليها السلام لما جاءها طلق الولادة ، فتمنت الموت ، وهذا يدل على شدة البلاء الذي تعرضت له ، حيث اجتمع عليها :

ألم المخاض ، وغربة المكان ، وضعف المرأة ، وعدم الرفقة ، وانعدام الغذاء ، والهم النفسي ، وخوف الفضيحة ، " فإننا لنكاد نرى ملامحها ، ونحس اضطراب خواطرها ، ونلمس مواقع الألم فيها " ولهذا تمنت الموت .

" والمشار إليه في قولها:﴿قَبلَ هذَا ﴾ هو الحمل ، أرادت ألاّ يتطرق عرضها بطعن ، ولا تجر على أهلها معرة ، ولم تتمن أن تكون ماتت بعد بدو الحمل ، لأن الموت حينئذ لا يدفع الطعن في العرض "[3] .

ولا يوجد في كلام مريم عليها السلام اعتراض على قدر الله ، أو جزع منه ، وإنما قالته لما نزل ا ما نزل تمنيا للسلامة ، والعافية ، كما يتمنى العالم المفتي أن الله سلمه من الفتوى .

وقوله :﴿ وكُنت نسياً منسِياً ﴾النسي : الشيء الحقير الذي إذا ألقي نسي "[4]، ومراد مريم عليها السلام المبالغة في تمني أن تكون منسية ،حيث جمعت في أمنيتها ما يلي :

أن تكون ماتت قبل أن يصيبها ما أصا ا ، وأن تكون شيئا تافها لا يتذكره أهله ، وأن يكون هذا الشيء قد نسي ، فمثل هذا لا يكاد يذكر .

وهذا المعنى يدخل فيه ما قاله المفسرون في النسي المنسي ، ومن ذلك " أن مرادها يا ليتني لما أكن شيئا ، أو أن المراد دم حيضة ملقاة ، أو أنه من السقط ، أو أن المعنى : يا

---

(١) التفسير الكبير ١٧٣/٢١ .

(٢) تفسير أبي السعود ١٦٢/٥ .

(٣) التحرير والتنوير ٨٥/١٦ .

(٤) المعجم الجامع لغريب مفردات القرآن الكريم ، ص٤٠٧ .

ليتني لا يدرى من أنا ، أو أنه الشيء التافه يرتحل عنه القوم ، فيهون عليهم فلا يرجعون إليه "[١] .

وقال تعالى : ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً﴾[٢] .

فقوله : ﴿ فَناداها مِن تحتِها ﴾ اختلفت القراءة في ﴿ من ﴾ " على قراءتين سبعيتين ، قرأه نافع[٣] ، وحفص[٤] عن عاصم [٥]، وحمزة[٦] ، والكسائي[٧] ، بكسر الميم ، على أن

---

(١) انظر الأقوال مع قائليها : زاد المسير ٢٢١/٥ .

(٢) مريم : ٢٤ .

(٣) أبو رويم نافع بن عبد الرحمن ابن أبي نعيم الليثي مولاهم المقريء المدني ، أحد الأعلام ، مولى جعونة بن شعوب الليثي ، حليف حمزة بن عبد المطلب ، أو حليف أخيه العباس ، وقيل : يكنى أبا الحسن ، وقيل أبا عبد الرحمن ، وقيل أبو عبدالله ، وأشهرها أبو رويم ، قرأ على طائفة من تابعي أهل المدينة ، وكان أسود اللون حالكا ، وأصله من أصبهان ، وكان حجة في القراءة ، توفي سنة عشرين ومائتين للهجرة . انظر : معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي ، تحقيق بشار عواد معروف , شعيب الأرناؤوط , صالح مهدي عباس :١٠٧/١،{مؤسسة الرسالة ،بيروت: ١٤٠٤هـ } .

(٤) أبو عمرو حفص بن سليمان الأسدي ، مولاهم ،الكوفي ، المقرئ ، الإمام ، صاحب عاصم ، روى الحديث عن علقمة بن مرثد ، وثابت البناني ، وأبي إسحاق السبيعي ، وعنه بكر بن بكار ، وآدم بن أبي إياس ، في القراءة ثقة ، ثبت ، ضابط لها بخلاف حاله في الحديث ، وقد عاش تسعين سنة ، وتوفي سنة ثمانين ومائة . انظر : معرفة القراء الكبار ١٤٠/١ .

(٥) أبو بكر عاصم بن أبي النجود الأسدي ، مولاهم الكوفي ، القارئ ، الإمام ، أحد السبعة ، واسم أبيه بهدلة على الصحيح ، قرأ القرآن على أبي عبد الرحمن السلمي ، وزر بن حبيش الأسدي ، وحدث عنهما ، وعن أبي وائل ، ومصعب بن سعد بن أبي وقاص ، وجماعة ، وعنه عطاء بن أبي رباح ، وأبو صالح السمان ، وإليه انتهت الإمامة في القراءة بالكوفة بعد شيخه أبي عبد الرحمن السلمي، وتوفي سنة سبع وعشرين ومائة . انظر : معرفة القراء ٨٨/١ .

(٦) أبو عمارة حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل الزيات ، الإمام ، الكوفي ، مولى آل عكرمة بن ربعي التيمي ، أحد القراء السبعة ، قرأ القرآن عرضا على الأعمش ، وحمران بن أعين ، وتصدر للإقراء مدة ، وقرأ عليه عدد كثير ، وكان إماما ، حجة ، قيما بكتاب الله تعالى ، حافظا للحديث ، بصيرا بالفرائض ، والعربية ، عابدا ، خاشعا ، وتوفي سنة ست وخمسين ومائة . انظر : معرفة القراء ١١١/١ .

(٧) أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله بن عثمان الإمام الكسائي ، إمام الكوفيين في اللغة والنحو ، وسابع القراء السبعة ، توطن في بغداد ، وسمع من جعفر الصادق ، والأعمش ، وزائدة ، وقرأ القرآن وجوده على حمزة الزيات ، ورحل إلى البصرة فأخذ العربية عن الخليل بن أحمد ، وحدث عنه يحيى الفراء ، وخلف البزار

من حرف جر ، وخفض تاء تحتها ، لأن الظرف مجرور بمن ، وقرأه ابن كثير[1] ، وأبو عمرو[2] ، وشعبة[3] عن عاصم ، بفتح الميم على أنه اسم موصول ، هو فاعل نادى ، أي : أن ناداها الذي تحتها ، وفتح تحتها .

فعلى القراءة الأولى ففاعل النداء ضمير محذوف ، وعلى الثانية فالفاعل الاسم الموصول الذي هو من "[4] .

وتبعا لذلك اختلف أهل التفسير في المنادي ، على قولين :

فقيل : إنه جبريل ﷺ ، واستدلوا بأن عيسى ﷺ لم يتكلم إلا لما وصلت به مريم قومها ، أما قبل ذلك فلم يتكلم[5] .

وقيل : إنه عيسى ﷺ ، واستدلوا بعدة أدلة ، منها :

١ ـ بأن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور إلا بدليل صارف عن ذلك يجب الرجوع إليه ، وأقرب مذكور في الآية هو عيسى ﷺ ، لأن الله قال:﴿ فَحملَته﴾ يعني عيسى ﷺ ، وقال :﴿ فَانتبذَت بِهِ ﴾ أي بعيسى ﷺ ، ثم قال بعده:﴿ فَناداها ﴾ فالذي

، ,توفي سنة ثنتين وتسعين ومائة . انظر : معرفة القراء ١٢٠/١ ، وطبقات المفسرين ص٢١ .

(١) أبو معبد عبد الله بن كثير بن المطلب ، الإمام ، الداري المكي ، مولى عمرو بن علقمة الكناني ، إمام المكيين في القراءة ، أصله فارسي ، وكان داريا بمكة ، وهو العطار مأخوذ من قوله عطر دارين ، ودارين موضع بنواحي الهند ، وقيل في نسبته الداري : إنه قرشي من بني عبد الدار قاله البخاري ، وحدث عن عبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن مطعم ، وعمر بن عبد العزيز ، وتصدر للإقراء ، وصار إمام أهل مكة في ضبط القرآن ، قرأ عليه أبو عمرو بن العلاء ، توفي سنة عشرين ومائة . انظر : معرفة القراء ٨٦/١ .

(٢) أبو عمرو بن العلاء المازني المقرئ البصري ، النحوي ، الإمام ، مقرئ أهل البصرة ، اختلف في اسمه كثيرا ، فقيل : العريان ، وقيل : يحيى ، والأصح اسمه زبان ، وأخذ القراءة عن أهل الحجاز ، وأهل البصرة ، فعرض بمكة على مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعطاء ، وقرأ عليه خلق كثير منهم يحيى بن المبارك اليزيدي ، وعبدالله بن المبارك ، وإليه انتهت الإمامة في القراءة بالبصرة ، توفي سنة أربع وخمسين ومائة . انظر : معرفة القراء ١٠٠/١ .

(٣) أبو بكر بن عياش بن سالم الأسدي الكوفي ، الإمام ، اختلف في اسمه كثيرا ، والأرجح أنه شعبة ، قرأ القرآن ثلاث مرات على عاصم ، وروى عن إسماعيل السدي ، وأبي حصين ، وعرض القرآن أيضا على عطاء بن السائب ، وكان حجة في القراءة كثير العلم والعمل ، توفي سنة ثلاث وتسعين ومائة . انظر : معرفة القراء ١٣٤/١ .

(٤) ينظر : أضواء البيان ٣٩٣/٣ ، والكافي في القراءات السبع ١٥٣ .

(٥) أضواء البيان ٣٩٣/٣ .

يظهر ويتبادر من السياق أنه عيسى عليه السلام .

٢ـ أ ا لما جاءت به قومها تحمله ، وقالوا لها ما قالوا ، أشارت إلى عيسى عليه السلام ليكلموه ، كما قال تعالى عنها :﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً﴾[(١)]،وإشار ا إليه ليكلموه ؛ قرينة على أ ا عرفت قبل ذلك أنه يتكلم على سبيل خرق العادة ؛ لندائه لها عندما وضعته[(٢)] .

٣ـ أن الموضع الذي تحت مريم موضع لَوث[(٣)] ، ونظر إلى العورة ، وذلك لا يليق بالملائكة[(٤)] .

والراجح أن المنادي هو عيسى عليه السلام للأدلة التي ذكرت .

وقوله :﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً﴾ اختلف المفسرون في السري ، على قولين :

فقيل : المراد به الجدول من الماء ، سمي بذلك لأن الماء يسري فيه ، وهو قول عامة المفسرين[(٥)] ، واستدلوا بالقرينة من القرآن ، فقوله تعالى :﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي﴾[(٦)] . ﴿ وَاشْرَبِي﴾ قرينة على أن ذلك المأكول والمشروب هو ما تقدم الامتنان به في قوله ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ﴾[(٧)] .

وقيل : المراد به عيسى عليه السلام ، واستدلوا بأن النهر لا يكون تحتها ، بل إلى جانبها[(٨)]إضافة للاستعمال اللغوي للسري ، فإنه الشريف[(٩)] ، والرئيس[(١٠)] .

والراجح أن المراد به النهر الصغير ، وهو قول عامة المفسرين من السلف

---

(١) مريم : ٢٩ .

(٢) الدليل الأول ، والثاني ، انظر : أضواء البيان ٣٩٤/٣ .

(٣) لوث ثيابه بالطين أي : لطخها . انظر مختار الصحاح ، باب اللام ، ص ٢٥٣ ، مادة (ل و ث) .

(٤) التفسير الكبير ١٧٤/٢١ .

(٥) انظر : التفسير الكبير ١٧٥/٢١ .

(٦) مريم : ٢٦ .

(٧) أضواء البيان ٣٩٦/٣ .

(٨) التفسير الكبير ١٧٥/٢١ .

(٩) لسان العرب ، مادة (سرا) ، ٣٧٧/١٤ .

(١٠) المصباح المنير، مادة (سري) ، ٢٧٥ .

والخلف[١] رحمهم الله ، ولم ينسب القول بأنه عيسى عليه السلام إلا للحسن[٢]،وعبد الرحمن بن زيد[٣].

وأما الأدلة التي استدل ا أصحاب القول الثاني ، فليست قوية في الدلالة ، وبيان ذلك فيما يلي :

١ ـ قولهم بأن النهر لا يكون تحت مريم ، يجاب عنه بأحد أمرين :

أ ـ أن المراد منه أنه جعل النهر تحت أمرها ، يجري بأمرها ، ويقف بأمرها[٤] ، كما في قوله:﴿وهذِهِ الْأَنهار تجرِي مِن تحتِي ﴾[٥] .

وهذا قول ضعيف ، لأنه حمل للفظ على مجازه ، وهو خلاف الأصل ، ولا يصار إليه إلا بقرينة صارفة .

ب ـ أنه موافق لقوله تعالى:﴿وجعلْنا ابن مريم وأُمه آيةً وآويناهما إِلَى ربوةٍ ذَاتِ قَرارٍ ومعِينٍ﴾[٦] .

وبيانه : أن المكان المستوي إذا كان فيه مبدأ معين ، فكل من كان أقرب منه كان فوق ، وكل من كان أبعد منه كان من تحت[٧] .

٢ـ وأما دليلهم اللغوي فصحيح ؛ إلا أن السري أيضا في اللغة النهر[٨] ، فلا يصح حمل اللفظ على أحد معنييه إلا بقرينة .

---

(١) التفسير الكبير ١٧٥/٢١ .

(٢) أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار ، كان أبوه مولى زيد بن ثابت رضي الله عنه ، وأمه خيرة مولاة أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها ، لقي مائة وعشرين من الصحابة ، وتلقى العلم حتى أصبح من سادات التابعين ، وكان من رؤؤس العلماء بعلمه في الفتن ، والدماء والفروج . انظر : مشاهير علماء الأمصار ص٨٨ ، والطبقات الكبرى ١٥٧/٧ ، ١٦٣ .

(٣) عبد الرحمن بن زيد بن أسلم المدني ، أخذ معاني القرآن ، وروى عن والده ، وابن المنكدر ، توفي سنة اثنتين ومائة . انظر : طبقات المفسرين ص١١ .

(٤) التفسير الكبير ١٧٥/٢١ ، وقد أبطله الرازي رحمه الله .

(٥) الزخرف : ٥١ .

(٦) المؤمنون : ٥٠ .

(٧) التفسير الكبير ١٧٥/٢١ . بتصرف يسير .

(٨) المصباح المنير ، مادة (سري) ، ٢٧٥ .

والنهر الذي أجراه الله لمريم عليها السلام يحتمل أنه كان موجودا قبل ذلك ، ويحتمل أن الله أجراه لها كرامة ، وهو الأولى " لأن قوله :﴿ قَد جعلَ ربكِ تحتكِ سرِياً ﴾ مشعر بالحدوث في ذلك الوقت ، ولأن الله تعالى ذكره تعظيما لشأ ا "[1] .

وقد جمع الله لمريم الأنس والاطمئنان ، حيث كلمها ابنها من تحتها ، فزاد يقينها بالله وتأييده ، وهيأ لها ـرا تشرب منه ، وطعاما تأكل منه ، فذهب عنها الروع .

وقال تعالى :﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً﴾[2] .

فقوله :﴿وهزي إِلَيكِ بِجِذْعِ النخلَةِ ﴾الظاهر من الآية أن عيسى عليه السلام هو المكلم لها "[3]،" وضمن هزي معنى قربي ، أو أدني ، فعدي بإلى ، أي : حركي جذع النخلة وقربيه يدنُ إليك ، ويسقط عليك رطبا جنيا "[4] ، وهذه كرامة أخرى لمريم عليها السلام ، " والباء في قوله " بجذع " للإلصاق[5] .

وتكلم بعض أهل التفسير في حالة تلك النخلة ، هل كانت مثمرة أم لا ؟ وهل كانت يابسة ، أم رطبة ؟ وهل كانت مقطوعة الرأس ؟ ونوعية الرطب .

وهي مسائل لا دليل قطعي عليها ، إلا أن الظاهر من سياق الآيات والحال التي كانت عليها مريم عليها السلام " أن الله أنبت لها ذلك الرطب على سبيل خرق العادة ، وأجرى لها ذلك النهر على سبيل خرق العادة ، ولم يكن الرطب والنهر موجودين قبل ذلك ، ووجه دلالة السياق على ذلك أن قوله تعالى:﴿فَكُلِي واشرِبي وقَري عيناً فَإِما ترين مِن الْبشرِ أحداً فَقُولي إِني نذَرت لِلرحمنِ صوماً فَلَن أُكَلم الْيوم إِنسِياً﴾[6]يدل على أن عينها إنما تقر في ذلك الوقت بالأمور الخارقة للعادة ؛ لأ ا هي التي تبين براء ا مما ا موها به ، فوجود هذه الخوارق من تفجير النهر ، وإنبات الرطب ، وكلام المولود ، تطمئن إليه نفسها ، وتزول به عنها الريبة ، لأن مجرد الأكل ، والشرب ، مع بقاء التهمة

---

(١) التفسير الكبير ١٧٥/٢١ .
(٢) مريم : ٢٥ .
(٣) المحرر الوجيز ١٢/٤ .
(٤) التحرير والتنوير ٨٨/١٦ .
(٥) زاد المسير ٢٢٣/٥ .
(٦) مريم : ٢٦ .

التي تمنت بسببها أن تكون قد ماتت من قبل ، وكانت نسيا منسيا ، لم يكن قرة لعينها في ذلك الوقت "[1] .

وقوله :﴿ تساقِطْ علَيكِ رطَباً جنِياً ﴾ " قرأه الجمهور بفتح التاء ، وتشديد السين ، أصله تتساقط بتاءين ، أدغمت التاء الثانية في السين ليتأتى التخفيف بالإدغام .

وقرأه حمزة بتخفيف السين على حذف إحدى التاءين للتخفيف ، وقرأه حفص بضم التاء ، وكسر السين على أنه مضارع ساقطت النخلة ثمرها ، وقرئ بياء تحتية مفتوحة ، وفتح القاف،وتشديد السين،فيكون الضمير المستتر عائدا إلى جذع النخلة "[2].

وكون الساقط رطبا لأنه ألذ ما يؤكل من ثمر النخلة ، والمراد من قوله :﴿ جنيا ﴾" أي : قد طابت ، وصلحت للاجتناء "[3] ، وأنه ليس بمدخر ، وإنما طري .

كما أن اختيار الله الرطب لمريم وهي نفساء دليل على أنه مفيد لمن كان مثل حالتها ، وقد كان السلف يستحبون الرطب للنفساء[4] .

وفي هذه الآيات " إشارة إلى أن السعي في تحصيل الرزق في الجملة مطلوب ، وهو لا ينافي التوكل "[5] ، لأن الله أمر مريم عليها السلام ـز الجذع وهو سبب في تحصيل الرزق ، مع أنه اجتمع في مريم عليها السلام عدة أشياء تجعلها في غاية الضعف ، وهي :

١ ـ أ ا امرأة ، والمرأة من طبيعتها الضعف .

٢ ـ أ ا نفساء ، وهذا يزيد ضعفها ضعفا .

٣ ـ أ ا أمرت أن ـز النخلة ، والمعروف أن النخلة من أقوى المخلوقات ، وهذا أيضا يزيد الضعف نفسياً إضافة للضعف الحسي .

٤ ـ أ ا أمرت أن ـز أقوى ما في النخلة وهو جذعها .

وهذا كله لتجري سنة الله وفق أسباب قدرها سبحانه وتعالى .

---

(1) أضواء البيان ٣٩٧/٣ . بتصرف يسير .

(2) التحرير والتنوير ٨٩/١٦ . باختصار يسير ، والكافي في القراءات السبع ١٥٣ .

(3) المحرر الوجيز ١٢/٤ .

(4) زاد المسير ٢٢٤/٥ .

(5) روح المعاني ٨٥/١٦ .

وقال تعالى :﴿**فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً**﴾[1] .

فقوله :﴿ فَكُلِي واشربي وقَري عيناً﴾قائل هذا الكلام هو عيسى عليه السلام[2] ، وقدم الأكل على الشرب " لأن احتياج النفساء إلى أكل الرطب أشد من احتياجها إلى شرب الماء ، لكثرة ما سال منها من الدماء ، وقدم الله تعالى في الحكاية دفع ضرر الجوع والعطش على دفع ضرر الخوف ، لأن هذا الخوف كان قليلا ، فإن بشارة جبريل عليه السلام كانت قد تقدمت ، فما كانت تحتاج إلى التذكير مرة أخرى "[3] .

وقرة العين " تشمل هناء العيش ، وتشمل الأنس بالطفل ، وفي كونه قرة عين كناية عن ضمان سلامته ، ونباهة شأنه "[4] .

فاجتمع لمريم عليها السلام الأمن النفسي ، والأمن البدني ، وبذلك اندفعت عنها جميع المنغصات ، من الهموم والأحزان .

وقوله :﴿ فَإما ترين مِن الْبشرِ أَحداً فَقُولي إني نذَرت لِلرحمنِ صوماً فَلَن أُكَلم الْيوم إِنسِياً ﴾ هذا بقية كلام عيسى عليه السلام ،وهو وحي من الله إلى مريم أجراه الله على لسانه[5].

واختلف أهل التفسير في هذا القول الذي أمرت به مريم عليها السلام هل أمرت أن تقوله لفظا ، أو إشارة ؟ على قولين لأهل العلم :

فقيل : أمرت أن تقوله لفظا ، وهو قول الجمهور من أهل العلم ، واستدلوا بأنه ظاهر الآية .

وقالت فرقة : أمرت أن تقوله إشارة ، واستدلوا بأ ا لو أمرت بالكلام لأفسدت نذرها[6] .

---

(١) مريم : ٢٦ .

(٢) أضواء البيان ٤٠٠/٣ .

(٣) التفسير الكبير ١٧٦/٢١ . باختصار .

(٤) التحرير والتنوير ٨٩/١٦ .

(٥) انظر : التحرير والتنوير ٨٩/١٦ .

(٦) أضواء البيان ٤٠١/٣ .

والمراد بالصوم هنا : يحتمل أنه مجرد الصمت ، والسكوت عن الكلام ، ويحتمل أن الصوم في شريعتهم يحرم عليهم الطعام والكلام[1] ، والأظهر أن المراد به السكوت عن الكلام ، ويدل عليه آخر الآية ﴿ فَلَن أُكَلِّم الْيومَ إِنسِياً ﴾ وأمره لها وفعلها ، دليل على جوازه في شريعتهم ، والله أعلم .

وابتداء كلامها بحرف التوكيد ، وتقديم فعل النذر ، ثم حرف النفي (لن) تفيد قطع ا ادلة والكلام مع الناس قطعا جازما .

وأمر عيسى عليه السلام لأمه بالنذر ليتحقق عدة فوائد ، وهي :

١ ـ أن كلام عيسى عليه السلام أقوى في إزالة التهمة من كلامها فتحصل لها البراءة[2] .

٢ ـ قطع مراجعة من يريد مجادلتها[3] .

٣ ـ راحة لها عن الكلام معهم[4] ، لأن الكلام مع من لا يصدِق ، ولا يؤمِن بما يسمع تضييع للأعمار والجهد .

٤ ـ استغلال الحدث لأداء عبادة من العبادات .

وقوله :﴿ إِنسِياً ﴾ المراد به " الإنسان ، والياء فيه للنسب إلى الأنس ، وهو اسم جنس إنسان ، وهذا نكرة في سياق النفي فيفيد العموم "[5] ولم يصب من جعل قيد الإنسي هنا دليل على أ ا تكلم الملائكة ، وتناجي ر ا فقط[6] ، أما الناس فتصوم عن الكلام معهم ، لأنه يحتاج إلى دليل خاص .

وقال تعالى :﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً ﴾[7] .

فقوله :﴿ فَأَتت بِهِ قومها تحمِلُه ﴾دلت الفاء على أن مريم جاءت أهلها عقب انتهاء

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٢٣٧/٩ .

(٢) الفائدة الأولى ، والثانية ، انظر : التفسير الكبير ١٧٦/٢١ .

(٣) التحرير والتنوير ٨٩/١٦ .

(٤) تفسير السعدي ص٤٩٢ .

(٥) التحرير والتنوير ٩٤/١٦ .

(٦) انظر : فتح القدير ٣٣٠/٣ .

(٧) مريم :٢٧ .

الكلام الذي كلمها ابنها "[1] ، والمعنى " جاء م مع ولدها راجعة إليهم "[2] .

وإتيا ا حاملة ولدها معها دليل على أ ا اطمأنت بتأييد الله ، واستقرت نفسها ، فجاءت به تحمله ليراه الجميع ، وظاهر الآيات يدل على أ ا جاءت به في وقت مناسب لأن يراه أهل المدينة .

وقوله :﴿قَالُوا يا مريم لَقَد جِئْتِ شيئاً فَرِياً ﴾ هذا قول قومها لها ، وتعددت عبارات المفسرين رحمهم الله لهذه اللفظة ﴿فريا﴾ ، فقيل : شنيعا[3] ، وقيل : شيئا عظيما منكرا[4]،وقيل : عجبا وقيل : مختلقا مفتعلا[5] ،وقيل : قبيحا وباطلا[6] .

وكلها معان محتملة ، وأيا كان المعنى فإن المعنى المقصود من هذا الشيء الفري هو الزنا ، لأن الزنا يجمع هذه الأوصاف كلها ، ولما كانت مريم عندهم ليس كسائر النساء في عباد ا وسلوكها ، لم يكتفوا بوصفها بالزنا ، ولهذا أضافوا لها وصفا آخر ﴿شيئا فريا ﴾ لأن شأن مريم عندهم عظيم .

وقال تعالى :﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾[7] .

فقوله :﴿ يا أُخت هارونَ ﴾ اختلف أهل التفسير في هارون الذي نسبت له مريم على أقوال متباينة :

فقيل : أن المراد به هارون بن عمران عليه السلام أخو موسى عليه السلام لأ ا من نسله[8] ، وهذا القول موقوف على صحة الدليل في ذلك ، فإن صح الدليل وجب الأخذ به .

---

(1) التحرير والتنوير ٩٤/١٦ .

(2) تفسير أبي السعود ٢٦٣/٥ .

(3) التسهيل لعلوم الت يل ٤/٣ .

(4) التفسير الكبير ١٧٧/٢١ .

(5) تفسير السمعاني ، أبو المظفر منصور بن محمد السمعاني ، تحقيق ياسر بن إبراهيم ، وغنيم بن عباس بن غنيم ، الطبعة الأولى :٢٨٨/٣،{دار الوطن ،الرياض: ١٤١٨هـ } .

(6) تفسير القرآن، الإمام عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي الشافعي ، تحقيق الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي :٢٧٥/٢،{ دار ابن حزم ،بيروت: ١٤١٦هـ } .

(7) مريم : ٢٨ .

(8) تفسير الثعالبي ٢١٢/٦ .

وقيل : المراد به رجل من قوم سوء زناة ، فنسبوها إليهم(١) ، وهذا القول لا يحتمله سياق الآيات ، فإن قومها يلوموا على هذا الولد الذي أتت به من غير زوج ، ويذكروا بأن لها من مكانة في قومها،ومعروفة عندهم بصلاح السيرة، وصلاح النسب .

وقيل : بأ ا أخت لهارون أخي موسى عليهما السلام من أبه وأمه ، ولا شك أن هذا القول خطأ محض ، " وهفوة وغلطة شديدة "(٢) .

وقيل : المراد به أخ لها اسمه هارون ، واستدلوا بأن الأصل في الكلام الحقيقة(٣) .

وقيل: المراد به رجل صالح من بني إسرائيل(٤)،فسميت أخته تشبيها لها بعبادته.

وهذان القولان السياق يحتملهما ، ويؤيد صحتهما حديث المغيرة بن شعبة(5) ﷺ قال : لما قدمت نجران سألوني فقالوا : إنكم تقرؤون يا أخت هارون ، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ، فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك ، فقال : إ م كانوا يسمون بأنبيائهم ، والصالحين قبلهم "(٦) ، " ففي هذا تجهيل لأهل نجران أن طعنوا في القرآن على توهم أن ليس في القوم من اسمه هارون إلا هارون الرسول أخا موسى "(٧) .

وقوله :﴿ ما كَانَ أبوكِ امرأ سوءٍ وما كَانت أُمكِ بغِياً ﴾ والسوء مصدر ساءه إذا أضر به ، وأفسد بعض حاله ، فإضافة الاسم إليه تفيد أنه من شؤونه وأفعاله ، وأنه هو

---

(١) الدر المنثور ٥٠٨/٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢٣٩/٩ .

(٣) التفسير الكبير ١٧٧/٢١ .

(٤) الدر المنثور ٥٠٧/٥ .

(5) أبو عبد الله المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود بن معتب بن مالك الثقفي ، وأمه أمامة بنت الأفقم ، أسلم عام الخندق ، وشهد الحديبية ، وكان موصوفا بالدهاء ، وشهد اليمامة ، وفتوح الشام ، وذهبت عينه باليرموك ، وشهد القادسية ، وشهد فتح اوند ، روى عنه الصحابة أبو أمامة الباهلي ، والمسور بن مخرمة ، وقرة المزني ، ومن التابعين أولاده عروة ، وحمزة ، وعقار ، وتوفي بالكوفة سنة خمسين للهجرة . انظر : أُسد الغابة في معرفة الصحابة ، ٢٦١/٥ .

(٦) أخرجه مسلم ، كتاب الآداب ، باب النهي عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء ، برقم (٢١٣٥) ١٦٨٥/٣.

(٧) التحرير والتنوير ٩٦/١٦ .

مصدر له ، والمعنى رجل عمله مفسد "[1] ، والبغي الزانية ،والمعنى: "لم يكن أبواك إلا صالحين ، سالمين من الشر ، وخصوصا هذا الشر الذي يشيرون إليه ، وقصدهم فكيف كنت على غير وصفهما ، وأتيت بما لم يأتيا به ، وذلك أن الذرية في الغالب بعضها من بعض في الصلاح ، وضده "[2] ، وفي قولهم هذا تصريح بمدحهم أبويها .

وقال تعالى :﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً﴾[3] .

فقوله :﴿ فَأَشارت إِلَيه ﴾معنى إشار ا إليه أ م يكلمونه فيخبرهم بحقيقة الأمر"[4] .

وإشار ا إليه يعقبها غضب منهم ، وسخرية وإن لم تذكر في الآيات ، ويدل على ذلك استفهامهم الإنكاري بقولهم:﴿كيف نكلم من كانَ في الْمهدِ صبياً﴾.

وإحالتها قومها عليه مع اطمئنا ا دليل على أ ا عرفت قبل ذلك أنه سيتكلم ، وهذا يرجح بأن المنادي لمريم من تحتها أنه عيسى عليه السلام .

وقوله :﴿ كيف نكلم من كانَ في الْمهدِ صبياً ﴾ هذا جواب قومها لها ، " وفعل الكون في من كان في المهد للدلالة على تمكن المظروفية في المهد من هذا الذي أحيلوا عليه ، وذلك مبالغة منهم في الإنكار ، وتعجب من استخفافها م "[5] .

والمهد " قيل : كان سريرا كالمهد ، وقيل : المهد هنا حجر الأم ، وقيل : المعنى كيف نكلم من كان سبيله أن ينوم في المهد لصغره ؟ "[6] .

وقولهم ﴿صبياً﴾ مبالغة منهم في الاستبعاد والتعجب .

---

(1) التحرير والتنوير ٩٦/١٦ .
(2) تفسير السعدي ص٤٩٢ .
(3) مريم : ٢٩ .
(4) أضواء البيان ٤١٥/٣ .
(5) التحرير والتنوير ٩٧/١٦ .
(6) تفسير القرطبي ١٠٢/١١ .

المطلب الثاني

اللطائف الدعوية المستنبطة من الآيات

الآيات الواردة في قصة مريم عليها السلام تشتمل على كثير من اللطائف ، والفوائد والدرر ، وسأقتصر – تمشيا مع موضوع بحثي – على اللطائف التي تختص بجانب الدعوة إلى الله ، ومن ذلك ما يلي :

اللطيفة الأولى :

أظهرت الآيات حقيقة قد تغيب عن أذهان بعض الدعاة جراء انشغالهم بالدعوة ، وهي أن تفَرغَ الإنسان لعبادة ربه،وبذل الوقت لذلك،والتبتل إليه سبحانه،يعد من الضرورات بالنسبة للدعاة حتى يأخذوا حظهم من العبادة موفورا ، وزادا لهم يعينهم على الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى .

وإذا كان انقطاع الداعية لنفع الناس والنصح لهم ، وممارسة الواقع الميداني للدعوة يعد من أهداف العمر عند المؤمن ، فإن ذلك يحتم عليه أن يجعل لنفسه أوقاتا يخلو فيها بربه ، ولهذا شرع الاعتكاف في رمضان ، " وحقيقة الاعتكاف المشروع هو جمعية العبد على ربه ، وخلوته به ، وكان النبي ﷺ يحتجر بحصير في المسجد في اعتكافه ، يخلو به مع ربه عز وجل ، ولم يكن يشتغل بتعليم الصحابة ، وتذكيرهم في تلك الحال ، ولهذا كان المشهور من مذهب أحمد وغيره أنه لا يستحب للمعتكف إقراء القرآن والعلم ، وخلوته

للذكر ، والعبادة أفضل له ، واحتجوا بفعل النبي ﷺ "[1] .

ولأجل ذلك كثرت عبارات السلف في الحث على الخلوة بالله ، والأنس به ، حتى قالوا :" ومتى رأيت نفسك تهرب من الأنس به إلى الأنس بالخلق ، ومن الخلوة مع الله إلى الخلوة مع الأغيار ، فاعلم أنك لا تصلح له "[2] .

اللطيفة الثانية :

تحلت مريم عليها السلام بعفة عالية ، تجلت في استعاذتها بالله من الخلوة برجل غريب لا تعرفه ، ونفت عن نفسها البغي بصيغة ﴿ولم أك بغيا﴾ والتي تدل على أنها لم تكن من أهله ، ولم يخطر ببالها ، وهذا هو ما ينبغي للدعاة التحلي به ، فإن الداعية يواجه في دعوته كثيرا من المغريات الحسية والمعنوية ، كما يواجه فتنة الشبهات والشهوات ، فإن لم يكن عند الداعية عفة يتحلى بها تمنعه بإذن الله من الانزلاق ، وتعصمه بحول الله من الانفلات ، وتحجزه عن تبرير أكل الحرام ، وإضفاء الشرعية الدينية على ما يهواه ؛ فإنه سريعا ما ينهار في إيمانه ، وتتلاشى دعوته مع انغماسه في فتنته .

اللطيفة الثالثة :

لم تأمن مريم عليها السلام الفتنة على نفسها حين تمثل لها بشرا سويا ؛ فاستعاذت بالله ، وذكرته بأن يتقي الله ، فقالت :﴿إِني أعوذُ بِالرحمنِ مِنك إِنْ كُنت تِقِياً﴾[3] ،هذا كله مع عبادتها وانقطاعها لذلك .

وهو السلوك الذي يجب على الدعاة أن يحذوا حذوه ، فلا يأمنوا مكر الله ، ولا يغتروا بما لديهم من عبادة ، وما عندهم من رصيد دعوي ، يظنوا أنه عاصم لهم ، فإنه لا عاصم من أمر الله إلا من رحم .

ولهذا يجب على الدعاة في حال ممارستهم للدعوة واقعاً عملياً ألا يقحموا أنفسهم في مواطن لا يقف أمامها إلا أقوياء الإيمان من ذوي البصيرة النافذة ، والحكمة والدراية .

---

(١) مدارج السالكين ٢٥٠/١ .

(٢) بدائع الفوائد ٧٤٣/٣ .

(٣) مريم : ١٨ .

اللطيفة الرابعة :

من تأمل قصة مريم عليها السلام عرف أن أمر الله بالولد كائن لا محالة ، ولهذا قال الملك :﴿كَذَٰلِكِ قَالَ ربكِ ﴾ أما الحوار الذي دار بين مريم والملَك ففائدته تحقق اليقين ، وكمال الاقتناع عند مريم ، وتعزيز ثقتها بنفسها ، وهو ما يجعلنا نؤكد على حرص الدعاة في تحقيق مبدأ اليقين ، والقناعة فيما يدعون إليه ، والتـ ل معهم في أسلوب الحوار ، والبدء في المتفق عليه ، وإزالة جميع الشبه التي ترد في الخواطر ، والوقوف أمام العقبات التي تعترضهم .

وذلك حتى يمارس الدعاة دعو م في الأقطار وهم على يقين منها ، وقناعة تامة ، فإن أصيبوا بمخاصِم صمدوا ، وإن ابتلوا صبروا ، ويجدر بنا أن نعمم هذا المسلك على جميع المدعوين ولا نقصره على الدعاة .

اللطيفة الخامسة :

ابتعاد مريم عن قومها بعد حملها وفي وقت مخاضها مع أ ا على ثقة من نفسها ، ومن تبرئة الله لها ، دليل على أن الدعاة عليهم أن يجنبوا أنفسهم مواطن التهم ، ويلزمهم السعي في براءة ساحتهم من النقائص ، فإن حماية العرض من مقاصد الشريعة ، ومن هذا الباب طلب يوسف عليه السلام من الرسول أن يرجع إلى ربه ويسأله عن النسوة كما قص الله عنه ﴿فَلَما جاءَه الرسولُ قَالَ ارجِع إِلَى ربك فاسأَلْه ما بالُ النسوةِ اللاتِي قَطعن أَيدِيهن إِن ربي بِكَيدِهِن علِيم﴾[1] .

أي: " فاسأله أن يفتش عن ذلك ، حثا للملك على الجد في التفتيش ؛ لتتبين براءته ، وتتضح نزاهته ، إذ السؤال مما يهيج الإنسان على الاهتمام في البحث للتقصي عما توجه إليه "[2].

اللطيفة السادسة :

ما يواجهه الدعاة من ابتلاء سنة ماضية ، ومن تمام سنة الله التي لا تبديل لها أن شدة

---

(١) يوسف : ٥٠ .

(٢) تفسير أبي السعود ٢٨٤/٤ بتصرف يسير .

الابتلاء مؤذنة بقرب الفرج ، فقد قال ﷺ :" واعلم أن الفرج مع الكرب "[1] ، فمع اشتداد الكرب على مريم حتى أ ا تمنت الموت وهي على يقين كامل ، إلا أن تمنيها الموت يعطينا تصورا عن الوضع النفسي الذي كانت تعيشه ، والألم الذي كان يعتصرها، حتى تمنت ما تمنت ، وفي تلك اللحظة الشديدة ، يأتي فرج الله بإجراء ـر يجري ، وتساقط رطب ، وتكلم عيسى عليه السلام تطميناً لها .

وهذا يجعل الدعاة حينما يشتد الكرب عليهم يفرحون بنصر الله وفرجه ، وهذا ينعكس على دعو م واستمرارها .

اللطيفة السابعة :

" الأخذ بالأسباب لا يقدح في إيمان المسلم ، ولا يناقض التوكل على الله تعالى ، وقد رأينا أن الله أمر مريم على لسان من ناداها أن ـز جذع النخلة حتى تساقط عليها رطبا جنيا ، وهز جذع النخلة سبب لتساقط الرطب ، فعلى الدعاة أن يأخذوا بالأسباب المشروعة لإنجاح الدعوة ، على أن يبقى اعتمادهم وتوكلهم على الله تعالى لا على ما باشروه من أسباب "[2] .

اللطيفة الثامنة :

ما حدث لمريم عليها السلام من مواقف في هذه القصة يدل على رجاحة عقلها ، وقوة إيما ا ، وكمال يقينها ، فقد حصل لها من المواقف ما لا تتحمله كثير من النساء إلا من أيدها الله ، وهذا يجعلنا نفكر كثيرا في الدور الدعوي الذي يمكن للمرأة أن تؤديه ، فإن المرأة إن قوي إيما ا وزاد يقينها تستطيع أن تقوم بالدعوة إلى الله في بيتها ، ومدرستها ، ومكان عملها ، وتمارس الدعوة في أمرها بالمعروف و يها عن المنكر ، وأستطيع القول بأن هناك من ا الات الدعوية ما لا تستطيعه إلا النساء ، فعلى الدعاة الاهتمام ذا الجانب .

اللطيفة التاسعة :

---

(١) جزء من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، أخرج أصله الترمذي برقم (٢٥١٦) ٦٦٧/٤وقال : حديث حسن صحيح ، وهذه الزيادة أخرجها أحمدبرقم (٢٨٠٤) ٣٠٧/١ .

(٢) المستفاد في قصص القرآن ٥٠١/١ .

الصبر على الابتلاء من شيم الصالحين والصالحات ، فقد ابتليت مريم عليها السلام بابتلاءات عظيمة ، لا يحسن للمؤمن أمامها إلا الصبر ، بل على الدعاة أن يترقوا إلى م لة إيمانية أعلى من الصبر وهي الرضا بقضاء الله وقدره ، ثم شكره ، فإن " القضاء نوعان ، إما مصائب ، وإما معائب ، وله عليه عبودية فى هذه المراتب كلها ، فأحب الخلق إليه من عرف عبوديته في هذه المراتب ، ووفاها حقها ، فهذا أقرب الخلق إليه ، وأبعدهم منه من جهل عبوديته في هذه المراتب ، فعطلها علما وعملا ، فعبوديته في الأمر امتثاله إخلاصا ، واقتداءً برسول الله ﷺ ، وفي النهى اجتنابه خوفا منه ، وإجلالا ، ومحبة ، وعبوديته في قضاء المصائب الصبر عليها ، ثم الرضا ا ، وهو أعلى منه ، ثم الشكر عليها ، وهو أعلى من الرضا "[1] .

اللطيفة العاشرة :

قوم مريم لما رأوا الصبي معها ، ألقوا التهم عليها مباشرة ، فقالوا:﴿ لقد جئت شيئا فريا ﴾ وذلك قبل أن يسألوها ، فقد تلقى التهم على الدعاة مباشرة ، وقبل سماع ردهم ، بل لا عجب أن تبتدع التهم ابتداعا .

فعلى الدعاة أن يتهيئوا لمثل هذه الأمور ، وألا تثنيهم عن دعو م ، وهذا يرجع إلى فقه التعامل مع الناس .

اللطيفة الحادية عشرة :

من فقه التعامل مع الناس أيضا : أن يوضع في الحسبان أن الناس يغفلون عن دراسة سلوك الإنسان ، ولو كانوا أدرى الناس به ، وينسون ثناءهم فيما لو رأوه على أمر محتمل ، فقوم مريم عليها السلام مع شدة عباد ا ، واشتهارها بين قومها في ذلك ، وحسن سير ا ، وسلامة سلوكها ، إلا أن ذلك لم يكن مدافعا عنها لما رأوا معها ابنها ، وا موها بالفاحشة التي أبعد ما تكون عن مريم ، وهذا يفيد الدعاة في طريقة التعامل مع الناس ، فلا يعتمد الإنسان عليهم كثيرا ، ولا يثق بآرائهم تجاهه ، وحسن كلامهم معه ، وعبارات الثناء التي يسمعها ، فإن هؤلاء المادحين سرعان ما يكونون قاذفين حينما يرون على الإنسان شبهة ، وتضيع تلك السيرة الماضية العطرة عندهم ، لأن معاملة الناس

---

(١) الفوائد ١١٢ .

لبعضهم البعض مبنية على تحقيق مصالحهم الدنيوية ، فإن أصابه أذى فلا يشتغل بالانتقام ؛ لأن هذا هو الأصل في تعامل الناس معه ، "وهذا مشهد شريف جدا لمن عرفه وذاق حلاوته ، وهو ألاّ يشتغل قلبه وسره بما ناله من الأذى ، وطلب الوصول إلى إدراك ثأره ، وشفاء نفسه ، بل يفرغ قلبه من ذلك ، ويرى أن سلامته وبرده وخلوه منه ؛ أنفع له وألذ وأطيب ، وأعون على مصالحه ، فإن القلب إذا اشتغل بشيء فاته ما هو أهم عنده ، وخير له منه،فيكون مغبونا،والرشيد لا يرضى بذلك،ويرى أنه من تصرفات السفيه،فأين سلامة القلب من امتلائه بالغل والوساوس وإعمال الفكر في إدراك الانتقام"[١].

(١) مدارج السالكين ٢:٣٢٠ .

المبحث الخامس

أهل العلم من قوم قارون

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : تفسير الآيات الواردة في شأنهم .

المطلب الثاني : اللطائف الدعوية المستنبطة من الآيات .

المطلب الأول

تفسير الآيات الواردة في شأن أهل العلم من قوم قارون

قال تعالى :﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾[١].

فقوله :﴿إن قارونَ كانَ مِن قومِ موسى﴾ ظاهرها يدل على أنه من بني إسرائيل ، وأنه آمن بموسى عليه السلام ، وحكى ابن عطية الإجماع على ذلك[٢] .

" وعدل عن أن يقال : كان من بني إسرائيل ، لما في إضافة قوم إلى موسى من الإيماء إلى أن لقارون اتصالا خاصا بموسى فهو اتصال القرابة "[٣] وهذا يؤكد إيمانه .

وقوله :﴿فبغى عليهم﴾ " الفاء للترتيب والتعقيب ، أي لم يلبث أن بطر النعمة ، واجترأ على ذوي قرابته للتعجب من بغي أحد على قرابته "[٤] .

البغي يدور معناه على الظلم والكبر ، وقد تعددت أقوال المفسرين في الظلم الذي

---

(١) القصص : ٧٦ .

(٢) المحرر ٢٩٨/٤ .

(٣) التحرير والتنوير ١٧٦/٢٠ .

(٤) التحرير والتنوير ١٧٦/٢٠ .

مارسه قارون ، فقيل : إن فرعون ملكه على بني إسرائيل فظلمهم ، وقيل : منع الفقراء حقهم من ماله[1] ، وقيل : طلب أن يكونوا تحت يده[2] ، وقيل : إنه جعل جعلاً لبغي على أن تقذف موسى بنفسها ، وقيل : بغى عليهم بالكفر، وقيل : زاد في ثوبه شبرا [3] ، وقيل غير ذلك .

وهذه الأقوال هي أنواع من الظلم الذي مارسه قارون على قومه ، وليس من الضروري الترجيح في هذا المقام ، إذ أن البغي والعدوان ، يحملان الإنسان على التكبر على بني جنسه حتى في لباسه ؛ فيرخي ثوبه ، ويمنع حق الفقراء من ماله ، ويظن ألاّ حق لهم به ، ويطلب الإمارة للتسلط على الناس ، وحب السيطرة عليهم ، وإلصاق التهم بمن يرى أن الناس يحبونه ، وهذه أمور إذا اجتمعت فهي طرق أدت في ـاية المطاف إلى الكفر بالله .

وأما سبب هذا البغي مع أنه كان من قوم موسى عليه السلام فقد اختلفت عبارات المفسرين لبيان السبب ، وهو اختلاف تنوع لا تضاد ، فمن ذلك :

أنه بغى عليهم لكثرة ماله وولده[4] ، وقيل : لأنه نافق[5] ، وقيل : بغى عليهم للزهو والإعجاب[6] ، وقيل : بغى عليهم لحسده هارون[7] ، وهذه أمراض قلبية ، تجتمع لتعلق صاحبها بالدنيا ، ونظرته لكثرة أولاده ، وأمواله ، فتورثه نفاقا في قلبه ، وحسدا لغيره ، وزهوا وإعجابا بنفسه ، حتى يهلك ، نعوذ بالله من الخذلان .

وقوله :﴿ وآتيناه مِن الْكُنوزِ ما إِن مفَاتِحه لَتنوءُ بِالْعصبةِ أُولِي الْقُوةِ ﴾ " كان قارون من أعظم الناس مالا ، وسميت أمواله كنوزا ؛ إذ كان ممتنعا من أداء الزكاة "[8] .

وأما المفاتح فتحتمل أن تكون مفاتيح أبواب الخزائن ، وتحتمل أن تكون الخزائن

---

(١) انظرهذين القولين في : التفسير الكبير ١٣/٢٥ .
(٢) انظر : تفسير أبي السعود ٢٤/٧ .
(٣) انظر هذه الأقوال في : زاد المسير ٢٣٦/٦ .
(٤) الدر المنثور ٤٣٧/٦ .
(٥) الكشاف ٤٣٤/٣ .
(٦) المحرر الوجيز ٢٩٨/٤ .
(٧) التفسير الكبير ١٣/٢٥ .
(٨) المحرر الوجيز ٢٩٨/٤ .

نفسها[1] ، والقولان متقاربان ، والأولى منهما أن يراد ا المفاتيح على ظاهرها ، ولهذا يرد القول القائل بأن المراد بالمفاتح :" العلم والإحاطة ، والمراد آتيناه من الكنوز ما إن حفظها والاطلاع عليها ليثقل على العصبة أولي القوة والهداية ، أي : هذه الكنوز لكثر ا واختلاف أصنافها تتعب حفظتها والقائمين عليها أن يحفظوها "[2]، فهذا قول بعيد عن ظاهر الآية .

وقوله :﴿لَتنوءُ بِالْعصبةِ أُولِي الْقُوةِ ﴾ المراد بالنوء " نوأ ناء بحمله ، ينوء نوءا وتنواء ، ض بجهد ومشقة ، وقيل أثقل فسقط "[3]،وعلى هذا لا فرق كبير بين أن يقال : المفاتح تنوء بالعصبة أولي القوة ، والمفاتح تنوء ا العصبة أولي القوة ، لأن الأمرين مرتبطان مع بعضهما ، فالمفاتح لكثر ا ينهض ا العصبة بمشقة وجهد ، وكذلك لتعددها ، وتنوعها ، فإن العصبة إذا حملوها تثقل م حتى تكاد تسقطهم .

والصيغة الأولى:(المفاتح تنوء بالعصبة أولي القوة) أي: ينهضون بمشقة وجهد ؛ أبلغ في نظري ، لأ ا الموافقة لظاهر الآية ، ولكو ا تدل على كثرة الكنوز أكثر من دلالة الصيغة الثانية على ذلك .

وقد أظهرت الآية الثراء الفاحش جدا الذي تمتع به قارون وذلك من خلال ما يلي :

تسمية أمواله كنوزا وهي صيغة تفيد الكثرة ، ثم إ ا وصفت لنا مقدار مفاتحه فقط ، دون ذات الأموال ، وهذه المفاتح تنوء بالعصبة ، فينهضون ا بجهد ومشقة كلما أرادوا حملها ، وأ ا تثقل بالعصبة ذوي العدد من الرجال ، فليسوا عددا قليلا ، إضافة إلى أن هؤلاء العصبة يتمتعون بقوة ، فليسوا من ضعاف الأجسام حتى يعذرون في مشقة حملها .

وقد أكثر أهل التفسير من التفاصيل الدقيقة عن عدد المفاتيح ، وحجمها ، وعدد العصبة من الرجال ؛ وهي تفاصيل لا أدلة لها فإهمالها أولى من العناية ا .

وقوله :﴿إِذْ قَالَ لَه قَومه لا تفْرح إِن الله لا يحِب الْفَرِحِين ﴾ هذا بداية كلام الدعاة الناصحين من قومه ، وأول وصاياهم قولهم " لا تفرح " وقد تنوعت عبارات المفسرين ؛

---

(١) انظر الأقوال في : تفسير الطبري ١٠٦/٢٠ ، وتفسير البغوي ٤٥٤/٣ ، وزاد المسير ٢٤٠/٦ .

(٢) التفسير الكبير ١٤/٢٥ .

(٣) لسان العرب، مادة (نوأ) ، ١٧٤/١ .

في إيضاح معنى الفرح المنهي عنه ، فقيل : لا تفرح بما أُوليت فتبطر[1]،وقيل : ـوه عن الفرح المطغي[2] ، وقيل : السرور بغير حق[3] ، وقيل : لا تفسد[4] .

وهذا يعطينا الدلالة على أن " موعظة القوم لقارون كانت معتدلة ، متزنة ، فإنه لم ينه عن الفرح المعتدل الذي لا ينسي الشكر ، وإنما ـوه عن الفرح المبالغ فيه ، والذي يفضي إلى الفساد والبطر ، وهو ما عبر عنه المفسرون بعبارات متنوعة "[5] ، ومن كانت هذه صفته فإن الله لا يحبه ، وفي الآية إثبات صفة المحبة لله سبحانه وتعالى ، وقد تأولها العلامة المحقق ابن عطية رحمه الله وعفا عنه متبِعاً المنهج الأشعري في تأويل الصفات غير السبع ، فقال :" ولا يحب في هذا الموضع صفة فعل ، لأنه أمر قد وقع ، فمحال أن يرجع إلى الإرادة ، وإنما هو لا يظهر عليهم بركته ، ولا يهبهم رحمته "[6] .

وهذا الذي قاله هروباً من الأفعال الاختيارية ، التي تتعلق بمشيئة الله واختياره ، ومن ذلك المحبة[7] ، ومما يرد به عليه أن الآية دلت على أنه لم يقع إلا على واحد ؛ ومع ذلك جاءت بصفة الجمع ﴿ لا يحِب الفَرِحِين ﴾ فتعم كل من تحقق به هذا الوصف ولو لم يأت إلا في مستقبل الزمن ، ثم إن الإرادة غير المحبة فكيف تجعل الصفتان صفة واحدة ، مع التباعد بينهما .

وقال تعالى :﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[8].

فقوله :﴿وابتغِ فِيما آتاك الله الدار الْآخِرةَ﴾ أي : " اقصد الآخرة بما أعطاك الله من

(1) الدر المنثور ٤٣٨/٦ .
(2) المحرر الوجيز ٢٩٩/٤ .
(3) تفسير السمعاني ١٥٦/٤ .
(4) تفسير القرطبي ٣١٣/١٣ .
(5) التفسير الموضوعي التأصيل والتمثيل ، زيد بن عمر العيص :٢٩٨،{الرشد ،الرياض: ١٤٢٦هـ } .
(6) المحرر الوجيز ٢٩٩/٤ .
(7) انظر: شرح العقيدة الواسطية ، لفضيلة الشيخ صالح بن فوزان الفوزان :ص١٠٨،{ط٦، مكتبة المعارف ،الرياض: ١٤١٠هـ } .
(8) القصص : ٧٧ .

المال،وذلك بفعل الحسنات والصدقات "[1]ولا يكاد يخرج كلام المفسرين عن ذلك .

وقوله :﴿ولا تنس نصِيبك مِن الدنيا﴾ أما هذه فاختلف المفسرون اختلاف تضاد على قولين :

أن المراد " ولا تترك نصيبك وحظك من الدنيا ؛ أن تأخذ فيها بنصيبك من الآخرة ، فتعمل فيه بما ينجيك غدا من عقاب الله "[2] وقال به الجمهور من المفسرين[3] .

وقيل : " لا تضيع حظك من دنياك ؛ في تمتعك بالحلال ، وطلبك إياه ، ونظرك لعاقبة دنياك "[4] .

والراجح – والله أعلم وأحكم – أن المراد بالنصيب هنا هو حظ الإنسان من الآخرة ، فعلى هذا تكون نصيحة قوم قارون له ألا ينسى نصيبه من الدنيا ، فيعمل بطاعة الله ، ويسخر حياته لمرضاة ربه ، وما عدا ذلك فليس من نصيبك ، وإنما ذاهب عنك ، دائر بين مباح لا أجر فيه ، أو محرم مأمور الترك ، ويدل لهذا الترجيح ما يلي :

١ ـ أن هذا قول ابن عباس ﷺ ولم ينقل عنه غيره ، كما أنه قول أحد كبار تلامذته مجاهد رحمه الله .

٢ ـ أن حال قارون لا يناسب أن يقال له : لا تنس نصيبك من التمتع ، لأنه أغرق في هذا الجانب حتى أهلك نفسه ، وبعضهم أجاب عن هذا الإشكال بقوله " لعله كان مستغرق الهم في طلب الدنيا ، فلأجل ذلك ما كان يتفرغ للتنعم ، والالتذاذ ، فنهاه الواعظ عن ذلك "[5] ،وهذا مع صحته في بيان حال اللاهي وراء جمع المال ؛ إلا أن في الآيات ما يرد ذلك ، في حال خروجه في زينته ، مما يدل على أنه يتمتع بدنياه .

٣ ـ أن نصيحة قومه في قولهم :﴿ وابتغِ فِيما آتاك الله الدار الْآخِرةَ﴾ وقولهم:﴿وأحسِن كما أحسن الله إِليك﴾ شملت النفع المتعدي للغير ، فناسب أن يختص قولهم :﴿ولا تنس نصِيبك مِن الدنيا ﴾ بالطاعة اللازمة لنفسه .

---

(١) التسهيل لعلوم التـ يل ١١١/٣ .

(٢) تفسير الطبري ١١٢/٢٠ .

(٣) تفسير القرطبي ٣١٤/١٣ .

(٤) تفسير القرطبي ٣١٤/١٣ .

(٥) التفسير الكبير ١٤/٢٥ .

وعلى هذا يكون استعمال الآية :﴿ ولا تنس نصِيبك مِن الدنيا ﴾ على التمتع بالمباح غير دقيق ، علما بأن هذا الاستعمال قديم ، وكان السلف ينبهون على خطئه ،كما قال عون بن عبد الله[1] رحمه الله:﴿ولا تنس نصِيبك مِن الدنيا﴾ ،قال إن قوما يضعو ا على غير موضعها،ولا تنس نصيبك من الدنيا ؛ تعمل فيها بطاعة الله"[2] .

بقي أن يقال إن النصيحة على هذا المعنى يكون فيها شدة ، والأصل في النصيحة اللين ، والجواب : بأن شدة النصيحة ناسبت شدة طغيان قارون ، فكثرة أمواله التي تنوء مفاتيحها بالعصبة أولي القوة ، مع بغيه على قومه ، اجتمعت فأخرجت تكبرا ، وتجبرا ، وعدوانا ، فمن كانت هذه حاله ناسب الشدة في نصيحته ، والإغلاظ عليه .

وقوله :﴿وأحسِن كما أحسن الله ِإليك ﴾ فيها أقوال كثيرة " جماعها استعمل نعم الله في طاعته "[3]،وقد"حذف متعلق الإحسان لتعميم ما يحسن إليه فيشمل نفسه ، وقومه ، ودوابه ، ومخلوقات الله الداخلة في دائرة التمكن من الإحسان إليها "[4] .

وقوله :﴿ ولا تبغِ الْفَساد ِفي الْأرضِ ﴾ أي : لا تطلب الفساد في الأرض ، فإن الله لا يحب المفسدين ، "[5] ،والمراد بالأرض أرضهم التي هم حالون ا ، وإذ قد كانت جزء من الكرة الأرضية فالإفساد فيها إفساد مظروف في عموم الأرض "[6] .

وقال تعالى :﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾[7].

فقوله :﴿قَالَ ِإنما أُوتيته علَى عِلْمٍ عِندِي ﴾ هذا رده على قومه ، وهو محاولة منه لتبرير طغيانه بماله في وجوه الفساد ، وقد اختلفت عبارات المفسرين في هذه الآية ،

---

(١) أبو عبد الله عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي ، الإمام ، العابد ، حدث عن أبيه وطائفة من الصحابة ، شارك في فتنة ابن الأشعث ، كان له مكانة عند عمر بن العزيز رحمه الله ، توفي سنة بضع عشرة ومائة للهجرة . انظر : الطبقات الكبرى ٣١٣/٦ ، وسير أعلام النبلاء ١٠٤/٥-١٠٥ .

(٢) تفسير الطبري ١١٢/٢٠ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٥١٢/٣ .

(٤) التحرير والتنوير ١٧٩/٢٠ .

(٥) تفسير الجلالين ، محمد بن أحمد المحلي ، والسيوطي :ص٥١٨،{ط١، دار الحديث ،القاهرة: بدون} .

(٦) التحرير والتنوير ١٨٠/٢٠ .

(٧) القصص : ٧٨ .

وأولاها في نظري أن المراد " لولا رضا الله عني ، ومعرفته بفضلي ؛ ما أعطاني هذا "[1] ويؤيد هذا المراد ما يلي :

١ ـ الآية التي قبلها وهي قوله:﴿وأحسِن كَمَا أحسن الله إِلَيك﴾ ، فإن قوم قارون ذكروا له في نصيحتهم له أن الله هو المتفضل عليه بالمال ، فرد عليهم في هذه الآية بأن الله أعطاني هذا المال لفضلي ، ورضاه عني .

٢ ـ الآية التي بعدها ، وهي قوله :﴿ أولَم يعلَم أن الله قَد أهلَكَ مِن قَبلِهِ مِن الْقُرون﴾ حيث رد الله بأن مجرد الإيتاء لا يدل على الفضل ، وعدم العذاب ، ألم ينظر لحال القرون من قبله ، فقد كانوا أكثر منه جمعا للمال فأهلكتهم .

٣ ـ مجيء حرف الجر ﴿على﴾ يدل على أنه ضمن الفعل ﴿أوتيته﴾ معنى التفضيل على الغير ، فأراد قارون بأن الله أعطاني المال لفضلي على الناس .

٤ ـ " هكذا يقول من قلّ علمه ، إذا رأى من وسع الله عليه ، لولا أنه يستحق ذلك لما أُعطي "[2] .

وقوله تعالى :﴿ أولَم يعلَم أن الله قَد أهلَكَ مِن قَبلِهِ مِن الْقُرون من هو أشد مِنه قُوةً وأكْثَر جمعاً ﴾ الهمزة " للاستفهام الإنكاري التعجبي "[3] ، والمراد بالقرون " الأمم الخالية ، ومعنى أكثر جمعا ؛ أكثر منه جمعا للمال ، ولو كان المال ، أو القوة ، يدلان على فضيلة ؛ لما أهلكهم الله "[4] وتكرر حرف الجر ﴿مِن﴾ في قوله:﴿مِن قَبلِهِ مِن الْقُرون ﴾يدل على كثرة القرون التي أهلكها الله ، مع شد ا ، وقو ا ، ومع ذلك غفل عنها قارون .

وقوله ﴿ من هو أشد مِنه قُوةً وأكْثَر جمعاً﴾ دلت على اجتماع القوة ، والجمع لهم ، ومتعلق القوة والجمع محذوف ؛ ليشمل أنواعا كثيرة .

وقوله :﴿ ولا يسأَلُ عن ذُنوبِهم الْمجرِمونَ ﴾ قيل : لا يسألون وإنما يدخلون النار

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ، عبد الرحمن بن محمد بن أحمد الرازي ، تحقيق أسعد الرازي :٣٠١٢/٩،{المكتبة العصرية ،صيدا: بدون } .

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٣٠١٢/٩ .

(٣) التحرير والتنوير ١٨٢/٢٠ .

(٤) فتح القدير ١٨٧/٤ .

بلا حساب ، وقيل : لا يسألون لأن الملائكة تعرفهم بسيماهم ، وقيل : لا يسأل عن ذنوب تلك الأمم غيرهم[١] ، وقيل : لا يسألون سؤال استخبار واستفهام[٢] ، وقيل غير ذلك ، إلا أن الملاحظ أن هذه الأقوال وإن كان ظاهر اللفظ يحتملها ، إلا أن السياق يأباها ، فتذييل الرد على قارون ا يدل على أن بينهما رابطا ، والأولى في نظري أن يكون المعنى :﴿ ولا يسألُ عن ذُنوبِهم الْمجرِمونَ ﴾ "بل يعاقبهم الله ويعذ م على ما يعلمه منهم ، فهم وإن أثبتوا لأنفسهم حالة حسنة ، وشهدوا لها بالنجاة ، فليس قولهم مقبولا ، وليس ذلك رادا عنهم من العذاب شيئا ، لأن ذنو م غير خفية ، فإنكارهم لا محل له "[٣] ، ومن تأمل كلام قارون الذي واجه به قومه وجده يشهد لنفسه بالتزكية ، وأن الله يعلم فضله ، فرد الله بأن ا رمين لا يسألون عن حالهم ، ولا يتوقف العذاب حتى يقروا بالإجرام .

وقال تعالى :﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[٤] .

فقوله : ﴿فَخرج علَى قَومِهِ فِي زِينتِهِ﴾ " وأكثر المفسرون في تحديد زينة قارون ، وتعيينها بما لا صحة له "[٥] وإسناد الزينة إليه يدل على أنه خرج في كمال زينته ، وتنوعها .

وقوله :﴿ قَالَ الَذِين يرِيدونَ الْحياةَ الدنيا يا لَيت لَنا مِثْلَ ما أُوتي قَارونُ إِنه لَذُو حظ عظِيمٍ ﴾ اختلف المفسرون في القائلين ، فقيل : هم المؤمنون[٦] ، وقالوها على سبيل تمني إنفاقها في سبيل الله ، أو على سبيل الرغبة في اليسار والاستغناء[٧] .

---

(١) الأقوال انظرها في : تفسير الطبري ١١٤/٢٠ .
(٢) المحرر الوجيز ٣٠٠/٤ .
(٣) تفسير السعدي ٦٢٤ .
(٤) القصص : ٧٩ .
(٥) المحرر الوجيز ٣٠١/٤ .
(٦) التفسير الكبير ١٦/٢٥ .
(٧) الكشاف ٤٣٦/٣ .

وقيل : هم الكافرون[1] ، والسياق يحتملهما ، إلا أن الأولى في نظري أن المراد م ضعاف الإيمان من المؤمنين ؛ وذلك لأن " الذين يريدون الحياة الدنيا لما قوبلوا بالذين أوتوا العلم ، كان المعني م عامة الناس ، وضعفاء اليقين ، الذين تلهيهم زخارف الدنيا عما يكون في مطاويها ، من سوء العواقب ، فتقصر بصائرهم عن التدبر إذا رأوا زينة الدنيا ، فيتلهفون عليها ، ولا يتمنون غير حصولها ، فهؤلاء وإن كانوا مؤمنين إلا أن إيما م ضعيف ، فلذلك عظم في عيو م ما عليه قارون من البذخ ، فقالوا :﴿ إنه لَذُو حظ عَظِيمٍ ﴾ أي لذو بخت وسعادة "[2] .

وإرادة الدنيا على هذا القول أن " أكثر المسلمين وغيرهم جعلوا همهم ، وحرثهم ، وكدحهم ، للدنيا وحدها ، فلا تتحرك قلو م ولا تنفعل إلا لها و ا ، حتى أ م لو دعوا الله وعبدوه فإنما يريدون بذلك زيادة الخير والبركة في الصحة والرزق ، وهذا باب أوسع من باب فساد النية مع عمل صالح يفعله العبد المؤمن ، فهذا الباب الأخير يصيب الصالحين ، ويعرض للمخلصين "[3] .

وقال تعالى :﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾[4] .

فقوله :﴿وقَالَ الذِين أُوتوا الْعِلْم﴾ لم يذكر هنا الذين يريدون الآخرة ؛ مقابلة بالذين يريدون الحياة الدنيا ، وذلك " لأن العلم بأحوال النشأتين ؛ يقتضي الإعراض عن الأولى ، والإقبال على الثانية حتما "[5] أي اكتفاء بذكره العلم ، والمراد بالعلم هنا ، العلم النافع ، " ومن علامات العلم النافع : أنه يدل صاحبه على الهرب من الدنيا "[6] .

وقوله :﴿ ويلَكُم ﴾ تستعمل في التعجب ، فالذين أوتوا العلم يتعجبون من تعلق

(١) تفسير ابن زمنين ٣٣٦/٣ .
(٢) التحرير والتنوير ١٨٣/٢٠ .
(٣) ظاهرة الإرجاء ١٥١/١ .
(٤) القصص : ٨٠ .
(٥) تفسير أبي السعود ٢٦/٧ .
(٦) مجموع رسائل ابن رجب الحنبلي ٣١/٣ .

نفوس أولئك بزينة الحياة الدنيا ، واغتباطهم بحال قارون ، دون اهتمام بثواب الله [١] ، ويصح حملها على ظاهرها للتهديد ، والمقام يناسب ذلك ، فمن فُتن بزهرة الحياة الدنيا ، وخشي من فوات إيمانه ؛ ناسب ديده بعذاب الله .

وقوله :﴿ ثَواب اللهِ خير لِمن آمن وعمِلَ صالِحاً ﴾ الثواب هنا يشمل " العاجل من لذة العبادة ، ومحبته ، والإنابة إليه ، والإقبال عليه ، والآجل من الجنة "[٢] ، والجمع بين الإيمان والعمل الصالح يؤكد منهج أهل السنة في أن الإيمان قول وعمل .

وقوله :﴿ ولا يلَقاها إلا الصابِرونَ ﴾ " يجوز أن تكون الواو للعطف ، فهي من كلام الذين أوتوا العلم ، أمروا الذين فتنتهم حال قارون بأن يصبروا على حرما م مما فيه قارون ، ويجوز أن تكون الواو اعتراضية ، والجملة معترضة من جانب الله تعالى علم ا عباده فضيلة الصبر "[٣] .

والتلقي هو الاستقبال[٤] ، والملاقاة : توافي اثنين متقابلين[٥] ، وهذا يشعرنا بأن تلقي فضائل الله ومواهبه وفتوحاته لا تكون إلا إذا توافقت مع صبر لها ، وصبر عن شهوات النفس ، ولهذا لا يلقاها إلا الصابرون ، فإن عدم أحدهما لم يحصل التلقي لفوات شرطه .

وكذلك اختلف المفسرون في مرجع الضمير في قوله " ولا يلقاها " فقيل : " عائد على الخصال التي دل عليها الكلام المتقدم ، وهي الإيمان ، والعمل الصالح ، وقيل : على الكلمة التي قالها الذين أوتوا العلم ، أي لا تصدر الكلمة إلا عن الصابرين "[٦] ، وقيل : يعود على الجنة[٧] .

وقيل : يعود على ما لم يسبق له ذكر ، والمعنى أن النظر والتمني إنما ينبغي أن يكون في أمر الآخرة ، وأن حالة المؤمن العامل الذي ينتظر ثواب الله تعالى خير من حال كل

---

(١) انظر : التحرير والتنوير ١٨٤/٢٠ .
(٢) تفسير السعدي ص٦٢٤ .
(٣) التحرير والتنوير ١٨٤/٢٠ .
(٤) لسان العرب، مادة (لقا) ، ٢٥٦/١٥ .
(٥) معجم مقاييس اللغة ، مادة (لقي) ،ص٩٥٩ .
(٦) التسهيل لعلوم لتـ يل ١١٢/٣ .
(٧) تفسير ابن كثير ٤٨٥/١٠ .

ذي دنيا ، ثم أخبر تعالى عن هذه الـ عة ، وهذه القوة في الخير والدين ؛ أ ا لا يلقاها أي : لا يمكّن فيها ويخولُها إلا الصابر على طاعة الله ، وعن شهوات نفسه ، وهذا هو جماع الخير كله[1]، وهذا هو الراجح في نظري، وتدخل فيه الأقوال المتقدمة .

وقال تعالى :﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾[٢] .

فقوله :﴿فَخسفْنا بِهِ وبِدارِهِ الْأرض ﴾ " دلت الفاء على تعقيب ساعة خروج قارون في ازدهائه ، وما جرى فيها من تمني قوم أن يكونوا مثله ، وما أنكر عليهم علماؤهم من غفلة عن التنافس في ثواب الآخرة ؛ بتعجيل عقابه في الدنيا بمرأى من الذين تمنوا أن يكونوا مثله "[٣].

كما أن الفاء تدل على أنه " أَشِر ، وبطَر ، وعتا ، فخسف الله به وبداره الأرض ، جزاء على عتوه ، وبطره ، لأن الفاء تشعر بالعلية "[٤] ، " والخسف : انقلاب بعض ظاهر الأرض إلى باطنها ، وعكسه "[٥] ، وعاقبه الله بالخسف " جزاء من جنس عمله ، فكما رفع نفسه على عباد الله ، أنزله الله أسفل سافلين هو وما اغتر به من داره وأثاثه ومتاعه "[٦] .

وذكره تعالى للدار ﴿ وبِدارِهِ ﴾ " لأنه ذكر أن موسى إذ أمر الأرض أن تأخذه ؛ أمرها بأخذه وأخذ من كان معه من جلسائه في داره ، وكانوا جماعة جلوسا معه ، وهم على مثل الذي هو عليه من النفاق ، والمؤازرة على أذى موسى "[٧] ، وقيل : ليقطع القول بأن موسى دعا ربه لاك قارون ليرث ماله ، فقد قيل : بأنه ابن عمه[٨] .

---

(١) المحرر الوجيز ٣٠١/٤ .
(٢) القصص : ٨١ .
(٣) التحرير والتنوير ١٨٥/٢٠ .
(٤) التفسير الكبير ١٦/٢٥ .
(٥) التحرير والتنوير ١٨٥/٢٠ .
(٦) تفسير السعدي ص ٦٢٤ .
(٧) تفسير الطبري ١١٦/٢٠ .
(٨) انظر : القرطبي ٣١٧/١٣ .

والأمران محتملان ، لأن أصحاب الأموال في الغالب يميل إليهم عباد الدنيا ، ويشاركوهم باطلهم طمعا فيما عندهم ، واحتمال اللمز لنبي الله موسى عليه السلام لا يستغرب من بني إسرائيل ، وقد قال النبي ﷺ " رحم الله أخي موسى ، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر "[1] .

والباء في قوله :﴿ بِهِ وبدارِهِ الْأرض ﴾ " للمصاحبة ، أي خسفنا الأرض مصاحبة له ولداره ، فهو وداره مخسوفان مع الأرض التي هو فيها ، وهذا الخسف خارق للعادة ؛ لأنه لم يتناول غير قارون "[2] .

قوله :﴿ فَما كَانَ لَه مِن فِئَةٍ ينصرونه مِن دون اللهِ وما كَانَ مِن الْمنتصِرين ﴾ الفئة هي " الجماعة التي يفيء إليها الرجل عند الحاجة إليهم للعون على العدو ، والمعنى : فلم يكن له جند يرجع إليهم ، ولا فئة ينصرونه لما نزل به من سخطه ، بل تبرءوا منه "[3] ، والآية تدل على كثرة أتباع قارون ، ممن ملك أعناقهم بماله ، كما تفيد هوانهم على الله إذا نزل عذابه ، ولهذا جاء النفي بصيغة قطعية ، فقال الله:" فما كان له من فئة " فاجتمع فيها النفي الصريح ، والنكرة التي في سياق نفي ﴿فئة﴾ ، ومِن التبعيضية ، فكأن الأتباع لما نزل أمر الله غير موجودين ، وليس لهم ذكر .

والمنتصرين قيل فيها : وما كان من المنتقمين من موسى عليه السلام ، وقيل : الممتنعين من عذاب الله[4] وهو الأولى ؛ لأن عجزه عن دفع العذاب عن نفسه أبلغ في تصوير ضعفه ، وهوانه على الله ، من ذكر انتقامه من موسى عليه السلام .

وقال تعالى :﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب الجهاد والسير ، باب ما كان يعطي النبي ﷺ المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ، برقم (٢٩٨١)١٥٧٦/٤، ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام ، برقم (١٠٦٢) ٧٣٩/٢.

(٢) التحرير والتنوير ١٨٥/٢٠ .

(٣) تفسير الطبري ١١٩/٢٠ . بتصرف .

(٤) انظر القولان في : الكشاف ٤٣٨/٣ .

﴿الْكَافِرُونَ﴾[١] .

فقوله :﴿ وأصبح الذِين تمنوا مكَانه ِبالْأمسِ ﴾ " دل أصبح إذا حمل على ظاهره على أن الخسف به وبداره كان ليلا ، وهو أفظع العذاب ، إذ الليل مقر الراحة ، والسكون ، وقال بعضهم : هي بمعنى صار ، أي صار المتمنون "[٢] والقول الثاني أولى ، لرؤية الناس لخسف الله به ، كما يفيده ظاهر الآيات .

و﴿الأمسِ﴾ يحتمل على ظاهره الأمس القريب ، ويحتمل قرب العهد[٣] ، ويظهر – والله أعلم – أن القوم لم يتمنوا حال قارون حينما خرج في زينته فقط ، وإنما كان حب الدنيا في قلو م ، فكلما تذاكروا أمرهم تمنوا أموال قارون ، وكلما رأوا قصره تمنوا داره ، وإذا سمعوا أخباره تمنوا حاله ، وهكذا ، كما هي عادة عباد الدنيا ، وأهل الشهوات ، وعلى هذا لا حاجة للترجيح بين معاني الأمس ، واحتمالات استعماله .

وقوله :﴿يقُولُونَ ويكَأَن الله يبسطُ الرزق ِلمن يشاُء ِمن ِعبادِهِ ويقْدِر﴾اختلف المفسرون في ﴿ ويكَأن ﴾على أقوال أذكرها مختصرة ، قيل :

١ ـ إ ا كلمة واحدة ، معناه : ألم تر ، أو ألم تعلم ، وعلى هذا يكون المعنى : " وأصبح الذين تمنوا مكان قارون ، وموضعه من الدنيا بالأمس ، يقولون لما عاينوا ما أحل الله به من نقمته : ألم تر يا هذا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ، فيوسع عليه ، لا لفضل م لته عنده ، ولا لكرامته عليه ، كما كان بسط من ذلك لقارون ، لا لفضله ، ولا لكرامته عليه .

﴿ويقْدِر ﴾يقول : ويضيق على من يشاء من خلقه ذلك ، ويقتر عليه ، لا لهوانه ، ولا لسخطه عليه "[٤] .

٢ ـ إ ما كلمتان ، ثم اختلفوا في بيا ما ، فقيل : ويك حرف ، وأنه حرف ، والمعنى " ويلك اعلم أنه ، فحذفت اللام ، كما قالوا : قم لا أباك ، يريدون لا أبالك ،

---

(١) القصص : ٨٢ .
(٢) روح المعاني ١٢٤/٢٠ .
(٣) التسهيل لعلوم الت يل ١١١/٣ .
(٤) تفسير الطبري ١٢١/٢٠ .

وقيل : وي حرف ، وكأنه حرف ، فيكون معنى وي التعجب "[1] .

وعلى جميع الأقوال ، لما شاهدوا الخسف ، كان ذلك زاجرا لهم عن حب الدنيا ، وداعيا إلى الرضا بقدر الله ، فتنبهوا لخطئهم[2] ، حيث ظنوا أن المال يدل على رضا الله عن صاحبه ، فظهر لهم أن الله يعطي ويمنع ، ويضيق ويوسع ، ويخفض ويرفع ، وله الحكمة التامة[3] ، والحجة البالغة[4] ، فعلمنا حينئذ أن بسطه لقارون ليس دليلا على خير فيه ، وأننا غالطون في قولنا إنه لذو حظ عظيم[5] .

وقولهم :﴿ لَولا أَنْ من الله علَينا لَخسف بِنا ﴾ المراد:" لولا أن من الله تعالى علينا ؛ بالتجاوز عن تقصيرنا في تمنينا ذلك ، لخسف بنا جزاء ذلك،كما خسف به جزاء ما كان عليه "[6]،وهذا يؤكد أن الذين يريدون الحياة الدنيا كانوا من المؤمنين ضعاف الإيمان .

---

(١) زاد المسير ٢٤٦/٦ . بتصرف .

(٢) انظر : تفسير البحر المحيط ١٣١/٧ .

(٣) ومن ذكر من المفسرين بأن الرزق يبسطه الله " بمحض المشيئة " فذلك لمذهبه الفاسد في نفي الحكمة عن الله ، انظر : تفسير أبي السعود ٢٧/٧ .

(٤) انظر : تفسير ابن كثير ٤٨٧/١٠ .

(٥) تفسير السعدي ص ٦٢٤ .

(٦) روح المعاني ١٢٥/٢٠ .

المطلب الثاني

اللطائف الدعوية المستنبطة من الآيات

الآيات الواردة في قصة أهل العلم من قوم قارون تشتمل على كثير من اللطائف،والفوائد،والدرر،وسأقتصر – تمشيا مع موضوع بحثي – على اللطائف التي تختص بجانب الدعوة إلى الله،في جميع القصة بما فيها أقوال قارون؛لأنه يصعب فصل أجزاء القصة الواحدة :

اللطيفة الأولى :

التفتيش عن عيوب النفس ، وتعاهدها لئلا تصدأ بالأمراض القلبية ، والتفطن ل غات الشيطان من أولويات الداعية في تعامله مع نفسه ، فإن قارون كان من مؤمني قوم موسى عليه السلام، لكنه ابتلي كما سبق بيانه بالنفاق ، والحسد ، وحب الرئاسة ، والعجب بماله وولده وخدمه ، فأفضى به المرض إلى التعلق بدنياه ، والاغترار ا ، وما زال معرضاً عن التوبة ، ومتهاوناً بما عليه حاله ، حتى خرج عن دائرة الإسلام . وأهمية القلب يؤكدها حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه المرفوع : " آلا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، آلا وهي القلب "[(١)] "

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب الإيمان ، باب فضل من استبرأ لدينه ، برقم (٥٢) ٢٨/١، ومسلم ،

والقلب له حياة وبه علة ، فله مادتان ، وهو لما غلب عليه منهما ، ففيه من محبة الله والإخلاص له ، وفيه من محبة الشهوات ، وإيثارها ، والحرص على تحصيلها ، والحسد ، والكبر ، والعجب ، وحب العلو ، والفساد في الأرض بالرياسه ، ما هو مادة هلاكه وعطبه ، وهو إنما يجيب أقر ما منه بابا ، وأدناهما إليه جوارا "[1] .

اللطيفة الثانية :

وهي فرع عن الأولى ، إلا أني أخصها بالذكر لأهميتها للدعاة إلى الله ، فإن حب الرياسة أهلك قارون ، فقد ذكر جماعة من المفسرين بأنه طلب الرياسة[2] ، وقيل : بأن فرعون ملّكه على بني إسرائيل فظلمهم[3] ، ومما يقال في الجمع بين القولين ، بأنه طلب الرياسة،وحرص عليها ، ومازال يسعى لها حتى ملكه فرعون،ولا ننسى أنه كان قد بغى على قومه بالإعجاب بنفسه حتى ظهر الكبر على جوارحه فأطال ثوبه شبرا .

والرياسة ، وحب الصدارة ، تأخذ في الحياة أشكالا متنوعة ، تتنوع بقدر تعلق القلب ا ،والداعية مطلوب منه أن يجتنب الحرص عليها ، والشغف ا ، والركض وراءها،وعليه أن يفرح إن حجبها الله عنه،خاصة إن كان هناك من يقوم فيها بحقها.

اللطيفة الثالثة :

أبرزت الآيات فقه تعامل الداعية مع الدنيا ، والذي يقوم على تفريغ قلبه من النظر للدنيا ، والاعتماد عليها ، ومعاملتها على أ ا وسيلة للآخرة ، وطريق لعمار ا ، كما قيل: " إنما العاقل من عقل عن الله أمره ، وليس من عقل أمر دنياه "[4] ، ومن نظر لدنياه أو ما أعطى الله غيره من النعم ، أورثه ذلك تعظيمها ، فلا يزال به عدو الله حتى يحاول اكتسا ا ، زاعماً التقَوي ا على طاعة الله ، فيبدأ به المرض من حيث لا يشعر ، فيفرح إن أعطي ، ويحزن إن فات نصيبه ، وهكذا خطوة ، خطوة ، فإذا الدنيا قد أحاطت به ، وقد ضعف ما عنده من الإيمان ليدفع عنه الفتن ، فتطبق عليه فتهلكه ، وهذا ما حصل

كتاب المساقاة ، باب أخذ الحلال وترك الشبهات ، برقم (١٩٥٥) ١٢١٩/٣.

(١) إغاثة اللهفان ٩/١

(٢) تفسير أبي السعود ٢٤/٧ .

(٣) التفسير الكبير ١٣/٢٥ .

(٤) حلية الأولياء أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني :٣٧٠/٨،{ دار الكتاب العربي ،بيروت: ١٤٠٥هـ } .

لقارون ، فقد تنقل في عدة مراحل ، كان الأمر المتكرر في جميع المراحل التعلق بالدنيا ، نسأل الله العافية .

اللطيفة الرابعة :

ثبات الداعية على دينه يستجلب بوسائل كثيرة ، يرجع السبب في كثر ا إلى أهمية الثبات ، وخطورة ضده ، وهو ما حصل لقارون ، فقد أثبتت الآيات أن الحي لا يؤمن عليه الفتنة(١) ، حتى قيل : كان يسمى المنور لحسن صوته بالتوراة(٢) ، فيزيدنا هذا القول بأنه كان من القراء ، وحسن الصوت أيضا ، وقيل : إن ذلك كان بعدما جاوز بنو إسرائيل البحر(٣) ،وهذا يدل على أن طول المدة في الإيمان غير كاف في حصول الثبات .

فعلى المؤمن أن يديم سؤال الله الثبات ، اقتداء بالنبي ﷺ " كان أكثر دعائه يا مقلب القلوب ، ثبت قلبي على دينك "(٤) فقال له أصحابه: " آمنا بك ، وبما جئت به ، فهل تخاف علينا ، قال:نعم،إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله ، يقلبها تبارك وتعالى "(٥) .

اللطيفة الخامسة :

الآيات تربي في نفس المؤمن الداعية التواضع ، وحب المساكين ، ومخالطتهم ، وتخصيصهم بالدعوة ، وسماع مشاكلهم ، والمساهمة في حلها ، وإعطائهم من مال الله ، والمشي في حاجتهم ، وقد جاءت جارية إلى النبي ﷺ فقالت : " يا رسول الله إن لي إليك حاجة ، فقال : يا أم فلان انظري أي السكك شئت ؛ حتى أقضي لك حاجتك ، فخلا معها في بعض الطرق ، حتى فرغت من حاجتها "(٦) .

وقد كان قارون يمنع المساكين حقوقهم ، ويترفع عن الجلوس معهم ، ويرى أن

---

(١) جزء من قول الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ، أخرجه البيهقي في سننه ، تحقيق محمد عبد القادر عطا :١١٦/١٠،{ مكتبة الباز ،مكتبة: ١٤١٤هـ } .

(٢) تفسير الثعالبي ٢٦٠/٧ .

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٣٠٠٥/٩ .

(٤) أخرجه الترمذي ، كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ ، باب ما جاء في عقد التسبيح باليد ، برقم (٣٥٢٢)٥٣٨/٥ وقال : حديث حسن .

(٥) أخرجه المقدسي في الأحاديث المختارة ، تحقيق عبد الملك بن دهيش : {ط١،مكتبة النهضة الحديثة ،مكةك ١٤١٠هـ } برقم (٢٢٢٢)٢١١/٦، وقال : إسناده صحيح .

(٦) أخرجه مسلم ، كتاب الفضائل ، باب قرب النبي ﷺ من الناس ، برقم (٢٣٢٦) ١٨١٢/٤.

ذلك نقصا في حقه ، فجمع بين إزدرائهم ، والكبر عليهم ، فنشأت فيه أمراض قلبية ، سرت على جوارحه فأهلكته ، وهو ما يجب الحذر منه .

اللطيفة السادسة :

بذل النصيحة عادة إسلامية قديمة ِقدم الإسلام نفسه ، فقوم قارون عندما رأوا تكبره ، وبغيه وظلمه وإفساده بماله الأرض بادروه بالنصيحة ، ولم يعتبروه تدخلا في شؤون الغير ، أو تأخذهم العواطف ، أو يلعب الخوف والهلع والمرض النفسي وخوف الرد عليهم دورا أساسيا ، فالآيات تربي الداعية على تحمل مسؤولية مجتمعه ، وأن من واجبات دعوته ؛ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتقديم النصح للمحتاجين ، وتقويم المعوجين ، و ىذا يطرد الأنانية[1] ، وحب الاختصاص لنفسه دون سائر مجتمعه ، ويربي على التكافل ، ومتى أغلق الداعية على نفسه واحتجب عن الناس، وتخلى عن حقوق غيره من المسلمين ، انتشر الفساد في الأرض ، وعاد الضرر على ذلك الداعية وعلى دعوته ، ولذلك أوجبت الشريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كما صح في حديث أبي سعيد ﵁ مرفوعا :" من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان "[2] .

اللطيفة السابعة :

إصدار الأحكام على الناس تحتاج إلى دقة وعناية تفوق تلك الدقة التي يطالب الداعية بمراعا ا في الألفاظ ، فقوم قارون قالوا :﴿إن الله لا يحِب الفَرِحين﴾والفرح بكسر الراء : من أكثر ِمن الفرح ، وتخلق به على الدوام ، حتى يصير خلقا فيه ، فينقلب من انفعال نفسي معفو عنه إلى صفة مذمومة بآثارها "[3] ، فقد خصص قوم قارون الذم بالفِرحين ، ولم يقولوا : الفارحين ، للفرق بينهما ، حيث أن الفرِح هو من " بطر بالنعمة مغترا ا ، وأصله فارح إلا أنه حول لما ترى – الفرحين – للمبالغة "[4] فكانت

---

(١) الأثرة ، ومذهب يرد كل شيء إلى الأنا ، انظر : المعجم الوسيط، مادة (أثر) ، (٢٨/١) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان ، برقم (٤٩)٦٩/١ .

(٣) التفسير الموضوعي ص٢٩٧ .

(٤) روح المعاني : ١٦/١٢ .

صيغة الفرحين تفيد زيادة في البطر والإسراف ، فكان من المناسب أن يأتي ا قوم قارون دون الفارحين والتي تفيد مطلق الفرح المباح الذي ليس منهيا عنه دائما .

وعلى هذا كم عاد تعميم الأحكام على الدعوة بالضرر ؟ إضافة إلى أن التعميم يزيد في استعداء الناس من حولك ، ومن هنا كان أعدل الناس في الأحكام أهل السنة والجماعة ، فلا يعممون الأحكام ، فأهل البدع عندهم لا يعاملون معاملة واحدة[(١)] ، وليسوا على حد سواء ، فأهل السنة أصدق الناس لهجة ، وأعدل الناس حكما .

اللطيفة الثامنة :

إن للنصيحة فقهاً في الأداء ، فقد تتطلب أحيانا الشدة في المقال مع التصريح ، وهذا من فقه التعامل مع النصيحة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،فقوم قارون قالوا له:﴿ ولا تبغِ الْفَسادَ فِي الْأَرضِ ﴾ فجعلوه مفسدا في الأرض ، على أن فساده لم يتجاوز البلد التي يسكن فيها ، كما حمل بعض المفسرين الشدة في نصيحتهم عند قولهم:﴿ولا تنس نصِيبك مِن الدنيا﴾ فقد حمله جماعة من السلف على أن المراد لا تنس نصيبك من العبادة ، " فالكلام على هذا التأويل ، شدة في الموعظة "[(٢)] ، فمن الفقه اللين في موضعه ، والشدة في وقتها المناسب ، وقد أغلظ النبي ﷺ في بعض الحالات ، كحالة الإمام الذي كان يطيل الصلاة ، حيث قال له : " أفتان أنت ؟!"[(٣)] ، وغير ذلك من المواضع ، فلم تعد تلك الشدة نقصا ؛ لأ ا في موضعها المناسب .

اللطيفة التاسعة :

م لة الدعوة تتطلب من الداعية أن يقوم بأشياء كثيرة ، فمن يقوم بالنصح ، والإرشاد ، فإن من مهامه إصلاح الوضع المالي للناس ، فقوم قارون أرشدوا قارون لمشاريع يستثمر ماله فيها بطريق صحيح ، فمن ذلك :﴿وابتغِ فِيما آتاك الله الدار الْآخِرةَ

---

(١) انظر مثال ذلك في : الفتاوى ٣٥٢/٣ .

(٢) انظر : المحرر الوجيز ٢٩٩/٤ .

(٣) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب الجماعة والإمامة ، باب من شكا إمامه إذا طول وقال أبو أسيد طولت بنا يا بني ، برقم (٦٧٢) ٢٤٩/١ ، ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة ، برقم (٤٦٦) ٣٣٩/١.

ولا تنس نصِيبك مِن الدنيا وأحسِن كما أحسن الله إليك ﴾[1].

وما ذكره قوم قارون يعتبر سياسة في ترشيد المال ، حيث إنه يقوم على عدة أمور ، وهي :

١ ـ إذا رزقت بمال فلا تفرح فيه فرح البطر ، والأشر ، بل احمد الله عليه ، فهذا من فضل الله ، وهذا قولهم ﴿ لا تفْرح ﴾ .

٢ ـ اطلب الآخرة عن طريق مالك ، فساهم في دروب الخير ، وسخره في طاعة الله ، وهذا قولهم :﴿ وابتغِ فِيما آتاك الله الدار الْآخِرةَ﴾ .

٣ ـ لا يمتنع عليك بعد ذلك أن تتمتع بأكل الحلال منه ، على أحد القولين في الآية ، وهذا قولهم :﴿ ولا تنس نصِيبك مِن الدنيا ﴾ .

٤ ـ أحسن إلى الناس ، بإيتاء الفقراء ، والأيتام ، والمساكين ، وما يختص بالنفع المتعدي ، وهذا قولهم :﴿ وأحسِن كما أحسن الله إليك﴾ .

٥ ـ اجتنب المشاريع التي تعود بالفساد على مجتمعك ، وهي متنوعة وكثيرة .

ولو سار أصحاب الأموال على هذه السياسة لعاد مالهم نفعا عليهم ، ولاستفادوا منه ، وسلموا من حقد الغير ، وحسدهم ، وكانوا من عذاب الله في مأمن .

اللطيفة العاشرة :

الآيات دلت على التذكير بسنة من مضى ، وأخذ العبرة منهم ، فقال :﴿ أولَم يعلَم أن الله قَد أهلَك مِن قَبلِهِ مِن الْقُرونِ من هو أشد مِنه قُوةً وأكْثَر جمعاً ولا يسأَلُ عن ذُنوبِهم الْمجرِمونَ﴾[2] .

وهذا أمر مطرد في القرآن ذكره ، وهذا ما يجب على الداعية أن يعمِلَ ذهنه فيه ؛ليستنتج العبر في حياته مما يعود نفعه على دعوته .

اللطيفة الحادية عشرة :

يحسن لبعض المفسدين أن يبعدوا التهمة عن أنفسهم ، ويلبسوا على الناس ، فيزينوا أفعالهم بغير حقيقتها ، فبين الله بقوله تعالى: ﴿ولا يسأَلُ عن ذُنوبِهم الْمجرِمونَ ﴾على أن

---

(١) القصص : ٧٧ .

(٢) القصص : ٧٨ .

مدار الحكم على الغير عن طريق أعمالهم ، فمهما حاولوا الدفاع عن أنفسهم ، أو التلبس بثياب ليست لهم ، أوتلبيس الحق بالباطل ، وزينوا باطلهم ، فالحكم على حقيقة العمل ، لا على مسماه ، كما دل على أن تغيير الحقائق والمفاهيم عادة قديمة ، فقارون استبدل إفساده بجعله ذلك دليلا على رضا الله ، وزين باطله ، وحاول تبرير أفعاله ، وبغيه ، فقال :﴿ إنما أوتيته على علم عندي﴾ فرد الله عليه بقوله :﴿ ولا يسألُ عن ذُنوبهم الْمجرمونَ ﴾ أي فهم وإن أثبتوا لأنفسهم حالة حسنة ، وشهدوا لها بالنجاة ، فليس قولهم مقبولا ، وليس ذلك راداً عنهم من العذاب شيئا ؛ لأن ذنو م غير خفية ، فإنكارهم لا محل له "[1] .

اللطيفة الثانية عشرة :

أهل الإيمان يتفاوتون فيه ، وبناء عليه يتفاوتون في الافتتان بالدنيا ، فمن نقص حظه من الإيمان والعلم ، زاد افتتانه بالدنيا ، كما يفيده قوله :﴿فَخرج على قَومِهِ في زينتِهِ قَالَ الذِين يريدونَ الْحياةَ الدنيا يا لَيت لَنا مِثْلَ ما أُوتي قَارونُ إنه لَذُو حظ عظِيم﴾[2] .

ويؤكد ذلك أصل أهل السنة والجماعة في الإيمان ، وأنه يزيد وينقص ، وهذا على القول بأن القائلين هم من المؤمنين ، ممن ضعف إيما م ، وسياق الآيات والواقع يحتمله .

اللطيفة الثالثة عشر :

ذكر الله لأهل العلم دون أن يقول يريدون الآخرة كما قال في حق أهل الدنيا:﴿قَالَ الذِين يريدونَ الْحياةَ الدنيا﴾ اكتفاء بصفة العلم ، وأن المتحلي ا على وجه الكمال ، فهو ممن يريد الآخرة ، ويرجو رحمة ربه ، لأن العلم يعصم من الفتن ، ويقود لرضا الله ، ويصفي النية ، ويوحد القصد لله تعالى ، كما بينت الآيات نظرة أهل العلم للدنيا ، فهم ينظرون إليها على أ ا مطية للآخرة ، وأن نعيمها زائل ، فيغتنموها لزروع الآخرة ، فإن أُعطُوا منها عطاء استعملوه لزيادة نصيبهم من الآخرة ،وإن حرِموا منها لم يحزنوا عليها .

اللطيفة الرابعة عشر :

---

(١) تفسير السعدي ٦٢٤ .

(٢) القصص : ٧٩ .

دلت الآيات على أن أهل الدنيا المفتونين ا يقيسون الأمور قياسا ماديا ، خاليا عن الروح الإيمانية ، والمعاني العلمية ، وفي الآيات مثالان :

١ ـ قارون حيث قاس مقدار رضا الله على قدر ما يفتح الله على العبد من الدنيا ، وهو قياس مادي محض ، استعملت فيه المادة أداة ، ووحدة قياس ، ونتيجة .

٢ ـ الذين يريدون الحياة الدنيا قاسوا حظ قارون على مقدار ما لديه من متاع الدنيا ، فقالوا لما رأوا زينته :﴿إنه لَذُو حظ عظِيمٍ﴾ ، وهذا كقياس قارون السابق .

بينما أهل العلم والإيمان يربطون أمور الدنيا بالآخرة ، فمن أوتي نعمة فتقرب ا لله ، وابتغى ا الدار الآخرة ، وأحسن فيها كما أمره الله ، فهو ذو الحظ العظيم ، وإلا كانت وبالا وحسرة عليه ، " فلا ينظرون إلى زينة الحياة الدنيا وأهلها إلا مقرونا بنعيم الآخرة ، فيصغر في أعينهم ما عليه المترفون وأهل الدنيا من زينتها ومتاعها ، فلا يتأثرون ا أبدا ، كالذي ينظر إلى الحصاة الملونة فيقر ا بالجوهرة النقية ، فتصغر في عينيه الحصاة ، ولا يغتر ا وبصاحبها "[١] .

اللطيفة الخامسة عشر :

يواجه الدعاة أثناء دعو م قوما تعلقوا بالدنيا ، وافتتنوا ا ، فأرشدت الآيات إلى علاج مثل هذا الصنف ، وذلك بأن يذكّر بثواب الله ، وما أعده الله للمؤمنين ، ونعيم الجنة ، ودوامه ، وما يعطي الله فيها أهل الإيمان ، حتى ون الدنيا في عين من عظمها ، وهذه مهمة الدعاة إلى الله ، حينما يرون المفتونين بالدنيا ،كما فعل قوم قارون بقولهم:﴿ويلَكُم ثَواب اللهِ خير لِمن آمن وعمِلَ صالِحاً ولا يلَقاها إلا الصابِرونَ﴾[٢].

اللطيفة السادسة عشر :

دلت الآيات على فضيلة الصبر وأهله،واقتصرت على أعظم الفضائل له ، وهي أنه سبب لتوفيق الله والثبات على دينه ،والسلامة من الفتن فقال الله :﴿ولا يلَقاها إلا الصابِرونَ﴾"وهذا يدلك على ارتباط مقامات الدين كلها بالصبر،من أولها إلى آخرها"[٣].

---

(١) المستفاد من قصص القرآن ٥٣٦/١ .

(٢) القصص : ٨٠ .

(٣) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية ، تحقيق زكريا علي يوسف

اللطيفة السابعة عشر :

لما خسف الله بقارون ذكر معه داره ، وقيل في سبب ذلك أقوال يهمني منها في هذه اللطائف الدعوية ، القول بأن بني إسرائيل لمزوا نبي الله موسى عليه السلام بأنه أراد هلاك قارون ليرث ماله ، فهو قريبه في النسب ، وليس ذلك عن عادة بني إسرائيل ببعيد ، فهم قتلة الأنبياء ، فأهلك الله قارون وداره تبرئة لموسى عليه السلام من التهمة .

وهو يفيدنا في أن الداعية عليه ألا يضع نفسه في مكان التهمة والريبة ، وقد نبه نبينا الكريم ﷺ على أن حفظ العرض عن كلام الناس أمر مقصود في الشريعة ، فقال : " ومن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه "[1] وحفظ عرض الداعية يعود على دعوته بالبركة والقبول عند الناس .

اللطيفة الثامنة عشر :

تفريعا على اللطيفة السابقة ، فعلى الداعية أن يصبر على أذى الناس ، وله في أنبياء الله قدوة ، فما من نبي إلا وقد أخذ نصيبا من الإيذاء الحسي والمعنوي ، وأوفاهم نصيبا أفضلهم عند الله ، وهو نبينا محمد ﷺ مما يصعب فيه ذكر الأمثلة ، وفي الآيات أوذي موسى عليه السلام بالا ام والتشكيك في قصده ، وأنه لا يريد إلا أن يرث مال قارون طمعا فيه ، ومع ذلك صبر ، ولم ينتقم لنفسه حتى انتقم الله له .

اللطيفة التاسعة عشر :

مصاحبة الفجار يشمل ضررها الجلساء ؛ لأن الاعتياد على ا السة يقود إلى المشاركة في الفجور وتزيين الباطل ، ومن هنا ذكر الله الدار مع قارون ؛ لأن ا جلساؤه ، وهم يشاركونه أوزاره ، فنستفيد خطورة مصاحبة الفجار والفساق ، والرضا بأفعالهم ، ووجوب الهروب منهم ، وتحريم الركون إليهم ، وأداء واجب النصح لهم ، وهي أمور تجتمع عند المؤمن العارف بربه المستجيب لأمره ، إلا أ ا تتناقض عند عباد الدنيا ، وقد حذر الله من الركون لأهل الظلم ، فقال :﴿ولا تركَنوا إلَى الذِين ظَلَموا فَتمسكُم النار

:ص١٢:{ دار الكتب العلمية ،بيروت:بدون} .

(١) جزء من حديث النعمان بن بشير ، وهو متفق عليه ، أخرجه البخاري برقم (٥٢)١/٢٨ ، ومسلم برقم (١٩٥٥) ٣/١٢١٩ .

وما لَكُم مِن دونِ اللهِ مِن أولياءَ ثُم لا تنصرونَ﴾[١] .

"ومن الركون للظالمين الرضا بأفعالهم ، وتبريرها كما قال ابن عباس رضي الله عنهما "[٢] .

اللطيفة العشرون :

لما نزل عذاب الله بقارون ﴿فَخسفْنا بِهِ وبِدارِهِ الْأَرض﴾[٣] عند ذلك اعتبر أهل الإيمان،ورجع إليهم يقينهم،فقالوا:﴿ ويكَأَن الله يبسطُ الرزق لِمن يشاءُ مِن عِبادِهِ ويقْدِر لَولا أَنْ من الله علَينا لَخسف بِنا ويكَأَنه لا يفْلِح الْكَافِرونَ﴾[٤] .

وفي ذلك أن الإنسان عليه أن يأخذ العبرة ، فصار هلاك قارون عقوبة لهم ، وعبرة وموعظة لغيره حتى إن الذين غبطوه ندموا وتغير فكرهم الأول[٥] .

اللطيفة الحادية والعشرون :

دلت الآيات على أن الداعية عليه أن يستمر في دعوته على مختلف الجهات ولجميع الفئات ، فقوم قارون دعوا قارون ونصحوه ، فلما قال قومهم ما قالوا :﴿ يا لَيت لَنا مِثْلَ ما أُوتي قَارونُ إِنه لَذُو حظ عظِيمٍ ﴾[٦]، أيضا دعوهم ، وقالوا :﴿ ويلَكُم ثَواب اللهِ خير لِمن آمن وعمِلَ صالِحاً ولا يلَقاها إِلا الصابِرونَ﴾ [٧] .

وهكذا الداعية يبذل دعوته ونصحه لمن قرب أو بعد ، يستمر في دعوته لا يقطعها حتى يأتيه اليقين ، لأنه لا ينظر لدعوته على أ ا وظيفة يأتيه رزق من ورائها ، وإنما عبودية لله مأمور ا أبد الدهر .

اللطيفة الثانية والعشرون :

" الأصل في العقاب لمستحقه أن يكون في الآخرة ، ولكن قد يعجله الله لمستحقه في

---

(١) هود : ١١٣ .

(٢) المصباح المنير ٥١٧ .

(٣) القصص : ٨٢ .

(٤) القصص : ٨٢ .

(٥) انظر : تفسير السعدي ص ٦٢٤ بتصرف .

(٦) القصص : ٧٩ .

(٧) القصص : ٨٠ .

الدنيا ؛ مع ما ينتظره من عقاب الآخرة ، كما عجل الله عقاب قارون في الدنيا حيث خسف به وبداره ، ولكن لا يعني هذا أن كل عاص أو كافر ينال بعض العقاب في الدنيا ، وإنما يعني أن من سنة الله أنه قد يعاقب بعض المجرمين أو الكافرين متى يشاء ، وكيف يشاء لحكمة "[١] .

فعلى الدعاة إدراك هذا الجانب ، وهو من فقه العقوبات الربانية لأعدائهم .

---

(١) المستفاد من قصص القرآن ٥٣٦/١ .

المبحث السادس

لقمان الحكيم

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : تفسير الآيات الواردة في شأن لقمان الحكيم .

المطلب الثاني : اللطائف الدعوية المستنبطة من الآيات

المطلب الأول

تفسير الآيات الواردة في شأن لقمان الحكيم

اتفق أهل العلم على عدم نبوة لقمان إلا ما تفرد به عكرمة [(١)] [(٢)]، وقد وردت آثار " منها ما هو مصرح فيه بنفي كونه نبيا ، ومنها ما هو مشعر بذلك ، لأن كونه عبدا قد مسه الرق ينافي كونه نبيا ؛ لأن الرسل كانت تبعث في أحساب قومها "[(٣)] ، وقد وردت آثار كثيرة في شيء من حكمته[(٤)]وهي تعطينا مؤشرا ظاهرا أنه عرف بالحكمة ، وأجراها الله على لسانه .

كما وردت آثار أخرى في مهنته " ولا وثوق لي بشيء من هذه الأخبار "[(5)]لعدم صحتها ، والآن أشرع في تفسير الآيات الواردة في حقه .

وقال تعالى :﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[(٦)] .

فقوله :﴿ ولَقَد آتينا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ ﴾ هذا فضل الله يؤتيه من يشاء ، وقد اختلف

---

(١) عكرمة مولى ابن عباس ،يكنى أبا عبد الله ، عالما بالقرآن ،كان عبدا لعبد الله بن عباس رضي الله عنه فمات ، فورثه ابنه علي بن عبد الله ، فباعه من خالد بن يزيد بأربعة الآف دينار ، فأتى عكرمة عليا فقال: ما خير لك بعت علم أبيك بأربعة آلاف دينار ،فاستقاله خالد ،وأعتقه ، وتوفي سنة خمس ومائة . انظر : طبقات المفسرين للداودي ص١٢ .

(٢) انظر : تفسير البغوي ٤٩٠/٣ ، وزاد المسير ٣١٨/٦ .

(٣) تفسير ابن كثير ٥١/١١ .

(٤) انظر : الدر المنثور ٥١٠/٦ .

(5) روح المعاني ٨٣/٢١ .

(٦) لقمان : ١٢ .

المفسرون في بيان الحكمة ،وكثير من أقوالهم لا تعارض بينها ، كما في قولهم :" العقل ، والفهم ، والفطنة ، وقيل : الفقه في الإسلام "[١] ، وقولهم :" الفهم ، والعلم ، والتعبير "[٢] فيتضح من خلال تأمل هذه الألفاظ أ ا تدور ما بين عام وأعم منه ، والأولى في نظري أن نعرفها بأ ا " العلم النافع ، والعمل الصالح "[٣].

وقوله :﴿ أَنِ اشكُرْ لِلهِ ﴾ أن " تفسيرية ، وما بعدها تفسير لإيتاء الحكمة ، وفيه معنى القول دون حروفه ، سواء كان بإلهام ، أو وحي ، أو تعليم ، وجوز أن يكون تفسيرا للحكمة باعتبار ما تضمنه الأمر "[٤] ،وبناء على الترجيح السابق في عدم نبوته ، فيستبعد القول بأنه وحي ، ويكون " أن اشكر ترجمة عن الحكمة ، لأن من الحكمة التي كان أوتيها ، كان شكره الله على ما آتاه "[٥] " ومنحه ووهبه من الفضل الذي خصه به عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه "[٦] .

وقوله :﴿ ومن يشكُر فَإِنما يشكُر لِنفْسِهِ﴾ هذا الحصر يفيد أن الله لا ينفعه طاعة الطائعين ، ولا معصية العاصين ، ويؤيد ذلك حديث أبي ذر[٧] رضي الله عنه وفيه قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله : " يا عبادي لو أن أولكم وآخركم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ، ما زاد ذلك في ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئا ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، فمن وجد

---

(١) الدر المنثور ٥١٠/٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ٥٢/١١ .

(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ، محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية :٥٢/١،{ دار الكتب العلمية،بيروت:بدون } .

(٤) روح المعاني ٨٤/٢١ .

(٥) تفسير الطبري ٦٨/٢١ .

(٦) تفسير ابن كثير ٥٢/١١ .

(٧) جندب بن جنادة ابو ذر الغفاري على أنه قد اختلف في اسمه ، والأصح جندب ، وأمه رملة بنت الوقيعة من بني غفار أيضا ، كان إسلامه قديما ، فيقال :بعد ثلاثة ، ويقال :بعد أربعة ، وقد روى عنه أنه قال :أنا رابع الإسلام ، وقيل :خامسا ، ثم رجع إلى بلاد قومه بعدما أسلم فأقام ا حتى مضت بدر ، وأحد ، والخندق ، ثم قدم على النبي ﷺ المدينة فصحبه إلى أن مات ، وخرج بعد وفاة أبي بكر رضي الله عنه ، توفي سنة سنة ثنتين وثلاثين للهجرة . انظر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، ٢٥٢/١ .

خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه "[1] .

كما يفيد الحصر بأن نفع الشكر ، وثوابه يعود على الشاكر نفسه ، كما يفيد " مجيء فعل يشكر بصيغة المضارع للإيماء إلى جدارة الشكر بالتجديد "[2] .

قوله :﴿ ومن كَفَرَ فَإِن الله غَنِي حمِيد﴾ ؛لأن شكر العبد لا ينفعه سبحانه ، وإعراض العبد لا يضره سبحانه ، فهو غني " عن كل شيء ، فلا يحتاج إلى الشكر ؛ ليتضرر بكفر من كفر ،حميد حقيق بالحمد وإن لم يحمده أحد ، أو محمود بالفعل ، ينطق بحمده تعالى جميع المخلوقات بلسان الحال ، فحميد فعيل بمعنى محمود على الوجهين "[3].

" فغناه تعالى من لوازم ذاته ، وكونه حميدا في صفات كماله ، حميدا في جميل صنعه من لوازم ذاته ، وكل واحد من الوصفين صفة كمال ، واجتماع أحدهما إلى الآخر ؛ زيادة كمال إلى كمال "[4] ، " ومما يوضح الأمر في ذلك أن الله سبحانه غني حميد كريم رحيم ، فهو محسن إلى عبده مع غناه عنه ، يريد به الخير ، ويكشف عنه الضر ، لا لجلب منفعة إليه سبحانه ، ولا لدفع مضرة ؛ بل رحمة وإحسانا ، وجودا محضا ، فإنه رحيم لذاته ، محسن لذاته ، جواد لذاته ، كريم لذاته ، كما أنه غني لذاته ، قادر لذاته ، حي لذاته ، فإحسانه وجوده وبره ورحمته من لوازم ذاته ، لا يكون إلا كذلك ، وأما العباد فلا يتصور أن يحسنوا إلا لحظوظهم ، فأكثر ما عندهم للعبد أن يحبوه ويعظموه ليجلبوا له منفعة ، ويدفعوا عنه مضرة ،وذلك من تيسير الله،وإذنه لهم به ،فهو في الحقيقة ولي هذه النعمة ومسديها ، ومجريها على أيديهم ،ومع هذا فإ م لا يفعلون ذلك إلا لحظوظهم من العبد،فإ م إذا أحبوه طلبوا أن ينالوا غرضهم من محبته،سواء أحبوه لجماله الباطن ،أو الظاهر"[5] .

وقال تعالى :﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ

---

(1) أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم ، برقم (٢٥٧٧)١٩٩٤/٤ .

(2) التحرير والتنوير ١٥٣/٢١ .

(3) روح المعاني ٨٤/٢١ .

(4) تفسير السعدي ص٦٨٤ .

(5) طريق الهجرتين ١٠٥ .

﴿لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[١] .

فقوله :﴿ وإِذْ قَالَ لُقْمانُ لِابِنِهِ وهو يعِظُه﴾ هذه أول نصائحه لابنه ، وتأتي أهميتها من أنه " يوصي ولده ، الذي هو أشفق الناس عليه ، وأحبهم إليه ، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف "[٢] ، ويعظه أي : يؤدبه[٣] .

وقوله :﴿ يا بني لا تشرِك ِباللهِ ﴾ التصغير فيه " لت يل المخاطب الكبير م لة الصغير ، كناية عن الشفقة به ، والتحبب له ، وهو في مقام الموعظة والنصيحة ، إيماء وكناية عن إمحاض النصح وحب الخير ، ففيه حث على الامتثال للموعظة "[٤] .

و ي لقمان ابنه عن الشرك أخذ منها بعض أهل العلم أن ابنه " كان يدين بدين قومه من السودان ، لأن الأصل في النهي عن الشيء أن يكون حين التلبس بالشيء المنهي عنه ، أو عند مقاربة التلبس به ، والأصل ألا ينهى عن شيء منتف عن المنهي "[٥] .

وهذا الأصل ليس بلازم ، فإن المؤمن يخشى على نفسه وذريته الشرك ولا يأمن ، ويسعى لتنقية توحيده عن الشوائب صغيرها وكبيرها ، وغاية ما يقال هنا بأن الأمرين محتملان ، والأرجح منهما في نظري هو عدم إشراك ولده ، ويدل لذلك عدم الدليل ، فإن لقمان نقل الكثير من حكمته[٦] ، وما ذكر من شرك ابنه إنما هو مجرد نقل عار عن سند ، إضافة إلى أن ظاهر النصائح التي قدمها له لقمان لا تدل على شيء من ذلك ، والله أعلم .

وبدء لقمان بالتحذير من الشرك ؛لخطورته ؛ ولأنه مفتاح كل شر ، ولا حسنة معه ، وهو ما ذكره لقمان بعد ذلك بقوله :﴿ ِإن الشرك لَظُلْم عظِيم﴾ .

وقوله :﴿ ِإن الشرك لَظُلْم عظِيم ﴾" قيل بأن هذا ليس من كلام لقمان[٧] ، وليس

---

(١) لقمان : ١٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ٥٣/١١ .

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان ،تحقيق أحمد فريد:٢٠/٣، {ط١، دار الكتب العلمية ،بيروت:١٤٢٤هـ }.

(٤) التحرير والتنوير ١٥٥/٢١ .

(٥) التحرير والتنوير ١٥٥/٢١ .

(٦) ذكر بعضها الإمام مالك في الموطأ ، والإمام أحمد في المسند .

(٧) المحرر الوجيز ٣٤٨/٤ .

هذا بشيء ، حيث ثبت في السنة النبوية أنه من كلامه ، فقد روى ابن مسعود ﷺ قال : لما نزلت ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾، شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا : أينا لا يظلم نفسه فقال رسول الله ﷺ : ليس هو كما تظنون ، إنما هو كما قال لقمان لابنه :يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم "[1] .

فحذر لقمان من الشرك تحذيرا بليغا ، حيث ابتدأ التحذير بحرف التوكيد ، وأضاف لها لام التوكيد أيضا ، ووصف الشرك بالظلم ، ووصف الظلم بأنه عظيم ، ووجه كونه ظلما عظيما ، لأنه " ظلم لحقوق الخالق ، وظلم المرء لنفسه ، إذ يضع نفسه في حضيض العبودية لأخس الجمادات ، وظلم لأهل الإيمان الحق ، إذ يبعث على اضطهادهم ، وأذاهم ، وظلم لحقائق الأشياء ، وإفساد تعلقها "[2] .

وقال تعالى :﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[3] .

هذه الآية اختلف فيها نظر المفسرين في عدها من وصايا لقمان لابنه ، أو أنها كلام مستأنف ، معترض به ، والأمران محتملان ، وقال الطبري في ذلك " فإن قال لنا قائل : ما وجه اعتراض هذا الكلام بين الخبر عن وصية لقمان ابنه ؟ قيل : ذلك أيضا وإن كان خبرا من الله تعالى ذكره عن وصيته عباده به ، وأنه إنما أوصى به لقمان ابنه ، فكان معنى الكلام :﴿ وإذْ قَالَ لُقْمانُ لِابنِهِ وهو يعظُه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لَظُلْم عظِيم﴾ ولا تطع في الشرك به والديك ، وصاحبهما في الدنيا معروفا ، فإن الله وصى بهما ، فاستأنف الكلام على وجه الخبر من الله ، وفيه هذا المعنى "[4] .

وحاول العلامة الطاهر ابن عاشور أن يجتهد في إيجاد المناسبة بين الآيات ، فقال رحمه الله : " ذكر الله هذا لتأكيد ما في وصية لقمان من النهي عن الشرك بتعميم النهي في الأشخاص والأحوال ، لئلا يتوهم متوهم أن النهي خاص بابن لقمان ، أو ببعض

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب صدق الإيمان وإخلاصه ، برقم (١٢٤)١١٤/١ .
(2) التحرير والتنوير ١٥٥/٢١ .
(3) لقمان : ١٤ .
(4) تفسير الطبري ٧١/٢١ .

الأحوال ، فحكى الله أن الله أوصى بذلك كل إنسان ، وان لا هوادة فيه ، ولو في أحرج الأحوال ، وهي حالة مجاهدة الوالدين أولادهم على الشرك ، وأحسن من هذه المناسبة أن تجعل مناسبة هذا الكلام أنه لما حكى وصاية لقمان لابنه بما هو شكر لله بت يهه عن الشرك في الإلهية ، بين الله لعباده أنه أسبق منة على عباده ، إذ أوصى الأبناء ببر الآباء ، فدخل في العموم المنة على لقمان ؛ جزاء على رعايته لحق الله ، في ابتداء موعظة ابنه ، فالله أسبق بالإحسان إلى الذين أحسنوا برعي حقه "[١] .

وقوله :﴿ووصينا الْإنسانَ ـبِوالِديِهِ﴾ أي : أمرناه أن يبرهما[٢] ، والشدة في الوصية تحمل في معانيها التنبيه على التمسك ا ، وحذف الوصية لتشمل كل مظاهر البر ، وهو ما بينته آيات أخر ، في قوله:﴿ ووصينا الْإِنسانَ ـبِوالِديِهِ حسناً﴾[٣] .

ووالداه يشملهما جميعا أو أحدهما كما ذكر في موضع آخر قوله :﴿ ـإِما يبلُغن عِندك الْكِبر أحدهما أو كِلاهما فَلا تقُلْ لَهما أُف ولا تنهرهما وقُلْ لَهما قَولاً كَرِيماً﴾[٤].

وقوله:﴿ حملَته أُمه وهناً علَى وهنٍ﴾ خص الله الأم بالذكر تقديما لحقها ، والسنة النبوية تؤكد هذا الحق ، فعن أبي هريرة ﵁ قال : جاء رجل فقال : يارسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال النبي ﷺ: أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ ، قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أبوك "[٥] .

ومن قال : " خص الأم بالذكر وفي الأب ما وجد في الأم ، فإن الأب حمله في صلبه سنين ، ورباه بكسبه سنين ، فهو أبلغ "[٦] فهذا تكلف ظاهر ، بدلالة الحديث السابق .

" وانتصب وهنا على الحال من أمه ، مبالغة في ضعفها حتى كأ ا نفس الوهن "[٧] ،

(١) التحرير والتنوير ١٥٦/٢١ .
(٢) تفسير الجلالين ص٥٤١ .
(٣) العنكبوت : ٨ .
(٤) الإسراء : ٢٣ .
(٥) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب الأدب ، باب من أحق الناس بحسن الصحبة ، برقم (٥٦٢٦)٢٢٧/٥ ، ومسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب بر الوالدين وحسن الصلة به ، برقم (٢٥٤٨) ١٩٧٤/٤.
(٦) التفسير الكبير ١٢٩/٢١ .
(٧) التحرير والتنوير ١٥٧/٢١ .

والوهن على الوهن يفيد " أ ا لا تزال يتضاعف ضعفها "[1] " فأشار إلى تدرج حالها في زيادة الضعف ، فكأنه لم يعين ضعفين ، بل كأنه قال حملته أمه والضعف يزداد بعد الضعف ، إلى أن ينقضي أمره "[2] ، وبيان ذلك من " حين يكون نطفة من الوحم ، والمرض ، والضعف ، والثقل ، وتغير الحال ، وثم وجع الولادة "[3] وقبلها المخاض ، والطلق ، والنفاس بعد ذلك ، وتغيرات نفسية ، واضطرابات عصبية .

وقوله :﴿ وفِصالُه فِي عامين﴾ أي : " وفطامه في انقضاء عامين ، وترك ذكر انقضاء ؛ اكتفاء بدلالة الكلام عليه "[4] .

وقوله :﴿ أنِ اشكُرْ لي ولوالِديك إليَّ الْمصِير ﴾ وهذا تفسير للوصية ، وجزاء حق الله ، وحق الوالدين ، وقدم حقه سبحانه ؛ لأحقيته به ؛ ولأنه المتفضل بالنعم ، ومن ذلك نعمة الوالدين ، وقرن حق الوالدين معه تعظيما لحق الوالدين .

وقوله :﴿ إليَّ الْمصِير ﴾ لما أمر بالشكر لنفسه وللوالدين ، قال : الجزاء على وقت المصير إليّ "[5] فيشمل الجزاء على الشكر ، والتقصير فيه ، وهذا أعم ممن قَصر المعنى على الوعيد فقط[6] .

وقال تعالى :﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[7] .

فقوله :﴿ وإنْ جاهداك علَى أنْ تشرِك بي ما ليس لَك بِه عِلْم ﴾ أي : إن حرصا عليك كل الحرص ؛ على أن تتابعهما على دينهما ، فلا تقبل منهما ذلك[8] ، و" أما حرف

(1) تفسير أبي السعود٧٢/٧ .
(2) المحرر الوجيز ٣٤٩/٤ .
(3) تفسير السعدي ص٦٤٨ .
(4) تفسير الطبري ٧٠/٢١ .
(5) التفسير الكبير ١٢٥/٢٩ .
(6) التحرير والتنوير ١٦٠/٢١ .
(7) لقمان : ١٥ .
(8) تفسير ابن كثير ٥٤/١١ .

(على) فهو أدل على تمكّن ا اهدة ، أي مجاهدة قوية في الإشراك "[١] .

والمراد بنفي العلم في قوله :﴿ ما لَيس لَكَ بِهِ عِلْم ﴾ أي بإلهيته ، عبر عن نفيها بنفي العلم ا ؛ للإيذان بأن ما لا يعلم صحته لا يجوز اتباعه وإن لم يعلم بطلانه ، فكيف بما علم بطلانه "[٢] .

ويظهر لي وجه آخر ، وهو أن المراد بنفي العلم تمحض النفي ، حتى كأنه لا يوجد علم بوجود شريك لله ، وهذا الأسلوب مستعمل في القرآن ، ومنه قوله:﴿ ومن يدع مع اللهِ إلَهاً آخر لا برهانَ لَه بِهِ ﴾[٣] .

فلا يفهم منها أن من كان له برهان فليدع مع الله غيره ، وإنما المراد تحقق نفي البرهان عن كل من دعا غير الله .

وقوله :﴿ فَلا تطِعهما﴾ ؛لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، " ولم يقل : وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فعقهما ، بل قال : فلا تطعهما ، أي : في الشرك ، وأما برهما فاستمر عليه "[٤].

وقوله :﴿ وصاحِبهما فِي الدنيا معروفاً﴾ أي : " صحاباً معروفاً ، يرتضيه الشرع ، وتقتضيه المروءة "[٥] ، وفهم منه اجتناب ما ينكر في مصاحبتهما[٦] ، كما يدل ذلك على بر الأبوين المسلمين من باب أولى وأشد تأكيداً .

وقوله :﴿واتبِع سبِيلَ من أناب إلَي ثُم إلَي مرجِعكُم فَأُنبئُكُم بِما كُنتم تعملُونَ﴾ وهذا توجيه للابن بعد يه عن طاعتهما ، بأن " اسلك طريق من تاب من شركه ورجع إلى الإسلام واتبع محمدا ﷺ "[٧] .

والإشارة بلفظ الإنابة يشعر الابن بألاّ ييأس من دعو ما ، فإن إنابة العبد لربه

---

(١) التحرير والتنوير ١٦٠/٢١ .
(٢) تفسير أبي السعود ٣١/٧ .
(٣) المؤمنون : ١١٧ .
(٤) تفسير السعدي ص ٦٤٨ .
(٥) تفسير أبي السعود ٧٢/٧ .
(٦) التحرير والتنوير ١٦١/٢١ .
(٧) تفسير الطبري ٧١/٢١ .

ورجوعه عن شركه يسير لمن وفقه الله ، كما يتضمن قوله :﴿سَبِيلَ من أناب إليّ ﴾ مشروعية اتباع القدوة الصالحة ، وأن كل من تاب فقد رجع إلى الله ، وبالمقابل من أعرض فقد هرب عن ربه ، وأيضا لفظ الرجوع يفيد أن الإنسان مولود على الفطرة ، فإن أشرك بالله فقد انحرف ، فإن تاب وأناب فقد رجع إلى حيث كان من الفطرة ، ويؤيد ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه "[١] .

بقي أن أقول بأن أهل التفسير ذكروا لآية الوصية بالوالدين سبب نزول ، فقد قال سعد بن أبي وقاص[٢] رضي الله عنه : حلفت أم سعد ألاّ تكلمه أبدا ، حتى يكفر بدينه ، ولا تأكل ولا تشرب ، قالت : زعمت أن الله وصاك بوالديك ، وأنا أمك ، وأنا آمرك ﺬا ، قال : مكثت ثلاثا حتى غشي عليها من الجهد ، فقام ابن لها يقال له عمارة : فسقاها فجعلت تدعو على سعد،فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية:﴿ووصينا الْإِنسانَ بِوالِديهِ حسناً وإِنْ جاهداك لِتشرِك بِي﴾[٣]وفيها:﴿وصاحبهما في الدنيا معروفا﴾[٤][٥] .

وهناك من أهل العلم من لم ير أ ا سبب لل ول " ولعل إضافة آية لقمان للحديث جاءت من باب أن موضوع الآيتين واحد،ومن هنا أدرجها بعض الرواة في الحديث "[٦].

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب الجنائز ، باب ما قيل في أولاد المشركين ، برقم (١٣١٩)٤٦٥/١ ، ومسلم ، كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين ، برقم (٢٦٥٨)٢٠٤٧/٤ .

(٢) سعد بن أبي وقاص ، واسم أبي وقاص مالك بن وهيب بن عبد مناف ، أسلم بعد ستة ، وقيل بعد أربعة ، وكان عمره لما أسلم سبع عشرة سنة ، شهد بدرا ، وأحدا ، والخندق ، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وأبلى يوم أحد بلاء عظيما ، وهو أول من أراق دما في سبيل الله ، وأول من رمى بسهم في سبيل الله ، وتوفي سنة خمس وخمسين للهجرة . انظر : أسد الغابة ٤٣٣/٢ .

(٣) العنكبوت : ٨ .

(٤) لقمان : ١٥ .

(٥) أخرجه مسلم ، كتاب الفضائل ، باب فضائل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، برقم (١٧٤٨) .

(٦) المحرر في أسباب ال ول من خلال الكتب التسعة ، دراسة الأسباب رواية ودراية ، للدكتور خالد بن سليمان المزيني :٧٩٢/٢،{ط١، ابن الجوزي ،الدمام: ١٤٢٧هـ } .

وهذا الظن ينتفي بقول سعد ﷺ : " نزلت في آيات من القرآن " وقوله:" فأنزل الله هذه الآية " وهذا صريح منه ، والآية يناسب سياقها قصة سعد مع أمه ، والله أعلم وأحكم .

وقال تعالى :﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[١] .

فقوله :﴿يا بني إنها ﴾ اختلف المفسرون في الضمير هنا فقيل : إ ا كناية عن الخطيئة والسيئة ، وقيل : هي عماد[٢] ، وهو الراجح ؛"لأن الله تعالى ذكره لم يعد عباده أن يوفيهم جزاء سيئا م دون جزاء حسنا م ، فيقال: إن المعصية إن تك مثقال حبة من خردل يأت الله ا ، بل وعد كل العاملَين أن يوفيه جزاء أعمالهما "[٣] .

وقوله :﴿إِنْ تك مِثْقَالَ حبةٍ مِن خردلٍ﴾ أي:" زنة حبة ، فتأويل الكلام إذن : إن الأمر إن تك زنة حبة من خردل من خير أو شر عملته،فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت ا الله يوم القيامة حتى يوفيك جزاءه "[٤].

ويحتمل أن تكون على حقيقتها في إرادة جوهر الحبة،وعلى هذا يكون المعنى:إن كان رزق الإنسان حبة خردل فإن الله سيأتيه ا[٥]،إلا أن سياق الآيات لا يساعد هذا المعنى .

وقوله :﴿ فَتكُن فِي صخرةٍ أو فِي السمواتِ أو فِي الْأرضِ يأتِ بِها الله إن الله لَطِيف خبِير﴾ الفاء للاجتماع ، أي : إذا اجتمعت هذه الأمور كلها ، من كو ا صغيرة خفية في موضع لا يعلمه أحد ، مع ذلك يأت ا الله .

وتخصيصه الصخرة مع دخولها في الأرض ، لبيان شدة الخفاء ، وتعميته ، وصعوبة الوصول إليها ، وذلك لإظهار سعة علمه ، وقيل في المراد بالصخرة أقوال لا دليل عليها ،

---

(١) لقمان : ١٦ .

(٢) الهاءات لها عدة أنواع ، منها : هاء الإضمار ، وهاء التأنيث ، وهاء العماد ، وهي التي لا يسبقها مذكور ترجع إليه . انظر : منازل الحروف ، علي بن عيسى بن علي الرماني ، تحقيق إبراهيم السامرائي :ص٢٥،{دار الفكر ،الأردن: بدون } .

(٣) تفسير الطبري ٧٢/٢١ .

(٤) تفسير الطبري ٧٢/٢١

(٥) انظر : المحرر ٣٥٠/٤ بتصرف .

ولا يثبت لها سند .

وقوله :﴿ يأتِ بِها الله﴾ الإتيان : كناية عن التمكن منها ، ولأنه يدل على العلم ا[1] ، فيشمل العلم والقدرة .

وقوله :﴿ إِن الله لَطِيف خبِير ﴾ التذييل ذين الاسمين العظيمين له ارتباط بمضمون الوصية ، فإن الوصية دلت على أن الله لا تخفى عليه خافية ، ولو كانت حبة متناهية في الدقة ، في جوف صخرة أو في أي موضع في السموات الواسعة أو الأرض ، وهذا يناسب اسم الله اللطيف ، لأنه" الذي لا تخفى عليه الأشياء ، وإن دقت ولطفت وتضاءلت ، أي هو لطيف العلم "[2] ، كما دلت الوصية على أن الله يعلم حقيقة الأمور ، ومطلع على كنهها ، وهذا يناسب اسم الله الخبير .

" والمقصود من هذه الآية الحث على مراقبة الله ، والعمل بطاعته مهما أمكن ، والترهيب من عمل القبيح قل أو كثر "[3] .

وقال تعالى :﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[4] .

فقوله:﴿يا بني أَقِمِ الصلاةَ ﴾ بعد أن فرغ من تعليم ابنه مهمات العقيدة ، بدأ بتنبيهه على الصلاة ، وابتدأ ا لأهميتها ،ولأن القيام ا عون بإذن الله على غيرها من الأعمال .

والأمر بإقامتها يتضمن المحافظة عليها حتى تكون قائمة لا اعوجاج فيها ، " و ذا يعلم أن الصلاة كانت في سائر الملل غير أن هيئتها اختلفت "[5] .

وقوله :﴿وأمر بِالْمعروفِ وانه عنِ الْمنكرِ﴾ والمعروف يشمل الأعمال الصالحة ، والمنكر يشمل الأعمال السيئة[6] ، وهذا انتقال إلى الأعمال المتعدية بعد الأعمال القاصرة ، وذكر الأمر بالمعروف مع النهي عن المنكر يدل على اقترا ما ، وأ ما مطلوبان جميعا ،

---

(١) التحرير والتنوير ١٦٣/٢١ .

(٢) النهج الأسمى ٢٤٣/١ .

(٣) تفسير السعدي ٦٤٨ .

(٤) لقمان : ١٧ .

(٥) التفسير الكبير ١٣٠/٢٥ .

(٦) التحرير والتنوير ١٦٥/٢١ .

وأ ا من شريعة الأمم الماضية .

وقوله :﴿ واصبر على ما أصابك ﴾ وجه تعقيب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بملازمة الصبر ؛ أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يجران للقائم ما معاداة من بعض الناس ، أو أذى من بعض "[١] فلا بد من الصبر .

قوله :﴿ إن ذلك من عزم الأمور ﴾ اسم الإشارة " يدل على كل ما ذكر ، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه يشعر ببعد م لته في الفضل "[٢] ، ويحتمل أن يعود للصبر على الأذى تأكيدا لأهميته[٣] ، والأول أولى ، والسياق يناسب أن العزم يعود على التوحيد ، وإقامة الصلاة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، لأ ا آكد مما بعدها ، وحرف "التوكيد للاهتمام "[٤] .

والعزم يحتمل أن يراد به المعزوم ، أي من معزومات الأمور ، أو بمعنى العازم ، ويحتمل أن يراد أن ذلك من مكارم أهل الأخلاق ، وعزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة[٥] .

وما عزم الله علينا فعله من توحيده،وإقامة الصلاة،والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو من المعزومات التي لا يداوم عليها إلا أهل مكارم الأخلاق،وأهل الحزم.

وقال تعالى :﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[٦] .

فقوله :﴿ ولا تصعر خدك للناس﴾ بعد أن نصح لقمان ابنه بتلك النصائح أتبعها بالتحذير من الكبر والفخر ، فإن الإنسان إذا أحسن أفعاله ، وأدى ما عليه ، خشي عليه من خطوة شيطانية من خلال تكبره على غيره .

والصعر " داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها ، حتى تلتف أعناقها عن رؤوسها ،

---

(١) التحرير والتنوير ١٦٥/٢١ .
(٢) تفسير أبي السعود ٧٢/٧ . بتصرف يسير .
(٣) تفسير ابن كثير ٥٦/١١ .
(٤) التحرير والتنوير ١٦٧/٢١ .
(٥) انظر فتح القدير ٢٣٩/٤ .
(٦) لقمان : ١٨ .

فيشبه به الرجل المتكبر على الناس "[1] ومعنى الآية " لا تحتقر الناس ، فالنهي عن الإعراض عنهم احتقارا لهم ، لا عن خصوص مصاعرة الخد ، فيشمل الاحتقار بالقول والشتم وغير ذلك "[2] ، وعلى هذا فمن فسر التصعر بالتشدق بالكلام[3] ، أو احتقار الفقراء[4] ، أو العبس في وجوه الناس[5] ، فكلها أمثلة لتصعير الخد ليست على وجه التحديد ، تدل على التكبر تصريحا أو تلميحا ، وبدأ بالتصعير قبل المرح ؛ لأن تصعير الخد عن الناس مقدمة الخيلاء في الأرض ، أو لكثرته وتعدد صوره وأنواعه .

قوله :﴿ ولا تمشِ فِي الْأَرضِ مرحاً ﴾ المرح في الأصل " مسرة لا يكاد يستقر معها طربا "[6] ، فهي مسرة خارجة عن الحد السليم ، ولهذا تحمل صاحبها على الكبر والخيلاء ، أو الأشر والبطر ، أو المشي بغير حاجة لفراغ قلبه عن الاستقرار .

ومن هنا فسر أهل العلم الآية : ﴿ ولا تمشِ فِي الْأَرضِ مرحاً ﴾ بقولهم" خيلاء متكبراً جباراً عنيداً "[7]،وقالوا "المرح ؛النشاط والمشي مرحا،هو في غير شغل ولغير حاجة،وأهل هذا الخُلُق ملازمون للفخر والخيلاء ،فالمرح مختال في مشيته "[8].

فالوصية تتضمن الأمر بالتواضع في القول والفعل ، " وموقع قوله في الأرض ، بعد قوله لا تمش ، مع أن المشي لا يكون إلا في الأرض ، هو الإيماء إلى أن المشي في مكان يمشي فيه الناس كلهم ، قويهم وضعيفهم ، ففي ذلك موعظة للماشي مرحا أنه مساو للناس "[9] .

وقوله : ﴿إن الله لا يحِب كُل مختالٍ فَخور﴾ معجب بنفسه ، فخور على غيره[10]

---

(1) تفسير الطبري ٧٤/٢١ .

(2) التحرير والتنوير ١٦٦/٢١ .

(3) تفسير ابن كثير ٥٦/١١ .

(4) تفسير البغوي ٤٩٣/٣ .

(5) تفسير الثعالبي ٣١٥/٧ .

(6) معجم مقاييس اللغة ، مادة (مرح) ،ص٩٨٢ .

(7) تفسير ابن كثير ٥٧/١١ .

(8) المحرر الوجيز ٣٥١/٤ .

(9) التحرير والتنوير ١٦٧/٢١ .

(10) المصباح المنير ص٨٤٦ .

، وفيها أن الله يبغض هذه الصفة وأهلها ، وأن الله يحب المتواضعين ، كما تفيد الآية أن مرض العجب بالنفس ينتهي بالافتخار على الناس ، فأمراض القلوب يجر بعضها بعضا إن لم يتداركها بتتبع وعلاج .

وقال تعالى : ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[١] .

فقوله : ﴿واقْصِد فِي مشيِك﴾ ومناسبة هذه الوصية أنه " لما اه عن الخلق الذميم ، رسم له الخلق الكريم الذي ينبغي أن يستعمله "[٢]، وقد شملت وصية لقمان لابنه أمور العادات فأوصاه بالاقتصاد في المشي ، وهو التوسط ، والمعنى :" اعتدل فيه ولا تتسرع إسراعا يدل على البطش والخفة ولا تبطئ إبطاء يدل على الفخر والكبر"[٣]، وقرئ: أقصد ،بالقطع[٤]،والمعنى على هذا وامش" بقصد لا يكون عادة،بل يجري على حكم النية "[٥]،وهذا القول وإن كان يؤدي إلى معنى مطلوب،وهو النية الصالحة في كل عمل ، إلا أن معنى وصية لقمان لا يدل عليه،فالوصية تتجه إلى الاعتدال في المشي والصوت ، فالمناسب للسياق القول الأول .

وقوله : ﴿واغْضض مِن صوتك﴾ أي اخفضه[٦] ، ومِن هنا " دالة على التبعيض ، لإفادة أنه يغض بعضه "[٧] فإن اقتضى الأمر رفع الصوت ، كمصلحة شرعية ، أو أمر معتبر ، فإنه لا يدخل في النهي ، وغض الصوت " أوفر للمتكلم ، وأبسط لنفس السامع ، وفهمه "[٨] وأبعد عن الرياء ، وعن الجفاء ، وأقرب للتواضع ، وأجلب للخشوع ، ولا يؤذي السامع ، وأدعى للوقار ، فإن اللسان مترجم عن القلب ، فإن غض صوته ،

---

(١) لقمان : ١٩ .
(٢) المحرر الوجيز ٣٥١/٤ .
(٣) التسهيل لعلوم الت يل ١٢٧/٣ .
(٤) الكشاف ٥٠٥/٣ .
(٥) أحكام القرآن ٥٣١/٣ .
(٦) تفسير مقاتل بن سليمان ٢١/٣ .
(٧) التحرير والتنوير ١٦٨/٢١ .
(٨) المحرر الوجيز ٣٥١/٤ .

واختار أحسن الألفاظ ، وتكلم بالشريعة ، عاد أثر ذلك على القلب .

وقوله : ﴿إِن أنكَر الْأَصواتِ لَصوت الْحمِير﴾ أي : أقبح الأصوات[1] .

و"ذكر المانع من رفع الصوت،ولم يذكر المانع من سرعة المشي، لأن رفع الصوت يؤذي السامع ، وربما يخرق الغشاء الذي داخل الأذن ، وأما السرعة في المشي فلا تؤذي ، و إن كانت تؤذي فلا تؤذي غير من في طريقه ، والصوت يبلغ من على اليمين واليسار،ولأن المشي يؤذي آلة المشي ، والصوت يؤذي آلة السمع،وآلة السمع على باب القلب،فإن الكلام ينتقل من السمع إلى القلب،ولا كذلك المشي،أو لأن القول قبيحه أقبح من قبيح الفعل ، وحسنه أحسن ، لأن اللسان ترجمان القلب"[2].

---

(١) الدر المنثور ٥٢٤/٦ .

(٢) التفسير الكبير ١٣٨/٢٥ بتصرف يسير .

المطلب الثاني

اللطائف الدعوية المستنبطة من الآيات

اللطائف الدعوية المستنبطة من الآيات :

الآيات الواردة في قصة لقمان تشتمل على كثير من اللطائف والفوائد والدرر ، وسأقتصر – تمشيا مع موضوع بحثي – على اللطائف التي تختص بجانب الدعوة إلى الله ، ومن ذلك ما يلي :

اللطيفة الأولى :

الحكمة في الأمور بيد الله ، يهبها لمن يشاء سبحانه ، فمنه تطلب وتستجلب ، وعليه يتوكل في تحصيلها ، ومن وفق لها وفق لعظيم ، نسأل الله الكريم من فضله ، فقد قال الله ﴿ولَقَد آتينا لُقْمانَ الْحِكْمةَ ﴾ ، فنسب الفضل إلى نفسه ، ومع ذلك يقدر عليها بالسبب ، فخلاصة الحكمة العلم النافع مع العمل الصالح ، فعلى الدعاة أن يسعوا في تكميل أنفسهم في هذا الجانب ، وقد جاء عن لقمان ما يؤيد أن الحكمة يمكن تحصيلها :

فقد روى مالك[1]رحمه الله في الموطأ بلاغا عن لقمان الحكيم أنه " أوصى ابنه فقال: يا بني جالس العلماء ، وزاحمهم بركبتيك ، فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة ، كما يحيي الله الأرض الميتة بوابل السماء "[2] .

وقد قيل: إن لقمان كان زمن داود عليه السلام [3] ،فإن صح فيكون اتباع الوحي الإلهي

(١) أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث ، وأمة هي عالية بنت شريك الأزدية ، روى عن نافع ، وسعيد المقبري ، وعامر بن عبد الله بن الزبير ، وابن المنكدر ، والزهري ، وخلق ، وأصح الأسانيد كلها مالك ، عن نافع ، عن بن عمر ، صاحب المذهب ، نجم السنن ، مات سنة تسع وسبعين للهجرة . انظر : سير أعلام النبلاء ٤٨/٨ .

(٢) أخرجه مالك في الموطأ ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، { دار إحياء التراث العربي،مصر:بدون } ، كتاب العلم ، باب ما جاء في طلب العلم ، برقم (١٨٢١) ، وهذا البلاغ أخرجه الطبراني في الكبير ، تحقيق: حمدي بن عبدا يد السلفي ،{ط٢،مكتبة الزهراء ،الموصل:١٤٠٤هـ } (٧٨١٠) ، ضعف إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ،{دار الريان للتراث،القاهرة: ١٤٠٧هـ } .

(٣) انظر شرح الزرقاني على الموطأ: ٥٢٥/٤، {ط١،دار الكتب العلمية ،بيروت: ١٤١١هـ} .

أحد أسباب تحصيل الحكمة ، والله أعلم وأحكم .

اللطيفة الثانية :

أمر الله لقمان بتنفيذ الحكمة واقعا عمليا ، فأتى الأمر الأول الصريح بشكر الله مؤذنا أن الشكر رأس الحكمة ، فعلى المؤمن أن يوالي نعم الله بالشكر ، وكثيرا ما يقرن الله في كتابه بين الشكر والتوحيد[1] ، كقوله:﴿هو الْحي لا ـإله ـإلا هو فَادعوه مخلِصِين لَه الدين الْحمد ـلِلهِ رب الْعالَمِين﴾[2] .

وكقول النبي ﷺ في الرفع من الركوع " اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السماوات ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء وا ـد ، لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد "[3] .

وهذا الاقتران له دلالته في أن الشكر يزيد التوحيد ، وأن التوحيد يصفي الشكر ، ولهذا المؤمن دائم الشكر لله في سرائه وضرائه ، وحتى أنه يشكر الله على أسمائه وصفاته ، ويحمده عليها .

اللطيفة الثالثة :

وصية لقمان لابنه ابتدأها بالتوحيد بقوله : ﴿لا تشرِك ـبِالله ﴾ والتحذير منه بقوله : ﴿ ـإن الشرك لَظُلْم عظِيم ﴾ مما يعطينا الدلالة الواضحة على أن أول ما يبتدؤه الداعية في دعوته ، والأب في تربيته ؛ هو التوحيد ، وسيرة النبي ﷺ مليئة بالأدلة والشواهد ، منها حديث معاذ بن جبل[4] رضي الله عنه حينما أرسله النبي ﷺ إلى اليمن فقال : " إنك تقدم على قوم أهل كتاب ؛ فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله ، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله

---

(١) الحسنة والسيئة ، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، تحقيق الدكتور محمد جميل غازي :ص١٥٦،{مطبعة المدني،مصر: بدون } .

(٢) غافر : ٦٥ .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الصلاة ، باب اعتدال أركان الصلاة وتخفيفها في تمام ، برقم (٤٧١)٣٤٣/١ .

(٤) أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ بن عدي بن كعب بن عمرو الأنصاري الخزرجي ، الإمام المقدم في علم الحلال والحرام ، كان أبيض ، وضيء الوجه ، براق الثنايا ، أكحل العينين ، وشهد المشاهد كلها ، روى عنه بن عباس ، وابن عمرو ، وأمره النبي ﷺ على اليمن ، ومناقبه كثيرة جدا ، وقدم من اليمن في خلافة أبي بكر ، وكانت وفاته بالطاعون في الشام سنة سبع عشرة للهجرة . انظر : الإصابة في تمييز الصحابة ١٣٦/٦ .

قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم ، فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة من أموالهم وترد على فقرائهم ، فإذا أطاعوا ا فخذ منهم ، وتوق كرائم أموال الناس "[(١)] .

اللطيفة الرابعة :

ذكر الأدلة والبراهين على القول له أثر ظاهر في قبول الدعوة والحماس لها ورد الشبهات عنها ، ومن مهمات الداعية وهو يخاطب الناس ويذكر أحكام الله أن يذكر الأدلة الـتي تصدق أقواله، فلقمان عندما حذر ابنه الشرك، برهن لكلامه بأن﴿ الشرك لظلم عظيم﴾. كما أنه يعطي المستمع الدلالة على أن الداعية لديه يقين بمنهجه ، وعنده به قناعة ، فيرى في ألفاظه صدقاً ، وفي أعماله تصديقاً .

اللطيفة الخامسة :

ا تمع المسلم يحتاج إلى تقرير التوحيد وتعلمه وتعليمه ، وليس كونه نشأ ببيئة إسلامية كافيا في هجر تعلمه ، فعلى القول بأن ابن لقمان ليس بمشرك لم يمنع ذلك لقمان الحكيم أن يذكر لابنه خطر الشرك ، ويدعوه إلى التمسك بالتوحيد ، حتى إن أهل التفسير اختلفوا في إسلام ابنه بناء على أن ألفاظ لقمان تحتمل الأمرين .

ولنا في إبراهيم عليه السلام أسوة حسنة ، حينما خاف على نفسه وأبنائه عبادة الأصنام التي هي أظهر أنواع الشرك ، ومع هذا قال : ﴿ رب اجعلْ هذَا الْبلَد آمِناً واجنبِني وبنِي أَنْ نعبد الْأَصنام﴾[(٢)] .

والداعية إلى الله عليه أن يتعهد نفسه بالتوحيد ، ويخلّصها من علائق الشرك ، فعلى قدر توحيده يكون خوفه من الشرك .

اللطيفة السادسة :

أبرزت الآيات قضيةً دعويةً باقيةً لإصلاح الحياة إلى يومنا الحاضر ،وهي الأمر باتباع القدوات ، فقوله تعالى : ﴿واتبِع سبِيلَ من أَناب إِلَي ﴾ يبرز ذلك ، وقد حدد صفات

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري ،كتاب الزكاة ، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة ، برقم (١٣٨٩) ٥٢٩/٢،ومسلم،كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ، برقم (١٩) ٥١/١.

(٢) إبراهيم : ٣٥ .

القدوة المُتبع بأنه المنيب إلى الله ، فالأب المنيب إلى الله قدوة لأولاده ، والعالم الرباني المنيب إلى الله على علم قدوة لطلابه ، كما أن الداعية قدوة أيضا لمدعويه ، والدعوة بالقدوة أسلوب طبقه النبي ﷺ في حياته بأقواله وأفعاله ، فقال :" صلوا كما رأيتموني أصلي "[1] ، وقال: " لكني أصلي وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني "[2] .

اللطيفة السابعة :

المؤمن يقدم الرفق ويعمل باللين طاعة لقوله ﷺ " ما كان الرفق في شيء إلا زانه ، ولا نزع من شيء إلا شانه "[3] .

إلا أن ذلك لا يكون أبدا حينما يدعى إلى معصية الله ؛ فإذا انتهكت حرمات الله ، أو دعي لترك دينه فإن عبودية الرفق تنقلب إلى عبودية الشدة ، وهذا هو التوازن في العبادة ، فقد أمر الله ببر الوالدين والإحسان إليهما وخفض الجناح لهما ، فإن أمرا بمعصية الله ، أو دعوة للكفر بالله ، وجاهدا على هذا الطلب ، واستغلا مكانة الأبوة لذلك ، فقد أمر الله بعدم طاعتهما ، ولو حلفا أو نذرا ، أو أتلفا نفسيهما ، وقصة سعد بن أبي وقاص ﷺ مع والدته تطبيق عملي لهذه الآية:﴿وإِنْ جاهداك علَى أَنْ تشرِك بِي ما لَيس لَك بِهِ عِلْم فَلا تطِعهما وصاحِبهما فِي الدنيا معروفاً واتبِع سبِيلَ من أَناب إِلَي﴾ .

اللطيفة الثامنة :

اختيار لقمان لتصغير لفظ البنوة ﴿يا بني﴾ لم يكن عبثا ، وإنما ليزرع في أذن مستمعيه الشفقة ، ويحمل في طياته النصح الخالص ، كما أنه يؤثر على قلب المستمع ، فتدخل النصيحة إلى سويداء قلبه ، ويوقن أ ا نصيحة خالية من مساومات مادية أو عبارات ديد .

وعلى هذا يسير الداعية في دعوته للناس ، فيخاطبهم بواقع الشفقة عليهم ، ويكثر

---

(١) سبق تخريجه ص (١٣٦) فقد أخرجه البخاري (٦٠٥) ٢٢٦/٢ .

(٢) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب النكاح ، باب الترغيب في النكاح ، برقم (٤٧٧٦)١٩٤٩/٥ ، ومسلم ، كتاب النكاح ، باب استحباب النكاح لمن تاقت إليه نفسه ، برقم (١٤٠١) ١٠٢٠/٢.

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب فضل الرفق ، برقم (٢٥٩٤)٢٠٠٤/٤ .

من استعمال الألفاظ المتعلقة بذلك ، ويخلص النصح لهم ، فيسمعون ألفاظا تخرج من قلبه لتدخل في عقولهم وقلو م .

وكم أثرت العبارات المستعلية على الناس ، وكذلك الأساليب الرعناء[1] والغلظة الفَظّة[2] غير المناسبة على رد الدعوة ، وزاد الأمر إلى اتخاذ موقف عدائي .

اللطيفة التاسعة :

بتأمل سريع لوصايا لقمان ، نلاحظ أمرا بالإضافة للقضايا التربوية ، أنه اجتمع فيها النفع القاصر والنفع المتعدي ، والداعية إلى الله يجمع في حياته بين الأعمال من النوعين ، فلا يقتصر على أحدهما دون الآخر ؛ لأنه إن اقتصر على القاصر فاته فضل المتعدي ، بل قد يقصر في بعض الواجبات عليه ؛ لأن من المتعدي ما هو واجب الفعل ، وإن اقتصر على المتعدي فاته حظ نفسه من العمل ، فإن الأعمال القاصرة هي كالزاد لأداء الأعمال المتعدية ، فمن أخذ من الصلاة بحظ وافر أعانه الله على أموره العامة ، وهكذا الذكر له أثر ، والصدقة كذلك .

والنبي ﷺ جمع في حياته الأمرين ، فيجاهد في سبيل الله ، ويدعو الناس ، ومع ذلك يأخذ من الليل حظا من الصلاة يقومه وحده ، وله حزب من القرآن لا يخرج حتى يتمه[3] .

اللطيفة العاشرة :

ملاحظة دقيقة من لقمان حينما قرن بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الصبر ، وجعل الأمر بالصبر عقبهما ،مما يدل على وجود علاقة بينهما ، فإن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر عرضة للأذى الحسي والمعنوي؛لأنه يحول بين الناس وشهوا م ،والغالب على الشهوات التحريم ، والنفس مجبولة على حب الشهوات والتمتع ا .

وقال لقمان الحكيم : ﴿واصبِر علَى ما أصابك ﴾ ولم يقل " يصيبك " ت يلا للأذى

---

(1) الرعونة : الحمق ، انظر : مختار الصحاح ، مادة (ر ع ن)، ص١٠٤ .

(2) الفظ : شديد غيض القلب ، انظر : المصباح المنير ،مادة(فظظ) ٤٧٨/٢ .

(3) حديث أوس بن حذيفة ﷺ ، أخرجه أبو داود ، كتاب الصلاة ، باب تحزيب القرآن ، برقم (١٣٩٣) ٥٥/٢وحسن إسناده العراقي في المغني عن حمل الأسفار ، تحقيق أشرف عبد المقصود :٢٢٥/١،{مكتبة طبرية ، الرياض : ١٤١٥هـ } .

م لة الأمر متحقق الوقوع ، حتى كأنه صار ماضيا .

فعلى الداعية أن يتهيأ لهذا الأمر ويحسن الظن بربه في توفيقه وإعانته،ويتوقع حصول الأذى،حتى إذا ما حصل المكروه لم يتفاجأ به،بل قد يكون سببا في حرصه على أمره و يه،حيث كان توقعه للمكروه أكبر وأشد مما أصابه،فيهون الأذى في عينه .

اللطيفة الحادية عشرة :

مع تقادم عصر لقمان رحمه الله ، إلا أن وصية لقمان لابنه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، تدل على أن هذه الشعيرة مما يصلح ا أحوال ا تمعات في جميع القرون ، وقد نادى ا أهل الحكمة والديانة ، وأفضل من قام به وحققه هذه الأمة المحمدية المباركة،لقوله تعالى:﴿كُنتم خير أُمةٍ أُخرِجت ِللناسِ تأْمرونَ ِبالْمعروفِ وتنهونَ عنِ الْمنكَرِ ﴾[1] .

فتاهت عقول من صرف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الإصلاح في الأرض إلى مخالفة الأخلاق ؛ لأنه تدخل في شؤون الغير ، وأنه يخالف الذوق السليم ، بينما الأمم من عهد لقمان في زمن داود عليه السلام يتواصون به ، ولما ضيعه بنو إسرائيل مقتهم الله ولعنهم بقوله : ﴿لُعِن الذِين كَفَروا مِن بنِي ِإسرائيلَ علَى ِلسانِ داود وعِيسى ابنِ مريم ذَلِك ِبما عصوا وكَانوا يعتدونَ۝ كَانوا لا يتناهونَ عن منكَرٍ فَعلُوه لَبِئْس ما كَانوا يفْعلُونَ﴾[2] .

اللطيفة الثانية عشرة :

تشتمل وصية لقمان لابنه على الأمر بالتوحيد ، وإقامة الصلاة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والصبر على الأذى ، وهي أمور تحمل صاحبها على الكمال والترقي في منازل العبودية ، كما أ ا جمعت بين النفع القاصر والمتعدي في توازن بديع .

والملاحظ أنه بعد هذه الوصايا قال لقمان لابنه محذرا من الكبر والفخر: ﴿ولا تصعر خدك ِللناسِ ولا تمشِ ِفي الْأَرضِ مرحاً ِإن الله لا يحِب كُل مختالٍ فَخورٍ﴾[3] .

---

(١) آل عمران : ١١٠ .

(٢) المائدة : ٧٨-٧٩ .

(٣) لقمان : ١٨ .

ولعل الربط بينها أن الإنسان حينما يسعى لتكميل نفسه ، ويحافظ على إيما ا ، يبقى للشيطان باب قد يدخل منه ، وهو التكبر على الناس خاصة أهل التقصير منهم ، فسده لقمان الحكيم فانتظمت الوصايا أحسن انتظام ، من رجل ألهمه الله الحكمة .

فالداعية إلى الله في أثناء إصلاحه واقع الناس ، ومخالطته بمن خلط عملا صالحا وآخر سيئا ، عليه أن يكون حذِرا من مزلق الفخر على الناس ، والتكبر عليهم ، ومنشأ ذلك النظر للنفس والاغترار بأعمالها ، ومن هنا خاف النبي ﷺ على أمته الشرك الخفي ، فقال: " ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح عندي ؟ قلنا :بلى،قال:الشرك الخفي "[(١)].

اللطيفة الثالثة عشر :

من طبيعة حياة الناس أ م يضعون سلوك الداعية تحت مراقبة العيون ، ودقائق الملاحظات ، ولإدراك لقمان لهذه الفطرة الحياتية فقد أوصى ابنه بالقصد في المشي ، وخفض الصوت ، ليوجب على الداعية مراعاة الآداب العامة ، والعناية بأفعاله الظاهرة للناس ، وأن الإنسان لا يتبسط أمامهم كما يفعل في خلوته ، وداخل بيته ، وإحدى الفوائد المترتبة على ذلك يرجع تأثيرها على دعوته ، فإن الناس يرضون من الأفعال ما يدل على الوعي ، والاتزان ، والوقار ، وينبذون ما يضادها .

فالداعية بناء على وصية لقمان عليه أن يهتم بدقائق الأمور ، وعدم مخالفة ا تمع في عادا م ما لم تكن إثما ، ومن هنا روي أن النبي ﷺ ى عن لبس ثياب الشهرة[(٢)] .

اللطيفة الرابعة عشر :

من تأمل وصايا لقمان وجد أ ا تقوم على الاعتدال ، وهو التوسط ، فلا إفراط ولا تفريط ، فالقصد في المشي ليس بالسرعة ولا التماوت ، والخفض في الصوت ليس بالجهر المزعج ، ولا الخافت الممل ، بل إن أوامر الشريعة جميعها تقوم على الاعتدال والتوسط ، وهي حالة إذا عرِف طرفاها اتضحت معالمها .

---

(١) روه أحمد في مسنده {مؤسسة قرطبة ،مصر: بدون } برقم (١١٢٧٠) ٣٠/٣، وحسنه الألباني رحمه الله ، انظر:مشكاة المصابيح للتبريزي،بتحقيقه برقم(٥٣٣٣)١٤٦٦/٣{المكتب الإسلامي ،بيروت: ١٤٠٥هـ } .

(٢) أخرجه أبو داود ، كتاب اللباس ، باب ما جاء في لباس الشهرة ، برقم (٤٠٢٩)٤٣/٤ ، وقال أبو حاتم الرازي : الموقوف أصح ، انظر : علل الأحاديث لابن أبي حاتم الرازي ، تحقيق محب الدين الخطيب :٤٩٠/١،{دار المعرفة ،بيروت: ١٤٠٥هـ } .

وعلى هذا فعلى الداعية أن يسير على الاعتدال في سائر أموره ،كما هو شأن الرسالة التي يحملها ، ولفظ الاعتدال ليس مرادفا للتيسير وإنما يرادف العدل ، فإن الشريعة تقوم بالعدل وعلى العدل ،فأحكام الشريعة معتدلة بما فيها الحدود وأحكام الجهاد،ومثلت ما لأن أهل الزندقة يلمزون ما دائما ، ولكل قوم وارث .

واليقين من أعمال القلب ، ومن شروط كلمة التوحيد ، ومن صور اليقين القلبي أن يستقر قلب المؤمن على دينه ،ويوقن به ويعتقده ويسلم له ويمتثل ،ويؤمن بالكتاب كله .

اللطيفة الخامسة عشر :

تزاحم الارتباطات ، وتكافؤ الحقوق الواجبة ، تحتم على الداعية تفهم فقه ترتيب الحقوق ، فقد ذَكَر الحكيم عددا من الحقوق الواجبة والآداب ، تختلف في قو ا ، ويتأكد بعضها أكثر من غيره ، وهذا يدلنا على أن من واجبات الداعية إلى الله ، ترتيب الحقوق المستحقة عليه ، فيعطي كل ذي حق حقه ، ولا يشغله أداء واجب عن أدب من الآداب ، وهذا يرجع إلى الفقه الدعوي بالحقوق المترتبة ، ودرجتها ، وأدائها .

المبحث السابع

مؤمن آل يس

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : تفسير الآيات الواردة في شأن مؤمن آل يس .

المطلب الثاني : اللطائف الدعوية المستنبطة من الآيات

المطلب الأول

تفسير الآيات الواردة في شأن مؤمن آل يس

الآيات الواردة في شأن مؤمن آل يس من الآية(١٣-٢٩) من سورة يس ، يتعلق قسمها الأول بالأنبياء الثلاثة الذين أرسلهم الله لأهل القرية ، وحيث إن بحثي يختص بأقوال الدعاة إلى الله من غير الأنبياء ، فإني سأترك القسم الأول مما له تعلق بالأنبياء عليهم السلام ، وسأقتصر على القسم المتعلق بمؤمن آل يس ، فإلى الآيات الواردة في شأنه .

قال تعالى : ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾[١] .

فقوله: ﴿وجاءَ مِن أَقْصى الْمدِينةِ ﴾ كان م له عند أقصى باب من أبواب المدينة[٢] ، وظاهر الآية يؤيد ذلك،وهذا يفيد" تبليغهم الرسالة بحيث انتهى إلى من في أقصى المدينة"[٣]، كما يفيد " تقديم أقصى المدينة على الرجل هنا للاهتمام بالثناء على أهل أقصى المدينة،وأنه قد يوجد في الأطراف من الخير ما لا يوجد في الوسط "[٤].

والمدينة المذكورة فيها خلاف بين المفسرين ، كما هو شأن كل ما أهمله القرآن ، " ولم يذكر القرآن الكريم لنا من هم أصحاب القرية ؟ ولا ما هي القرية ؟ وعدم إفصاح القرآن الكريم عنها دليل على أن تحديد اسمها ومكا ا لا يزيد شيئا في دلالة القصة ، وفي العبرة المقصودة من ضرب المثل ا "[٥] ، ومع ذلك فقد ذهب جمع من المفسرين[٦] إلى

---

(١) يس : ٢٠ .

(٢) تفسير الثعالبي ١٢٦/٨ .

(٣) التفسير الكبير ٤٨/٢٦ .

(٤) التحرير والتنوير ٣٦٦/٢٢ .

(٥) في ظلال القرآن ٢٩٦١/٥ .

(٦) انظر تفسير القرآن اختصار النكت للماوردي ، عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي الشافعي ، تحقيق الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي :٣٥/٣،{ط١، دار ابن حزم ،بيروت: ١٤١٦هـ } فقد نقل الاتفاق على ذلك .

أ ا أنطاكية[1] ، ورجح ابن كثير رحمه الله أ ا غير أنطاكية المعروفة[2] .

وقوله:﴿ رجل يسعى ﴾ قال أكثر المفسرين أن اسمه حبيب النجار[3] ، وقيل في مهنته أشياء كثيرة منها : أنه كان قصارا[4] ، وقيل : كان إسكافا[5] ، وقيل : كان ينحت أصنامهم[6] .

والذي يظهر أن اسمه حبيب ، وأما مهنته فلم تكن محددة يلتزمها من أول العام إلى ايته ، إلا أ ا وضيعة ، فأحيانا يكون نجارا حين تكون الحاجة للنجارة ، وأحيانا إسكافيا وقصارا ، كما أنه يمارس النحت أيضا ، وأشهر ما ينحته الأصنام التي كانوا يعبدو ا ، والله أعلم وأحكم .

وتنكير الرجل في الآيات له فوائد : الأولى " أن يكون تعظيما لشأنه ، أي : رجل كامل في الرجولية ، الثانية : أن يكون مفيدا لظهور الحق من جانب المرسلين ، حيث آمن رجل من الرجال لا معرفة لهم به ، فلا يقال: إ م تواطؤا معه "[7] ، والثالثة : أن معرفته ليست ذات بال ، بخلاف العمل الذي قام به ، فالأسماء لا تعني المؤمن كثيرا بقدر ما يعنيه العمل الذي قامت به تلك الشخصيات الفريدة .

والسعي في قوله:﴿يسعى﴾ أي : يشتد عدوا[8] ، وفيها " تبصرة للمؤمنين ، وهداية لهم ؛ ليكونوا في النصح باذلين جهدهم "[9] كما أن فيها سرعة المبادرة إلى إنكار المنكر

---

(1) بالفتح ثم السكون ، والياء مخففة ، من الثغور الشامية ، وهي من أعيان البلاد ، وأمهها ا ، موصوفة بال هة ، والحسن ، وطيب الهواء ، وعذوبة الماء ، وكثرة الفواكه . انظر : معجم البلدان ،أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي :٢٦٦/١،{دار الفكر ،بيروت:بدون } .

(2) تفسير ابن كثير ٣٥٦/١١ .

(3) الدر المنثور ٥١/٧ .

(4) الدر المنثور ٥١/٧ ، والقصار هو : المبيض للثياب ، انظر : إعانة الطالبين ، أبو بكر بن السيد محمد شطا الدمياطي : ١١٨/٣، {دار الفكر ، بيروت : بدون } .

(5) تفسير ابن كثير ٣٥٤/١١ ، والإسكاف هو : الخراز ، وقيل : كل صانع ، انظر : المصباح المنير ص١٤٧.

(6) تفسير أبي السعود ١٦٣/٧ .

(7) التفسير الكبير ٤٨/٢٦ .

(8) تفسير الجلالين ٥٨٠ .

(9) التفسير الكبير ٤٨/٢٦ .

وعدم التباطؤ فيه[١] .

وقوله :﴿ قَالَ يا قَومِ اتِبعوا الْمرسلِين﴾ بدأ مؤمن آل يس في دعوته فقال لهم :يا قومِ ، وهذا النداء " ينبئ عن إشفاق عليهم وشفقة ، فإن إضافتهم إلى نفسه يفيد أنه لا يريد م إلا خيرا "[٢] ، "وأن ما سيخاطبهم به هو محض نصيحة ؛ لأنه يحب لقومه ما يحب لنفسه "[٣] ، وذلك " لتأليف قلو م ، واستمالتها نحو قبول نصيحته "[٤] .

وهذا القول من داعية آل يس يفيد " إظهاره الإيمان بالرسل، وقدم النداء لقومه على إظهاره الإيمان ؛ لأنه كان ساعياً في النصح ، وأما الإيمان فكان قد آمن من قبل ، وقد قال :﴿ اتِبعوا الْمرسلِين ﴾ بينما قال مؤمن آل فرعون ﴿ اتِبعون ﴾ والفرق بينهما أن " هذا الرجل جاءهم وفي أول مجيئه نصحهم وما رأوا سيرته ، فقال : اتبعوا هؤلاء الذين أظهروا لكم الدليل ، وأوضحوا لكم السبيل ، وأما مؤمن آل فرعون ، فكان فيهم ، واتبع موسى ونصحهم مرارا ،فقال:اتبعوني في الإيمان بموسى وهارون عليهما السلام"[٥].

كما أن مكانة الرجلين تجعل كل واحد منهما اختار ما يناسبه ، فمؤمن آل يس من عامة الناس ، وغير المعروفين ، فلم يناسبه أن يقول " اتبعوني " وهي من مؤمن آل فرعون الوزير لائقة ، وغير مستنكرة .

وقال تعالى :﴿اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[٦] .

فقوله :﴿ اتِبعوا من لا يسأَلُكُم أَجراً ﴾ " كلمة جامعة في الترغيب "[٧] ، " وفيها الت ه عن الأغراض الدنيوية "[٨] ،" بقي أن يقال : فلعله يدعو ولا يأخذ أجرة ، ولكنه

(١) التحرير والتنوير ٣٦٦/٢٢ .
(٢) التفسير الكبير ٤٩/٢٦ .
(٣) التحرير والتنوير ٣٦٦/٢٢ .
(٤) تفسير أبي السعود ١٦٣/٧ .
(٥) التفسير الكبير ٤٨/٢٦ . بتصرف .
(٦) يس : ٢١ .
(٧) الكشاف ١٣/٤ .
(٨) تفسير أبي السعود ١٦٣/٧ .

ليس على الحق ، فدفع هذا الاحتراز بقوله ﴿ وهم مهتدونَ ﴾ لأ م لا يدعون إلا لما يشهد العقل الصحيح بحسنه ، ولا ينهون إلا عما يشهد العقل الصحيح بقبحه "[1] ، " وإنما قدم في الصلة عدم سؤال الأجر على الاهتداء ؛ لأن القوم كانوا في شك من صدق المرسلين ، وكان من دواعي تكذيبهم ا امهم بأ م يجرون لأنفسهم نفعا من ذلك ؛ لأن القوم لما غلب عليهم التعلق بحب المال ، وصاروا بعداء عن إدارك المقاصد السامية ، كانوا يعدون كل سعي يلوح على امرئ إنما يسعى به إلى نفعه ، فقدم ما يزيل عنهم هذه الاسترابة "[2] .

وهذه الآية فيها ثناء على المرسلين ، بأ م لم يطلبوا أجرا دنيويا على دعو م ، وبأن سلوكهم ظاهر الهداية ، إذ لو لم يكن كذلك لرد أهل القرية بالرفض ، والنفي ، وهذا من فقه مؤمن آل يس حيث حاكمهم إلى ما يعرفونه من أفعالهم .

وقوله :﴿وهم مهتدونَ﴾ "جاءت الجملة الأولى من الصلة فعلية منفية ، لأن المقصود نفي أن يحدث منهم سؤال أجر فضلا عن دوامه وثباته ، وجاءت الجملة الثانية اسمية ؛ لإفادة إثبات اهتدائهم ودوامه ، بحيث لا يخشى من يتبعهم أن يكون في وقت من الأوقات غير مهتد "[3] .

وقال تعالى :﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[4] .

فقوله :﴿وما لِي لا أَعبد الذِي فَطَرنِي﴾" هذا الاستفهام إنكاري ، وفي الآية إشعار بأ م كانوا منكرين عليه الدعوة إلى تصديق الرسل "[5] .

وأضاف الضمير إلى نفسه في بداية الكلام ﴿وما لِي ﴾ لعدة أوجه :

الوجه الأول : لأن الإنسان أعلم بحال نفسه من غيره ، فلا يحتاج في جملته تلك إلى جواب ، بينما لو أسندها لهم فقال : " مالكم " فقد يجيبون عنها[6] .

---

(1) تفسير السعدي ص٦٩٤ .
(2) التحرير والتنوير ٣٦٧/٢٢ .
(3) التحرير والتنوير ٣٦٨/٢٢ .
(4) يس : ٢٢ .
(5) التحرير والتنوير ٣٦٨/٢٢ بتصرف يسير .
(6) التفسير الكبير ٤٩/٢٦ . بتصرف .

والوجه الثاني : أنه أسند الضمير لنفسه " بإيراده في معرض المناصحة لنفسه ، وامحاض النصح ، حيث أراهم انه اختار لهم ما يختار لنفسه ، والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم "[1] .

والوجه الثالث : أنه في مقام التألف لهم ، فيحاول جاهدا بكل أسلوب لين أن يقر م للإيمان ، فلم يكن من المناسب أن يوبخهم ، ويوجه لهم السؤال " ومالكم " وإنما الأنسب أن يوجه السؤال لنفسه تعريضا بحالهم .

والفَطْر المراد به الخَلْق[2] ، وتفسيرها بالفطرة التي خلق عليها الناس ، استغربه الرازي[3] ، ولا وجه لاستغرابه ،ويؤيد صحة ذلك أنه ختم الآية بقوله:﴿وإليه ترجعون﴾ والرجعة تقابل الخلق .

" وأضاف الفطرة إلى نفسه ؛ لأن النعمة كانت عليه أظهر ، وأضاف الرجوع إليهم ؛ لأن الزجر كان م أحق "[4] .

وقال تعالى :﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ﴾[5] .

فقوله :﴿ أَأَتخِذُ مِن دونِهِ آلِهةً﴾ الاستفهام بمعنى الإنكار[6]عليهم في عباد م غير الله ، " والاتخاذ إشارة إلى أن غيره ليس بإله ، لأن المتخذ لا يكون إلها "[7] ، وبيان ذلك أن " الاتخاذ : افتعال من الأخذ ، وهو التناول ، والتناول يشعر بتحصيل ما لم يكن قبل ، فالاتخاذ مشعر بأنه صنع ، وذلك من تمام التعريض بالمخاطبين ، أ م جعلوا الأوثان آلهة ، وليست بآلهة ؛ لأن الإله الحق لا يجعل جعلاً ، ولكنه مستحق الإلهية بالذات "[8] ،

---

(١) تفسير أبي السعود ١٦٤/٧ .
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان ٨٤/٣ .
(٣) التفسير الكبير ٥٠/٢٦ .
(٤) تفسير السمعاني ٣٧٣/٤ .
(٥) يس : ٢٣ .
(٦) تفسير السمعاني ٣٧٣/٤ .
(٧) التفسير الكبير ٥١/٢٦ .
(٨) التحرير والتنوير ٣٦٨/٢٢ .

وأسند الضمير إلى نفسه تعريضا م ، ومراعاة لهم في دعو م ، كما أن اللفظ يشعر باستبعاد أن يقع ذلك منه .

وقوله :﴿ ِإنْ يردن الرحمن ِبضر لا تغنِ عني شفَاعتهم شيئاً ولا ينقِذُون ﴾ هذا تفصيل لحجته في عدم اتخاذ الآلهة معبودات ، وهي تدل على أن الآلهة لا تدفع ضرا ، ولا تجلب نفعا من باب أولى ، واختار اسم الرحمن ؛" لكونه صالحا لعقيدة الفريقين "[١]، كما أنه يحتمل الإشارة إلى أن الله لا ينسب إليه ضر محض ، كما هو عقيدة أهل السنة والجماعة[٢] ، فجاء باسم الرحمن ؛ ليشعر بأن كل شر ففيه رحمة .

واقتصاره على ذكر الضر دون الخير ، إما لأن الإنسان بفطرته يسعى لرفع الضر عنه أكثر مما يسعى لجلب الخير ؛ أو لأن تلك القرية انتشر فيها التشاؤم ، كما في أول الآيات ﴿قَالُوا ِإنا تطَيرنا ِبكُم﴾ فناسب أن يأتي بالضر لأنه أليق بحال المتشائم ، والله أعلم وأحكم .

وإسناد إرادة الضر إلى الله دليل على أن الضر يقع بأمره ، وأن الله خالقه ، وله فيه حكمة .

وفي الآية نفي الشفاعة وإبطالها ، فإن قوله :﴿ لا تغنِ عني شفَاعتهم شيئاً ولا ينقِذُون﴾ يحتمل نفيها أصلا ، كما أنه يحتمل نفي نفعها إن وقعت [٣] ، وقد تطرق إليها النفي من عدة جهات :

١ ـ بدايتها بالنفي ﴿لا﴾ .

٢ ـ وقوله: ﴿شيئًا﴾ وهي نكرة في سياق نفي .

٣ ـ وإعادة النفي مرة أخرى ﴿ولا ينقِذُون ﴾ .

٤ ـ وإبطال شفاعتها،ونفي نفعها بذا ا،فأولا قال:﴿لا تغنِ عني شفَاعتهم ﴾ ثم قال :﴿ولا ينقِذُون﴾ لأن موارد النفع إما من الذات ، أو من الغير ، فالغير لا تنفع شفاعتها عنده ، وذا ا لا تنقذ من احتاج إليها ، فأصبحت غاية في نفي الشفاعة .

---

(١) التحرير والتنوير ٣٦١/٢٢ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ٤١٢ .

(٣) روح المعاني ٢٢٧/٢٢ .

وقال تعالى :﴿إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[١] .

هذا " جواب للاستفهام الإنكاري ، فحرف إذاً جزاء للمنفي ، لا للنفي ، أي : إنْ اتخذت من دون الله آلهة أكن في ضلال مبين "[٢] .

فمؤمن آل يس يلمح في هذا الوصف إلى ضلال القوم بأسلوب لطيف ، فجمع بين النصيحة لهم ، والإنكار عليهم ، ووصف الضلال بالمبين " يحتمل أنه بين ظاهر في نفسه ، ويحتمل أنه بين الضلال للناس "[٣] ، وهما متلازمان .

وفي الآية ذم لمن اتخذ إلها مع الله ، فأكدت الآية بحرف التوكيد وحرف الجزاء ولام التوكيد والوصف بالمبين ، مع أن لفظ الضلال مشعر وحده بالذم ، فاجتمعت المؤكدات على ضلاله ليناسب حاله في اجتماع خصال الكفر والضلال .

وقال تعالى :﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾[٤] .

هذا من قول مؤمن آل يس بالاتفاق ، لكن اختلف أهل التفسير في المخاطبين به على أقوال حاصلها يرجع إلى قولين :

قيل : إ م قومه[٥] ، استصحابا لأصل الكلام ، فهو يخاطب قومه ، وعلى هذا يكون السبب لقوله :﴿ فَاسمعون﴾ إظهارا للتصلب في الدين ، وعدم المبالاة بالقتل "[٦] ، ويكون قوله :﴿ ِربكُم ﴾ المراد به الربوبية التي يؤمن ا الكفار .

وقيل:الخطاب للرسل[٧]،وعلى هذا يكون قوله:﴿ فَاسمعون﴾ "على جهة الاستشهاد م ، والاستحفاظ عندهم "[٨]،ويكون قوله :﴿ ِربكُم ﴾ لزيادة التقرير ،وإظهار الاختصاص والاقتداء م،كأنه قال : بربكم الذي أرسلكم،أو الذي تدعوننا إلى الإيمان

---

(١) يس : ٢٤ .
(٢) التحرير والتنوير ٣٦٩/٢٢ .
(٣) التفسير الكبير ٥٣/٢٦ .
(٤) يس : ٢٥ .
(٥) تفسير ابن أبي حاتم ٣١٩٢/١٠ .
(٦) تفسير أبي السعود ١٦٤/٧ .
(٧) الدر المنثور ٥٢/٧ .
(٨) المحرر الوجيز ٤٥١/٤ .

به"[1].

والقولان متجهان ، والذي يظهر لي والله أعلم وأحكم أن الأرجح أنه خاطب بذلك قومه ، ويدل على ذلك ما يلي :

١ ـ ظاهر الآيات ، فإ ا متناسقة في خطاب الرجل لقومه ، فالأصل أن يبقى هذا الخطاب .

٢ ـ عادة الإنسان لما يبطل أمرا من الأمور أن يقرر ما يضاده ، وقد أبطل مؤمن آل يس ألوهية الآلهة ، فقرر إيمانه ، وهذا يقتضي أن يبقى خطابه لقومه .

٣ ـ قوله :﴿ فَاسمعون ﴾ لا يراد ا حقيقة السماع ، وإنما المراد الاستجابة ، فهو يطلب من قومه أن يستجيبوا له ، وهذا يتفق مع لغة الشفقة التي خاطب ا قومه ، ونصحه لهم .

والجمع بين قوله: ﴿آمنت﴾ مع قوله: ﴿بِربكُم﴾ دليل على الارتباط بين توحيد الربوبية والألوهية ، ولما قال تلك الجمل الدعوية ، وصدع بكلمة الحق بين قومه ، وفضح عقائد المتكبرين ، لم يتركوه اتباعا لسنن الله الكونية في الصراع بين الحق وأهله ، والباطل وعصابته ، ولهذا " تواترت الأحاديث والروايات على قتله "[2] ، مع الاختلاف في طريقة القتل التي أجريت عليه :

فقيل : رجموه بالحجارة وعليه أكثر المفسرين[3] ، وقيل : وطئوه بأقدامهم حتى مات ، وقيل : دفنوه في بئر وهو حي ، وقيل : نشروه بالمنشار ، وقيل : حرقوه [4] ، وقيل : خنقوه حتى مات[5] ، وقيل : خرقوا خرقا في حلقه فعلقوه به[6] .

والله أعلم بكيفية القتل إلا أن كثيرا منها يمكن اجتماعه ، وهذه الأنواع من القتل تليق بأعداء الرسل ، ولا يستبعد ذلك منهم ، ويهونُ هذا لما يكون ذلك في حق رجل

---

(١) تفسير أبي السعود ١٦٤/٧ .
(٢) المحرر الوجيز ٤٥١/٤ .
(٣) تفسير الطبري ١٦١/٢٢ .
(٤) الأقوال في تفسير القرطبي ١٩/١٥ .
(٥) الدر المنثور ٥٢/٧ .
(٦) تفسير البغوي ١٠/٤ .

نكرة من عامة أهل القرية ، ضعيف العشيرة ، والمكانة ، محتقر المهنة ، وهي أمور اجتمعت في مؤمن آل يس ، " وإنما لم يصرح بأ م قتلوه إغماضا لهذا المعنى عن المشركين كيلا يسرهم أن قومه قتلوه فيجعلوه من جملة ما ضرب به المثل لهم وللرسول ﷺ ، فيطمعوا أ م يقتلون الرسول ﷺ ، فهذه الكناية لا يفهمها إلا أهل الإسلام الذين تقرر عندهم التلازم ، بين الشهادة في سبيل الله ، ودخول الجنة ، أما المشركون فيحسبون أن ذلك في الآخرة "[١] .

وقال تعالى :﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾[٢] .

فقوله:﴿ ادخلِ الْجنةَ ﴾ قيل : إنه على حقيقته ، كما الشأن في بقية الشهداء[٣] ، فانضم الرجل إلى ركا م ، والتحق م ، وقد صح الحديث بدخول أرواحهم الجنة ، كما في حديث مسروق[٤] رحمه الله قال : سألنا عبد الله هو ابن مسعود ﷺعن هذه الآية :﴿ولا تحسبن الذِين قُتِلُوا ِفي سِبِيل اللهِ أمواتاً بلْ أحياءٌ عِند ربهم يرزقُونَ﴾[٥] قال : أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال : أرواحهم في جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل "[٦] .

وهناك أقوال في الآية لا يساعدها النظر ، وهي :

قيل : إن هذا القول قيل له عند موته ، بأن عرض عليه مقعده منها[٧]،لكن ذلك

---

(١) التحرير والتنوير ٣٧٠/٢٢ .

(٢) يس : ٢٦ .

(٣) تفسير أبي السعود ١٦٤/٧ ، وانظر : التحرير والتنوير ٣٧٠/٢٢ .

(٤) أبو عائشة ، ويقال : أبو أمية ، مسروق بن الأجدع عبد الرحمن بن مالك بن أمية الهمداني ، غير عمر بن الخطاب ﷺ اسم والده إلى عبد الرحمن بدلا من الأجدع ، أسلم في عهد النبي ﷺ ولم يره ، حدث عن جماعة من الصحابة منهم أبي بن كعب ، وعائشة ، وعمر بن الخطاب ، رضي الله عنهم أجمعين ، وتوفي سنة ثلاث وستين للهجرة . انظر : الطبقات الكبرى ٧٦/٦ ، وسير أعلام النبلاء ٦٣/٤، ٦٤ .

(٥) آل عمران : ١٦٩ .

(٦) أخرجه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة ، وأ م أحياء عند ر م يرزقون ، برقم (١٨٨٧) ١٥٠٢/٣ .

(٧) المحرر الوجيز ٤٥١/٤ .

خلاف سياق الآية ، كما أنه يحتاج إلى تقدير ، والتقدير على خلاف الأصل[1] .

وقيل : رفع للجنة ولم يقتل فقيل هذا القول له[2] ، وهذا القول يفتقر إلى الدليل الخاص ، كما ورد في شأن عيسى عليه السلام .

وقيل : الأمر للتبشير لا للإذن بالدخول حقيقة[3] ، يرد عليه بقول الرجل نفسه بعد ذلك ﴿ يا لَيت قَومِي يعلَمونَ﴾ والمغفرة لا يمكن الاطلاع عليها حقيقة إلا بعد دخول الجنة .

وجاءت الآية بصيغة ﴿قِيلَ ادخلِ الْجنةَ ﴾ لأن " الغرض بيان المقول لا المقول له ، لظهوره ، وللمبالغة في المسارعة إلى بيانه "[4]،وهناك وجه آخر وهو " لكثرة المهنئين له بدخول الجنة ، حيث يقول له كل ملَك ، وكل صالح يراه : ادخل الجنة خالدا فيها ، إشارة إلى أن الدخول يكون دخولا بإكرام ، كما يدخل العريس البيت المزين على رؤوس الأشهاد ، يهنئه كل أحد "[5] .

وبناء على ما سبق يكون قوله :﴿ قَالَ يا لَيت قَومِي يعلَمونَ ﴾ قالها بعد أن دخل الجنة ، ورأى ما فيها من الكرامات التي أعطاه الله إياها ، وهي " جملة استئنافية ، وإنما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب مثله بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان والطاعة جريا على سنن الأولياء في كظم الغيظ والترحم على الأعداء، وقيل : يجوز أن يكون تمنيه ذلك ليعلموا أ م كانوا على خطأ عظيم في أمره،وأنه كان على صواب،ونصيحة وشفقة وأن عداو م لم تكسبه إلا فوزا،ولم تعقبه إلا سعادة،لأن في ذلك زيادة غبطة له،وتضاعف لذة وسرور،والوجه الأول أولى"[6].

وهذا القول من مؤمن آل يس من تمام نصحه لقومه " قال قتادة : لا تلقى المؤمن إلا ناصحا ، لا تلقاه غاشا ، لما عاين ما عاين من كرامة الله تعالى قال يا ليت قومي يعلمون

---

(١) قواعد التفسير للسبت ٣٧٦/١ .

(٢) فتح القدير ٣٦٥/٤ .

(٣) روح المعاني ٢٢٨/٢٢ .

(٤) تفسير أبي السعود ١٦٤/٧ .

(٥) التفسير الكبير ٥٤/٢٦ بتصرف يسير .

(٦) روح المعاني ٢٢٩/٢٢ .

بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين "[1] .

وقال تعالى : ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾[2] .

فقوله:﴿بِما﴾ ما هنا يحتمل كو ا "خبرية،كأنه قال:يا ليت قومي يعلمون بالذي غفر لي ربي،ويحتمل أ ا مصدرية،كأنه قال:يا ليت قومي يعلمون بمغفرة ربي لي "[3].

والمغفرة أعم من اختصاصها بالذنوب ، فإن النبي ﷺ كان يسأل ربه المغفرة ، كما في حديث عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه ، وسجوده : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي ، يتأول القرآن "[4] ، وعلى هذا فالمغفرة فضل من الله ، يزيد على ستر الذنوب[5] .

وقوله :﴿وجعلَنِي مِن الْمكْرمِين﴾ أي : من الذين أكرمهم الله بإدخاله إياه جنته[6] ، وفي الآية سعة كرم الله كما تفيده صيغة الجمع ﴿الْمكْرمِين﴾ ، وواسع فضله ، فقد جمع لمؤمن آل يس المغفرة ، والإكرام ، وهذا جزاء الدعاة عند الله .

وقوله:﴿ الْمكْرمِين﴾ دون غيرها من الصيغ كالفائزين أو المفلحين مثلا ؛ لأن الرجل كان في الدنيا محتقرا ، فمهنته وضيعة ، ومكانته غير معروفة ، حتى طريقة قتلهم له ؛ فيها من الإهانة الشيء الكثير ، مما يخالف العقل السليم ؛ فجازاه الله بالإكرام ، والله أعلم بأسرار كتابه .

وقال تعالى:﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾[7].

فقوله :﴿وما أَنزلْنا علَى قَومِهِ مِن بعدِهِ مِن جندٍ مِن السماءِ﴾ فيه " إشارة إلى

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٥٥/١١ .

(٢) يس : ٢٧ .

(٣) التفسير الكبير ٥٤/٢٦ بتصرف .

(٤) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب صفة الصلاة ، باب التسبيح والدعاء في السجود ، برقم (٧٨٤)٢٨١/١ ، ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب ما يقال في الركوع والسجود ، برقم (٤٨٤)٣٥٠/١ .

(٥) انظر لمزيد من الإيضاح : مدارج السالكين ٣٠٨/١ .

(٦) تفسير الطبري ١٦١/٢٢ .

(٧) يس : ٢٨ .

هلاكهم بعده سريعاً ، على أسهل وجه ، فإنه لم يحتج إلى إرسال جند "[١]، كما أن فيه انتقام الله وغضبه لهذا الداعية ، وإهلاكه أهل تلك المدينة انتصارا لرسله ، ووليه[٢] .

وأسند فعل الإنزال إلى نفسه ﴿وما أنزلْنا ﴾؛لما في لفظ العذاب من الهيبة والتعظيم[٣] ؛ وليبين أنه انتقم لأوليائه بنفسه كرامة لهم .

ونسبة القوم له ﴿قَومِهِ﴾ هذا جار على لغة العرب في نسبتهم ، حينما يكون بين الشيئين أدنى ملابسة ، وإظهارا للدور الذي قام به معهم ، وقول الرازي رحمه الله " لأن العذاب كان مخصصا بأقارب ذلك ؛ لأن غيرهم من قوم الرسل آمنوا م ، فلم يصبهم العذاب "[٤] قول لا دليل عليه ، وقد تفرد به فيما أعلم ، ويرده آخر الآيات ﴿فَإِذَا هم خامِدونَ ﴾ ، بالإضافة إلى أن القوم في أول الآيات يراد به أهل تلك المدينة ، فيجرى لفظ القوم في هذه الآية على ما سبقه .

وقوله:﴿مِن بعدِهِ﴾ يفيد سرعة إهلاك الله لهم،فبعد قتلهم له نزل عليهم العذاب.

وقوله :﴿مِن جندٍ﴾ المراد بالجند الملائكة ، فلم ي ل الله ملائكة لعذاب تلك المدينة ، تحقيرا لهم ، و وينا من أمرهم[٥] ، ومن هنا لتأكيد النفي[٦] ، وقول مجاهد رحمه الله أن المراد بالجند " الرسالة "[٧] رده الطبري رحمه الله ، وأعتذر عن مجاهد بقوله " إلا أن يكون أراد مجاهد بذلك الرسل ، فيكون وجها ، وإن كان أيضا من المفهوم بظاهر الآية بعيد ، وذلك أن الرسل من بني آدم ، لا ي لون من السماء ، والخبر في ظاهر هذه الآية ، عن أنه لم ي َل من السماء بعد مهلِكِ هذا المؤمن على قومه جندا ، وذلك بالملائكة أشبه منه ببني آدم "[٨].

وقوله :﴿مِن السماءِ﴾ إشارة إلى أن عذا م جاءهم من السماء لكنه لم يكن بجنود ،

---

(١) التفسير الكبير ٥٤/٢٦ .
(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٣٥٦/١١ .
(٣) التفسير الكبير ٥٤/٢٦ .
(٤) التفسير الكبير ٥٤/٢٦ .
(٥) انظر : تفسير أبي السعود ١٦٥/٧ .
(٦) روح المعاني ٢/٢٣ .
(٧) تفسير مجاهد ، تحقيق عبد الرحمن محمد الطاهر السورتي :٥٣٤/٢،{دار المنشورات العلمية،بيروت:بدون} .
(٨) تفسير الطبري ٢/٢٣ .

وإنما بصيحة[١] ، كما بينته الآية الأخرى ، كما أن فيها إشارة إلى أن الجنود يرسلها الله من السماء ، فيـ ل الملائكة بأمره .

وقوله :﴿وما كُنا منزِلين﴾ تعددت أقوال المفسرين في هذا النفي ، فقيل : بأن (ما) هنا : " نافية ، وقالت فرقة : أ ا عطف على جند ، أي : وما أنزلنا من جند ومن الذي كنا مـ لين على الأمم مثلهم قبل ذلك "[٢] كالحجارة ، والغرق ، والريح الشديدة .

وعلى القول بالنفي حاولوا الجمع بينه وبين إنزال الله الملائكة لنصرة المؤمنين كقوله تعالى :﴿فَأَرسلْنا علَيهم رِيحاً وجنوداً لَم تروها﴾[٣] .

فكان استثناء النبي ﷺ لكرامته وشرفه على الأنبياء[٤]فضلا عن مؤمن آل يس.

والأظهر والله أعلم أن النفي على ظاهره ، ولا حاجة للجمع لأن المراد تحقير أولئك القوم[٥] ، وأ م أقل شأنا من أن يـ ل الله عليهم جندا من السماء ، وما كان الأمر يستدعي الإنزال .

وهذا يتضمن " عظمة اقتدار الله تعالى ، وشدة ضعف بني آدم ، وأ م أدنى شيء يصيبهم من عذاب الله يكفيهم "[٦] ، كما يتضمن توعد قريش أن يحل عليهم ما حل بقوم هذا الرجل[٧] .

وقـال تعـالى :﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾[٨] .

فقوله :﴿إِنْ كانت إِلا صيحةً واحِدةً﴾ عذ م الله بالصيحة ، وحقّر الله أمرهم بذكره:﴿واحِدةً﴾ تأكيدا لكون الأمر هينا عند الله "[٩] .

وعذ م بالصيحة لأ م لم ينتفعوا بما سمعوا من كلام الأنبياء وموعظة الرجل المؤمن .

---

(١) التفسير الكبير ٥٤/٢٦ .
(٢) المحرر الوجيز ٤٥٢/٤ باختصار .
(٣) الأحزاب : ٩ .
(٤) الكشاف ١٥/٤ .
(٥) فتح القدير ٣٦٧/٤ .
(٦) تفسير السعدي ص٦٩٥ .
(٧) المحرر الوجيز ٤٥٢/٤ .
(٨) يس : ٢٩ .
(٩) التفسير الكبير ٥٥/٢٦ .

قوله تعالى :﴿فَإِذَا هم خامِدونَ﴾إذا هي الفجائية ، وفيها الإشارة إلى سرعة هلاكهم[1] ، والخمود هو السكون ، والمعنى أصابتهم الصيحة فإذا هم"ساكنون كهيأة الرماد الخامد "[2].

ووصفهم بالخمود دون غيره من الصيغ يتضمن :

١ ـ " رمزاً خفياً إلى البعث بعد الموت "[3] وهذا والله أعلم لأن الخمد في اللغة يطلق على النار إذا " سكن لهبها ، ولم يطفأ جمرها "[4] .

٢ ـ التسوية بالأرض،أي:"ساكنون موتى لاطئون بالأرض"[5]من شدة الصيحة.

٣ ـ وجود نار مع الصيحة ، فإن الصيحة صاعقة ، كما عذب الله ا ثمود ، ولهذا وصِفُوا بعد عذا م بالنار مع الصيحة بالخمود ؛ لأن الخمود من أوصاف النار على الحقيقة ، فاحترقوا ، واحترقت مدينتهم ، ولم يعد لها أثر ، والله أعلم وأحكم .

---

(١) روح المعاني ٢/٢٣ .

(٢) زاد المسير ١٤/٧ .

(٣) روح المعاني ٣/٢٣ .

(٤) لسان العرب ، مادة (خمد) ، ١٦٥/٣ .

(٥) المحرر الوجيز ٤٥٢/٤ .

المطلب الثاني

اللطائف الدعوية المستنبطة من الآيات

الآيات الواردة في قصة صاحب يس تشتمل على كثير من اللطائف والفوائد والدرر ، وسأقتصر – تمشيا مع موضوع بحثي – على اللطائف التي تختص بجانب الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، وبعضها مما يؤخذ من كلام الرسل أو أفعالهم ، إلا أن المسوغ لي في الاستنباط منها ، أ ا أتت على لسان صاحب يس ، ومن ذلك ما يلي :

اللطيفة الأولى :

من ركائز الدعوة إلى الله قيامها على قدم المبادرة التي تحمل الداعية على السبق ، وتجعله في محل القدوة ، ويكون له أجر من جاء بعده ، كما أ ا مفتاح التجديد .

فمؤمن آل يس أظهرت الآيات أنه لم يأت بناء على طلب من الرسل ، أو تحريض منهم ، وإنما تحركت فيه القوة الإيمانية ، ولهذا قال الله عنه:﴿وجاءَ﴾ وهي لفظة تفيد معنى المبادرة من غير اتفاق ، وهذا أحد الأسباب الذي لأجله نكِرت كلمة ﴿رجلٌ﴾ " حيث آمن رجل من الرجال ، لا معرفة لهم به ، فلا يقال إ م تواطؤا معه "[1] .

اللطيفة الثانية :

المهن التي قيلت في حق صاحب يس كلها مهن وضيعة ، فقيل : أنه كان قصارا[2] ، وقيل : كان إسكافا[3] ، وقيل : كان ينحت أصنامهم[4] .

ونحن وإن لم يكن عندنا دليل على ترجيح مهنة على مهنة ؛ إلا أن هذه الأقوال تعطينا دلالة واضحة على أنه لا يتعدى هذه المهن بالاتفاق ، فالجامع المشترك بين المهن التي قيلت هو الضعف ، والوضيعة مما يرشدنا إلى أن استهداف أصحاب المهن الضعيفة ينبغي أن يكون له نصيب من الدعوة ، فلا تصرف الجهود الدعوية إلى الكبراء ،

---

(١) التفسير الكبير ٤٨/٢٦ .

(٢) الدر المنثور ٥١/٧ .

(٣) تفسير ابن كثير ٣٥٤/١١ .

(٤) تفسير أبي السعود ١٦٣/٧ .

وأصحاب المكانة ، ويكون ذلك على حساب غيرهم من فئات ا تمع ، وإنما تستهدف شرائح ا تمع ، وتوزع الجهود الدعوية بينهم .

وفي القول بأنه ينحت الأصنام لهم مزيد فائدة ، وهي استهداف المقربين من عِلية القوم وأصحاب المهن التي تتعلق بدينهم ، ولعل السر في ذلك أ م أكثر اطلاعا من غيرهم على تفاهة معبودهم ، فهم الذين يصنعونه ويزينونه ويشكلونه على ما يريدون ، وتكون هيئته الأخيرة بناء على المقدرة الفنية التصويرية للناحت ، وهذا له أثره في عدم الاقتناع الكلي بعبادته إياه .

اللطيفة الثالثة :

من عرف حال مؤمن آل يس قبل أن يصدع بدعوته ويقف في وجوه العتاة يستحيل التفرس بحال هي أفضل من حال مهنته التي يمارسها ، إلا أن الأيام أظهرت غير ذلك ، وسجل له موقف دعوي عالي الم لة ، وهذا يجعلنا لا نحقر أي فرد من أفراد الأمة الإسلامية ، فقد يكون له موقف يسدده الله فيه ويعينه ، فيحمي به حمى الدين ، ويشهد لما ذكرته سيرة النبي ﷺ في دعوته ، فما بلال الحبشي ﷺ قبل الإسلام حتى يطمع في إسلامه ؟ وأي عشيرة لابن مسعود ﷺ حتى يأخذ جهدا دعويا تنص النظرة الدنيوية على أولوية صرفه لغيره ؟ فأظهرت الأيام غير ذلك .

اللطيفة الرابعة :

وصول صاحب يس من أقصى المدينة ، يدل على أن جهود الدعاة في تلك المدينة كانت تتناول الأطراف ، وأطراف البلدان غالبا ما يكون فيها سلامة الفطرة ، وسرعة الاستجابة ، والبعد عن مظاهر الافتتان بالمدنية وحضار ا ، " وأقرب للاستقلال بالنظر ، وقلة اكتراث بالآخرين "(١) .

و ذا نستفيد سلوكا دعويا في أهمية دعوة القرى والأطراف النائية ، وهو أحد الأساليب في محاصرة الباطل ، فتضيق دائرته حتى يتقوقع داخل المدينة وفي وسطها ، فلا يقبل الزيادة ، والأيام كفيلة بإ ائه من داخلها أيضا .

---

(١) التحرير والتنوير ٣٦٥/٢٢ .

اللطيفة الخامسة :

دعوة صاحب يس لقومه - مع وجود الأنبياء وهم أبلغ منه لسانا وأفصح خطابا وأقدر على التبليغ - يحل ذلك أزمة في الدعوة المعاصرة ، فمن تعذر بالتخاذل عن الدعوة بوجود العلماء ، وقوة المراكز الإسلامية ، وانتشار المؤسسات الخيرية في بلده . فإن موقف مؤمن آل يس كان كاشفا لتلك الأزمة ، وحلا لتلك النازلة .

وهذا يقتضي ألا يحتقر المؤمن نفسه ، ولا يستقل عمله ، وإنما عليه العمل ، والله يبارك فيه ، وقد يكون سببا لتحول كبير ، وقصة الغلام مع الساحر والراهب تدل على ذلك ، فإن " باسم الله رب الغلام "[1] حولت القرية كلها إلى مسلمين .

اللطيفة السادسة :

قدوم صاحب يس من أقصى المدينة يسعى ، أي : يعدو ، وهي صفة أسرع من المشي وأقل من الهرولة[2] ، تدلنا على حقيقة الهم الموجود في قلب مؤمن آل يس ، فلم يكن همته مجرد خاطرة أو أمنية أن ينصر الله دينه ، وإنما همة صادقة عملـ ا ، فسعى ولم يمش ، ولم يبحث عن مركب أو يعتذر به ، فالأمنيات الدعوية الساكنة في قلوبنا لا تظهر ثمر ا إلا حينما تكون مشروعا على أرض الواقع .

اللطيفة السابعة :

بعد المسافات بين الداعية ومكان دعوته يجب ألا يكون مانعا له من الدعوة ، لأن الدعوة يتعين معها البذل والتضحية والتحمل ، فهذا مؤمن آل يس أتى للدعوة من أقصى المدينة ، ولفظ المدينة يشعر بالاتساع ، وإن كان هذا مطلوبا من مؤمن آل يس مع قلة ما لديه من وسائل مواصلات ؛ فإنه يتأكد في زماننا الذي تعددت الوسائل به وأصبحت من ضرورات الحياة .

ومن نظر في عموم أدلة الشريعة وجد على سبيل المثال أن خطوات الإنسان إلى

---

(١) أخرجها مسلم في صحيحه ، كتاب الزهد والرقائق ، باب قصة أصحاب الأخدود ، برقم (٣٠٠٥)٤/٢٣٠٠ .

(٢) المصباح المنير ٣٩٧/٢ .

المسجد إحداهما ترفعه درجة ، والأخرى تحط عنه خطيئة [1]، وقوله ﷺ لبني سلمة ﷺ :" دياركم تكتب آثاركم "[2] استدل بذلك على أن من مشى في الدعوة إلى الله فهو خارج في سبيله ، وأن آثاره مكتوبة له .

اللطيفة الثامنة :

من الأهداف الدعوية للقصة إناطة الدعوة بعموم أفراد المسلمين ، وأ ا لا ترتبط بالجاه ، والمنصب ارتباط الشرط بمشروطه ، بالإضافة إلى أ ا تقَدر بقدر الاستطاعة ، ويؤكد ذلك قوله ﷺ " بلغوا عني ولو آية "[3] وهذا التقليل ليشمل عموم المسلمين ، فإن أقل ما يجب حفظه شرعا سورة الفاتحة ، وهذا السر في تنكير كلمة رجل:﴿رجلٌ يسعى﴾ .

كما أن في القصة دليلا على أن الدعوة تتعين في بعض الحالات دون بعض ، فلما لم يتكلم أحد من أهل المدينة ، ولم ينصروا الرسل ، تعين على أمثال هذا القصار أو الإسكافي أن يقوم بواجب الدعوة ، فرحمه الله رحمة واسعة .

اللطيفة التاسعة :

الدعوة إلى الله يحيط ا كثير من العوائق ، ويكمل الشيطان الرجيم دوره في تفخيم تلك العوائق وزياد ا وصعوبة حلها وتخذيل أهلها ، إلا أن الداعية عليه أن يتخلص منها ، ويستعين بربه في تسهيل مهمته ، ويستحضر نصر الله له ، ويبدأ بدعوته ، وسيأتيه المدد الرباني ، فمؤمن آل يس أحاطت به مجموعة من العوائق ، فبعد المسافة عائق ، حيث إنه في أقصى المدينة ، وعدم المركوب عائق آخر ، ومكانته غير المرموقة عائق ، وعتو القوم واستكبارهم أيضا عائق ، ومما يدل على استكبارهم وعنادهم أن الله أرسل إليهم رسولين فكذبوهما ، فأرسل الله الثالث ومع ذلك كذبوا ، ولا يكون ذلك إلا مع عناد بالغ .

فاستعان الرجل بربه وتخلص من تلك العوائق ، وبادر بالعمل فتغلب على البعد

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات ، برقم (٦٦٦) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات ، برقم (٦٦٥)٤٦٢/١ .

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ، برقم (٣٢٧٤)١٢٧٥/٣ .

بالمضي ، وعلى عدم المركوب بالسعي السريع ، وعلى بقية الأمور بتسديد الله له ، وإخلاصه نيته له .

وهذا يعطينا صورة واضحة على أن كثيراً من العوائق التي يعتقد أ ا صعبة الحل - أن كثيرا منها - تولى الشيطان كبره ، وأجلب بخيله ورجله فيها .

اللطيفة العاشرة :

مؤمن آل يس انطلق في دعوته وحيداً فلم ينتظر وجود معاون ، ولم يجعل دوره إكمالا لعمل غيره ومكثراً لسوادهم ، ولم يطلب من الناس الذهاب معه ، ولعل السبب - والله أعلم - أنه يعلم أن الجميع في المدينة رأوا ما رأى وشاهدوه ، ومن لم يحضره فقد وصل إليه خبره ، فكأن لسان حاله يقول : من يرد نصرة الرسل فلا يحتاج الأمر إلى تأكيد الخبر ، كما أنه لا يحتمل التأني ، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة حيث انطلق بدعوته وحيداً ليس معه على أمره أحد ، ثم سار صاحبه أبو بكر ﷺ على منهجه في حرب المرتدين[1] ، وخالفه جميع الصحابة حتى شرح الله قلو م لذلك .

وعلى هذا فالمشاريع الدعوية يطلب من أهلها أن يعملوا على إطلاقها ونشرها قبل أن يحرصوا على تجميع الأصحاب لها .

اللطيفة الحادية عشرة :

لغة الرحمة والشفقة والتلطف ظاهرة على أسلوب صاحب يس ، وهي الأسلوب المقدم في حال الدعوة إلى الله ، وتتأكد حينما يستوجبها المقام ، فالقوم كافرون بالله ، وزادوا مكرا بأنبياء الله الثلاثة ، ومع هذا يأتي مؤمن آل يس يخاطبهم فيقول: ﴿يا قَومِ ﴾ مذكرا إياهم برابطة النسب ، وهي لفظة تشعر بالقرب منهم ، وأني منكم ، وأحب لكم

---

(١) حيث خالفه عمر ﷺ في بداية الأمر ، وقال : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإن فعلوا ذلك فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسا م على الله ،فقال : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدو ا إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها ، قال عمر ﷺ : فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر ﷺ فعرفت أنه الحق " متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب الزكاة ، باب وجوب الزكاة ، برقم (١٣٣٥) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، برقم (٢٠) .

الخير ، فإن الإنسان لا يتمنى الضر لقومه وأهله ، لذلك قال : ﴿يا لَيت قَومِي ﴾ فأضافهم إلى نفسه إضافة ظاهرة .

ومما يدخل في مفهوم التلطف :

١ ـ لين القول .

٢ ـ مخاطبة الداعي للمدعوين بما يذكرهم برابطته معهم .

٣ ـ مقابلة القول القبيح بالقول الحسن .

٤ ـ التواضع في التبليغ [1] .

كما أنه يظهر لي فائدة أخرى تحت قوله: ﴿يا قَومِ ﴾ لا يحسن فصلها عن هذه اللطيفة ، وهي أن الآيات تربي في الإنسان المؤمن مسئوليته عن مجتمعه ، فهو واحد منهم ، وهم قطعة منه ، فقد نسب الله القوم إليه مع أنه يخالفهم عقيدة ويخالفونه مكانة ، فمهما كان ا تمع الذي تعيشه فاسدا إلا أن عليك من المسؤولية ما يحتم عليك السعي في الإصلاح .

اللطيفة الثانية عشرة :

الداعية عليه أن يكون واضحا في أسلوبه ، مختصِرا في كلامه ، خاصة في محفل عام قد لا يتهيأ للإنسان فيه الإطالة ، دقيقا في ألفاظه وجمله ، فقد قال صاحب يس لقومه: ﴿ يا قَومِ اتِبعوا المُرسلِين﴾ فاختصر لهم المطلوب وأوضحه بدون عموميات قد يضيع معها هدف الرسالة .

وأتى بلفظ ﴿المُرسلِين﴾ولم يسمهم بأسمائهم مع أ م معروفون في المدينة ؛ ليشعر بأن وظيفتهم أداء ما أرسلوا به من ر م ، فليس عليهم لوم ولا يلحقهم ذم .

اللطيفة الثالثة عشر :

صفات الرسل التي تستحق الإشادة ا كثيرة ، وما منها إلا كذلك ، لكننا نجد مؤمن آل يس اقتصر على صفة واحدة ، وهو يبين لقومه صدق الرسل ، فدل على أ ا ذات اعتبار عند الناس ، وهي الت ه عن الأغراض الدنيوية وأخذ الأجور ، وجمع الأموال

---

(١) المستفاد من قصص القرآن ٥٤٩/١ باختصار ، حيث اكتفيت بعناوين الفقرات فقط .

مقابل دعو م ، فقال :﴿اتبِعوا من لا يسألُكُم أجراً وهم مهتدونَ﴾[1].

ولو كان أهل القرية يعلمون مهمزا[2] لهم من هذه الناحية لذكروه ، وهذا يؤكد على الدعاة الابتعاد عن أخذ الأجور المالية ، والتعرض لأموال الناس ، وتشجيع ثقافة الاحتساب تحت شعار :﴿قُلْ لا أسألُكُم عليهِ أجراً ﴾[3] .

اللطيفة الرابعة عشر :

من ميادين تميز الداعية تميزه بألفاظه ، ومن ذلك التزامه بالألفاظ الشرعية -قدر المستطاع - التي وردت في الكتاب والسنة ، لسلامتها وبعدها عن الاعتراض ، ولشمولها ، مما يولد لديه الانتماء لمدرسة الأنبياء ، فهذا مؤمن آل يس ، وافق الألفاظ الشرعية في عدة مواطن ، وهي :

قال :﴿يا قَومِ اتبِعوا الْمرسلِين﴾[4] .

وكان الأنبياء يقولون ذلك لقومهم ، فقد قال هارون :﴿ وإِن ربكُم الرحمن فَاتبِعونِي وأَطِيعوا أَمرِي﴾[5] .

وقال مؤمن آل يس أيضا :﴿اتبِعوا من لا يسألُكُم أجراً وهم مهتدونَ﴾[6] .

والأنبياء قالوا ذلك لأقوامهم :﴿وما أَسأَلُكُم علَيهِ مِن أَجرٍ إِنْ أَجرِي إِلا علَى رب الْعالَمِين﴾[7] .

وقال مؤمن آل يس أيضا :﴿إِنْ يرِدنِ الرحمن بِضر لا تغنِ عني شفَاعتهم شيئاً ولا ينقِذُونِ﴾[8].

وقال الله عن نبيه :﴿قُلْ أَفَرأَيتم ما تدعونَ مِن دونِ اللهِ إِنْ أَرادنِي الله بِضر هلْ هن

---

(1) يس : ٢١ .

(2) الهمز : الغيبة والوقيعة في عيوب الناس . انظر : لسان العرب، مادة (همز) ،٤٢٦/٥ .

(3) الأنعام : ٩٠ .

(4) يس : ٢٠ .

(5) طه : ٩٠ .

(6) يس : ٢١ .

(7) الشعراء : ١٠٩ -١٢٧-١٤٥-١٦٤ .

(8) يس : ٢٣ .

كَاشِفَات ضره أو أرادني برحمةٍ هلْ هن ممسِكات رحمتِهِ﴾[1] .

والتشبه م في كلما م له أثر على التشبه م في أفعالهم ، وهذا على سبيل الكمال لا الوجوب ، وإلا فإن كل أسلوب أدى المقصود من الدعوة حصل به البلاغ .

اللطيفة الخامسة عشر :

الداعية حسن السيرة والسلوك حتى مع الأعداء ، ولا يبعد أن يقال عليه أن يتكلف من الأخلاق ما يعينه على أداء دعوته في مجتمع لا يؤمن بالله ، فمؤمن آل يس شهد للرسل بالاهتداء فقال :﴿وهم مهتدونَ﴾ وذكرها على سبيل الاحتجاج ا على صدقهم ، ولم يكن ليقول ذلك إلا لما كانت سير م تشهد لهم ، مع أن المخاطبين بذلك أعداء للرسل ، وهم أحرص الناس على الاعتراض والقدح فيهم .

وسيرة النبي ﷺ مع أعدائه تشهد بذلك ، فأتاه اليهود عليهم لعنة الله ، وقالوا : السام عليك[2] ، فقال : وعليكم " ولم يزد على هذا ، فلما لعنتهم عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها ، وقال :" إن الله يحب الرفق في الأمر كله "[3] .

وهذا الخلق كما أنه عبادة فإن بغضهم والبراءة منهم وقتالهم عبادة أيضا ، ولا تعارض بين العبادتين .

فاستدلال صاحب يس باهتداء الرسل ، في أفعالهم ، وأقوالهم ، ومعاملا م ، يدل على أن سلوك الداعية له أثر بين في قبول دعوته ، والقناعة ا .

اللطيفة السادسة عشر :

الدعوة لا بد لها من شجاعة مؤمن حذِرٍ في أفعاله ، متوكل على ربه ، مقدام في رأيه ، يتحمل نتائج مواقفه بعد دراستها والإعداد لها ، وهذا ما توفر عند مؤمن آل يس ، فقد صدع بكلمة الحق أمام طغاة جبارين ، تسلطوا على رسل الله فضلا عن رجل من

---

(١) الزمر : ٣٨ .

(٢) أي الموت . انظر : النهاية في غريب الحديث ، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير ، تحقيق طاهر الزاوي ، ومحمود الصناحي :٤٢٦/٢،{ المكتبة العلمية ،بيروت: ١٣٩٩هـ } .

(٣) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب الجهاد والسير ، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة ، برقم (٢٧٧٧) ، ومسلم ، كتاب السلام ، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام ، وكيف يرد عليهم ، برقم (٢١٦٥) .

أهل القرية ، كما يؤيد ذلك تفسير قوله " فاسمعون " عند من فسرها بأنه خاطب ا قومه ؛"إظهارا للتصلب في الدين ، وعدم المبالاة بالقتل "[١] ، ولم يصدع ا في تجمع قليل ، وإنما كان تجمعا لأهل المدينة كما تفيده الآيات،وغالبا مثل هذه التجمعات يقل التغيب عنها .

كما أننا نستفيد من جهر مؤمن آل يس أمام قومه أن الداعية عليه أن يتوقع ما يحدث له في دعوته فيعد العدة له ، ويتهيأ حسيا ومعنويا ، ولا أظن صاحب يس إلا أنه كان متوقعا حدوث القتل ، فماذا ينتظر من قوم يريدون البطش برسل الله ؟ فلم يمنعه ذلك .

إلا أنه مما ينبغي الحذر منه التهور في أمر الدعوة ، والمبالغة في المغامرة من غير روية[٢]

اللطيفة السابعة عشر :

عناية الداعية بألفاظه تتنوع في عدة مجالات لأهمية هذا الباب ، وأظهرت الآيات بابا آخر من العناية اللفظية ، وهي أن يختار من الحجة أقواها ، ومن الأدلة أصرحها ، فيعرف من أين يبدأ ؟ وما الردود المتوقعة من خلال معرفته لحجته ؟ وهذا يعطينا الدلالة الدعوية على نوعية الأدلة ، فمؤمن آل يس أتى بحجة عقلية دامغة يخاطب النفس من داخلها ، فقال :﴿أأتخِذُ مِن دونِهِ آلِهةً إنْ يردنِ الرحمن بِضر لا تغنِ عني شفَاعتهم شيئاً ولا ينقِذُونِ﴾[٣] .

فهي حجة تخاطب العقول السليمة والفطرة المستقيمة ، وما ذكره أمر مدرك لكل ذي فطرة ، والردود المتوقعة يرفضها الضمير الحي ، خاصة في تجمع حافل لأهل المدينة .

اللطيفة الثامنة عشر :

القوة التي حظيت ا كلمة الرجل المؤمن تعود لتنوع أساليبه الدعوية ، ومن ذلك : أسلوب الترغيب ، فقال :﴿قَالَ يا قَومِ اتبِعوا الْمرسلِين ۞اتبِعوا من لا يسألُكُم

---

(١) تفسير أبي السعود ١٦٤/٧ .

(٢) الروية : التفكر في الأمر . انظر : المصباح المنير ، مادة (روي) ،ص١١١.

(٣) يس : ٢٣ .

أجراً وهم مهتدونَ﴾[1] .

أسلوب الترهيب ، فقال :﴿وإِلَيهِ ترجعونَ﴾ .

أسلوب الاستفهام الإنكاري ، فقال :﴿ أَأَتخِذُ مِن دونِهِ آلِهةً﴾ .

أسلوب التمني :﴿قَالَ يا لَيت قَومِي يعلَمونَ﴾ على القول بأنه قالها في الدنيا قبل موته .

وهذا يعطينا مؤشرا على نجاح الداعية حينما ينوع خطابه ، ويتفنن في أساليبه ، وأنواع البلاغة ، إضافة إلى أن ذلك أدعى للاستجابة ، وأكثر جذبا للسامع .

ومن تتبع الأحاديث النبوية - على قائلها أفضل الصلاة والسلام - عثر على جملة من الأساليب[2] التي توصل المعلومة بطريق أيسر وأكثر ثباتاً لدى السامع .

اللطيفة التاسعة عشر :

الداعية حينما يعرض قضيته ينبغي أن يكون صريحاً وواضحاً ، مبيناً موقفه منها بجلاء ، فلا يترك السامع يحتار في عموميات كلامه ، ولهذا لما عرض صاحب يس لقضية الإيمان عرضها بجلاء أمام الملأ ، وأعلن موقفه الصريح منها ، فقال :﴿وما لِي لا أعبد الذِي فَطَرنِي وإِلَيهِ ترجعونَ﴾ بعد أن قال :﴿اتبِعوا الْمرسلِين﴾ .

، فكأنه أجاب على سؤال أصدره أحد الحاضرين قائلا له : وهل معنى كلامك أنك أنت متبع له !! فالموقف هنا لا يحتمل التردد ، أو المداهنة ، أو غير ذلك من أساليب المراوغة ، وإنما صرح بموقفه تصريحاً ، وزاد على صراحته أن قلب عليهم السؤال ، فقال :﴿ وما لِي لا أعبد الذِي فَطَرنِي وإِلَيهِ ترجعونَ﴾ ؟ وأين الخطأ في ذلك ؟ .

وموقف النبي ﷺ حينما عرض عليه قومه أن يعبد آلهتهم سنة،ويعبدوا إلهه سنة؛ كان صريحا،حينما أمره الله أن يقول :﴿قُلْ يا أيها الْكَافِرونَ۞ لا أعبد ما تعبدونَ﴾[3]"[4]

(١) يس : ٢٠ -٢١ .

(٢) انظر : دعوة النبي ﷺ للأعراب الموضوع – الوسيلة – الأسلوب ، حمود بن جابر الحارثي ،{ط١، دار المسلم ،الرياض: ١٤١٩هـ } فقد تكلم في النصف الثاني من الكتاب عن الوسائل ، والأساليب .

(٣) الكافرون ١-٢ .

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري بسنده عن عكرمة عن ابن عباس ، ٣٣١/٣٠ ، وفيه عبد الله بن عيسى أبو خلف ، ضعفه

اللطيفة العشرون :

توحيد الله ، وصرف العبادة إليه ، وربط القلوب به سبحانه ، وإزالة ما يعلق به من الشوائب ، أعلى مهمة للدعاة ، فهذا مؤمن آل يس جميع جمله تحتوي على التوحيد ، وتدل عليه ، وتبرهن له ، وتناظر فيه ، ولنتأمل الجمل:

﴿اتبِعوا الْمرسلِين﴾ وقوله :﴿اتبِعوا من لا يسأَلُكُم أَجراً وهم مهتدونَ﴾ هذا ركن التوحيد الأعظم .

وقوله:﴿ وما لِي لا أَعبد الذِي فَطَرنِي وإِلَيهِ ترجعونَ﴾ هذا دليل التوحيد الأوضح .

وقوله :﴿ أَأَتخِذُ مِن دونِهِ آلِهةً إِنْ يرِدنِ الرحمن بِضر لا تغنِ عني شفَاعتهم شيئاً ولا ينقِذُونِ ﴾ هذا مناظرة التوحيد لجميع ملل الكفر ، وإبطال لها .

والمراد بالتوحيد الذي تتجه الجهود له هو توحيد الله بمفهومه العام الذي يتعدى حفظ أنواع التوحيد وشروطه وأدلته ليشمل العمل به ، والسعي لتعبيد الناس لر م والإصلاح في الأرض ، ومحاربة الشرك وأهله وأنواع الفساد ، وجعل كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .

وأعتبر هذا التوضيح مهماً حتى تتنوع البرامج الدعوية ،ويستفاد من جميع الأدوار،ويكون التكامل ،فلا يضيق التوحيد ويحصر في بعض أنواعه ،و ذا يتسع نظر الدعاة للأعمال الدعوية ،ويلتحم الصف ،ويندحر الشيطان خاسئا وهو حسير .

اللطيفة الحادية والعشرون :

على اختلاف بين المفسرين في العهد الذي حدثت فيه القصة ، إلا أ ا قديمة ولا بد والشيء اللافت للنظر أن شركهم في باب الشفاعة ، وهذا يدل على أن أصل الشرك في بني آدم هو في هذا الباب منذ القدم(١) ، وفي الوقت المعاصر ما من فرقة دخلها الشرك إلا وكان ذلك عن طريق الشفاعة ، وأوضح مثال على ذلك غلاة الصوفية(٢) .

الذهبي ، والحافظ ابن حجر رحمهما الله . انظر : الكاشف للذهبي ، ٥٨٣/١ ، والتقريب لابن حجر ، ص٣١٧ .

(١) انظر : الفتاوى ٤٦٠/١٧ .

(٢) حركة دينية انتشرت في العالم الإسلامي في القرن الثالث الهجري ، مرت بمراحل كثيرة ، انحرفت في مسارها الأخير انحرافا كثيرا ، والتصوف بدأ بالزهد الكلي ، ثم ترخص المنتسبون إليها بالسماع والطرب ، تأثرت

فعلى الدعاة أن يولوا باب الشفاعة الاهتمام البالغ تقريرا وإيضاحا وتمييزا بين أنواعها الجائزة والممنوعة،وضرب الأمثلة وذكر الأدلة مستعينين بما ورد في هذه القصة ومثيلا ا .

اللطيفة الثانية والعشرون :

أسلوب التعريض يشكل عنصر قبول للداعية ، فقد يصعب سماع الحق صريحا أحيانا ، مما يضطر الداعية الفقيه إلى سلوك درب دعوي آخر ، يعرض فيه الداعية ليوصل رسالته الدعوية كاملة موفورة ، وقد عرض صاحب يس بقومه ولم يصرح م ، فقال مثلا :

:﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني ﴾ وقال:﴿ أأتخذ من دونه آلهة ﴾ ، وقال:﴿إني إذاً لفي ضلال مبين﴾ .

مع أن مقصوده ذه الألفاظ قومه ، فهم الذين لم يعبدوا الذي فطرهم ، وهم الذين اتخذوا من دون الله آلهة ، كما أ م هم الذين في ضلال مبين .

وهذا الالتفات من مؤمن آل يس مراعاة لأحوال المخاطبين ، وت لا معهم ، وتقريبهم للإيمان ، فيحاول تلطيف العبارة ، ونسبة الألفاظ الجارحة إلى نفسه دو م ، فلم يقل : إنكم لفي ضلال مبين ، وهذا صادر من الحرص على هدايتهم ، فلا يسعى لبراءة ذمته فحسب ، وإنما كان هدفه الأسمى دلالتهم للإيمان ، فالتعريض بالذم أحيانا دون التصريح سلوك دعوي نبيل .

اللطيفة الثالثة والعشرون :

من فقه الداعية والذي يجنبه كثيرا من التداخلات واضطراب المواقف أن يفرق الداعية بين المواقف ، فالموقف الذي يحتاج إلى بسط وتفصيل يختلف في الخطاب عن الموقف الذي لا يحتمل إلا الاختصار ، وهذا ما عايشه مؤمن آل يس ، فاجتماع أهل المدينة للمكر بالأنبياء ، مع عدم م لته بينهم تلك الم لة التي كثيرا ما تعطي لأهلها حرية القول وبسط الكلام فيه ، جعله يفهم أن السماح بالكلمات سيكون لفترة وجيزة جدا ،

بال عة الفلسفية الإشراقية ، وهي التي ترى أن المعرفة تقذف في النفس بالرياضة الروحية ، والتهذيب النفسي ، تأثرت بالقول بالحلول ، وهو حلول اللاهوت بالناسوت . انظر : حقيقة الصوفية بالكتاب والسنة ص١٤ ، وفضائح الصوفية ،الشيخ عبد الرحمن بن عبد الخالق ،{ط٢، دار السلام ،الرياض: ١٤١٢هـ } .

مع معارضة عارمة وغضب متزايد من عِليةِ القوم قد ينتهي بالقتل فورا ، فقدر الموقف قدره .

والذي يمارس الدعوة في الميدان تمر به مواقف جزئية ، وفرص قابلة للفوات ، فمن الفقه الدعوي أن يستعد لها ، ويقَدِر لغة الخطاب فيها ، ويختار الموضوع المراد .

اللطيفة الرابعة والعشرون :

باب آخر من أبواب الفقه الدعوي يتمثل في التدرج في العبارة ، ففي البداية أمر باتباع المرسلين ، فقال:﴿اتبِعوا الْمرسلِين ﴾ ، ثم بين عقيدته بأسلوب هادئ :﴿ وما ِلي لا أعبد الذِي فَطَرنِي﴾ ، ثم تدرج إلى إبطال شفاعة آلهتهم ، فقال :﴿إِنْ يردنِ الرحمن ِبضر لا تغنِ عني شفَاعتهم شيئاً ولا ينقِذُونِ﴾ ، ثم ألمح بضلالهم ، وأخيرا صدع بإيمانه ، فقال :﴿إني آمنت ِبربكُم فَاسمعونِ﴾ .

فأسلوب التدرج في الخطاب من المقدمة إلى النتيجة الصريحة ، ومن الترغيب إلى الترهيب ، ومن التلميح إلى الصدع ، يعطي الداعية قوة في العبارة ، وقوة في الحجة ، ويجعل خصم الدعوة في حرب باطنية ، يقارن بين المقدمات ونتائجها ، ويجمع بين الوعد والوعيد .

اللطيفة الخامسة والعشرون :

نصرة المظلوم عمل يشارك فيه الدعاة ، وهم يحملون رايته ، فقد تجمع أهل المدينة على الرسل ، وهموا بقتلهم[(١)] ، فانتدب[(٢)] صاحب يس نفسه لنصرة المظلومين ، وكان ذلك على قدر استطاعته ، فلم يكن بمقدوره منعهم بالقوة ، أو حمل السلاح ، والذب عنهم ، وإنما كان غايته تذكير قومه ، والمنافحة الشفوية عن الرسل ، فكان هذا هو الواجب في حقه ، ولو زادت قدرته لزادت مسؤوليته .

وقد أمر النبي ﷺ بنصرة المظلوم فقال ﷺ : " انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً "[(٣)] ،

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري من بلاغات ابن إسحاق عن ابن عباس ﷺ ، وكعب الأحبار . انظر : تفسير الطبري ١٥٨/٢٢ .

(٢) ندب : دعاه فأجاب . انظر : مختار الصحاح ، مادة (ن د ب) ،ص٢٧١ .

(٣) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب المظالم ، باب اعن أخاك ظالما أو مظلوما ، برقم (٢٣١١)٨٦٣/٢ ، ومسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، برقم (٢٥٨٤)١٩٩٨/٤ .

وعموم نصوص الشريعة تؤيد نصرة المظلوم ولو كان من غير المسلمين ، أو كانت الاتفاقية المبرمة(1) مع دول غير إسلامية ، ويشهد لهذا حلف الفضول(2) ، فقد قال ﷺ : " شهدت حلف المطيبين مع عمومتي وأنا غلام ، فما أحب أن لي حمر النعم وأني أنكثه "(3) مع أنه عقد في الجاهلية .

اللطيفة السادسة والعشرون :

الداعية ناصح لقومه وإن حصل له بعض الأذى على أيديهم ؛ يتمنى هدايتهم ، ويستمر إخلاصه في النصح لهم حتى في حال غرغرة روحه ، يطهر قلبه من الغل ، والحقد والحسد ، وليس هذا وصفا لحالة فريدة وبين أيدينا قصة مؤمن آل يس ، فقد نصح لقومه فقال :﴿يا لَيت قَومِي يعلَمونَ﴾ وهي على قول بعض المفسرين " قيل له عند موته بأن عرض عليه مقعده منها "(4)،" وفي هذه الآية تنبيه عظيم ، ودلالة على وجوب كظم الغيظ ، والحلم عن أهل الجهل ، والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار ، وأهل البغي ، والتشمر في تخليصه ، والتلطف في افتدائه ، والاشتغال بذلك عن الشماتة به ، والدعاء عليه، ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته والباغين له الغوائل وهم كفرة عبدة أصنام"(5).

و ـذا نعلم أن من طريقة الأنبياء وأتباعهم الصبر على الأذى الحاصل من أقوامهم،ونسيانه وعدم معاملتهم بالمثل،وأعلى من ذلك وأتم العفو عنهم ،وهو سلوك النبي ﷺ في كثير من مواقفه مع قومه ، وعفوه عن الطلقاء الذين ا ـزموا به، وقوله لهم : " إن

---

(1) أبرم الأمر : أحكمه . لسان العرب، مادة (برم) ، ٤٣/١٢ .

(2) الحلف في الأصل : اليمين ، وهو أشرف حلف في الجاهلية ، تحالفت فيه قريش على نصرة المظلوم ، بدأه الزبير بن عبد المطلب ، وكان ذلك في دار ابن جدعان . انظر السيرة الحلبية ، علي الحلبي :٢١١/١،{دار المعرفة ،بيروت: ١٤٠٠هـ } .

(3) أخرجه ابن حبان في صحيحه ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ،{ط٢،مؤسسة الرسالة ،بيروت:١٤١٤هـ }برقم (٤٣٧٣) ٢١٦/١٠، والحاكم برقم (٢٨٧٠) (٢٣٩/٢)، وقال: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه ، وأخرجه المقدسي في الأحاديث المختارة ، برقم (٩١٥)١١٥/٣ وقال : إسناده صحيح .

(4) المحرر الوجيز ٤٥١/٤ .

(5) تفسير القرطبي ٢٠/١٥ .

الله قد كفى وأحسن "[1] مثالٌ من نصح الأنبياء،وعفو الإمام أحمد عمن ظلمه[2]مثالٌ من نصح أتباع الأنبياء .

اللطيفة السابعة والعشرون :

الآيات دلت على عظم م لة المؤمن عند الله ، ومكانته ، ومحبة الله للمؤمنين ، وانتقامه لهم ، فقد أهلك الله قوم هذا الرجل بصيحة واحدة انتصارا له لما قتله قومه ، وهذا يجعل الداعية يمارس دعوته بثقةٍ يقينية بنصر الله ، وإنجازه وعده ، وتأييده .

ولما حاصر فرعون وجنوده موسى وقومه ، وكان البحر أمامهم ، ولا مفر لهم في المقاييس البشرية ، وقال قوم موسى :﴿إنا لَمدركُونَ﴾[3] .

قال موسى بثقة الداعية المؤمن الموقن بنصر الله وتأييده:﴿كَلا ـإن مِعِي ربي سيهدِينِ﴾[4] .

وشعور الثقة يجعل الداعية إضافة لما سبق يفكر بإيصال الدعوة إلى أهلها ، وتسهل أمامه العقبات ، وتتوارد عليه الحلول للمعضلات ، و ون عليه الآثار الرجعية لدعوته كالأذى وغيره .

اللطيفة الثامنة والعشرون :

دلت عقوبة الله لهذه المدينة وأهلها على أن الله سبحانه ذو البطش الشديد إذا أهانت الأمة أوامره وعصوه ، وصدوا الناس عن دينه ، وانتهكت محارمه ، وأوذي عباده ، وعم الشرك ، واختفى التوحيد ؛ وهو سبحانه لا يبالي بأي واد هلكت تلك الأمة ، ويستبدلها بأمة أخرى تقيم شرعه ، وتستقيم على أمره .

والقرآن مليء بالقصص الشاهدة على ذلك ، مع قوله تعالى:﴿يا أيها الذِين آمنوا من يرتد ـمِنكُم عن دِينِهِ فَسوف يأْتي الله ـبِقَومٍ يحِبهم ويحِبونه أَذِلةٍ علَى الْمؤمِنين أَعِزةٍ علَى الْكَافِرين يجاهِدونَ ـفي سبِيل اللهِ ولا يخافُونَ لَومةَ لائِمٍ ﴾[5] .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة النساء مع الرجال ، برقم (١٨٠٩) ١٤٤٢/٣.

(٢) الفتاوى ٣٦٢/٣٠ .

(٣) الشعراء : ٦١ .

(٤) الشعراء : ٦٢ .

(٥) المائدة : ٥٤ .

وقوله تعالى:﴿وإنْ تتولوا يستبدِلْ قَوماً غَيركُم ثُم لا يكُونوا أَمثَالَكُم ﴾[1].

فقصة مؤمن آل يس " ينبغي أن يعتبر ا الناس جميعا ، ويوقنوا أن في اتباع المصلحين الفلاح والنجاة ، وأن في مخالفتهم الهلاك والبوار والعطب ، فاللهم يارحمان ارزقنا الاهتداء دي المرسلين ، وأعذنا من صفات الكافرين "[2] .

وهذه السنة الكونية تجري حتى على مستوى الدعاة إلى الله ، فمن تخلى عن واجبه ، ولم يبلّغ شرع الله ، وترك شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فلم ينفعه علمه ، وعاد حسرة عليه ؛ استبدله الله بآخر يقوم بذلك ، فيؤتيه من فضله ما يشاء .

اللطيفة التاسعة والعشرون :

من أسماء الله الشكور ، والذي يدل مقتضاه على أن الله بجلاله يشكر العبد على أعماله ، " فإن العبد من عباده يقوم له مقاما يرضيه بين الناس ، فيشكره له ، وينوه بذكره ، ويخبر به ملائكته ، وعباده المؤمنين ، كما شكر لمؤمن آل فرعون ذلك المقام ، وأثنى به عليه ، ونوه بذكره بين عباده ، وكذلك شكره لصاحب يس مقامه ، ودعوته إليه ، فلا يهلك عليه بين شكره ومغفرته إلا هالك ، فإنه سبحانه غفور شكور ، يغفر الكثير من الزلل ، ويشكر القليل من العمل "[3] .

---

(١) محمد :٣٨ .

(٢) مجلة البيان ، العدد (١٢٤) ص (٦٢) ذو الحجة ١٤١٨ .

(٣) عدة الصابرين ص٢٤١ .

المبحث الثامن

الرجل الذي خاطب قرينه في سورة الصافات

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : تفسير الآيات الواردة في شأن الرجل الذي خاطب قرينه في سورة الصافات .

المطلب الثاني : اللطائف الدعوية المستنبطة من الآيات .

المطلب الأول

تفسير الآيات الواردة في شأن الرجل الذي خاطب قرينه

قال تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾(١) .

الآية في شأن أهل الجنة(٢) ، وهذا جزء من نعيم أهل الجنة بعد دخولها - نسأل الله الكريم من فضله - يجتمعون فيتحدثون ، ويتساءلون بينهم " وهو تساؤل راحة وتنعم ، يتذكرون أمورهم في الجنة ، وأمر الدنيا ، وحال الطاعة والإيمان فيها "(٣) " والفاء للتفريع ، وهذا يدل على أن الناس في الآخرة تعود إليهم ذاكر م التي كانت في الدنيا ، مصفاة من الخواطر السيئة ، والأكدار النفسانية ، مدركة الحقائق على ما هي عليه .

وجيء في حكاية هذه الحال بصيغ الفعل الماضي ﴿فَأَقْبَلَ﴾ مع أ ا مستقبلة ؛ لإفادة تحقيق وقوع ذلك ، حتى كأنه قد وقع ، والتساؤل : أن يسأل بعضهم بعضا ، وحذف المتساءل عنه لدلالة ما بعده عليه "(٤) .

وقال تعالى : ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾(٥) .

اختلف أهل التفسير في تحديد القرين ، على أقوال :

" فقيل بأن القرين هنا : الصاحب في الدنيا ، وقيل : إنه الشريك ، وقيل : إنه الشيطان ، وقيل : إنه الأخ "(٦) .

والذي يظهر لي أن تسميته في الآية بالقرين ، وتحدث أحدهم بقصته ، وأ ا حدثت في الدنيا ، يجعلنا نستبعد القول بأنه الشيطان ، وكذلك لم يعهد في القرآن تسمية الأخ بالقرين .

---

(١) الصافات : ٥٠ .

(٢) الدر المنثور ٩٠/٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٤٧٣/٤ .

(٤) التحرير والتنوير ١١٥/٢٣ . باختصار .

(٥) الصافات : ٥١ .

(٦) زاد المسير ٥٩/٧ .

فأقرب الأقوال أنه الصاحب في الدنيا أو الشريك ، والأمر متقارب بين هذين ، لأن الصاحب والجليس كثيرا ما يكون بينه وبين صاحبه شراكة مالية ، والله أعلم .

وتسميته له بالقرين يدل على قوة الصحبة بينهما[١] ، " شبهت الملازمة بالقرن بين شيئين ، بحيث لا ينفصلان "[٢] .

وقال تعالى : ﴿يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾[٣] .

هذا من قول القرين ، والمعنى " أأنت تصدق بالبعث والنشور ، والحساب والجزاء ! يعني يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد والكفر والعناد "[٤] .

ويتضمن هذا أن القرين " ينكر البعث ، ويلومني على تصديقي به"[٥] "وسلط الاستفهام على حرف التوكيد لإفادة أنه بلغه تأكيد إسلام قرينه،فجاء ينكر عليه ما تحقق عنده،أي أن إنكاره إسلامه بعد تحقق خبره،ولولا أنه تحققه لما ظن به ذلك"[٦].

وقوله :﴿الْمصدِقين﴾ يفيد أن الأمر بالإيمان باليوم الآخر بلغه بغض النظر عن طريق بلوغه إياه ، لأن المراد بالتصديق هنا تصديقه لخبر غيره[٧] .

" وقرأ جمهور الناس : من المصدقين بتخفيف الصاد ، من التصديق ، وقرأت فرقة : من المصدقين بشد الصاد ، من التصدق "[٨] " والأول أوفق "[٩]بدلالة ما بعده من الآية .

وقال تعالى : ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾[١٠] .

فقوله :﴿أَإِذَا مِتنا وكُنا تراباً وعِظَاماً﴾ هذه الجملة بيان لجملة ﴿يقُولُ أَإِنك لَمِن

---

(١) انظر : لسان العرب، مادة (قرن) ، ٣٣٧/١٣ .
(٢) التحرير والتنوير ١١٦/٢٣ .
(٣) الصافات : ٥٢ .
(٤) تفسير ابن كثير ٢٠/١٢ .
(٥) تفسير السعدي ص٧٠٣ .
(٦) التحرير والتنوير ١١٦/١٢ .
(٧) هذا مقيد وليس على إطلاقه ، إذ التصديق يطلق على غير تصديق القلب ، فيكون بالقلب ، واللسان ، والجوارح ، كما هو منهج أهل السنة والجماعة . انظر الفتاوى ١٢٢/٧ .
(٨) المحرر الوجيز ٤٧٣/٤ .
(٩) تفسير أبي السعود ١٩٢/٧ .
(١٠) الصافات : ٥٣ .

﴿الْمصدِقِين﴾ بينت الإنكار ا مل بإنكار مفصل "[١] ، وهي استفهام إنكار[٢] ، كما أن الصيغة تفيد استبعاده البعث والنشور .

" وذكر العظام مع التراب مع أن ذكر التراب يكفي ويغني عن ذلك لتصوير حال ما يشاهده ذلك الشخص من الأجساد البالية ، من مصير اللحم وغيره ترابا عليه عظام نخرة ؛ ليذكره ويخطر بباله ما ينافي ما ادعاه "[٣] ، " وتقديم التراب ؛لعراقته في الاستبعاد ؛ وانقلابه من الأجزاء البادية "[٤] .

وقوله :﴿أَإِنا لَمدِينونَ﴾ أي " أإنا لمحاسبون ، ومجزيون بعد مصيرنا عظاماً ، ولحومنا ترابا "[٥] ولا تباين بين المحاسبة ، وا ازاة ، فإن المحاسبة مقدمة للجزاء ، ومن أسماء يوم القيامة :﴿ يومِ الدين ﴾ أي الجزاء[٦] .

ذكر القرين الجزاء ، ولم يذكر البعث ، إما اكتفاء بدلالة الجزاء والمحاسبة عليه ، فإن ذلك لا يكون إلا بعد البعث ، وإما أنه اقتصر على ذكر الدين استغراقاً في الاستبعاد .

وقال تعالى :﴿ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾[٧] .

اختلف المفسرون في قائل هذا القول ، فقيل : القائل الرجل المؤمن الذي يحدث جلساءه ، وقيل : القائل هو الله ، وقيل : الملائكة[٨] ، " وقيل : الخطاب من الرجل يطلب من الملائكة الاطلاع ، وقيل : الخطاب لخدمه في الجنة "[٩] .

وهذه كلها أقوال تحتاج إلى تكلف وتقدير ، والأولى أن تبقى الآية على ظاهرها ، فيكون القول من الرجل لجلسائه ، طلب منهم بعد ذكره القصة لهم أن يطلعوا عليه ، " والغرض من الاستفهام إراء م سوء حال القرين ، ليؤنسهم نوع إيناس ، وقيل يريد

---

(١) التحرير والتنوير ١١٦/٢٣ .
(٢) تفسير البغوي ٢٨/٤ .
(٣) روح المعاني ٩١/٢٣ .
(٤) تفسير أبي السعود ١٣٤/٦ .
(٥) تفسير الطبري ٦٠/٢٣ .
(٦) أضواء البيان ٦/١ .
(٧) الصافات : ٥٤ .
(٨) الكشاف ٤٦/٤ .
(٩) المحرر الوجيز ٤٧٤/٤ .

بذلك بيان صدقه فيما حكاه "[1] .

وفي طلبه الاطلاع من جلسائه"من آداب ا السة ألاّ يستبد بشيء دون جلسائه "[2].

" وفي الكلام متروك استغني بدلالة الكلام عليه من ذكره ، وهو فقالوا : نعم "[3] ، " والظاهر من حال أهل الجنة وسرور بعضهم ببعض ، وموافقة بعضهم بعضا ، أ م أجابوه لما قال ، وذهبوا تبعاً له للاطلاع على قرينه "[4] .

وقال تعالى :﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾[5] .

فقوله :﴿اطلَع﴾ اقتصر على ذكر اطلاعه دو م " ؛لأنه ابتدأ بالاطلاع ؛ليميز قرينه فيريه لرفقائه "[6] ، وصيغة الاطلاع تفيد التكلف في ذلك ، إما لصعوبة الاطلاع على عذاب أهل النار ، أو لسبب آخر ، وهذا الاطلاع ذكر أهل التفسير فيه أشياء منها :

أنه يدل على أن في الجنة كوى[7] ، فإذا أراد أحد من أهلها أن ينظر إلى عدوه في النار اطلع فازداد شكرا[8] .

وقيل : يخلق الله تعالى في أهل الجنة حدة نظر ، ويعرفهم من أرادوا الاطلاع عليه ، ولعلهم إذا أرادوا ذلك وقفوا على الأعراف فاطلعوا على من أرادوا من أهل النار[9] .

وهي كيفيات تحتاج إلى دليل ، والله على كل شيء قدير .

وقوله :﴿فَرآه ِفي سواءِ الْجحِيمِ﴾ أي : فرآه في وسط الجحيم ، في قول عامة المفسرين[10] ، وهذا يدل على أن اطلاعه كان من أعلى .

---

(١) روح المعاني ٩١/٢٣ .

(٢) الكشاف ٤٧/٤ .

(٣) تفسير الطبري ٦٠/٢٣ .

(٤) تفسير السعدي ص٤٠٦ .

(٥) الصافات : ٥٥ .

(٦) التحرير والتنوير ١١٧/٢٣ .

(٧) جمع كوة ، وهي : الخرق في الحائط . انظر : القاموس المحيط، مادة (كوي) ،ص ١٧١٣ .

(٨) الدر المنثور ٩٤/٧ .

(٩) روح المعاني ٩٢/٢٣ .

(١٠) انظر : تفسير الطبري ٦٠/٢٣ .

وقال تعالى : ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ﴾ [١] .

هذا خطاب من الرجل المؤمن لقرينه الكافر ، والتاء للقسم ، وتفيد " التعجب من سلامته منه ، إذ كان قرينه قارب أن يرديه "[٢] " مع ما كانا عليه من شدة الملازمة والصحبة ، وما حفه من نعمة الهداية ، وما تورط فيه قرينه في أوحال الغواية .

والردى:الهلاك ، وأصل الردى الموت،ثم شاعت استعارته لسوء الحال تشبيها بالموت لما شاع من اعتبار الموت أعظم ما يصاب به المرء،والمعنى:أنك قاربت أن تفضي بي إلى حال الردى بإلحاحك في صرفي عن الإيمان بالبعث لفرط الصحبة " [٣].

وهذا يدل على شدة إلحاح قرينه عليه بإنكار البعث ومحاولته صرفه قرينه عن الإيمان بشتى الوسائل .

وقال تعالى : ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾[٤] .

فقوله : ﴿ولَولا ِنعمةُ ربي﴾ أي " ولولا فضل الله علي ، لكنت مثلك في سواء الجحيم ، ولكنه تفضل علي ورحمني ، فهداني للإيمان وأرشدني إلى توحيده "[٥] .

وإضافة النعمة تقتضي العموم ، فيدخل في نعمة الله هدايته للإسلام ، وتثبيته على الإيمان وتوفيقه وسداده .

وظهرت اعتزالية الزمخشري رحمه الله وعفا عنه في تفسيره النعمة هنا بقوله " العصمة والتوفيق في الاستمساك بعروة الإسلام "[٦] لأن المعتزلة لا ينسبون الهداية والضلال لله ، وإنما يجعلو ا من فعل المخلوق بناء على مذهبهم في " نفي مرتبتي الإرادة والخلق من مراتب القدر"[٧] ، ولهذا لم يقل الزمخشري هدايته للإسلام ، مع أن هذا تفسير السلف[٨]

---

(١) الصافات : ٥٦ .
(٢) روح المعاني ٩٣/٢٣ .
(٣) التحرير والتنوير ١١٧/٢٣ .
(٤) الصافات : ٥٧ .
(٥) تفسير ابن كثير ٢١/١٢ .
(٦) الكشاف ٤٧/٤ .
(٧) القضاء والقدر ٢٠٤ . بتصرف .
(٨) تفسير ابن زمنين ٦١/٤ .

، وإنما جعل النعمة هنا العصمة .

وفي الآية نسبة الفضل لله سبحانه وتعالى ، وكل ما أُعطي العبد فهو نعمة من نعم ربه ، وليس بين العبد والضلال إلا ما يوفقه الله به من الثبات ، وفي الآية افتقار العبد لربه ، وأنه لم يملك لنفسه هداية وثباتا ، وهي تفيد طلب الهداية من الله ، كما تفيد ضعف العبد لنفسه ، فضعف نفعه لغيره من باب أولى .

وقوله :﴿ لَكُنت مِن المُحضرِين﴾ " أي : من المُحضرين معك في عذاب الله[1] .

وقال تعالى :﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾[2] .

"اللفظ لفظ الاستفهام،والمراد به النفي،يعني: لا نموت أبدا سوى موتتنا الأولى "[3] .

وقد اختلف أهل التفسير في قائل هذا الخطاب ، فقيل : القائل الرجل المؤمن موجها لرفقائه وجلسائه[4] ، وقيل : هذا قول المتسائلين عموما فيما بينهم[5] ، وقيل : القول قاله بمسمع من قرينه[6] ، وهذه الأقوال متقاربة فقول الرجل المؤمن موجهاً في الأصل لجلسائه ، وصدقوه بالكلام فيما بينهم ؛لأ م يعيشون ذات اللحظة ، وقد يكون هذا الكلام بمسمع من قرينه زيادة لعذاب الله له وتوبيخا له .

وأما القول بأنه قول أهل الجنة موجهاً للملائكة لما ذبح الموت [7] ، فسرور المؤمنين حينما يذبح الموت لا يستطيع وصفه الإنسان ، إلا أنّ جعل هذا القول لهم ، يحتاج إلى دليل إذ لا سابق له في الآية ، وخلاف الأصل،حيث إن الأصل اتصال الكلام ، وتتابعه .

والهمزة في ﴿أَفَما﴾ للتقرير وفيها معنى التعجب[8] ، وهو استفهام تلذذ وتحدث

---

(١) تفسير الطبري ٦٢/٢٣ .

(٢) الصافات : ٥٨ .

(٣) تفسير السمرقندي ١٣٥/٣ .

(٤) تفسير الطبري ٦٢/٢٣ .

(٥) روح المعاني ٩٣/٢٣ .

(٦) تفسير النسفي ٢١/٤ .

(٧) تفسير البغوي ٢٨/٤ .

(٨) تفسير أبي السعود ١٩٣/٧ .

بنعمة الله[1].

وقال تعالى : ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[2] .

هذا من كلام الرجل المؤمن كما تقدم في الآية قبلها ، والمقصود بالموتة الأولى هي التي كانت في الدنيا[3] ، ثم ذكر سبب سروره الآخر ، وهو أما م من عذاب الله ، ولذلك بدأوا كلامهم بالنفي .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[4] .

اختلف أهل التفسير في قائل هذا القول ، كالخلاف السابق في الآية قبلها ، وزاد الخلاف في هذه الآية ، فقيل : يحتمل أن هذا خطاب من الله لنبيه محمد ﷺ وأمته[5] ، وهذا مجرد احتمال لا يختص ذه الآية ، والقول الأقوى في نظري أنه خطاب من الله ، ويؤيده الآية بعدها : ﴿لِمِثْلِ هذَا فَلْيعمل الْعامِلُونَ﴾[6] .

وهو يدل على عظيم الفوز الذي يحصل عليه المؤمن يوم القيامة .

---

(١) تفسير الجلالين ٦٩٥ .
(٢) الصافات : ٥٩ .
(٣) تفسير أبي السعود ١٩٣/٧ .
(٤) الصافات : ٦٠ .
(٥) المحرر الوجيز ٤٧٥/٤ .
(٦) الصافات : ٦١ .

المطلب الثاني

اللطائف الدعوية المستنبطة من الآيات

الآيات الواردة في قصة الرجل الذي خاطب قرينه تشتمل على كثير من اللطائف والفوائد والدرر ، وسأقتصر – تمشياً مع موضوع بحثي – على اللطائف التي تختص بجانب الدعوة إلى الله ، ومن ذلك ما يلي :

اللطيفة الأولى :

اللذة التي كان أهل الجنة يعيشو ا حال التساؤل بينهم ، استنبط منها بعض أهل العلم " أ م يتساءلون بكل ما يلتذون بالتحدث به ، والمسائل التي وقع فيها ال اع والإشكال ، ومن المعلوم أن لذة أهل العلم بالتساؤل عن العلم ، والبحث عنه فوق اللذات الجارية في أحاديث الدنيا ، فلهم من هذا النوع النصيب الوافر ، ويحصل لهم من انكشاف الحقائق العلمية في الجنة ما لا يمكن التعبير عنه "[1]، فهي توجيه من وجه لطيف بعقد مجالس علمية ، ينتقى فيها أطايب المسائل كما ينتقى الثمر ، يكون فيها أنس للسائل ، وطرب للسامع ، ومن فوائدها - وفوائدها جمة - أن تزيل تعب جهد دعوي من يوم ملئ بالمواقف .

اللطيفة الثانية :

لئن حرص الدعاة على هداية الناس ، وتبلغ فرحتهم منتهاها حينما ينمى إلى أسماعهم توبة عائد ورجعة منيب ، فإن أهل الضلالة وقرناء السوء تتلذذ قلو م حينما يشاركهم الناس ضلالهم ، كشفت الآيات هذه الصورة ، ولهذا فإن هذا القرين سعى بكل ما يملك من أسلوب ومحاولة إقناع لأن يضل أصحابه ، وهذا أشد ما يوجد من ضرره .

اللطيفة الثالثة :

وجه الشبه بين قوله ﷺ في شأن الجليس السوء " ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ،

---

(١) تفسير السعدي ص٧٠٤ .

وإما أن تجد منه ريحا خبيثة "[1] ، أن الجليس السوء إما أن يضلك بأفكاره ، التي تحرق معتقدها بنار جهنم ، وإما أن يصلك شيء من أفكاره فيزعزع قناعتك ، أو يجلب لك الشبه ، وكلاهما ريح خبيثة تؤثر على الدماغ والمزاج والقلب والروح ، فتسبب الأمراض العضوية أو النفسية ، وهذا تأثير الشكوك التي يجلبها قرين السوء ، فعلى الدعاة التحذير من جليس السوء في أقوالهم وأفعالهم ،وقصة هذا الرجل مع صاحبه تؤكد هذا التحذير .

اللطيفة الرابعة :

أظهرت الآيات لنا العزيمة القوية عند قرين السوء في تقرير الباطل ، ومحاولة إضلال صاحبه في إنكار البعث والنشور ، حتى أقسم الرجل المؤمن وقال عن هذه العزيمة:﴿قَالَ تَاللهِ إِنْ كِدتَ لَتُرْدِينِ﴾[2]، وهو قسم ينبئك عن مدى الحرص العميم ، والتواصل المستمر ، والجلد المنحرف الذي بذله في سبيل إضلال صاحبه .

وهذا موطن عبرة لنا جميعا ، أن ينشط دعاة الباطل ، ويعجز دعاة الحق ، أو يتطرق إليهم الملل برؤيتهم إعراض المدعو ، وكم تسبب الملل الذي يصيب الدعوة في تضييع فرصة ، أو فوات هداية ، أو ثبات باطل تزعزعت أركانه ، ولم يبق له إلا شيء من ثبات قليل يحتاج إلى أدنى جهد دعوي لتحطيمه ؟.

اللطيفة الخامسة :

إن قرناء السوء لا يقتصر ضررهم على صد المدعوين عن الدعوة ، بل إن ضررهم يتعدى ليصل إلى أخطر دائرة في زماننا ، ألا وهي إعاقة الدعاة عن الدعوة ، فعلى الدعاة إلى الله أن يجتنبوا قرناء السوء ، ويجعلوا الأمر فيما بينهم مفاصلة غير قابلة للجدال ، وذلك حينما يصل الداعية إلى قناعة في عدم جدوى المناصحة ، والمَثَلُ الذي ضربه لنا النبي ﷺ يدل على ذلك ؛لأن أفضل الحلول في الخروج من أذية النافخ في الكير أن يخرج الإنسان من ذلك المكان ؛"لأننا نلمس جميعاً ما للأصدقاء من أثر في توجيه السلوك والطبائع المتباينة ، وبالاختلاط يتأثر الأصدقاء بعضهم ببعض ، فالطباع سراقة ، والنفس

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب البيوع ، باب في العطار وبيع المسك ، برقم (١٩٩٥) ، ومسلم ، كتاب البر والصلة ، باب استحباب مجالسة الصالحين ، برقم (٢٦٢٨) .

(٢) الصافات : ٥٦ .

قد جبلت على المحاكاة والتقليد ، فتجد للأصدقاء دورا مهما ورئيسا في تغيير مسار زملائهم وأصحا م "[1] .

اللطيفة السادسة :

تكشف لنا الآيات وسيلة دعوية لم تذكر من قبل لها أثرها الحي في قلوب الناس ، وهي ضرب الأمثال الحية المشاهدة للناس في عقوبة من خالف أمر الله ؛ لأن ذلك أبلغ في الردع والزجر ، فمن خالف شرع الله وتكبر وطغى ، ثم كانت عاقبة أمره خسرا فهذا مثل محسوس أثره على القلب ظاهر .

وضرب الأمثال في ا يار الدعوات المخالفة للإسلام كالقومية ، والشيوعية ، أشد أثرا في إبطال غيرها من الشعارات الأخرى من مجرد سرد الأدلة الدالة على تحريمها .

وهذا يجعل الداعية واسع الأفق في الاطلاع على الشعارات الزائفة التي مرت على الأمة الإسلامية ومدة بقائها ، ودور أهل السنة والجماعة في صدها .

اللطيفة السابعة :

تتطلب بعض المواقف فقهاً خاصاً يستوجب إلقاء اللوم على المتسبب فيه وتوبيخـه لمـا لذلك من الأثر النفسي ، وحتى تظهر البراءة لأهلها ، ويعتنى بالأفعال عن الإهمـال ، إلا أن ذلك يكون بعد ثبوت القدر الكافي من الأدلة التي تصل بالداعية إلى اتخاذ الموقـف ، ومن هنا أخذ الرجل بإلقاء اللوم على صاحبه لمحاولة إضلاله .

اللطيفة الثامنة :

مع ازدياد الإيمان لدى الدعاة وسماع عبارات الثناء واللذة التي لا يحسن وصفها إلا بقدر وجدِها يتصيد الشيطان فريسة له ، فيحاول إرجاع نظر الداعية إلى نفسه ، لا محاسبة ، ومكاشفة ، وإنما على سبيل العجب والفخر ، ويعرض له الأيام المتراكمة من الجهود الدعوية والأذى المتنوع ، فجاءت الآيات لتعالج الوضع ، وتربي الداعية على أن ينسب الفضل في ثباته على دينه لربه سبحانه وتعالى ، فقد قال الرجل المؤمن يخاطب

---

(١) معوقات الهداية ، صالح بن مقبل العصيمي التميمي :ص١٢،{ من مطبوعات المكتب التعاوني للدعوة وتوعية الجاليات بالربوة ، ١٤١٩هـ }.

قرينه:﴿ولولا نعمةُ ربي لكُنت مِن المحضرين﴾[1] .

وهو بهذا يتخلص من أسر هواه له ، وإغلاق منافذ العجب ، وزيادة توحيده ، ووفرة نعمة الله عليه ؛ لأن النعم تزيد بالشكر .

فلم يكن ثبات صاحبه على الإيمان إلا محض نعمة من نعم الله ، وهذا مشهد من مشاهد فقر العبد المؤمن لربه ، وتواضعه له .

(١) الصافات : ٥٧ .

المبحث التاسع

مؤمن آل فرعون

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : تفسير الآيات الواردة في شأن مؤمن آل فرعون .

المطلب الثاني : اللطائف الدعوية المستنبطة من الآيات .

المطلب الأول

تفسير الآيات الواردة في شأن مؤمن آل فرعون

قال تعالى :﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[١] .

فقوله : ﴿رجلٌ مؤمن من آل فرعونَ﴾ اتفق أهل التفسير على أن هذا الرجل مؤمن ، وكان يكتم إيمانه ، ثم اختلفوا في شأن هذا الرجل المؤمن الذي يكتم إيمانه في عدة قضايا منها :

اسمه ، وقبيلته ، ومدى قرابته من فرعون ، وبعض هذه القضايا يمكن أخذها من ظاهر الآيات بينما يصعب تحديد البعض الآخر .

فالاسم يتعذر تحديده على وجه الدقة ، فقيل : " حبيب ، وقيل : شمعان ، وقيل : حزقيل ، وقيل غير ذلك ، ولا دليل على شيء من ذلك "[٢] لا من ظاهر الآيات ، ولا من السنة .

وأما قبيلته ، فهو من آل فرعون ، لظاهر الآية حيث قال الله في نسبه: ﴿من آل فرعونَ﴾ويؤيد ذلك أن فرعون " قد أصغى لكلامه واستمع منه ما قاله ، وتوقف عن قتل موسى عند نهيه عن قتله ، وقيله ما قال ، وقال له ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ، ولو كان إسرائيلياً لكان حرياً أن يعاجل هذا القائل له ولملئه ما قال بالعقوبة على قوله ، لأنه لم يكن يستنصح بني إسرائيل لاعتداده إياهم أعداء له ، فكيف بقوله عن قتل موسى عليه السلام لو وجد إليه سبيلا ، ولكنه لما كان من ملأ قومه ، استمع قوله ، وكف عما كان هم به في موسى عليه السلام"[٣] .

ولسنا بحاجة إلى ذكر قولٍ آخر في نسب الرجل المؤمن مع ظاهر الآية الصريح .

---

(١) غافر : ٢٨ .

(٢) أضواء البيان ٣٨٤/٦ .

(٣) تفسير الطبري ٥٨/٢٤ .

ويكفي هذا القدر في تحديد قبيلته ، بينما يصعب التحديد الدقيق لمدى القرابة من فرعون نفسه ، وقال أكثر أهل التفسير : إنه ابن عم له[(١)] ، والله أعلم .

قوله:﴿يكْتم إيمانه﴾ وهذا يظهر لنا سطوة فرعون وبطشه ، إذ لا يستطيع رجل من قومه أو من قرابته وبه لة ولي العهد له[(٢)] أن يتجرأ فيخبر فرعون خبرا مجردا ، والذي يظهر لي أن من آمن من قوم فرعون فلا يستطيع أن يظهره كهذا المؤمن ، وكالرجل الذي أنذر موسى عليه السلام فقال :﴿إن الْملأ يأتمِرونَ بِك لِيقْتلُوك فَاخرج إِني لَك مِن الناصِحِين﴾ [(٣)] .

كما تفيد الآية أن " من كان في دار الكفر وقد آمن وهو عاجز عن الهجرة لا يجب عليه من الشرائع ما يعجز عنها ، بل الوجوب بحسب الإمكان "[(٤)] .

ويفيد كتمانه لإيمانه أيضا ، أن " من يتكلم بالكفر مكرها مع طمأنينة قلبه بالإيمان فهذا مؤمن باطناً وظاهراً ، فإنه وإن أظهر الكفر لبعض الناس لما أكره عليه ، أو كتم عنه إيمانه ، فهو يتكلم بالإيمان في خلوته مع من يأمنه ، ويعمل بما يمكنه ، وما عجز عنه فقد سقط عنه "[(٥)] .

وعبر عن كتم الإيمان بالمضارع المستمر ﴿يكْتم﴾لما " كان كتمه الإيمان متجدداً مستمرا تقيةً من فرعون وقومه "[(٦)] .

وقوله:﴿ أَتقْتلُونَ رجلاً أَنْ يقُولَ ربي الله وقَد جاءَكُم بِالْبينات مِن ربكُم﴾ استفهام على سبيل الإنكار[(٧)] ، وإتيانه بلفظ الربوبية ؛ استدراج لهم إلى الاعتراف به ، وليلين بذلك جماحهم ؛ ويكسر من سور م[(٨)] ، ولهذا السبب وصفه بالرجولة ولم يصفه بالنبوة ، ثم ذكر أدلته في عدم قتل موسى عليه السلام ، ومجموع أدلته خمسة ، وفي هذا الجزء من الآية

---

(١) تفسير العز بن عبد السلام ١١٤/٣ .
(٢) تفسير العز بن عبد السلام ١١٤/٣ .
(٣) القصص : ٢٠ .
(٤) الفتاوى ٢٢٥/١٩ ، وقال في أول العبارة " ولا خلاف بين المسلمين " .
(٥) الفتاوى ٥٠٤/١٦ .
(٦) التحرير والتنوير ١٢٨/٢٤ .
(٧) التفسير الكبير ٥١/٢٧ .
(٨) الكشاف ١٧٦/٤ .

دليلان :

الأول : أن قوله لا يستحق القتل لأجله ، فلم يقل منكرا ، وإنما قال : ربي الله .

الثاني : أنه أتى بأدلة وبينات على أقواله ، وفي هذا مطالبة لهم بإبطال حجة موسى عليه السلام إن استطاعوا ، كما أن فيها دعوة للتأمل في براهين موسى عليه السلام على نبوته لكنه من وجه خفي .

وجمعه بين ﴿ربي الله ﴾ الربوبية والألوهية لأن الربوبية تستلزم الألوهية .

وقوله ﴿ وقَد جاءَكُم بِالْبيناتِ مِن ربكُم﴾ تفيد أن موسى عليه السلام رسول من ربكم إليكم يبلغكم ما يرسله به ربه فيأتيكم بالبينات منه ، فلا لوم عليه،فعلام تقتلونه ؟.

وتفيد أيضاً أن الفرق بين آيات الأنبياء وبين ما يشتبه ا " حاصل في نفس صفات هذا وصفات هذا ، وأفعال هذا وأفعال هذا ، وأمر هذا وأمر هذا ، وخبر هذا وخبر هذا ، وآيات هذا وآيات هذا ، إذ الناس محتاجون إلى هذا الفرقان أعظم من حاجتهم إلى غيره ، والله تعالى بينه ويسره "[١] .

وقوله : ﴿وإِنْ يك كَاذِباً فَعلَيهِ كَذِبه وإِنْ يك صادِقاً يصِبكُم بعض الذِي يعِدكُم﴾ هذا إكمال لأدلة مؤمن آل فرعون على عدم قتل موسى عليه السلام ، وهي :

الثالث : أنه إن كان كاذبا فلا يتخطاه وبال كذبه ، فيحتاج في دفعه إلى قتله[٢] ، أو " فعليكم بالنظر في آياته ولا تعجلوا بقتله ولا باتباعه ، فإن تبين لكم كذبه فيما تحداكم به ، وما أنذركم به من مصائب فلم يقع شيء من ذلك لم يضركم ذلك ، وعاد كذبه عليه بأن يوسم بالكاذب ، وإن تبين لكم صدقه يصبكم بعض ما توعدكم به ، أي تصبكم بوارقه فتعلموا صدقه فتتبعوه "[٣] .

ولا يدل هذا القول منه على ضعف في اليقين بنبوة موسى عليه السلام وإنما قاله " على وجه الفرض والتقدير ، وقصد بذلك المحاجة لقومه "[٤] .

الرابع : وإن كان صادقا فسيصيبكم بعض الذي يعدكم به لا سيما إن تعرضتم له

---

(١) النبوات ١٥٢/١ .

(٢) تفسير أبي السعود ٢٧٤/٧ .

(٣) التحرير والتنوير ١٣٠/٢٤ .

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٥/٤ .

بسوء[١] .

وقد اختلف أهل التفسير في البعض الذي سيصيبهم ، وقد جعل بعضهم تعارضا بين إيمانه بكل ما يقوله موسى عليه السلام وتصديقه له ، وبين قوله:﴿يصِبكُم بعض الذِي يعِدكُم﴾ فحاولوا الجمع بمثل أن " بعض بمعنى كل ، أو هو إلزام الحجة بأيسر ما في الأمر ، وليس فيه نفي إضافة الكل ، وقالت فرقة : أراد يصبكم بعض العذاب الذي يذكر وذلك كاف في هلاككم ، أو أن المعنى يصبكم القسم الواحد مما يعد به ، وذلك هو بعض ما يعد ، لأنه عليه السلام وعدهم إن آمنوا بالنعيم ، وإن كفروا بالعذاب ، فإن كان صادقا فالعذاب بعض ما وعد به ، أو أراد ببعض ما يعدكم عذاب الدنيا ، لأنه بعض عذاب الآخرة ، أي : وتصيرون بعد ذلك إلى الباقي "[٢] .

والذي يظهر لي أن هذا الجمع لا يحتاج إليه ؛لأن كلام مؤمن آل فرعون على سبيل الإلزام لا يريد له شيئا محدداً ، حتى نبحث عن البعض الذي ذكره .

" وهذا كلام صادر عن غاية الإنصاف وعدم التعصب ، ولذلك قَدم من شِقي الترِديد كونه كاذباً "[٣] .

وقوله: ﴿إن الله لا يهدِي من هو مسرِف كَذاب﴾ هذا من كلام مؤمن آل فرعون ، وهو إكمال للأدلة في عدم قتل موسى عليه السلام:

الخامس:﴿إن الله لا يهدِي من هو مسرِف كَذاب﴾ أي : لو كان هذا الذي يزعم أن الله تعالى أرسله إليكم كاذبا كما تزعمون ؛ لكان أمره بينا يظهر لكل أحد في أقواله ، وأفعاله ، فكانت تكون في غاية الاختلاف ، والاضطراب ، وهذا نرى أمره سديدا ، ومنهجه مستقيما ، ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله "[٤] .

وهذا القول منه يتضمن أمرين :

١ ـ تزكية لموسى عليه السلام إذ لو كان مسرفا كذابا لما وفقه الله وهداه وأيده بالبراهين.

---

(١) تفسير أبي السعود ٢٧٤/٧ .

(٢) المحرر الوجيز ٥٥٦/٤ بتصرف يسير .

(٣) تفسير أبي السعود ٢٧٤/٧ .

(٤) تفسير ابن كثير ١٨٧/١٢ .

٢ ـ تهديد لفرعون ؛ لأنه مسرف كذاب .

والمسرف يشمل الشرك ، وسفك الدم بغير حق ، وقد اجتمع في فرعون الأمران كلاهما[١]، بالإضافة إلى الكذب ، ولا أعظم من كذبه في دعواه الألوهية .

" ويحتمل أن يكون هذا القول :﴿ إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب﴾ جملة معترضة بين كلامي مؤمن آل فرعون ليست من حكاية كلامه ، وإنما هي قول من جانب الله بقصد تزكية هذا الرجل المؤمن إذ هداه الله للحق ، وأنه تقي صادق ، فيكون نفي الهداية عن المسرف الكذاب كناية عن تقوى هذا الرجل وصدقه ، لأنه ينطق عن هدى ، والله لا يعطي الهدى من هو مسرف كذاب "[٢] .

وقال تعالى:﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[٣] .

فقوله : ﴿يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض﴾ " تلطف معهم هذا المؤمن تحبباً لهم وتوددا ، فقال:﴿يا قوم﴾ والمعنى " لكم السلطان اليوم والملك ، ظاهرين أنتم على بني إسرائيل في أرض مصر "[٤] ، وهذا القول من مؤمن آل فرعون " استمال لهم ووعظ لهم ، من جهة شهواتهم،وتحذير من زوال ترفهم ، ونصيحة لهم في أمر دنياهم "[٥] .

كما تدل الآية على سعة ملك فرعون ، واتساع البلدان التي تخضع له ، فإن ظهوره في الأرض يقتضي هذا ، ولعل هذا هو السر في جمع الرجل المؤمن بين الملك ، والظهور في الأرض ؛ لأن الاقتصار على الملك وحده لا يستلزم اتساعه ، إذ قد يملك الإنسان قطعة من الأرض ، أما الظهور وانتشار الصيت وذيوعه فله دلالة أخرى .

وقوله : ﴿فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا﴾ هذا استفهام إنكاري ، وإنما نسب ما يسرهم من الملك والظهور في الأرض إليهم خاصة ، ونظم نفسه في سلكهم فيما يسوؤهم مجيء بأس الله تعالى تطييباً لقلوبهم ، وإيذاناً بأنه مناصح لهم ، ساع في تحصيل

---

(١) تفسير الطبري ٥٩/٢٤ . بتصرف يسير .
(٢) التحرير والتنوير ١٣٠/٢٤ .
(٣) غافر : ٢٩ .
(٤) تفسير الطبري ٥٩/٢٤ .
(٥) المحرر الوجيز ٥٥٧/٤ .

ما يجديهم ودفع ما يرديهم سعيه في حق نفسه ؛ليتأثروا بنصحه "[١] ، وهذه الأقوال تقتضي زوال هيبة فرعون[٢] .

وذكرهم ببأس الله ؛ ليكون أردع لهم ، فإن بأس الله لا يغالب ؛ ولئلا يعارض أو يرد عليه أحد .

وقوله:﴿ قَالَ فِرعونُ ما أُرِيكُم إلا ما أرى وما أَهدِيكُم إلا سَبِيلَ الرشادِ﴾ هذا القول من فرعون يدل على أن كلام الرجل المؤمن كان في محضر من القوم ووجود فرعون ، ولا يلزم أنه يشاورهم ، وإنما أراد فرعون إخبارهم وإقناعهم بصحة الرأي بقتل موسى عليه السلام .

والرؤية هنا القلبية لا البصرية[٣] ، والمعنى " ما أشير عليكم برأي إلا بما أرى من قتله ، يعنى لا استصوب إلا قتله "[٤] ، " وأدخل في صدر الكلام ما النافية ، وقلب معناها بإلا الموجبة تخصيصاً ، وتأكيداً للأمر ، وهذا كما تقول قام زيد ، فإذا قلت ما قام إلا زيد أفدت تخصيصه "[٥] .

وهذا القول من فرعون يتضمن الكبرياء التي يعيش ا ، كما يتضمن عدم معارضة قومه هيبة له ، وأنه لا يشاورهم ، وإنما يستبد بالرأي دو م .

وقوله: ﴿ وما أَهدِيكُم إلا سَبِيلَ الرشادِ﴾ فيها أيضا نفي واستثناء فيفيد التخصيص ، أي : " ما أهديكم وأشير عليكم إلا بعمل فيه رشاد ، وكأنه يعرض بأن كلام مؤمنهم سفاهة رأي "[٦] ، و"هذا قلب للحق ، فلو أمرهم باتباعه اتباعا مجردا على كفره وضلاله لكان الشر أهون ، ولكنه أمرهم باتباعه وزعم أن في اتباعه اتباع الحق "[٧] .

وقد كذب فرعون في دعواه الأولى والثانية،فأما الأولى التي قال فيها : ﴿ما أُرِيكُم إلا

---

(١) روح المعاني ٦٥/٢٤ .
(٢) المحرر الوجيز ٥٥٧/٤ .
(٣) فتح القدير ٤٩٠/٤ .
(٤) تفسير النسفي ٧٣/٤ .
(٥) المحرر الوجيز ٥٥٧/٤ .
(٦) التحرير والتنوير ١٣٣/٢٤ .
(٧) تفسير السعدي ص٧٣٧ .

ما أرى﴾فقد قال الله :﴿وجحدوا بِها واستيقَنتها أنفُسهم ظُلْماً وعلُواً﴾[1] .

وأما الدعوى الثانية التي قال فيها : ﴿وما أهدِيكُم إلا سبِيلَ الرشادِ﴾ فقد قال الله:﴿وأضل فِرعونُ قَومه وما هدى﴾[2] .

وقول فرعون غاية في الاعتداد بالرأي ، فإنه جمع بين إلزام قومه برأيه ، والجزم بأن رأيه هو الرشاد .

وقال تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾[3] .

فقوله : ﴿وقَالَ الذِي آمن﴾ القائل هو مؤمن آل فرعون على الراجح ، خلافا لمن قال بأنه موسى[4] عليه السلام ، إذ الكلام عن الرجل المؤمن متصل والحوار باق ، وليست عادة القرآن في ذكر موسى إلا التصريح باسمه .

وصرح في الآية بإيمانه " لأنه عرف بمضمون الصلة بعدما تقدم "[5] .

قوله:﴿يا قَومِ﴾ كرر النداء تلطفاً لهم وتحبباً وترغيباً ، " غير آيس من هدايتهم ، كما هي حالة الدعاة إلى الله تعالى ، لا يزالون يدعون إلى ربهم ، ولا يردهم عن ذلك راد ، ولا يثنيهم عتو من دعوه عن تكرار الدعوة "[6] .

وقوله: ﴿ إني أخاف علَيكُم مِثْلَ يومِ الْأحزابِ﴾ أكد كلامه بإن لكمال شفقته عليهم ، والأحزاب هم " المتحزبون على أنبياء الله "[7] ،"والمراد بأيام الأحزاب أيام إهلاكهم "[8] .

والمعنى " يا قوم إني أخاف عليكم بقتلكم موسى إن قتلتموه مثل يوم الأحزاب الذين تحزبوا على رسل الله ، نوح ، وهود ، وصالح ، فأهلكهم الله بتجرئهم عليهم فيهلككم

---

(١) النمل : ١٤ .

(٢) طه : ٧٩ .

(٣) غافر : ٣٠ .

(٤) المحرر الوجيز ٥٥٧/٤ .

(٥) التحرير والتنوير ١٣٤/٢٤ .

(٦) تفسير السعدي ص٧٣٧ .

(٧) المحرر الوجيز ٥٥٨/٤ .

(٨) التحرير والتنوير ١٣٤/٢٤ .

كما أهلكهم "[1] .

وأفرد اليوم ولم يجمعه ؛ لأن جمع الأحزاب مع تفسيرهم بأ م قوم نوح وعاد وثمود أغنى عن جمع اليوم[2] ، بالإضافة إلى أن تلك الأمم اتحدت في أن الله عاقبها جميعا ، فأفرد اليوم لاشتراكها في العقوبة وإن اختلف نوعها .

وقد احتج عليهم بسنن الله التي لا ينكرها أحد ، لأنه أقوى في الحجة ، وهذا يدل على أن عندهم علم عن الأمم الماضية .

وقال تعالى : ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ﴾[3].

فقوله : ﴿مِثْلَ دأْبِ قَومِ نوحٍ وعادٍ وثَمود﴾ قيل في الدأب : مثل سنتهم ، أي " يفعل ذلك بكم فيهلككم مثل سنته في قوم نوح وعاد وثمود وفعله م "[4] .

وقيل : الحال ، والعادة [5] ، والمعنى : مثل حال قوم نوح وعاد وثمود ، كفروا فعاقبهم الله . وقيل : الجزاء ، والمعنى : " مثل جزاء ما كانوا عليه من الكفر ، وإيذاء الرسل "[6] .

وهي أقوال متقاربة كما يظهر منها ، فإن حال قوم نوح وعاد وثمود وعاد م التي استمروا عليها هي الكفر بالله وإيذاء الرسل ، فجرت فيهم سنة الله التي لا تبديل لها ، وجازاهم الله عليها .

وقوله : ﴿وما الله يريد ظُلْماً لِلْعِبادِ﴾ هذه الآية فيها نفي إرادة الظلم عن الله سبحانه وتعالى ، وقد زل في هذا الموضع كثير من المفسرين بناء على أصول عقدية مخالفة لمنهج أهل السنة والجماعة ، فمن ذلك :

قول الزمخشري رحمه الله وعفا عنه في هذه الآية " يعني : أن تدميرهم كان عدلاً

---

(١) تفسير الطبري ٥٩/٢٤ .
(٢) تفسير أبي السعود ٢٧٥/٧ . بتصرف يسير .
(٣) غافر : ٣١ .
(٤) تفسير الطبري ٦٠/٢٤ .
(٥) الدر المنثور ٢٨٦/٧ .
(٦) تفسير أبي السعود ٢٧٥/٧ .

وقسطاً ؛ لأ م استوجبوه بأعمالهم "[1] فهو ـذا يفسر الظلم المنفي بأنه تعذيب الله لهم على أفعال قدرها الله عليهم ، وخلقها ، وعملوها .

ثم ذكر احتمالا آخر في الآية فقال عفا الله عنه : " أي : لا يريد لهم أن يظلموا ، يعني أنه دمرهم؛لأ م كانوا ظالمين"[2]،" ولا يخفى أن هذا المعنى مرجوح لفظا ومعنى"[3].

وكذلك قول ابن عطية رحمه الله وعفا عنه في هذه الآية " أي : من نفسه أن يظلمهم هو عز وجل ، فالإرادة هنا على با ا ؛ لأن الظلم منه لا يقع البتة "[4] فالظلم عنده رحمه الله ممتنع لذاته غير ممكن ، ويرد عليه بأن " الأمر الذي لا يمكن القدرة عليه لا يصلح أن يمدح الممدوح بعدم إرادته،وإنما يكون المدح بترك الأفعال إذا كان الممدوح قادرا عليها،فعلم أن الله قادر على ما نزه نفسه عنه من الظلم وأنه لا يفعله "[5] .

وأما أهل السنة والجماعة ، فالآية عندهم تـ يه الله لنفسه عن الظلم ، والمعنى " إنما أهلكهم الله تعالى بذنو م وتكذيبهم رسله ، ومخالفتهم أمره ، فأنفذ فيهم قدره "[6] ، فجمع أهل السنة بين نفي الظلم وإثبات القدر ، فعندهم أن الظلم " الذي حرمه الله على نفسه مثل أن يترك حسنات المحسن فلا يجزيه ـا ، ويعاقب البرئ على مالم يفعل من السيئات ، ويعاقب هذا بذنب غيره ، أو يحكم بين الناس بغير القسط ، ونحو ذلك من الأفعال التي يـ ه الرب عنها ؛لقسطه وعدله ، وهو قادر عليها ، وإنما استحق الحمد والثناء ؛ لأنه ترك هذا الظلم وهو قادر عليه ، وكما أن الله مـ ه عن صفات النقص والعيب فهو أيضا مـ ه عن أفعال النقص والعيب "[7] .

وقال تعالى : ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾[8] .

---

(1) الكشاف ١٦٩/٤ .

(2) الكشاف ١٧٠/٤ .

(3) روح المعاني ٦٧/٢٤ .

(4) المحرر الوجيز ٥٥٨/٤ .

(5) الفتاوى ١٤٤/١٨ .

(6) تفسير ابن كثير ١٨٩/١٢ .

(7) الفتاوى ١٤٨/١٨ .

(8) غافر : ٣٢ .

فقوله ﴿ ويا قَومِ ﴾ تكرار للنداء لهم باللين ، والشفقة .

وقوله :﴿ ِإني أَخاف علَيكُم يوم التنادِ ﴾خوفَهم بالعذاب الأخروي بعد تخويفهم بالعذاب الدنيوي "[1]،و" أجمع المفسرون على أن يوم التناد يوم القيامة ، وفي سبب تسمية ذلك اليوم بذلك الاسم وجوه :

الأول : أن أهل النار ينادون أهل الجنة ، وأهل الجنة ينادون أهل النار .

الثاني : لأن المنادي ينادي الناس .

الثالث : أنه ينادي بعض الظالمين بعضا بالويل والبثور .

الرابع : ينادون إلى المحشر ، أي يدعون .

الخامس : ينادِي المؤمن : ﴿فَيقُولُ هاؤم اقْرأوا كِتابِيه﴾[2] ، والكافر فيقول:﴿ يا لَيتِني لَم أُوت كِتابِيه﴾[3] .

السادس : ينادى باللعنة على الظالمين .

السابع : يجاء بالموت على صورة كبش أملح ، ثم يذبح ، وينادى:يا أهل القيامة لا موت ، فيزداد أهل الجنة فرحا على فرحهم ، وأهل النار حزنا على حز م .

الثامن : مشتق من التناد من قولهم ند فلان إذا هرب ، والمعنى يوم الهروب "[4] ، وكلها أقوال محتملة يجمع بينها " التذكير بكل نداء في القيامة ، فيه مشقة على الكفار ، والعصاة "[5] .

" ومن بديع البلاغة ذكر هذا الوصف لليوم في هذا المقام ؛ليذكرهم أنه في موقفه بينهم يناديهم بياقوم ناصحاً ومريداً خلاصهم من كل نداء مفزع يوم القيامة ، وتأهيلهم لكل نداء سار فيه "[6] .

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا

---

(1) تفسير أبي السعود ٢٧٥/٧ .
(2) الحاقة : ١٩ .
(3) الحاقة : ٢٥ .
(4) التفسير الكبير ٥٣/٢٧ بتصرف يسير .
(5) المحرر الوجيز ٥٥٨/٤ .
(6) التحرير والتنوير ١٣٦/٢٤ .

لَهُ مِنْ هَادٍ﴾(1) .

فقوله: ﴿ يوم تولونَ مدبِرين﴾ التولي إدبارا يحتمل أن يكون : " هربا من النار ، ويحتمل أنه انصرافهم إلى النار "(2)، والذي يظهر أنه هرو م من النار ، لما يرو ا في يوم القيامة وهو يوم التناد ، يهربون فارين ، ويؤيد ذلك أن " التولي : الرجوع والإدبار : أن يرجع من الطريق التي وراءه ، أي : من حيث أتى هاربا من الجهة التي ورد إليها ، لأنه وجد فيها ما يكره "(3) .

كما يؤيد قوله: ﴿ما لَكُم مِن اللهِ مِن عاصِمٍ﴾ أي : مانع(4) يمنعكم من عذابه ، وهذه تقال في حق من هرب يظن الهروب ينفعه .

وتكرار ﴿مِن﴾ فيها لنفي أي مانع يظنونه يمنعهم من الله ، والمعنى " لا من أنفسكم قوة تدفعون ا عذاب الله ، ولا ينصركم من دونه من أحد "(5) .

وذكره العصمة من دون الله تناسب حال القوم ، فقد بلغوا من القوة والمنعة مبلغا عظيما ، فناسب أن يذكر لهم أن قو م لا تعصمهم من الله سبحانه .

وفي الآية رجوع الخلق جميعا لله سبحانه وتعالى ، ولا مفر لهم منه ، ولا يملك الإنسان لنفسه يوم القيامة نفعا ولا ضرا ، وعظيم ملك الله ، كما أن فيها حقارة الدنيا .

وقال تعالى:﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾(6) .

فقوله :﴿ ولَقَد جاءَكُم يوسف مِن قَبلُ بِالْبيناتِ﴾ استعمل مؤمن آل فرعون تذكير قومه بالأيام الماضية ، وقصص الأمم ، فذكر أمتهم على وجه الخصوص ، وعلى هذا فيوسف في هذه الآية هو يوسف بن يعقوب عليه السلام نبي الله المعروف ، وشذ من قال : إنه

---

(1) غافر : ٣٣ .

(2) زاد المسير ٢٢١/٧ .

(3) التحرير والتنوير ١٣٧/٢٤ .

(4) زاد المسير ٢٢١/٧ .

(5) تفسير السعدي ص ٧٣٧ .

(6) غافر : ٣٤ .

حفيده[1] ، يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب ، وأكثر شذوذا من قال : إنه رسول من الجن[2] ! وهي أقوال غير معتمدة ، فلا نص يدعمها ولا عقل يقبل ا .

والمخاطبون في الآية الذين جاءهم يوسف بالبينات هم " من باب نسبة أحوال الآباء إلى الأولاد ، وكذلك نسبة الأفعال الباقية إليهم "[3] .

قوله :﴿ فَما زِلْتم فِي شك مِما جاءَكُم بِهِ﴾ أي : " فلم تزالوا مرتابين فيما أتاكم به يوسف من عند ربكم ، غير موقني القلوب بحقيقته "[4] ، مع وجود البينات على صدقه ، ودعوته لعبادة ربه ، وهذا هو الضلال .

قوله: ﴿حتى إِذَا هلَك قُلْتم لَن يبعثَ الله مِن بعدِهِ رسولاً﴾ أي بعد وفاة يوسف عليه السلام ظننتم " ظنكم الباطل وحسبانكم الذي لا يليق بالله تعالى ، فإنه تعالى لا يترك خلقه سدى لا يأمرهم وينهاهم ، بل يرسل إليهم رسله "[5] .

فشمل تكذيبهم ليوسف عليه السلام في حال حياته ، وبعد موته ، ولا يعني وصفهم يوسف بالرسالة أ م مؤمنون ا ، بدليل أ م كانوا شاكين فيها حين حياته ، وإنما المعنى " أنا كنا مترددين في الإيمان بيوسف فقد استرحنا من التردد فيه ، فإنه لا يجئ من يدعي الرسالة عن الله من بعده "[6] .

والآية تدل على تغلغل الكفر في قوم فرعون منذ عهد قديم ، حتى وصل أشده في عهد فرعون ،فادعى الربوبية بينهم كما أ ا تدل على أن أقوال الكفار عارية عن الدليل .

وقوله:﴿كَذَلِك يضِل الله من هو مسرِف مرتاب﴾ هذا الجزء من الآية يحتمل أن يكون من كلام الرجل المؤمن،كما يحتمل أن يكون من كلام الله معترضا بين الجمل.

والمعنى"كحالكم هذا يكون حال من يضله الله ؛لإسرافه في أفعاله ؛وارتياب قلبه"[7].

---

(1) المحرر الوجيز ٥٥٩/٤ .
(2) روح المعاني ٦٨/٢٤ .
(3) روح المعاني ٦٨/٢٤ .
(4) تفسير الطبري ٦٣/٢٤ .
(5) تفسير السعدي ص ٧٣٨ .
(6) التحرير والتنوير ١٤٠/٢٤ .
(7) تفسير ابن كثير ١٩٠/١٢ .

فالإسراف ومنه الشرك[1] ، والريبة ، من أسباب ضلال الإنسان مع بلوغ الحجة له واطلاعه عليها ، ووضوحها ، فالآية تدعو إلى تطهير القلب من مرض الإسراف والشك ؛ حتى يتسنى له رؤية الحق كما هو .

وقال تعالى : ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[2] .

فقوله : ﴿الذِين يجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بِغيرِ سلْطَانٍ أَتاهم ﴾ المناسبة بين هذه الآية والآية المتقدمة ظاهرة ، فإن الآية المتقدمة بينت أن الإسراف والريبة سبب للضلال ، فبينت هذه الآية أن الريبة التي هي سبب للضلال هي التي تقوم على ا ادلة في آيات الله بغير حجة ولا برهان ، وإنما مكابرة في اتباع الحق .

وصله ﴿ الذِين ﴾ عرف ا المشركون ، كما قال :﴿ما يجادِلُ فِي آياتِ اللهِ إلا الذِين كفَروا﴾[3] .

وفي الآية ذم للمجادلة بغير دليل ، ويكون هذا ضابطا يفرق به بين ا ادلة المحمودة والمذمومة،وفيها بيان لحال الكفار حين سماع الآيات حيث انصرفوا ادلتها ومحاولة إبطالها.

كما أن في الآية توجيه للطريق الصحيح لمن سمع آيات الله ، أن يتفكر فيها ، ويتأملها ولا يردها إلا بدليل من عند الله .

"واختيار المضارع في ﴿يجادِلُونَ﴾ لإفادة تجدد مجادلتهم وتكررها ؛ وأ م لا ينفكون عنها "[4] .

وقوله : ﴿ بِغير سلْطَانٍ ﴾ لا يدل على أن من كان عنده سلطان فهو يحق له مجادلة آيات الله ؛ لأن آيات الله لا تجادل ، فهي قوية في دلالتها ، ظاهرة على من خالفها ، لكن المراد أن المسرف المرتاب يجادل في آيات الله بغير حجة ؛ليردها ؛ويبطلها ، وهذا

---

(١) تفسير ابن زمنين ١٣٣/٤ .
(٢) غافر : ٣٥ .
(٣) غافر : ٤٠ .
(٤) التحرير والتنوير ١٤٢/٢٤ .

كقوله تعالى : ﴿ ومن يدع مع اللهِ إلهاً آخر لا برهانَ له بِهِ فإنما حِسابه عِند ربهِ إنه لا يفْلِح الْكَافِرونَ﴾[١] .

وقوله : ﴿كَبر مقْتاً عِند اللهِ وعِند الذِين آمنوا﴾ أي " الذين يدفعون الحق بالباطل ، ويجادلون الحجج بغير دليل ، وحجة معهم من الله تعالى ، فإن الله عز وجل يمقت على ذلك أشد المقت ، والمؤمنون أيضا يبغضون من تكون هذه صفته "[٢] .

وهذا ضرب من التعجب والاستعظام لجدالهم[٣] ، والضمير في ﴿كَبر﴾ يعود:

إلى ﴿من﴾، وتذكيره باعتبار اللفظ ، وقيل : إلى الجدال المستفاد من يجادلون[٤] ، وعوده إلى الجدال أرجح .

وفي عطف قوله : ﴿وعِند الذِين آمنوا﴾ على ﴿عِند اللهِ﴾ قال الطاهر بن عاشور رحمه الله : " فلم أر في التفاسير الكثيرة التي بين يدي من عرج على فائدة عطف ﴿وعِند الذِين آمنوا﴾ ما عدا المهائمي[5]في تبصرة الرحمن ، إذ قال : كبر مقتا عند الله وهو موجب للإضلال ، ويدل على أنه كبر مقتا ، أنه عند الذين آمنوا ، وهم المظاهر التي يظهر فيها ظهور الحق . قال الطاهر : وكلمة المهائمي كلمة حسنة ، يعني أن كونه مقتا عند الله لا يحصل في علم الناس إلا بالخبر ، فزيد الخبر تأييدا بالمشاهدة ، فإن الذين آمنوا يومئذ على قلتهم يظهر بينهم بغض مجادلة المشركين ، وعندي – أي الطاهر – أن أظهر من هذا أن الله أراد التنويه بالمؤمنين ، ولم يرد إقناع المشركين ، فإ م لا يعبأون ببغض المؤمنين ، ولا يصدقون ببغض الله إياهم ، فالمقصود الثناء على المؤمنين بأ م يكرهون الباطل "[٦] .

والذي يظهر لي والله أعلم معنى غير ما ذكرا رحمهما الله ، فالعطف في الآية يربي

---

(١) المؤمنون : ١١٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ١٩١/١٢ .

(٣) الكشاف ١٧١/٤ .

(٤) تفسير أبي السعود ٢٧٦/٧ .

(5) الشيخ علي بن أحمد المهائمي ، من طائفة بلاد الدكن ، عربي ، له مصنفات تدل على غزارة علمه ، وكمال قدرته على العلوم ، منها التفسير الرحماني ، وتوفي سنةخمسة وثلاثين وثمانمائة . انظر : أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم ، صديق بن حسن القنوجي ، تحقيق عبد الجبار زكار ،٢١٩/٣،{ دار الكتب العلمية ،بيروت: ١٩٧٨م } .

(٦) التحرير والتنوير ١٤٤/٢٤ .

المؤمنين على أن بغضهم يجب أن يكون تابعاً لبغض الله ، فما مقته الله مقته أهل الإيمان ، وبالمقابل محبتهم ينبغي أن تكون تبعا لمحبة الله ، فما أحبه الله وأمر به أحبه المؤمنون ولو كرهته طبائعهم ، وهذا له ارتباط من وجه : وهو أن إجماع المؤمنين حجة ، وأنه موافق لحكم الله ، فالأمران مرتبطان والله أعلم وأحكم .

والكبر مستعار للشدة أي : مقت جدالهم مقتا شديدا[(١)] .

وقوله: ﴿ كَذَلِكَ يطْبع الله علَى كُل قَلْبِ متكَبِرٍ جبارٍ﴾ أي : " كما طبع الله على قلوب المسرفين ، الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر على الله ، جبار عن اتباع الحق "[(٢)] .

وقوله : ﴿كُل قَلْبٍ﴾ اختلف القراء في قراءة ذلك ، فقرئ (على كل قلبِ متكبر) بإضافة القلب إلى المتكبر ، بمعنى الخبر عن أن الله طبع على قلوب المتكبرين كلها ، وجبار نعت للمتكبر .

وقرئ بتنوين القلب ، وترك إضافته إلى متكبر ، وجعل المتكبر والجبار من صفة القلب [(٣)] .

وطبع الله ختمه على القلب حتى لا يصل إليه هدى ولا نور فلا يوفق لخير[(٤)] ، وكان هذا الختم عقوبة من الله ؛ لجداله في آيات الله بغير سلطان ، وإسرافه وارتيابه ، فمن فهم هذا سِلم من الشبهات .

وذكر القلب على وجه الخصوص ؛"لأن القلب هو الذي يتكبر وسائر الأعضاء تبع له "[(٥)] ، أو " لأنه منبعهما "[(٦)] أي التكبر والتجبر .

والجمع بين التكبر والتجبر جمع بين السبب والنتيجة ، فالتجبر نتيجة للكبر في القلب ، فمن تكبر على الخلق فازدراهم ، وتكبر على شرع الله فرده أصبح جبارا في الأرض ،

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٣/٢٤ .

(٢) تفسير الطبري ٦٣/٢٤ .

(٣) ينظر : الكافي في القراءات السبع ١٩٦ .

(٤) معجم مقاييس اللغة ، مادة (طبع) ،ص٦٣٠ .

(٥) تفسير القرطبي ٣١٤/١٥ .

(٦) روح المعاني ٦٩/٢٤ .

يسعى فيها بالفساد .

وصيغة المبالغة في المتكبر الجبار تدل على أن هذا الرجل تكبر واستمرأ الكبر والتجبر فصار ديدنا له ، فهلك بكثرة ذنوبه ، والذنوب إذا اجتمعت أهلكت صاحبها حتى يطبع على قلبه ، بدلالة قوله ﷺ :" تعرض الفتن على القلوب ، كالحصير عوداً عوداً فأي قلب أشر ا[1]نكت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير على قلبين ، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباداً[2]كالكوز مجخيا[3] ، لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه "[4] .

وقال تعالى :﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[5] .

فقوله :﴿وقَالَ الذِي آمن﴾ الخلاف فيها كالخلاف في سابقتها ، والراجح كونه من كلام الرجل المؤمن ، وتكرار النداء ترغيبا لهم في دين الله .

وقوله :﴿اتبِعونِ أهدِكُم سبِيلَ الرشادِ﴾ سبيل الرشاد هو : السبيل الذي يصل إلى المقصود[6] ، وقد أجمل هذا السبيل ثم فسره[7] في الآيات بعده ، " وسبيل الرشاد مجمل ، وهو على إجماله مما تتوق إليه النفوس ، فربط حصوله باتباعهم إياه ، مما يقبل م على تلقي ما يفسر هذا السبيل ، ويسترعي أسماعهم إلى ما يقوله "[8] .

---

(١) قبلها ودخلت فيه وسكنت إليه، انظر: تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم ،محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله بن فتوح الأزدي الحميدي ، تحقيق: الدكتورة زبيدة محمد سعيد عبد العزيز : ٧٨/١ ،{ مكتبة السنة ،القاهرة: ١٤١٥هـ } .

(٢) لون بين البياض والسواد ، انظر : مشارق الأنوار على صحاح الآثار، القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض السبتي المالكي :٢٧٩/١،{المكتبة العتيقة ودار التراث ، بدون } .

(٣) مائلا ، انظر : غريب الحديث ،أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي ،تحقيق الدكتور عبد المعطي أمين القلعجي :١٤٠/١،{دار الكتب العلمية ،بيروت: ١٤٠٥هـ } .

(٤) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بدأ لإسلام غريبا وسيعود غريبا ، برقم (١٤٤) ١٢٨/١.

(٥) غافر : ٣٨ .

(٦) روح المعاني ٧٠/٢٤ .

(٧) الكشاف ١٧٢/٤ .

(٨) التحرير والتنوير ١٤٩/٢٤ .

وفي الآية تصريح بأن سبيل فرعون غير رشيد(1) .

وقال تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾(2) .

هذا تفصيل لسبيل الرشاد الذي ذكره ، بدأه بحرف التوكيد ؛ليظهر لهم صحة كلامه الآتي ؛وليفيد الحصر ، فما الحياة الدنيا إلا متاع ، " والمتاع : ما ينتفع به انتفاعاً مؤجلاً ، والقرار : الدوام في المكان "(3) ، ثم أعاد التوكيد بالنسبة للجملة الثانية الدالة على أمر الآخرة .

و"افتتح بذم الدنيا وتصغير شأ ا لأنّ الإخلاد إليها هو أصل الشر كله ، ومنه يتشعب جميع ما يؤدي إلى سخط الله ، ويجلب الشقاوة في العاقبة "(4) ، ويحتمل أنه بدأ ا ؛لأنه يترتب عليها أمر الآخرة ؛ أو لأنه رأى تعلقهم بما آتاهم الله من الملك والقوة والمال ، وفي الآية بيان لحقيقة الحياة الدنيا ، وتزهيد فيها ، وبيان لحقيقة الآخرة ، وترغيب فيها .

وقال تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(5) .

فقوله : ﴿من عمِلَ سيئَةً فَلا يجزى إلا مِثْلها﴾ هذا من كلام الرجل المؤمن ، بأن من عمل سيئة " والظاهر شمول الآية لكل ما يطلق عليه اسم السيئة ، وقيل : هي خاصة بالشرك ، ولا وجه لذلك "(6) .

والمراد بأنه يجزى مثلها " أي : لا يجزى من عمل السوء بجزاء الخير ، وإنما الجزاء السيئ ، أي : لا يطمعون أن يعملوا السيئات وأ م يجازون عليها جزاء خير ، وكأن المؤمن خص الجزاء بالأعمال ؛لأ م كانوا متهاونين بالأعمال ، وكان قصارى ما يهتمون

---

(1) التفسير الكبير ٦٠/٢٧ .
(2) غافر : ٣٩ .
(3) التحرير والتنوير ١٤٩/٢٤ .
(4) الكشاف ١٧٢/٤ .
(5) غافر : ٤٠ .
(6) فتح القدير ٤٩٣/٤ .

به هو حسن الاعتقاد في الآلهة "[١] .

وابتدأ بذكر السيئات ؛ ترهيباً لهم ؛ وليظهر لهم فضل الحسنات الآتي ذكرها .

وقوله:﴿ ومن عمِلَ صالِحاً مِن ذَكَرٍ أو أُنثَى وهو مؤمِن فَأُولَئك يدخلُونَ الْجنة﴾ فقد " قسم العمال إلى ذكر وأنثى؛ للاهتمام والاحتياط في الشمول، لاحتمال نقص الإناث"[٢].

ودل هذا الفضل العظيم على سعة رحمة الله،وأ ا أرجح من جانب العقوبات[٣].

وذكر الإيمان هنا دليل على أن الأعمال الصالحة لا تنفع بدونه ، وأنه أصل قبولها ، ولما سألت عائشة رضي الله عنها النبي ﷺ عن ابن جدعان ، فقالت : يا رسول الله ابن جدعان ، كان في الجاهلية يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، فهل ذاك نافعه ، قال : لا ينفعه ، إنه لم يقل يوما : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين "[٤] .

وقوله : ﴿يرزقُونَ فِيها بِغير حِسابٍ ﴾ يحتمل أن يكون المراد أن الله يرزق أهل الجنة رزقا عظيما دون أن يحاسبهم عليه ، " ويحتمل أن يراد أن الله يرزق أهل الجنة رزقا كثيرا لا حصر له ولا عد ، فهو فوق الحساب ؛لكثرته ، ويحتمل كذلك أن الله تعالى المتصرف المطلق في الكون ، فهو سبحانه يرزق دون أن يحاسبه أحد من خلقه على هذا التصرف ؛ لأنه سبحانه لا يسأل عما يفعل ، وتحتمل أن الله يرزق دونما تقتير أو محاسبة لنفسه ، خشية نفاذ ما عنده "[٥] .

وقال تعالى :﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾[٦] .

فقوله:﴿ويا قَومِ﴾ كرر النداء "مبالغة في توبيخهم على ما يقابلون به نصحه "[٧]،و"زيادة تنبيه لهم ، وإيقاظ من سنة الغفلة ، وإظهار أن له ذا المهم مزيد اهتمام ،

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٠/٢٤ . بتصرف يسير .
(٢) روح المعاني ٧٠/٢٤ .
(٣) التفسير الكبير ٦٠/٢٧ .
(٤) أخرجه مسلم ،كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل،برقم (٢١٤) .
(٥) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن ، د محمد عبد الله دراز :ص١١٧،{دار السعادة ،القاهرة: ١٩٦٠م }.
(٦) غافر : ٤١ .
(٧) تفسير أبي السعود ٢٧٧/٧ .

وعلى أولئك الأقوام فرط شفقة .

وأما ا يء بالواو العاطفة ، فلأن النداء الثاني ﴿يا قَومِ إنما هذِهِ الْحياةُ الدنيا متاع وإن الْآخِرةَ هِي دار الْقَرارِ﴾ يقرب من أن يكون عين الأول:﴿ يا قَومِ اتبِعون أَهدِكُم سبِيلَ الرشادِ ﴾ ، لأن الثاني بيان للأول ، والبيان عين المبين ، وأما النداء الثالث فلأنه كلام مباين للأول والثاني ، فحسن إيراد الواو العاطفة فيه "[١] .

وقوله :﴿ما لِي أَدعوكُم إلَى النجاةِ وتدعونِني إلَى النارِ﴾ الاستفهام هنا استفهام تعجبي "[٢] ، " والدعاء إلى طاعة الله ، وعبادته ، وتوحيده ؛ هو الدعاء إلى سبب النجاة ، فجعله دعاء إلى النجاة اختصارا ، وكذلك دعاؤهم إياه إلى الكفر ، واتباع دينهم ؛ هو دعاء إلى سبب دخول النار ، فجعله دعاء إلى النار اختصارا "[٣] .

والآية تدل على أن التوحيد نجاة ، وأن الشرك نار ،كما أن ظاهر الآية يدل على عموم المعنى ، فالتوحيد نجاة من الذنوب ، وعقوبا ا الدنيوية ،كما أنه نجاة في الآخرة من عقوبا ا الأخروية ،وكذلك الشرك ،نار بالمعنى المعنوي في الدنيا،فالمشرك مضطرب القلب،مشتت الهم ، ظالم لنفسه ،ونار بالمعنى الحقيقي في الآخرة.

وقال تعالى : ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾[٤] .

فقوله: ﴿تدعونِني لِأَكْفُر بِاللهِ وأُشرِك بِهِ ما لَيس لِي بِهِ عِلْم ﴾ هذا تفصيل من الرجل المؤمن من آل فرعون لدعوة النجاة والنار التي ذكرها في الآية المتقدمة .

والمعنى " تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم ، أي : وأشرك بالله في عبادته أوثانا ، لست أعلم أنه يصلح لي عباد ا وإشراكها في عبادة الله ، لأن الله لم يأذن لي في ذلك بخبر ولا عقل "[٥] .

وليس المراد من قوله:﴿ما لَيس لِي بِهِ عِلْم ﴾ " أني جاهل به ، بل معناه العلم بأن

---

(١) التفسير الكبير ٦١/٢٧ . بتصرف يسير .

(٢) التحرير والتنوير ١٥٢/٢٤ .

(٣) المحرر الوجيز ٥٦١/٤ .

(٤) غافر : ٤٢ .

(٥) تفسير الطبري ٦٨/٢٤ .

الأوثان وفرعون وغيره ليس لهم مدخل في الألوهية ، وليس لأحد من البشر علم بوجه من وجوه النظر بأن لهم في الألوهية مدخلا،بل العلم اليقين بغير ذلك"(١).

والآية المتقدمة﴿ما لي أدعوكُم إلى النجاةِ﴾ قدم دعوته لقومه إلى النجاة على دعو م له إلى النار ، وفي الآية الثانية عكس الأمر؛ والسبب في ذلك أنه جعل الكلام متصلا،حيث ختم الآية الأولى بقوله:﴿وتدعونني إلى النارِ﴾ ثم بين ذلك بقوله تعالى :﴿ تدعونني لأكْفُرَ باللهِ ﴾ وتوالي الكلام أولى من الفصل بينه إن لم تدع حاجة.

وعطف الشرك على الكفر في قوله : ﴿لأكْفُرَ باللهِ وأُشرِكَ﴾ من باب عطف الخاص على العام ، أو لزيادة الإيضاح لأسباب دخول النار .

وقوله : ﴿وأنا أدعوكُم إلى العزيزِ الغفارِ﴾ تخصيص العزة بالذكر ؛"إشارة إلى كونه كامل القدرة ، وفيه تنبيه على أن الإله هو الذي يكون كامل القدرة ، وأما فرعون فهو في غاية العجز ، فكيف يكون إلها ؟! وتخصيص المغفرة بالذكر إشارة إلى أنه لا يجب أن يكونوا آيسين من رحمة الله ؛ بسبب إصرارهم على الكفر مدة مديدة "(٢) ، وقد جمع بين أسلوب الترهيب والترغيب .

وقال تعالى : ﴿ لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾(٣).

فقوله : ﴿لا جرم﴾ قيل فيها عدة أقوال :

(لا) ردا لما دعاه إليه قومه ، و(جرم) : فعل بمعنى حق ، أي : حق ، ووجب بطلان دعوته ، أو بمعنى كسب ، أي : كسب ذلك الدعاء إليه بطلان دعوته ، على معنى أنه ما حصل من ذلك إلاّ ظهور بطلان دعوته ، ويجوز أن يقال : أن لا جرم نظير لا بد ، فعل من ا لجرم وهو القطع ، أي : لا قطع لذلك ، بمعنى أ م أبدا يستحقون النار لا انقطاع لاستحقاقهم ، ولا قطع لبطلان دعوة الأصنام ، أي : لا تزال باطلة ، لا

---

(١) المحرر الوجيز ٥٦١/٤ .

(٢) التفسير الكبير ٦٢/٢٧ .

(٣) غافر : ٤٣ .

ينقطع ذلك فينقلب حقاً "[١] .

ومن قال : بأن المعنى لا كذب ، أو المعنى بلى[٢] ، هي بمعنى من قال : حقا يقينا[٣] ، وهذا أرجح الأقوال ، وعليه تدور تفاسير السلف[٤] .

وقوله : ﴿لَيس لَه دعوةٌ فِي الدنيا ولا فِي الْآخِرةِ﴾ نفي الدعوة عن الأصنام يحتمل أمورا ، منها :

١ ـ " انتفاء أن يكون الدعاء إليه بالعبادة نافعاً "[٥] ، أي : لا ينفع في الدنيا ولا في الآخرة .

٢ ـ ويحتمل :" ليس له دعوة إلى نفسه قط ، أي : من حق المعبود بالحق أن يدعو إلى طاعته ، ثم يدعو العباد إليها إظهاراً لدعوة ر م وما تدعون إليه وإلى عبادته ، لا يدعو هو إلى ذلك ، ولا يدعي الربوبية "[٦] .

٣ ـ ويحتمل : أن المراد " لا يستجيب لأحد في الدنيا ولا في الآخرة ، يعني ليست له استجابة دعوة "[٧] .

وهذه المعاني لا تعارض بينها ، وهي أوصاف اجتمعت في الأصنام ، وكل ما يعبد من دون الله فإنه لم يدع لعبادة نفسه ، ولا يسمع من دعاه ، ولو سمع فلن يستجيب له ، ولن ينفع في الدنيا ولا في الآخرة ، ويجمع هذه الأقوال قول مجاهد رحمه الله:" الوثن ليس بشيء "[٨] ، ولتأكيد نفي النفع عن الأصنام ؛ أعيد النفي مرتين فقال: ﴿لَيس لَه دعوةٌ فِي الدنيا ولا فِي الْآخِرةِ﴾ .

وقوله : ﴿وأَن مردنا إِلَى اللهِ ﴾ أي : مرجعنا ومصيرنا إليه بالموت أولاً ، وبالبعث

---

(١) الكشاف ١٧٤/٤ .
(٢) تفسير ابن كثير ١٩٣/١٢ .
(٣) تفسير السعدي ص٧٣٨ .
(٤) انظر : تفسير الطبري ٦٨/٢٤ .
(٥) التحرير والتنوير ١٥٥/٢٤ .
(٦) الكشاف ١٧٤/٤ .
(٧) تفسير البغوي ٩٩/٤ .
(٨) أخرجه الطبري ٦٩/٢٤ بسنده عن محمد بن عمرو ، عن أبي عاصم ، عن عيسى بن ميمون ، عن ابن أبي نجيح ، عنه ، ورجال الإسناد كلهم ثقات .

آخراً ، فيجازى كل أحد بما يستحقه من خير وشر[١] .

وقوله:﴿وأن المسرفين هم أصحاب النار﴾ تقدم أن الإسراف يشمل الشرك وسفك الدم الحرام ، كما يشمل " أصحاب الجرائم والآثام ، والتعريف فيه تعريف الجنس المفيد للاستغراق ، وهو تعريض بالذين يخاطبهم ، إذ هم مسرفون على كل تقدير ، فهم مسرفون في إفراط كفرهم بالرب الذي دعا إليه موسى عليه السلام، ومسرفون فيما يستتبعه ذلك من المعاصي والجرائم "[٢] .

وقال تعالى:﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[٣] .

فقوله: ﴿فَستذْكُرونَ ما أَقُولُ لَكُم ﴾ أي : ما أقوله لكم من النصيحة ستتذكرو ا حين نزول العذاب بكم[٤] ، وقيل : حين الموت ، وقيل : يوم القيامة[٥] ، ولا يمنع أن يقصد التذكر هذه المواطن جميعا .

وقوله : ﴿وأفوض أمري إلى الله﴾ تفويض الأمر إلى الله يشمل التوكل والاستعانة ، والالتجاء إليه ، كما أنه يزيد ثقة المسلم بربه وارتباطه به وحقارة عدوه ، والمعنى " ألجأ إلى الله وأعتصم به ، وألقي أموري كلها لديه ، وأتوكل عليه في صالحي ودفع الضرر الذي يصيبني منكم أو من غيركم "[٦] .

ويفيدنا تذكيره لهم بتفويض أمره إلى الله بأنه هدد بأمر يخافه ، فكأ م خوفوه بالقتل[٧] ، وهذه هي السنة المتبعة في كل من وقف في وجه الشر وأهله ، كما أ ا سلاح العاجز الظالم ،وتدل على ضعف حجته أمام حجج الحق فيلجأ إليها حتى يحفظ كبرياءه .

وقوله : ﴿إن الله بصير بالعباد ﴾ أي : "هو بصير م ، فيهدي من يستحق الهداية ،

---

(١) تفسير فتح القدير ٤٩٤/٤ .

(٢) التحرير والتنوير ١٥٥/٢٤ .

(٣) غافر : ٤٤ .

(٤) تفسير أبي السعود ٢٧٨/٧ .

(٥) انظر القولان في : التفسير الكبير ٦٣/٢٧ .

(٦) تفسير السعدي ص٧٣٩ .

(٧) التفسير الكبير ٦٣/٢٧ .

ويضل من يستحق الإضلال ، وله الحجة البالغة والحكمة التامة والقدرة النافذة "[١] .

وتذييل الآية بهذا له مناسبة ظاهرة ، فإن فرعون وقومه لما هددوه بالقتل ، ذكر أن الله " يعلم حالي وضعفي فيمنعني منكم ، ويكفيني شركم ، ويعلم أحوالكم ، فلا تتصرفون إلا بإرادته ومشيئته ، فإن سلطكم علي فبحكمة منه تعالى ، وعن إرادته ومشيئته "[٢] .

---

(١) تفسير ابن كثير ١٩٣/١٢ .

(٢) تفسير السعدي ص٧٣٩ .

المطلب الثاني

اللطائف الدعوية المستنبطة من الآيات

الآيات الواردة في قصة مؤمن آل فرعون تشتمل على كثير من اللطائف والفوائد والدرر ، وسأقتصر – تمشيا مع موضوع بحثي – على اللطائف التي تختص بجانب الدعوة إلى الله ، ومن تلك اللطائف المستنبطة من الآيات ما يلي :

اللطيفة الأولى :

من فقه الدعوة وواجبا ا أن يتعدى دورها الرجال من حولها لتصل إلى مستوى أعلى ، فتستهدف العِليةَ من القوم وحاشية الملك وأعوانه ووزراءه ، فمؤمن آل فرعون من هذه الطبقة ، وقد آمن ، وهذا يعطينا الدلالة على الجهود الدعوية التي وصلت إليه حتى آمن .

اللطيفة الثانية :

الآيات وبشكل مباشر تدل على جواز كتم الإيمان حينما يضطر الإنسان إليه مع بقاء قلبه على الإيمان ، كما قال تعالى : ﴿من كَفَرَ بِاللهِ مِن بعدِ إيمانِهِ إلا من أُكْرِه وقَلْبه مطْمِئن بِالْإِيمان﴾[1] .

فمؤمن آل فرعون كتم إيمانه ، وعلى هذا له مجارا م ظاهرا ، وحضور أنديتهم لدعو م مع بغضه لها ، وفي حال خلوته يظهر إيمانه مع مراعاة المصالح والمفاسد .

اللطيفة الثالثة :

الداعية الذي يعيش في ظروف صعبة ، وفي بيئة لا يستطيع معها إظهار إيمانه عليه أن يتحين الفرص لإظهار دعوته ، أو التخفيف من مكر أعدائه ، فهذا الرجل المؤمن من آل فرعون حينما سنحت الفرصة له في تخفيف مكر أعداء الله بموسى عليه السلام فعل ولم يتردد .

اللطيفة الرابعة :

أظهرت الآيات سنة من سنن الله وهي أن الله ناصر دينه ومؤيد أتباعه ومهلك

---

(١) النحل : ١٠٦ .

أعداءه من حيث لا يشعرون ، ففي عهد فرعون لا يستطيع أحد أن يقف في وجهه أو يعارضه ، فأتى نصر الله عن طريق رجل قريب منه نسبا على قول لبعض المفسرين ، وقريب منه منصبا على قول جميع المفسرين ، فلا يحزن الدعاة وهم يمارسون الدعوة واقعا عمليا حينما يقف في وجوههم من لا يستطيعون معه حيلة ، ولا يهتدون إليه سبيلا ، فقد يخرج الله من صلبه من يصده ، ويأتيه بأس الله من حيث لا يحتسب .

اللطيفة الخامسة :

مؤمن آل فرعون كان يرى ويسمع أموراً كثيرة يقولها فرعون وملأه عن دعوة موسى عليه السلام لا يقرها ، ولا يرضى ا ، إلا أنه لم يعارضهم إلا لما تشاوروا في قتله ، فعند ذلك صدع وأنكر وجادلهم بالحجة القوية ﴿أتقْتُلُونَ رجلاً أَنْ يقُولَ ربي الله﴾ .

ومن هنا نستفيد أن المستضعفين في الإيمان ، الذي يكتمون إيما م ، يتأكد دورهم حينما يكون هناك أمر جلل يحيق بالدعوة ، وأهلها ، فعليهم التشاور مع أهل العلم والفقه الدعوي في شأن اتخاذ موقف شرعي .

اللطيفة السادسة :

تعطي هذه القصة الفريدة حلاً في زماننا لذوي الظروف المشا ة ، والذين يعيشون تحت وطأة الكفر ، فمؤمن آل فرعون ومن على شاكلته من أهل الضرورات لهم استثناءات شرعية في كثير من القضايا العقدية ، ولهذا تقدر ضرور م بقدرها ، ولا يقاس عليهم من لا يشا هم في الحكم والحال .

فقول مؤمن آل فرعون : ﴿وإنْ يك كَاذِباً فَعلَيهِ كَذِبه وإنْ يك صادِقاً يصِبكُم بعض الذِي يعِدكُم﴾[1] يفيد في ظاهره عدم اليقين القلبي بنبوة موسى عليه السلام، ووزارته لفرعون تقتضي تلبسه ببعض أفعال الكفر في الظاهر ، ومع ذلك سماه الله مؤمنا ، وهذا يجعلنا نفرق بين الناس في الأحكام ولا نجعلهم على حد سواء .

اللطيفة السابعة :

قول الرجل المؤمن : ﴿يا قَومِ لَكُم الْملْك الْيوم ظَاهِرِين فِي الْأَرضِ فَمن ينصرنا مِن

---

(١) غافر : ٢٨ .

بأسِ اللهِ إنْ جاءَنا﴾[1] يدل على أن الحال التي يعيشها الإنسان أو ا تمع من رغد العيش وبسط الرزق أنه لا يغتر ا ، ولا يطمئن إليها ما دامت مخالفة لشرع الله ، لأن سنة الله جرت بزوالها ﴿فَمن ينصرنا مِن بأسِ اللهِ إنْ جاءَنا﴾ ، وهذا يفيدنا في ترشيد التعامل مع الواقع والسير به نحو سنة البقاء ، ولا يكون ذلك إلا بموافقة شرع الله .

اللطيفة الثامنة :

قراءة التاريخ مما يزيد الداعية في دعوته ، وتشمل القراءة التاريخية النظر في كتبه ، وسبر مؤلفاته ، كما تشمل القراءة القلبية ، بالنظر ، والاعتبار ، وهذا ما نلاحظه من مؤمن آل فرعون حيث حذر من بأس الله ، واستدل بيوم الأحزاب ، وهم قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، والذين من بعدهم ، وهذا دليل قراءة جيدة آخذاً نصب عينيه العظة والعبرة واستنتاج سنة الله في عباده ، منطلقا من خلال ذلك لتصحيح واقعه .

اللطيفة التاسعة :

يكثر في زماننا الشعارات البراقة والتي راح ضحيتها كثير من ضعاف البصر والبصيرة ، ولم تكن خدعة الشعارات وليدة هذا الزمن حتى نخصها بمزيد دراسة ، فقد أظهرت الآيات أن خدعة الشعارات قديمة الطلعة ، فقول فرعون:﴿ما أُرِيكُم إلا ما أرى وما أهدِيكُم إلا سبِيلَ الرشادِ﴾ مع قوله قبل ذلك عن موسى عليه السلام : ﴿ ذَرونِي أَقْتلْ موسى ولْيدع ربه إني أَخاف أَنْ يبدلَ دِينكُم أَو أَنْ يظْهِر فِي الْأَرضِ الْفَساد﴾ دليل على أن الداعية عليه أن يحذر من الشعارات البراقة التي يرفعها أهل الزيغ ، فقد رفع فرعون شعار الإصلاح في الأرض ، بينما هو في حقيقة الأمر سبب فسادها ، ورفع شعار الرشاد ، بينما هو في حقيقة الأمر سبب الضلال .

وإبطال الرجل المؤمن لكلام فرعون والرد عليه أصل في رد الدعاة اليوم على الشعارات الزائفة وكشف لعوارها .

اللطيفة العاشرة :

أقوال فرعون في محاورته للرجل المؤمن مليئة بالنظرة الأحادية والاعتداد بالرأي والجزم بصواب نفسه ، وهي مظاهر تدل على استكبار القلب ، والعلو في الأرض .

---

(١) غافر : ٢٩ .

بينما أقوال الرجل المؤمن مليئة بالشفقة على قومه ، وأنه منهم ، والخوف عليهم من تغير الحال ، وجريان السنن ، وتذكيرهم بيوم القيامة ، وهي اللغة التي يجب أن يخاطب ا الدعاة اليوم أقوامهم .

اللطيفة الحادية عشرة :

مهما واجه الداعية صدودا من مجتمعه وإعراضا من بني قومه إلا أن الرحمة التي استودعها الله في قلبه تأبي عليه إلا أن يعيد دعوته المرة تلو الأخرى ، وله في مؤمن آل فرعون أسوة ، فقد تكرر قول الرجل المؤمن : ﴿يا قَومِ﴾ في الآيات ست مرات ، وهذا يعطينا الدلالة على أن الداعية عليه ألا ييأس من دعوة قومه ، ويحسن الظن بربه في استجابتهم ، ويصبر على ما يسمع من أذاهم .

اللطيفة الثانية عشرة :

قضى الله أن للعقوبات الربانية أسباباً تحل حينما تجب ، فالداعية عليه أن يحذر قومه كل ما يسبب لهم عقوبات الله ، فقول الرجل المؤمن: ﴿كَذَٰلِك يضِل الله من هو مسرِف مرتاب﴾ ،وقوله:﴿كَذَٰلِك يطْبع الله علَى كُل قَلْبِ متكبِرٍ جبارٍ﴾ تحذير لهم من الإسراف ، والريبة ، والاستكبار ، والجبروت ، لأ ا تجلب عقوبات الله بالضلال والطبع ، فالذنوب يجر بعضها بعضا ، وتجلب العقوبات ، وهذا ما يحتم على الداعية سبر واقعه وتفحصه للاطلاع على مواطن الخلل فيه .

اللطيفة الثالثة عشر :

من أعظم ما يبتلى به الإنسان المسلم مسألة الهوى ، فتحتاج إلى إيمان راسخ مع يقين بالله اهد ا ، وهو ما قرره مؤمن آل فرعون بقوله:﴿كَبر مقْتاً عِند اللهِ وعِند الذِين آمنوا﴾ يدل على أن الداعية المؤمن عليه أن يجعل هواه تبعا لشرع الله ، فما مقته الله يمقته ، وما أحبه الله يحبه ، وهذا يكون بالعلم الشرعي ، وتعظيم الأوامر والنواهي .

اللطيفة الرابعة عشر:

الآيات ترشد المسلم للفقه في التعامل مع الحياة الدنيا ، فقول الرجل المؤمن : ﴿يا قَومِ إنما هذِهِ الْحياةُ الدنيا متاع﴾ وبيان هذا الفقه أن ينظر إليها على أ ا متاع ، والمتاع يقتضي الاستمتاع بما أحله الله ، إلا أنه يمنع الركون إليها ؛ لأن المتاع زائل .

وعلى هذا يرسم الدعاة للناس خطة لواقعهم الدنيوي تتسم بالتوازن والوسطية .

اللطيفة الخامسة عشر :

ظهر في كلام الرجل المؤمن أسلوب المقارنة كثيراً ، فقد قارن بين الحياة الدنيا والآخرة فقال:﴿يا قَومِ إنما هذِهِ الْحياةُ الدنيا متاع وإِن الْآخِرةَ هِي دار الْقَرارِ﴾ كما قارن بين من يعمل السيئات، ومن يعمل الحسنات ، فقال : ﴿من عمِلَ سيئَةً فَلا يجزى إِلا مِثْلَها ومن عمِلَ صالِحاً مِن ذَكَرٍ أو أُنثَى وهو مؤمِن فَأُولَئِك يدخلُونَ الْجنةَ يرزقُونَ فِيها بِغيرِ حِسابٍ﴾ .

وقارن أيضا بين طريق النجاة وطريق النار ، والكفر والإيمان .

والمقارنة حينما تكون صحيحة قائمة على العدل والصدق فإنه يظهر ا حقيقة الأمر ، والدعاة اليوم يتأكد عليهم هذا الأسلوب ، فالمقارنة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية،وبين شرع الله والقوانين الوضعية يظهر من خلالها التباين بين الأمرين لكل عاقل .

اللطيفة السادسة عشر :

كل مقطع من مقاطع الآيات يعطي الداعية وظيفة أخرى ؛ ليشمل في النهاية جميع أمور الحياة ، فكشفت هذه الآيات أن من وظائفهم الوقوف في وجه الظلم ، والسعي لإصلاح الأرض ، وصد المتكبرين - على قدر الاستطاعة - ونصرة المظلومين ، وفي الحديث " أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر "(١) .

اللطيفة السابعة عشر :

مما ابتليت به الدعوة الإسلامية اليوم - وليست وليدة وقتنا - أن يكون للظالم أعوان على ظلمه ، يباشرون الظلم أحياناً ، وفي أحيان كثيرة يزينون الباطل ، ويتأولون إباحة الظلم ؛ ليأخذوا عرضاً من متاع الدنيا ، فأظهرت الآيات وجها آخر مشرقاً للدعاة ، محذرة إياهم من إعانة الظالمين ، فجاءت قصة الرجل المؤمن من آل فرعون ووقوفه في وجه فرعون دليلا على أن الداعية عليه أن يحذر من معونة الظالم على ظلمه ، " والواقع

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب الملاحم ، باب الأمر والنهي ، برقم (٤٣٤٤) ١٢١/٤، والترمذي ، كتاب الفتن ، باب ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر ، برقم (٢١٧٤) ٤٧١/٤، وقال : " حديث حسن غريب من هذا الوجه " .

أن المسلمين عموما إلا القليل منهم يغفلون عن حرمة وخطورة معونة الحاكم الظالم ، ومن هنا كان من واجبات الداعي المسلم ، بل من أولويات واجباته في الدعوة : تبصير الأمة بحرمة وخطورة معونة الحاكم الظالم ، ويؤكد هذا الواجب أمران :

الأول:أن الحاكم الظالم ما كان يمكنه الاستمرار في ظلمه وبغيه لولا معونة أعوانه

الثاني : أن كثيرا من المسلمين لا يرون بأسا ولا تناقضا بين معونة الحاكم الظالم وبين الالتزام المطلوب بأحكام الإسلام ، ولهذا تراهم يصلون ويصومون بل ويبني بعضهم المساجد وهم من أكثر الناس عونا للحاكم الظالم ، وتنفيذا لأوامره الجائرة في حق الإسلام ودعاته "[1] .

اللطيفة الثامنة عشر :

" للداعية أن يستغل صلته بذي السلطان لمصلحة الدعوة والدعاة ، كما استغل مؤمن آل فرعون صلته بفرعون إذ كان ابن عم له ، فانطلق يتكلم بكل صراحة أمام فرعون وملئه مبينا لهم أحقية دعوة موسى عليه السلام .

وهكذا ينبغي للداعية أن يستغل علاقته بذي السلطان ، سواء كانت علاقة قرابة أو صداقة "[2] .

اللطيفة التاسعة عشر :

حجة الداعية هي سلاحه الذي يواجه به الناس ، فعلى قدر وضوحها وقو ا وتمكنها ، وذلك صادر من صدق صاحبها ، يكون القبول لها ، ولهذا فإن مؤمن آل فرعون ذم الذين يجادلون في آيات لله بغير حجة ، فقال : ﴿الَّذِين يجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بِغير سلْطَانٍ أَتاهم﴾ وهذا يدل على أنه كان يطلب منهم حجة واقعية يردون ا عليه ، كما يدل على أن الداعية عليه أن يجادل بحجة بينة ، وبرهان صادق يبتعد فيه عن التهويل والظن ، معتمدا على خبر من الله أو من رسوله ﷺ ، ومن كان هذا سبيله فإنه يتعذر إبطال حجته ، كما حصل لفرعون وقومه مع هذا الرجل المؤمن .

اللطيفة العشرون :

---

(١) المستفاد من قصص القرآن ٣٦٥/١ .

(٢) المستفاد من قصص القرآن ٣٧٨/١ .

توحيد الله هو العقيدة الإسلامية التي يدعو الدعاة لها ، ويعجز الإنسان وهو يعدد خصالها ، فأجمل مؤمن آل فرعون كثيرا من فضائل التوحيد بكلمة جامعة ، فقال عن التوحيد : ﴿ويا قَومِ ما لِي أَدعوكُم إِلَى النجاةِ﴾ مما يدل على أن الداعية يذكر لقومه في دعوته ما يستهوي فطرهم كذكر النجاة والفلاح والسعادة ، إضافة لما يفيده اللفظ من أن التوحيد يشمل جميع معاني النجاة في الدنيا والآخرة .

وبالمقابل يذكر في تحذير قومه ما ترفضه الفطر السليمة كذكر النار أو الهلاك أو الخسارة .

اللطيفة الحادية والعشرون :

الدعاة كسائر البشر ، من صفا م سرعة القنوط حينما يتوالى عليهم الرد والطرد ، فجاءت الآيات لتحمل الداعية على الكمال عن طريق تربيته على تزكية نفسه ، ومن ذلك أن الداعية عليه ألا يقَنط قومه من رحمة الله ، وأن يفتح لهم باب الأمل ، ويقرب لهم التوبة مهما رأى من مظاهر الانحراف ، فهذا الرجل المؤمن من آل فرعون على شدة ما رأى من مظاهر الكفر والإعراض عن دين الله ومع ذلك قال : ﴿وأَنا أَدعوكُم إِلَى الْعزِيزِ الْغفارِ﴾ .

وقد نص كثير من المفسرين على أن سبب اختياره اسم الله ﴿الْغفارِ﴾ هو إشارة إلى ما تقدم ذكره .

اللطيفة الثانية والعشرون :

مما يزيد حسن الداعية هدوؤه ، والذي يتبين من خلال إنصاته ، وحسن إصغائه لكلام خصمه ، فيسمعه بتؤده ويتأمله ؛ ليعرف طريق رده ، فقول الرجل المؤمن من آل فرعون عن الأصنام ﴿لَيس لَه دعوةٌ فِي الدنيا ولا فِي الْآخِرةِ﴾ يدل على أنه سمع حجتهم في عباد م وتأملها ، ورأى عباد م ، فقال كلمته العظيمة عنها ، والتي تدل على أنه عرف حقيقتها .

اللطيفة الثالثة والعشرون :

ما كان الثبات الذي حصل عليه مؤمن آل فرعون ليحصل لولا ما عند الرجل من أعمال قلبية كانت زادا له ؛ لأ ا جزء من الإيمان ؛ ولأ ا مأمن له عند الفتن أو الخوف ،

فقد قال مؤمن آل فرعون: ﴿وأُفَوض أمِري إلى الله﴾ وهي تدل على أنه حصل له تهديد وتخويف لما قويت حجته عليهم ، وبالمقابل أيضا تدل على أن الرجل المؤمن فزع إليها لما خاف شرهم ، فكأنه قال : لا يضرني مكركم وكيدكم و تهديدكم ؛ لأني أسلم أمري لله ، وأتوكل عليه .

وفي هذه القصة كثير من اللطائف إلا أني تركت الكثير لأنه سبق تقريره في قصص أخرى .

المبحث العاشر

نذر الجن

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : تفسير الآيات الواردة في شأن نذر الجن .

المطلب الثاني : اللطائف الدعوية المستنبطة من الآيات .

المطلب الأول

تفسير الآيات الواردة في شأن نذر الجن

قال تعالى :﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾[١] .

فقوله :﴿وإِذْ صرفْنا إِلَيك نفَراً مِن الْجِن يستمِعونَ الْقُرآنَ﴾ " الصرف : الميل[٢] ، والمعنى " أي : أملناهم نحوك[٣] ، واختلف العلماء في هؤلاء الجن على النحو الآتي :

١ ـ في سبب انصرافهم إلى النبي ﷺ :

فقيل : " حضروا رسول الله ﷺ يتعرفون الأمر الذي حدث من قبله ما حدث في السماء ، ورسول الله ﷺ لا يشعر بمكا م .

وقال آخرون : بل أُمر نبي الله ﷺ أن يقرأ عليهم القرآن ،وأ م جمعوا له بعد أن تقدم الله إليه بإنذارهم ، وأمره بقراءة القرآن عليهم "[٤].

والأمران محتملان ، والأظهر القول الثاني .

٢ ـ وفي عددهم :

اختلف فيه اختلافا كبيرا ، فقيل : سبعة ، وقيل : تسعة[٥] ، وقيل : اثنا عشر ألف[٦] ، ولم يصح من ذلك شيء[٧] ، إلا أن دلالة لفظ ﴿ نفَراً﴾ تقتضي القلة .

وقد " أطبق المحققون على أن الجن مكلفون "[٨] والآيات تشهد لذلك .

---

(١) الأحقاف : ٢٩ .

(٢) لسان اللسان ذيب لسان العرب ، تم ذيبه بعناية : المكتب الثقافي لتحقيق الكتب ، بإشراف الأستاذ عبدأ علي مهنا ،مادة(صرف) :١٨/٢،{دار الكتب العلمية،بيروت:بدون } .

(٣) التسهيل لعلوم الت يل ٤٥/٤ .

(٤) تفسير الطبري ٣١/٢٦ .

(٥) تفسير الطبري ٣٠/٢٦ .

(٦) الدر المنثور ٤٥٣/٧ .

(٧) المحرر الوجيز ١٠٤/٥ .

(٨) التفسير الكبير ٢٧/٢٨ .

قوله :﴿ فَلَمَّا حضروه قَالُوا أَنصِتوا ﴾" الضمير في حضروه يحتمل عوده إلى القرآن ، ويحتمل عوده إلى النبي ﷺ ، والأول أولى[1] لأنه أقرب مذكور .

وإنصا م حين سماع القرآن " فيه تأدب مع العلم ، وتعليم كيف يتعلم "[2] ، وبيان أن التأثر بالقرآن وعقل معانيه على قدر الإنصات والتدبر .

وقوله :﴿فَلَمَّا قُضِي ولوا إِلَى قَومِهم منذِرِين﴾ أي : " فلما فرغ من القراءة ولوا إلى قومهم منذرين ، ورجوعهم إلى قومهم ينذرو م لا يكون إلا بعد إيما م ، لأ م لا يدعون غيرهم إلى استماع القرآن والتصديق به إلا وقد آمنوا "[3] ، كما أ م جمعوا بين الإيمان والدعوة .

وفي الآية سرعة استجابة الجن لأمر الله سبحانه وتعالى ، قال قتادة رحمه الله : " ما أسرع ما عقل القوم "[4] .

كما أن فيها " توبيخا لمشركي قريش ، أي : إن الجن سمعوا القرآن ، فآمنوا به ، وعلموا أنه من عند الله ، وأنتم معرضون مصرون على الكفر "[5] .

" وقد استدل ذه الآية على أنه في الجن نذر ، وليس فيهم رسل ، ولا شك أن الجن لم يبعث الله تعالى منهم رسولا "[6] .

وقال تعالى :﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[7] .

فقوله :﴿قَالُوا يا قَومنا إِنا سمِعنا كِتاباً﴾ نادوا قومهم بلفظ فيه تحبب لهم ، وشفقة عليهم ، ومرادهم ذا الكتاب القرآن .

وقوله :﴿أُنزِلَ مِن بعدِ موسى﴾ أي هذا القرآن الكريم أنزل من بعد التوراة التي

---

(١) فتح القدير ٢٥/٥ .
(٢) المحرر الوجيز ١٠٥/٥ .
(٣) التفسير الكبير ٢٨/٢٨ .
(٤) المحرر الوجيز ١٠٥/٥ .
(٥) تفسير القرطبي ٢١٠/١٦ .
(٦) تفسير ابن كثير ٥٢/١٣ .
(٧) الأحقاف : ٣٠ .

أنزلت على موسى عليه السلام ، وتخصيصهم موسى بالذكر دون عيسى عليه السلام قيل : " كانوا على اليهودية "[١] ، وهذا يحتاج إلى دليل أظهر من ذلك .

وقيل:" يحتمل أ م لم يكونوا سمعوا بذكر عيسى عليه السلام "[٢]،وأجيب أن" فيه بعد،فإن اشتهار أمر عيسى عليه السلام وانتشار أمر دينه أظهر من أن يخفى ، لا سيما على الجن "[٣] .

وأرجح الأقوال" أن عيسى أُنزِلَ عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم ، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة،فالعمدة هو التوراة"[٤].

قوله :﴿مصدقاً لِما بين يديهِ﴾ أي : أن القرآن مصدق لكتب الأنبياء قبله[٥] ، وهذا دليل على أن أمور العقيدة عند جميع الأنبياء متفقة ، ولا اختلاف بينها ، يصدق بعضها بعضا .

وقوله :﴿يهدِي إلى الْحق وإلى طَرِيقٍ مستقِيمٍ ﴾ وصفوا القرآن بثلاثة أوصاف :

الوصف الأول : مصدق لكتب الأنبياء قبله .

الوصف الثاني : يهدي إلى الحق ، والمراد به الإسلام[٦] .

الوصف الثالث : يهدي إلى طريق مستقيم .

والتغاير بين الوصفين ؛ هدايته للحق ، وهدايته للطريق المستقيم ، يدل على التغاير في المعنى " فقوله يهدي إلى الحق ، أي : في الاعتقاد والإخبار، وقوله طريق مستقيم ، أي : في الأعمال ، فإن القرآن مشتمل على شيئين ؛ خبر وطلب ، فخبره صدق ، وطلبه عدل "[٧] .

وقال تعالى :﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ

---

(١) تفسير ابن زمنين ٢٣٠/٤ .
(٢) تفسير السمعاني ١٦٣/٥ .
(٣) روح المعاني ٣٢/٢٦ .
(٤) تفسير ابن كثير ٥٣/١٣ .
(٥) التفسير الكبير ٢٨/٢٨ .
(٦) تفسير الجلالين ص٦٧١ .
(٧) تفسير ابن كثير ٥٣/١٣ .

﴿وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[١] .

فقوله:﴿يا قَومنا أَجِيبوا داعِي اللهِ وآمِنوا بِهِ﴾ قيل : بأن الداعي هو النبي[٢] ﷺ ،وهذا يدل على أنه ﷺ مبعوث للجن أيضا[٣]،وقيل:بأن الداعي هو القرآن[٤].

ولا تعارض بين القولين ، فالنبي ﷺ داع بالقرآن الكريم إلى ربه سبحانه وتعالى ، وبدأ بالترغيب قبل الترهيب ؛ حثا لهم على المبادرة في قبول الإسلام .

والسر في تسميته داعيا لله ؛ حتى لا يقال :إنه أتى بهذا الأمر من عنده ، ولئلا يفهم أن إجابته مخير فيها .

وقوله :﴿يغفِر لَكُم مِن ذُنوبِكُم ويجِرِكُم مِن عذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ذكر لهم جزاء الإيمان وهو المغفرة والنجاة من العذاب الأليم .

واختلف أهل التفسير في ﴿مِن﴾ : فقيل : تبعيضية ، والمعنى على هذا : يغفر لكم الذنوب التي فعلتم قبل الإسلام ، وأما التي بعد الإسلام فهي في مشيئة الله ، وقيل معنى التبعيض : أن المظالم لا تغفر[٥] .

وقيل بأن ﴿مِن﴾ :لابتداء الغاية ، والمعنى : يقع ابتداء الغفران بالذنوب ، ثم ينتهي إلى غفران ما صدر عنكم ، من ترك الأولى والأكمل[٦] .

" وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة ، وإنما جزاء صالحيهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة ، ولهذا قالوا هذا في هذا المقام ، وهو مقام تبجح ومبالغة ، فلو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا لأوشك أن يذكروه ، والحق أن مؤمنيهم كمؤمني الإنس يدخلون الجنة كما هو مذهب جماعة من السلف "[٧] ، وذكر هذا الجزاء لهم لا ينافي غيره .

---

(١) الأحقاف : ٣١ .
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/٤٥ .
(٣) التفسير الكبير ٢٨/٢٨ .
(٤) تفسير أبي السعود ٨/٨٩ .
(٥) التسهيل في علوم التنزيل ٤/٤٥ .
(٦) التفسير الكبير ٢٨/٢٩ .
(٧) تفسير ابن كثير ١٣/٥٤ .

وقال تعالى :﴿وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[١] .

فقوله :﴿ومن لا يجِب داعِي اللهِ ﴾ هذا من كلام نذر الجن على الصحيح من قولي أهل العلم[٢] ، لأن المقام يستدعي ذلك ، حيث ذكروا لهم في الآية المتقدمة أسلوب الترغيب ، فمن تناسق العبارة أن يكون أسلوب الترهيب من كلامهم أيضا .

قوله :﴿فَلَيس بِمعجِزٍ فِي الْأَرضِ ولَيس لَه مِن دونِهِ أَولِياءُ﴾ ذكروا عقوبة من لا يجيب داعي الله ، وأنه لا يعجز الله في الأرض ، " والمعجز الذاهب في الأرض الذي يبدي عجز طالبه ولا يقدر عليه "[٣] .

ومعنى الآية على هذا " ومن لا يجب داعي الله فليس بِمعجِزٍ ربه ربه إذا أراد عقوبته على تكذيبه داعيه وتركه تصديقه وإن ذهب في الأرض هارباً ؛ لأنه حيث كان فهو في سلطانه ، وقبضته ، وليس له نصراء ينصرونه من الله ، إذا عاقبه ربه على كفره به وتكذيبه داعيه "[٤] .

وأعاد الداعي ولم يكتف بالضمير " للمبالغة في الإيجاب بزيادة التقرير وتربية المهابة وإدخال الروعة "[٥] .

وقيد الإعجاز بالأرض مع أنه ظاهر";لتوسيع الدائرة ، أي : فليس بمعجز له تعالى بالهرب ، وإن هرب كل مهرب من أقطارها أو دخل فى أعماقها "[٦] .

وأعاد النفي مرتين ﴿لَيس﴾ ؛ لتأكيد عجز من لا يجيب الداعي .

وقوله :﴿أُولَئِك فِي ضلالٍ مبِينٍ﴾ أي ضلالهم في ترك إجابة الداعي بين وظاهر لكل أحد .

---

(١) الأحقاف : ٣٢ .

(٢) المحرر الوجيز ١٠٦/٥ .

(٣) المحرر الوجيز ١٠٦/٥ .

(٤) تفسير الطبري ٣٥/٢٦ .

(٥) تفسير أبي السعود ٨٩/٨ .

(٦) تفسير أبي السعود ٨٩/٨ .

المطلب الثاني

اللطائف الدعوية المستنبطة من الآيات

الآيات الواردة في قصة نذر الجن تشتمل على كثير من اللطائف والفوائد والدرر ، وسأقتصر – تمشيا مع موضوع بحثي – على اللطائف التي تختص بجانب الدعوة إلى الله ، ومن ذلك ما يلي :

اللطيفة الأولى :

أوضحت الآيات قضية دعوية تتعلق بتبليغ الدعوة ، وهي ألا يتقيد الداعية في تبليغ الدعوة عند حدود معينة، فقد تأتي الاستجابة من حيث لا يقصدها الإنسان، فقوله : ﴿صرفْنا﴾ تدل على أن نذر الجن لم يقصدوا استماع القرآن ، وإنما بحثوا عن سبب منع استراق السمع ، فسمعوا القرآن يتلى ، وعلى هذا القول فإن ذلك يدلنا على أن الدعاة ينبغي لهم عدم كراهة ما ظاهره شر بالنسبة لهم فقد يأتي الله بالخير من جهته .

كما أ ا تدلنا على أن الدعاة عليهم نشر الخير أبدا في كل زمان ومكان ، فقد يتأثر من يدعو للشر فينقلب داعية إلى ربه ، كما هو حال الجن ، فلم يقصدوا سماع القرآن ولم يقصد النبي ﷺ إسماعهم ، فسمعوا فتأثروا فعادوا دعاة إلى الله .

اللطيفة الثانية :

استماع الجن للقرآن يدل على أن الإنسان عليه ألا يزهد في أمور الخير ، ومواطن الذكر ومجال العلم ، فقد يكون تأثره وتغيره من تلك ا الس ولو لم يقصد التأثر في الأصل .

فنذر الجن لما سمعوا قرآنا يتلى ، عليه طلاوة وله حلاوة لم يزهدوا فيه ، فاستمعوه ، فكان عاقبة أمرهم خيرا .

اللطيفة الثالثة :

التأثر بالقرآن يكون على قدر الإنصات والاستماع ، والجن جمعوا بينهما ، فحصل لهم الانتفاع مباشرة ، وهذا مفتاح التدبر ، والاستماع بداية الإنصات ، والإنصات استماع وزيادة حضور قلب .

لهذا على الدعاة أن يكون لهم نصيب كاف من زاد القرآن ، يتخذونه زاداً لهم في دعو م ، كما كان زاداً للجن في إنذارهم ، ينطلقون في دعو م منه كما انطلق منه إخوا م من نذر الجن .

" ومن المعلوم أن القلب إذا أحب شيئا تعلق به واشتاق إليه وشغف به وانقطع عما سواه ، والقلب إذا أحب القرآن تلذذ بقراءته ، واجتمع على فهمه ووعيه فيحصل بذلك التدبر المكين ، والفهم العميق وبالعكس إذا لم يوجد الحب فإن إقبال القلب على القرآن يكون صعبا ، وانقياده إليه يكون شاقا لا يحصل إلا بمجاهدة ومغالبة ، وعليه فتحصيل حب القرآن من أنفع الأسباب لحصول أقوى وأعلى مستويات التدبر "(١) .

اللطيفة الرابعة :

قول نذُر الجن لبعضهم البعض ﴿أنصِتوا ﴾ يدل على أن الدعاة عليهم التواصي فيما بينهم على الخير ؛ لأن أثر النفع التعاوني أكثر من النفع الجزئي ، وهو ما يقود الدعاة إلى الاجتماع على إنشاء المشاريع الدعوية ، وتكامل مفردات العمل الدعوي فيما بينهم ، فيقوى العمل ويمتد الأثر ، والتعاون على البر والتقوى من مقاصد الشريعة الإسلامية ، وأدلته متوافرة .

اللطيفة الخامسة :

إن من أعظم ما تميز به نذر الجن إنذار الجن لأقوامهم بعد سماعهم القرآن مباشرة مما يدل على أن الدعاة عليهم سرعة المبادرة في أداء الدعوة ، وعدم التواني في تبليغها .

فبعد سماعهم القرآن وبعد انقضائه ولوا إلى قومهم منذرين ، وهذا يدل على أن هم الدعوة يحمل صاحبه على الإسراع في تبليغ الدين والمبادرة .

اللطيفة السادسة :

أظهرت الآيات خاصية أخرى تميز ا نذر الجن ، حيث لم ينطلقوا إلى قومهم فرادى ، فنذر الجن لما سمعوا القرآن رجعوا جميعا إلى قومهم منذرين ، فلم يحصل تواكل عندهم في الدعوة ، وإنما الجميع أدى واجب الإنذار ، وهذا يدل على أن الجميع ألزم نفسه

---

(١) مفاتح تدبر القرآن والنجاح في الحياة ، ١٠مفاتيح لتحقيق التدبر الأمثل ، د خالد اللاحم :ص٢٠،{بدون دار نشر : ١٤٢٥هـ } .

بالدعوة ، وجعل الآيات التي سمعها تتلى من النبي ﷺ كأ ا تخاطبه وحده ، واشتغل بخلاص نفسه من تبعات التكليف .

اللطيفة السابعة :

قول نذر الجن عن طريق الإسلام بأنه :﴿طَرِيقٍ مستَقِيمٍ﴾ أي " سبيل مطروق قد مرت عليه الرسل قبله ، وإنه ليس بدعا "(١) ، فيه إشارة إلى أن الدعاة يكمل آخرهم ما بدأه أولهم ، وما أصاب بعضهم من النصب والأذى سيصيب البعض الآخر ، وأن سبيل الدعوة سبيل مطروق معروف المعالم .

اللطيفة الثامنة :

استجابة نذر الجن للدعوة الإسلامية تفيد معاشر الدعاة في أ ا درس عملي تطبيقي في باب الاستفادة من غيرهم،فلا يغلق الداعية الباب على نفسه ، ولا ييأس من طلب الاستفادة من غيره،وهذا على القول بأن الجن لم يقصدوا استماع القرآن في بداية الأمر ولكنهم سمعوه وهم في طريق بحثهم عن سبب منع الاستراق من السماء .

والدعوة الإسلامية اليوم في أشد الحاجة للاستفادة من جميع فئات ا تمع ، وطاقاته المعطلة وعاداته المتنوعة .

اللطيفة التاسعة :

دلت الآيات على تحديد مهمة الدعاة وأ ا دعوة الناس إلى ر م،فالله الداعي ،والرسل وأتباعهم يدعون الناس إليه،ولهذا قال نذر الجن تحقيقا لوظيفة الدعوة:﴿أَجِيبوا داعِي الله﴾ فهم يدلون الخلق على ر م ، يرشدون من ضل الطريق ، ويذكرون من غفل ، لا يأخذون على ذلك مالا وإنما ابتغاء الأجر من ر م .

---

(١) بدائع الفوائد ٢٥٥/٢ .

المبحث الحادي عشر

آسية امرأة فرعون

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : الآيات الواردة في شأن آسية امرأة فرعون .

المطلب الثاني : اللطائف الدعوية المستنبطة من الآيات .

المطلب الأول

تفسير الآيات الواردة في شأن آسية امرأة فرعون

قال تعالى :﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1] .

فقوله :﴿وضرب الله مَثَلاً لِلذِين آمنوا﴾ ضرب الله امرأة فرعون مثلا للمؤمنين ليبين أن المؤمن لا يضره ذنب غيره ، ولا ينقص من قدره عند الله ، كما أن طاعة المؤمن لا تنفع قريبه الكافر .

قوله :﴿ امرأت فِرعونَ﴾ هي آسية بنت مزاحم ، ثبت في السنة النبوية فضلها ، في قوله ﷺ " كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران "[2] ، " ومن فضائل آسية امرأة فرعون أ ا اختارت القتل على المُلْكِ ، والعذاب في الدنيا على النعيم الذي كانت فيه ، وكانت فراستها في موسى عليه السلام صادقة حين قالت قرة عين لي "[3] .

وقوله :﴿إِذْ قَالَت رب ابنِ لي عِندك بيتاً فِي الْجنةِ﴾ طلبت من ر ا أن يبني لها بيتا عنده في الجنة ، و"لقد اختارت امرأة فرعون في طلبها حسن الجوار قبل الدار "[4] .

وهذا القول منها يدل على أ ا لاقت من العذاب الشيء الكثير ؛ لأن بيت فرعون فيه من مظاهر الترف والزخرف ما يليق بطغيان فرعون ، ومع ذلك تركته وزهدت فيه .

كما يدل على أن فرعون طردها من البيت ، فأصبحت بلا مأوى ولا بيت يظلها ، ولم يستطع أحد أن يؤويها بعد غضب فرعون عليها ، فجاء طلبها مناسبا لحالتها .

وقوله :﴿عِندك بيتاً فِي الْجنةِ﴾ يدل على علو الله على خلقه عند أهل السنة

---

(١) التحريم : ١١ .

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب قول الله " وضرب الله مثلا للذين آمنوا " برقم (٣٢٣٠)١٢٥٢/٣ ، وأخرجه مسلم ، كتاب الفضائل ، باب فضائل خديجة رضي الله عنها ، برقم (٢٤٣٠) ١٨٨٦/٤.

(٣) فتح الباري ٤٤٨/٦ .

(٤) أضواء البيان ٢٢٥/٨ .

والجماعة ، وأدخل الزمخشري رحمه الله جملة اعتزالية في تفسيره لها ، فقال عفا الله عنه " فإن قلت : ما معنى الجمع بين عندك ، وفي الجنة ، قلت : طلبت القرب من رحمة الله ، والبعد من عذاب أعدائه "[(١)] ، ومثله قال الرازي رحمه الله وعفا عنه ، والذي يرد أحيانا على اعتزاليات الزمخشري ، لكنهما توافقا هنا ، لأن جميع المذاهب الكلامية تنكر علو الله ، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا .

فلم يجعلا القرب قربا حقيقيا من الله في الجنة كما هو ظاهر الآية ، وإنما تأولاه بالقرب من رحمة الله ، والبعد عن أعدائه ، ولعمر الله لئن استطاعوا أن يتأولوا هذه الآية ، فهل سيتأولون الأدلة الأخرى والتي بلغت ألف دليل على علو الله ؟[(٢)] .

وقوله :﴿ونجِني مِن فِرعونَ وعمِلِهِ﴾ اختلف المفسرون في المراد بعمل فرعون : فقيل : كفره[(٣)] ، وقيل : جِماعه[(٤)] ، وقيل : من نفس فرعون الخبيثة ، وسلطانه الغشوم ، وخصوصا من عمله وهو الكفر وعبادة الأصنام والظلم والتعذيب بغير جرم "[(٥)] وهذا هو الراجح لأن كل ذلك عند فرعون ، ومما يستحق أن يستعاذ بالله منه .

وقوله :﴿ونجِني مِن الْقَومِ الظالِمِين﴾ قيل : من تعييرهم وشماتتهم ، وهذا القول وإن كان من عمل الظالمين ، وهو بالفعل مؤذ يستحق الاستعاذة بالله منه إلا أن الأظهر أن المعنى أشمل من التعيير والشماتة ، ولهذا طلبت من ر ا أن يعيذها من القوم الظالمين .

وامرأة فرعون لما طلبت النجاة من فرعون ذكرت عمله ، ولما طلبت النجاة من القوم الظالمين لم تخص عملهم ، والسر في هذا أن عمل هؤلاء الظالمين ما هو إلا تنفيذ لأوامر فرعون ، فاستعاذت من عمل الآمر ، واستعاذت من الأتباع لأ م منفذون فقط .

---

(١) الكشاف ٥٧٦/٤ .

(٢) انظر : الفتاوى ١٢١/٥ ، وإعلام الموقعين عن رب العالمين ،أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن القيم الجوزية ، تحقيق طه عبد الرؤوف :٣٠٣/٢،{ دار الجيل،بيروت: ١٩٧٣م} .

(٣) تفسير مقاتل ٣٧٩/٣ .

(٤) الدر المنثور ٢٢٩/٨ .

(٥) الكشاف ٥٧٧/٤ .

المطلب الثاني

اللطائف الدعوية المستنبطة من الآيات

الآيات الواردة في قصة آسية امرأة فرعون تشتمل على كثير من اللطائف والفوائد والدرر ، وسأقتصر – تمشيا مع موضوع بحثي – على اللطائف التي تختص بجانب الدعوة إلى الله ، ومن ذلك ما يلي :

اللطيفة الأولى :

ضرب الله امرأة فرعون مثلا يقتدي به أهل الإيمان ، وهذا يدل على أهمية القدوة في التربية الإيمانية وضرورة إبرازها ومحاولة الإقتداء فيها ، والدعوة بالقدوة إحدى الوسائل الدعوية التي تجمع بين التربية والاستمرارية فيها .

اللطيفة الثانية :

استجابة امرأة فرعون لدعوة موسى عليه السلام تدل على أن " قلعة فرعون مخترقة إيمانيا ، فامرأة فرعون خرجت عليه ، وآمنت بموسى عليه السلام، فعلت ذلك وهي أقرب الناس إلى فرعون ، وهذا من مكر الله به "(١) .

وهذا يفيد الدعاة في اختراق الصف الكافر ، وإيصال الدعوة إلى مواطن تفاجئ الكفار في استجابتها ، كما يدل على تركيز الدعوة على النساء في ذلك الصف ؛ لسرعة استجابتهن ؛ واستثمارا للعاطفة لديهن ، ولأن أمرهن أكثر سرية ، فأمورهن يعملنها بالسر في مثل هذه الحالات بدافع الخوف من الغير .

اللطيفة الثالثة :

الآيات تربي الدعاة على التمسك بدين الله ، وترك زخرف الحياة الدنيا ، وعدم الركون إليها والاغترار ا ، فمن البداهة أن يكون بيت آسية رضي الله عنها ، بيتاً فارهاً وقصرا مشيدا ، كما تتمتع بالخدم والأموال وتلبية الرغبات ، ونختصر القول في نعيمها

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، تأليف صلاح الخالدي :٤٨٣/٢،{ط١،دار القلم،دمشق: ١٤١٩هـ } .

بأن كل ما يريده فرعون يتحقق لها طلبه .

ومع كل هذا تركته لله لما وقر الإيمان في قلبها وذاقت لذته ، فلم تعدل به ، مع أني أظن أ ا على يقين في نتيجة قرارها باتباع موسى عليه السلام ، وأنه سيكون القتل ، فهي أدرى الناس بفرعون وشأنه .

فالدعاة عليهم ألا يخلدوا للراحة في تبليغ دين الله ولو جرهم ذلك إلى فوات بعض الملذات الدنيوية عليهم .

اللطيفة الرابعة :

العذاب الذي لحق آسية رضي الله عنها ليس بمستغرب ، إلا أن المستغرب الثبات والإصرار الذي قدمته آسية رضي الله عنها ، وفي ذلك درس للدعاة جميعا في الإصرار والثبات على دين الله ، وجعل خيار التنازل من آخر القرارات مع التفريق بين درجات التنازل .

ومن تأمل سيرة النبي ﷺ وصحابته الكرام في بداية تبليغ دين لله ، ظهر له صدق ذلك ، حتى أن أبا سفيان أقر بذلك أمام هرقل لما سأله هرقل ، فقال : " هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه ؟ " ثم في آخر الحديث ، قال هرقل : وسألتك هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه بعد أن يدخل فيه ، سخطة له ؟ فزعمت أن لا ، وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب "(١) .

اللطيفة الخامسة :

آسية رضي الله عنها امرأة ضعيفة عند سلطان طاغية ظالم ، إذا نظرنا لقصتها بالمقياس الدنيوي سنرى أنه لا أثر لها يذكر حين صدعها بإيما ا .

إلا أن الداعية لا ينظر من خلال هذا المنظار ، لأن كل إنسان مسلم يستطيع أن يقدم شيئا مهما كان ضعف قدرته المادية ، فالعمل الذي قامت به آسية رضي الله عنها سينتج عنه آثارا نحن اليوم بأشد الحاجة لواحد منها ، ومن ذلك :

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب التفسير ، باب " قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم " برقم (٤٢٧٨) ١٦٥٧/٤، ومسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل ، برقم (١٧٧٣)١٣٩٣/٣ .

١ ـ في قصتها درس لثبات المؤمنين في زما ا حين يسمعوا بخبرها ، وأ ا صبرت مع قلة حيلتها ، وأتباع موسى عليه السلام أقوى منها على كل حال .

٢ ـ سيتداول الناس قصتها في تلك المدينة ، وكما هي طبيعة الناس حينما يتداولون خبرا من الأخبار ، يناقشونه ، ويحللونه ، ويضيفون إليه آراءهم ، ويستنتجون نتائج ، وهذا محسوب لصالح الدعوة الإسلامية .

٣ ـ كو ا امرأة ضعيفة لا تحتمل كل ما جاءها من عذاب ، يجعل كثيرا من الناس يتعاطفون معها ويعيشون قضيتها وفي المقابل تتزعزع ثقتهم بالرئاسة الظالمة التي تحكمهم ، وهذا أمر لصالح الدعوة أيضا .

٤ ـ أثر قصتها على الحاشية المقربة من فرعون ، والذين هم ألصق الناس ببيت فرعون ، وأعرف الناس بتفاصيل حياته ، وشأن زوجاته ، وأي أمر يؤثر على هذه الطبقة العالية يعتبر لصالح الدعوة الإسلامية .

فنصل ذه اللطيفة إلى أن الإسلام يستطيع أن يخدمه حتى الضعفاء الذين يتوقع الغالبية من الناس أ م لا يملكون شيئا ، وبالتالي لا يعذَرون في تقديم العون لدينهم .

اللطيفة السادسة :

جعل الله قصة آسية رضي الله عنها مثلا للذين آمنوا في هذه الأمة ، وهذا بالتأكيد ما لم يخطر على بال آسية نفسها ، فكان كل أملها بر ا أن يتقبلها الله ، وأن يبني لها بيتا في الجنة ، وهذا يعطينا درسا للدعاة إلى الله أن نتائج الدعوة لا يلزم أن تكون في حال حيا م ، أو أن يتلذذوا برؤيتها ، فمنها ما يظهر بعد مما م ، ومنها ما لا يظهر إلا في أجيال بعيدة عنهم ، كما هو الحال في قصة آسية رضي الله عنها .

اللطيفة السابعة :

الداعية عالي الهمة ، فكما ينظر إلى انفراج كربته الحالية ، وزوال عدوه ، ينظر كذلك إلى أمور فاضلة ، تفوق ذلك بكثير ، فترتفع همته لتصل إلى الجنة ، وهذا هو حال امرأة فرعون رضي الله عنها ، فعندما دعت ر ا ارتفعت همتها فقالت: ﴿رب ابنِ لي عِندك بيتاً فِي الْجنةِ﴾ مع قولها: ﴿ونجِني مِن فِرعونَ وعمِلِهِ ونجِني مِن الْقَومِ الظالِمِين﴾.

المبحث الثاني عشر

الأخ الأوسط في قصة أصحاب الجنة في سورة القلم

وفيها مطلبان :

المطلب الأول : تفسير الآيات الواردة في شأن الأخ الأوسط في قصة أصحاب الجنة .

المطلب الثاني : اللطائف الدعوية المستنبطة من الآيات

المطلب الأول

تفسير الآيات الواردة في شأن الأخ الأوسط في قصة أصحاب الجنة

قال تعالى :﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾[١] .

فقوله :﴿إنا بلَوناهم﴾ أي : اختبرناهم ، والمراد اختبرنا قريشا[٢] ، واختلف في المراد ذا الابتلاء ، فقيل : اختبرناهم بالقحط والجوع[٣]كما اختبرنا أصحاب الجنة بذلك ، وقيل : اختبرناهم بنعمة بعثة النبي ﷺ فكفروا ا كما كفر أصحاب الجنة بالنعم التي رزقناهم[٤] .

وقيل : المراد إنا بلونا هؤلاء المكذبين بالخير وأمهلناهم ، وأمددناهم بما شئنا من مال وولد وطول عمر ونحو ذلك مما يوافق أهواءهم لا لكرامتهم علينا ، بل ربما يكون استدراجا لهم من حيث لا يعلمون ، فاغترارهم بذلك نظير اغترار أصحاب الجنة[٥] ، وهذا القول أشمل ، وهو الأرجح .

وقوله :﴿كَما بلَونا أَصحاب الْجنةِ ﴾ وهي : البستان المشتمل على أنواع الثمار ، والفواكه[٦].

وأصحاب الجنة قيل: إ م كفار ، والجمهور من المفسرين على أ م مسلمون[٧] ، وهو الذي يؤيده سياق الآيات ، ويؤيده توزيع أبيهم صدقته على الفقراء فإنه من أفعال المسلمين .

وقوله :﴿إِذْ أَقْسموا لَيصرِمنها مصبِحِين﴾ المراد : حلفوا ليجذو ا ، وصرام النخل

---

(١) القلم : ١٧ .

(٢) المحرر الوجيز ٣٤٩/٥ .

(٣) انظر : الكشاف ٥٩٤/٤ .

(٤) انظر : التسهيل لعلوم الت يل ١٩٣/٤ .

(٥) تفسير السعدي ص٨٨٠ .

(٦) تفسير ابن كثير ٨٠/١٤ .

(٧) تفسير النسفي ٢٩٦/٤ .

جذ ثمره ، وكذلك في كل شجرة ، و مصبحين معناه : إذا دخلوا في الصباح[1] .

وحلفهم دليل على أ ـم تعاهدوا على ذلك ، وتحديد وقت صرمهم بالصباح دليل على أ ـم تسامروا تلك الليلة وتآمروا على ذلك العمل المشين ، وسبب حلفهم ظنهم أن ذلك يوفر لهم قدراً زائداً على نتاج الأعوام الماضية .

قوله تعالى :﴿ولا يستثْنونَ﴾[2] .

" يحتمل أن يكون المراد : " لا يستثنون من الثمرة شيئا للمساكين ، أي : أقسموا ليصرمن جميع الثمر ولا يتركون منه شيئا ، ويحتمل أن يكون المراد : لا يستثنون لأيما ـم بأن يقولوا : إن شاء الله ، وعلى هذا التفسير يكون قوله ولا يستثنون من قبيل الإدماج ، أي:لمبلغ غرورهم بقوة أنفسهم صاروا إذا عزموا على فعل شيء لا يتوقعون له عائقا"[3].

وقال تعالى :﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾[4] .

فقوله :﴿فَطَاف علَيها طَاِئف ِمن ربك﴾ أي : " عذاب من ربك ، والطائف لا يكون إلا ليلا ، أي : طرقها طارق من عذاب الله "[5] ، كما يفيد لفظ الطواف بأنه أحيط بتلك الجنة بكاملها ، " وعدي ﴿طَاف﴾ بحرف الجر ﴿علَى﴾ لتضمنه معنى : تسلط أو نزل ، ولم يعين جنس الطائف لظهور أنه من جنس ما يصيب الجنات من الهلاك ، ولا يتعلق غرض بتعيين نوعه ؛ لأن العبرة في الحاصل به "[6] .

وقوله :﴿وهم ناِئمونَ﴾ المراد النوم على الحقيقة ، ويؤيده أن الطائف لا يكون إلا ليلا كما تقدم ، كما أنه دليل على أن العذاب أتى الجنة وهم غافلون ، وأن مكر الله يأتي من حيث لا يشعر الإنسان به .

---

(١) المحرر الوجيز ٣٤٩/٥ .

(٢) القلم : ١٨ .

(٣) التحرير والتنوير ٨١/٢٩ باختصار .

(٤) القلم : ١٩ .

(٥) التفسير الكبير ٧٨/٣٠ .

(٦) التحرير والتنوير ٨١/٢٩ .

وقال تعالى : ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾[1] .

فقوله: ﴿الصريم﴾ اختلف المفسرون في الصريم على أقوال كثيرة ، ويمكن حصر الخلاف فيها بأن يقال :

" الصريم فعيل ، فيحتمل أن يكون : بمعنى المفعول ، وأن يكون : بمعنى الفاعل ، وههنا احتمالات ، فعلى معنى المفعول ، يحتمل عدة معان :

أحدها : أ ا لما احترقت كانت شبيهة بالمصرومة في هلاك الثمر ، وإن حصل الاختلاف في أمور أخر ، فإن الأشجار إذا احترقت فإ ا لا تشبه الأشجار التي قطعت ثمارها ، إلا أن هذا الاختلاف وإن حصل من هذا الوجه لكن المشا ة في هلاك الثمر حاصلة .

وثانيها : قال الحسن أي صرم عنها الخير فليس فيها شيء .

وعلى معنى فاعل ، يحتمل عدة معان :

أحدها : الصريم من الرمل قطعة ضخمة تنصرم عن سائر الرمال ، وجمعه الصرائم ، وعلى هذا شبهت الجنة وهي محترقة لا ثمر فيها ولا خير بالرملة المنقطعة عن الرمال وهي لا تنبت شيئا ينتفع به .

وثانيها : الصبح يسمى صريما ، لأنه انصرم من الليل ، والمعنى : أن تلك الجنة يبست وذهبت خضر ا ولم يبق فيها شيء ، من قولهم : بيض الإناء إذا فَرغَه .

وثالثها:أ ا لما احترقت صارت سوداء كالليل المظلم،والليل يسمى صريما "[2].

وكلها أقوال محتملة ، والأرجح أن يكون المراد أ ا كالليل ، حيث أصبحت سوداء بعد ذلك الطائف الذي طاف عليها ، وهذا يشعرنا بأن الطائف فيه نار ، فاحترقت الجنة وأصبحت سوداء كالليل ، وهذا هو قول متقدمي السلف رحمهم الله[3] ، إضافة إلى أنه يشمل الأقوال الأخرى ، فإذا أصبحت الجنة سوداء كالليل فقد أصبحت كالمصرومة ، ولا خير فيها أبداً ولا تنبت شيئاً ، وذهبت خضر ا ونضار ا ، والله أعلم .

---

(١) القلم : ٢٠ .

(٢) التفسير الكبير ٧٨/٣٠ بتصرف .

(٣) انظر : تفسير ابن أبي حاتم ٣٣٦٦/١٠ ، والدر المنثور ٢٥١/٨ .

وقال تعالى :﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾[١] .

فقوله :﴿فتنادوا ﴾ أي " نادى بعضهم بعضاً ، وهو مشعر بالتحريض على الغدو إلى جنتهم مبكرين "[٢] ، ومصبحين أي : في وقت الصباح .

والتنادي فيما بينهم مشعر بأ م جميعاً اتفقوا على أمر السوء الذي بيتوه .

وقال تعالى :﴿أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ﴾[٣] .

فقوله :﴿أن اغْدوا على حرثكُم﴾ هذا هو قولهم الذي تنادوا به ، والحرث المقصود به جنتهم،ولم يحدد القرآن نوعها ،فالأولى أن تبقى على إطلاقها دون تقييد.

وقوله :﴿إنْ كُنتم صارِمين ﴾ هذا من تكملة قولهم ، والصرم هنا ، يحتمل :

" أن يكون من صرام النخل ، ويحتمل أن يريد : إن كنتم أهل عزم وإقدام على آرائكم ، من قولك سيف صارم "[٤] ، والأمران محتملان .

و" غدا بمعنى بكر ، يتعدى بإلى ، وعدي ههنا بعلى ؛ لتضمين الغدو معنى الإقبال ، كما في قولهم يغدى عليه بالجفنة ، ويراح ، أي : فأقبلوا على حرثكم باكرين .

ويجوز أن يكون : من غدا عليه إذا أغار ، بأن يكون قد شبه غدوهم لقطع الثمار بغدو الجيش على شيء ، لأن معنى الاستعلاء والإستيلاء موجود فيه ، وهو الصرم والقطع "[٥].

وقوله :﴿إنْ كُنتم صارِمين﴾ لا يراد منها شرط تعليق ، وإنما المراد استنهاض هممهم للاستعجال في غدوهم ، والله أعلم .

وقال تعالى :﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾[٦] .

أي " يتناجون فيما بينهم بحيث لا يسمعون أحدا كلامهم "[٧] وهذا يدل على أ م

---

(١) القلم : ٢١ .

(٢) التحرير والتنوير ٨٣/٢٩ .

(٣) القلم : ٢٢ .

(٤) المحرر الوجيز ٣٥٠/٥ .

(٥) روح المعاني ٣٠/٢٩ .

(٦) القلم : ٢٣ .

(٧) المصباح المنير ص١١٣٢ .

يمرون في طريقهم إلى جنتهم على بيوت المساكين ، بحيث لو جهروا بأصوا م لسمعوهم.

وقال تعالى :﴿أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ﴾(١) .

هذا هو قولهم الذي يتخافتون به ، " وتأكيد فعل النهي بنون التوكيد ، لزيادة تحقيق ما تقاسموا عليه "(٢) ، وإفراد لفظ المسكين يراد به حقيقته ، فهم لا يريدون دخول أي مسكين ، كما يفيد أن لهذه الجنة بابا يدخل منه،فإذا أغلق لم يتمكن المساكين من الدخول،وفي الآية علم الله بكل شيء .

وهذا القول منهم يدل على أن المساكين كان لديهم عادة في الأعوام الماضية أن يحضروا وقت الحصاد ويرجعوا بما يرضيهم .

وقال تعالى :﴿وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾(٣) .

فقوله :﴿ وغَدوا﴾ من الغدو ، وهو أول النهار .

وقوله :﴿ علَى حردٍ قَادِرين﴾ اختلف المفسرون في الحرد ، على أقوال :

فقيل : الحرد المنع ، يقال حاردت السنة ، إذا قَل مطرها ومنعت ريعها ، وحاردت الناقة إذا منعت لبنها فَقَل اللبن ، والمعنى وغدوا وكانوا عند أنفسهم وفي ظنهم قادرين على منع المساكين .

الثاني : قيل الحرد القصد والسرعة ، يعني وغدوا قاصدين إلى جنتهم بسرعة ونشاط قادرين في زعمهم ، يقولون : نحن نقدر على صرامها ومنع منفعتها عن المساكين .

والثالث : قيل حرد علم لتلك الجنة ، أي : غدوا على تلك الجنة قادرين على صرامها حسب زعمهم ، أو مقدرين أن يتم لهم مرادهم من الصرام ، والحرمان(٤) .

الرابع : من حردت السنة ، إذا منعت خيرها ، وحاردت الإبل ، إذا منعت درها ، والمعنى : وغدوا قادرين على نكد لا غير ، عاجزين عن النفع ، يعني أ م عزموا أن يتنكدوا على المساكين ، ويحرموهم ، وهم قادرون على نفعهم ، فغدوا بحال فقر ،

---

(١) القلم : ٢٤ .

(٢) التحرير والتنوير ٨٣/٢٩ .

(٣) القلم : ٢٥ .

(٤) التفسير الكبير ٧٩/٣٠ .

وذهاب مال ، لا يقدرون فيها إلا على النكد والحرمان .

الخامس : وغدوا على محاردة جنتهم وذهاب خيرها ، قادرين بدل كو م قادرين على إصابة خيرها ومنافعها ، أي غدوا حاصلين على الحرمان مكان الانتفاع .

السادس : لما قالوا اغدوا على حرثكم وقد خبثت نيتهم عاقبهم الله بأن حاردت جنتهم وحرموا خيرها ، فلم يغدوا على حرث وإنما غدوا على حرد[1] .

السابع : يحتمل أن يكون من التقدير كأ م قد قدروا على المساكين أي ضيقوا عليهم[2].

الثامن : اسم القرية كان حردا[3] .

التاسع : الحرد ، القصد ، والجد ، والمعنى : غدوا على أمر مجتمع قد أسسوه بينهم ، لأن القاصد إلى الشيء جاد مجمع على الأمر[4] .

العاشر:الحرد هو الحنق والغضب ، والمراد : الحنق والغضب على المساكين[5].

الحادي عشر : الحرد الإنفراد ، يقال : حرد عن قومه إذا تنحى عنهم ونزل منفردا ،والمعنى:وغدوا إلى جنتهم منفردين عن المساكين ، ليس أحد منهم معهم[6].

ولا شك أن القول بأنه اسم قريتهم ، أو اسم جنتهم قول مستبعد ، وكثير من الأقوال الأخرى متداخلة ، فقد غدوا إلى جنتهم مسرعين خوفا من دخول المساكين ، قاصدين العزم على منعهم ، منفردين وحدهم وفيهم غضب وحنق على المساكين ، كما هي عادة مانع المسكين ، فإنه يغضب من حضور المسكين ومن طلبه ، وكانوا قادرين على ذلك ، جازمين عليه ، لا يمنعهم منه شيء ، والله أعلم .

وقال تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾[7] .

---

(١) الكشاف ٥٩٥/٤ .

(٢) المحرر الوجيز ٣٥٠/٥ .

(٣) تفسير ابن كثير ٩٦/١٤ .

(٤) تفسير البغوي ٣٨٠/٤ .

(٥) زاد المسير ٧٣٨/٨ .

(٦) روح المعاني ٣١/٢٩ .

(٧) القلم : ٢٦ .

فقوله :﴿فَلَما رأوها﴾ أي جنتهم .
وقوله :﴿قَالُوا إِنا لَضالونَ ﴾ يحتمل أن يكون المراد :
" أ م لما رأوا جنتهم محترقة ظنوا أ م قد ضلوا الطريق ، ويحتمل أ م لما رأوا جنتهم محترقة قالوا إنا لضالون حيث كنا عازمين على منع الفقراء ، وحيث كنا نعتقد كوننا قادرين على الانتفاع ا "[١] ، وعلى كلا الأمرين ففيه شدة عذاب الله سبحانه وعظيم بطشه .
" وإسناد المقالة إلى ضمير الجمع يقتضي أ م قالوه جميعا ، أي : اتفقوا على إدارك سبب ما أصا م ، وأكدوا الكلام لت يل أنفسهم م لة من يشك في أ م ضالون عن طريق الخير لقرب عهدهم بالغفلة عن ضلالهم ، ففيه إيذان بالتحسر والتندم "[٢] .
وقال تعالى :﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾[٣] .
إضراب للانتقال إلى ما هو أهم بالنظر لحال تبييتهم إذ بيتوا حرمان المساكين من فضول ثمر م ، فكانوا هم المحرومين من جميع الثمار ، فالحرمان الأعظم قد اختص م،إذ ليس حرمان المساكين بشيء في جانب حرما م "[٤] .
وجاءت الجملة اسمية قُدم فيها الضمير المنفصل ﴿نحن﴾ ليوافق ما يريدون بيانه من شدة حرما م ، وكأنه لا محروم إلا هم .
وقال تعالى :﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ﴾[٥] .
فقوله :﴿قَالَ أوسطُهم﴾ أي : أعدلهم وخيرهم[٦] ، ويحتمل أن يراد : أوسطهم سنا[٧] ، والأرجح القول الأول ؛ لأن عادة القرآن في استعمال الوسط ، أن يراد به

(١) التفسير الكبير ٧٩/٢٩ .
(٢) التحرير والتنوير ٨٥/٢٩ باختصار .
(٣) القلم : ٢٧ .
(٤) التحرير والتنوير ٨٦/٢٩ .
(٥) القلم :٢٨ .
(٦) تفسير ابن كثير ٩٦/١٤ .
(٧) تفسير أبي السعود ١٦/٩ .

الأفضل[١] .

وقوله :﴿أَلَم أَقُلْ لَكُم لَولا تسبحونَ﴾ هذا يدل على أنه نصحهم في بداية الأمر ، ولعل هذا هو السر في كونه أوسطهم ، وأفضلهم ، والتسبيح الذي أمرهم به يحتمل أن يراد به :

" هلا تستثنون عند قولكم ليصرمنها مصبحين ، وإنما قيل للاستثناء تسبيح : لأن التسبيح في اللغة تنزيه الله عز وجل عن السوء ، والاستثناء تعظيم لله ، وإقرار بأنه لا يقدر أحد أن يفعل فعلا إلا بمشيئة الله "[٢] ، ويحتمل أن يراد " تنزيه الله عن أن يعصى أمره في شأن إعطائهم زكاة ثمارهم "[٣] ، وعلى هذا فالتسبيح على الحقيقة وهو الأولى لموافقة ظاهر اللفظ ، ويؤيده قولهم: ﴿قَالُوا سبحن﴾ .

والاستفهام الذي قاله لهم أوسطهم استفهام تقريري[٤] .

وقال تعالى :﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾[٥] .

فقوله :﴿قَالُوا سبحانَ ربنا إنا كُنا ظَالِمِين ﴾ جواب لم يتضمن إقرارا بأنه وعظهم ، وجملة إنا كنا ظالمين إقرار بالذنب ، والتأكيد لتحقيق الإقرار والاهتمام به ، وحذف مفعول ظالمين ليعم ظلمهم أنفسهم ، بما جروه على أنفسهم من سلب النعمة ، وظلم المساكين بمنعهم من حقهم في المال "[٦] ، وفي الآية توبتهم وندمهم على ما فعلوا ، ورجوعهم عن الخطأ ، واعترافهم به .

وقال تعالى :﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ﴾[٧] .

فقوله :﴿فَأَقْبلَ بعضهم علَى بعضٍ يتلاومونَ﴾ أي:يلوم بعضهم بعضا،يقول هذا لهذا: أنت أشرت علينا بهذا الرأي ، ويقول ذاك لهذا : أنت خوفتنا بالفقر ،ويقول الثالث

---

(١) انظر : التحرير والتنوير ٨٦/٢٩ .
(٢) زاد المسير ٣٣٨/٨ .
(٣) التحرير والتنوير ٨٦/٢٩ .
(٤) التحرير والتنوير ٨٦/٢٩ .
(٥) القلم : ٢٩ .
(٦) التحرير والتنوير ٨٦/٢٩ .
(٧) القلم : ٣٠ .

لغيره : أنت الذي رغبتني في جمع المال"[(١)] فمنهم من" زين ،ومنهم من قبل،ومنهم من أمر بالكف وعذر ، ومنهم من عصى الأمر ،ومنهم من سكت وهو راض"[(٢)] .

وهذا التلاوم من شؤم المعصية ، فإن المعصية تمحق الرزق ، وتورث الاضطراب النفسي .

وقال تعالى :﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾[(٣)] .

فقوله :﴿ قَالُوا يا ويلَنا إنا كُنا طَاغِين ﴾ قالوا ذلك بعد التلاوم الذي حصل بينهم ، وبعد تداول التهم ، وبعد رجوعهم إلى أنفسهم واعترافهم بالذنب ، والمعنى أننا كنا متجاوزين حدود الله[(٤)] .

وقال تعالى :﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْراً مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾[(٥)] .

فقوله :﴿عسى ربنا أَنْ يبدِلَنا خيراً مِنها ﴾ أي : " يعطينا بدلا منها ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة "[(٦)] .

وقوله :﴿إنا إلَى ربنا راغِبونَ ﴾ أي " وعدوا أ م سيرغبون إلى الله ، ويلحون عليه في الدنيا "[(٧)] ، وفي الآية حسن ظنهم بر م ، وسعة رحمة الله لهم .

---

(١) التفسير الكبير ٨٠/٣٠ .
(٢) الكشاف ٥٩٦/٤ .
(٣) القلم : ٣١ .
(٤) انظر : فتح القدير ٢٧٣/٥ .
(٥) القلم : ٣٢ .
(٦) تفسير أبي السعود ١٦/٩ .
(٧) تفسير السعدي ص٨٨٠ .

المطلب الثاني

اللطائف الدعوية المستنبطة من الآيات

الآيات الواردة في قصة الأخ الأوسط في قصة أصحاب الجنة في سورة القلم تشتمل على كثير من اللطائف والفوائد والدرر ، وسأقتصر – تمشيا مع موضوع بحثي – على اللطائف التي تختص بجانب الدعوة إلى الله ، ومن ذلك ما يلي :

اللطيفة الأولى :

لعبت النجوى دورا خطيرا في إضعاف الجانب الدعوي لدى الدعاة ، فجاءت الآيات تدل على خطورة التناجي بالإثم والعدوان ، لأن الأخوة حينما اجتمعوا وتناجوا بينهم في أمر الحصاد وحضور المساكين ، خاضوا في منعهم ، وزين بعضهم لبعض المنع والطرد ، وفكروا في الحلول العملية لذلك ، حتى حدث ما قص الله علينا من خبرهم .

فعلى الدعاة أن يحذروا من النجوى إلا بالبر والتقوى ، استجابة لأمر الله ﴿يا أيها الذِين آمنوا ِإذَا تناجيتم فَلا تتناجوا ِبالْإِثْمِ والْعدوانِ ومعصِيتِ الرسول وتناجوا ِبالْبِر والتقْوى واتقُوا الله الذِي ِإلَيهِ تحشرونَ﴾[1] .

اللطيفة الثانية :

مع تردد الإنسان بالمعصية وتفكيره ا ثم انتقاله إلى مرحلة التخطيط لها والسعي وراءها في كل هذه الأحوال أصيب بالغفلة عن الله ، فعلى الإنسان ألا يغفل عن عقوبة الله له ، وسرعة مكره وشدة انتقامه ، فإ ا قد تأتي من حيث يكون الإنسان آمنا ، فأهل الجنة غفلوا عن عقوبة الله ، وبلغوا غاية الأمن ، كما قال الله عنهم: ﴿وغَدوا علَى حردٍ قَادِرِين﴾[2] .

يظنون أ م يملكون كل الأمر ، فإذا م لا يملكون من الأمر شيئا ، وهذا الشعور في عدم الغفلة يجعل الإنسان حذرا من مكر الله ومن استدراجه ، كثير المحاسبة ، سريع

---

(١) ا ادلة : ٩ .

(٢) القلم : ٢٥ .

الرجوع لربه .

اللطيفة الثالثة :

تدور أحداث القصة على منع أهل الجنة للمساكين ، والوقوف في وجوههم ، والغضب من سؤالهم ، وهذا يحتم على الدعاة الاهتمام بالمساكين والفقراء ، وإعداد البرامج الدعوية لهم ، والعناية بحاجتهم ، ورعاية مستلزما م ، وهذا كله من موجبات رحمة الله للمجتمع الذي يعتني أهله بفقرائه ، ولقد حث الإسلام الكريم على رعاية الجانب الاجتماعي بين المسلمين ، موليا الفقراء الجانب الأكبر في تلمس حاجيا م ، وتوزيع الصدقات بينهم ، ورد الزكاة فيهم .

اللطيفة الرابعة :

قول الله عن أهل الجنة :﴿ولا يستثْنونَ﴾[1] .

معناه عند الجمهور من المفسرين لم يقولوا: إن شاء الله ، وهذا يدل على أن أهل الجنة مسلمون ، كما يفيدنا ذلك في دعوتنا بألا نتعامل مع الأمور بمثالية زائدة ، ونعطي أنفسنا فرصة في عدم تحقق مرادنا ، وقد يزيد الأمر إلى نتائج عكسية غير متوقعة ، مما يعطينا الاطمئنان النفسي والتهيئة النفسية لتقبل الصدمات التي تحدث على أرض الواقع .

ومن ضمن التعامل مع الأمور الدعوية بواقعية أن نربط أمورنا بمشيئة الله ، فيزداد اعتمادنا عليه ، ونتبرأ من حولنا وقوتنا .

اللطيفة الخامسة :

أصحاب الجنة نصحهم أوسطهم وأمرهم بتسبيح الله ، ومع ذلك أصروا ولم يستجيبوا ، وهذا يفيدنا في فقه التعامل مع النصيحة ، وأنه لا يلزم من بذل النصيحة أن يستمع لها وتمتثل فقرا ا ، وإنما قد ينصح الإنسان ولا يستجاب له .

فعلى الدعاة أن يشغلوا أنفسهم في بذل النصيحة للغير ، ويتركوا أمر الاستجابة لله سبحانه .

وحديث تميم بن أوس رضي الله عنه مرفوعا " الدين النصيحة "[2] يؤكد ذلك ، فقد توجه

---

(١) القلم : ١٨ .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان أن الدين النصيحة ، برقم (٥٥) ٧٤/١.

الحديث الكريم إلى الأمر ببذل النصيحة دون ذكر لاستجابة المنصوح من عدمها .

اللطيفة السادسة :

أبرزت الآيات فقها آخر للنصيحة ، فقول أصحاب الجنة بعد هلاك جنتهم :﴿قَالُوا سبحانَ ربنا إنا كُنا ظَالِمِين﴾(1) .

يدل على أن بعض ثمار النصيحة قد يتأخر ظهورها ، فلم يستجيبوا إلا بعد فترة ، كما يفيد الدعاة في بذل النصيحة حتى بعد فوات الأوان ، فأوسطهم ذكرهم بالتسبيح بعد هلاك جنتهم ، فقد يعتقد البعض بأن وقت النصيحة قد انتهى وأ ا لا تجدي شيئا ، إلا أن سلوك أوسطهم أثبت أن هذا الاعتقاد غير صحيح ، وأن المؤمن مطالب ببذل النصيحة حتى بعد حدوث مكروه .

اللطيفة السابعة :

قول أصحاب الجنة :﴿إنا كُنا طَاغِين﴾(2) يفتح لنا معاشر الدعاة أفضلية الاعتراف بالخطأ ، وأهمية ذلك في جانب تصحيح الواقع ، وأنه أول خطوات النقد البناء ، كما أن ذلك أفضل من تلاوم أصحاب الجنة فيما بينهم ، فلم يصلوا مع ذلك التلاوم إلى نتيجة مثلما وصلوا إليها حينما اعترفوا بأخطائهم ، ولهذا قالوا بعد الاعتراف بالخطأ ﴿ عسى ربنا أنْ يبدِلَنا خيراً مِنها ﴾(3) وهذا تصحيح المسار ، وهو النتيجة الفعالة لما قبله ، ويوضحه ما يأتي .

اللطيفة الثامنة :

قول أصحاب الجنة:﴿عسى ربنا أنْ يبدِلَنا خيراً مِنها إنا إلى ربنا راغِبونَ﴾(4)

يفيدنا في زيادة الأمل بالله وإن أخطأنا ، ويحارب اليأس الذي يخيم على الأنفس أحيانا ، ومن أهم اللطائف أنه يفتح الباب أمام الدعاة في منحهم فرصة لتصحيح ما وقعوا فيه من أخطاء ، فأصحاب الجنة ظلموا أنفسهم وظلموا المساكين ، وذلك باعترافهم ، وضاعت

---

(1) القلم : ٢٩ .
(2) القلم : ٣١ .
(3) القلم : ٣٢ .
(4) القلم : ٣٢ .

جنتهم ، فالغالب على من اجتمعت عليه هذه الأمور أن يكابر ، ويحاول تبرير خطئه إلا أن ذلك لم يحدث عند أصحاب الجنة ، ولو حدث لما قال أهل العلم من المفسرين : " إن القوم دعوا الله وأخلصوا ، وعلم الله منهم الصدق ، فأبدلهم ا جنة ، وكل عنقود منها كالرجل الأسود القائم "[1] .

اللطيفة التاسعة :

الذي نصح أصحاب الجنة هو أوسطهم ، وقول الجمهور من المفسرين على أن المراد بالوسط هنا الأفضل والخيار ، وهذا يفيد الدعاة في التمييز بين الناس ، وأن يكون ضابط التفريق بينهم في الم لة بناء على ما لديهم من صفات تستحق التقدير ، لا لمصالح شخصية أو رد الميل الفطري أو تقارب الأرواح ، وإنما يبنى ذلك على صفات الأمانة والقوة .

لأن مثل هذه الأنواع هي التي تنفع في الأزمات ، فأصحاب الجنة زين بعضهم لبعض منع المساكين ، وجامل بعضهم بعضا على حساب دينه ، فلم يصمد في ذلك الموقف إلا ذلك الرجل الذي أطلق القرآن عليه لقب :﴿ أوسطُهم﴾ .

---

(١) البحر المحيط ٣٠٧/٨ .

الفصل الثاني

صفات الدعاة من غير الأنبياء ، ومنهجهم الدعوي من خلال الآيات

وفيها مبحثان :

المبحث الأول : صفات الدعاة من خلال الآيات الواردة فيهم .

المبحث الثاني : منهج الدعاة الدعوي من خلال الآيات .

تمهيد :

سبق لي في المباحث السابقة دراسة أقوال الدعاة ، واستنباط اللطائف الدعوية من الآيات الواردة في شأ م ، فكان من المناسب جدا دراسة صفا م الذاتية التي تمتعوا ا ، والتي استطاعوا من خلالها المضي بمسيرة الدعوة بتضحية عالية ، كما يحسن بي أن أدرس منهجهم الدعوي ، والذي ساروا عليه في تبليغهم دعوة ر م ، وذلك حتى تكون الرؤية عنهم أكثر وضوحا ، لذا سأتناول في هذا الفصل ما يلي :

صفات الدعاة من غير الأنبياء ، ومنهجهم الدعوي من خلال الآيات ، وفيه مبحثان وعدة مطالب وذلك كما يلي :

المبحث الأول : صفات الدعاة من خلال الآيات الواردة فيهم .

المبحث الثاني : منهج الدعاة الدعوي من خلال الآيات الورادة فيهم ، وفيه مطالب :

المطلب الأول : منهج الدعاة من غير الأنبياء في تربيتهم الذاتية لأنفسهم من خلال الآيات .

المطلب الثاني : منهج الدعاة من غير الأنبياء في تبليغ الدعوة من خلال الآيات .

المطلب الثالث : منهج الدعاة من غير الأنبياء في تعاملهم مع غيرهم ، وفيه مقصدان :

المقصد الأول : منهج الدعاة من غير الأنبياء في تعاملهم فيما بينهم في ضوء الآيات .

المقصد الثاني : منهج الدعاة من غير الأنبياء في تعاملهم مع الصادين عن دعوتهم في ضوء الآيات .

المبحث الأول

صفات الدعاة من خلال الآيات الواردة فيهم

اشتملت الآيات التي سبق بيا ا في قصص الدعاة من غير الأنبياء على كثير من الصفات التي ينبغي توفرها في الداعية ، ولها تأثير مباشر على قبول دعوته ، وعلى استمراريته فيها ، وينبغي أن نضع في الاعتبار أن الدعاة اليوم يواجهون صعوبات على المستوى الداخلي للأمة ، وعلى المستوى الخارجي مما يضاعف عليهم المسؤولية ، ومن ذلك " نشؤ الفرق الإسلامية مع الانقسام والتعصب والتحزب لها ، والتعصب للمذاهب ، ومنها التسليم لآراء المشايخ والرؤساء الروحيين ، والاستغناء بآرائهم أحيانا عن المصادر الأصلية من الكتاب والسنة ، ومنها انقياد بعض المسلمين للآراء والمبادئ المستوردة واتخاذها دينا ، أو في مكان الدين ، برغم ما يبدو للعيان من فسادها ، ومنها انتشار الجهل على مستوى الأمة ، ومنها انتشار الفقر المدقع الذي يجعل الداعية يستحي أن يقول شيئا لهؤلاء المساكين حين يرى أن حاجتهم إلى اللقمة أولى من حاجتهم إلى الكلمة ، ومنها الاستهانة بالدين وأهله ، ونبذ فكرة التدين ، والاستسلام لمادية الحياة ، وعزل الدين عن الدولة ، ومنها الضعف الاقتصادي عندما سلبت معظم الميزات والموارد من أهل الوطن ، واستولى عليها أعداؤه .

والصعوبات الخارجية ، منها المعارك الدائرة بين المسلمين وخصومهم ، والتي أنشأت لدى أولئك الخصوم شعورا قويا بالخوف من أية ضة دينية تقوم في ديار الإسلام ، ولذلك كانت خطتهم - ولا تزال - تقوم على كبت أنفاس الدعاة "[1] .

وقد أردت بذكر هذه الصعوبات أن أبين حجم الأمر الملقى على عاتق الدعاة اليوم ؛ حتى نساهم معهم في دعو م ؛ ونخصهم بدعاء في ظهر الغيب بالتوفيق والإعانة ، والسداد ، ولأبين أ ا تحتاج إلى تأمل في الصفات اللازمة ؛ لتحمل أمانة الدعوة للقيام ا خير قيام ، وسأتناول تلك الصفات مكتفيا بما ذكر في الآيات التي وردت في شأ م .

---

(١) كيف ندعو الناس ، عبد البديع صقر :١٥٤-١٥٨باختصار،{الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية : ١٤٠٠هـ } .

١.الإيمان

والمقصود به الإيمان الشرعي ، على المنهج الحق ، منهج أهل السنة والجماعة ، والذي يشمل القول ، والعمل جميعا .

وقد وصف الله الدعاة من غير الأنبياء بالإيمان ، فقال عن فتية الكهف:﴿ ِإنهم ِفتيةٌ آمنوا ِبربهم وزِدناهم هدى﴾(١) .

وقال عن مؤمن آل فرعون :﴿وقَالَ رجلٌ مؤِمن ِمن آلِ ِفرعونَ يكْتم ِإيمانه﴾ (٢) .

بل إن قصص الدعاة من غير الأنبياء التي سبق تفسيرها جميعا هي من الأدلة الدالة على منهج الإيمان عند أهل السنة والجماعة ، خاصة في أكبر قضية فارقة بينهم وبين المناهج المبتدعة ، والتي تتمحور في إخراج الأعمال من مسمى الإيمان .

ووجه الدلالة على ذلك أن هؤلاء الدعاة جميعا ، لو كان الإيمان عندهم مجرد قول يقولونه ، أو اعتقاد يعتقدونه دونما عمل بالجوارح فلم يعتزل فتية الكهف قومهم ؟!

ولأجل من يقوم مؤمن آل يس ذلك الموقف العظيم ، وهو يعلم يقينا بمصيره ؟! .

وكذلك مؤمن آل فرعون لماذا ترك إخفاء إيمانه ، وجادل قومه ؟!

وماالداعي لأن يجوب ذو القرنين مشارق الأرض ومغار ا ؟! ألا يكتفي من الناس بإيمان اللسان ؟! لماذا يقول :﴿وأَما من آمن وعِملَ صاِلحاً فَلَه جزاًء الْحسنى﴾(٣) ؟! .

والجواب البين الصريح في ذلك أ م علموا أن الإيمان الحقيقي هو ما اجتمع فيه القلب مع اللسان مع الجوارح .

" ما قيمة النية الطيبة المخلصة في واقع الحياة ؟! إن الرصيد الحقيقي لهذه النية الطيبة ، هو مقدر ا على مقاومة الهوى من داخل النفس ، والطاغوت من خارجها .

لم يفهم أحد من المسلمين الأوائل أنه يستطيع أن يكون مسلما بالنية الطيبة ، وهو يخالف الإسلام في سلوكه الواقعي ، اعتمادا على أن الله رب القلب ، وأنه مطلع على بواطن النفس ، مدرك للنوايا الطيبة المختفية وراء الأعمال ، وإنما أدركوا أن النية والعمل

---

(١) الكهف : ١٣ .

(٢) غافر : ٢٨ .

(٣) الكهف : ٨٨ .

وجهان لأمر واحد ، لا دلالة لأحدهما بدون الآخر ، النية وحدها بدون عمل تمنٍ فارغ ، لا رصيد له من الواقع ، والعمل وحده المنقطع عن النية الطيبة ، عمل ضائع في السماء والأرض "[1] .

مظاهر صفة الإيمان في حياة الدعاة :

لهذه الصفة في حياة الدعاة مظاهر عديدة ، وهي :

١ ـ إيمانهم العميق بالله سبحانه وتعالى ، وأنسهم بالخلوة به .

٢ ـ معرفتهم بالله حقيقة المعرفة من خلال أسمائه وصفاته .

٣ ـ تعظيمهم لحرمات الله .

٤ ـ شعورهم بمعية الله لهم ،وهو الذي أورث لهم مراقبته في السر والعلن .

٥ ـ ثقتهم برزق الله لهم،فيتحرر الداعية"من الحرص الزائد على الدنيا ، والإلحاح في طلبها،ويتحرر من الشح النفسي،والتقتير المزري،والإمساك المشين "[2].

٦ ـ إيمانهم بالغيب .

٧ ـ بلوغهم الإحسان،فيعبدوا الله كأنهم يرونه ،فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم .

٨ ـ حرصهم على طاعة الله والاستجابة لأوامره .

٩ ـ التماسهم رضا الله حتى في الأمور المباحة .

ولن أستطيع حصر مظاهر الإيمان في حياة الدعاة ، إلا أني أستطيع القول بأن كل ما بعد هذه الصفة فهو مظهر من مظاهر الإيمان .

٢.الإخلاص

" وقد تنوعت العبارات في الإخلاص والصدق ، والقصد واحد :

فقيل : هو إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة ، وقيل : تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين "[3] .

---

(١) هل نحن مسلمون ، محمد قطب :ص١٧-١٨باختصار،{دار الشروق ،القاهرة: ١٤٠٦هـ } .

(٢) إعداد الداعية في سورة فصلت ، الدكتور حمد بن ناصر بن عبد الرحمن العمار :ص١٣٣،{دار إشبيليا ،الرياض: ١٤١٩هـ } .

(٣) المجموع القيم من كلام ابن القيم في الدعوة ، والتربية ، وأعمال القلوب ، منصور بن محمد المقرن :٢٣٥/١،{ط١،دار طيبة ،الرياض: ١٤٢٦هـ } .

وهو أساس الأعمال وأصلها ، وبدونه يكون العمل عبئا على صاحبه في الدنيا ، ووبالا عليه في الآخرة ، ولا أظن أني بحاجة للتدليل على أن الإخلاص أحد الصفات التي تحلى ا الدعاة من غير الأنبياء في القرآن ، فيكفي أن إخلاصهم في دعو م لأقوامهم رفع مكانتهم حتى ذكرهم الله في كتابه .

مظاهر صفة الإخلاص في حياة الدعاة :

لهذه الصفة في حياة الدعاة مظاهر عديدة ، وهي :

١ ـ أ م لا يسعون لمدح المادحين ؛ لأن قلو م معلقة بقبول أعمالهم عند الله ، ولأنه " لا يجتمع الإخلاص في القلب ، ومحبة المدح والثناء ، والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار ، والضب والحوت ، فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولا فأذبحه بسكين اليأس ، وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة ، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص "[(١)] .

٢ ـ لا يثنيهم قدح القادحين،إلا فيما يبصرهم بعيو م ، ومواطن الخلل في دعو م .

٣ ـ يستوي عملهم في الظاهر والباطن ، بخلاف أئمة البدع الذين يسرون مالا يعلنون .

٤ ـ لا يراؤن الناس في دعو م ، كما أ م لا يتركون دعو م ؛خوفا من الناس ، " فإن القلب يعرض له مرضان عظيمان ، إن لم يتداركهما العبد رميا به إلى التلف ولا بد ، وهما : الرياء ، والكبر ، فدواء الرياء بإياك نعبد ، ودواء الكبر إياك نستعين "[(٢)] .

٥ ـ أ م قطعوا أنفسهم من الطمع فيما في أيدي الناس ؛ لأن الطمع لا يجتمع والإخلاص[(٣)] .

٦ ـ أنسهم بالله سبحانه ، وهو سر نجاح الدعاة المخلصين .

" إذ النفس لا بد لها من التعلق ، فلما انقطع تعلقها من هواها وجدت روح الأنس

---

(١) الفوائد ص١٤٩ .

(٢) مدارج السالكين ٥٤/١ .

(٣) ا موع القيم ٢٣٦/١ .

بالله ، وهبت عليها نسماته فريحتها وأحيتها "[1] .

٧ ـ إلحاحهم على ر م بقبول دعو م ؛ لأن " الإلحاح لا يصلح ولا يجمل إلا على الله عز وجل "[2]،وذلك لأ م لا يعتمدون على أنفسهم ولا يثقون بجهدهم كثيرا .

٨ ـ تعاهدهم نيا م دائما ؛ لئلا يدخل عليهم شوائب الإخلاص من حيث لا يشعرون ، فإن الهوى يفسد القلب ، فقد قيل : " تعاهد قلبك ، فإن رأيت الهوى قد أمال أحد الحملين فاجعل في الجانب الآخر ذكر الجنة والنار ليعتدل الحمل ، فإن غلبك الهوى فاستعن بصاحب القلب يعينك على الحمل "[3] .

٩ ـ صدقهم في أقوالهم وأفعالهم ، فإ ا من أثر الإخلاص في قلو م ؛ لأن " أصل أعمال القلوب كلها الصدق ، وأضدادها من الرياء ، والعجب ، والكبر ، والفخر ، والخيلاء ، والبطر ، والأشر ، والعجز ، والكسل ، والجبن ، والمهانة ، وغيرها أصلها الكذب ، فكل عمل صالح ظاهر أو باطن فمنشؤه الصدق ، وكل عمل فاسد ظاهر أو باطن فمنشؤه الكذب "[4] .

١٠ ـ استصغارهم أعمالهم في أعينهم ، فلا يرون أ م عملوا شيئا ذا بال .

١١ ـ لا يذكرون أفعالهم على سبيل الإعجاب والتفاخر ؛ لأن العجب مهلكة للعمل مهما عظم ، فإن المرء قد " يفعل الحسنة فلا يزال يمن ا على ربه ، ويتكبر ا ، ويرى نفسه ، ويعجب ا ، ويستطيل ا ، ويقول فعلت وفعلت ، فيورثه من العجب والكبر والفخر والاستطالة ما يكون سبب هلاكه "[5] .

١٢ ـ يسرون ما يستطيعون إسراره من أعمالهم ونتائجها ؛ لأن " إظهار عمل السر لا يأمن الرياء ، فيمكنه أن يحفظ عمله عن الرياء بإسراره وإخفائه ، وحفظ إخلاص

---

(١) مدارج السالكين ٣١/٢ .

(٢) الآداب الشرعية ، أبو عبد الله محمد بن مفلح المقدسي ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعمر القيام :١٧٠/٢،{ط٢،مؤسسة الرسالة ،بيروت: ١٤١٧هـ } .

(٣) بدائع الفوائد ٧٥٤/٣ .

(٤) الفوائد ص١٣٦ .

(٥) الوابل الصيب ص١٣ .

العمل أولى من المخاطرة به ، وأما عمل العلانية فلا يقدر على التحرز فيه من الرياء "[١] وهذا فيما لا تأمر الشريعة فيه بإعلان العمل .

١٣ ـ لا يوجد لهم عمل إلا ولهم فيه نية صالحة ، كما قال سعيد بن جبير[٢] رحمه الله :" لا يقبل قول إلا بعمل،ولا يقبل عمل إلا بقول،ولا يقبل قول وعمل إلا بنية "[٣].

٣.التضرع لله

فقد أمر الله عباده بقوله تعالى:﴿ادعوا ربكُم تضرعاً وخفْيةً﴾[٤] .

والتضرع شدة الفقر والحاجة ، والمبالغة في السؤال ، والرغبة[٥] ، وأصل الضرع اللين في الشيء[٦] ، فكأن المتضرع لشدة فقره ، ولمبالغته في السؤال قد تخلى عن جميع معاني الشدة ، والكبر ، وبالغ في لينه أثناء سؤاله لله ، كما هي عادة الفقراء حين يستجدون الأغنياء،والعبد المؤمن لربه أفقر الفقراء ،والله سبحانه أغنى الأغنياء.

وقد ظهرت صفة التضرع في دعاء فتية الكهف حين قالوا :﴿ربنا آتِنا مِن لَدنك رحمةً وهيئْ لَنا مِن أمرِنا رشداً﴾[٧] .

وظهر التضرع واضحا في قول آسية امرأة فرعون حينما قالت :﴿رب ابنِ لي عِندك بيتاً فِي الْجنةِ ونجِني مِن فِرعونَ وعملِهِ ونجِني مِن الْقَومِ الظالِمِين﴾[٨] .

مظاهر صفة التضرع في حياة الدعاة :

لهذه الصفة في حياة الدعاة مظاهر عديدة ، وهي :

---

(١) مقاصد الرعاية لحقوق الله عز وجل ، أو مختصر رعاية المحاسبي ، سلطان العلماء عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي ، تحقيق إياد خالد الطباع :ص١٠١،{ط١، دار الفكر،دمشق: ١٤١٦هـ } .

(٢) أبو محمد ، ويقال أبو عبد الله الأسدي الوالبي مولاهم ، أحد الأئمة الأعلام ، الحافظ ، المفسر ، المقرئ ، شهد له بالفضل ابن عباس رضي الله عنهما ، وغيره ،توفي سنة خمس وتسعين للهجرة . انظر : الطبقات الكبرى ٢٥٦/٦-٢٥٨ ، ٢٦٦ ، وسير أعلام النبلاء ، ٣٢٥/٤،٣٢١ .

(٣) اعتقاد أهل السنة ٥٧/١ .

(٤) الأعراف : ٥٥ .

(٥) لسان العرب، مادة (ضرع) ، ٢٢٢/٨ .

(٦) معجم مقاييس اللغة ، مادة (ضرع) ، ٣٩٥/٣ .

(٧) الكهف : ١٠ .

(٨) التحريم : ١١ .

١ ـ كثرة دعاء الله والإلحاح عليه في الطلب .

٢ ـ دعاء الله سرا وخفية ، فإن التضرع اقترن في كتاب الله بالخفاء ، كما قال تعالى :﴿ادعوا ربكُم تضرعاً وخفْيةً﴾[١] فإن في " إخفاء الدعاء فوائد عديدة :

أحدها : أنه أعظم إيمانا ؛ لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع الدعاء الخفي .

ثانيا : أنه أعظم في الأدب والتعظيم ؛ لأن الملوك لا ترفع الأصوات عندهم ، ومن رفع صوته لديهم مقتوه ، ولله المثل الأعلى ، فإذا كان يسمع الدعاء الخفي فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به .

ثالثها : أنه أبلغ فى التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء ، ولبه ، ومقصوده ، فإن الخاشع الذليل إنما يسأله مسألة مسكين ذليل ، قد انكسر قلبه ، وذلت جوارحه ، وخشع صوته ، حتى أنه ليكاد تبلغ ذلته وسكينته وضراعته إلى أن ينكسر لسانه فلا يطاوعه بالنطق ، وقلبه يسأل طالبا مبتهلا ، ولسانه لشدة ذلته ساكتاً ، وهذه الحال لا تأتى مع رفع الصوت بالدعاء أصلاً .

رابعها : أنه أبلغ في الإخلاص .

خامسها : أنه أبلغ في جمعية القلب على الذلة في الدعاء، فإن رفع الصوت يفرقه ، فكلما خفض صوته كان أبلغ في تجريد همته ، وقصده للمدعو سبحانه .

سادسها : وهو من النكت البديعة جدا أنه دال على قرب صاحبه للقريب ، لا مسألة نداء البعيد للبعيد .

سابعها : أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال ، فإن اللسان لا يمل ، والجوارح لا تتعب ، بخلاف ما إذا رفع صوته ، فإنه قد يمل اللسان ، وتضعف قواه ، وهذا نظير من يقرأ ويكرر ، فإذا رفع صوته فإنه لايطول له ، بخلاف من خفض صوته .

ثامنها : أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات .

تاسعها : أن أعظم النعمة الإقبال والتعبد ، ولكل نعمة حاسد على قدرها ، دقت أو جلت ، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة ، فإن أنفس الحاسدين متعلقة ا ، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد .

---

(١) الأعراف : ٥٥ .

عاشرها: أن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه وتعالى متضمن للطلب والثناء عليه بأوصافه ، وأسمائه ، فهو ذكر وزيادة ، كما أن الذكر سمى دعاء لتضمنه للطلب "[(١)] .

٣ ـ إظهارهم الفاقة والفقر بين يدي الله،واختيار الألفاظ الدالة على ذلك ، " فإن في القلب فاقة لا يسدها شيء سوى الله تعالى أبدا ، فإذا حصل له ربه سكن إليه ، واطمأن به ، وزال ذلك الاضطراب والقلق ، وانسدت تلك الفاقة "[(٢)] .

٤ ـ دعاؤهم الله في حال السراء والضراء .

٥ ـ طول عباد م لر م ؛ لكثرة تضرعهم فيها .

٦ ـ اختيار الأوقات الفاضلة للدعاء،وقد ثبت في السنة مجموعة من الأوقات ومنها:

في الثلث الأخير من الليل، لحديث " ي ل ربنا في كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر "[(٣)] ، وبين الأذان والإقامة، لحديث " الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة "[(٤)] ، وحين فطر الصائم، لحديث " ثلاثة لا ترد دعو م الصائم حتى يفطر "[(٥)] ، وعند نزول المطر، لحديث " اثنتان لا تردان ، أو قلما تردان ، الدعاء وقت المطر "[(٦)] ، وفي حال السفر ، لحديث " ثلاث دعوات مستجابات دعوة المسافر "[(٧)] .

٤ـ التوكل وتفويض الأمر لله

" وهو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله ، والإيمان بتفرده بالخلق والتدبير ، والضر

---

(١) الفتاوى ١٥/١٥ باختصار .

(٢) إغاثة اللهفان ٧١/١ .بتصرف .

(٣) متفق عليه من طريق أبي هريرة ﷺ ، أخرجه البخاري ، كتاب الكسوف ، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل ، برقم (١٠٩٤)٣٨٤/١ ، ومسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب ترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والاستجابة فيه ، برقم (٧٥٨)٥٢١/١ .

(٤) أخرجه أبو داود ، كتاب الصلاة ، باب ماجاء في الدعاء بين الأذان والإقامة ، برقم (٥٢١) ١٤٤/١، والترمذي ، كتاب الدعوات ، باب العفو والعافية ، برقم (٣٥٩٤)٤١٦/١ ، وقال الترمذي : حديث حسن .

(٥) أخرجه الترمذي ، كتاب الدعوات ، باب العفو والعافية ، برقم (٣٥٩٨) ٦٧٢/٤ وقال الترمذي : حديث حسن .

(٦) أخرجه أبو داود ، كتاب الجهاد ، باب الدعاء عند اللقاء ، برقم (٢٥٤٠) ٢١/٣ .

(٧) أخرجه أبو داود ، كتاب الصلاة ، باب الدعاء بظهر الغيب ، برقم (١٥٣٦)٨٩/٢ ، وأخرجه الترمذي ، كتاب الدعوات ، برقم (٣٤٤٨) ٣١٤/٤، وقال الترمذي : حديث حسن .

والنفع ، والعطاء والمنع ، وأنه ما شاء كان وإن لم يشأ الناس ، وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الناس ، فيوجب له هذا اعتمادا عليه ، وتفويضا إليه ، وطمأنينة به ، وثقة به ، ويقينا بكفايته لما توكل عليه فيه "[(١)] .

وقول مؤمن آل فرعون يشهد لذلك ، حينما قال :﴿وأُفَوض أمِري إِلَى اللهِ إِن الله بصِير بِالْعِبادِ﴾[(٢)] .

ومثله قول مؤمن آل يس ، حينما قال :﴿اتِبعوا من لا يسأَلُكُم أجراً وهم مهتدونَ۝وما لِي لا أعبد الذِي فَطَرنِي وإِلَيهِ ترجعونَ ﴾[(٣)] .

وإشارة مريم لعيسى عليه السلام وهو في المهد ، هي من باب تفويضها الأمر كله لله .

مظاهر صفة التفويض والتوكل في حياة الدعاة :

لهذه الصفة في حياة الدعاة مظاهر عديدة ، وهي :

١ ـ اعتماد قلو م على الله كلية وعدم الالتفات لغيره ، " فحقيقة التوكل هو : صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المنافع ، ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها "[(٤)] ، وحقيقة ذلك ألا"يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب ، ولا سكون إليها ، بل يخلع السكون إليها من قلبه ، ويلبسه السكون إلى مسببها ، وعلامة هذا أنه لا يبالي بإقبالها ، وإدبارها ، ولا يضطرب قلبه ويخفق عند إدبار ما يحب منها ، وإقبال ما يكره ، لأن اعتماده على الله ، وسكونه إليه ، واستناده إليه قد حصنه من خوفها ورجائها "[(٥)] .

٢ ـ فعلهم الأسباب مع عدم الاعتماد عليها فهي من تمام التوكل ، لأن"كل ما في

---

(١) ا موع القيم من كلام ابن القيم ٣١٧/١ .

(٢) غافر : ٤٤ .

(٣) يس : ٢١-٢٢ .

(٤) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم ، زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين بن رجب البغدادي ، تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس :٣٦٣/١،{ط٧، مؤسسة الرسالة ،بيروت: ١٤١٧هـ } .

(٥) مدارج السالكين ١٢٠/٢ .

الوجود من الأسباب فالله خالقه وربه ومليكه ، فهو الذي خلق السبب والمسبب "[١]
ولهذا " فالالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع ، بل العبد يجب أن يكون توكله ودعاؤه وسؤاله ورغبته إلى الله سبحانه وتعالى ، والله يقدر له من الأسباب من دعاء الخلق وغيرهم ما شاء "[٢] .

٣ ـ ثقتهم بنصر الله وتأييده لهم .

٤ ـ " يستوي الإقلال ، والإكثار "[٣] عند الدعاة المتوكلين ، والمراد أن المتوكل يبذل السبب الذي يوجد عنده ، ولا ينظر لكثرة السبب ، أو قلته ، فلا يوقف عمله بناء على كثرة السبب ، لكنه يبذل وسعه في السبب الذي يملكه ، ويتوكل على الله .

٥ ـ تطهيرهم القلب من علائق الشرك ، " فما دامت فيه علائق الشرك فتوكله معلول مدخول ، وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل "[٤] .

٦ ـ حسن ظنهم بر م ، " فعلى قدر حسن ظنك بربك ، ورجائك له يكون توكلك عليه ، ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن "[٥] .

٧ ـ مضيهم في دعو م لا يثنيهم عنها كيد الكائدين،متوكلين فيها على ر م.

٨ ـ طمأنينة قلو م في حال الشدة والخوف ، لأ م فوضوا أمرهم لر م .

٩ ـ رضاهم بما كتب الله لهم ، وهو نتيجة حتمية لتوكلهم الشرعي .

١٠ ـ عنايتهم بأعمال القلوب،وتزكية النفوس،لأن التوكل يرتبط بكثير منها.

٥.١الحكمة .

وهي " الإصابة في الأقوال والأفعال ، ووضع كل شيء في موضعه "[٦] .

---

(١) الفتاوى ١٢٧/١ .
(٢) الفتاوى ١٣١/١ .
(٣) مدارج السالكين ١١٦/٢ .
(٤) مدارج السالكين ١٢٠/٢ .
(٥) مدارج السالكين ١٢٠/٢ .
(٦) الحكمة في الدعوة إلى الله ، سعيد بن علي بن وهف القحطاني :ص٢٧،{ط٣،مؤسسة الرسالة ،بيروت: ١٤١٧هـ } .

ومن الخطأ البين قرن الحكمة بالرفق دائما ، فقد تكون الحكمة في الشدة ، والقسوة ، والترهيب ، إلا أن ذلك مشروط بأن يكون في موضعه المناسب .

فقول فتية الكهف ﴿هؤلاءِ قَومنا اتخذُوا مِن دونِهِ آلِهةً لَولا يأتونَ علَيهم بِسلْطَانٍ بينٍ فَمن أَظْلَم مِممنِ افْترى علَى اللهِ كَذِباً﴾ يعتبر من الحكمة .

كما أن تكفير الرجل لصاحبه صاحب الجنتين ، بقوله :﴿أَكَفَرت بِالذِي خلَقَك مِن ترابٍ ثُم مِن نطْفَةٍ ثُم سواك رجلاً﴾[1].

يعتبر أيضا من الحكمة ، لأنه استعمل التكفير في موضعه .

وذو القرنين رحمه الله استعمل كلا أسلوبي الحكمة ؛ الترغيب والترهيب ، فقال :﴿قَالَ أَما من ظَلَم فَسوف نعذبه ثُم يرد إِلَى ربهِ فَيعذبه عذَاباً نكْراً۞وأَما من آمن وعمِلَ صالِحاً فَلَه جزاءً الْحسنى وسنقُولُ لَه مِن أَمرِنا يسراً﴾[2] .

كما أن الحكمة تقتضي أحيانا كتم الإيمان ، كما فعل مؤمن آل فرعون .

مظاهر صفة الحكمة في حياة الدعاة :

لهذه الصفة مظاهر عديدة في حياة الدعاة ، وهي :

١ ـ دراسة الواقع الدعوي جيدا لاتخاذ الأسلوب الأمثل .

٢ ـ تحلي الدعاة بالحلم والأناة ، وهي أولى الخطوات لاتخاذ القرار المناسب .

٣ ـ سيرهم في مواقفهم وفق مراد الله وشرعه ، وليس للعاطفة تأثير عندهم ما لم توافق الشرع .

٤ ـ بعد نظرهم في قرارا م الدعوية ، فلا يتخذو ا إلا بعد نظر وترو .

٥ ـ ثبا م في دعو م ومنهجهم مع اختلاف الظروف والأحوال .

٦ ـ اتساع دائرة المدعوين عندهم ، فبحكمتهم يستطيعون أن يخاطبوا شرائح عدة .

٧ ـ عدم معاملتهم المخالفين معاملة واحدة ، وإنما يختلف الأمر بناء على ذات المخالفة .

٨ ـ مراعا م اختلاف أحوال المدعوين ، ومخاطبة كل حال بما يناسبها .

---

(١) الكهف : ٣٧ .

(٢) الكهف : ٨٧-٨٨ .

٩ ـ مراعا م اختلاف الأماكن والزمن في مسائل الدعوة .

١٠ ـ مخاطبة الناس " فمن لوازم الداعية أن يعنى بمخاطبة الناس على قدر فهمهم وثقافتهم "(١) .

١١ ـ التأني ، وعدم الانتقام في حال القلة ، والضعف ، كما هو الحال في أول الإسلام " وهذا وضع الدعوة في مكة عندما كان أبناؤها قلة في ا تمع ، وهذا ما يجب أن ينتبه إليه الدعاة في كل عصر وفي كل مجتمع يعيشون فيه أقلية ، ويلقون فيه اضطهادا من الغالبية التي تخالفهم في العقيدة ، أو تباينهم في الاتجاه "(٢) .

٦.الزهد

وهو على أقسام عدة :

" زهد في الحرام ، وهو فرض عين ، وزهد في الشبهات ، وهو بحسب مراتب الشبهة ، فإن قويت التحقت بالواجب ، وإن ضعفت كان مستحبا ، وزهد في الفضول ، وزهد فيما لا يعنى من الكلام والنظر والسؤال واللقاء وغيره ، وزهد في الناس ، وزهد في النفس ، بحيث ون عليه نفسه في الله .

وزهد جامع لذلك كله؛وهو الزهد فيما سوى الله ،وفي كل ما شغلك عنه "(٣).

وهو الذي قاله مؤمن آل فرعون لقومه في وصف الحياة الدنيا ، حيث قال :﴿ يا قَومِ إنما هذِهِ الْحياةُ الدنيا متاع وإن الْآخِرةَ هِي دار الْقَرارِ﴾(٤).

وقاله أصحاب قارون عندما افتتن به بعض ضعاف الإيمان ، فقالوا لهم :﴿ويلَكُم ثَواب اللهِ خير لِمن آمن وعمِلَ صالِحاً ولا يلَقاها إلا الصابِرونَ﴾(٥) .

وكذلك آسية امرأة فرعون ، مع أ ا في بيت الملك ، لكنها زهدت في ذلك كله .

مظاهر صفة الزهد في حياة الدعاة :

لهذه الصفة مظاهر عديدة في حياة الدعاة ، وهي :

---

(١) الدعوة ، الدكتور حمد بن ناصر العمار :ص١٣٩،{ط١، دار كنوز إشبيليا ،الرياض:١٤٢٥هـ } .

(٢) الدعوة إلى الحق ، محمود شاكر :ص٤٥،{ط١،دار الوراق ،بيروت: ١٤٢٥هـ } .

(٣) الفوائد ص١١٨ .

(٤) غافر : ٣٩ .

(٥) القصص : ٨٠ .

١ ـ تعلق قلو م بالله ، والدار الآخرة .

٢ ـ احتقارهم للحياة الدنيا بجميع زخارفها ؛ لأن الزهد في الدنيا " ليس المراد منه تخليها من اليد ، ولا إخراجها ، وقعوده صفراً منها ، وإنما المراد إخراجها من قلبه بالكلية ، فلا يلتفت إليها ، ولا يدعها تساكن قلبه وإن كانت في يده ، فليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهي في قلبك ، وإنما الزهد أن تتركها من قلبك وهي في يدك "[(١)] .

٣ ـ التمتع بمباحات الدنيا على وجه يوصل للآخرة ولا يحول دو ا ، فإن " لذات الدنيا ونعيمها متاع ووسيلة إلى لذات الدار الآخرة ، فكل لذة أعانت على لذات الدار الآخرة فهي محبوبة مرضية للرب تعالى ، فصاحبها يلتذ ا من وجهين : من جهة تنعمه وقرة عينه ا ، ومن جهة إيصالها له إلى مرضاة ربه ، وإفضائها إلى لذة أكمل منها ، فهذه هي اللذة التي ينبغي للعاقل أن يسعى في تحصيلها ، لا اللذة التي تعقبه غاية الألم ، وتفوت عليه أعظم اللذات ، ولهذا يثاب المؤمن على كل ما يلتذ به من المباحات إذا قصد به الإعانة والتوصل إلى لذة الآخرة "[(٢)] .

٤ ـ زهدهم فيما في أيدي الناس فهو طريق محبة الناس لهم ، " فإن الرجل لا يقبل حتى تكون فيه خصلتان : العفة عما في أيدي الناس ، والتجاوز عما يكون منهم "[(٣)]، وهذا ما يجب توفره في الداعية إلى الله حتى تقبل دعوته .

٥ ـ عدم طلبهم أجراً على دعو م لا يقومون بالدعوة إلا به ، وقد توجد حالات خاصة تستثنى .

٦ ـ ثبا م أمام المغريات المادية التي تحول بينهم وبين دعو م .

٧ ـ سعيهم للرياسة الدنيوية مرتبط بمقدار النفع الدعوي .

٨ ـ تسخيرهم أموالهم في سبيل دعو م .

٧.الاجتهاد في الدعوة

وهو ما يعرف بالمصطلح العصري " الحماس الدعوي " أو بذل الوسع في الدعوة ،

---

(١) طريق الهجرتين ص٣٨١ .

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب بن القيم الجوزية :ص١٥٨،{دار الكتب العلمية ،بيروت: ١٤١٢هـ } .

(٣) جامع العلوم والحكم ١/٣٠٠ .

وقول الله سبحانه وتعالى :﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾[1] .

دليل على أن الداعية عليه أن يبذل وسعه في دعوته ، فيستخدم جميع الأساليب الدعوية ، وهذا لا يكون إلا مع همة عالية للدعوة إلى الله .

ومن نظر في وصية لقمان لابنه وتكراره النصيحة له عرف أن لقمان بذل وسعه ، واجتهد في دعوة ابنه .

ومسيرة ذي القرنين من مغرب الأرض إلى مشرقها ثم إلى ما بين السدين ، يجازي المؤمن بالحسنى،ويعذب الكافر ، تشهد له رحمه الله بأنه اجتهد في دعوته غاية الاجتهاد .

ودعوة مؤمن آل فرعون لقومه وإخفاء إيمانه دليل على أنه كان في سنوات عدة يدعو سرا ، بحيث خفي أمره على فرعون ، ولا أظن مؤمن آل فرعون يستمر على حالته وإيمانه ودعوته لو لم يكن لديه إصرار على هداية الناس ، ومحاولة إنقاذ لهم ، وهذا من الاجتهاد الدعوي .

وكذلك سعي مؤمن آل يس :﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ﴾[2] .

مع أن مسيرته من أقصى المدينة فجاء مسرعا ، خير شاهد على أن الداعية عليه أن يبذل وسعه في دعوته ، ولو أدى الأمر إلى العدو والإسراع بالأقدام .

بقي أن أذكر أن هذه الصفة مرتبطة بالحكمة حتى تؤدي الثمرة الدعوية المرجوة .

مظاهر صفة الاجتهاد في الدعوة في حياة الدعاة :

لهذه الصفة مظاهر عديدة في حياة الدعاة ، وهي :

١ ـ التفكير المستمر بمشاريع دعوية .

٢ ـ استغلال الأوقات والمناسبات والظروف والفرص والأماكن ؛ لنشر الدعوة.

٣ ـ تقديم الدعوة إلى الله في أولويات الحياة .

٤ ـ ترتيب المشاريع الدعوية بناء على الحاجة الدعوية .

٥ ـ تنويع الأساليب الدعوية .

---

(١) النحل : ١٢٥ .

(٢) يس : ٢٠ .

٦ ـ التجديد في الطرح الدعوي والمشاريع الدعوية .

٧ ـ عدم اليأس عند فشل المشاريع الدعوية ، والاستفادة منها لتقويم التجارب الأخرى .

٨ ـ استغلال التقنية الحديثة في خدمة الدعوة .

٨.الرجولة الكاملة

وصف الله مؤمن آل يس بقوله:﴿وجاءَ مِن أقْصى الْمدِينةِ رجلٌ يسعى﴾[(١)].

وقال عن مؤمن آل فرعون :﴿وقَالَ رجلٌ مؤمِن مِن آلِ فِرعونَ ﴾[(٢)] .

والوصف بالرجولة على قول لبعض المفسرين يفيد أنه " رجل كامل في الرجولية "[(٣)] ، والقيام بالدعوة يتطلب قدرا من الرجولية ؛ فبعض المواقف في طريق الدعوة قد لا تواجه إلا بمن اتصف بالرجولية مع الإيمان .

مظاهر صفة الرجولة في حياة الدعاة :

لهذه الصفة مظاهر عديدة في حياة الدعاة ، وهي :

١ ـ تحملهم المواقف الدعوية الصعبة .

٢ ـ مبادر م لحمل لواء الدعوة في مجتمعا م .

٣ ـ إصرارهم على نجاح دعو م .

٤ ـ عدم التنازل عن مبادئهم الدعوية الثابتة،وهي أصول الدين المعلومة بالضرورة .

٥ ـ العزة أثناء دعو م .

٦ ـ التضحية في سبيل دعو م .

٧ ـ جرأ م في الحق .

ومما يجدر ذكره أن هذه المظاهر ليست خاصة بالرجال ، وإنما تشاركهم أخوا م النساء ممن وفقهن الله وأيدهن لتحمل أعباء دينه .

٩.الابتكار والتجديد

---

(١) يس : ٢٠ .

(٢) غافر : ٢٨ .

(٣) التفسير الكبير ٤٨/٢٦ .

" الابتكار في حقيقته بحث عن جديد يحقق نتائج أفضل ، ويتجنب العثرات ، فهو ضرب من الإجادة والإتقان سعيا للوصول إلى أحسن النتائج "[1] .

والطريقة التي نفذ ا ذو القرنين السد بين القوم الذين لا يفقهون ، وبين يأجوج ومأجوج ، هي طريقة مبتكرة ، حيث قال :﴿آتونِي زبر الْحدِيدِ حتى ِإذَا ساوى بين الصدفَينِ قَالَ انفُخوا حتى ِإذَا جعلَه ناراً قَالَ آتونِي أُفْرِغْ علَيهِ ِقطْراً﴾[2].

" والإفراغ الصب ، فجعلت النار تأكل الحطب ويصير النحاس مكان الحطب ، حتى لزم الحديد النحاس "[3] .

واختيار الفتية لكهفهم بمواصفاته وسعته واتجاهه بحيث لا تصيبهم الشمس فيؤذيهم حرها ، ولا تنقطع عنهم فتتعفن أجسادهم ، وهو نوع من التفكير الجيد ، وذلك فرع عن فروع الابتكار .

مظاهر صفة الابتكار في حياة الدعاة :

لهذه الصفة مظاهر عديدة في حياة الدعاة ، وهي :

١ ـ اهتمامهم بفنون التفكير والإبداع ، وتعلم طرقه ومبادئه .

٢ ـ إيجادهم الحلول للمشاكل الدعوية الطارئة .

٣ ـ تنوع مشاريعهم الدعوية .

٤ ـ وصولهم لأفضل النتائج بأقل جهد ممكن .

٥ ـ اتقا م التعامل مع الوسائل الدعوية الجديدة .

٦ ـ تطوير جوانب الاختراع والابتداع لديهم .

٧ ـ التوسع في معرفة التجارب الدعوية وآثارها ومدى نجاحها .

١٠.الرحمة والرأفة

" إن الداعي لا بد أن يكون ذا قلب ينبض بالرحمة والشفقة على الناس ، وإرادة

---

(١) مقومات الداعية الناجح،الدكتور علي عمر بادحدح:ص١٩٧،{دار الأندلس الخضراء ،جدة: ١٤٢٦هـ }.

(٢) الكهف : ٩٦ .

(٣) تفسير البغوي ١٨٢/٣ بتصرف يسير .

الخير لهم ، والنصح لهم "[1] .

إن لغة الخطاب اللينة التي خاطب ا مؤمن آل يس قومه ، ومثله فعل مؤمن آل فرعون ، ونسبتهم القوم لأنفسهم ، مع أ م يخالفو م دينا ، فكانوا يقولون ﴿يا قَومِ﴾ تدل على أن الداعية عليه أن يتحلى بالرحمة لقومه ومدعويه .

ونادى لقمان رحمه الله ابنه بقوله :﴿ يا بني ﴾ وهي لفظة تشعر بالحنان ، وتدل على امتلاء القلب بالرحمة تجاهه ، وهو ما يجب على الداعية أن يسلكه .

مظاهر صفة الرحمة والرأفة في حياة الدعاة :

لهذه الصفة مظاهر عديدة في حياة الدعاة ، وهي :

١ ـ تقديم أسلوب الرفق على غيره من الأساليب .

٢ ـ اختيارهم أحسن الألفاظ ، وأفضل الأفعال مع المدعوين .

٣ ـ سلامة صدورهم تجاه المخالفين ، ويكون بغضهم لهم على قدر إعراضهم عن دين الله .

٤ ـ لا تغضبهم الردود السيئة من المدعوين .

٥ ـ حرصهم الشديد على الدعوة حين إعراض المدعوين ؛ شفقة عليهم .

٦ ـ حز م الشديد حين يفو م شخص ، ويعرض عن الهداية .

٧ ـ التنازل عن كثير من حقوقهم الشخصية؛مقابل استجابة مدعويهم رأفة ورحمة .

٨ ـ عفوهم عمن أخطأ عليهم ،"فمن آداب العشرة : العفو عن كل هفوة تقع للإخوان في النفس والمال دون أمور الدين ، والسنة "[2] .

١١.المخالطة للمدعوين

" المخالطة لا بد منها ، فإن الإنسان اجتماعي بطبعه ، لا يستطيع العيش بمفرده ، هذا في أمور الدنيا ، أما بالنسبة لأمور الدين فكذلك الحال ، فإن من فرائض الإسلام ومستحباته ما لا يمكن تأديته إلا بالمخالطة مع الناس ، وتعاو م ، والدعوة إلى الله من

---

(١) أصول الدعوة ، عبد الكريم زيدان :ص٣٤١،{ مؤسسة الرسالة ،بيروت: ١٤٢٦هـ } .

(٢) آداب الصحبة ،أبو عبد الرحمن السلمي ، تحقيق مجدي فتحي السيد :ص٨٦،{ط١، دار الصحابة للتراث ،مصر:١٤١٠هـ } .

واجبات الإسلام ، ومن وسائلها مخالطة الناس "[١] .

وجميع الدعاة من غير الأنبياء الذي تناولت قصصهم فيما سبق ، ما كانت دعو م تتم لولا المخالطة ، مع أنه كان باستطاعتهم أن يعتزلوا الناس ، ويكتموا إيما م ، ويعبدوا ر م .

حتى فتية الكهف لم يعتزلوا إلا بعد أن طردوا من قبل المعادين ، ولا يكون العداء إلا بعد صدعهم بالدعوة ، وغشيا م أنديتهم ، ومزاحمتهم لهم حتى فشا أمرهم .

وكذلك صدع مؤمن آل يس بدعوته بين ظهراني قومه ، والرجل الذي حاور صاحب الجنتين ، ذهب إلى جنته كما تفيده الآيات في سورة الكهف .

مظاهر صفة المخالطة في حياة الدعاة :

لهذه الصفة مظاهر عديدة في حياة الدعاة ، وهي :

١ ـ زيار م أماكن المدعوين .

٢ ـ إعداد برامج دعوية متنوعة ، على حسب اختلاف الأماكن .

٣ ـ دخولهم بيوت الفقراء ، وذوي الحاجة .

٤ ـ زيار م للمرضى والمواساة لهم .

٥ ـ المشاركة في الملتقيات العامة بضوابطها الشرعية .

٦ ـ عنايتهم بالزيارات الخاصة الفردية .

٧ ـ السفر والتنقل بين ا تمعات المختلفة لكسب خبرات دعوية ، وتوسيع دائرة المعرفة .

٨ ـ مشاركة الناس في مصائبهم ، كالمشاركة في تجهيز الجنازة والدفن والتعزية وصنع الطعام لأهل الميت ، وكذلك الحال بالنسبة لمناسبات الأفراح كالزواج ، والمولود ، والتخرج ، وغيرها كثير .

بقي أن أقول بأن المخالطة ليست مقصودة بحد ذا ا عند الدعاة ، وإنما هي وسيلة دعوية لهم ، أقرر ذلك حتى يتفهم الدعاة دورهم في المشاركات التي تخالطها منكرات ، فيعدوا لها البرامج الدعوية ، ويوازنوا بين المصالح والمفاسد ، ويعملوا على تقليل الشر .

---

(١) أصول الدعوة ، ص٣٤٩ .

١٢.الصبر

" الله سبحانه جعل الصبر جوادا لا يكبو ، وصارما لا ينبو ، وجندا لا يهزم ، وحصنا حصينا لا يهدم ، ولا يثلم ، فهو والنصر أخوان شقيقان ، فالنصر مع الصبر ، والفرج مع الكرب ، والعسر مع اليسر ، وهو أنصر لصاحبه من الرجال بلا عدة ولا عدد ، ومحله من الظفر كمحل الرأس من الجسد ، ولقد ضمن الوفي الصادق لأهله في محكم الكتاب أنه يوفيهم أجرهم بغير حساب ، وأخبره أنه معهم بهدايته ونصره العزيز ، وفتحه المبين "(١) .

وهذا الذي جعل مؤمن آل يس يقوم بالدعوة بين ظهراني قومه ، وينصر الرسل الذين كذبوا ، مع علمه بأن مصيره قد يكون القتل .

والصبر هو الذي جعل مؤمن آل فرعون يصبر على إخفاء إيمانه ، وكتمه ، ويصبر على ما يسمع ، وما يفعل من حوله .

وبالصبر استطاع ذو القرنين أن يتغلب على أهل الأمصار والبلدان حتى فتحها مجاهدا في سبيل الله .

وآسية المرأة الضعيفة عند ذي السلطان الجائر صبرت على العذاب وتحملته في سبيل الله ، وإلا كان يسعها أن تخفي إيمانها ، لكنه الصبر إذا كان بسبب الإيمان .

" فليس طريق الدعوة ممهدا معبدا ، ولا مكتنفا بالورود والرياحين ، إنه على العكس طريق صعب وعر ، تملؤه العقبات والأشواك ، إنه طريق الجهاد ، واحتمال الأسى والتعب .

والصبر إذا اقترن بالأمل كان عصمة للداعية عن الانقطاع ، ويقوده إلى أن يقوى على تحقيق كثير مما يريد "(٢) .

مظاهر صفة الصبر في حياة الدعـاة :

لهذه الصفة مظاهر عديدة في حياة الدعاة ، وهي :

١ ـ تحمُّلهم الأذى في سبيل دعوتهم .

---

(١) عدة الصابرين ، ص٣ .

(٢) من صفات الداعية ، محمد الصباغ :ص٤٩،{المكتب الإسلامي ،بيروت: ١٤٠٥هـ } .

٢ ـ عفوهم عمن ظلمهم حين يكون العفو أصلح .

٣ ـ حلمهم على أعدائهم والصادين لدعو م .

٤ ـ إعراضهم عن مجادلة ا ادلين والسفهاء وكل قول لا ينفع دعو م .

٥ ـ عفوهم عن بعضهم البعض ، وسلامة صدورهم بينهم .

٦ ـ إصرارهم على توصيل رسالتهم الدعوية .

٧ ـ دعو م رغم فقرهم وشدة ظروفهم الحياتية .

٨ ـ عدم استسلامهم لأعدائهم ، ومواصلة جهادهم ودعو م .

٩ ـ امتناعهم عن الاستجابة للمغريات التي تعرض عليهم للتنازل عن دعو م .

١٠ ـ عدم انزلاقهم وراء فتن الشهوات والشبهات التي يشاهدو ا .

١١ ـ التماسهم العذر لمن خالفهم من إخوا م في العقيدة .

١٢ ـ يقابلون الإساءة بالإحسان ، ويدفعون بالتي هي أحسن .

١٣ ـ انتقامهم في حدود ما أُبيح لهم شرعا ، ولا يعتدون .

١٤ ـ إعراضهم عن جهل الجاهلين،" وليس المراد إعراضهم عمن لا علم عنده فلا يعلمه،ولا يرشده،وإنما المراد إعراضه عن جهل من جهل عليه،فلا يقابله ولا يعاتبه "(١) .

١٣. نفع الناس

لا يقتصر عمل الدعاة على النفع الديني للناس ، وإنما يتعداه للنفع الدنيوي ، فهذا ذو القرنين مع أنه يفتح البلدان ، واستولى على أكثرها ، حينما عرض عليه الذين لا يفقهون قولا أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدا لم يمانع ، ولم يستغل حاجتهم ويأخذ أموالهم ، مع أنه الغالب على بلادهم ، وهم تحت سيطرته ، إلا أن سلوك الداعية ا اهد في سبيل الله يأبى عليه إلا أن ينفعهم ، ويحمي مزارعهم من إفساد يأجوج ومأجوج .

وبلغ حرص ذي القرنين على النفع أعلاه حين استغنى عن أموالهم ، وتركها لهم ، وطلب منهم المساعدة في العمل فقط .

مظاهر صفة نفع الناس في حياة الدعاة :

لهذه الصفة مظاهر عديدة في حياة الدعاة ، وهي :

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/١٠١ .

١ ـ مخالطتهم للناس في حيا م وأعمالهم .
٢ ـ استقبالهم الفقراء والمعوزين وذوي الحاجات وعدم الاحتجاب عنهم .
٣ ـ دخولهم في قضايا الإصلاح ، سواء الأسري ، أو العام .
٤ ـ استماعهم لمشاكل الناس من حولهم والمساهمة في حلها .
٥ ـ لهم الدور الأكبر في حل قضايا مجتمعهم الكبرى .
٦ ـ بذل شفاعتهم وجاههم لمن طلبها .
٧ ـ قيامهم على رعاية الأيتام والأرامل على وجه الخصوص .
٨ ـ محاولة رفع أي ظلم يبلغهم .
٩ ـ إنشاء مشاريع دعوية تختص بدنيا الناس ، مثل :

صناديق التأمين التعاوني،ومدارس نموذجية خيرية،والمعالجة الطبية لذوي الحاجات ،ولجان إصلاح ذات البين ،ولجان التزويج،ومراكز الأحياء،وغير ذلك كثير.

١٤.الشجاعة

" الداعية رجل باع نفسه لله سبحانه ، فهو يكافح في ميدان الجهاد ، ويؤدي حق الدعوة بشتى السبل حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وهو في رباط دائم ، كما أنه لا يبخل بعلمه وفكره وجهده وماله وجاهه ، كذلك لا يبخل بنفسه ، بل يصدع بكلمة الحق ، ويواجه خصوم الدين ، ويتعرض لمتاعب الكفاح "[(١)] .

وأما الدعاة من غير الأنبياء فقد تمثلت الشجاعة في صدعهم بكلمة الحق بين قومهم ، وكثيرا منهم لم يتمتع بجاه يحميه أو منصب مهيب يأويه .

فهذا مؤمن آل يس ، قيل في مهنته " أنه كان قصارا[(٢)] ، وقيل : كان إسكافا[(٣)] ، وقيل : كان ينحت أصنامهم[(٤)] ، ولم يمنعه ضعفه أن يدعو قومه لاتباع الأنبياء ويحذرهم الشرك ، وهو موقف يكتب له شجاعة تاريخية .

---

(١) مؤهلات الداعية المسلم العلمية والخلقية ، أحمد بن محمد الدسم العدناني :ص٧٩،{دار لينة ،الدمنهور: ١٤١٨هـ } .
(٢) الدر المنثور ٥١/٧ .
(٣) تفسير ابن كثير ٣٥٤/١١ .
(٤) تفسير أبي السعود ١٦٣/٧ .

وفتية الكهف قاموا بين ظهراني قومهم ، وقالوا :﴿ربنا رب السمواتِ والْأرضِ لَن ندعو مِن دونِهِ إلهاً لَقَد قُلْنا إذاً شططاً۝ هؤلاءِ قَومنا اتخذُوا مِن دونِهِ آلِهةً لَولا يأْتونَ عليهم بِسلْطَانٍ بينٍ فَمن أَظْلَم مِمنِ افْترى علَى اللهِ كَذِباً﴾[1].

وتدل الآية أ م قالوا ذلك بمحضر من عليه قومهم أو بين يدي الملك ، كما يفيده قوله :﴿وربطْنا علَى قُلُوبِهم﴾ .

فإ ا تدل على شجاعتهم للقيام بكلمة الحق [2] ، فإن من معاني ربط " اشتد قلبه فلم يفر عند الفزع "[3].

مظاهر صفة الشجاعة في حياة الدعاة :

لهذه الصفة مظاهر عديدة في حياة الدعاة ، وهي :

١ ـ صدعهم بكلمة الحق حين تقتضي المصلحة الدعوية ذلك .

٢ ـ إنكارهم المنكرات الظاهرة في مجتمعهم بضوابط الإنكار .

٣ ـ يتحملون نتيجة قيامهم بالدعوة فقد تكون النتيجة أذى وقد يصل الأذى للقتل.

٤ ـ قيامهم بالدعوة في أماكن اجتماعات الناس ومحافلهم .

٥ ـ وقوفهم في وجه أهل البدع وفضح معتقدا م .

٦ ـ لا يقف في وجه دعو م أحد كائنا من كان ، مع الأخذ بالتخطيط الدعوي الصحيح .

٧ ـ بلوغ دعو م بلاد الكفار ، ووصولهم لقعر دارهم .

٨ ـ ثبات مواقفهم في الفتن ، لأ م يسيرون على منهج سلفي أصيل .

٩ ـ لا تأخذهم في الله لومة لائم .

١٠ ـ إمساكهم زمام المبادرة في دعو م ، ولا ينتظرون من غيرهم حضا .

١٥.المتابعة للسنة النبوية

وهو مرتبط بالصفة الأولى ، ومكمل لها ، وعلى قدرها يكون توفيق الله للداعية ،

---

(١) الكهف : ١٤-١٥ .

(٢) الكشاف ٦٦١/٢ .

(٣) المعجم الوسيط ، مادة (ربط)، ص ٣٢٣ .

ويشرح الله صدور متبوعيه للانقياد للحق ، وقد اكتملت السنة كما قال سلمان[1] ﵁ : " قال لنا المشركون : إني أرى صاحبكم يعلمكم حتى يعلمكم الخراءة[2] ، فقال : أجل ، إنه انا أن يستنجي أحدنا بيمينه ، أو يستقبل القبلة ، و ى عن الروث ، والعظام ، وقال : لا يستنجي أحدكم بدون ثلاثة أحجار "[3] .

" وكثير من الناس يحصرون السني في المتمحض للسنة ، الذي لم يقع منه خطأ ولا تأويل ولا جهل ، ويقابلهم آخرون يظنون أن المبتدع هو من اجتمعت فيه أصول البدع ، أو انتسب إلى ما أجمعت الأمة على أ ا من فرق الضلال .

والحق أن البدع كسائر الذنوب : منها الكبير والصغير ، ويجتمع في الواحد المعين والطائفة الحرص الشديد على السنة مع الوقوع الصريح في البدعة ، كما يتفق للكثير من أهل البدع إصابة السنة في بعض الأحوال والمقامات ، وإنما العبرة بالأصول ، والمنهج في الجملة والعموم ، والموفق من وفقه الله "[4] .

وقول مؤمن آل يس:﴿ اتِبعوا الْمرسِلين﴾[5] دليل على اتباعه السنة ، وأنه حريص عليها ، ويحث غيره على اتباعها .

ومن تأمل قصة ذي القرنين تبين له أن هذا التأييد الذي حصل له ، وفتوحاته التي بلغت الأرض كلها ، ما كانت تتم لو لم يكن ذو القرنين على قدر كبير من اتباع لسنة نبوية في زمانه .

---

(١) أبو عبد الله ، يقال : إنه مولى رسول الله ﷺ ويعرف بسلمان الخير ، كان أصله من فارس ، من رام هرمز ، تداوله في ذلك بضعة عشر ربا ، من رب إلى رب ، حتى أفضى إلى النبي ﷺ ومن الله عليه بالإسلام ، أول مشاهده الخندق ، وهو الذي أشار بحفره ، ولم يفته بعد ذلك مشهد مع رسول الله ﷺ وكان خيرا ، فاضلا ، حبرا ، زاهدا ، وتوفي في آخر خلافة عثمان سنة خمس وثلاثين للهجرة . انظر : الاستيعاب ٦٣٤/٢ .

(٢) وهي : التخلي ، والقعود للحاجة . انظر : النهاية في غريب الأثر ١٧/٢ .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الطهارة ، باب الاستطابة ، برقم (٢٦٢)٢٢٤/١ .

(٤) رسالة من القلب إلى إخواننا من أهل اليمن ، د سفر بن عبد الرحمن الحوالي :ص١٤،{ مجلة البيان ، العدد ١٨١ ، رمضان : ١٤٢٣هـ } .

(٥) يس : ٢٠ .

مظاهر صفة المتابعة للسنة النبوية في حياة الدعاة :

لهذه الصفة في حياة الدعاة مظاهر عديدة ، وهي :

١ ـ محبة السنة ، ومحبة أهلها على قدر ما لديهم من اتباع للسنة ، فإن" محبة الآثار علامة على محبة مصدرها "(١) وهو النبي ﷺ .

٢ ـ تطبيقها في حيا م اليومية سواء في عباد م أو معاملا م ، وهو برهان المحبة ، ولهذا كان يقال :" خمس خصال ينبغي للمؤمن أن يعرفها ، إحداهن : معرفة الله تعالى ، والثانية : معرفة الحق ، والثالثة : إخلاص العمل لله ، والرابعة : العمل بالسنة ، والخامسة : أكل الحلال ، فإن عرف الله ولم يعرف الحق لم ينتفع بالمعرفة ، وإن عرف ولم يخلص العمل لله لم ينتفع بمعرفة الله ، وإن عرف ولم يكن على السنة لم ينفعه "(٢) .

٣ ـ حفظ أحاديث السنة النبوية للعمل ا ؛ لأ ا المرجع في الأحكام الشرعية ، ومن هنا قال حفاظ الأحاديث :" كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به "(٣) .

٤ ـ الاهتمام بشرح متون السنة النبوية في دروسهم ومؤلفا م .

٥ ـ قراءة سيرة النبي ﷺ وأصحابه الكرام ، واستنباط الأحكام والمنهج الصحيح .

٦ ـ دعو م تكون للسنة النبوية وعلى منهاجها .

٧ ـ الإنكار على المخالفين على قدر مخالفتهم للسنة النبوية ، "وأهل السنة والجماعة يقولون ما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع وهو : أن المؤمن يستحق وعد الله وفضله الثواب على حسناته ، ويستحق العقاب على سيئاته ، وإن الشخص الواحد يجتمع فيه ما يثاب عليه ، وما يعاقب عليه ، وما يحمد عليه ، وما يذم عليه ، وما يحب منه ، وما يبغض منه ، فهذا هذا "(٤) .

٨ ـ إحياؤهم ما اندثر من السنن ولو هجرها الناس ، فإن " إحياء السنة عند فساد

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ، علي بن سلطان محمد القاري ، ، تحقيق جمال عيتاني :٣٨٤/١،{ط١، دار الكتب العلمية ،بيروت: ١٤٢٢هـ } .

(٢) حلية الأولياء ٣١٠/٩ .

(٣) اقتضاء العلم العمل، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي ، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني : ص٩٠، { المكتب الإسلامي ،بيروت: ١٣٩٧هـ } .

(٤) الفتاوى ١٦/١١ .

الأمة من أفضل الجهاد ، وأجزل القرب "[1] .

٩ـ محاربتهم البدع المحدثة ، ولو تعلق الناس ا .

١٠ـ قائدهم الدليل في أقوالهم وأفعالهم ، فيخالفون أهواءهم تبعا للنص .

١١ـ اجتماعهم وولاؤهم يكون للسنة النبوية فقط .

١٢ـ دعو م " تكون إلى الدين كله كما أنزله الله سبحانه وتعالى ، لا اجتزاء ، ولا تحريف ، ولا تبديل ، ولا زيادة ، ولا نقص "[2] .

---

(١) حاشية رد المختار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار ، السيد محمد أفندي عابدين :٣٢/٦،{ دار الفكر ،بيروت: ١٤٢١هـ } .

(٢) من معالم الدعوة الراشدة ، عوض بن محمد القرني :ص٢٢،{ط١،دار ا تمع ،جدة: ١٤١٣هـ } .

المبحث الثاني

منهج الدعاة الدعوي من خلال الآيات الواردة فيهم

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول: منهج الدعاة في تربيتهم الذاتية لأنفسهم من خلال الآيات.

المطلب الثاني : منهج الدعاة في تبليغ الدعوة من خلال الآيات .

المطلب الثالث: منهج الدعاة في تعاملهم مع غيرهم .

المطلب الأول

منهج الدعاة في تربيتهم الذاتية لأنفسهم من خلال الآيات

القيام بواجب الدعوة عمل إيماني شاق ، يحتاج إلى قدرات وطاقات وإمكانات ، إلا أني سأتكلم عن أساس تلك الإمكانيات ، وهو التربية الذاتية من الدعاة لأنفسهم ؛ ليقوموا بواجبهم على خير وجه ؛ وليكملوا مسير م مع تغير الأحوال والظروف .

وتبرز منهجية الدعاة في تربيتهم الذاتية لأنفسهم من خلال ما يلي :

أولا : توحيدهم .

ثانيا : علمهم الشرعي .

ثالثا : عباد م .

وسأفصل هذه المناهج الثلاثة .

أولا : توحيدهم لله :

العقيدة الإسلامية مصدر الحياة يعد الإنسان إن لم يتصف ا في عداد الأموات ، وهي للدعاة تمثل ولاءهم وبراءهم ، وتمثل حيا م الحقيقية ، تحقيقا لقوله تعالى :﴿قُلْ إِن صلاتِي ونسكِي ومحياي ومماتِي لِلهِ رب الْعالَمِين۝ لا شرِيك له وبِذَلِك أُمِرت وأنا أولُ الْمسلِمِين﴾ .

ولهذه العقيدة في حيا م معالم كثيرة ، أذكر أهمها ، وهي :

١ ـ صفاء عقيد م من شوائب البدع الاعتقادية والعملية .

٢ ـ اهتمامهم بأعمال القلوب .

٣ ـ إيما م بالغيب .

وذلك لأ ا تشمل معالم كثيرة داخلة فيها ، كما سيتبين في العرض التالي .

١. صفاء عقيدتهم من شوائب البدع الاعتقادية والعملية

وذلك لاعتصامهم بالكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح ، " وهذه الخاصية لا توجد في مذاهب أهل الكلام والمبتدعة والصوفية ، الذين يعتمدون على العقل والنظر ، أو على الكشف والحدس والإلهام والوجد ، وغير ذلك من المصادر البشرية الناقصة التي

يحكمو ا "[1] .

وكلما خالطت البدعة داعية نقص من تأييد الله له بقدر نقصان توحيده ، ولعل هذا السر في بقاء عقيدة أهل السنة والجماعة إلى قيام الساعة ، كما صح عن النبي ﷺ قوله : " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله ، وهم ظاهرون "[2] .

ويستصحب هذا الحكم أيضا على الأمة الإسلامية بكاملها " فإن المعركة بين الأمة المسلمة وبين أعدائها هي قبل كل شيء معركة هذه العقيدة ، وحتى حين يريد أعداؤها أن يغلبوها على الأرض والمحصولات والاقتصاد والخامات فإ م يحاولون أولاً أن يغلبوها على العقيدة ؛ لأ م يعلمون بالتجارب الطويلة أ م لا يبلغون مما يريدون شيئا والأمة المسلمة مستمسكة بعقيد ا ، ملتزمة بمنهجها ، مدركة كيد أعدائها ، ومن ثم يبذل هؤلاء الأعداء ، وعملاؤهم جهد الجبارين من خداع هذه الأمة عن حقيقة المعركة ؛ ليفوزوا منها بعد ذلك بكل ما يريدون من استعمار واستغلال ، آمنين من عزمة هذه العقيدة في الصدور ، وكلما ارتفعت وسائل الكيد لهذه العقيدة والتشكيك فيها والتوهين من عراها استخدم أعداؤها هذه الوسيلة المترقية الجديدة ، ولكن لنفس الغاية القديمة "[3].

ولهذا المعلم في حياة الدعاة مظاهر ، وهي :

١ ـ انتسا م لأهل السنة والجماعة قولا وحقيقة .

٢ ـ دراستهم العقيدة على منهج أهل السنة والجماعة .

٣ ـ تعليمهم لعقيدة أهل السنة والجماعة في مساجدهم ومدارسهم ، وكتبهم .

٤ ـ تحاكمهم لمنهج السلف الصالح ، والقرون الثلاثة المفضلة ، فإن " من طريقة أهل السنة والجماعة إتباع آثار رسول الله ﷺ باطناً وظاهراً ، واتباع سبيل السابقين

---

(١) بحوث في عقيدة أهل السنة والجماعة وموقف الأشاعرة والحركات الإسلامية المعاصرة منها ، الدكتور ناصر بن عبد الكريم العقل :ص٣٣،{ط٢، دار العاصمة ،الرياض: ١٤١٩هـ } .

(٢) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب قول النبي ﷺ لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، وهم أهل العلم ، برقم (٦٨٨١)٢٦٦٧/٦ ، ومسلم ، كتاب الإمارة ، باب لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ، برقم(١٩٢٠)١٣٢٥/٣،واللفظ للبخاري .

(٣) معركتنا مع اليهود ، سيد قطب :ص٢٢، {ط٦، دار الشروق ، القاهرة:١٤٠٣هـ } .

الأولين من المهاجرين والأنصار "[1] .

٥ ـ وقوفهم عند حدود السنة النبوية التي تبلغهم وليس التقليد الأعمى .

٦ ـ عدم او م بشأن محقرات الذنوب ، فهي بريد لغيرها من الكبائر والشرك ، فقد قال النبي ﷺ :" إياكم ومحقرات الذنوب كقوم نزلوا في بطن واد فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى انضجوا خبز م وإن محقرات الذنوب متى يأخذ ا صاحبها لكه "[2] .

٧ ـ تعظيمهم لمشايخ أهل السنة والجماعة واستفتاؤهم والصدور عن آرائهم .

٨ ـ لا يفرقون في باب البدع بين بدعة حسنة أو سيئة ، فالبدع كلها ضلال عندهم .

٩ ـ تتبعهم لآثار السلف والوقوف عندها ، وقد كان من أقوال سلفهم:" إنا نقتدي ولا نبتدي ، ونتبع ولا نبتدع ، ولن نضل ما تمسكنا بالأثر ، وليس طريق أقصر إلى الجنة من طريق من سلك الآثار ، وطوبى لمن مات على الإسلام والسنة "[3] .

٢.اهتمامهم بأعمال القلوب

" من أصول أهل السنة والجماعة التي اتفقوا عليها وتميزوا ا أن الإيمان قول وعمل ، قول القلب واللسان ، وعمل القلب والجوارح ، يزيد بالطاعة ، وينقص بالعصيان .

ومن أهم ما ينبغي معرفته من ذلك أن أصل الإيمان في القلب،كما قال:﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾[4].

فمن صلح قلبه صلح جسده قطعا بخلاف العكس ، وإذا كان كذلك ، فأعمال الجوارح الظاهرة لا تكون إيمانا بدون إيمان القلب ، وما يستقر في القلب من إيمان ، ونفاق لا بد أن يظهر موجبه في القول والعمل ، بل ويلزم من عدم طاعة القلب عدم طاعة الجوارح ، وكذا لا ينفع تصديق القلب مع انتفاء عمل القلب .

---

(١) الفتاوى ١٥٧/٣ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ، برقم (٢٢٨٦٠) ، وحسن إسناده الحافظ في الفتح (٣٢٩/١١) ، وقال الهيثمي في ا مع (١٩٠/١٠) : " رجاله رجال الصحيح " أ.هـ .

(٣) مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة ، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي :ص٦٥،{ط٣، الجامعة الإسلامية ،المدينة: ١٣٩٩هـ } .

(٤) ا ادلة : ٢٢ .

ثم تأتي بعد ذلك مسألة التفاضل في الأعمال ، فالفضائل عند الله إنما هي بحقائق الإيمان الذي في القلوب،والأعمال إنما يعظم قدرها ويصغر بما في القلوب،وبناء على ذلك فمعرفة حقيقة أعمال القلوب وأحكامها أهم من معرفة حقيقة أعمال الجوارح "[(١)] .

والدعاة في القرآن من غير الأنبياء الذين سبق الوقوف مع تفسير كلامهم ظهر أثر أعمال قلو م على جوارحهم ، فيقينهم بالله ، وإخلاصهم له ، ومحبتهم له ولشرعه ، وزهدهم في الدنيا الفانية ، وصدق توكلهم على ر م ، ورجاؤهم ، وحسن ظنهم به ، وخوفهم منه ، كل ذلك وغيره من أعمال القلوب قادهم للوقوف ، والصدع بالدعوة لر م ، وتحمل المشاق في سبيل ذلك ، حتى إن البعض منهم كان يعرف مصير دعوته أنه سينتهي بالقتل ، كما حدث لمؤمن آل يس ، أو الطرد كما حدث لفتية الكهف .

ومع كل ذلك لم يبالوا في سبيل دعو م أن يلقوا أي أذى .

ولا ترجع هذه التضحية إلا لما قام في قلو م من الإيمان بالله ، وما تبعه من أعمال قلبية إيمانية .

ولهذا فإن الدعاة يولون أمر أعمال القلوب أهمية كبرى ؛ لأهميتها في باب الإيمان ؛ ولأ ا أكبر زاد دعوي لهم ، ومن تلك الأعمال :

المحبة ، والخوف ، والرجاء ، واليقين ، والصدق ، والإخلاص ، والانقياد ، والقبول[(٢)] .

ولكثرة الرسائل التربوية حول هذه الأعمال،ولضيق المقام أترك التفصيل فيها، وأقتصر على ذكر بعض قواعد أهل السنة والجماعة في باب أعمال القلوب،ومنها:

القاعدة الأولى :

أعمال القلوب عند أهل السنة والجماعة هي : " الأعمال التي يتعلق أداؤها بالقلب دون سائر الجوارح ، وإنما يعرف حقيقتها من وجدها ، ومن لم يجدها فلا يمكن له أن يتصورها بالتعريف الاصطلاحي "[(٣)] .

---

(١) أعمال القلوب حقيقتها ، وأحكامها ، عند أهل السنة والجماعة وعند مخالفيهم ، الدكتور سهل بن رفاع العتيبي :٧/١-٨باختصار يسير،{ط١،مطابع جامعة الإمام ،الرياض: ١٤٢٦هـ } .

(٢) انظر : أعمال القلوب ، بسط فيها مؤلفها الكلام عن هذه الأعمال ،

(٣) أعمال القلوب ١٥٤/١ .

وقد يصعب أحيانا تعريفها بتعريف جامع مانع لتداخلها وتشا بها وتقار ا،فمن الصعوبة جدا عزل الإخلاص عن الصدق،ولهذا كان السلف كثيرا ما يمثلون لها بأمثله.

فيدل ذلك على أن للقلب أعمالا تقوم به غير أقوال اللسان وأعمال الجوارح ، كما سبق التمثيل به ، وهذا يزيد من أهمية تعلم الأمر ودراسته .

القاعدة الثانية :

أعمال القلوب عند أهل السنة والجماعة جزء من الإيمان ، " فالإيمان له ظاهر وباطن ، وظاهره قول اللسان وعمل الجوارح ،وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته "[1] .

ومن هذا الباب اكتسبت أهميتها عند أهل السنة والجماعة ، فإ م يتعاملون معها على أ ا جزء من الإيمان الواجب عليهم تحقيقه وتكميله .

القاعدة الثالثة :

أقوال القلب متلازمة مترابطة مع أعمال القلوب ، " فأقوال القلوب من العلم ، والمعرفة ، والتصديق ، إن لم تصحبها أعمال القلوب من الانقياد والاستسلام والخضوع لم يكن المرء ا مسلما ، بل تصديق هذا شر من عدمه ؛ لأنه ترك الانقياد لله مع علمه ومعرفته "[2] .

ويوضح هذا التلازم بمثال من أقوال القلب وأعماله ، وهو :

" التوكل ، يجمع أصلين : علم القلب ، وعمله ، أما علمه :

فيقينه بكفاية وكيله ،وكمال قيامه بما وكله إليه ، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك .

وأما عمله :

فسكونه إلى وكيله ، وطمأنينته إليه ، وتفويضه وتسليمه أمره إليه ، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك ، ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه "[3] .

القاعدة الرابعة :

أعمال القلوب عند أهل السنة والجماعة " أصل لأعمال الجوارح ، وأساس دعوة

---

(١) الفوائد ٨٥ .

(٢) أعمال القلوب ١٦٦/١ .

(٣) طريق الهجرتين ٣٨٩ .

الرسل عليهم السلام ، وهي محل نظر الرب من العبد ، وأعمال الجوارح بدو ا عديمة الفائدة بل هي من أعمال المنافقين "[1] .

وهذا يزيد في أهميتها والعناية ا ، ويسهل من خلاله علاج بعض مظاهر أمراض الجوارح التي تتعلق بالإيمان ، كالتهاون في الصلاة مثلا :

يكون علاجها بمراجعة عمل القلب للصلاة بمحبتها ، والانقياد ، والتعظيم لها ، وهكذا .

وبالمقابل معالجة أمراض القلب التي تتعلق به كالرياء ، والنفاق ، والعياذ بالله .

" فأصل الإيمان في القلب ، والأعمال الظاهرة تصديق لما في القلب ودليل عليه وشاهد ، وما في القلب هو الأصل "[2] .

وهذه القاعدة تدل على أن عدم طاعة القلب يلزم منها عدم طاعة الجوارح ، وأنه لا يتصور أبدا إيمان في الجوارح كامل مع خلو القلب من أعماله .

كما تدل على " أن الاعتناء بإصلاح القلب وبصفاته مقدم على الأعمال بالجوارح ، وإنما كان ذلك لأن أعمال القلوب هي المصححة للأعمال ، إذ لا يصح عمل شرعي إلا من مؤمن علم بمن كلفه،مخلص له فيما يعمله ، ثم لا يكمل ذلك إلا بمراقبة الحق فيه "[3].

القاعدة الخامسة :

التفاوت في الأعمال العبادية الظاهرة يكون بحسب أحوال القلوب[4] .

وذلك بدلالة قوله ﷺ " إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى "[5] ، فرب عمل يكون في الظاهر صغيرا ، لكن لما يقوم بقلب صاحبه من الإخلاص والصدق لله يبلغ به عمله مراتب لم يكن ظاهر عمله يبلغه ا .

---

(1) أعمال القلوب ٣١٣/١ .

(2) الفتاوى ٦٤٤/٧ .

(3) المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم ، أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي :٥٣٨/٦،{ط٢،دار ابن كثير ،دمشق:١٤٢٠هـ } .

(4) انظر : أعمال القلوب ٣٢٠/١ .

(5) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب بدء الوحي ، باب كيف بدء الوحي إلى الرسول ﷺ ، برقم (١) ٣/١، ومسلم ، كتاب الإمارة ، باب قول النبي ﷺ إنما الأعمال بالنية ، برقم (١٩٠٧) 1515.

وبالمقابل قد يكون العمل كبيراً ؛ إلا أن تفريط صاحبه بعمل قلبه ، وتراكم الأمراض القلبية عليه يجعل ذلك العمل صغيراً في عين الله سبحانه ، فإنه طيب لا يقبل إلا طيبا خالصاً لوجهه الكريم .

القاعدة السادسة :

أعمال الجوارح لها تأثير على أعمال القلوب صلاحاً وفساداً[1] .

العلاقة بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح مترابطة متلازمة ، فصلاح أحدهما يؤثر على الثاني بالضرورة ، كما أن فساده يؤثر عليه .

وقد يظن بعض من يقرأ كلام أئمة السنة في أعمال القلوب ، أن أعمال القلوب هي التي تؤثر على أعمال الجوارح ، بينما أعمال الجوارح لا تؤثر ، أي أن العلاقة من جهة واحدة .

وهذا الفهم غير صحيح ، فالتلازم يقتضي أن صلاح وفساد أعمال الجوارح يؤثر على أعمال القلب ، وإنما زاد كلام أهل السنة على أعمال القلوب ؛ لأ ا الأصل ؛ وردا على من خالف من أهل البدع .

القاعدة السابعة :

أعمال القلوب عند أهل السنة والجماعة متلازمة بالجملة ، فقد يلزم من انتفاء أحدها انتفاء بقيتها ، ومنها ما لا يلزم من انتفائه انتفاء البعض الآخر[2] .

لأن أعمال القلوب على درجات متفاوتة ، فمنها الواجب ، ومنها المستحب ، فمثلا : التلازم بين المحبة ، والخوف ، والرجاء ، فكل منها ملازم للآخر ؛ فيلزم من انتفاء أحدها أن تنتفي بقيتها لتلازمها ، ولأ ا من واجبات أعمال القلوب .

وهذه القاعدة تجعلنا تم بأعمال القلوب ، ولا نكتفي بأحدها دون آخر ، وإنما نحرص عليها جميعا .

القاعدة الثامنة :

أعمال القلوب متلازمة أيضا في الثبوت ، " فبعضها أعلى درجات من بعض ،

---

(١) أعمال القلوب ٣٣٤/١ .

(٢) انظر : أعمال القلوب ٥٢٨/١ . بتصرف .

وبعضها يتضمن بعضاً ويستلزمه ، ويكون ما ذكر منها في بعض النصوص الشرعية مستلزما ومتضمنا لما ترك "[1] .

" فمقامات الإيمان لا تعدم بالتنقل فيها ، بل تندرج وينطوي الأدنى في الأعلى ، كما يندرج الإيمان في الإحسان ، وكما يندرج الصبر في مقامات الرضا ، لا أن الصبر يزول ويندرج الرضا في التفويض ،ويندرج الخوف والرجاء في الحب،لا أ ما يزولان"[2].

وهذا مفيد في أنه يسهل على المؤمن الأمر ، فإن حقق بعض المقامات دخل فيها مقامات من الإيمان أخرى .

القاعدة التاسعة :

أعمال القلوب عند أهل السنة والجماعة ليست على درجة واحدة ، وإنما هي " متفاضلة في مجموع شعبها وكل شعبة منها ، وهذا التفاضل يرجع في مجمله إلى ثلاث درجات : أصل ، وكمال واجب ، وكمال مستحب ، وإذا كان كذلك فأهل الإيمان في أعمال القلوب متفاضلون أيضا في كل شعبة منها ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة ، فمنهم السابق بالخيرات ، ومنهم المقتصد ، ومنهم الظالم لنفسه "[3] .

٣.إيمانهم بالغيب:

من وسائل تربية الدعاة لأنفسهم الإيمان بالغيب ، وهو ركن من أركان الإيمان يتميز بالإيمان به المؤمنون عن الكافرين[4] ،وعليه مدار الإيمان،وهو يتضمن بقية الأركان ويستلزمها .

وهو أيضا الدافع للدعاة أن يدعوا لر م ، والمحفز لهم في حال فتورهم ، فإيما م بالغيب ، وما أعده الله لهم جزاء على دعو م ، ومعيته لهم وتأييده لهم ، وما توعد به سبحانه من أعرض عن دينه يعتبر ذلك سندا لهم في دعو م .

---

(١) أعمال القلوب ٥٣١/٢ .

(٢) عدة الصابرين ١٢٤ .

(٣) أعمال القلوب ٧٢٧/٢ .

(٤) الروح،أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية :ص٦٤،{ دار الكتب العلمية ،بيروت: ١٣٩٥هـ }.

ولهذا المعلم مظاهر في حياة الدعاة ، وهي :

١ ـ يقينهم بالله يقينا كاملا وتطهير إيما م من الشك .

٢ ـ ثقتهم بمعية الله لهم في كل أحوالهم والتي " تدل على أنه معهم بالنصر والتأييد والإعانة على عدوهم "(١) .

٣ ـ ربط الناس بالله أثناء دعو م .

٤ ـ تقديم النص الشرعي على غيره فيقدم عندهم " النص على الرأي ، والشرع على الهوى ، فالأصل الذي افترق فيه المؤمنون بالرسل ،والمخالفون لهم تقديم نصوصهم على الآراء ، وشرعهم على الأهواء،وأصل الشر من تقديم الرأي على النص والهوى على الشرع ، فمن نور الله قلبه رأى ما في النص والشرع من الصلاح والخير ، وإلا فعليه الانقياد لنص رسول الله ﷺ وشرعه،وليس له معارضته برأيه وهواه "(٢) .

٥ ـ يظهر صدق توكلهم على ر م ؛ لارتباط التوكل بالإيمان بالغيب .

٦ ـ زهدهم في الحياة الدنيا ؛ لأ ا متاع وإن الآخرة هي دار القرار .

٧ ـ استمرارهم في دعو م على اختلاف الظروف ؛ لإيما م بتأييد الله لهم .

٨ ـ إيما م بجميع الرسل والأنبياء إيمانا يقتضي "التصديق الجازم بأن الله تعالى بعث في كل أمة رسولا يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والكفر بما يعبد من دونه ، وأن جمعيهم صادقون ، مصدقون ، بارون ، راشدون ، كرام ، بررة ، أتقياء ، أمناء ، هداة ، مهتدون ، وبالبراهين الظاهرة ، والآيات الباهرة من ر م مؤيدون ، وأ م بلغوا جميع ما أرسلهم الله به لم يكتموا منه حرفا ولم يغيروه ولم يزيدوا فيه من عند أنفسهم حرفا ولم ينقصوه "(٣) .

٩ ـ إيما م ، ومحبتهم للملائكة والذي "ينتظم معاني أحدها : التصديق بوجودهم ، والآخر: إنزالهم منازلهم وإثبات أ م عباد الله وخلقه ،كالإنس،والجن ، مأمورون مكلفون ، لا يقدرون إلا على ما يقدرهم الله تعالى عليه ، والموت جائز عليهم ، ولكن الله تعالى

---

(١) منهاج السنة النبوية ، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية ، تحقيق محمد رشاد سالم :٣٨١/٣،{مؤسسة قرطبة ،بيروت: ١٤٠٦هـ } .

(٢) منهاج السنة ٤١١/٨ .

(٣) معارج القبول،حافظ حكمي ، تحقيق عمر أبو عمر :٦٧٧/٢،{ط١،دار ابن الجوزي ،الدمام:١٤١٠هـ }.

جعل لهم أمدا بعيدا ،فلا يتوفاهم حتى يبلغوه ، ولا يوصفون بشيء يؤدي وصفهم به إلى إشراكهم بالله تعالى "[1] .

١٠ـ استعدادهم لليوم الآخر ، والذي يبدأ بإيما م الجازم بالموت وما بعده ، وكذلك الاستعداد له بالأعمال الصالحة ، وألا تكون دعو م على حساب نقص في عباد م الذاتية .

١١ـ إدراكهم للفتن والملاحم على ضوء الدليل الصحيح .

١٢ـ معرفتهم للقَدر على أصول أهل السنة والجماعة ؛ لعلاقته الوثيقة بالإيمان بالغيب .

ثانيا : علمهم الشرعي وعملهم به

وهي وسيلة بالغة الأهمية للداعية لا تقوم دعوته إلا ا ، ولا يسمى داعية إلا حينما يؤمن بشيء يدعو إليه ، ولا يستطيع الداعية إيصال رسالة الدعوة لغيره إلا على قدر ما لديه من علم يقنع به الآخرين ويجادل به المعترضين .

" ومما يجب على الداعية أن يكون بصيرا بما يدعو إليه ، فلا يتكلم إلا بما يعلم أنه الحق ،أو بما يغلب على ظنه أنه الحق إذا كان هذا الشيء الذي يدعو إليه مما يسوغ فيه الظن ، أما أن يدعو إليه بجهل ، فإنه يهدم أكثر مما يبني ، مع أنه آثم إثما كبيرا "[2].

وما زال أهل العلم من المتقدمين والمتأخرين يجعلون من آداب المعلم أن يدعو ذا العلم الذي تعلمه[3] ، وأن يعامل " الناس بمكارم الأخلاق ، من طلاقة الوجه ، وإفشاء السلام ، وإطعام الطعام ، وكظم الغيظ ، وكف الأذى عن الناس ، واحتماله منهم ، والإيثار وترك الاستئثار ، والإنصاف ، وترك الانتصاف ، وشكر التفضل ، وإيجاد الراحة ، والسعي في قضاء الحاجات ، وبذل الجاه في الشفاعات ، والتلطف بالفقراء،والتحبب

---

(١) شعب الإيمان ١٦٣/١ .

(٢) تعاون الدعاة وأثره في ا تمع ،فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين:ص١٣،{دار الوطن ،الرياض: ١٤٢٤هـ } .

(٣) انظر : اقتضاء العلم ، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ، تحقيق فضيلة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني :ص٢٣،{ط١،مكتبة المعارف ،الرياض: ١٤٢٢هـ } .

إلى الجيران والأقرباء ، والرفق بالطلبة وإعانتهم وبرهم "[1].

وهناك أمور ينبغي مراعا ا في باب العلم الشرعي للداعية ، وهي :

١ ـ أن الداعية محتاج في دعوته للعلم الشرعي لا غنى له عنه[2] ، وأوجب العلوم الشرعية العلم بالله وأسمائه وصفاته[3] .

٢ ـ على الداعية تعلم القدر الواجب من العلم الشرعي ، وضابط ذلك :

تعلم ما فرضه الله على العبد المؤمن ، كأمر صلاته ، وزكاته ، وصيامه ، وحجه .

٣ ـ على الداعية أن يحصل بعد ذلك الحد الأدنى من العلم ، وضابط ذلك :

تعلم ما يمكّنه من نشر دعوته .

٤ ـ بعد ذلك " هناك أعمال دعوية ضرورية تشتد الحاجة فيها إلى أصحاب التخصصات ، كالترجمة ، والكتابة الأدبية ، والنقد ، والأعمال المالية ، والتطوير الإداري ، وغيرها ، وكل هذه الأعمال تعتبر اليوم من ضرورات العمل الدعوي "[4] وهي أعمال لا تحتاج قدرا من العلم الشرعي ، ومع ذلك هي من أجل الأعمال الدعوية في زماننا .

٥ ـ التعارض بين تعلم العلم والدعوة إلى الله ، غير متصور في كثير من قضاياه ، ويرجع ذلك لارتباط الدعوة بالعلم ، وتلازم العلم الشرعي مع الدعوة إلى الله ، مما يجعل محاولة تفكيكهما غير ناجحة غالبا .

وقد وجد الشيطان له مرتعاً خصباً يصد به عن الدعوة إلى الله من خلال حيلة التعارض المفتعلة ، فإن من آداب طالب العلم في بدايته أن يدعو إلى ما يتعلمه ، ويعد ذلك من الوسائل التي تعين على تثبيت العلم ، وبالمقابل الداعية إلى الله لا يسمع لقوله ما لم يتكلم عن بينة وبصيرة وعلم .

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم ، بدر الدين إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني ، تحقيق حسان عبد المنان ، ص٣٩،{بيت الأفكار ،بيروت: ٢٠٠٤م } .

(٢) انظر : التربية الذاتية من الكتاب والسنة ، هاشم بن علي الأهدل :ص٥١،{ط٢،دار المعالي ،ط١: ١٤٢١هـ } .

(٣) انظر : فضل علم السلف على علم الخلف لابن رجب ، ضمن مجموع رسائل ابن رجب ١٢/٣ .

(٤) تأملات في العمل الإسلامي ، محمد بن عبد الله الدويش :ص٩{ سلسة تصدر عن المنتدى الإسلامي : ١٤٢١هـ } .

٦ ـ أن الدعوة إلى الله من وسائل تحصيل العلم وتثبيته وزيادة الحصيلة الفقهية عند الداعية ، لا سيما في هذا الزمن الذي كثيرا ما تتعارض المصالح مع المفاسد بناء على معطيات العصر وظروفه ، وهذا ما يجعل الداعية يقف الموقف العلمي المستند للدليل الصحيح حتى يضمن صوابه .

٧ ـ الدعوة لا تحول الداعية إلى مفت يتولى أمور الفتوى وما ينبني عليها ، وما يتبعها ما لم يتأهل لهذه المه لة .

وما يوجد في أذهان الناس من خطأ تجاه هذه القضية لا يتحمل الدعاة تبعته .

٨ ـ طلب علم القلوب من أهم ما يجب على الدعاة العناية به وتعلمه ، وتطبيقه في حيا م ، وذلك حتى لا تفسد عليهم قلو م من حيث لا يشعرون ، ولأن للقلوب فقهاً خاصاً يعرفه أرباب السلوك السليم ، ومن ذلك :

أعمال القلوب ، وأمراض القلوب ، وأقسام القلوب الثلاثة[(١)] ، وعلامات كل قسم ، وأسبابه ، وعلاجه ، وغير ذلك مما يتعلق بفقه القلب .

٩ ـ " الوقوف على ما عند المدعوين من المذاهب والتقاليد الدينية ، والعلوم والفنون الدنيوية ، وما يتعلق منها بالدعوة ويصلح أن يكون شبهة ، ومن جهل هذا القدر كان عاجزا عن إزالة الشبهات ، وحل عقد المشكلات "[(٢)] .

ولهذا المعلم مظاهر في حياة الدعاة ، وهي :

١ ـ دعو م تنطلق من منطلقات علمية شرعية ، كالعبودية لله ، والتوحيد ، وغير ذلك ، فليست قضايا فلسفية أو منطقية .

٢ ـ تربيتهم لأتباعهم على العلم الشرعي .

٣ ـ ديمومتهم في تعلم العلم ترتبط باستمرارية دعو م .

٤ ـ تقديرهم لعلماء الأمة ، وعدم التقدم بين أيديهم .

٥ ـ ارتباط دعو م بآيات القرآن والأحاديث النبوية .

٦ ـ تسهيلهم العلم الشرعي من خلال تيسير مسائله ، وتنويع وسائله .

---

(١) وهي : القلب الحي ، والمريض ، والميت ، وانظر في تفصيل الكلام عليها : أعمال القلوب ٣٣٥/١-٣٧٠ .

(٢) الدعوة ، وطريقها وآدا ا ، محمد رشيد رضا ، مجلة المنار :٤٨١/٢١ .

٧ ـ نشرهم العلم الشرعي في مجالسهم ومساجدهم .

٨ ـ إصدارهم الكتب العلمية بمختلف الأحجام ، بداية بالملصقات الدعوية ، وانتهاء بالموسوعات العلمية .

ثالثا : عبادتهم لربهم :

" العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة :

فالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وبر الوالدين،وصلة الأرحام،والوفاء بالعهود،والأمر بالمعروف ،والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين ،والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم ، والدعاء ،والذكر ،والقراءة ،وأمثال ذلك من العبادة "[1].

ولقد ضرب الدعاة من العبادة بأوفر السهام ، حتى أصبحت حيا م كلها عبادة لله سبحانه ، يتمثلون قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ۞ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[2].

وهناك أمور ينبغي مراعا ا في هذه الوسيلة ، وهي :

١ ـ أن الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى عبادة ، فعلى الداعية أن يستشعر عبودية الله وهو يقوم بدعوته أيا كان مجالها .

٢ ـ على الداعية ألا يغفل عن عبادته الذاتية لربه سبحانه وهو يمارس الدعوة واقعا عمليا ، لأن تراكم الأمور الدعوية والمشاريع والبرامج الدعوية ،قد يطغى في بعض الأحيان على حياة الداعية ، فلا بد له من ساعات خلوة بربه ، وركعات نافلة ، وأذكار يسبح فيها ، كما سيأتي بيانه .

٣ ـ مع ضغط العمل الدعوي ، وظروف الواقع على الداعية أن يلازم العبادة ولو

---

(١) العبودية ، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ، تحقيق علي حسن عبد الحميد :ص١٧،{ط٤،دار المغني : ١٤٢٥هـ } .

(٢) الأنعام : ١٦٢-١٦٣ .

كان جزءاً قليلا ، تطبيقا لقوله ﷺ لما سئل عن أحب العمل ، قال:" أدومه، وإن قل "[1].

ولأهمية العبادة فهي إحدى الوسائل التي يربي ا الدعاة أنفسهم ، ولتشعب مظاهرها وأنواعها سأكتفي بأهمها من وجهة نظري ، وهي :

١ ـ الصلاة .

٢ ـ قراءة القرآن .

٣ ـ الخلوة بالله سبحانه وتعالى .

لأن الخلوة بالله أصلها في القلب ، وقراءة القرآن أصل أعمال اللسان وأخصها ، والصلاة تجمع ذلك كله .

فإلي تفصيل هذه الأمور :

١ـ الصلاة :

وهي لذة الدعاة وسر غذائهم الروحي ، وموطن سرورهم ، " فإ ا محك الأحوال ، وميزان الإيمان ، ا يوزن إيمان الرجل ، ويتحقق حاله ، ومقامه ، ومقدار قربه من الله ، ونصيبه منه ، فإ ا محل المناجاة والقربة ، ولا واسطة فيها بين العبد وبين ربه ، فلا شيء أقر لعين المحب ، ولا ألذ لقلبه ، ولا أنعم لعيشه منها إذا كان محبا ، فإنه لا شيء آثر عند المحب ولا أطيب له من خلوته بمحبوبه ، ومناجاته له ، ومثوله بين يديه ، وقد أقبل محبوبه عليه ، وكان قبل ذلك معذبا بمقاساة الأغيار ، ومواصلة الخلق ، والاشتغال م .

فإذا قام إلى الصلاة هرب من سوى الله إليه ، وأوى عنده ، واطمأن بذكره ، وقرت عينه بالمثول بين يديه ومناجاته ، فلا شيء أهم إليه من الصلاة ، كأنه في سجن وضيق وغم حتى تحضر الصلاة ، فيجد قلبه قد انفسح وانشرح واستراح .

وقال بعض السلف : ليس بمستكمل الإيمان من لم يزل في هم وغم حتى تحضر الصلاة ، فيزول همه وغمه ، أو كما قال ، فالصلاة قرة عيون المحبين ، وسرور أرواحهم ، ولذة قلو م ، و جة نفوسهم ، يحملون هم الفراغ منها إذا دخلوا فيها ، كما يحمل

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب الإيمان ، باب أحب العمل إلى الله أدومه ، برقم (٤٣) ٢٢٠١/٥ ، ومسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره ، برقم (٧٨٢) ٥٤١/١ واللفظ لمسلم .

الفارغ البطال همها حتى يقضيها بسرعة ، فلهم فيها شأن ، وللنقارين شأن ، يشكون إلى الله سوء صنيعهم ا إذا ائتموا م ، كما يشكو الغافل المعرض تطويل إمامه ، فسبحان من فاضل بين النفوس ، وفاوت بينها هذا التفاوت العظيم .

وبالجملة فمن كان قرة عينه في الصلاة فلا شيء أحب إليه ولا أنعم عنده منها ، ويود أن لو قطع عمره ا غير مشتغل بغيرها ، وإنما يسلي نفسه إذا فارقها بأنه سيعود إليها عن قرب ، فهو دائما يثوب إليها ولا يقضي منها وطرا ، فلا يزن العبد إيمانه ومحبته لله بمثل ميزان الصلاة ،فإ ا الميزان العادل الذي وزنه غير عائل "[1] .

وتكمل حياة الدعاة القلبية باتباع صلاة النافلة بعد الفريضة ، ولا تكمل لذ م إلا حين يصلون الضحى ، وركعات بين الظهر والعصر ، فإ ا كما قال النبي ﷺ :" صلاة مشهودة محضورة "[2] ، فإذا حان وقت المغرب ابتدر سارية المسجد أسوة بالصحابة ،فقد كانوا "إذا أذن المؤذن لصلاة المغرب ابتدروا السواري فيركعون ركعتين ركعتين حتى إن الرجل الغريب ليدخل المسجد فيحسب أن الصلاة قد صليت من كثرة من يصليهما "[3] ، ثم يصلي بين المغرب والعشاء ، فإ ا صلاة مشهودة محضورة ، وأما بعد صلاة العشاء ، فيفتح لهم صلاة الليل ، أوله ، أو أوسطه ، أو آخره ، ويختمون ليلتهم بالوتر .

ولهذا المعلم في حياة الدعاة مظاهر ، وهي :

١ ـ حرصهم على إمامة المصلين في صلوا م اقتداء بالنبي ﷺ وخلفائه ﷺ وأهل العلم .

٢ ـ محافظتهم على صلاة الفرائض .

٣ ـ اتباعهم الفرائض بالسنن الرواتب لما ورد في فضلهامن قوله ﷺ : " من حافظ على ثنتي عشرة ركعة تطوعا غير فريضة إلا بنى الله له بيتا في الجنة "[4] .

---

(١) طريق الهجرتين ٤٥٧-٤٥٨ .

(٢)أخرجه مسلم،كتاب صلاة المسافرين ،باب إسلام عمرو بن سلمة، رقم (٨٣٢) ٥٧٠/١ عن عمرو بن عبسة ﵁

(٣) أخرجه مسلم،كتاب صلاة المسافرين ،باب استحباب ركعتين قبل المغرب ،برقم (٨٣٧)٥٧٣/١عن أنس ﵁

(٤) أخرجه مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب فضل السنن الراتبة قبل الصلاة وبعدهن ، وبيان عددهن ، برقم (٧٢٨) .

٤ ـ تمسكهم بصلاة الليل ؛ لأنه " يعتبر مدرسة عظيمة تعلم تلاوة القرآن بخشوع وتدبر ، وهي تربي الفرد على مداومة ذكر الله ، والإخلاص في عبادته ، وتشد القلب إلى خالقه ، ومدرسة الليل مفتوحة لكل فرد أن ينضم إليها فيقتبس الدروس العظيمة ، والمعاني الكبيرة في تربية الذات ، والانضمام لهذه المدرسة لا يكلف شيئا إلا مجاهدة النفس من أجل مصلحتها هي ، ومن أجل تربيتها وتقويمها "(١) .

٥ ـ مجاهد م أنفسهم للتبكير للصلاة .

٦ ـ مداومتهم على تكبيرة الإحرام .

٧ ـ إتقان شروط الصلاة ، وأركا ا ،وواجبا ا ، وسننها .

٨ ـ إطالتهم صلاة النافلة .

٩ ـ صلا م على رواحلهم في حال سفرهم ، فقد قال ابن عمر ﵄ : كان النبي ﷺ يصلي على راحلته "(٢) .

١٠ ـ تعليم المدعوين الصلاة بالتطبيق العملي كما فعل النبي ﷺ(٣) .

١١ ـ إذا حزب الدعاة أمر فزعوا إلى الصلاة كما كان يفعل ﷺ ، فقد " كان إذا حزبه أمر صلى "(٤) .

١٢ ـ قضاؤهم ما يفو م من صلاة الليل بالنهار ، لقوله ﷺ : " من نام عن حزبه أو عن شيء منه ، فقرأه فيما بين صلاة الفجر ، وصلاة الظهر ؛ كتب له كأنما قرأه من الليل "(٥) .

٢.قراءة القرآن

---

(١) التربية الذاتية من الكتاب والسنة ، ٩٦ .

(٢) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب الصلاة ، باب التوجه نحو القبلة حيث كان ، برقم (٣٩١)١٥٦/١، ومسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب صلاة النافلة على الدابة ، برقم (٧٠٠) ٤٨٦/١.

(٣) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب الصلاة ، باب الصلاة على السطوح والمنبر والخشب ، برقم (٣٧٠) ، ومسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب جواز الخطوة والخطوتين ، برقم (٥٤٤) .

(٤) أخرجه أبو داود ، كتاب الصلاة ، باب وقت قيام النبي ﷺ من الليل ، برقم (١٣١٩)٣٥/٢، وحسنه الحافظ في الفتح(١٧٢/٣) .

(٥) أخرجه مسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب جامع صلاة الليل ومن نام عن حزبه أو مرض ، برقم (٧٤٧)٥١٥/١ .

و ذا يحصل لهم المدد والعون في حيا م كلها ؛ لأن " الاشتغال بالقرآن من أفضل العبادات سواء أكان بتلاوته ، أم بتدبره ، فهو أساس الدين ، وقد أودع الله فيه علم كل شيء "[1] ، وقد ورد أحاديث كثيرة في فضائله[2] .

وللدعاة مع القرآن ارتباط وثيق في عباد م ، ودعو م ، فإليه يأوون ، وبه يأنسون لهم فيه سلوة عن كل مفقود يقرأون ، ويتدبرون ، " فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ، ومعاده ، وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن ، وإطالة التأمل ، وجمع الفكر على معاني آياته ، فإ ا تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما ، وعلى طرقا ما ،وأسبا ما وغايا ما وثمرا ما ومآل أهلهما ، وتتل في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة وتثبت قواعد الإيمان في قلبه ، وتشيد بنيانه ، وتوطد أركانه ، وتريه صورة الدنيا والآخرة ، والجنة والنار في قلبه ، وتحضره بين الأمم ، وتريه أيام الله فيهم ، وتبصره مواقع العبر ،وتشهده عدل الله وفضله ، وتعرفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله ، وما يحبه ،وما يبغضه وصراطه الموصل إليه ، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه وقواطع الطريق وآفا ا ، وتعرفه النفس وصفا ا ومفسدات الأعمال ومصححا ا ،وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق ،واجتماعهم فيما يجتمعون فيه ، وافتراقهم فيما يفترقون فيه"[3].

ولهذا المعلم مظاهر في حياة الدعاة ، وهي :

١ ـ أن الدعاة أولى الناس بحفظ القرآن الكريم .

٢ ـ يتلونه في كل أحيا م ، ولهم حزب لا يخلون به ، اقتداء بالنبي ﷺ[4] .

٣ ـ ينطلقون في كثير من دعو م منه ، فيشرحون آياته ، ويقصون قصصه ،

---

(١) البرهان في تجويد القرآن ورسالة في فضائل القرآن ، محمد الصادق قمحاوي :ص٩٧،{ط١،دار عالم الكتب ،الرياض: ١٤٢٤هـ } .

(٢) انظرها في : فضائل القرآن ، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي ، تحقيق الدكتور فاروق حمادة :ص٨٦،{ط٢،دار إحياء العلوم ،بيروت: ١٤١٣هـ } . والبرهان في تجويد القرآن ،ص١٠٠ وما بعدها .

(٣) مدارج السالكين ٤٥٢/١ .

(٤) أخرجه أبو داود ، كتاب الصلاة ، باب تحزيب القرآن ، برقم (١٣٩٣) ، وقال العراقي : إسناده حسن ، انظر : المغني عن حمل الأسفار ٢٢٥/١ .

ويضربون أمثاله ، ويعظون بزواجره ، ويرغبون بترغيبه .

٤ ـ يستشهدون به في دعو م .

٥ ـ يطبقون أوامره ونواهيه ، ويتأدبون بآدابه في أنفسهم .

٦ ـ يعملون بمحكمه ، ويؤمنون بمتشا ه .

٧ ـ يبكون عند قراء م له،فإن لم يبكوا تباكوا[١]،لقوله ﷺ :"إن هذا القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا،وتغنوا به فمن لم يتغن به فليس منا "[٢].

٨ ـ يتغنون به عند قراء م ، لدلالة الحديث السابق ، ولأنه أكثر أثرا على قلب القارئ .

٣.الخلوة بالله سبحانه وتعالى

وهي فرع عن محبة العبد لربه ، وتعلقه به ، ومن ثمرا ا الأنس به ، وفرح المؤمن كله فيها[٣] وذلك لأ ا تجمع أعمالا قلبية كثيرة ، ومنها :

المحاسبة : فإن المؤمن إذا خلا بربه حاسب نفسه عن تقصيره ، وسعى في كمالها وتزكيتها ، وأصلح عيو ا .

اليقين : حيث إن المختلي بالله موقن بربه مستأنس بخلوته معه ، يعبد الله كأنه يراه .

الإخلاص : لأن الخلوة عمل سر ، يختلي المؤمن بربه في مكان لا يراه فيه أحد ، وهذا له أثره الكبير في تنقية النية ، وتصفيتها من الشوائب .

الخشية : لأن المختلي يتذكر ذنوبه ، ثم يتذكر عظمة الله ، وقدرته عليه فيوقن بالهلاك ، لا ينقذه منه إلا يقين آخر برحمة ربه ، وحسن ظنه به .

كما أن في الخلوة إشغالا للإنسان عن كثير من المخالطة التي تصيب المؤمن بالنقص ، فتعطله عن أداء واجب ، أو توقعه في ما لا يتناسب مع كمال الإيمان .

كما أن المختلي بالله لا يرضى بغير هذه العبادة ، وتجد أصعب ما عليه قطعها إلا لأمر

---

(١) وهذا في حال خلوة المؤمن مع نفسه .

(٢) أخرجه ابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب حسن الصوت بالقرآن ، برقم (١٣٣٧) ٤٢٤/١، وقال العراقي : إسناد جيد . انظر : المغني عن حمل الأسفار ٢٢٦/١ .

(٣) كتاب الزهد الكبير ، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله البيهقي، تحقيق عامر أحمد حيدر :ص١٠١،{ط٣، مؤسسة الكتب الثقافية ،بيروت: ١٩٩٦م } .

شرعي ، ومن هنا وصف بعض السلف فقال :" علامة الأنس بالله ، إذا رأيته يوحشك عن خلقه فإنه يؤنسك من نفسه وإذا رأيته يؤنسك من خلقه فإنه يوحشك عن نفسه "[1]، وهذا محمول ليس على معنى النفرة من الخلق ، فإن كثيرا من الواجبات لا تتأتى إلا مع الخلق كالصلوات ، وصلة الأرحام ، وإنما مراد السلف من الاستيحاش من الخلق أنه لا يطمئن ، ولا يسكن كالطمأنينة ، والسكينة التي تحصل حين الخلوة بالله ، فيجد في قلبه وحشة من الناس ، لأ م يقطعون عليه ارتباطه بالله ، وإن كان ذلك لا يمنع عندهم من مخالطتهم عبودية لله .

ومما يوضح هذه القضية أن وحشة الإنسان من مكان ما ، أو غابة مثلا لا تمنعه من دخول ذلك المكان ، أو عبور تلك الغابة ، إلا أنه لا يستقر فيها ، ولا يطمئن إلا حينما يأوي إلى مأواه ، وكذلك المؤمن ، وإنما أطلت في توضيحها ، لأن مسألة الخلوة قد تتعارض عند البعض مع الدعوة ، واعتقاد التعارض بينهما ! .

ومن هنا دخلت الشبهة على بعض فرق الصوفية في الخلوة ، فصرفوها من الخلوة الشرعية إلى الخلوة البدعية[2] .

والخلوة تثمر أيضا الأنس بالله ومحبته ، وطمأنينة القلب به وقوته ونشاطه وفرحه ورضاه عن ربه تعالى .

وهذا يحتم على الدعاة ساعات خلوات يناجون الله فيها ، ويتذكرون عظمته .

وهنا مسألة يجب توضيحها ، حيث يعتقد البعض أن الأنس بالله لا يكون إلا في الخلوة ، وأن المخالطة لا مجال للأنس فيها بالله ، ولإزالة اللبس ؛ يقول ابن القيم [3] رحمه الله : " من فقد أنسه بالله بين الناس ، ووجده في الوحدة ؛ فهو صادق ضعيف ، ومن وجده بين

---

(١) الزهد الكبير ص٧٨ .

(٢) انظر : الفتاوى ٤٠٤/١٠ .

(٣) الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي الدمشقي الحنبلي ، المتفنن ، النحوي ، الأصولي ، الفقيه ، اشتهر بابن القيم لأن والده كان قيما على المدرسة الجوزية بدمشق ، نشأ في بيت علمي ، وتتلمذ عل علماء منهم والده ،سمع الحديث ، واشتغل بالعلم ، وبرع في علوم كثيرة ، لازم ابن تيمية ، وعليه تتلمذ ، كان عالما بالتفسير لا يجارى فيه ، عالما بالسلوك ، له مؤلفات بديعة ، وله تلاميذ كثر ، منهم الحافظ المفسر ابن كثير ، وابن رجب ، وغيرهم ، وتوفي سنة إحدى وخمسين وسبعمائة للهجرة .
انظر : ابن القيم حياته وآثاره ، فضيلة الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد ،{ط١، دار المعارف ،الرياض:بدون}.

الناس ، وفقده في الخلوة فهو معلول ، ومن فقده بين الناس ، وفي الخلوة فهو ميت مطرود ، ومن وجده في الخلوة ، وفي الناس فهو المحب الصادق ، القوي في حاله "[١] .

كما ينبغي أن يفهم أن الخلوة لا تعني انعزال الداعية عن مجتمعه ، وغيابه عن قضاياه ، وإنما هي محطة يزداد منها الداعية إيمانا وهدى ، تكون عونا له على مواصلة الطريق الدعوي الشاق .

ولهذا المعلم في حياة الدعاة مظاهر ، وهي :

١ـ اغتنامهم ساعات المناجاة في الثلث الأخير من الليل .

٢ـ مرابطتهم في المساجد لانتظار الصلاة،لقوله ﷺ":فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط"[٢].

٣ـ ذكرهم الله على كل حال ، لحديث عائشة رضي الله عنها : " كان النبي ﷺ يذكر الله على كل أحيانه "[٣] .

٤ـ اقتطاعهم أوقات من اليوم الدعوي للخلوة بالله والأنس به .

٥ـ تطبيقهم سنة الاعتكاف في أيام رمضان .

٦ـ اغتنامهم الأوقات الفارغة عن الأعمال الدعوية للخلوة .

٧ـ حرصهم على ذكر الله خاليا ، لقوله ﷺ " سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله " وذكر منهم :" ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه "[٤] .

٨ـ اجتنا م لكثير من مظاهر المخالطة إلا حينما تكون لمعنى شرعي ، لما فيها من فوات نصيبهم من الخلوة .

٩ـ محافظتهم على أورادهم الشرعية ، وحز م اليومي من قراءة القرآن .

١٠ـ محاسبتهم لأنفسهم وتفتيشهم عن عيو ا .

١١ـ اغتنامهم أوقات غفلة الناس ليتعبدوا فيها لر م .

---

(١) الفوائد ص٤٣ .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الطهارة ، باب إسباغ الوضوء على المكاره ، برقم (٢٥١)٢١٩/١ .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الحيض ، باب استحباب ذكر الله للجنب وغيره ، برقم (٣٧٣) ٢٨٢/١.

(٤) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب الجماعة والإمامة ، باب احتساب الآثار ، برقم (٦٢٩)٢٣٤/١ ، ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب إخفاء الصدقة ، برقم (١٠٣١)٧١٥/٢ .

المطلب الثاني

منهج الدعاة في تبليغ الدعوة من خلال الآيات

الدعاة إلى الله من غير الأنبياء " أصحاب منهج في الدعوة إلى الله عز وجل له وسائله وأهدافه ، ويستحق الدراسة وخاصة أتباع الرسالة الخاتمة التي جاء ا الرسول ﷺ ، وهو كفيل بأن يفتح أمامهم ا ال لتحقيق النجاح وتبليغ الرسالة ؛ لأ م كانوا طرفا في الصراع بين الحق والباطل ، والإيمان والكفر ، والدعوة والتكذيب ، والعلو في الأرض ، والتجبر بغير الحق ، وبأس الله الذي يأخذ المتجبرين .

وإذا كان الدعاة إلى الله تعالى من غير الرسل عليهم السلام لا يأتيهم الوحي من الله عز وجل ، يسري عنهم ويخفف مشقة ما يلقونه من عنت أقوامهم ، وسوء أد م ، وتطاولهم فإ م كانوا يستمدون من الله العون والتأييد،ولهم في الرسل عليهم السلام أسوة حسنة"(١) .

ولهذا كان من اللائق أن يفرد الحديث عن منهجهم في دعو م لأقوامهم حتى يسير الدعاة في زماننا على ضوئها ، ومنهجهم في دعو م هو :

١ ـ حسن الأسلوب ، ويشمل :

أ ـ الحكمة .

ب ـ الترغيب والترهيب .

ج ـ ا ادلة بالتي هي أحسن .

٢ ـ مراعاة المصالح والمفاسد .

٣ ـ القدوة الحسنة .

فإلي بيان هذه المناهج الثلاثة .

---

(١) الدعاة إلى الله في القرآن الكريم ومناهجهم ، محمد طلعت أبو صير ، رسالة دكتوراة مقدمة لجامعة الأزهر :ص١٣٩-١٤٠،{كلية أصول الدين : ١٣٩٨هـ ، على الآلة الكاتبة } .

أولا : حسن الأسلوب :

إن الدعاة إلى الله وهم يمارسون الدعوة في حيا م يواجهون أصحاب قلوب مغلقة ، لا يفتحها إلا حسن الأسلوب ، ولين الخطاب ، والت ل في القول ، ولطيف العبارة ، ولهذا فعلى الدعاة العناية ذا الجانب ، الذي يشمل ما يلي :

١ ـ الحكمة .

٢ ـ الموعظة الحسنة .

٣ ـ ا ادلة بالتي هي أحسن .

والآن إلى تفصيل هذه الأمور .

١.الحكمة

وقد مضى الكلام فيها بما يغني عن إعادته[١] .

٢.الموعظة الحسنة

ويراد ا " الوعظ : زجر مقترن بتخويف ، وقيل : التذكير بالخير فيما يرق له القلب "[٢] .

وهما معنيان يبينان حقيقة الوعظ ، فلا يقتصر على التخويف ، وإنما يكمله بالتذكير بالخير فيما يرق له قلوب المستمعين .

وقد استخدم الدعاة من غير الأنبياء هذا المنهج كثيرا كما سبق بيانه في قصصهم ، ومن ذلك :

مؤمن آل فرعون،قال لقومه:﴿ويا قَومِ إني أخاف علَيكُم يوم التنادِ۞يوم تولونَ مدبِرين ما لَكُم مِن اللهِ مِن عاصِمٍ ومن يضلِلِ الله فَما لَه مِن هادٍ﴾[٣] .

وقال ذو القرنين : ﴿ أما من ظَلَم فَسوف نعذبه ثُم يرد إلَى ربِهِ فَيعذبه عذَاباً نكْراً ۞وأما من آمن وعمِلَ صالِحاً فَلَه جزاءً الْحسنى وسنقُولُ لَه مِن أمرِنا يسراً﴾[٤] .

---

(١) ص٣٧٢ .

(٢) أدب الموعظة ، محمد بن إبراهيم الحمد ، طباعة وتوزيع مؤسسة الحرمين الخيرية ، ص٦ .

(٣) غافر : ٣٢-٣٣ .

(٤) الكهف : ٨٧-٨٨ .

وقال الرجل لصاحب الجنتين: ﴿ فَعسى ربي أَنْ يؤتينِ خيراً مِن جنتِك ويرسِلَ علَيها حسباناً مِن السماءِ فَتصبِح صعِيداً زلَقاً ﴾[1].

وللوعظ آداب ينبغي للدعاة مراعا ا ، وهي[2] :

١ ـ العلم ، وقد مضى بيان حدود العلم في باب الدعوة إلى الله .

٢ ـ لا يقتصر على جانب الزجر والتخويف وإنما يجعل للتذكير نصيبا ، فيجمع بين الترهيب والترغيب .

٣ ـ الحلم " فالواعظ محتاج لذلك أشد الحاجة ، إذ هو معرض لما يثيره ويحرك دواعي الغضب فيه ، فلا يحسن بالواعظ أن يكون ضيق الصدر ، قليل الصبر ، وليستحضر أنه لم يقف أمام الناس ؛ ليخاصِمهم فيخصِمهم ؛ ولكن ليداوي فسادهم ويرد شاردهم "[3] .

٤ ـ الاستعداد الجيد للموعظة بأن يستحضر مقولته،ويسبرها قبل إلقائها ، ويتدرب عليها،وكم كان سوء التحضير والاستعداد صادا للمدعوين عن متابعة الواعظ .

٥ ـ مراعاة أوقات المدعوين ، فليس من المناسب أن يلقي الواعظ موعظته في وقت يكون المدعوون أصا م التعب والنصب ، كما لا يليق بالواعظ أن يطيل في موعظته على حساب أوقات المدعوين إلا في بعض الأوقات التي يرى الداعية مناسبة ذلك ،" وقد لا يتسنى تحديد وقت ملائم للموعظة لا تزيد عنه أو تتعداه ،فقد تقتضي الحكمة أن يطنب الواعظ ، وقد تقتضي أن يوجز،وقد تقتضي أن يتوسط، وإذا روعي هذا الجانب ووضع في موضعه ،عم نفعه وعظم وقعه والعكس"[4].

٦ ـ تنويع الأساليب ، فقد يستعمل أحيانا القصة ، وأحيانا ضرب المثال ، وأحيانا شرح آية ، أو مقطع من حديث نبوي ، وهكذا .

٣.١ المجادلة بالتي هي أحسن :

وقد استعملها مؤمن آل فرعون بوضوح ، فجادل قومه قائلا:﴿ يا قَومِ لَكُم الْملْك

---

(١) الكهف : ٤٠ .

(٢) من أراد التفصيل في الآداب فليراجع كتاب : أدب الموعظة ، فقد ذكر مؤلفه 55 أدبا .

(٣) أدب الموعظة ص١٧-١٨ باختصار .

(٤) أدب الموعظة ص٣٣ .

الْيوم ظَاهِرِين فِي الْأَرضِ فَمن ينصرنا مِن بأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا قَالَ فِرعونُ ما أُرِيكُم إِلَّا ما أَرى وما أَهدِيكُم إِلَّا سبِيلَ الرشادِ ۝ وقَالَ الَّذِي آمن يا قَومِ إِني أَخاف علَيكُم مِثْلَ يومِ الْأَحزابِ ۝ مِثْلَ دأْبِ قَومِ نوحٍ وعادٍ وثَمود والَّذِين مِن بعدِهِم وما اللَّه يرِيد ظُلْماً لِلْعِبادِ ۝ويا قَومِ إِني أَخاف علَيكُم يوم التنادِ۝يوم تولُّونَ مدبِرِين ما لَكُم مِن اللَّهِ مِن عاصِمٍ ومن يضلِلِ اللَّه فَما لَه مِن هادٍ﴾[1].

واستعملها كذلك مؤمن آل يس مع قومه ، وقوم قارون جادلوا قومهم الذين فتنوا بزينة قارون لما خرج على قومه في زينته .

ولهذا على الدعاة إحسان هذا الجانب ، ومعرفة محاوره[2] ، وهي :

١ ـ أن تكون المجادلة بالحسنى ، وتشمل :

الحسنى باختيار الموضوع الحسن ، والأسلوب الحسن ، والطريقة الحسنة .

وهذا ما سلكه الدعاة من غير الأنبياء الذين سبق ذكر قصصهم،فتكرر في كلامهم نداء التحبب لأقوامهم بقولهم﴿يا قوم﴾ ، وقال مؤمن آل يس عن نفسه:﴿إِني إِذاً لَفِي ضلالٍ مبِينٍ﴾[3] .

وهو يقصد قومه ، لكنه ترك التصريح بهم ؛ لئلا يصدهم عن الحق .

٢ ـ أن يقصد من المجادلة الإقناع وليس مجرد الإفحام[4] ، وهذا يجعل الداعية مخلصا لله في مجادلته ، مستعينا به في بيان حجته ، ويتكلم بيقين .

٣ ـ أن يستمع لكلام مجادله كاملا ولا يقاطعه ، وهذا يقتضي الهدوء والفهم والاحترام والثقة بالنفس والتثبت ، كما فعل مؤمن آل فرعون مع فرعون .

٤ ـ أن " يبحث عن نقط الوفاق والالتقاء بينهم وبين من يدعوهم للالتقاء عليها ، والوقوف عندها ، والانطلاق منها إلى بقية التفاصيل ؛ تجنباً للتركيز على مواطن الخلاف والنزاع في بدء الطريق "[5] .

---

(١) غافر : ٢٩-٣٣ .

(٢) للاستزادة من آداب الحوار ، انظر : الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة ، يحيى زمزمي .

(٣) يس : ٢٤ .

(٤) الدعاة إلى الله في القرآن الكريم ص٣٤٥ .

(٥) الدعاة إلى الله في القرآن الكريم ص٣٤٦ .

ولهذا ذكر مؤمن آل فرعون أمورا متفقا عليها بينهم ، كما قال :﴿ولَقَد جاءَكُم يوسف مِن قَبلُ بِالْبينات فَما زِلْتم فِي شك مِما جاءَكُم بِهِ حتى إِذَا هلَك قُلْتم لَن يبعثَ الله مِن بعدِهِ رسولاً كَذَلِك يضِل الله من هو مسرِف مرتاب﴾(١) .

٥ ـ أن يبين الحق الذي عنده بما لا يتيح مجالا للشك ، وهذا يقتضي وضوح الحجة وقوة العبارة وتنويع الأدلة ، كما قال مؤمن آل فرعون لقومه : ﴿يا قَومِ لَكُم الْملْك الْيوم ظَاهِرِين فِي الْأَرضِ فَمن ينصرنا مِن بأْسِ اللهِ إِنْ جاءَنا ﴾(٢) .

فهذه الجملة التي ذكرها هذا الرجل المؤمن واضحة المعنى صريحة وصحيحة ، لم يبخسهم حقهم ، وأثبت لهم الملك ، واعترف به ، وسألهم سؤالا لن يستطيعوا أن يجيبوا عنه إلا بالنفي ، فمن الذي ينصرهم من بأس الله ؟! .

وقوله:﴿وقَالَ الَّذِي آمن يا قَومِ إِني أَخاف علَيكُم مِثْلَ يومِ الْأَحزابِ۝ مِثْلَ دأْبِ قَومِ نوحٍ وعادٍ وثَمود والَّذِين مِن بعدِهِم وما الله يرِيد ظُلْماً لِلْعِبادِ ﴾(٣) .

وهذا تنويع للأدلة،حيث استدل لهم بالأيام الماضية ، والأمم القريبة لهم.

٦ ـ قد يتعين على الداعية أن يترك الجدال بالحسنى إلى الإغلاظ بالقول حينما تقتضي المصلحة الشرعية ذلك ، لأن الله قال: ﴿ولا تجادِلُوا أَهلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِي أَحسن إِلَّا الَّذِين ظَلَموا مِنهم ﴾(٤) .

وتقدير ذلك يرجع إلى فقه الداعية ا ادل ، كما أغلظ الرجل لصاحب الجنتين فقال له : ﴿قَالَ لَه صاحِبه وهو يحاوِره أَكَفَرت بِالَّذِي خلَقَك مِن ترابٍ ثُم مِن نطْفَةٍ ثُم سواك رجلاً۝لَكِنا هو الله ربي ولا أُشرِك بِربي أَحداً﴾(٥) .

٧ ـ وهناك آداب يجب مراعا ا في حياة المسلم ، وتتأكد في حال الجدال والحوار ، ومنها " اللباقة وعدم الاستسلام للعاطفة ، فلا يستدرجك النقاش إلى ما يفقدك السيطرة على علمك أو عاطفتك أو أمانتك ، فالمحاورة ليست معركة .

---

(١) غافر : ٣٤ .

(٢) غافر : ٢٩ .

(٣) غافر : ٣٠-٣١ .

(٤) العنكبوت : ٤٦ .

(٥) الكهف : ٣٧-٣٨ .

ومنها : التأدب وا املة ، كأن تخاطب كل واحد بأحب الأسماء إليه ، وأن تشعرهم بالتقدير ، والاعتزاز .

ومنها : التوصل للنتيجة ، فإن رأيت البحث يتجه إليها فهذا هو المطلوب ، وإلا فعليك أن تنقل المحاورة بلباقة بحيث تتجه إلى الخلاصة والنتيجة ، فلا ينبغي أن تضيع الأوقات في مناقشات لا جدوى منها "[(١)] .

ثانيا : مراعاة المصالح والمفاسد :

وهو من فقه الداعية في دعوته ، يوفر عليه كثيرا من الوقت والجهد ، ويضمن له الاستمرار في دعوته ، ويؤخذ ذلك من قوله تعالى : ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾[(٢)] أي : ما دامت الذكرى مقبولة ، والموعظة مسموعة ، سواء حصل من الذكرى جميع المقصود أو بعضه ،ومفهوم الآية أنه إن لم تنفع الذكرى بأن كان التذكير يزيد في الشر أو ينقص من الخير لم تكن مأمورا ا بل هي منهي عنها"[(٣)].

" فلا يكفي مجرد سرد النصوص وت يلها على أحوال معينة ، خصوصا عند الفتن واشتباه الأمور ، ولا يكفي إلقاء الكلمة دونما نظر في عواقبها وما تحدثه من أثر ، بل لا بد من الروية ، والاستنارة بأقوال أهل العلم ، واستشارة أهل الفقه والبصيرة ، ولا بد من النظر في المصالح والمفاسد "[(٤)] .

ولهذا على الداعية أن يراعي هذا الجانب من خلال ما يلي :

١ ـ محادثة الناس بما يعقلون ، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه : " ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة "[(٥)] .

٢ ـ مراعاة المفاسد التي قد تترتب على دعوته ودراستها واستشارة أهل العلم في ذلك ، ومحاولة التقليل منها ، وأن يكون مفتاحا للخير مغلاقا للشر .

٣ ـ مراعاة مناسبة الموضوع للوقت ، فلا يتحدث في وقت فرح عن موضوع

---

(١) كيف ندعو الناس ، عبد البديع صقر :ص٧٢-٧٣،{ط٣،المكتب الإسلامي ،بيروت:١٤٠٥هـ } .

(٢) الأعلى : ٩ .

(٣) تفسير السعدي ص٩٢١ .

(٤) أدب الموعظة ٨٩ .

(٥) أخرجه مسلم ، في المقدمة ، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع ، برقم (٥) ١١/١.

ترهيب ، ولا يتحدث في خطبة الأضحى عن أحكام الصيام ، كما لا يحسن بالداعية أن يترك أمرا عاما استشرى في المجتمع لا يوضحه ولا يبين حكم الله فيه .

٤ ـ مراعاة الطول والقصر في عمله الدعوي ، بحيث يكون مناسبا للمدعوين .

٥ ـ مراعاة عوائد المدعوين الاجتماعية .

٦ ـ مراعاة الموضوع في أوقات الفتن وهي أحلك الأوقات ، وكثيرا ما يسقط الإنسان فيها لإفراط أو تفريط ، والموفق من وفقه الله ، فعلى الداعية أن يجتهد في اختيار الموضوع المناسب ، ويستعين بالله ، ويذكر الأدلة ، ويجتنب العاطفة .

٧ ـ لايلزم الداعية أن يقول كل ما يعلم ، " وعليه أن ينظر في العواقب ، وأن يراعي المصالح ، فلا يحسن به أن يبدي رأيه في كل صغيرة وكبيرة ، ولا يلزمه أن يتكلم بكل نازلة ، بل ليس من الحكمة أن يبدي رأيه في كل ما يعلم ، حتى ولو كان متأنيا في حكمه ، مصيبا في رأيه ، فما كل رأي يجهر به ، ولا كل ما يعلم يقال "(١) .

٨ ـ مراعاة القواعد الشرعية الكبرى كالأخوة الإسلامية ، وجمع كلمة المسلمين ، واجتماع أهل السنة والجماعة .

٩ ـ مراعاة المسائل المختلف فيها وقوة الخلاف .

١٠ ـ التفريق بين أحوال البدعة والمبتدعة والتعامل معهم كما يمليه منهج أهل السنة والجماعة في باب الاعتقاد .

١١ ـ مراعاة التفريق بين المجتمعات ، فما يصلح الدعوة به في مجتمع قد لا يكون مناسبا البداءة به في مجتمع آخر ، ومرجع ذلك كله فقه الداعية الدعوي .

١٢ ـ الأصل بالداعية تجنب المصادمات والنزاعات ، والعمل باللين والرفق ، ويتأكد ذلك حين تكون الولاية بيد أعدائه .

١٣ ـ ومن مراعاة المصالح والمفاسد ترك المثالية الزائدة ، والتنظير المغرق في معالجة المنكرات ، وإنما يحتم عليه الأمر أحيانا أن يرضى بأنصاف الحلول ، ويبقى دوره في إكمال الحل الشرعي مع استمرار الأيام .

١٤ ـ ومن المصالح إعطاء الناس الحلول العملية والمقترحات الواقعية ، التي تفتح لهم

---

(١) أدب الموعظة ٥٨ .

مجال المشاركة والمساهمة .

١٥ ـ التفريق بين المسائل الكلية والقضايا العينية ، فإن المقرر عند أهل السنة أن المسائل الكلية باقية على عمومها وقو ا ، وتفسر القضايا العينية بما لا يعود على أصلها بالإبطال .

١٦ ـ ومن مراعاة المصالح التي تحل اليوم إشكاليات دعوية كثيرة أن يتوزع الدعاة الأدوار بينهم ، وأن يدعو كل منهم على حسب ما تمليه عليه تقواه لربه ، وأن يقوم إخوانه الدعاة بتصويب خطئه إن أخطأ ، جاعلين تصويبهم الخطأ جزء من دعو م لا كل دعو م .

١٧ ـ ومن مراعاة المصالح عدم الافتئات على أدوار الغير ، فإن للإمام الشرعي دورا يخصه ومن الافتئات التعدي عليه ، وللقاضي دور يخصه ومن الافتئات التعدي عليه ، وكذلك للداعية دور يخصه ومن الافتئات التعدي عليه .

١٨ ـ التفريق في الأحوال التي تمر ا الأمة الإسلامية ، فما يكون في حال قو ا يتنازل عن بعضه في حال ضعفها ، وما يكون في حال السلم لا يكون كذلك في حال الحرب ، ومن التفريق في هذا الباب التفريق بين م لة أعدائها وعداو م للأمة الإسلامية ، وتحديد ضررهم ، وتوقيت الإنكار عليهم وتعيين درجته .

بقي أن أنبه على تنبهين في اية هذا المنهج وهما :

١ ـ يعتقد البعض أن باب المصلحة والمفسدة يدرك عن طريق النظر والتأمل والتفكر في عواقب الأمور ، وينسى أن المصلحة والمفسدة لا تحدد تحديدا دقيقا إلا عن طريق نصوص الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وينقص فقه إدراك المصلحة والمفسدة بمقدار نقصان الدراية بنصوص الوحي ، ويضاف لذلك ارتباط بالله وخضوع بين يديه بأن يريه الحق حقا ويرزقه اتباعه .

٢ ـ لا ينفرد الداعية بالكلام على المصالح والمفاسد دون رجوع لأهل الاختصاص ولو من غير علماء الشريعة ، كما ينبغي الخروج برأي أكثر اتفاقا ، إذ لا يحمد الانفراد والشذوذ عن سبيل المؤمنين .

ومن تأمل قصص الدعاة من غير الأنبياء التي سبق دراستها يتبين له أ م كانوا رحمهم الله يراعون هذا الجانب ، ومن ذلك :

١ ـ مؤمن آل فرعون كان يراعي الوقت المناسب ليتكلم بإيمانه الذي يكتمه ، ولهذا لم يعلم به أقرب الناس إليه في وزارته ، فلما حانت الفرصة تكلم بما عنده .

٢ ـ كلمات مؤمن آل فرعون لم تكن مصادمة لهم ، وإنما مجادلة لهم بالحسنى .

٣ ـ فتية الكهف اقتضت المصلحة الدعوية أن يجهروا أمام قومهم بعبوديتهم لله ، كما قال الله عنهم ﴿وربطْنا علَى قُلُوبِهِم إِذْ قَاموا فَقَالُوا ربنا رب السمواتِ والْأَرضِ لَن ندعو مِن دونِهِ إِلَهاً لَقَد قُلْنا إِذاً شطَطاً﴾[1] .

كما اقتضت المصلحة الشرعية أن يعتزلوا قومهم بعد هذا الصدع والبيان في كهف يتعبدون فيه لر م .

٤ ـ مؤمن آل يس اقتضت مراعاته للمصلحة قصر كلمته ، لأن المقام لا يحتمل البسط ، فجاءت جمله مختصرة ، بينما مؤمن آل فرعون كان المقام يقتضي البسط ، لأ م لم يعلموا بإيمانه ، ولا يريد أن يخبرهم ، فاقتضت مراعاة المصلحة أن يطيل الكلام ، فجاءت جمله مبسوطة أكثر من غيرها .

ثالثا : القدوة الحسنة :

" حث الإسلام أتباعه على الإقتداء بالصالحين والشرفاء والعقلاء ، وفي مقدمة أولئك أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم .

وإذا خالف فعل الداعية قوله ربما لم يقتصر الضرر على نفسه ، بل تعدى ذلك الضرر إلى غيره ، وكان قدوة سوء في ا تمع ، إن الداعية إلى الله يكسب لدعوته إلى الله بسلوكه الحسن وقدوته الطيبة أكثر مما يكسبه لها بأقواله اللبقة ؛ لأن الناس ينظرون دائما إلى الدعاة كنماذج حية لما يدعون إليه ، ويتأثرون بسلوكهم العملي أعظم مما يتأثرون بكلما م وخطبهم المثيرة "[2] .

" إن التناقض بين القول والعمل ، والظاهر والباطن ، وازدواجية التوجيه وتناقضه ، كل ذلك من أكبر مشاكل الجيل المعاصر ، وذلك كله نبات بذرة خبيثة واحدة ، ألا

---

(١) الكهف : ١٤ .

(٢) الدعوة ، ص١١٧-١١٨ باختصار .

وهي عدم العمل بالعلم "[١] .

والمقصود بالقدوة الحسنة سلوك الداعية " بأن يكون الداعي إلى الإسلام صورة حية متحركة للإسلام ، يتجلى الإسلام في تصرفاته وحركاته وسكناته وتكون عقائده وعبادته وتعامله مع الناس وفق الشريعة الإسلامية "[٢] .

والدعاة من غير الأنبياء في القرآن من تأمل كلامهم وجد أ م قدوة حسنة لأقوامهم ، ولهذا لم يستطع أقوامهم القدح في سلوكهم ولو وجدوا لفعلوا ، فقد قال مؤمن آل فرعون : ﴿ يا قَومِ اتبِعون أَهدِكُم سبِيلَ الرشادِ﴾[٣] .

وكان ذو القرنين ذا سيرة حسنة وقدوة في الخير ، ولا أدل على أن القوم الذين لا يفقهون قولا شكوا إليه إفساد يأجوج ومأجوج ، فبنى لهم السد حصنا حصينا لهم .

وكذلك كانت مريم عليها السلام ذات خلق ودين لم يصدر منها أمام قومها ما يريب ، ولهذا لما رأوا الولد معها قالوا : ﴿يا مريم لَقَد جِئْتِ شيئاً فَرِياً۝ يا أُخت هارونَ ما كَانَ أَبوكِ امرأَ سوءٍ وما كَانت أُمكِ بغِياً﴾[٤].

وهذا يدل على صلاح سير ا عندهم ، وإلا لو لم تكن كذلك لما استغربوا ذلك الطفل الذي أتت به .

ولعلي أكتفي بذلك من قصص الدعاة في القرآن من غير الأنبياء ؛ وأذكر معالم هذا المنهج في حياة الدعاة ، وهي :

١ ـ أن أفعالهم تصدق أقوالهم ، فلا يكاد يقع لهم قول إلا ومعه عمل ، استجابة لأمر الله بقوله ﴿يا أَيها الذِين آمنوا لِم تقُولُونَ ما لا تفْعلُونَ﴾[5] والمعنى "لم تقولون القول الذي لا تصدقونه بالعمل فأعمالكم مخالفة أقوالكم "[٦] .

---

(١) المدرس ومهارات التوجيه ، الشيخ محمد بن عبد الله الدويش :ص55،{ط١: دار الوطن،الرياض: ١٤١٣هـ } .

(٢) السلوك وأثره في الدعوة إلى الله تعالى ، الدكتور فضل إلهي :ص١١،{ط١، إدارة ترجمان الإسلام ،باكستان: ١٤١٩هـ }.

(٣) غافر : ٣٨ .

(٤) مريم : ٢٧-٢٨ .

(٥) الصف :٢ .

(٦) تفسير الطبري ٨٣/٢٨ .

٢ ـ أ م لا يخالفون الناس إلى ما ينهو م عنه ، كما قال شعيب لقومه : ﴿وما أُرِيد أَنْ أُخالِفَكُم إِلَى ما أَنهاكُم عنه إِنْ أُرِيد إِلا الْإِصلاح ما استطَعت وما توفِيقِي إِلا بِاللهِ علَيهِ توكَّلْت وإِلَيهِ أُنِيب﴾[1] .

٣ ـ يحرصون على حفظ أعراضهم من أن يقدح فيها ؛ لأن حفظ السمعة من مقاصد الشرع ، كما دل عليه حديث النعمان بن بشير ﷺ عن النبي ﷺ قال : " ومن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه "[2] .

٤ ـ يت هون عن الأماكن التي تسبب لهم التهمة ، فلا يردون مواطن الفتن ، ويترفعون عن كل ما يخدش الحياء .

٥ ـ يسابقون الناس في الخيرات .

٦ ـ يطبقون السنة النبوية في جميع أحوالهم ، ومراحل حيا م .

٧ ـ يأوي إلى عدلهم كل مظلوم من أي ملة ، كما قال تعالى:﴿ولا يجرِمنكُم شنآنُ قَومٍ علَى أَلا تعدِلُوا اعدِلُوا هو أَقْرب لِلتقْوى ﴾[3].

٨ ـ أعف الناس ألسنة حتى على مخالفيهم،وأقرب للعفو استجابة لقوله تعالى:﴿ فَمن عفَا وأَصلَح فَأَجره علَى اللهِ إِنه لا يحِب الظَّالِمِين﴾[4] .

٩ ـ يحبون للناس ما يحبون لأنفسهم ؛، لقوله ﷺ : " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه "[5] .

١٠ ـ يبادرون في فعل الخيرات قبل استحقاقها .

١١ ـ يبتعدون عن كل ما يخرم المروءة .

١٢ ـ يتورعون عن المشتبهات ، فلا يقتربون من الحمى ،فهم عن الحرام أشد بعدا .

---

(١) هود : ٨٨ .

(٢) سبق تخريجه ص(٢٢٩) وهو جزء من حديث النعمان بن بشير ومتفق عليه ، أخرجه البخاري برقم (٥٢) ٢٨/١ ، ومسلم برقم (١٩٥٥) ١٢١٩/٣.

(٣) المائدة : ٨ .

(٤) الشورى : ٤٠ .

(٥) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب الإيمان ، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، برقم (١٣) ١٤/١، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير ، برقم (٤٥) ٦٧/١.

١٣ ـ يكتفون بالقليل من الحلال ، فقد سئل الإمام أحمد[1] رحمه الله ، فقيل له : ما يلين القلب ؟ فقال : أكل الحلال "[2] .

١٤ ـ يجعلون أنفسهم في المكانة التي جعلها الناس لهم ، ويستغفرون الله ر م عما لا يعلمه الناس منهم .

١٥ ـ يحرصون على إصلاح حيا م الأسرية وشؤو م الزوجية استجابة لأمر الله وأداء لحقوق الأهل ؛ ولأ ا محل أنظار الناس وسؤالهم .

---

(١) أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الذهلي الشيباني البغدادي ، هو الإمام حقا ، وشيخ الإسلام صدقا ، امتحن في فتنة القول بخلق القرآن ، وعذب ، فصبر ولم يجبهم ، ألف المسند جمع فيه ما بين ثلاثين وأربعين ألفا ، توفي سنة إحدى وأربعين ومائتين للهجرة . انظر : ذيب الكمال ٤٣٧/١-٤٧٠ ، وسير أعلام النبلاء ١٧٧/١١، ٣٣٤ .

(٢) الآداب الشرعية ٢٧٠/٣ .

المطلب الثالث

منهج الدعاة في تعاملهم مع غيرهم ، وفيه مقصدان :

المقصد الأول : منهج الدعاة في تعاملهم فيما بينهم في ضوء الآيات .

المقصد الثاني : منهج الدعاة في تعاملهم مع الصادين عن دعوتهم في ضوء الآيات .

المقصد الأول

منهج الدعاة في تعاملهم فيما بينهم في ضوء الآيات

للدعاة إلى الله من غير الأنبياء منهج في التعامل مع غيرهم يستحق أن يقف معه الباحث ويكشف أسراره وطريقته وهو ما سأتناوله في ثنايا هذا المبحث .

كان مؤمن آل فرعون مصاحبا في الفترة الزمنية لموسى عليه السلام ، وكان مؤمن آل يس معاصراً في زمنه لثلاثة من الرسل عليهم السلام ، وكان أهل العلم من قوم قارون الذين أنكروا عليه ونصحوه مصاحبين في وقتهم لدعوة موسى عليه السلام أيضا ، ومع هذه المصاحبة الزمنية قاموا بواجب دعو م إلى الله .

وعلى هذا فمنهج التعامل بين الدعاة أنفسهم يقوم على أصلين هما :

الأصل الأول : التعاون بين الدعاة .

الأصل الثاني : التكامل في الدور الدعوي .

وسأبين هنا هذين الأصلين السابقين .

الأصل الأول : التعاون بين الدعاة :

مبدأ التعاون مبدأ شرعي أمرت به الشريعة عموم المسلمين ، كما في قوله تعالى ﴿وتعاونوا علَى الْبِر والتقْوى ﴾(١) .

وهو للدعاة فيما بينهم على دعو م أشد تأكيدا ، " فمن آداب الدعاة التي يجب أن يكونوا عليها تعاو م فيما بينهم ، فلا يكون هم الواحد منهم أن يقبل قوله ، ويقدم على غيره ، بل يكون هم الداعية أن تقبل الدعوة ، سواء صدرت منه أو صدرت من غيره ، ما دمت تريد أن تعلو كلمة الله ، فلا يهمنك أن تكون من قِبلك أو من قِبل غيرك "(٢) .

ومما يدل على التأكيد قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، ومعاذ رضي الله عنه حينما بعثهما دعاة إلى اليمن : " يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا ولا تختلفا "(٣) .

---

(١) المائدة : ٢ .

(٢) تعاون الدعاة وأثره في ا تمع ، ص١٩ .

(٣) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب الجهاد والسير ، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب

ولكي تتضح حدود التعاون بين الدعاة ، سأذكر الآن صور التعاون الشرعي بين الدعاة.

من صور التعاون بين الدعاة :

للتعاون بين الدعاة صور كثيرة ، لا أستطيع أن أحصرها ، إلا أني سأذكر أهمها من وجهة نظري الدعوية وهي :

١ ـ أن يتطاوعوا فيما بينهم ؛ استجابة لأمر الرسول ﷺ السابق .

٢ ـ أن يتشاوروا فيما يخص دعو م من مستجدات ؛تحقيقا لمبدأ الشورى الشرعي .

٣ ـ استفاد م من جهود بعضهم البعض الدعوية،وتبادل خبرا م في هذا ا ال.

٤ ـ حفظهم أعراض إخوا م الدعاة من أن ينال منها .

٥ ـ تقديرهم لجهود إخوا م الدعاة ، وعدم الحط منها أو الاحتقار .

٦ ـ إرشادهم في حال زللهم بألطف عبارة وألين أسلوب ، وهذا يكون في حال الزلات التي لا تقبل وجهة نظر أخرى مما يقدره فقه الداعية الشرعي .

٧ ـ توحيد الجهد الدعوي بينهم لمواجهة المخالفين لدعو م ، وتوسيع دائرة التوحيد بينهم حسب الظروف التي تمر ا الأمة مما يقره الراسخون في العلم .

٨ ـ الثناء على نجاحهم الدعوي ، ومباركة جهدهم .

٩ ـ مساعد م في العمل الدعوي حين تستدعي الحاجة ، وعدم التخلي عنهم .

١٠ ـ إعذارهم ، وقبول اعتذارهم فيما يقع بينهم من هفوات .

١١ ـ التواصي فيما بينهم على العبادة ، كما كان السلف الصالح يتواصون فيما بينهم .

١٢ ـ التقارب معهم بناء على قر م من السنة النبوية ، فكلما كان الدعاة الآخرون قريبين من السنة النبوية وجب الاقتراب منهم بطريقة طردية .

١٣ ـ دعاؤهم لإخوا م في ظهر الغيب بالتوفيق والسداد .

١٤ ـ يذكرون محاسن إخوا م وينشرو ا بين الناس ، لأن أثر ذلك يعود لصالح

وعقوبة من عصى إمامه ، برقم (٢٨٧٣) ١١٠٤/٣، ومسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب الأمر بالتيسير وترك التنفير ، برقم (١٣٧٧) ١٣٥٩/٣.

الدعوة .

١٥ ـ يتواصلون فيما بينهم بوسائل الاتصال العصرية .

١٦ ـ يتألمون لآلام بعضهم ، ويفرحون لفرحهم .

١٧ ـ يسترون عيوب بعضهم البعض .

١٨ ـ لا يتتبعون زلا م ولا ينشرو ا،فإن خالفوا السنة نصحوهم فيما بينهم ،فإن " المؤمن يطلب معاذير إخوانه ، والمنافق يطلب عثرات إخوانه "[١] ، وكان حمدون القصار[٢] رحمه الله يقول : " إذا زل أخ من إخونكم فاطلبو له سبعين عذرا ، فإن لم تقبله قلوبكم فاعلموا أن المعيب أنفسكم ، حيث ظهر لمسلم سبعون عذرا فلم تقبله "[٣].

١٩ ـ لا يتقدم بعضهم بين يدي بعض .

هذه بعض صور التعاون،وما لم أذكره أكثر من ذلك ، فكل ما تستوجبه الدعوة الإسلامية ينبغي التعاون فيه بين الدعاة .

وقد يحدث أحيانا بعض المعوقات تقلل من ثمرة التعاون بين الدعاة ، وإكمالا للموضوع سأذكرها .

معوقات التعاون بين الدعاة إلى الله

" الدعاة بشر تقع منهم الأخطاء ، وتحدث منهم الزلات ، وتقع منهم السلبيات ، لأ م ليسوا في مقام من العصمة أُذِنَ لهم به ، ولا يدعون ذلك لأنفسهم ، وإذا كان الدعاة ذه المثابة فهم في حاجة إلى تبصيرهم بعيو م وإن رجحت عليها المحاسن ، وتذكيرهم بسلبيا م وإن غلبت عليها الإيجابيات ، لأن ذلك من أبواب التواصي بالحق والصبر ، وهم ملح الأمة والزمان "[٤] ، وسأقتصر في ذلك على ما يكون عائقا في

---

(١) آداب الصحبة ص٤٥ .

(٢) شيخ الصوفية ،أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمارة النيسابوري ،قدوة الملامتية وهو تخريب الظاهر وعمارة الباطن مع التزام الشريعة ، سمع محمد بن بكار بن الريان، وابن راهويه ، روى عنه ابنه الحافظ أبو حامد الأعمشي ،ومكي بن عبدان ،ومن كلامه قال: لا يجزع من المصيبة إلا من ا م ربه ،توفي سنة إحدى وسبعين ومائتين . انظر : سير أعلام النبلاء ٥٠/١٣ ، ولا يخفى أن الشريعة الإسلامية لا تأمر بتخريب الظاهر بالمعنى المقصود عندهم .

(٣) آداب الصحبة ص٤٥ .

(٤) زغل الدعاة،سعيد بن ناصر الغامدي:ص٨باختصار،{ط١، دار الأندلس ،جدة:١٤١٦هـ } .

التعاون بين الدعاة إلى الله ، وأبرز ذلك :

١ ـ الحسد .

٢ ـ التناكر في القلب .

٣ ـ احتكار الصواب .

٤ ـ ضيق أفق الداعية .

فإلى تفصيل هذه الأمور .

١.الحسد

" الحسد نوعان محرم مذموم على كل حال ، وهو : أن يتمنى زوال نعمة الله عن العبد دينية ، أو دنيوية وسواء أحب ذلك محبة استقرت في قلبه ولم يجاهد نفسه عنها ، أو سعى مع ذلك في إزالتها وإخفائها ، وهذا أقبح فإنه ظلم متكرر "(١) .

" والحسد في الحقيقة نوع من معاداة الله ، فإنه يكره نعمة الله على عبده ، وقد أحبها الله ، وأحب زوالها عنه ، والله يكره ذلك ، فهو مضاد لله في قضائه وقدره ، ومحبته وكراهته ، ولذلك كان إبليس عدوه حقيقة ، لأن ذنبه كان عن كبر وحسد "(٢).

والتحاسد بين الدعاة خطوة من خطوات إبليس ، وسهم من سهامه يهدم به الدعوة أكثر من أي سهم آخر ، ولهذا حذر منه السلف الصالح عليهم رحمة الله ، فقال الحسن البصري رحمه الله لما قيل له : هل يحسد المؤمن ، فقال : " فاسأل بني يعقوب لا أب لك ، حيث حسدوا يوسف ، ثم قال : نعم ، ولكن غم الحسد في صدرك فإنه لا يضرك ما لم يعد لسانك ، أو تعمل به يدك "(٣) .

ومن أشد صور إضرار الحسد أنه يقضي على التناصح بين المسلمين " فإذا ا ـدم ركن الحسد سهل عليه قبول النصح وبذله "(٤) .

" والدعاة إلى الله عز وجل ، وبخاصة الموفقين منهم والنشيطين والمرموقين منهم

---

(١) جة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار ، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، تحقيق أشرف بن عبد المقصود بن عبد الرحيم:ص٣٣٧، {ط٢، دار الجيل ،بيروت: ١٩٩٢م } .

(٢) الفوائد ص١٥٨ .

(٣) من أخبار السلف ، زكريا بن غلام قادر الباكستاني :ص٢٩٠،{ط٢،دار الرشد ،الرياض: ١٤٢٧هـ ـ} .

(٤) الفوائد ص١٥٧ .

والموهوبين معرضون لألسنة الحاسدين وكيدهم ، يحسدو م على علمهم ، وعلى كل خصلة من خصال الخير فيهم ، ثم يتحينون الفرص للإيقاع م وتحطيمهم ، فكم من قادة وأئمة ا موا زورا و تانا ، وأشيعت حولهم الشائعات والأراجيف بسبب حسد حاسد مريض النفس لا يرعي فيمن حوله إلاّ ولا ذمة "[1] .

وعلاجه يكون بأمور ، وهي :

١ ـ كتمه في الصدر بحيث لا يخرج على لسانه ولا يده ، كما في وصية الحسن رحمه الله .

٢ ـ التغافل عن المحسود وعدم تتبع أخباره .

٣ ـ الرضا بقدر الله سبحانه ، فالله هو الذي قسم الأرزاق ووضع القبول وفتح باب العلوم الشرعية لبعض عباده دون البعض الآخر .

٤ ـ إكثار ذكر الموت ، كما قال رجاء بن حيوة رحمه الله[2] : " ما أكثَر رجلٌ ذكر الموت إلا ترك الفرح والحسد "[3] .

٥ ـ احتقار ما يحسده في المحسود ، بأن ينظر للشيء الذي يحسده لأجله ، ويتأمل فيه ؛ فإنه سيجده لا يستحق أن يخسر إيمانه ، ويتعب ضميره لأجله ، فالدنيا كلها حطام فانٍ ، وما عند الله خير وأبقى .

٦ ـ الإكثار من المخالطة لمن هو أفضل منه ، فإنه كلما خالط أهل العلم والتقوى احتقر نفسه ، وانشغل بإصلاح فسادها ، وسيرى أن فوق كل ذي علم عليم .

٧ ـ الاعتياد على كثرة الدعاء لإخوانه في ظهر الغيب خاصة حينما يتذكر المحسود ، وهذا من باب إتباع السيئة حسنة تمحها بإذن الله .

---

(١) قوارب النجاة في حياة الدعاة،فتحي يكن :ص١٣باختصار،{ط١٠،مؤسسة الرسالة ،بيروت: ١٤٠٥هـ }.

(٢) أبو المقدام رجاء بن حيوة بن جرول الكندي الأزدي ، الوزير العادل ، والإمام القدوة ، من فقهاء التابعين ، كانت له م لة عند بني أمية ، وكان صاحب نصح للعامة والخاصة ، كان وزيرا لعمر بن عبد العزيز رحمه الله ، توفي سنة اثنتي عشرة ومائة للهجرة . انظر : الطبقات الكبرى ٤٥٤/٧ ، ومشاهير علماء الأمصار ص١١٧ .

(٣) الزهد ،أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني ، تحقيق علي عبد الحميد :ص٣٩٠،{ط٢، دار الريان للتراث ،القاهرة: ١٤٠٨هـ } .

٨ ـ تربية النفس على الشفقة على المسلمين ، فإن " نتيجة الحسد من قلة الشفقة على المسلمين "(١) .

٩ ـ الاستعاذة بالله من شر الحسد والحاسد .

١٠ ـ الابتعاد عن الغضب " فإن من نتائج الغضب الحقد والحسد ، و ما هلك من هلك ، وفسد من فسد "(٢) .

١١ ـ اجتناب الحقد على غيرك من المسلمين ، " فإن الحسد أشبه بساحرة لها ثلاثة رؤوس أحدها الحسد ، وأما الاثنان فهما الحقد ، والغيرة ، وأينما وجدت واحدة من هذه الثلاثة فلا بد حتما أن تجد شقيقه ، فالحاقد يظل طول وقته لا يفكر إلا في النيل من الذي يحقد عليه ، فقد يكذب عنه ، وقد يتقول عنه ما لم يقله ، وقد يضر به ، ولا يهاب في سبيل ذلك ما يفعل ، والغيور لا يرى في لوحة أفقه إلا من يغار منه "(٣) .

٢.التناكر في القلب

ظاهرة التناكر في العمل الدعوي - لأن لها وجودا ؛ ولأ ا تؤثر سلبا على تعاون الدعاة في العمل الدعوي - أفرد ا بالذكر ، فتجد بعض الدعاة لا يعمل إلا مع من يألفه قلبه ، ويميل إليه ميلا فطريا ، وقد جاء في الحديث الصحيح " الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف "(٤) .

ومعناه يحتمل أمورا :

١ ـ "أن يكون إشارة إلى معنى التشاكل في الخير والشر،والصلاح والفساد،وأن الخير من الناس يحن إلى شكله،والشرير نظير ذلك يميل إلى نظيره،فتعارف الأرواح يقع بحسب الطباع التي جبلت عليها من خير وشر، فإذا اتفقت تعارفت، وإذا اختلفت تناكرت .

٢ ـ ويحتمل أن يراد الإخبار عن بدء الخلق في حال الغيب ، على ما جاء أن

---

(١) عيوب النفس ، أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى السلمي ، تحقيق مجدي فتحي السيد :ص٣١،{ مكتبة الصحابة ، طنطا: ١٤٠٨هـ } .

(٢) الحسد وكيف نتقيه ، إبراهيم محمد الجمل :ص٣١،{ مكتبة القرآن ،القاهرة: بدون } .

(٣) الحسد وكيف نتقيه ، ص٨٩ باختصار .

(٤) سبق تخريجه (٦٢) متفق عليه ، أخرجه البخاري برقم (٣١٥٨) ١٢١٣/٣، ومسلم برقم (٢٦٣٨) ٢٠٣١/٤.

الأرواح خلقت قبل الأجسام ، وكانت تلتقي فتتشاءم ، فلما حلت بالأجسام تعارفت بالأمر الأول ، فصار تعارفها وتناكرها على ما سبق من العهد المتقدم "[١] .

وعلى هذا الثاني يكون ذلك متعلقا بما قبل الخلق ، أما بعد الخلق فيتعلق بالأسباب التي تقتضي النفرة أو التعارف .

فليس من احتمالات الحديث أن الإنسان المؤمن الداعية إلى ربه لا يعمل إلا مع من يألفه ، لأن الحديث يحتمل أمورا غيبيه لا يقاس عليها أمور محسوسة في الظاهر ، ويؤيد ذلك الأدلة الكثيرة الحاضة على الأمر بالتعاون والأخوة بين المؤمنين ، كما قال تعالى:﴿ وتعاونوا علَى الْبِر والتقْوى ﴾[٢]، وقوله : ﴿إنما الْمؤمِنونَ إِخوةٌ ﴾[٣] وغيرها كثير .

وعلاجه يكون بأمور :

١ ـ ألا يعير هذا الأمر – التعارف والميل الفطري- اهتماما ، بحيث لا يبني عليه أحكاما لأنه مجرد خبر لا يترتب عليه حكم .

٢ ـ أن يقوي علاقته بإخوانه المسلمين ويجدد لهم الأخوة في قلبه امتثالا لقوله ﷺ " المسلم أخو المسلم "[٤] .

٣ ـ أن ينوع الأعمال الدعوية التي يعملها لأجل أن يتنوع العاملون معه .

٤ ـ الابتعاد عن النجوى في الأعمال الدعوية ، لأ ا تزيد مسألة التناكر في القلب .

٥ ـ النظر لمحاسن أخيه ، وتعويد النفس على إجلاله وتقديره .

٦ ـ الجلسات الانفرادية مع الطرف الآخر ، فإ ا تكسر حدة النفرة بينهما .

٧ ـ تبادل الهدايا معه ، لأن الهدية لها أثرها الظاهر على التقارب .

٨ ـ الاعتراف بجهود أخيه ، وألا تحمله النفرة منه إلى الوقوع في ظلمه .

٩ ـ زيارته والسفر معه والاتصال عليه ، وذكره في غيبته بخير .

---

(١) فتح الباري ٣٦٩/٦ .

(٢) المائدة : ٢ .

(٣) الحجرات : ١٠ .

(٤) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب المظالم ، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه ، برقم (٢٣١٠) ٨٦٢/٢، ومسلم البر والصلة والآداب ، باب تحريم ظلم المسلم وخذلانه واحتقاره وذمه ، برقم (٢٥٦٤) ١٩٨٦/٤.

٣.احتكار الصواب

" وما أسميناه احتكار الصواب ، هو ما سماه العلماء في السابق تعصبا ، ويستوي في ذلك التعصب المذهبي ، أو التعصب للشيوخ ، أو للقادة ، أو للكتب "[(١)] .

وقد يجر ذلك إلى فرقة بين الدعاة ، أو رمي بابتداع ، أو تفسيق على غير دليل ، ولا بد أن أزيد التأكيد على قضية أعتبرها مهمة في هذا ا ال ، وهي أني أتكلم عن الدعاة المنتمين للسنة ، المتسمين ا ، فأما دعاة غير السنة فلهم مجال آخر في التعامل بينه أهل السنة والجماعة رحمهم الله في كتب العقائد .

ولاحتكار الصواب بين دعاة أهل السنة عدة صور ، منها :

١ ـ أن يدفعه انتماؤه إلى مذهب فقهي معين إلى التعصب له ولأقواله ، ورد ما عداها ، وعدم النظر في الأدلة .

٢ ـ أن يحصر الحق في مذهبه الفقهي دون غيره من المذاهب .

٣ ـ أن يحشد الأدلة صحيحها وضعيفها ، ويتأول ، ويتعسف في حمل الأدلة ما لا تحتمل لأجل أن توافق قوله ، " وجمهور المتعصبين لا يعرفون من الكتاب والسنة إلا ما شاء الله ، بل يتمسكون بأحاديث ضعيفة ، أو آراء فاسدة ، أو حكايات عن بعض العلماء والشيوخ قد تكون صدقا ، وقد تكون كذبا "[(٢)] .

٤ ـ أن يدعو إلى مذهب معين ويكون ذلك على حساب الدعوة لدين الإسلام.

٥ ـ تغليظ القول على غيره ممن أخذ بقول آخر من أقوال أهل العلم ما لم يكن القول شاذاً ، فإن القول الشاذ ينكر على صاحبه حتى لا يتابع على خطئه .

وعلاجه يكون بأمور ، هي :

١ ـ التحرر من التعصب بجميع صوره وأشكاله ، لما ورد من ذم العصبية مطلقاً كقوله ﷺ : لما "كان من المهاجرين رجل لعاب فكسع أنصاريا ، فغضب الأنصاري غضباً شديداً ، حتى تداعوا ، وقال الأنصاري : يا للأنصار ، وقال المهاجري : يا للمهاجرين ، فخرج النبي ﷺ فقال : ما بال دعوى أهل الجاهلية ، دعوها فإ ا خبيثة

---

(١) زغل الدعاة ٢٢ .

(٢) الفتاوى ٢٥٤/٢٢ .

"[1] ، ويقاس كل عصبية مقيتة على هذه العصبية .

فكل " انحياز ، وانفصال من فرد أو جماعة عن جماعة المسلمين أهل السنة والجماعة بمخالفة شرعية في اعتقاد ، أو تعبد ، أو سلوك ، مخترعة شعارا ، أو أصولا ، أو قواعد تجعلها قوانين للجماعة والمنتمين إليها ، وتعقد الولاء والبراء عليها وعلى جماعتها وعلى شعارها وحمله أو بشيء من ذلك ، فهذا انفصال عن جماعة المسلمين ، والتي تعتمده فرقة من الفرق البدعية تقترب من الصراط وتبتعد ، بقدر ما لديها من مخالفة أو مخالفات ، وهذا الانفصال خسارة في رأس مال المسلمين ، وما وحدة جماعتهم إلا بوحدة إسلامهم في مدلول كلمة التوحيد "[2] .

٢ ـ النظر في الأقوال وليس القائلين ، فقد يرد أحيانا حقا لأجل أن قائله لا يوافقه ، في حين أن القول يوافق الدليل ، أو له محمل صحيح فيه .

٣ ـ تسخير مظاهر التعصب إلى مظاهر للتنافس في الخيرات ، كما فعل الصحابة رضي الله عنهم في العصبية القبلية التي كانت بين العرب ، فقد " ميز خالد رضي الله عنه المهاجرين من الأنصار من الأعراب ، وكل بني أب على رايتهم ، يقاتلون تحتها حتى يعرف الناس من أين يؤتون "[3] .

فتسخر المذاهب المختلفة والمدارس الدعوية المنتسبة للسنة اليوم إلى التنافس في الخير ، وتنويع المشاريع الدعوية ، مع الحرص على السنة وتطبيقها ، وتعليم الجاهل ا ، ودلالته عليها .

٤ ـ نشر السنة النبوية ، وتعليمها للناس حتى تضيق دائرة الخلاف .

٥ ـ الاطلاع على جميع الأقوال في المسائل حسب الإمكان ، حتى يتبين للناظر درجة الخلاف وقوته ، وبالتالي يستطيع التمييز بين المسائل الاجتهادية وغيرها .

٦ ـ التصبر ، والحلم مع المخالفين ، لأن الله وعد من يتصبر أن يصبره الله ، كما في

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب المناقب ، باب النهي عن دعوى الجاهلية ، برقم (٣٣٣٠) ١٢٩٦/٣، ومسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما ، برقم (٢٥٨٤)١٩٩٨/٤ .

(٢) حكم الإنتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات الإسلامية ، لفضيلة الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد :ص١٨٥،{ط٣،دار ابن الجوزي ،الدمام: ١٤١٤هـ } .

(٣) البداية والنهاية ٣٢٥/٦

حديث أبي سعيد الخدري ﷺ[(١)] " ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر "[(٢)] .

٧ ـ حسن الظن بغيره من المسلمين ، ومن حسن الظن أن يلتمس لهم الأعذار في حال أخطائهم .

٨ ـ عليه ألا يحتقر الآخرين ولا يستخف م ، " فلا ينظر لهم بعين الازدراء والنقصان ، ولو بشكل ضمني غير مقصود "[(٣)] ، وإنما عليه أن يقدرهم ويجلهم ، ويحفظ لهم سابقتهم ، ويحترم أفهامهم وعقولهم .

٤. ضيق أفق الداعية

" الأفق الدعوي هو تلك المساحة التي تمتد أمام كل داعية إلى الله ليمنحه بـصيرة غـير محدودة تدفعه لسبر أغوار الحقيقة، والنفاذ إلى عمق الأمور في شتى شئون الدين والحيـاة عامة، وفي مسائل الدعوة المباركة و قضاياها بصفة خاصة "[(٤)] .

وهذا الأفق أحيانا يتسع وأحيانا يضيق ، على قدر علم الداعية الشرعي ، وفقهه الدعوي ومسببات أخرى غير أساسية .

وهناك عوامل تلعب دورا هاما في ضيق أفق الداعية ، وهي :

١ ـ ضعف تحصيله العلمي ، فإن من نتائج طلب العلم الشرعي الاطلاع علـى أقـوال المذاهب وتنوعها ، والمقارنة بينها وترجيح الراجح ، وتـضعيف المرجـوح ، ومحاولـة

---

(١) الصحابي الجليل سعد بن مالك الخزرجي ، المدني ، حفظ عن النبي ﷺ سننا كثيرة ، وله في الصحيحين ثلاثة وأربعون حديثا ، وكان يعتزل الفتن إذا وقعت ، توفي سنة أربع وستين . انظر : مشاهير علماء الأمصار ص١١ . و ذيب الكمال ، أبو الحجاج يوسف بن الزكي عبد الرحمن المزي تحقيق: بشار عواد معروف:٢٩٤/١٠،{ مؤسسة الرسالة ،بيروت:١٤٠٠هـ } .

(٢) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب الزكاة ، باب الاستعفاف عن المسألة ، برقم (١٤٠٠)٥٣٤/٢ ، ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب فضل التعفف والصبر ، برقم (١٠٥٣) ٧٢٩/٢.

(٣) زغل الدعاة ص٦٢ .

(٤) http://www.wdawah.com/article_content.php?id=٥٧٢٥&cat=٥&temp=٥

الوصول إلى قناعة كافية في رد حجج الخصم ، وهذا يستدعي من الداعية الاطلاع على الأقوال الشاذة في المسألة ليسبر الأقوال ويميز درجتها .

٢ ـ قلة ثقافته وأقصد معلوماته في غير العلم الشرعي ، فإن محدودية الداعية في علم معين تجعله ينكر بدهياته وبالتالي لا يستطيع إيصال الفكرة الدعوية التي يتبناها .

٣ ـ " محدودية قدرة الداعية على التأمل والنظر والتفكر والتدبر، وهي محددات أساسية لبلوغ الداعية سقف الاطلاع والرحابة في التفكير والتعبير، ومن ثَم التواصل مع الغير من أفراد ا تمع.

٤ ـ وقوف الداعية عند حروف الألفاظ وعدم نفاذه إلى معانيها وحمولا ا فيكون الفهم قاصرا عن إدراك الضروري إدراكه، فيستخلص الداعية عن هذا الفهم القاصـر للـنص أحكاما اجتهادية قاصرة المعنى أيضا؛ لأن المنطلق الأصلي كان خاطئًا فكيف لا يؤثر على النتائج؟. "[١] .

٥ ـ العزلة ، والانفراد الذي يعيشه بعض الدعاة يؤثر على أفقهم الدعوي ، و ذا يظهر فضل المخالطة للناس في هذا الباب مع استصحاب فقه التعامل معهم .

وعلاجه يكون بأمور :

١ ـ تواضع الداعية وتحصيله العلم وعدم خوضه فيما لا يعلم .

٢ ـ سؤاله عما لا يعرفه .

٣ ـ أن يتلقى قدراً معلوماً في العلوم العصرية كالحاسب ووسائل التقنية .

٤ ـ ضبط النفس وتعويدها سماع الحجج ، ومحاولة الرد من غير عنف .

٥ ـ المشاركة في دورات تعنى بالتفكير والإبداع ، وهي متوفرة في زماننا بحمد الله .

٦ ـ القراءة في كتب المذاهب الأخرى التي تخالف مذهب الداعية .

٧ ـ التواصل مع ا تمع ، والمشاركة في معالجة أخطائه .

وبعد أن بينت الأصل الأول الذي يقوم عليه منهج التعامل بين الدعاة أنفسهم ، أبين الأصل ، كما سيأتي .

---

(١) http://www.wdawah.com/article_content.php?id=٥٧٢٥&cat=٥&temp=٥

الأصل الثاني : التكامل في الدور الدعوي

من يتأمل الدور الذي قام مؤمن آل فرعون مع نبي الله موسى عليه السلام ، وموقف مؤمن آل يس مع الرسل الثلاثة ، يجد أن النسبة بين موقفهم مع أنبيائهم تكاملية لا تواكلية ، فلم يتكلوا على الرسل في تبليغ الدعوة وإنما أكملوا دورهم الدعوي ، وهذا يرجع إلى الإحساس بالمسؤولية في الدعوة إلى الله ، وهو الذي ينبغي أن يحتذى في منهج التعامل بين الدعاة أنفسهم ، ولأجل إيضاح هذا الأصل سأذكر صورا من التكامل في الدور الدعوي.

من صور التكامل في الدور الدعوي :

هناك صور للتكامل بين الدعاة كثيرة يصعب علي حصرها ، إلا أني سأذكر بعضها ، وهي :

١ ـ إغلاق جميع الثغرات في ا تمع ، ومحاولة شغلها دعويا .

٢ ـ تقاسم العمل الدعوي ، فحين يتجه البعض للجانب الإعلامي على الآخرين أن يتخصصوا في الجانب الاقتصادي ، بينما يتجه القسم الثالث للكتابة والتأليف ، وإن اجتهد أحد الرجال فعلى أخيه الداعية أن يعمل على دعوة النساء ، وهكذا .

٣ ـ التكامل في الفنون العلمية ، فإن أقيم درس في الفقه فعلى الداعية الآخر أن يتجه لتدريس العقيدة الصحيحة ، وهكذا .

٤ ـ الاحتساب على المخالفين للسنة النبوية ، والرد على الزائغين عنها ، والغلظة عليهم بحسب مقدار المخالفة ، مع الحذر في عدم الوقوع في جانب الإفراط حتى يسقط المخالف عند الناس ، إلا حينما تستدعي أصول منهجه إسقاطه .

٥ ـ تغطية فئات ا تمع المختلفة بمشاريع دعوية متنوعة .

٦ ـ تعاقب المشاريع الدعوية على مدار السنة ، ففي شهر رمضان برنامج دعوي ، يختلف عن موسم الحج ، وما يقدم أيام الأعياد يختلف عن غيرها ، وهكذا .

٧ ـ الاستفادة من التجارب الدعوية الناجحة ومحاولة التجديد فيها .

٨ ـ عقد اللقاءات المتتابعة ؛ لإزالة وحشة الأنفس بين الدعاة ، ولمعالجة النقص الدعوي .

٩ ـ اجتماع الدعاة في حال الحوادث الطارئة على الأمة لتقاسم الدور الدعوي بينهم .

١٠ ـ دراسة المشاريع الدعوية التي لم يكتب لها النجاح وتطويرها للاستفادة منها .

١١ ـ التواصل مع المسؤولين في الدولة لإسلامية لسد حاجة الأمة في هذا ا ال .

١٢ ـ الالتفات للدعاة في الدول الغربية اليوم ، وإمدادهم بالرسائل العلمية والكتب ، وبحث نوازلهم ، والتواصل معهم .

١٣ ـ العناية باللغات ، وترجمة الكتب الإسلامية لتغطية تلك اللغات .

١٤ ـ ومن أبرز صور التكامل المنشود : التكامل بين ا اهدين المنافحين عن الثغور والذائدين عنها ، وبين الدعاة القاعدين ، فإن الفجوة بينهم تتسع ، وتنشأ بينهم التهم ، ويرسخ الشيطان عمله لحدوث انفصام بينهم ، وهذا يؤكد فقه التعامل في هذا الجانب ، وأن يوسع مفهوم الجهاد في سبيل الله ، وألا يحصر الداعية بين الجهاد في سبيل الله بمفهومه الخاص أو القعود والتخاذل ، ويبرز دور السلف في هذا الجانب ، ففي حين جهاد الأمة لبلاد الروم ، كان الدعاة الآخرون ينشرون العلم ، ويحاربون البدع ، ويؤلفون الكتب ، وحال الأمة اليوم يتسع لجميع ذلك .

فهذه بعض صور التكامل بين الدعاة أنفسهم ، وهو الأصل الثاني من الأصلين اللذين يقوم عليهما منهج التعامل بين الدعاة إلى الله .

المقصد الثاني

منهج الدعاة في تعاملهم مع الصادين عن دعوتهم على ضوء الآيات

الدعاة في القرآن من غير الأنبياء لم تقابل دعو م بالترحيب ، وهذه سنة الله في تصارع الخير مع الشر ، " والتمكين في الأرض وتطبيق شرع الله سبحانه وتعالى فيها شرف عظيم لا يعطى إلا لمن يستحقه ، ولا يحصل إلا بعد التمحيص والتنقية ، لذلك كان الابتلاء معبرا للتمكين في الأرض وتطبيق حكم الله فيها "(١) .

ومن الابتلاءات التي تعرض لها الدعاة من غير الأنبياء في القرآن رد دعو م وتكذيبهم وأذيتهم حتى وصل الأذى إلى القتل كما حصل لمؤمن آل يس .

وكان لهم منهج في تعاملهم مع أقوامهم المكذبين الصادين عن الدعوة يستحق أن يذكر ، وهو يقوم على ما يلي :

١ ـ تكرار الدعوة بمفهومها العام .

٢ ـ المواجهة .

٣ ـ العزلة .

واقتصرت عليها ؛ لأن كثيرا من المناهج يرجع إليها وإلى بيان هذا المنهج بالتفصيل .

أولا : تكرار الدعوة

من يتأمل قصص الدعاة من غير الأنبياء في القرآن يجد أ ا لم تتكرر لفظة مثلما تكررت قولهم ﴿يا قَومِ﴾وتكرار النداء من هؤلاء الدعاة يعني إيصال الدعوة لأقوامهم أكثر من مرة ، وعلى أكثر من طريقة ، وبأكثر من أسلوب ، " ولا يزالون يدعون إلى ر م ولا يردهم عن ذلك راد ، ولا يثنيهم عتو من دعوه عن تكرار الدعوة "(٢) .

وهذا ينم عن إصرار وحرص ، كما يتضمن إشفاقهم على قومهم من أن يردوا دين الله ، ويحمل في طياته الكثير من معاني الصدق في التبليغ عن الله سبحانه وتعالى .

---

(١) الابتلاءات أساليب الكفرة في محاربة الدعوة في عصر النبوة ، حمود بن عبد الله المطر ، تقديم سماحة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين :ص٩،{ط٢، دار النرجس ،جدة: ١٤٢٤هـ } .

(٢) تفسير السعدي ص٧٣٧ .

ويقوم منهج تكرار الدعوة على أمور عدة ، وهي :

١ ـ تنويع الخطاب الدعوي فأحياناً يطيل حينما يستدعي المقام ، ويختصر في بعض الأحيان ، وتشتد لغته أحياناً ، و دأ أحياناً أخرى .

٢ ـ اختلاف الأساليب الدعوية ، فأحياناً يأخذ الداعية أسلوب القصة ، وأحياناً ضرب الأمثال ، وهكذا .

٣ ـ تليين الخطاب الدعوي ، فمن يتأمل قصص الدعاة من غير الأنبياء يلاحظ أن الأصل في خطا م الرفق واللين والأخذ بالأيسر ، والبعد عن الكلمات الجارحة والتحبب لأقوامهم .

٤ ـ غشيان أندية المدعوين ، وإيصال الدعوة إلى الصادين والمعرضين عنها ، فالرجل الذي حاور صاحب الجنتين دخل عليه جنته ، وإيمان امرأة فرعون ، ومؤمن آل فرعون دليل صادق على أن موسى استطاع أن يصل بدعوته إلى داخل بيت فرعون والوصول إلى زوجته ، وكانت نتائج ذلك باهرة .

٥ ـ العناية بآداب الحديث مع المدعوين ، مثل :

التحدث بما لا يخِل ، ولا يمِل ، والمخاطبة على قدر الفهم ، والإقبال على الجلساء جميعا والمباسطة في أثناء الحديث[1] .

٦ ـ تخصيص هؤلاء الصادين بخطاب دعوي خاص م منفرد عن أقوامهم ، كما فعل مؤمن آل فرعون ، فلم يتكلم بإيمانه أمام عامة الناس وفي أنديتهم مع أن مكانته الاجتماعية تؤهله لذلك ، إلا أنه خصص عِليةَ قومه بخطاب دون عوامهم ، ويؤكد هذا أن المعرض عن دين الله والصاد عنه يحمل في قلبه من الكبر والاستكبار ما يحمله على رد الحق لأجل مشاركة ضعفاء الناس .

٧ ـ استغلال الفرص المناسبة لإلقاء الخطاب الدعوي ، فمؤمن آل يس لم يمارس الدور الدعوي الذي مارسه مؤمن آل فرعون ، فإن مؤمن آل يس استغل حدث محاولة قتل الرسل الثلاثة وألقى خطابه الدعوي ، بينما يختلف الأمر بالنسبة لمؤمن آل فرعون ، والذي يقتضي كتمه لإيمانه أن يكون أكثر استثماراً لنشر دعوته .

---

(١) سلسلة مدرسة الدعاة فصول هادفة في فقه الدعوة والداعية للعلوان ، ١/٣٣٩-٣٤٢ .

ثانيا : المواجهة

ويقصد ا المقابلة[1] وما يلحق ا من تبعات ، فقد يكتفي الداعية بالمقابلة ، ويقف عند حدها المستلزم للإنكار ، وقد يستلزم الأمر إلى القتال لأجل دعوته .

ومن تأمل قصص الدعاة في القرآن من غير الأنبياء تبين له أن الدعاة استعملوا كلا الأسلوبين ، فمؤمن آل يس ، ومؤمن آل فرعون ، وأهل العلم من قوم قارون ، ولقمان ، ونذر الجن ، وفتية الكهف اقتصروا على أصل المعنى اللغوي ، ولم يتجاوزوه إلى القتال ، بينما قام ذو القرنين بالقتل في سبيل الله .

وهناك اعتبارات أحسب أ ا مهمة في سبيل المواجهة ، وهي :

١ ـ لا بد للداعية من مواجهة صريحة مع الصادين عن دين الله ، وهذا يجعله أكثر تعلقا بربه لتأييده ، كما يجعله يتهيأ نفسيا للقاء ويستعد بالحجة .

فقد واجه مؤمن آل فرعون فرعونَ نفسه ، ودار بينهما حوار كما سبق بيانه ، وكان مؤمن آل فرعون جريئا في ذلك .

كما دارت مواجهة بين فتية الكهف وحاكم مدينتهم كما يفهم من الآيات : ﴿وربطْنا علَى قُلُوبِهِم إِذْ قَاموا فَقَالُوا ربنا رب السمواتِ والْأَرضِ لَن ندعو مِن دونِهِ إِلَهاً لَقَد قُلْنا إِذاً شطَطاً﴾[2] .

٢ ـ المواجهة مع الصادين عن دين الله غالبا يكون لها ضريبتها من إلحاق الأذى بالداعية ؛ وهذا يزيد الداعية اطمئنانا ، ويقينا ، وقد حصل ذلك لمؤمن آل يس حيث قتله قومه كما يفيده قوله بعد أن صدع بدعوته: ﴿يا لَيت قَومِي يعلَمونَ﴾[3] فقد " تواترت الأحاديث والروايات على قتله "[4] مع اختلاف في طريقة القتل التي جرت عليه، وحصل ذات المصير لآسية امرأة فرعون .

٣ ـ على الداعية الذي يرى في نفسه القدرة على المواجهة أن يكون جريئا في طرحه الدعوي ، يكشف الحق من جميع جوانبه ، كما صدع الرجل الذي حاور صاحب

---

(١) مختار الصحاح، مادة (ق ب ل) ،ص٢١٧ .

(٢) الكهف : ١٤ .

(٣) يس : ٢٦ .

(٤) المحرر الوجيز ٤٥١/٤ .

الجنتين بكفره ؛ لأنه أنكر البعث وأغلظ له في القول ، وهذا من طبيعة المواجهة مع هؤلاء القوم أحيانا ، ويزداد البيان بالأمر التالي .

٤ ـ جرأة الداعية في المواجهة لا تمنع من تليينه الخطاب والتلطف في النداء مع الصادين عن سبيل الله كما فعل مؤمن آل فرعون ، حيث تلطف في العبارة معهم إلا ان ذلك لا يكون على حساب بيان كامل الحق .

٥ ـ إعداده للجهاد في سبيل دعوته بشروطه التي يذكرها أهل العلم[١] ، " فإن الجهاد عنصر أصيل في الإسلام بعقيدته ونظامه ، لا مجرد إجراء طارئ لدفع عدوان واقع "[٢] ، وقد مضت سنة الله سبحانه بالقتال بين الحق وأهله والباطل وأهله ، كل يدافع عن عقيدته ، ولا تزال هذه السنة إلى قيام الساعة ، فعلى الدعاة أخذ ذلك بالاعتبار ، وقصص الدعاة التي سبق تفسيرها تؤكد هذه السنة .

٦ ـ توسيع دائرة الجهاد في سبيل الله ليشمل ميادين الحياة ، فيجاهد في الدفاع عن قضايا الأمة الإسلامية ، ويجاهد في كشف فضائح المنافقين والعملاء ، ويجاهد في محاربة الإعلام الهدام ، ويجاهد لإرجاع الاقتصاد إسلاميا خالصا ، ويجاهد في الرد على أهل البدع الذين يزعزعون حصن أهل السنة والجماعة[٣] ، وأحسب كل هؤلاء صادين عن سبيل الله يحتاجون إلى مواجهة .

ثالثا : العزلة

وهي حالة خاصة جدا ، لا تكون إلا بعد الحالتين السابقتين واستنفادهما ، والوصول إلى قناعة خاصة بعدم الاستجابة ، وليس هذا فحسب وإنما حين يتحول الأمر بالداعية إلى منعه من إيصال كلمة الحق ، ومنعه أيضا من عبادته لربه ، فيشرع عند ذلك العزلة .

وهي الحالة التي وصل إليها فتية الكهف ، فإنه ثبت في تفسير الآيات التي مرت ، أنهم مارسوا الدعوة إلى دينهم ، وهو الأمر الذي أغضب رؤساء المدينة ، فرفعوا أمر الفتية إلى مِلك المدينة ، والذي طلبهم ، فربط الله على قلوبهم فقالوا الحق الذي يدينون به ،

---

(١) يراجع في ذلك باب الجهاد في كتب الفقه .

(٢) حقيقة الجهاد في الإسلام ، الدكتور محمد نعيم ياسين :ص٥،{ط١،دار الأرقم ،الكويت:١٤٠٤هـ } .

(٣) انظر في أنواع الجهاد : زاد المعاد ٩/٣ .

فعند ذلك منعوا من الدعوة إليه،والذي يظهر أن المنع لم يتناول دعو م إلى معتقدهم ، وإنما شمل المنع أداءهم لعباد م ، فاعتزلوا تلك المدينة الظالم أهلها .

وهذا الذي ينطبق عليه قول النبي ﷺ : " يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع ا شعف[1] الجبال ، ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن "[2] .

ومن تأمل كلام السلف في هذا الباب وجدهم يقسمون العزلة إلى نوعين ، وهما :

١ ـ العزلة في غير أوقات الفتن العامة .

٢ ـ العزلة في أوقات الفتن .

وتبعا لتقسيم السلف في هذا الباب ، سأجعل الكلام على النوعين :

النوع الأول : العزلة في غير أيام الفتن العامة

ويراعى في هذا النوع الأمور التالية :

١ ـ أن كلام السلف في العزلة في هذا النوع لا يقصد به الاعتزال الكامل ، والذي يفهم من ظاهر لفظ العزلة ، فإن الأحاديث متواترة في الأمر بشهود الجمعة والجماعات ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،ومن تأمل كلام السلف ظهر له ذلك جليا ، ومن ذلك :

قول عمر بن الخطاب ﷺ : " إن في العزلة راحة من أخلاق السوء أو قال من أخلاط السوء "[3] .

فقصر العزلة على العزلة عن الفجار ومصاحبتهم لما فيها من تضييع الإيمان ، أماشهود الصلوات والجهاد ، وتعليم العلم وتعلمه ، فليست مكانا لأخلاق السوء التي تعتزل .

٢ ـ يراد بالعزلة في كلام السلف في هذا الباب التقليل من مخالطة الناس ، وبالمقابل الإكثار من الاعتزال للعبادة ، وقراءة القرآن ،وحفظ العلم،كما قال الخطابي[4]رحمه الله :

---

(١) شعفة كل شيء أعلاه ، وجمعها شعاف ، يريد به رأس جبل من الجبال . انظر النهاية في غريب الأثر ٤٨١/٢ .

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب الإيمان ، باب من الدين الفرار من الفتن ، برقم (١٩) .

(٣) الزهد الكبير ص٩٣ .

(٤) أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي الخطابي، صاحب التصانيف ،أخذ الفقه على مذهب

" إنما نريد بالعزلة ترك فضول الصحبة ، ونبذ الزيادة منها ، وحط العلاوة التي لا حاجة بك إليها "[1] .

٣ ـ اختلف السلف في مسألة في هذا النوع ، وهي :

أيهما أفضل العزلة أم الخلطة ؟

وتناولها السلف على قولين ، هما روايتان للإمام أحمد[2] ، واستطردوا بذكر الأدلة ، وفوائدهما[3] ، إلا أن المُلاحظ على خلافهم ما يلي :

أ ـ أن خلافهم متجه إلى الأيام التي لا يوجد فيها فتن عامة على المسلمين .

ب ـ يتجه كلا القولين إلى أنه كلما تأخر الزمان زادت درجة تفضيل العزلة على الخلطة ، وتعليل ذلك ظاهر لارتباطه بانتشار الفساد مع تأخر الزمن .

ج ـ أن الخلاف بينهم في حالة واحدة ، وهي حالة تساوي العزلة والخلطة[4] ، أما مع الفروق بينهما فتفضيل السلف متجه لمن تكون الفروق في جانبه ، فمثلا :

تكون المخالطة أفضل لمن " قدر على نفع الناس بماله أو بدنه لقضاء حوائجهم مع القيام بحدود الشرع . "[5] .

وتكون العزلة أفضل لمن لا يسلم له دينه بالمصاحبة والمخالطة لغيره من الناس [6]، مع التأكيد على حضور المخالطة الواجبة كالصلوات وغيرها .

الشافعي عن أبي بكر القفال الشاشي ،حدث عنه أبو عبد الله الحاكم وهو من أقرانه في السن والسند ،والإمام أبو حامد الإسفراييني ،وكان قد رحل في الحديث ،وقراءة العلوم ،وطوف ثم ألف في فنون من العلم وصنف ،وفي شيوخه كثرة ،وكذلك في تصانيفه ،منها شرح السنن ، وكتابه في غريب الحديث ذكر فيه ما لم يذكره أبو عبيد ولا ابن قتيبة في كتابيهما ، توفي سنة ثمان وثمانين وثلاث مئة للهجرة . انظر : سير أعلام النبلاء ٢٣/١٧

(١) العزلة ، الإمام أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي ، تحقيق ياسين السواس :ص٥٨،{دار ابن كثير ،بيروت: ١٤٠٧هـ } .

(٢) الآداب الشرعية ٤٤٩/٣ .

(٣) انظر : تلبيس إبليس، عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج تحقيق : الدكتور السيد الجميلي ،{ط١، دار الكتاب العربي،بيروت:١٤٠٥هـ } ، والعزلة للخطابي فقد بنى كتابه لذلك .

(٤) انظر : فتح الباري ٤٣/١٣ .

(٥) الآداب الشرعية ٤٥٠/٣ .

(٦) انظر : شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك ٤٨٠/٤ .

وليس هذا من مقصد العزلة في بحثي ، إذ هي مسألة جانبية ، في أحوال عامة ، يكون المسلم فيها بين أمرين كلامها مشروع ، يختار أفضلهما في حقه "والأفضل يتنوع تارة بحسب أجناس العبادات كما أن جنس الصلاة أفضل من جنس القراءة ، وجنس القراءة أفضل من جنس الذكر ، وتارة يختلف باختلاف الأوقات كما أن القراءة والذكر والدعاء بعد الفجر والعصر هو المشروع دون الصلاة ، وتارة باختلاف عمل الإنسان الظاهر كما أن الذكر والدعاء في الركوع والسجود هو المشروع دون القراءة ، وتارة باختلاف الأمكنة كما أن المشروع بعرفة ومزدلفة وعند الجمار وعند الصفا والمروة هو الذكر والدعاء دون الصلاة ، وتارة باختلاف مرتبة جنس العبادة فالجهاد للرجال أفضل من الحج ، وأما النساء فجهادهن الحج والمرأة المتزوجة طاعتها لزوجها أفضل من طاعتها لأبويها ، وتارة يختلف باختلاف حال قدرة العبد وعجزه "[1] .

النوع الثاني : العزلة في أيام الفتن

ويراعى في هذا النوع الأمور التالية :

١ ـ المراد بالفتنة هنا هي الفتن العامة التي تصيب عموم الأمة ، فيخرج من ذلك الفتن الخاصة ، حيث تبحث في النوع السابق .

٢ ـ " إن كان الإنسان ممن له قدرة على إزالة الفتنة ، فإنه يجب عليه السعي في إزالتها إما فرض عين ، وإما فرض كفاية بحسب الحال والإمكان "[2] .

٣ ـ يختلف الأمر في وقت الفتنة ، فقد يستحب الدخول والمخالطة في أول أوقات الفتنة وقبل انتشارها ، بينما تستحب العزلة بعد اتساعها واستسعارها ، فإنك إن قلت لم يسمع لقولك ، وإن يت لم يلتفت لنهيك ، نسأل الله العافية .

والمراد بالعزلة في تعامل الداعية مع الصادين عن دعوته ، هو العزلة في هذا النوع ، وعلى الداعية أن يراعي ما يلي :

أ ـ لا يلجأ إلى العزلة إلا بعد استنفاذه الطريقتين السابقتين : التكرار ، والمواجهة .

ب ـ لا ينفرد الداعية بالحكم باختيار العزلة من عدمها ، وإنما يبني ذلك على

---

(١) الفتاوى ٤٢٥/١٠ باختصار .

(٢) عمدة القاري ١٦٣/١ .

استشارته للراسخين من أهل العلم والصدور عن آرائهم .

ج ـ لا يعتزل الداعية إلا حينما لا يمكنه تقديم شيء في الدعوة إلى الله ، ويضيق عليه ، ويمنع من أداء عبادته ولا يسمع له .

وهي الحالة التي قال عنها نبي الله إبراهيم عليه السلام : ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا ﴾(1) .

وقال الله عنه: ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً ﴾ (2) .

وهي الحالة التي فزع إليها فتية الكهف ، " والعزلة عند الفتنة سنة الأنبياء ، وعصمة الأولياء ، وسيرة الحكماء والأولياء "(3) .

---

(1) مريم : ٤٨ .

(2) مريم : ٤٩ .

(3) العزلة ص ٨ .

الفصل الثالث

الضوابط الدعوية المستنبطة من قصص الدعاة من غير الأنبياء

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : تعريف الضوابط الدعوية .

المبحث الثاني : بيان الضوابط الدعوية من خلال قصص الدعاة من غير الأنبياء .

تمهيد:

وبعد أن استعرضت المرحلتين الأوليين ، والتي تناولت فيهما قصص الدعاة ، ثم صفا م ، ومنهجهم الدعوي ، بقي أن أتناول اللبنة المكملة للبحث ، وهي ضوابط دعوية من خلال ما ترسخ لدي من حياة الدعاة وأسلوب تعاملهم ، والظروف التي مرت م ، وتظهر ثمرة ذلك في وضع معالم لمنهج الدعوة تسير عليه ، ويمارس الداعية دعوته من خلال تلك الضوابط .

وهي ثمرة أولى لتناول قواعد دعوية تكون مرجعا للدعاة يحتكمون إليها ، وتكون فيصلا في كثير من ا الات الدعوية .

وسأتكلم في هذا الفصل عن مبحثين وذلك كما يلي:

المبحث الأول : تعريف الضوابط الدعوية .

المبحث الثاني : بيان الضوابط الدعوية من خلال قصص الدعاة من غير الأنبياء.

سائلا الله الإعانة والتوفيق ، فإلى بيا ما .

المبحث الأول

تعريف الضوابط الدعوية

تعريف الضوابط الدعوية :

قبل البدء بالتعريف يحسن بي أن أذكر سبب تسميتي لها بالضوابط الدعوية ، وليس القواعد الدعوية ، مع أن " كثيرا من الفقهاء لا يلتزمون التفريق والتدقيق – بين الضابط والقاعدة – ولهذا فإن إطلاق مسمى القاعدة على الضابط أمر شائع في المصادر الفقهية ، وكتب القواعد "[١] إلا أني أفضل تسميتها بالضوابط الدعوية ، وذلك لما يلي :

١ ـ لأن هناك من أهل العلم من فرق بين الضوابط ، والقواعد .

٢ ـ ولأن الضوابط تجمع فروعا من باب واحد[٢] ، والكلام هنا عن باب الدعوة إلى الله .

وحيث إنه سبق أن بينت معنى الدعوة في اللغة والاصطلاح ، فسأبين تعريف الضابط في اللغة ، والاصطلاح ، ومن ثم استنباط التعريف الكلي لهما .

تعريف الضابط في اللغة :

لزوم الشيء وعدم مفارقته، و ضبط الشيء حفظه بالحزم،ورجل ضابط أي حازم[٣].

تعريف الضابط في الاصطلاح :

أمر كلي ينطبق على جزئياته لتعرف أحكامها منه[٤] .

فنلاحظ في التعريف أنه عام لا يختص بعلم معين ، فيمكن أن تصاغ ضوابط في أي علم قابل للضوابط ، ومن هذه العلوم علم الدعوة .

تعريف الضوابط الدعوية :

إذا أضفنا كلمة الضوابط إلى الدعوة صار للفظة المركبة " ضوابط دعوية " معنى يخصها ، ولم أجد أحداً عرفها مجتمعة ، وسأجتهد في بيان المعنى مركباً ، فأقول مستعينا

---

(١) القواعد الكلية ، والضوابط الفقهية ، جمال الدين يوسف بن عبد الهادي الدمشقي الحنبلي ، تحقيق جاسم الدوسري :ص٧،{ط١،دار البشائر ،بيروت: ١٤١٥هـ } من كلام المحقق .

(٢) الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية ، الدكتور محمد صدقي البورنو :ص٢٤،{ط٢،مكتبة المعارف ،الرياض: ١٤١٠هـ }.

(٣) انظر : لسان العرب، مادة (ضبط)، ٣٤٠/٧ .

(٤) غمز عيون البصائر شرح كتاب الأشباه والنظائر ، زين العابدين إبراهيم بن نجيم المصري ، شرح أحمد الحموي :٥/٢،{ط١، دار الكتب العلمية ،بيروت: ١٤٠٥هـ} .

بالله ، هي :

مجموعة أحكام كلية شرعية تتعلق بعملية تطبيق شرع الله في حياة الناس ، على المستويات كافة ، وفي جميع ا الات .

ويمكن لي أن اختصره ، فأقول :

مجموعة أحكام كلية شرعية ، تتعلق بجانب الدعوة إلى الله .

وقبل أن أختم هذا المبحث،أحب أن أنبه إلى أنني تحيرت في تسمية هذه الضوابط ، فيصح تسميتها بضوابط دعوية،كما يصح تسميتها بضوابط في فقه الدعوة،إلا أنني وبعد استخارة واستشارة أحببت تسميتها ضوابط دعوية،لأمور،منها :

١ ـ أن سائر العلوم الشرعية يوجد لها ضوابط وقواعد بأسماء تلك العلوم ، فمن ذلك : قواعد فقهية ، وقواعد أصولية ، وقواعد التفسير ، والدعوة من تلك العلوم التي ينبغي أن تختص بقواعد لها ، وتتسمى باسمها .

٢ ـ ولأن فقه الدعوة فرع من فروع علم الدعوة ، كعلم أصول الدعوة ، فإيجادنا قواعد للأصل أولى من إيجاد قواعد للفرع .

٣ ـ ولأنه بدأ الاتجاه في الآونة الأخيرة إلى الكتابة[١] في " ربط المباحث الدعوية بالقواعد الفقهية والأصولية وهو اتجاه أملته الحاجة إلى التأصيل الشرعي في كثير من قضايا الدعوة ، خاصة بعد ظهور اجتهادات غريبة عن الحس الإسلامي في بعض أوساط الدعاة "[٢]. وفي نظري أن تخصيص قواعد للدعوة وضوابط لها ، يعمل على إ اء كثير من تلك الاجتهادات غير السائغة ، وهو أولى من الاحتجاج بقواعد من علوم أخرى ، كالقواعد الفقهية مثلا .

---

(١) ومن تلك الكتابات :

" كتاب القواعد الشرعية ودورها في ترشيد العمل الإسلامي ، محمد أبو الفتح البيانوني ، وكتاب : فقه الكسب ، الدكتور محمد القباطي ، نشر دار الأندلس ، وكتاب : قواعد فقهية لترشيد الصحوة الإسلامية ، ناصر درويش ، نشر مكتبة سمرقند " انظر : من فقه الداعية ص٤٦-٤٧ .

ويضاف لها : كتاب : قواعد الدعوة إلى الله ، الدكتور همام سعيد ، نشر دار الفرقان ، وكتاب : قواعد أساسية في مسيرة الدعوة الإسلامية ، الدكتور على الضويحي ، نشر دار ابن الجوزي ، وكتاب : قواعد وضوابط في فقه الدعوة عند ابن تيمية ، عابد الثبيتي ، نشر دار ابن الجوزي .

(٢) من فقه الداعية ، عبد الرحمن بن أحمد الجرعي :ص٤٥،{ط١،دار ابن حزم ،بيروت: ١٤٢٥هـ } .

المبحث الثاني

بيان الضوابط الدعوية من خلال قصص الدعاة

من غير الأنبياء في القرآن .

المبحث الثاني

بيان الضوابط الدعوية من خلال قصص الدعاة من غير الأنبياء

الضابط الدعوي الأول :

الدعوة إلى التوحيد تقدم على سائر أمور الدين .

معنى الضابط :

إن أول ما يجب على الدعاة الدعوة إليه هو العقيدة الإسلامية الصحيحة ، وهو الدعوة إلى تحقيق الشهادتين وما يلزمهما ، والدعوة إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر .

لأن "أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له "[(١)] .

فيقدم من الدعوة ما يختص بجانب التوحيد ، ثم يتبعه الدعوة إلى سائر أمور الدين

أدلة الضابط :

يدل لهذا الضابط أدلة كثيرة ، منها :

١ـ قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكُم الذِي خلَقَكُم والذِين مِن قَبلِكُم لَعلكُم تتقُونَ﴾[(٢)] .

وجه الدلالة :

أمر الله بعبادته قبل سائر الأوامر ، وجعل الأمر بذلك عاما لجميع الناس ، ولم يخص به فئة المؤمنين .

٢ـ قوله :﴿ ولَقَد بعثْنا فِي كُل أُمةٍ رسولاً أَن اعبدوا الله واجتِنبوا الطاغُوت ﴾[(٣)]

وجه الدلالة :

" فالله تعالى يخبر عن رسله الذين أرسلهم إلى جميع الأمم أ م أرسلوا ؛ ليأمروا الناس بعبادة الله تعالى وتوحيده ، وينهوهم عن الشرك به "[(٤)] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣١٧/٩ .

(٢) البقرة : ٢١ .

(٣) النحل : ٣٦ .

(٤) قواعد وضوابط فقه الدعوة ، ص٢٥٠ .

٣ ـ حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسا م على الله "[(١)].

وجه الدلالة :

أمر الله نبيه ﷺ بمقاتلة الناس ؛ لأجل أن يوحدوا الله ، والالتزام بما يتبع التوحيد من أعمال ، فبدأ بالتوحيد قبل سائر أمور الدين الأخرى .

٤ ـ وأما الدليل على هذا الضابط من قصص الدعاة من غير الأنبياء :

فإننا نلاحظ أن الأمر الذي اشترك فيه أولئك الدعاة أ م جميعاً دعوا لعبادة الله:

فأهل الكهف دعوا قومهم لعبادة الله ، ونبذ ما دونه من آلهة باطلة ، فقالوا:﴿هؤلاءِ قَومنا اتخذُوا مِن دونِهِ آلِهةً لَولا يأْتونَ علَيهم بِسلْطَانٍ بينٍ فَمن أَظْلَم مِمنِ افْترى علَى اللهِ كَذِباً﴾[(٢)] .

حتى صاحب الجنتين في سورة الكهف دعاه صاحبه لتوحيد الله،فقال: ﴿ أَكَفَرت بِالذِي خلَقَك مِن ترابٍ ثُم مِن نطْفَةٍ ثُم سواك رجلاً۝ لَكِنا هو الله ربي ولا أُشرِك بِربي أَحداً﴾[(٣)].

ولقمان في تربيته لابنه بدأ بتعليمه عبادة الله ،فقال له: ﴿يا بني لا تشرِك بِاللهِ إِن الشرك لَظُلْم عظِيم﴾[(٤)].

وكذلك فعل مؤمن آل يس ، فقال لقومه : ﴿اتبِعوا من لا يسأَلُكُم أَجراً وهم مهتدونَ۝ وما لِي لا أَعبد الذِي فَطَرنِي وإِلَيهِ ترجعونَ۝أَأَتخِذُ مِن دونِهِ آلِهةً إِنْ يردن الرحمن بِضر لا تغنِ عني شفَاعتهم شيئاً ولا ينقِذُون﴾[(٥)].

---

(١) تقدم تخريجه ، متفق عليه ، أخرجه البخاري برقم (٢٥) ١٧/١، ومسلم برقم (٢٢) ٥١/١ .

(٢) الكهف : ١٥ .

(٣) الكهف : ٣٧-٣٨ .

(٤) لقمان : ١٣ .

(٥) يس : ٢١-٢٣ .

تطبيقات الضابط :

لهذا الضابط تطبيقات عملية في حياة الدعاة إلى الله ، فمن ذلك أنه :

١ ـ تجب دعوة الناس إلى توحيد الله وعبادته قبل دعوتهم لشيء آخر من الفروع .

٢ ـ ولا تشرع دعوة الناس إلى الألفة والاجتماع والتآخي إلا بعد استكمال جانب التوحيد [١] .

٣ ـ ينبغي الاهتمام بتصحيح عقائد المسلمين وإزالة ما يعلق فيها من شبهات .

٤ ـ كل عمل دعوي يقدمه الدعاة ينبغي أن يصب في تحقيق هذا الضابط ، ولو كان العمل الدعوي يتعلق بدنيا الناس .

---

(١) ينظر : قواعد وضابط في فقه الدعوة ، ص٢٥١ .

الضابط الدعوي الثاني :

كل ما يؤدي إلى تحقيق دين الله بوسيلة مشروعة فهو من الدعوة إليه سبحانه .

معنى الضابط :

أن كل عمل مشروع يقوم به الإنسان المؤمن يؤدي إلى تحقيق دين الله في الأرض ، سواء أكان العمل من الأعمال القاصرة على الفرد أم الأعمال المتعدية النفع ، فإنه يعتبر دعوة إلى الله سبحانه وتعالى وذلك حتى تشمل الدعوة إلى الله جميع مظاهر الحياة ، ولا تقصر على جانب واحد من الجوانب .

أدلة الضابط :

يدل لهذا الضابط أدلة كثيرة ، منها :

١ ـ قوله تعالى : ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾[(١)] .

وجه الدلالة :

دلت الآية على أن الله أمر نبيه ﷺ بالدعوة إلى الله ، وحددت له أساليب الدعوة ، في حين أ ا لم تحدد مجالات الدعوة ، فجاءت الآية مطلقة ، ولعل السر فيها – والله أعلم – حتى تشمل الدعوة جميع جوانب الحياة .

٢ ـ سيرة النبي ﷺ في حياته ، فقد كان داعية في بيته ومسجده وفي ساحات الجهاد ، فلم يقصر الدعوة على جانب الكلمات وخطب الجمعة ، بل كان داعية في تعامله مع أهله ، كما قال ﷺ : " خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي "[(٢)] .

وكان ﷺ يحمل الكل ، ويقري الضيف ، ويكسب المعدوم ، كما قالت خديجة[(٣)]

---

(١) النحل : ١٢٥ .

(٢) أخرجه الترمذي ، كتاب المناقب ، باب فضل أزواج النبي ﷺ ، برقم (٣٨٩٥) ٧٠٩/٥، وقال الترمذي : حديث حسن غريب صحيح .

(٣) خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشية الأسدية ، أم المؤمنين ، زوج النبي ﷺ ، أول امرأة تزوجها ، وأول خلق الله أسلم بإجماع المسلمين ، لم يتقدمها رجل ولا امرأة ، كانت تدعى في الجاهلية الطاهرة ، وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم ، تزوجها رسول الله ﷺ قبل الوحي ، وعمره حينئذ خمس وعشرون سنة ، وكان عمرها حينئذ أربعين سنة ، وأقامت معه أربعا وعشرين سنة ، توفيت خديجة

رضي الله عنها : " كلا ، أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبداً ، فوالله إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكَلّ[1] ، وتكسِب المعدوم[2] ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق[3] "[4] .

٣ ـ وأما الدليل على هذا الضابط من قصص الدعاة من غير الأنبياء :

فإن المتأمل لتلك القصص يجد أ م جميعا دعوا إلى الله ، فذو القرنين دعا إلى الله بجهاده في سبيله،وفتح مشارق الأرض ومغار ا معلنا أن من آمن فله جزاء الحسنى ،كما قال الله عنه:﴿حتى إِذَا بلَغَ مغرِب الشمسِ وجدها تغرب فِي عينٍ حمِئَةٍ ووجد عِندها قَوماً قُلْنا يا ذَا الْقَرنينِ إِما أَنْ تعذب وإِما أَنْ تتخِذَ فِيهِم حسناً ۞ قَالَ أَما من ظَلَم فَسوف نعذبه ثُم يرد إِلَى ربِهِ فَيعذبه عذَاباً نكْراً﴾[5].

ولقمان دعا إلى الله مع أنه يربي ابنه ،فقال: ﴿ يا بني أَقِمِ الصلاةَ وأْمر بِالْمعروفِ وانه عنِ الْمنكَرِ واصبِر علَى ما أَصابك إِن ذَلِك مِن عزمِ الْأُمورِ﴾[6].

وآسية امرأة فرعون ، التي ضر ا الله مثلاً للذين آمنوا دعت إلى الله مع أ ا زوجة ضعيفة عند طاغية العالم، ومع ذلك دعت إلى الله بصبرها واحتسا ا ودعائها،فقالت:﴿ رب ابنِ لِي عِندك بيتاً فِي الْجنةِ ونجِني مِن فِرعونَ وعملِهِ ونجِني مِن الْقَومِ الظَّالِمِين﴾[7].

وأصحاب الجنة في سورة القلم دعاهم أخوهم الأوسط إلى الله وتسبيحه مع أ م

رضي الله عنها قبل الهجرة بخمس سنين ، وقيل بأربع سنين.انظر : أسد الغابة ٨٨/٧ .

(١) الكَلّ : بالفتح ، الثقل من كل ما يتكلف ، والكل العيال ، انظر : النهاية في غريب الأثر ١٩٨/٤ .

(٢) المعدوم : الفقير الذي صار من شدة حاجته ، كالمعدوم نفسه ، وقيل : أرادت تكسب الناس الشيء المعدوم ، الذي لا يجدونه مما يحتاجون إليه ، انظر : النهاية في غريب الأثر ١٩١/٣ .

(٣) جمع نائبة ، وهى : الحادثة ، وإنما قالت : نوائب الحق ، لأن النائبة قد تكون في الخير ، وقد تكون في الشر ، انظر : المنهاج ٢٠٢/٢ .

(٤) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب التفسير ، باب تفسير قوله " أقرأ باسم ربك الذي خلق " ، برقم (٤٦٧٠)١٨٩٤/٤ ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب بدء الوحي ، برقم (١٦٠)١٣٩/١ .

(٥) الكهف : ٨٦-٨٨ .

(٦) لقمان : ١٧ .

(٧) التحريم : ١١ .

إخوة،ومعلوم أن علاقة الأخوة فيما بينهم تبنى على الود والمحبة ، ومع هذا لم يمنعه ذلك من دعو م فقال تعالى:﴿قَالَ أوسطُهم أَلم أَقُلْ لَكُم لَولا تسبحونَ﴾[1] .

" ويهمنا من هذا أن نقرر أن الداعية إلى الله يبدأ دائماً وفي كل الأحوال بإصلاح العقيدة ، ثم يصرف همه إلى معالجة الأمراض الموجودة في ا تمع الذي يدعو فيه ، وإذا كان هناك أمراض متفاوتة بدأ بأشدها فتكا ، وأعمقها ضررا على ا تمع "[2] .

تطبيقات الضابط :

لهذا الضابط تطبيقات عملية في حياة الدعاة إلى الله ، فمن ذلك أنه :

١ ـ يجب على الدعاة تنويع الوسائل الدعوية المشروعة .

٢ ـ ينبغي على الدعاة أن يعتنوا بجميع جوانب الحياة لإصلاح ا تمعات ، سواء الجوانب الدنيوية أو الدينية .

٣ ـ على الدعاة التنافس في ميدان الدعوة من غير أن يهدم ذلك أعمالهم الدعوية .

٤ ـ يفتح الباب أمام المشاريع الدعوية ، وصور الدعوة التطبيقية الكثيرة من غير أن تحصر الدعوة على جانب من الجوانب ، يوصف بالتقصير كل من لم يسلكه ، أو يوصف بالأهمية جانب على حساب جانب آخر .

---

(١) القلم : ٢٨ .

(٢) أولويات الدعوة في منهج الأنبياء ، الدكتور زيد الزيد ، مجلة البحوث الإسلامية ، ع٤٣ ص٢٤٢ .

الضابط الدعوي الثالث :

تجب الدعوة على حسب القدرة والاستطاعة .

معنى الضابط :

أن الإنسان المسلم يطالب شرعا من الدعوة بما يدخل في حدود قدرته واستطاعته ، وهذا من باب تيسير الله على عباده ، إضافة إلى أنه يفتح ا ال أمام تعدد الأعمال الدعوية .

أدلة الضابط :

يدل لهذا الضابط أدلة كثيرة ، منها :

١ ـ قوله تعالى:﴿لا يكلف الله نفْساً إلا وسعها﴾[١].

وجه الدلالة :

هذه الآية " خبر جزم نص على أنه لا يكلف العباد من وقت نزول الآية عبادة من أعمال القلوب والجوارح إلا وهي في وسع المكلف ، وفي مقتضى إدراكه "[٢] .

ومن تلك الأعمال الدعوة إلى الله ، فدلت الآية بمنطوقها على أن الإنسان المسلم ، يطلب منه الدعوة إلى الله في حدود قدرته واستطاعته ، وما يدخل تحت وسعه .

٢ ـ قوله تعالى: ﴿فَاتقُوا الله ما استطَعتم﴾[٣].

وجه الدلالة :

أمرت الآية الكريمة بتقوى الله ، وقيدت ذلك بالاستطاعة ، " فهذه الآية تدل على أن كل واجب عجز عنه العبد يسقط عنه ، وأنه إذا قدر على بعض الأمور وعجز عن بعضها فإنه يأتي بما قدر عليه ، ويسقط عنه ما يعجز عنه ، ويدخل تحت هذه القاعدة الشرعية من الفروع ما لا يدخل تحت الحصر "[٤] .

ومن هذه الواجبات ، واجب الدعوة إلى الله ، فيسقط بالعجز عنه ويجب مادام في

---

(١) البقرة : ٢٨٦ .

(٢) المحرر الوجيز ٣٩٢/١ .

(٣) التغابن : ١٦ .

(٤) تفسير السعدي ص٨٦٨ ، باختصار يسير .

حدود قدرة العبد .

٣ ـ قوله ﷺ : " ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم ، فإنما أهلك الذين من قبلكم ؛ كثرة مسائلهم ، واختلافهم على أنبيائهم "[١] .

وجه الدلالة :

هذا الحديث " من قواعد الإسلام المهمة ، ومن جوامع الكلم التي أعطيها ، ويدخل فيها ما لا يحصى من الأحكام ، وهذا الحديث موافق لقول الله تعالى " فاتقوا الله ما استطعتم "[٢].

ومن هذه الأحكام الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، فيؤتى منها بما يستطيعه الإنسان .

٣ ـ وأما الدليل على هذا الضابط من قصص الدعاة من غير الأنبياء :

فإن المتأمل لجميع القصص يلاحظ أنهم جميعا مارسوا الدعوة إلى الله كل في حدود قدرته ، وأثنى الله عليه ، ولم يطالبه بغير ذلك ، فمن ذلك :

مؤمن آل يس ، وهو رجل من عامة أهل مدينته ، لم يعرف بجاه أو منصب دعا إلى الله حسب قدرته ، فكل ما يستطيعه هذا الرجل المؤمن هو أن يلقي خطابا عاما ويتلطف فيه ، حتى أنه لما أراد وصف قومه بالضلال لم يستطع ، فحول الخطاب إلى نفسه ، كما قال: ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنقِذُونِ۝إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[٣].

بينما مؤمن آل فرعون كان يتمتع بمنصب مرتفع في دولته ، وعلى قرابة من فرعون كما يفهم من ظاهر الآيات ، كما سبق أثناء تفسير الآيات ، ولهذا وقف في وجه فرعون ، وتكلم في مجلسه ، ودار بينهما محاورة ذكرها الله في كتابه .

ولم يكن الحال كذلك مع فتية الكهف ، حيث لم يستطيعوا كل ذلك ،إذ يكن منهم إلا أن أووا إلى كهف يتعبدون فيه لربهم .

وليس الحال كذلك عند ذي القرنين ، فقد آتاه الله من كل شيء سببا ، فكانت

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب الاعتصام ، باب الاقتداء بسنن النبي ﷺ وقول الله " واجعلنا للمتقين إماما " برقم (٦٨٥٨)٢٦٥٨/٦،ومسلم،كتاب الحج،فرض الحج مرة في العمر ، برقم (١٣٣٧)١٨٣٠/٤ .

(٢) المنهاج ١٠٢/٩ .

(٣) يس : ٢٣-٢٤ .

قدرته تفوق قدرة فتية الكهف ، فجاهد في سبيل الله يفتح البلدان ويسقط الدول حتى تدين بدين الله .

فظهر لنا جليا أن كل واحد من هؤلاء الدعاة كان له دور في الدعوة يؤديه حسب قدرته واستطاعته .

تطبيقات الضابط :

لهذا الضابط تطبيقات عملية في حياة الدعاة إلى الله ، فمن ذلك أنه :

١ ـ يطالب الدعاة بما يدخل تحت قدر م من المشاريع الدعوية .

٢ ـ يلتمس العذر لمن ترك أعمالا دعوية لا يستطيعها ، ودعا إلى الله بما يستطيعه .

٣ ـ يفتح ا الات الدعوية أمام الناس لمن أراد المشاركة كل على حسب قدرته .

الضابط الدعوي الرابع :

القدر الواجب شرعا هو القيام بالدعوة إلى الله ، دون النظر لاستجابة المدعوين .

معنى الضابط :

أن القدر الذي يجب بذله في الدعوة هو القيام بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، أما النظر إلى استجابة المدعوين فلا يجب ، ولا يقدر الجهد الدعوي ، والقيمة الدعوية للعمل بناء على حجم ثمرته ، وإن كان الثمرة لها اعتبارات أخرى .

أدلة الضابط :

يدل لهذا الضابط أدلة كثيرة ، منها :

١ ـ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعرضوا فَما أَرسلْناك علَيهم حفِيظاً إِنْ علَيك إِلا الْبلاغُ﴾[١]

وجه الدلالة :

الآية دلت على أن " ما عليك يا محمد إلا أن تبلغهم ما أرسلناك به إليهم من الرسالة ، فإذا بلغتهم ذلك فقد قضيت ما عليك "[٢] .

فجعل الله استجابة نبيه ﷺ لأمر ربه معلقا على البلاغ فقط .

ومثلها الآيات التي في معناها ، مثل :

قوله : ﴿ فَإِنما علَيك الْبلاغُ ﴾[٣] .

وقوله : ﴿ ما علَى الرسول إِلا الْبلاغُ﴾[٤] وغير ذلك من الآيات .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ ادع إِلَى سبِيلِ ربك بِالْحِكْمةِ والْموعِظَةِ الْحسنةِ وجادِلْهم بِالَّتِي هِي أَحسن﴾[٥] .

وجه الدلالة :

دلت الآية بعمومها على أمر الله لنبيه الكريم ﷺ بالقيام بالدعوة ، وجعلت ذلك

---

(١) الشورى : ٤٨ .

(٢) تفسير الطبري ٤٤/٢٥ .

(٣) آل عمران : ٢٠ .

(٤) المائدة : ٩٩ .

(٥) النحل : ١٢٥ .

القدر هو المناط به التكليف دون نظر لغيره .

كما يدل على ذلك جميع آيات الأمر بالدعوة في كتاب الله ، فلم يؤمر النبي ﷺ فيها بغير القيام بواجب الدعوة .

وكذلك قصص الأنبياء جميعا في كتاب الله ، ومنهم أولئك الذين لم يستجب لهم أحد أو آمن من أقوامهم قليل .

٣ـ حديث معاذ ﷺ قال : " بعثني رسول الله ﷺ قال : إنك تأتي قوما من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لذلك ؛ فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب "(١) .

وجه الدلالة :

أمر النبي ﷺ معاذا ﷺ بدعوة أهل الكتاب والتدرج فيما يدعوهم إليه ، ولم يجعل لاستجابتهم أثرا إلا الانتقال لأمر شرعي آخر ، " فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم " .

ويكون معاذ ﷺ قد استجاب لأمر النبي ﷺ بقيامه بدعو م بقطع النظر عن استجابتهم .

وأحسب أن الأمر واضح في الأحاديث التي فيها الأمر بالدعوة ، فلم يعلق النبي ﷺ الأجر واستجابة الأمر على أعداد الداخلين في دين الله .

٤ ـ وأما الدليل على هذا الضابط من قصص الدعاة من غير الأنبياء :

فإن المتأمل لقصصهم يجد أ م يختلفون من حيث أعداد المستجيبين لدعو م، فمثلا :

فتية الكهف لم يستجب لهم أحد في زما م مع أن الآيات دلت على بقاء الدعوة فيهم ، حتى تغيرت المدينة بكاملها .

ومؤمن آل يس لم يستجب له قومه ، وقتلوه كما هو واضح في سياق الآيات .

بينما أهل العلم من قوم قارون حينما نصحو قومهم استجابوا لهم وثبتوا على إيما م.

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ، برقم (١٩) .

وذو القرنين دانت له الأرض بكاملها ، ودخل في دين الله أعداد كثيرة كما تشير إليه قصته .

وبقطع النظر عن الاستجابة من عدمها فإن الله أثنى عليهم في كتابه ، وأدوا ما وجب عليهم من حق الدعوة إلى الله .

تطبيقات الضابط :

لهذا الضابط تطبيقات عملية في حياة الدعاة إلى الله ، فمن ذلك أنه :

١ ـ لا يقاس نجاح الدعاة بأعداد المستجيبين لدعو م فنقع في هضم حق الدعاة ، وإن كان لاستجابة المدعوين اعتبارات أخرى لها قيمتها .

٢ ـ لا يدخل اليأس إلى قلوب الدعاة حينما لا يستجيب لدعو م أحد .

٣ ـ يسعى المسلم لفكاك رقبته مما وجب عليه شرعا من حق الدعوة .

٤ ـ " علاج لأولئك المتعجلين من الدعاة الذين ينتظرون النتائج الدنيوية الظاهرة ويجعلو ا شرطا للمواصلة والسير في طريق الدعوة ، وهذا التلازم إنما هو سوء فهم من جهة ، ومخالفة صريحة لقواعد الدعوة في القرآن والسنة من جهة أخرى "(١) .

وينبغي أن يعلم أن هذا الضابط لا يتعارض مع وضع المؤشرات عند تقييم أعمال الدعاة ويكون من بينها أعداد المستجيبين سواء من الكفار الذين أسلموا أو العصاة الذين اهتدوا .

---

(١) قواعد الدعوة إلى الله ، ص٢٥ .

الضابط الدعوي الخامس :

الأصل في الدعوة الرفق .

معنى الضابط :

أن الداعية في دعوته إلى الله سبحانه وتعالى يقدم أسلوب الرفق على غيره من الأساليب ، ولا يعني تقديمه أسلوب الرفق إلغاء غيره ، وإنما تقديمه على غيره .

أدلة الضابط :

يدل لهذا الضابط أدلة كثيرة ، منها :

١ ـ قوله تعالى: ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ [١].

وجه الدلالة :

دلت الآية على أمر الله لنبيه ﷺ بالدعوة إلى الله ، وأمره بأن يتخذ الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن في حال دعوته ، وكلها أساليب تدل على الرفق .

٢ ـ قوله تعالى آمرا موسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَقُولا لَه قَولاً لَيناً لَعله يتذَكر أو يخشى﴾[٢]

وجه الدلالة :

الآية دلت على " أمر الله جل وعلا نبيه موسى وهارون عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام ، أن يقولا لفرعون في حال تبليغ رسالة الله إليه قولا لينا ، أي : كلاما لطيفا سهلا رقيقا ليس فيه ما يغضب وينفر "[٣] ، وهذا هو الر فق .

٣ ـ حديث عائشة رضي الله عنها ، عن النبي ﷺ قال : " يا عائشة ، إن الله يحب الرفق في الأمر كله "[٤] .

وجه الدلالة :

---

(١) النحل : ١٢٥ .

(٢) طه : ٤٤ .

(٣) أضواء البيان ٤/١٥ .

(٤) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب الأدب ، باب الرفق يكون بالأمر كله ، برقم (٥٦٧٨) ٥/٢٢٤٢، ومسلم،كتاب السلام ، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد ، برقم (٢١٦٥) ٤/١٧٠٦.

بين النبي ﷺ أن الله يحب الرفق في الأمر كله ، ويدخل في ذلك الدعوة إلى الله .

٤ ـ وأما الدليل على هذا الضابط من قصص الدعاة من غير الأنبياء :

فإن المتأمل في قصصهم يجد أ م جميعا قدموا أسلوب الرفق في دعو م ، ومن ذلك :

فتية الكهف حيث لم ينابذوا قومهم أو يفسدوا في مدينتهم ، وإنما كانت دعو م لقومهم في حال التجمعات وبالحجة القوية ، فلما انتشر خبرهم وطاردهم ملك زما م اضطروا إلى الكهف .

وكذلك الحال في خطاب مؤمن آل يس لقومه ، فإن لغة الرفق واضحة على خطابه ، ونسبة قومه لنفسه ، ودعاءه إياهم بقوله: ﴿ يا قَومِ ﴾ .

وقل مثل ذلك في مؤمن آل فرعون ، وهو يتحبب إلى قومه ، ويكرر ﴿ يا قَومِ ﴾ أكثر من مرة ، ويتودد لهم في الخطاب .

حتى في تعامل الأب مع ابنه وتربيته إياه ، يقدم لقمان رحمه الله أسلوب الرفق واللين ، فيناديه بقوله: ﴿ يا بني ﴾ وهي مشعرة بحنان الأبوة .

وبمثل هذا الأسلوب بدأ نذر الجن دعو م لقومهم .

تطبيقات الضابط :

لهذا الضابط تطبيقات عملية في حياة الدعاة إلى الله ، فمن ذلك أنه :

١ ـ تقدم الأساليب التي تعتمد على الرفق ، ويؤخر غيرها .

٢ـ " يجب إظهار الإسلام ، والدعوة إليه بالعلم والبيان ، قبل إظهاره باليد والقتال"[(١)] .

٣ ـ تستعمل أساليب التدرج مع المدعوين فيما يقبل ذلك ، خاصة في الأعراف والتقاليد ؛ لصعوبة انتزاعها من قلوب الناس ، فإن " للأعراف في كل مجتمع من ا تمعات تأثيرها، وسطو ا على عقول الناس ومواقفهم واختيارا م، وما يزال كثير من الناس إلى عصرنا هذا لا يمنعه من قبول الحق رغم يقينه بأنه حق إلا الخوف من مخالفة قومه، ومما سيلحقه في سبيل هذه المخالفة من عنت؛ فالتحرر من أغلال التقاليد والأعراف الراسخة في ا تمعات ليس بالأمر اليسير ، وقد كان الإسلام مدركًا لأثر هذه

---

(١) قواعد وضوابط فقه الدعوة ، ص٢٨٢ .

الأعراف على عقول الناس ، لذلك لم يعتمد في تغييرها على العنف والشدة ، بل أمر بالرفق والحكمة ، وكان الإسلام منصفًا أيضا في نظره لأعراف ا تمعات؛ فلم يأمر بمصادمتها جملة؛ واقتلاع كل ما توارثه الناس، ولكنه وضع القسطاس المستقيم الذي يفرق بين الحق والباطل، فما وافق الحق قُبل، وما خاصمة رد ، ومن الخطأ البين أن يخلط الدعاة في هذا الباب بين الشريعة والعادة، وبين السنن الملزمة وغير الملزمة ، فلتكن من بداياتنا في الدعوة توظيف الأعراف المأذون ا فضلاً عن الأعراف التي هي من صميم ديننا ، أقول هذا وأنا أدرك أن كثيرا من أعرافنا الحسنة في ا تمعات الإسلامية ربما اختلطت ا بدع ومخالفات شوهت صور ا، ونفرت الطيبين منها، ولكن العاقل من لا يفوت أصل المصلحة تشوقًا لكمالها، ولا يبطل العرف الحسن لاختلاطه بمنكر قبيح "[1] .

(١) مقال محمد الحبر يوسف ، بعنوان :العرف في الدعوة www.islamweb.net/ver

الضابط الدعوي السادس :

يختلف تعامل الداعية مع المدعوين حسب تنوعهم ، واختلاف أحوالهم .

معنى الضابط :

أن الداعية إلى الله يختلف تعامله لتحقيق دعوته ، مع المدعوين ، حسب اختلافهم وتنوعهم من حيث مكانتهم الاجتماعية ، ومراعاة الفروق الفردية بينهم ، وغير ذلك مما يؤثر على الدعوة .

أدلة الضابط :

يدل لهذا الضابط أدلة كثيرة ، منها :

١ ـ قصة موسى عليه السلام حينما خاطب فرعون،أمره الله وأخاه باللين، فقال:﴿اذْهبا إِلَى فِرعونَ إِنه طَغى۞ فَقُولا لَه قَولاً لَيناً لَعله يتذَكر أَو يخشى﴾[1].

ولما خاطب موسى عليه السلام السامري ، قال له " ﴿فَاذْهب فَإِن لَك فِي الْحياةِ أَنْ تقُولَ لا مِساس وإِن لَك موعِداً لَن تخلَفَه وانظُر إِلَى إِلَهِك الذِي ظَلْت علَيهِ عاكِفاً لَنحرقَنه ثُم لَننسِفَنه فِي الْيم نسفاً﴾[2] .

وجه الدلالة :

نلاحظ في الآيات اختلاف خطاب موسى عليه السلام فحينما دعا فرعون دعاه بأسلوب لين ، وحينما دعا السامري ، دعاه بأسلوب أكثر شدة .

ولا أظن ذلك يرجع لشدة ضلال السامري ، لأن ضلال فرعون أشد ، وإنما اختلاف خطاب موسى عليه السلام لاختلاف الحالين .

٢ ـ سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته وجهاده ، فإن المتأمل فيها يجد أنه :

يخص بعض المدعوين بجلسة خاصة دون غيرهم كما حصل في قصة أبي ذر رضي الله عنه[3] وقصة ضماد[4] رضي الله عنه[1]، وأحيانا يجمع الأقربين ، كما في حديث ابن عباس رضي الله

---

(١) طه : ٤٣-٤٤ .

(٢) طه : ٩٧ .

(٣) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب المناقب ، قصة إسلام أبي ذر ، برقم (٣٣٢٨) ١٢٩٥/٣، ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب فضائل أبي ذر ، برقم (٢٤٧٤)١٩٢٠/٤ .

(٤) ضماد بن ثعلبة الأزدي من أزد شنوءة ، وكان رجلا يتطبب ، ويرقى ، ويطلب العلم ، أسلم في أول

عنهما[2] ، وأحيانا يغشى أندية الناس وأماكن اجتماعا م العامة .

وأمر بقتل ابن خطل[3] وهو متعلق بأستار الكعبة ، فقال : " اقتلوه "[4] ، بينما عفا عن غيره في فتح مكة .

وكذلك اختلاف أجوبته للسائلين ، وتخصيص بعض الصحابة دون بعض ببعض الأخبار ، وتنوع وصاياه .

وما كان هذا التفريق منه ﷺ إلا لاختلاف حال المدعوين .

٣ ـ وأما الدليل على هذا الضابط من قصص الدعاة من غير الأنبياء :

فإن المتأمل لقصصهم مع أقوامهم يجد أن خطا م الدعوي يختلف ، على حسب اختلاف أقوامهم وتنوع طبقا م ، ومن ذلك :

مؤمن آل يس كان يخاطب قومه عامة ولم يخص العلية منهم ، لأنه من عامتهم ، وليس من أشرافهم ، بينما استطاع مؤمن آل فرعون مخاطبة فرعون ؛ لأنه كان يتمتع بمنصب وزاري ، ويعتبر من قرابة فرعون ، كما يفيده ظاهر الآيات .

وكذلك خطاب الرجل الذي حاور صاحبه ، صاحب الجنتين في سورة الكهف ، تختلف لغته وقوته عن خطاب الرجل الأوسط حينما خاطب إخوته في قصة أصحاب الجنة في سورة القلم .

ولعل سبب هذا الاختلاف في الخطاب قوة ولينا ، وخصوصية وعمومية ، هو اختلاف حال المدعوين ، والجميع أثنى عليهم الله ، وأدوا واجب الدعوة المناط م ، رحمهم الله جميعا .

الإسلام . انظر : الطبقات الكبرى ٢٤١/٤ ، والإصابة ٤٨٦/٣ .

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الجمعة ، باب تخفيف الصلاة والخطبة ، برقم (٨٦٨)٥٩٣/٢ .

(٢) متفق عليه ، أخرجه البخاري كتاب التفسير ، باب تفسير قول الله تبت يدا أبي لهب وتب ، برقم (٤٦٨٧) ،وأخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب وأنذر عشيرتك الأقربين ، برقم (٢٠٨)

(٣) عبد الله بن خطل من بني الأدرم بن تيم بن غالب بن فهر ، أهدر النبي ﷺ دمه يوم الفتح ، فقتله أبو برزة الأسلمي ، وقد كان متعلقا بأستار الكعبة ، وذلك لأذيته للنبي ﷺ .انظر الطبقات الكبرى ٢٩٩/٤ .

(٤) متفق عليه ، أخرجه البخاري ، كتاب الحج ، باب دخول الحرم ومكة بغير إحرام ، برقم (١٧٤٩)٦٥٥/٢ ، ومسلم ، كتاب الحج ، باب دخول مكة بغير إحرام ، برقم (١٣٥٧) ٩٨٩/٢.

تطبيقات الضابط :

لهذا الضابط تطبيقات عملية في حياة الدعاة إلى الله ، فمن ذلك أنه :

١ ـ ينبغي تنويع الخطاب الدعوي ؛ ليناسب اختلاف حال المدعوين .

٢ ـ من الفقه الدعوي أن يختلف تعامل الداعية تبعا لاختلاف المدعوين ، ولا يكون ذلك بابا للقدح فيه .

٣ ـ ينبغي للداعية أن ينضم إلى المشروع الدعوي المناسب لحاله ، فقد يحسن خطاب فئة دون غيرها .

٤ ـ كل موقف يمر على الداعية له فقه دعوي يخصه بحسب الإمكان .

٥ ـ يفرق بين تعامل الداعية الذي يعيش في مجتمع كافر وبين داعية آخر يعيش في مجتمع إسلامي .

الضابط الدعوي السابع :

الضرر الذي وقع بسبب اجتهاد الداعية في دعوته يغتفر له ؛ مالم يتبين غير ذلك.

معنى الضابط :

أن الداعية أثناء ممارسته للدعوة تمر عليه مواقف وظروف يلزمه الاجتهاد فيها ، وقد يصاحب اجتهاده بعض الضرر الذي يقع ، سواء عليه أو على غيره ، فإن هذا الضرر الذي حصل بسبب اجتهاد الداعية يغتفر له ، إلا إذا تبين لنا أنه فرط في اجتهاده .

أدلة الضابط :

يدل لهذا الضابط أدلة ، من ذلك :

١ ـ حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : " بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد(١) ، إلى بني جذيمة ، فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ، فجعلوا يقولون : صبأنا ، صبأنا ، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر ، ودفع إلى كل رجل منا أسيره ، حتى إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كل رجل منا أسيره ، فقلت والله لا أقتل أسيري ، ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره ، حتى قدمنا على النبي ﷺ فذكرناه ، فرفع النبي ﷺ يديه فقال : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد مرتين "(٢) .

وجه الدلالة :

قول النبي ﷺ " اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد " دليل على أن خالدا ﷺ أخطأ

---

(١) أبو سليمان خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، أمه لبابة الكبرى ، ويقال لها عصماء بنت الحارث بن حزن وهي خالة بني العباس بن عبد المطلب ، وكان من فرسان قريش ، وأشدائهم ، وشهد مع المشركين بدرا ، وأحدا ، والخندق ، ثم قذف الله في قلبه حب الإسلام لما أراد الله به من الخير ، وكان أحد الأمراء بالشام في خلافة أبي بكر ﷺ ، وفتح ا فتوحا كثيرة ، وولي صلح أهل دمشق ، وكتب لهم كتابا ، فأنفذوا ذلك له ، فلما توفي أبو بكر ﷺ وولي عمر بن الخطاب ، عزل خالدا عما كان عليه ، وولى أبا عبيدة بن الجراح رضي اله عنهم أجمعين ، فلم يزل خالد مع أبي عبيدة في جنده يغزو ، وكان له بلاء ، وغناء ، وإقدام في سبيل الله ، حتى توفي رحمه الله بحمص سنة إحدى وعشرين للهجرة . انظر : الطبقات الكبرى ٣٩٤/٧ ، والطبقات ، أبو عمر خليفة بن خياط الليثي العصفري ، تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري:ص١٩،{ط٢، دار طيبة ،الرياض: ١٤٠٢هـ } .

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب المغازي ، باب بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة ، برقم (٤٠٨٤)١٥٧٧/٤ .

في اجتهاده ، ومع ذلك لم يعاقبه النبي ﷺ ، لأن اجتهاد خالد بن الوليد ﷺ كان في سبيل الدعوة إلى الله ، وغيرةً على دينه ، وظاهر قول بني جذيمة " صبأنا " يرفع مة العمد عن فعل خالد بن الوليد ﷺ .

٢ ـ وأما الدليل على هذا الضابط من قصص الدعاة من غير الأنبياء :

فإن المتأمل لقصصهم مع أقوامهم :

يجد أن واقعهم الذي عاصروه يقتضي عليهم وجود بعض الضرر الذي حصل بسبب دعو م ، فذو القرنين مثلا وهو يجوب الشرق والغرب ويفتح البلدان بجهاده ، لا بد أن يقع منه من الخطأ القليل لاجتهادٍ رآه ، إلا أن قليل خطئه مغتفر بسبب عمله الدعوي وجهاده في سبيل الله .

وقد يصعب وجود أمثلة إلا بتكلف ، إلا أن ذلك لا يعني عدم وجود أمثلة أخرى .

تطبيقات الضابط :

لهذا الضابط تطبيقات عملية في حياة الدعاة إلى الله ، فمن ذلك أنه :

١ ـ يلتمس العذر لمن أخطأ بسبب اجتهاد دعوي ما لم يتبين غير ذلك .

٢ ـ فتح باب الاستشارة في الأمور الدعوية .

٣ ـ القضاء على ما يفرق دعاة المسلمين ، وذلك من خلال احتمال الخطأ لهم .

الضابط الدعوي الثامن :

تتنوع الأساليب الدعوية المشروعة ؛ على قدر الحاجة الدعوية .

مفردات الضابط :

ألفاظ الضابط واضحة ، وسأخص بالذكر كلمة " الأساليب " .

" الأساليب : أسلوب ، وهو الطريق ، ويقال سلكت أسلوب فلان في كذا ، أي :طريقته ومذهبه ، وطريقة الكاتب في كتابته والفن ، يقال : أخذنا في أساليب من القول ، فنون متنوعة ، والصف من النخل ، ونحوه "[1] .

فاتضح أن المراد بالأساليب : الطرق التي يسلكها الدعاة في دعو م .

معنى الضابط :

أن الدعوة إلى الله تتنوع أساليبها المشروعة وطرق تبليغها على حسب حاجتنا الدعوية لذلك الأسلوب أو غيره ، بشرط أن يكون الأسلوب مشروعا .

أدلة الضابط :

يدل لهذا الضابط أدلة كثيرة، منها :

١ ـ قوله تعالى :﴿ادع ِإلَى سِبِيلِ ربك ِبِالْحِكْمِةِ والْموعِظَةِ الْحسنِةِ وجادِلْهم ِبِالتِي هِي أَحسن﴾[2] .

وجه الدلالة :

ذكرت الآية عدة أساليب للدعوة ، وهي :

الحكمة ، والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن .

وهذا يدل على أن الداعية يستعمل أي أسلوب منها حسب ما تمليه عليه الحاجة الدعوية .

٢ ـ قوله تعالى :﴿فَاقْصص الْقَصص لَعلهم يتفَكرونَ﴾[3].

وجه الدلالة :

---

(١) المعجم الوسيط، مادة (سلب) ، ٤٤١/١.

(٢) النحل : ١٢٥ .

(٣) الأعراف : ١٧٦ .

جعلت الآية ضرب القصص أسلوبا من الأساليب الدعوية التي أمر النبي ﷺ باستعمالها .

٣ ـ " ومن السنة المطهرة فإننا نجد أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته وسيرته وما أثر عنه من صفات خلقية مسالك حميدة في دعوته إلى الله عز وجل ، ومن ذلك على سبيل المثال :

حكمته ﷺ في التعامل مع الناس ، وتخول صحابته بالموعظة ، ومجادلته لأهل الكتاب وضرب الأمثال ، والقصص للناس ، والترغيب والترهيب ، والتبشير والتنفير ، وكذلك إنفاقه ، وتأليفه لقلوب الناس ، وإغداقه الأموال العظيمة في سبيل الله "[(١)] .

٤ ـ وأما الدليل على هذا الضابط من قصص الدعاة من غير الأنبياء :

فإن المتأمل لقصصهم مع أقوامهم يلاحظ تنوع أساليبهم الدعوية ، فمثلا :

الرجل الذي تحاور مع صاحب الجنتين استعمل أسلوب الحوار ، بينما مؤمن آل يس استعمل أكثر من أسلوب مع قومه .

واستعمل مؤمن آل فرعون أسلوب التورية والتخفي في كثير من تصرفاته مع أسلوب المناقشة .

وأما ذو القرنين فاستعمل أسلوب القوة ، والنفع الذاتي للشعوب ، كما فعل مع القوم الذين لا يفقهون قولا عندما طلبوا منه بناء السد .

ولا يبعد أن يكون السكوت في بعض الأحيان ، أسلوبا من الأساليب الدعوية ، إذا توفرت شروطه ، كما فعلت مريم مع قومها حينما سكتت وأشارت إليه .

ولقمان استعمل أسلوب ضرب المثل لابنه ، فقال :﴿يا بنيِ إنها إِنْ تك مِثْقَالَ حبةٍ مِن خردلٍ فَتكُن فِي صخرةٍ أو فِي السماواتِ أو فِي الْأرضِ يأتِ بِها الله إِن الله لَطِيف خبِير﴾[(٢)] .

فاتضح من ذلك أن الداعية يسلك في دعوته الأساليب المشروعة ، حسب ما تمليه الحاجة الدعوية عليه .

---

(١) وسائل الدعوة ، الدكتور عبد الرحيم المغزوي :ص١٨،{ إشبيليا ،الرياض: ١٤٢٠هـ } .

(٢) لقمان : ١٦ .

تطبيقات الضابط :

لهذا الضابط تطبيقات عملية في حياة الدعاة إلى الله ، فمن ذلك أنه :

١ ـ ينوع الأساليب المشروعة في الدعوة إلى الله .

٢ ـ يفتح ا ال للدعاة في اختيار الطريقة المناسبة من غير تضييق لما هو واسع .

٣ ـ ينبغي دراسة الحال الدعوي لاختيار ما يناسبه من أسلوب أمثل .

٤ ـ يفتح الآفاق أمام الدعاة لاستحداث ما يشرع من الوسائل الدعوية .

الضابط الدعوي التاسع :

يقدم قول الداعية في تحديد الحاجة الدعوية تمعه .

قيود الضابط :

هذا الضابط له قيدان ، لا بد من مراعا ما ، وهما :

١ ـ أن هذا التقديم لقول الداعية يكون في المسائل الاجتهادية الدعوية دون غيرها من مسائل الدين .

٢ ـ أن هذا التقديم لقول الداعية حينما يتعلق الأمر بمجتمعه خاصة لأنه أعرف به .

معنى الضابط :

أن الداعية وهو يمارس الدعوة واقعا عمليا يحتاج أن يعرف الأسلوب الأمثل ، والقضية الأهم التي سيبدأ ا ، والطبقة التي سيدعوها ، والفئة التي يلين في دعو ا ، والأخرى التي لن تحظى بنفس درجة الرفق والعزلة والمخالطة .

والمقدم قوله في تحديد ذلك هو داعية ذلك ا تمع نفسه ، لأنه أعرف الناس بمجتمعه ، فيقدم قوله على غيره من الدعاة ، ولا يمنع ذلك الاستئناس بأقوالهم .

أدلة الضابط :

يدل لهذا الضابط أدلة كثيرة ، منها :

١ ـ قول النبي ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه حينما أراد الإسلام : " يا أبا ذر ، اكتم هذا الأمر ، وارجع إلى بلدك ، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل "[(١)] .

وجه الدلالة :

أن النبي ﷺ منع أبا ذر رضي الله عنه حين أرد أن يعلن إسلامه ؛ لأن الوقت حينئذ لم يكن مناسبا لإظهار إسلام من أسلم لاستضعاف المسلمين في مكة .

٢ ـ حديث أبي موسى الأشعري[(٢)] رضي الله عنه ، قال : أتيت المدينة فلقيت عبد الله بن

---

(١) سبق تخريجه وهو متفق عليه ، البخاري برقم (٣٣٢٨)١٢٩٥/٣ ، ومسلم برقم (٢٤٧٤) ١٩٢٠/٤.

(٢) عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب بن عامر الأشعرى ، أبو موسى ، هو من ولد الأشعر بن أدد ابن زيد بن كهلان ، وقيل : هو من ولد الأشعر بن سبأ ، قدم مكة فحالف سعيد بن العاص بن أمية ، وكان قدومه مع إخوته في جماعة من الأشعريين ، ثم أسلم ، وهاجر إلى أرض الحبشة ، ولاه رسول الله ﷺ مخاليف اليمن

سلام[1] رضي الله عنه فقال : ألا تجيء فأطعمك سويقاً وتمراً ، ثم قال : إنك بأرض الربا ا فاش ، إذا كان لك على رجل حق ، فأهدى إليك حمل تبن ، أو حمل شعير ، أو حمل قتٍ[2] ، فلا تأخذه فإنه ربا "[3] .

وجه الدلالة :

جعل عبد الله بن سلام رضي الله عنه قبول الهدية ممن لك عليه حق ربا ، " وإلا فالفقهاء على أنه إنما يكون ربا إذا شرطه ، نعم الورع تركه "[4] ومع ذلك لم يخالفه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه ، وذلك لأن عبد الله بن سلام رضي الله عنه أفقه في مجتمعه من أبي موسى رضي الله عنه لأنه غريب عنه .

٣ ـ وأما الدليل على هذا الضابط من قصص الدعاة من غير الأنبياء :

فإن المتأمل لقصصهم يجد أ م اختلفوا في تحديد الحاجات الدعوية لأقوامهم،فمثلا :

فتية الكهف كانوا يغشون قومهم ويعتزلو م أوقات الأعياد ، كما مر في التفسير ، وهو اجتهاد لهم لأ م أعرف بأعياد قومهم من غيرهم من الدعاة .

بينما الرجل حينما كان يحاور صاحبه صاحب الجنتين دخل عليه جنته ، كما تفيده ظاهر الآيات .

أما ذو القرنين فقد كان يغزو البلدان بنفسه ، وله طريقته الخاصة به في الغزو .

ولما خرج قارون في زينته ، وفُتِن به أهل الدنيا الضعاف من أهل الإيمان ؛ فخرج أهل العلم والإيمان لمشاهدة قارون ، والإنكار على قومهم .

وأما مؤمن آل يس فلم يقم بدعوته إلا في ساعتها الأخيرة حين اجتمع القوم لقتل

زبيد ، وولاه عمر البصرة ،نزل بالكوفة وسكنها ، ومات سنة أربع وأربعين للهجرة .

انظر : الاستيعاب ٩٧٩/٣ .

(١) عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي ثم الأنصاري ،يكنى أبا يوسف ،وهو من ولد يوسف بن يعقوب صلى الله عليهما ،كان حليفا للأنصار ، وكان اسمه في الجاهلية الحصين ،فلما أسلم سماه رسول الله ﷺ عبد الله ، وهو أحد الأحبار أسلم ،إذ قدم النبى ﷺ المدينة ،وتوفى بالمدينة فى خلافة معاوية سنة ثلاث وأربعين .

انظر : الاستيعاب ٩٢١/٣ .

(٢) هو : الرطبة من علف الدواب ، انظر : النهاية في غريب الأثر ١١/٤ .

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب عبد الله بن سلام ، برقم (٣٦٠٣) ١٣٨٨/٣.

(٤) فتح الباري ١٣١/٧ .

الرسل ، كما مر في تفسير الآيات ، وذهب إلى مجمعهم ، في حين عجزت آسية امرأة فرعون عن القيام بذلك .

وكل هذه الاجتهادات ، في اختيار الوقت ، والطريقة الدعوية ، واختيار الألفاظ ، وما يبدأ به دعوته من مواضيع راجعة لتقدير الداعية في ذلك ا تمع ، فقوله مقدم على قول غيره .

تطبيقات الضابط :

لهذا الضابط تطبيقات عملية في حياة الدعاة إلى الله ، فمن ذلك أنه :

١ ـ ينبغي للدعاة في كل مجتمع أن يقدموا دراسة دعوية وافية عن مجتمعهم ؛ ليستفيد منها من يأتي بعدهم في ذلك ا تمع .

٢ ـ في حال الاختلاف في اختيار طريقة دعوية تمع ما ، فالقول قول الداعية المعاصر لهم ، أو القريب من مجتمعهم .

٣ ـ ثقة الدعاة في أنفسهم في اختيار وتقدير الحاجة الدعوية تمعهم .

٤ ـ يقلل من الاجتهادات الخاطئة ، والتي ينعكس أثرها على الدعوة ، وذلك لأنه يرجع الأمر إلى أهله .

٥ ـ تنمية فقه الواقع لدى الدعاة .

الضابط الدعوي العاشر :

يجوز للداعية المسلم إخفاء دينه في ا تمع الكافر لتحقيق المصلحة الدعوية .

معنى الضابط :

أن الداعية إن كان في مجتمع كافر لا يؤمن بالله ، يجوز له أن يخفي من أموره الخاصة وأمر دينه ، ما يحقق له مصلحة الدعوة إلى الله والمضي ا .

قيود الضابط :

هذا الضابط له قيدان ، وهما :

١ ـ أن يكون الداعية في مجتمع كافر لا يستطيع أن يعلن إسلامه ، ولا يستطيع أن يغادره ، أو تتعين مصلحة بقائه شرعا .

٢ ـ أن تكون هناك مصلحة دعوية لذلك .

أدلة الضابط :

يدل لهذا الضابط أدلة كثيرة ، منها :

١ ـ قوله تعالى ﴿من كفَر ِباللهِ ِمن بعدِ ِإيمانِهِ ِإلا من أُكْرِه وقَلْبه مطْمِئن ِباْلْإِيمان ولَكِن من شرح ِباْلكُفْرِ صدراً فَعلَيهم غَضب ِمن اللهِ ولَهم عذَاب عظِيم﴾ [1] .

وجه الدلالة :

من أكره على قول الكفر وفعله فقد رخصت له الآية الكريمة شريطة أن يكون قلبه مطمئن بالإيمان .

فيستدل منها على أنه يجوز أن يخفي بعض ما يتعلق بدينه إن ترتب على ذلك مصلحة دينية ، والدعوة إلى الله من أجل المصالح الدينية التي يتسامح في كثير من الأمور لتحقيقها .

٢ ـ قصة إسلام أبي ذر رضي الله عنه[2] وقد مضت .

وجه الدلالة :

أن أبا ذر رضي الله عنه لا يستطيع إظهار كامل دينه أمام قومه ، حيث لم يسلموا بعد ، فكان

---

(١) النحل : ١٠٦ .

(٢) متفق عليه ، البخاري برقم (٣٣٢٨) ، ومسلم برقم (٢٤٧٤) ، وقد سبق تخريجه .

يكتم بعض أمره ؛ ليتحقق له مصلحة دعوية ، وهي رجاء إسلام قومه .

٣ ـ وأما الدليل على هذا الضابط من قصص الدعاة من غير الأنبياء :

فإن المتأمل لقصة مؤمن آل فرعون يجد الدلالة واضحة ، فقد كان يكتم إيمانه كما ذكر الله ، وهذا الكتم للإيمان يقتضي إخفاء أمر دينه عنهم ، ومشاركتهم في بعض أمورهم ، إلا أن كتمه إيمانه مرتبط بتحقيق مصلحة دعوية تمثلت في استطاعته أن يصرف فرعون وقومه عن قتل موسى عليه السلام .

تطبيقات الضابط :

لهذا الضابط تطبيقات عملية في حياة الدعاة إلى الله ، فمن ذلك أنه :

١ ـ يفتح ا ال للعمل الدعوي في ا تمعات الكافرة لمن لا يستطيع الهجرة .

٢ ـ ينبغي إعداد الدراسات للمشاريع الدعوية صالحة التنفيذ في تلك ا تمعات

٣ ـ يلتمس العذر للدعاة في ا تمعات الكافرة أكثر من إخوا م في ا تمعات المسلمة .

٤ ـ على الدعاة في ا تمعات الكافرة الاستفادة مما شأنه أن يحقق مصلحة دعوية .

الضابط الدعوي الحادي عشر :

تكون الدعوة شرعية على قدر تمسك الداعية بالسنة .

معنى الضابط :

أن الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى تكون دعوة شرعية وعلى بصيرة كلما كان الداعية الذي يمارس الدعوة متمسكا بالسنة ، وهاجرا للمحدثات والبدع .

أدلة الضابط :

يدل لهذا الضابط أدلة كثيرة ، منها :

١ ـ قوله تعالى :﴿قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[١] .

وجه الدلالة :

وصف النبي ﷺ دعوته بأ ا على بصيرة ، أي : على هدى[٢] ، ومن الهداية في الدعوة أن يكون الداعية متمسكا بالسنة النبوية،لأ ا أعلى مراتب البصيرة عند المؤمنين .

٢ ـ قوله تعالى :﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾[٣] .

وجه الدلالة :

أمرت الآية الكريمة النبي ﷺ أن يدعو إلى سبيل الله ، والمراد به : الإسلام[٤] ، والدعوة للإسلام بحقيقته الكاملة لا تكون إلا حينما يتمسك الداعية بالسنة النبوية ويدعو لها .

٣ ـ حديث أنس رضي الله عنه أن أهل اليمن قدموا على رسول الله ﷺ فقالوا : ابعث معنا رجلا يعلمنا السنة والإسلام،قال:فأخذ بيد أبي عبيدة ، فقال : هذا أمين هذه الأمة "[٥] .

وجه الدلالة :

أن النبي ﷺ أرسل أبا عبيدة ؛ ليعلم أهل اليمن الإسلام والسنة ، فدل ذلك على أن

---

(١) يوسف : ١٠٨ .

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٢٢٠٩/٧ .

(٣) النحل : ١٢٥ .

(٤) تفسير العز بن عبد السلام ٢٠٨/٢ .

(٥) أخرجه مسلم ، كتاب الفضائل ، باب فضائل أبي عبيد بن الجراح ، برقم (٢٤١٩)١٨٨١/٤.

الداعية عليه أن يكون متمسكا بالسنة وداعيا لها .

٤ ـ وأما الدليل على هذا الضابط من قصص الدعاة من غير الأنبياء :

فقد قال مؤمن آل يس :﴿يا قَومِ اتبِعوا الْمرسِلين﴾[١] وهذا دعوة منه للسنة ، ولا يكون إلا بناء على تمسكه ا رحمه الله .

وإلى هذا ألمح نذر الجن حينما دعوا قومهم ، فقالوا: ﴿ يا قَومنا إنا سمِعنا كِتاباً أُنزِلَ مِن بعدِ موسى مصدقاً لما بين يديهِ يهدِي إلى الْحق وإلَى طَرِيقٍ مستقِيمٍ﴾[٢] .

فقولهم " طريق مستقيم " أي : " سبيل مطروق قد مرت عليه الرسل قبله ، وإنه ليس بدع "[٣] وهو إشارة منهم إلى اتباع سبيل الأنبياء ، وهو من معاني السنة على وجه العموم .

ودفاع مؤمن آل فرعون عن موسى عليه السلام ، ومحاولته صرف القوم عن قتله لا يكون إلا على وجه الاتباع لسنته .

تطبيقات الضابط :

لهذا الضابط تطبيقات عملية في حياة الدعاة إلى الله ، فمن ذلك أنه :

١ ـ يوجب على الدعاة تعلم السنة والدعوة لها .

٢ ـ التفريق بين درجات الدعاة المخالفين للسنة على قدر مخالفتهم لها ، وبناء عليه يكون التعامل .

٣ ـ يحدد ا ال الذي يمكن اجتماع الدعاة عليه ، وهو القدر المشترك من السنة بشروط يحددها علماء أهل السنة والجماعة ، وتخضع لضوابط المصلحة الدعوية .

---

(١) يس : ٢٠ .

(٢) الأحقاف : ٣٠ .

(٣) بدائع الفوائد ٢٥٥/٢ .

الخاتمة

بعد هذه الرحلة الإيمانية الماتعة مع إخوان لنا في الدين ، ودعاة على الصراط المستقيم ، ثبتوا على دين الله ، وسخروا أنفسهم لذلك ، وأوذوا في سبيل تحقيق إيما م ، وذاقوا أصنافا شتى من النكال ، بدءاً من الاستهزاء ، ومرورا بالطرد من الديار ، والإبعاد ، وألم الغربة ، وحرمان راحة السكن ، والأنس الذي تقتضيه فطرة بني آدم ، و اية بالقتل ، كل ذلك في سبيل دينهم ، أذكر - بعد ذلك - أهمية الدعوة إلى الله من خلال ما يلي :

١ ـ الحاجة الماسة التي بلغت م لة الضرورة للدعوة إلى الله ، حيث لم تمر الأمة في فترة من الفترات الماضية من تأكد الدعوة إلى الله مثل هذا الزمن المعاصر ، والذي اجتمعت فيه عدة مبررات ، أهمها :

أ ـ تغلغل المخططات التخريبية التي يديرها أعداء الأمة وعملاؤهم .

ب ـ التمزق الذي عصف بالأمة ، وهو نتيجة لضياع الخلافة الإسلامية ، وتبعه تعصب بين أفراد الأمة ، وتخلى بعضهم عن بعض ، حتى وصل الأمر أحيانا إلى أن يكون بعضهم ضرراً على البعض الآخر .

ج ـ الانحراف السلوكي والعبادي عند كثير من الناس اليوم ، حيث انتشرت الذنوب بأنواعها مع الاستهانة بحرمات الله .

وغير ذلك من المبررات التي مرت في ثنايا البحث .

٢ ـ في هدايات القصص القرآنية للدعاة في القرآن الكثير من اللطائف التي تشكل في ايتها منهجا للدعوة على الله ، خاصة إن أخذ بالاعتبار قرائن الأحوال التي كانت تحيط بذلك الداعية .

٣ ـ مهمة الدعاة تقتضي أن يكون الدعاة على قدر من الصفات التي تؤهلهم للقيام بواجب دعو م ، ومن هذه الصفات :

الإيمان ، والإخلاص ، والمتابعة للسنة النبوية ، والتضرع لله ، والحكمة ، والزهد ، والاجتهاد في الدعوة ، والرجولة الكاملة ، والابتكار والتجديد ، ونفع الناس ، والشجاعة ، والصبر .

ولكل صفة من هذه الصفات وسائلها التطبيقية التي تعين الدعاة على تحقيقها .

٤ ـ تبين لي من خلال الدراسة أن الدعاة إلى الله الذين ذكرهم الله يسيرون على منهج واضح في دعو م ، وقد قسمته إلى منهجين ، وهما :

- منهج الدعاة في تعاملهم مع إخوا م الدعاة،والذي يقوم على أصلين،هما :

الأصل الأول : التعاون بين الدعاة .

الأصل الثاني : التكامل في الدور الدعوي .

- منهج الدعاة في تعاملهم مع الصادين عن دعو م ، والذي يقوم على أمرين،هما :

١ ـ تكرار الدعوة .

٢ ـ المواجهة .

وكل أصل يقوم على معالم تبينه وتوضحه .

٥ ـ استطعت بفضل الله استنباط أحد عشر ضابطا دعويا ، وهي :

الضابط الدعوي الأول : الدعوة إلى التوحيد تقدم على سائر أمور الدين .

الضابط الدعوي الثاني : كل ما يؤدي إلى تحقيق دين الله بوسيلة مشروعة فهو من الدعوة إليه سبحانه .

الضابط الدعوي الثالث : تجب الدعوة على حسب القدرة والاستطاعة

الضابط الدعوي الرابع : القدر الواجب شرعا هو القيام بالدعوة إلى الله ، وليس استجابة المدعوين .

الضابط الدعوي الخامس : الأصل في الدعوة الرفق .

الضابط الدعوي السادس : يختلف تعامل الداعية مع المدعوين حسب تنوعهم واختلاف أحوالهم .

الضابط الدعوي السابع : الضرر الذي وقع بسبب اجتهاد الداعية في دعوته يغتفر له ، مالم يتبين غير ذلك .

الضابط الدعوي الثامن : تتنوع الأساليب الدعوية المشروعة ؛ على قدر الحاجة الدعوية .

الضابط الدعوي التاسع : يقدم قول الداعية في تحديد الحاجة الدعوية تمعه .

الضابط الدعوي العاشر : يجوز للداعية المسلم إخفاء دينه في ا تمع الكافر لتحقيق المصلحة الدعوية .

الحادي عشر : تكون الدعوة شرعية على قدر تمسك الداعية بالسنة .

كما أنه يستحسن أن أختم بالتوصيات التالية ، وهي :

١ ـ قيام وزارة الشؤون الإسلامية بتفريغ عدد من الدعاة لبحث قضايا الدعوة في القرآن ، واستنباط ضوابط دعوية تسير على ضوئها في وضع برنامج دعوي لدعا ا .

٢ ـ توجه كليات الدعوة في جامعاتنا للتفتيش في كتب التفاسير القديمة ، والحديثة ؛ لاستخراج اللطائف التفسيرية والوقفات الإيمانية ، واللفتات التربوية من الآيات القرآنية التي تخدم الدعوة .

٣ ـ التفكير بإيجاد طريقة عملية للتعامل مع آيات القصص تختلف عن طريقة سرد القصة ، وبيان معاني ألفاظها ، وهي الطريقة التقليدية المعروفة ، لنصل بقصص القرآن إلى تطبيق عملي في حياتنا ، والاستفادة منها فيما يواجهنا من نفس الظروف التي ذكرت في أثناء القصة .

وأخيراً :

أسأل الله أن يتقبل مني هذا العمل ، وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم أن ألقاه سبحانه وتعالى ، وأعوذ به ، وأستغفره من النقص ، والزلل بما اقترفت من ذنوب ، سائلاً مولاي مغفر ا ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد ، وعلى آله وأصحابه أجمعين .

الفهارس وهي :

١. فهرس الآيات .

٢. فهرس الأحاديث .

٣. فهرس الأعلام .

٤. فهرس الأمكنة .

٥. فهرس الفرق .

٦. فهرس اللطائف الدعوية .

٧. فهرس الضوابط الدعوية .

فهرس الآيات

السورة	الآية	الآية	الصفحة
الفاتحة	﴿إِياك نعبد وإِياك نستعِين اهدنا الصراط المستقيم﴾	5	٤١
البقرة	﴿يا أَيها الناس اعبدوا ربكُم الذِي خلَقَكُم والذِين مِن قَبلِكُم لَعلكُم تتقُونَ﴾	٢١	٤٤٩
	﴿لا يكَلف الله نفْساً إِلا وسعها﴾	٢٨٦	٤٥٥
آل عمران	﴿ فَإِنما علَيك الْبلاغُ ﴾	٢٠	٤٥٨
	﴿ولْتكُن مِنكُم أُمةٌ يدعونَ إِلَى الْخير ويأْمرونَ بِالْمعروفِ وينهونَ عن الْمنكَرِ وأُولَئِك هم الْمفْلِحون﴾	١٠٤	٢٤
	﴿فَرِحِين بِما آتاهم الله مِن فَضلِهِ﴾	١٧٠	٤٠
	﴿كُنتم خير أُمةٍ أُخرِجت لِلناسِ تأْمرونَ بِالْمعروفِ وتنهونَ عن الْمنكَرِ ﴾	١١٠	٢٥٣
	﴿ولا تحسبن الذِين قُتِلُوا فِي سبِيلِ اللهِ أَمواتاً بلْ أَحياءٌ عِند ربهِم يرزقُونَ﴾	١٦٩	٢٦٥
النساء	﴿أَم يحسدونَ الناس علَى ما آتاهم الله مِن فَضلِهِ فَقَد آتينا آلَ إِبراهِيم الْكِتاب والْحِكْمةَ وآتيناهم ملْكاً عظِيماً﴾	٥٤	٤٠
	﴿ومن أصدق من الله حديثا ﴾	٨٧	٥٣
المائدة	﴿ ما يرِيد الله لِيجعلَ علَيكُم مِن حرجٍ ولَكِن يرِيد لِيطَهركُم ولِيتِم نِعمته علَيكُم لَعلكُم تشكُرونَ﴾	٦	١١٨
	﴿لُعِن الذِين كَفَروا مِن بنِي إِسرائيلَ علَى لِسانِ داود وعِيسى ابنِ مريم ذَلِك بِما	٧٨	٢٥٣

	عصوا وكانوا يعتدونَ﴾		
	﴿ كانوا لا يتناهونَ عن منكرٍ فعلُوه لِبئْس ما كانوا يفْعلُونَ﴾	٧٩	٢٥٣
	﴿ يا أيها الذِين آمنوا من يرتد مِنكُم عن دِينِه فسوف يأتِي الله بِقوْمٍ يحِبهم ويحِبونه أذِلةٍ علَى الْمؤمِنين أعِزةٍ علَى الْكافِرِين يجاهِدونَ فِي سبِيل اللهِ ولا يخافُونَ لَومةَ لائِمٍ ﴾	٥٤	٢٨٦
	﴿ولا يجرِمنكُم شنآنُ قَومٍ علَى ألا تعدِلُوا اعدِلُوا هو أقْرب لِلتقْوى ﴾	٨	٤١٩
	﴿ ما علَى الرسولِ إلا الْبلاغُ﴾	٩٩	٤٥٨
	﴿وتعاونوا علَى الْبِر والتقْوى ﴾	٢	٤٢٨-٤٢٢
الأنعام	﴿ ولَو شاءَ الله لَجمعهم علَى الْهدى﴾	٣٥	٥٧
	﴿فَمن يرِدِ الله أنْ يهدِيه يشرح صدره لِلإسلامِ ومن يرد أنْ يضِله يجعلْ صدره ضيقاً حرجاً﴾	١٢٥	١١٨
	﴿ قُلْ لا أسألُكُم علَيهِ أجراً ﴾	٩٠	٢٧٧
	﴿قُلْ إن صلاتِي ونسكِي ومحياي ومماتِي لِلهِ رب الْعالَمِين﴾	١٦٢	٤٠١-٣٨٩
	﴿لا شرِيك له وبِذَلِك أُمِرت وأنا أولُ الْمسلِمِين﴾	١٦٣	٤٠١-٣٨٩
الأعراف	﴿ادعوا ربكُم تضرعاً وخفْيةً﴾	٥٥	٣٦٩-٣٦٨
	﴿وإلَى عادٍ أخاهم هوداً قَالَ يا قَومِ اعبدوا الله ما لَكُم مِن إلَهٍ غَيره أفَلا تتقُونَ﴾	٦٥	٢٤

	﴿ ألست بربكم ﴾	١٧٢	٦٥
	﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرونَ﴾	١٧٦	٤٧٠
التوبة	﴿فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضونَ﴾	٧٦	٤٠
	﴿ فرح المخلفونَ بمقعدهم خلاف رسول اللهِ وكرهوا أنْ يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل اللهِ وقالوا لا تنفروا في الحر قلْ نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهونَ﴾	٨١	١٦٣
هود	﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون اللهِ من أولياءَ ثم لا تنصرونَ﴾	١١٣	٢٣٠
	﴿وما أريد أنْ أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إنْ أريد إلا الأصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا باللهِ عليه توكلت وإليه أنيب﴾	٨٨	٤١٩
يوسف	﴿ فلما جاءه الرسولُ قالَ ارجع إلى ربك فاسأله ما بالُ النسوةِ اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم﴾	٥٠	٢٠٤
إبراهيم	﴿ رب اجعلْ هذَا البلد آمناً واجنبني وبني أنْ نعبد الأصنام﴾	٣٥	٢٥٠
	﴿ سرابيلهم من قطرانٍ ﴾	٥٠	١٥٩
النحل	﴿ ولقد بعثنا في كل أمةٍ رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾	٣٦	٤٤٩
	﴿من كفر باللهِ من بعدِ إيمانِه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفْر صدراً فعليهم غضب من اللهِ ولهم عذاب	١٠٦	٣٢٤-٤٧٦

	﴿عظِيم﴾		
	﴿ادع ِإلى سبِيل ربك ِبالْحِكْمةِ والْموعِظَةِ الْحسنةِ وجادِلْهم ِبالَتي هِي أحسن ِإن ربك هو أعلَم ِبمن ضل عن سبِيلِهِ وهو أعلَم ِبالْمهتدِين ﴾	١٢٥	٢٤- ٣٧٦- ٤٥٢-٤٥٨- ٤٦١-٤٧٠- ٤٧٩
الإسراء	﴿ ِإما يبلُغن عِندك الْكِبر أحدهما أو كِلاهما فَلا تقُلْ لَهما أُف ولا تنهرهما وقُلْ لَهما قَولاً كَرِيماً﴾	٢٣	٢٣٨
الكهف	﴿أم حسِبت أن أَصحاب الْكَهفِ والرقِيمِ كَانوا مِن آياتِنا عجباً﴾	٩	٣٤
	﴿ ِإذْ أوى الْفِتيةُ ِإلَى الْكَهفِ فَقَالُوا ربنا آتِنا مِن لَدنك رحمةً وهيئْ لَنا مِن أمرِنا رشداً﴾	١٠	٣٨
	﴿فَضربنا علَى آذَانِهم فِي الْكَهفِ سِنِين عدداً ﴾	١١	٤٤
	﴿ثُم بعثْناهم ِلنعلَم أَي الْحِزبينِ أحصى ِلما لَبِثُوا أمداً ﴾	١٢	٤٦
	﴿نحن نقُص علَيك نبأَهم ِبالْحق ِإنهم فِتيةٌ آمنوا ِبربهِم وزِدناهم هدى﴾	١٣	٥٣
	﴿ وربطْنا علَى قُلُوِبهِم ِإذْ قَاموا فَقَالُوا ربنا رب السمواتِ والْأَرضِ لَن ندعو مِن دونِهِ ِإلَهاً لَقَد قُلْنا ِإذاً شطَطاً﴾	١٤	٦٠-٤١٧-٤٣٧
	﴿هؤلاءِ قَومنا اتخذُوا مِن دونِهِ آلِهةً لَولا يأْتونَ علَيهِم ِبسلْطَانٍ بينٍ فَمن أظْلَم مِمنِ افْترى علَى اللهِ كَذِباً﴾	١٥	٦٩-٤٥٠
	﴿وِإذِ اعتزلْتموهم وما يعبدونَ ِإلا الله فَأْووا	١٦	٧٢

		إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً﴾	
٧٦	١٧	﴿ وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾	
٨١	١٨	﴿وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً﴾	
٨٣	١٩	﴿ وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحداً﴾	
٨٥	٢٠	﴿إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً﴾	
٨٨	٢١	﴿وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً﴾	
٩٢	٢٢	﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون	

خمسةٌ سادِسهم كلْبهم رجماً ِبالْغيبِ ويقُولُونَ سبعةٌ وثَامِنهم كلْبهم قُلْ ربي أعلَم ِبعِدتِهم ما يعلَمهم ِإلا قَِليلٌ فَلا تمارِ ِفيهِم ِإلا ِمراءً ظَاِهراً ولا تستفْتِ ِفيهِم ِمنهم أحداً﴾		
﴿ولا تقُولَن ِلشيءٍ ِإني فَاِعلٌ ذَِلك غَداً﴾	٢٣	٩٥
﴿ِإلا أَنْ يشاءَ الله واذْكُر ربك ِإذَا نسِيت وقُلْ عسى أَنْ يهدِينِ ربي ِلأقْرب ِمن هذَا رشداً﴾	٢٤	٩٥
﴿ولَِبثُوا ِفي كَهِفهِم ثَلاثَ ِمائٍَة سِنِين وازدادوا ِتسعاً﴾	٢٥	٩٧
﴿ قُِل الله أعلَم ِبما لَِبثُوا لَه غَيب السمواتِ والْأرضِ أبصِر ِبِه وأسِمع ما لَهم ِمن دوِنِه ِمن وِلي ولا يشِرك ِفي حكْمِِه أحداً﴾	٢٦	٩٨
﴿واضِرب لَهم مثَلاً رجلَينِ جعلْنا ِلأحدِِهما جنتينِ ِمن أعنابٍ وحفَفْناهما ِبنخلٍ وجعلْنا بينهما زرعاً﴾	٣٢	١٠٩
﴿ِكلْتا الْجنتينِ آتت أُكُلَها ولَم تظِْلم ِمنه شيئاً وفَجرنا ِخلالَهما نهراً﴾	٣٣	١١٠
﴿وكَانَ لَه ثَمر فَقَالَ ِلصاِحِبِه وهو يحاوِره أنا أكْثَر ِمنك مالاً وأعز نفَراً﴾	٣٤	١١١
﴿ودخلَ جنته وهو ظَاِلم ِلنفِْسِه قَالَ ما أظُن أَنْ ِتبِيد هِذِه أبداً﴾	٣٥	١١٢
﴿وما أظُن الساعةَ قَاِئمةً ولَِئن رِددت ِإلَى ربي لَأِجدن خيراً ِمنها منقَلَباً﴾	٣٦	١١٤
﴿قَالَ لَه صاِحبه وهو يحاوِره أكَفَرت ِبالَِّذي	٣٧	١١٥-٤١٣

	خلَقَك ِمن ترابٍ ثُم ِمن نطْفَةٍ ثُم سواك رجلاً﴾		
	﴿لَكِنا هو الله ربي ولا أُشرِك ِبربي أَحداً﴾	٣٨	-٤١٣-١١٧ ٤٥٠
	﴿ولَولا ِإذْ دخلْت جنتك قُلْت ما شاءَ الله لا قُوةَ ِإلا ِباللهِ ِإنْ ترنِ أنا أَقَل ِمنك مالاً وولَداً﴾	٣٩	١١٧
	﴿ فَعسى ربي أَنْ يؤتينِ خيراً ِمن جنِتك ويرسِلَ علَيها حسباناً ِمن السماءِ فَتصِبح صعِيداً زلَقاً﴾	٤٠	١١٩
	﴿ أَو يصِبح ماؤها غَوراً فَلَن تستطِيع لَه طَلَباً﴾	٤١	١٢٠
	﴿ وأُحِيطَ ِبثَمرِهِ فَأَصبح يقَلِّب كَفَّيهِ علَى ما أَنفَق ِفيها وهِي خاوِيةٌ علَى عروشِها ويقُولُ يا لَيتنِي لَم أُشرِك ِبربي أَحداً﴾	٤٢	١٢١
	﴿ ولَم تكُن لَه ِفئَةٌ ينصرونه ِمن دون اللهِ وما كَانَ منتصِراً﴾	٤٣	١٢٢
	﴿ هنالِك الْولايةُ ِللهِ الْحق هو خير ثَواباً وخير عقْباً﴾	٤٤	١٢٣
	﴿ آتيناه رحمةً ِمن عِندِنا وعلمناه ِمن لَدنا عِلْماً﴾	٥٦	٤٠
	﴿ويسأَلونك عن ذِي الْقَرنينِ قُلْ سأَتلُوا علَيكُم ِمنه ذِكْراً﴾	٨٣	١٤٢
	﴿ ِإنا مكنا لَه ِفي الْأَرضِ وآتيناه ِمن كُل	٨٤	١٤٥

	شيءٍ سبباً﴾		
	﴿فأتبع سبباً﴾	٨٥	١٤٦
	﴿ حتى إِذَا بلَغَ مغرِب الشمسِ وجدها تغرب فِي عينٍ حمِئَةٍ ووجد عِندها قَوماً قُلْنا يا ذَا الْقَرنينِ إِما أَنْ تعذب وإِما أَنْ تتخِذَ فِيهم حسناً﴾	٨٦	١٤٧
	﴿ قَالَ أَما من ظَلَم فَسوف نعذبه ثُم يرد إِلَى ربهِ فَيعذبه عذَاباً نكْراً﴾	٨٧	١٤٩-١٦٤- ٣٧٣-٤٥٣
	﴿ وأَما من آمن وعمِلَ صالِحاً فَلَه جزاءً الْحسنى وسنقُولُ لَه مِن أَمرِنا يسراً﴾	٨٨	١٤٩-١٦٤- ١٦٥-١٧٢- ١٧٧-١٧٩- ٣٦٤-٣٧٣- ٤١٠
	﴿ ثُم أَتبع سبباً﴾	٨٩	١٥٠
	﴿حتى إِذَا بلَغَ مطْلِع الشمسِ وجدها تطْلُع علَى قَومٍ لَم نجعلْ لَهم مِن دونِها سِتراً﴾	٩٠	١٥٠
	﴿كَذَلِك وقَد أَحطْنا بِما لَديهِ خبراً﴾	٩١	١٥١-١٦٩
	﴿ثُم أَتبع سبباً﴾	٩٢	١٥٢
	﴿حتى إِذَا بلَغَ بين السدينِ وجد مِن دونِهما قَوماً لا يكَادونَ يفْقَهونَ قَولاً﴾	٩٣	١٥٢
	﴿قَالُوا يا ذَا الْقَرنينِ إِن يأْجوج ومأْجوج مفْسِدونَ فِي الْأَرضِ فَهلْ نجعلُ لَك خرجاً علَى أَنْ تجعلَ بيننا وبينهم سداً﴾	٩٤	١٥٣
	﴿قَالَ ما مكَني فِيهِ ربي خير فَأَعِينونِي بِقُوةٍ أَجعلْ بينكم وبينهم ردماً﴾	٩٥	١٥٦-١٧١

	﴿آتوني زبر الْحدِيدِ حتى ِإذَا ساوى بين الصدفَين قَالَ انفُخوا حتى ِإذَا جعلَه ناراً قَالَ آتوني أُفْرِغْ علَيهِ ِقطْراً﴾	٩٦	٣٧٨-١٥٨
	﴿فَما اسطَاعوا أَنْ يظْهروه وما استطَاعوا لَه نقْباً﴾	٩٧	١٥٩
	﴿ قَالَ هذَا رحمةٌ ِمن ربي فَِإذَا جاَء وعد ربي جعلَه دكاَء وكَانَ وعد ربي حقّاً﴾	٩٨	١٦٠
مريم	﴿ واذْكُر ِفي الْكِتابِ مريم ِإذِ انتبذَت ِمن أَهلِها مكَاناً شرِقياً﴾	١٦	١٨٤
	﴿فَاتخذَت ِمن دونِهم حِجاباً فَأَرسلْنا ِإلَيها روحنا فَتمثلَ لَها بشراً سوِياً﴾	١٧	١٨٤
	﴿قَالَت ِإني أَعوذُ ِبالرحمنِ ِمنك ِإنْ كُنت تِقياً﴾	١٨	١٨٥
	﴿قَالَ ِإنما أَنا رسولُ ربكِ ِلأَهب لَكِ غُلاماً زكِياً﴾	١٩	١٨٦
	﴿قَالَت أَنى يكُونُ ِلي غُلام ولَم يمسسِني بشر ولَم أَك بِغياً﴾	٢٠	١٨٧
	﴿قَالَ كَذَِلكِ قَالَ ربكِ هو علَي هين وِلنجعلَه آيةً ِللناسِ ورحمةً ِمنا وكَانَ أَمراً مقْضِياً﴾	٢١	١٨٧
	﴿فَحملَته فَانتبذَت ِبهِ مكَاناً قَصِياً﴾	٢٢	١٨٩
	﴿ فَأَجاَءها الْمخاض ِإلَى جِذْعِ النخلَةِ قَالَت يا لَيتِني ِمت قَبلَ هذَا وكُنت نسياً منسِياً﴾	٢٣	١٨٩
	﴿فَناداها ِمن تحِتها أَلَّا تحزنِي قَد جعلَ ربكِ تحتكِ سرِياً﴾	٢٤	١٩١

	﴿وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً﴾	٢٥	١٩٥
	﴿فكلي واشربي وقري عيناً فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً﴾	٢٦	١٩٦-١٩٥
	﴿فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً﴾	٢٧	١٩٨
	﴿ يا أخت هارونَ ما كانَ أبوكِ امرأ سوءٍ وما كانت أمكِ بغياً﴾	٢٨	٤١٨-١٩٩
	﴿فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كانَ في المهد صبياً﴾	٢٩	٢٠١-١٩٢
طه	﴿اذهبا إلى فرعونَ إنه طغى﴾	٤٣	٤٦٤
	﴿فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى﴾	٤٤	٤٦٤-٤٦١
	﴿ وأضل فرعونُ قومه وما هدى﴾	٧٩	٣٠٧
	﴿ وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري﴾	٩٠	٢٧٧
	﴿ فاذهب فإن لك في الحياة أنْ تقولَ لا مساس وإن لك موعداً لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفاً﴾	٩٧	٤٦٤
المؤمنون	﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آيةً وآويناهما إلى ربوة ذاتِ قرارٍ ومعين﴾	٥٠	١٩٤-١٨٣
	﴿والذين يؤتونَ ما آتوا وقلوبهم وجلةٌ أنهم إلى ربهم راجعونَ﴾	٦٠	٤٢

	﴿ ومن يدع مع اللهِ إلهاً آخر لا برهانَ له بِهِ فإنما حِسابه عِند ربِهِ إنه لا يفْلِح الْكافِرونَ﴾	١١٧	٢٤٠-٣١٣
الشعراء	﴿إنا لَمدركُونَ﴾	٦١	٢٨٥
	﴿كلا إن معِي ربي سيهدِين﴾	٦٢	٢٨٥
	﴿ وما أسألُكُم عليهِ مِن أجرٍ إنْ أجرِي إلا على رب الْعالَمِين﴾	١٠٩ - ١٢٧ - ١٤٥ – ١٦٤	٢٧٧
النمل	﴿وجحدوا بِها واستيقَنتها أنفُسهم ظُلْماً وعلُواً﴾	١٤	٣٠٧
	﴿ فَما آتانِي الله خير مِما آتاكُم﴾	٣٦	١٥٧
القصص	﴿ إن الْملأَ يأْتمِرونَ بِك لِيقْتلُوك فَاخرج إني لَك مِن الناصِحِين﴾	٢٠	٣٠٢
	﴿فَقَالَ رب إني لِما أَنزلْت إلَي مِن خيرٍ فَقِير﴾	٢٤	٤١
	﴿ إن قَارونَ كَانَ مِن قَومِ موسى فَبغى علَيهِم وآتيناه مِن الْكُنوزِ ما إن مفَاتِحه لَتنوءُ بِالْعصبةِ أُولِي الْقُوةِ إذْ قَالَ لَه قَومه لا تفْرح إن الله لا يحِب الْفَرِحِين﴾	٧٦	٢٠٨
	﴿وابتغِ فِيما آتاك الله الدار الْآخِرةَ ولا تنس نصِيبك مِن الدنيا وأَحسِن كَما أَحسن الله	٧٧	٢١١

	ِإلَيك ولا تبغِ الْفَساد ِفي الْأَرض ِإن الله لا يحِب الْمفْسِدِين﴾		
	﴿قَالَ ِإنما أُوتيته علَى ِعلْمٍ ِعندِي أَولَم يعلَم أن الله قَد أَهلَك ِمن قَبِلِه ِمن الْقُرون من هو أَشد ِمنه قُوةً وأَكْثَر جمعاً ولا يسأَلُ عن ذُنوبِهم الْمجرِمونَ﴾	٧٨	٢١٣
	﴿فَخرج علَى قَومِه ِفي زِينتِه قَالَ الَّذِين يرِيدونَ الْحياةَ الدنيا يا لَيت لَنا ِمثْلَ ما أُوتِي قَارونُ ِإنه لَذُو حظ عظِيمٍ﴾	٧٩	٢٢٨-٢١٥
	﴿وقَالَ الَّذِين أُوتوا الْعِلْم ويلَكُم ثَواب اللهِ خير ِلمن آمن وعمِلَ صالِحاً ولا يلَقَّاها ِإلا الصابِرونَ﴾	٨٠	٢١٦
العنكبوت	﴿فَخسفْنا ِبِه وبِدارِهِ الْأَرض فَما كَانَ لَه ِمن ِفئَةٍ ينصرونه ِمن دون اللهِ وما كَانَ ِمن الْمنتصِرِين﴾	٨١	٢١٧
	﴿وأَصبح الَّذِين تمنوا مكَانه ِبالْأَمسِ يقُولُونَ ويكَأَن الله يبسطُ الرزق ِلمن يشاءُ ِمن ِعبادِهِ ويقْدِر لَولا أَنْ من الله علَينا لَخسف ِبنا ويكَأَنه لا يفْلِح الْكَافِرونَ﴾	٨٢	٢١٩
	﴿ ووصينا الْإِنسانَ ِبوالِديهِ حسناً﴾	٨	٢٣٧
	﴿ ولَقَد أَرسلْنا نوحاً ِإلَى قَومِهِ فَلَبِثَ ِفيهِم أَلْف سنةٍ ِإلا خمسِين عاماً فَأَخذَهم الطوفَانُ وهم ظَالِمونَ﴾	١٤	٢٣
	﴿ وإِبراهِيم ِإذْ قَالَ ِلقَومِهِ اعبدوا الله واتقُوه ذَلِكُم خير لَكُم ِإنْ كُنتم تعلَمونَ﴾	١٦	٢٤

	﴿ولا تجادِلُوا أَهلَ الْكِتابِ إلا بِالتِي هِي أحسن إلا الذِين ظَلَموا مِنهم ﴾	٤٦	٤١٣
لقمان	﴿ولَقَد آتينا لُقْمانَ الْحِكْمةَ أَن اشكُر لِلهِ ومن يشكُر فَإنما يشكُر لِنفْسِهِ ومن كَفَر فَإن الله غَنِي حمِيد﴾	١٢	٢٣٣
	﴿وإِذْ قَالَ لُقْمانُ لِابنِهِ وهو يعِظُه يا بني لا تشرِك بِاللهِ إن الشرك لَظُلْم عظِيم﴾	١٣	٢٣٥
	﴿ووصينا الْإنسانَ بِوالِديهِ حملَته أُمه وهناً علَى وهنٍ وفِصالُه فِي عامينِ أَن اشكُر لِي ولِوالِديك إلَي الْمصِير﴾	١٤	٢٣٧
	﴿وإِنْ جاهداك علَى أَنْ تشرِك بِي ما لَيس لَك بِهِ عِلْم فَلا تطِعهما وصاحِبهما فِي الدنيا معروفاً واتبِع سبِيلَ من أَناب إلَي ثُم إلَي مرجِعكُم فَأُنبئُكُم بِما كُنتم تعملُونَ﴾	١٥	٢٣٩-٢٥١
	﴿يا بني إنها إنْ تك مِثْقَالَ حبةٍ مِن خردلٍ فَتكُن فِي صخرةٍ أَو فِي السماواتِ أَو فِي الْأَرضِ يأْتِ بِها الله إن الله لَطِيف خبِير﴾	١٦	٢٤٢-٤٧١
	﴿يا بني أَقِمِ الصلاةَ وأْمر بِالْمعروفِ وانه عنِ الْمنكَرِ واصبِر علَى ما أَصابك إن ذَلِك مِن عزمِ الْأُمورِ﴾	١٧	٢٤٣-٤٥٣
	﴿ولا تصعر خدك لِلناسِ ولا تمشِ فِي الْأَرضِ مرحاً إن الله لا يحِب كُل مختالٍ فَخورٍ﴾	١٨	٢٤٤-٢٥٣
	﴿واقْصِد فِي مشيِك واغْضض مِن صوتِك إن أَنكَر الْأَصواتِ لَصوت الْحمِيرِ﴾	١٩	٢٤٦

الأحزاب	﴿فَأَرسلْنا علَيهم رِيحاً وجنوداً لَم تروها﴾	٩	٢٦٩
سبأ	﴿ وأَسلْنا لَه عين الْقِطْرِ﴾	١٢	١٥٩
	﴿أَنحن صددناكُم عنِ الْهدى﴾	٣٢	٥٧
يس	﴿وجاءَ مِن أَقْصى الْمدِينةِ رجلٌ يسعى قَالَ يا قَومِ اتبِعوا الْمرسلِين﴾	٢٠	٢٥٧-٣٧٦-٣٧٧
	﴿اتبِعوا من لا يسأَلُكُم أَجراً وهم مهتدونَ﴾	٢١	٢٥٩-٢٧٧-٢٧٩
	﴿وما لِي لا أَعبد الَّذِي فَطَرنِي وإِلَيهِ ترجعونَ﴾	٢٢	٢٦٠-٢٨١-٣٧١-٤٥٠
	﴿أَأَتخِذُ مِن دونِهِ آلِهةً إِنْ يرِدنِ الرحمن بِضر لا تغنِ عني شفَاعتهم شيئاً ولا ينقِذُونِ﴾	٢٣	٢٦١-٢٧٩-٤٥٠
	﴿إِني إِذاً لَفِي ضلالٍ مبِينٍ﴾	٢٤	٢٦٣-٤١٢-٤٥٦
	﴿إِني آمنت بِربكُم فَاسمعونِ﴾	٢٥	٢٦٣
	﴿قِيلَ ادخلِ الْجنةَ قَالَ يا لَيت قَومِي يعلَمونَ﴾	٢٦	٢٦٥
	﴿بِما غَفَر لِي ربي وجعلَنِي مِن الْمكْرمِين﴾	٢٧	٢٦٧
	﴿وما أَنزلْنا علَى قَومِهِ مِن بعدِهِ مِن جندٍ مِن السماءِ وما كُنا منزِلِين﴾	٢٨	٢٦٧
	﴿إِنْ كَانت إِلا صيحةً واحِدةً فَإِذَا هم خامِدونَ﴾	٢٩	٢٦٩
الصافات	﴿ فَأَقْبلَ بعضهم علَى بعضٍ يتساءَلُونَ﴾	٥٠	٢٨٨
	﴿قَالَ قَائِلٌ مِنهم إِني كَانَ لِي قَرِين﴾	٥١	٢٨٨
	﴿يقُولُ أَإِنك لَمِن الْمصدقِين﴾	٥٢	٢٨٩

	﴿أَإِذَا مِتنا وكُنا تراباً وعِظَاماً أَإِنا لَمدِينونَ﴾	٥٣	٢٨٩
	﴿ قَالَ هلْ أَنتم مطلِعونَ﴾	٥٤	٢٩٠
	﴿فَاطلَع فَرآه فِي سواءِ الْجحِيمِ﴾	٥٥	٢٩١
	﴿قَالَ تاللهِ إِنْ كِدت لَتردِينِ﴾	٥٦	٢٩٢
	﴿ولَولا نِعمةُ ربي لَكُنت مِن الْمحضرِين﴾	٥٧	٢٩٢-٢٩٨
	﴿أَفَما نحن بِميتِين﴾	٥٨	٢٩٣
	﴿إِلا موتتنا الْأُولَى وما نحن بِمعذَّبِين﴾	٥٩	٢٩٤
	﴿إِن هذَا لَهو الْفَوز الْعظِيم﴾	٦٠	٢٩٤
	﴿لِمِثْلِ هذَا فَلْيعملِ الْعامِلُونَ﴾	٦١	٢٩٤
الزمر	﴿قُلْ أَفَرأَيتم ما تدعونَ مِن دون اللهِ إِنْ أَرادنِي الله بِضر هلْ هن كَاشِفَات ضرهِ أَو أَرادنِي بِرحمةٍ هلْ هن ممسِكَات رحمتِهِ﴾	٣٨	٢٧٨
غافر	﴿ ولَقَد أَرسلْنا موسى بِآياتِنا وسلْطَانٍ مبِينٍ﴾	٢٣	٢٤
	﴿إِلَى فِرعونَ وهامانَ وقَارونَ فَقَالُوا ساحِر كَذَّاب﴾	٢٤	٢٤
	﴿ وقَالَ رجلٌ مؤمِن مِن آلِ فِرعونَ يكْتم إِيمانه أَتقْتلُونَ رجلاً أَنْ يقُولَ ربي الله وقَد جاءَكُم بِالْبيناتِ مِن ربكُم وإِنْ يك كَاذِباً فَعلَيهِ كَذِبه وإِنْ يك صادِقاً يصِبكُم بعض الَّذِي يعِدكُم إِن الله لا يهدِي من هو مسرِف كَذَّاب﴾	٢٨	-٣٣٦-٣٠٠ ٣٧٦
	﴿يا قَومِ لَكُم الْملْك الْيوم ظَاهِرِين فِي الْأَرضِ فَمن ينصرنا مِن بأْسِ اللهِ إِنْ جاءَنا قَالَ فِرعونُ ما أُرِيكُم إِلا ما أَرى وما	٢٩	-٣٢٤-٣٠٤ ٤١٠٤١٢

	أهدِيكُم إِلا سبِيلَ الرشادِ﴾		
	﴿وقَالَ الذِي آمن يا قَومِ إِني أَخاف علَيكُم مِثْلَ يومِ الْأَحزابِ﴾	٣٠	-٤١١-٣٠٦ ٤١٢
	﴿مِثْلَ دأْبِ قَومِ نوحٍ وعادٍ وثَمود والذِين مِن بعدِهِم وما الله يرِيد ظُلْماً لِلْعِبادِ﴾	٣١	-٤١١-٣٠٧ ٤١٢
	﴿ويا قَومِ إِني أَخاف علَيكُم يوم التنادِ﴾	٣٢	-٤٠٩-٣٠٨ ٤١١
	﴿ يوم تولونَ مدبِرِين ما لَكُم مِن اللهِ مِن عاصِمٍ ومن يضلِلِ الله فَما لَه مِن هادٍ﴾	٣٣	-٤٠٩-٣٠٩ ٤١١
	﴿ولَقَد جاءَكُم يوسف مِن قَبلُ بِالْبينات فَما زِلْتم فِي شك مِما جاءَكُم بِهِ حتى إِذَا هلَك قُلْتم لَن يبعثَ الله مِن بعدِهِ رسولاً كَذَلِك يضِل الله من هو مسرِف مرتاب﴾	٣٤	٤١٢-٣١٠
	﴿الذِين يجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بِغيرِ سلْطَانٍ أَتاهم كَبر مقْتاً عِند اللهِ وعِند الذِين آمنوا كَذَلِك يطْبع الله علَى كُل قَلْبِ متكَبرٍ جبارٍ﴾	٣٥	٣١٢
	﴿ وقَالَ الذِي آمن يا قَومِ اتبِعونِ أَهدِكُم سبِيلَ الرشادِ﴾	٣٨	٣١٥
	﴿ يا قَومِ إِنما هذِهِ الْحياةُ الدنيا متاع وإِن الْآخِرةَ هِي دار الْقَرارِ﴾	٣٩	٣٧٣-٣١٦
	﴿ من عمِلَ سيئَةً فَلا يجزى إِلا مِثْلَها ومن عمِلَ صالِحاً مِن ذَكَرٍ أَو أُنثَى وهو مؤمِن فَأُولَئِك يدخلُونَ الْجنةَ يرزقُونَ فِيها بِغيرِ حِسابٍ﴾	٤٠	٣٢٧-٣١٦

	﴿ ويا قومِ ما لِي أدعوكُم إِلَى النجاةِ وتدعونَنِي إِلَى النارِ﴾	٤١	٣١٧
	﴿ تدعونَنِي لِأكْفُرَ بِاللهِ وأُشرِكَ بِهِ ما لَيس لِي بِهِ عِلْم وأنا أدعوكُم إِلَى الْعزِيزِ الْغفارِ﴾	٤٢	٣١٨
	﴿ لا جرم أنما تدعونَنِي إِلَيهِ لَيس لَه دعوةٌ فِي الدنيا ولا فِي الْآخِرةِ وأن مردنا إِلَى اللهِ وأن الْمسرِفِين هم أصحاب النارِ﴾	٤٣	٣١٩
	﴿ فَستذْكُرونَ ما أَقُولُ لَكُم وأُفَوض أمرِي إِلَى اللهِ إِن الله بصِير بِالْعِبادِ﴾	٤٤	٣٢١
	﴿هو الْحي لا إِلَه إِلا هو فَادعوه مخلِصِين لَه الدين الْحمد لِلهِ رب الْعالَمِين﴾	٦٥	٢٤٩
فصلت	﴿ ومن أحسن قَولاً مِمن دعا إِلَى اللهِ وعمِلَ صالِحاً وقَالَ إِنَنِي مِن الْمسلِمِين ﴾	٣٣	٢٥
الشورى	﴿ فَمن عفَا وأصلَح فَأجره علَى اللهِ إِنه لا يحِب الظَّالِمِين﴾	٤٠	٤١٨
	﴿فَإِنْ أعرضوا فَما أرسلْناك علَيهِم حفِيظاً إِنْ علَيك إِلا الْبلاغُ﴾	٤٨	٤٥٧
الزخرف	﴿وهذِهِ الْأنهار تجرِي مِن تحتِي ﴾	٥١	١٩٤
الأحقاف	﴿ وإِذْ صرفْنا إِلَيك نفَراً مِن الْجِن يستمِعونَ الْقُرآنَ فَلَما حضروه قَالُوا أنصِتوا فَلَما قُضِي ولوا إِلَى قَومِهِم منذِرِين﴾	٢٩	٣٣٢
	﴿قَالُوا يا قَومنا إِنا سمِعنا كِتاباً أُنزِلَ مِن بعدِ موسى مصدقاً لِما بين يديهِ يهدِي إِلَى الْحق وإِلَى طَرِيقٍ مستقِيمٍ﴾	٣٠	٣٣٣

	﴿يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم﴾	٣١	٣٣٤
	﴿ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين﴾	٣٢	٣٣٦
محمد	﴿وإنْ تتولوا يستبدلْ قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾	٣٨	٢٨٦
الحجرات	﴿نما المؤمنونَ إخوةٌ﴾	٣٤	٤٢٧
الذاريات	﴿وما خلقْت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾	٥٦	٢٥
النجم	﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾	٢٣	٥٧
ا ادلة	﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثْم والعدوان ومعصيتِ الرسول وتناجوا بالبر والتقْوى واتقوا الله الذي إليه تحشرونَ﴾	٩	٣٥٦
	﴿كتب في قلوبهم الإيمان﴾	٢٢	٣٩٠
الصف	﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولونَ ما لا تفْعلونَ﴾	٢	٤١٧
	﴿وإذْ قالَ عيسى ابن مريم يا بني إسرائيلَ إني رسولُ الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبيناتِ قالوا هذا سحر مبين﴾	٦	٢٤
التغابن	﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾	١٦	٤٥٤-٤٥٥

التحريم	﴿وضرب الله مثَلاً لِلذِين آمنوا امرأت فِرعونَ إِذْ قالت رب ابنِ لِي عِندك بيتاً فِي الْجنةِ ونجِني مِن فِرعونَ وعملِهِ ونجِني مِن الْقَومِ الظالِمِين﴾	١١	٣٤١
القلم	﴿إِنا بلَوناهم كما بلَونا أَصحاب الْجنةِ إِذْ أَقْسموا لَيصرِمنها مصبِحِين﴾	١٧	٣٤٧
	﴿ولا يستثْنونَ﴾	١٨	٣٤٨
	﴿فَطَاف علَيها طَائِف مِن ربك وهم نائِمونَ﴾	١٩	٣٥٧
	﴿فَأَصبحت كَالصرِيمِ﴾	٢٠	٣٤٨
	﴿فَتنادوا مصبِحِين﴾	٢١	٣٤٩
	﴿أَنِ اغْدوا علَى حرثِكُم إِنْ كُنتم صارِمِين﴾	٢٢	٣٥٠
	﴿فَانطَلَقُوا وهم يتخافَتونَ﴾	٢٣	٣٥٠
	﴿أَنْ لا يدخلَنها الْيوم علَيكُم مِسكِين﴾	٢٤	٣٥١
	﴿وغَدوا علَى حردٍ قَادِرِين﴾	٢٥	٣٥١
	﴿فَلَما رأَوها قَالُوا إِنا لَضالُّونَ﴾	٢٦	٣٥١
	﴿بل نحن محرومون ﴾	٢٧	٣٥٣
	﴿قَالَ أَوسطُهم أَلَم أَقُلْ لَكُم لَولا تسبحونَ﴾	٢٨	٣٥٣
	﴿قَالُوا سبحانَ ربنا إِنا كُنا ظَالِمِين﴾	٢٩	٣٥٨-٣٥٤
	﴿فَأَقْبلَ بعضهم علَى بعضٍ يتلاومونَ﴾	٣٠	٣٥٤
	﴿قَالُوا يا ويلَنا إِنا كُنا طَاغِين﴾	٣١	٣٥٥
	﴿عسى ربنا أَنْ يبدِلَنا خيراً مِنها ﴾	٣٢	٣٥٨-٣٥٥
الحاقة	﴿فَيقُولُ هاؤم اقْرأُوا كِتابِيه﴾	١٩	٣٠٩
	﴿ يا لَيتنِي لَم أُوت كِتابِيه﴾	٢٥	٣٠٩
الأعلى	﴿فَذَكِّر إِنْ نفَعتِ الذِّكْرى﴾	٩	٤١٣

الكوثر	﴿إِنا أعطَيناك الْكَوثَر﴾	١	٤٠
الكافرون	﴿قُلْ يا أيها الْكَافِرونَ﴾	١	٢٨٠
	﴿ لا أعبد ما تعبدونَ﴾	٢	٢٨٠

فهرس الأحاديث

يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة	١٧٥
يـ ل ربنا في كل ليلة حين يبقى ثلث	٣٧٠

فهرس الأعلام

٥٠	محمد بن إدريس	٥٥
٥١	محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي	٥١
٥٢	محمد بن جرير	٩٠
٥٣	محمد بن عبد الوهاب	٧٠
٥٤	محمد بن عمر بن الحسين	١١٨
٥٥	محمد بن محمد أبو السعود	٧٦
٥٦	محمود أفندي الألوسي	٩٠
٥٧	محمود بن عمر	٥١
٥٨	معاذ بن جبل	٢٤٩-٤٢١-٤٥٨
٥٩	المغيرة بن شعبة	٢٠٠
٦٠	نافع بن عبد الرحمن	١٩١
٦١	النعمان بن بشير	٦٥
٦٢	يحيى بن علي بن محمد التبريزي	٥٢

فهرس الأمكنة

فهرس الفرق

فهرس اللطائف الدعوية[1]

(١) وضعت اللطائف بعبارة مختصرة .

فهرس الضوابط الدعوية

فهرس المراجع

١ ـ الابتلاءات أساليب الكفرة في محاربة الدعوة في عصر النبوة ، حمود بن عبد الله المطر ، تقديم سماحة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين ، {ط٢ ، دار النرجس ، جدة :١٤٢٤هـ } .

٢ ـ إعانة الطالبين ، أبو بكر بن السيد محمد شطا الدمياطي ،{دار الفكر ، بيروت : بدون } .

٣ ـ أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم ، صديق بن حسن القنوجي ، تحقيق عبد الجبار زكار ، { دار الكتب العلمية ، بيروت : ١٩٧٨م } .

٤ ـ ابن القيم حياته وآثاره ، فضيلة الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد ،{ط١، دار المعارف ، الرياض }.

٥ ـ الإتقان في علوم القرآن ، للحافظ جلال الدين السيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، { شركة أبناء شريف الأنصاري ، المكتبة العصرية ، الدار النموذجية ،بيروت : ١٤٢٤هـ } .

٦ ـ أخلاقنا الاجتماعية ، مصطفى السباعي ، {ط٣، المكتب الإسلامي، بيروت: ١٣٩٣هـ } .

٧ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة ، عز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري ، تحقيق عادل أحمد الرفاعي،{ط١،دار إحياء التراث العربي،بيروت : ١٤١٧هـ }

٨ ـ الإصابة في تمييز الصحابة ، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي ، تحقيق علي محمد البجاوي ، {ط١، دار الجيل ، بيروت: ١٤١٢هـ } .

٩ ـ آداب الصحبة ،أبو عبد الرحمن السلمي ، تحقيق مجدي فتحي السيد،{ط١، دار الصحابة للتراث ، مصر : ١٤١٠هـ } .

١٠ ـ الأحاديث المختارة ، تحقيق عبد الملك بن دهيش ، {ط١،مكتبة النهضة الحديثة ، ١٤١٠ مكة : هـ } .

١١ ـ أحكام القرآن ،أحمد بن علي الجصاص ، تحقيق محمد صادق قمحاوي ، {دار إحياء التراث العربي ، بيروت : ١٤٠٥هـ } .

١٢ ـ أحكام القران ، محمد بن عبد الله بن العربي ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، { دار

الفكر العربي ، لبنان} .
١٣ـ الآداب الشرعية ، أبو عبد الله محمد بن مفلح المقدسي ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعمر القيام ، {ط٢،مؤسسة الرسالة ، بيروت : ١٤١٧هـ }
١٤ـ أدب الموعظة ، محمد بن إبراهيم الحمد ، طباعة مؤسسة الحرمين الخيرية .
١٥ـ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، د. مصلح سيد بيومي ،{ط٢،المكتبة التوفيقية ، القاهرة : ١٣٩٩هـ } .
١٦ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، محمد بن محمد العمادي أبي السعود ،{ إحياء التراث العربي ، بيروت } .
١٧ـ أصول الدعوة ، عبد الكريم زيدان ،{ط١،مؤسسة الرسالة،بيروت :١٤٢٦هـ }
١٨ـ أضواء البيان ، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ، تحقيق مكتب البحوث والدراسات ، { دار الفكر ، بيروت : ١٤١٥هـ }.
١٩ـ الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في قصة أهل الكهف والرقيم ، مجدي إبراهيم السيد ،{ دار طيبة الخضراء ، مكة }.
٢٠ـ إعجاز القران أبو بكر محمد الباقلاني ، تحقيق السيد أحمد صقر ،{ط٥،دار المعارف ، مصر : ١٩٩٧}.
٢١ـ إعداد الداعية في سورة فصلت ، الدكتور حمد بن ناصر بن عبد الرحمن العمار ، {ط٢، دار إشبيليا ، الرياض : ١٤١٩هـ }
٢٢ـ أعمال القلوب حقيقتها ، وأحكامها ، عند أهل السنة والجماعة وعند مخالفيهم ، الدكتور سهل بن رفاع العتيبي ، {ط١، مطابع جامعة الإمام،الرياض:١٤٢٦هـ }
٢٣ـ إغاثة اللهفان ، محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية ، تحقيق محمد حامد الفقي ،{ط٢،دار المعرفة ، بيروت : ١٣٩٥هـ} .
٢٤ـ اقتضاء العلم ، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ، تحقيق فضيلة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ،{ط١،مكتبة المعارف ، الرياض : ١٤٢٢هـ } .
٢٥ـ إكمال إكمال المعلم ، شرح صحيح مسلم ، محمد بن خليفة الأبي ، تحقيق محمد سالم هاشم ، {ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت :١٤١٥هـ} .
٢٦ـ أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، جمال الدين بن هشام ، تحقيق محي الدين عبد

الحميد ، {ط٥، دار الجيل ، بيروت : ١٣٩٩هـ } .
٢٧ـ البحر المحيط ، محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي ، تحقيق عادل الموجود ، وعلي معوض ، وشارك في التحقيق زكريا النوقي ، وأحمد الجمل ،{ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت :١٤٢٢هـ } .
٢٨ـ البحر المحيط ، بدر الدين بن ادر الزركشي ، تحقيق محمد بن محمد تامر ،{ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت :١٤٢١هـ } .
٢٩ـ بحوث في عقيدة أهل السنة والجماعة وموقف الأشاعرة والحركات الإسلامية المعاصرة منها ، الدكتور ناصر بن عبد الكريم العقل ،{ط٢، دار العاصمة ، الرياض : ١٤١٩هـ } .
٣٠ـ بدائع التفسير ،جمع يسري السيد محمد ،{ط١، دار ابن الجوزي ، الدمام }.
٣١ـ بدائع الفوائد ، محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية ، تحقيق هشام عطا ، وعادل العدوي ، وأشرف أحمد،{ط١، مكتبة نزار مصطفى الباز ، مكة : ١٤١٦هـ }.
٣٢ـ البداية والنهاية ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ، { مكتبة المعارف ، بيروت ، بدون}.
٣٣ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، العلامة محمد بن علي الشوكاني،{ دار المعرفة ، بيروت، بدون } .
٣٤ـ البرهان في تجويد القرآن ورسالة في فضائل القرآن ، محمد الصادق قمحاوي ،{ط١، دار عالم الكتب ، الرياض : ١٤٢٤هـ } .
٣٥ـ البرهان في علوم القرآن ، أبو عبد الله محمد بن ادر الزركشي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، { دار المعرفة ، بيروت : ١٣٩١هـ } .
٣٦ـ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، تحقيق محمد علي النجار ،{دار الكتب العلمية ، بيروت } .
٣٧ـ " ٢٠٣" بصيرة في العقل والوعي والتفكير ومسائل أخرى ذات صلة ، استخلصها من كتب أ.د عبد الكريم بكار ، الفريق العلمي بدار الأعلام ،{ط١، دار الأعلام ، الأردن :١٤٢٤هـ } .
٣٨ـ بغية الطلب في تاريخ حلب،كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة،تحقيق

الدكتور سهيل زكار ،{دار الفكر ،بيروت } .
٣٩ـ جة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار ، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، تحقيق أشرف بن عبد المقصود بن عبد الرحيم ،{ط٢، دار الجيل ، بيروت :١٩٩٢م }.
٤٠ـ تأريخ بغداد ، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ، { دار الكتب العلمية ، بيروت ، بدون }.
٤١ـ تأريخ الدعوة بين الأمس واليوم ، آدم عبد الله الألوري ،{ط٢، مكتبة وهبة ، القاهرة : ١٣٩٩} .
٤٢ـ تأريخ دمشق ، ابن عساكر ، تحقيق محب الدين العمري ،{ دار الفكر ، بيروت : ١٩٩٥م} .
٤٣ـ تاريخ اليعقوبي،أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر اليعقوبي، { دار صادر ، بيروت} .
٤٤ـ تأملات في العمل الإسلامي ، محمد بن عبد الله الدويش ،{ط١، سلسة تصدر عن المنتدى الإسلامي : ١٤٢١هـ } .
٤٥ـ التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور ، { دار سحنون ، تونس } .
٤٦ـ تذكرة الدعاة ، البهي الخولي ، {ط٦، مكتبة الفلاح ، الكويت: ١٣٩٩هـ } .
٤٧ـ تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم ، بدر الدين إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني ، تحقيق حسان عبد المنان ، { بيت الأفكار ، لبنان : ٢٠٠٤م } .
٤٨ـ التربية الذاتية من الكتاب والسنة ، هاشم بن علي الأهدل ،{ط٢، دار المعالي ، الأردن : ١٤٢١هـ } .
٤٩ـ التسهيل لعلوم التـ يل ، محمد بن أحمد الكلبي ،{ط٤، دار الكتاب العربي ، لبنان : ١٤٠٣هـ} .
٥٠ـ تعاون الدعاة وأثره في ا تمع ، فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ، {دار الوطن ، الرياض : ١٤٢٤هـ } .
٥١ـ تفسير ابن أبي حاتم ، عبد الرحمن بن محمد بن أحمد الرازي ، تحقيق أسعد الرازي ،{ المكتبة العصرية ، صيدا ، بدون } .
٥٢ـ تفسير ابن زمنين لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن زمنين ، تحقيق أبو عبد الله

حسن بن عكاشة ، ومحمد الك ،{ط١، دار الفاروق الحديثة ، القاهرة :١٤٢٣هـ } .
٥٣ـ تفسير الإمام الشافعي،جمع وتحقيق ودراسة الدكتور أحمد الفران ،{ط١، التدمرية ، الرياض :١٤٢٧هـ }.
٥٤ـ تفسير آيات من القرآن الكريم ، راجع أصوله ، وصححه ، وضع هوامشه ، وأعده للطبع الدكتور محمد بلتاجي،{ط١، مطابع الرياض ، الرياض } .
٥٥ـ تفسير البغوي ، أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي ، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك،{ دار المعرفة ، بيروت }.
٥٦ـ تفسير البيضاوي ، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي ،{ دار الفكر ، بيروت } .
٥٧ـ تفسير الجلالين ، محمد بن أحمد المحلي ، والسيوطي،{ط١،دار الحديث،القاهرة }.
٥٨ـ تفسير السمرقندي نصر بن محمد ، تحقيق محمود مطر جي،{دار الفكر،بيروت }.
٥٩ـ تفسير السمعاني ، أبي المظفر منصور بن محمد السمعاني ، تحقيق ياسر بن إبراهيم ، وغنيم بن عباس بن غنيم ،{ط١، دار الوطن ، الرياض : ١٤١٨هـ } .
٦٠ـ تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، تأليف: محمد بن أبي نصر فتوح ابن عبد الله بن فتوح بن حميد بن بن يصل الأزدي الحميدي، تحقيق: الدكتورة : زبيدة محمد سعيد عبد العزيز {ط١، مكتبة السنة ، مصر : ١٤١٥ هـ } .
٦١ـ تفسير القرآن اختصار النكت للماوردي ، الإمام عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي الشافعي ، تحقيق الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي ،{ط١، دار ابن حزم ، بيروت : ١٤١٦هـ } .
٦٢ـ تفسير القرآن العظيم ، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير ، تحقيق مصطفى السيد محمد ، ومحمد السيد رشاد ، ومحمد فضل العجماوي ، وعلي أحمد عبد الباقي ،{ط١، دار عالم الكتب ، السعودية } .
٦٣ـ التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ،فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي ،{ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت : ١٤٢١هـ } .
٦٤ـ تفسير مجاهد ، تحقيق عبد الرحمن محمد الطاهر السورتي ، { دار المنشورات

العلمية ، بيروت } .
٦٥ـ تفسير مدارك الت يل وحقائق التأويل ، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي ،{ دار المعرفة ، بيروت }.
٦٦ـ تفسير مقاتل بن سليمان ، تحقيق أحمد فريد ،{ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت : ١٤٢٤هـ } .
٦٧ـ التفسير والمفسرون ، محمد حسين الذهبي ،{ط٢، دار إحياء التراث العربي ، بيروت :١٣٩٦هـ } .
٦٨ـ التفسير الموضوعي التأصيل والتمثيل ، زيد بن عمر العيص ،{ط١، الرشد ، الرياض : ١٤٢٦هـ }.
٦٩ـ تفسير الواحدي ، أبو الحسن علي الواحدي ، تحقيق صفوان عدنان داوودي ،{ط١، دار القلم ، دمشق : ١٤١٥هـ } .
٧٠ـ التقريب لابن حجر ، تحقيق محمد عوامة،{ط١،دار الرشيد، سوريا : ١٤٠٦} .
٧١ـ تلبيس إبليس، عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج تحقيق : الدكتور السيد الجميلي ، {ط١، دار الكتاب العربي، بيروت:١٤٠٥هـ } .
٧٢ـ ذيب الكمال ، أبو الحجاج يوسف بن الزكي عبد الرحمن المزي،تحقيق: د. بشار عواد معروف ،{ط١، مؤسسة الرسالة ، بيروت :١٤٠٠هـ } .
٧٣ـ التيسير بشرح الجامع الصغير ، لزين الدين المناوي ،{ط٣، مكتبة الإمام الشافعي ، الرياض :١٤٠٨هـ } .
٧٤ـ تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ، تحقيق محمد أيمن الشبراوي ،{ط١، عالم الكتب ، بيروت : ١٩٩٩م} .
٧٥ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق ابن عثيمين ، { مؤسسة الرسالة ، بيروت :١٤٢١هـ } .
٧٦ـ جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم ، زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين بن رجب البغدادي ، تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس ،{ط٦، مؤسسة الرسالة ، بيروت : ١٤١٧هـ } .
٧٧ـ الجامع لأحكام القرآن ،أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، { دار

الشعب ، القاهرة } .
٧٨ ـ الجهاد ، جمال البنا ، { دار الفكر الإسلامي، بيروت } .
٧٩ ـ الجواب الكافي،محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية،{دار الكتب العلمية ،بيروت}.
٨٠ ـ الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي،{ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت } .
٨١ ـ الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر ، لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي ، تحقيق إبراهيم باجس عبد ا يد ،{ط١، دار ابن حزم ، بيروت ١٤١٩:هـ } .
٨٢ ـ حاشية رد المختار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار ، السيد محمد أفندي عابدين ، { دار الفكر ، بيروت: ١٤٢١هـ } .
٨٣ ـ حتى لا تكون كلا ، طريقك إلى التفوق والنجاح ، الدكتور عوض بن محمد القرني ،{ط١، دار الأندلس الخضراء ، ١٤١٨ جدة : هـ } .
٨٤ ـ الحسد وكيف نتقيه،إبراهيم محمد الجمل،{ مكتبة القرآن، القاهرة ، بدون } .
٨٥ ـ الحسنة والسيئة ، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، تحقيق الدكتور محمد جميل غازي ، {مطبعة المدني، مصر } .
٨٦ ـ حقيقة الجهاد في الإسلام ، الدكتور محمد نعيم ياسين ،{ط١، دار الأرقم ، الكويت : ١٤٠٤هـ } .
٨٧ ـ حقيقة الصوفية في ضوء الكتاب والسنة ، الدكتور محمد بن ربيع بن هادي المدخلي ، {طبع ونشر وزارة الشؤون الإسلامية بالمملكة العربية السعودية } .
٨٨ ـ حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات الإسلامية ، لفضيلة الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد ،{ط٣، دار ابن الجوزي ، الدمام : ١٤١٤هـ } .
٨٩ ـ الحكمة في الدعوة إلى الله ، سعيد بن علي بن وهف القحطاني ،{ط٣، مؤسسة الرسالة ، بيروت : ١٤١٧هـ } .
٩٠ ـ حلية الأولياء ، أحمد بن عبد الله أبو نعيم الأصبهاني ،{ط٤، دار الكتاب العربي ، بيروت :١٤٠٥هـ }.
٩١ ـ الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة ، يحيى زمزمي ،{ط٢، دار المعالي ،

عمان:١٤٢٢هـ } .
٩٢ـ الدر المنثور ، عبد الرحمن السيوطي ، { دار الفكر ، بيروت : ١٩٩٣م } .
٩٣ـ درء تعارض العقل والنقل ، أحمد بن عبد السلام بن تيمية ، تحقيق عبد اللطيف عبد الرحمن ،{ دار الكتب العلمية ، بيروت : ١٤١٧هـ } .
٩٤ـ الدعاة إلى الله في القرآن الكريم ومناهجهم ، محمد طلعت أبو صير ، رسالة دكتوراة مقدمة لجامعة الأزهر ،{كلية أصول الدين ، ١٣٩٨هـ } على الآلة الكاتبة .
٩٥ـ الدعوة ، الدكتور حمد بن ناصر العمار ،{ط١، دار كنوز إشبيليا ، الرياض :١٤٢٥هـ } .
٩٦ـ الدعوة الإسلامية في عهدها المكي ، مناهجها ، وغايا ا ، رؤوف شلبي ،{ط٢،دار القلم ، الكويت : ١٤٠٢هـ } .
٩٧ـ الدعوة الإسلامية مفهومها وحاجة ا تمعات إليها ، محمد خير يوسف ،{ط٢، دار طويق ، الرياض :١٤١٤هـ } .
٩٨ـ الدعوة إلى الإصلاح ،محمد الخضر حسين،{ المطبعة السلفية، القاهرة :١٣٤٦هـ }.
٩٩ـ الدعوة إلى الحق،محمود شاكر، {ط١، دار الوراق ، بيروت : ١٤٢٥هـ }.
١٠٠ـ الدعوة إلى الله ، خصائصها ، مقوما ا ، مناهجها ، أبو ا د نوفل ، بدون ذكر تاريخ ، ولا ذكر للناشر .
١٠١ـ الدعوة إلى الله سبحانه وأخلاق الدعاة ، لفضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز ، { مكتبة المعارف ، الرياض : ١٤٠٦هـ } .
١٠٢ـ الدعوة إلى الله في سورة إبراهيم الخليل ، محمد بن سيدي بن الحبيب ،{ط١، دار الوفاء ، جدة : ١٤٠٦هـ } .
١٠٣ـ دقائق التفسير ، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، تحقيق محمد السيد ،{ط٢، مؤسسة علوم القرآن ، دمشق : ١٤٠٤هـ } .
١٠٤ـ ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح ، دراسة تحليلية مقارنة على ضوء القرآن والسنة والتاريخ ، محمد خير رمضان يوسف ،{ط١، الدار الشامية ، بيروت

: ١٤٢٠هـ} .
١٠٥ـ ذو القرنين وسد الصين ، من هو ؟ وأين هو ؟ تاليف محمد راغب الطباخ ، تحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان ،{ط١، دار غراس ، الكويت :١٤٢٤هـ} .
١٠٦ـ الرحيق المختوم ، صفي الرحمن المباركفوري ،{ط١، دار الكتاب والسنة ، باكستان :١٤١٧هـ} .
١٠٧ـ الروح ، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية { دار الكتب العلمية ، بيروت : ١٣٩٥هـ } .
١٠٨ـ روح المعاني ، شهاب الدين محمود الألوسي ،{ دار إحياء التراث ، بيروت } .
١٠٩ـ روضة المحبين ونزهة المشتاقين ، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب بن القيم الجوزية ، { دار الكتب العلمية ، بيروت :١٤١٢هـ } .
١١٠ـ روضة الناظر ، عبد الله بن أحمد المقدسي ، تحقيق الدكتور عبد العزيز السعيد ، {ط٢، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض :١٣٩٩هـ} .
١١١ـ زاد المسير في علم التفسير ، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي،{ط٣، المكتب الإسلامي ، بيروت: ١٤٠٤هـ } .
١١٢ـ زاد المعاد في هدي خير العباد ، محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، وعبد القادر الأرناؤوط ،{مؤسسة الرسالة ، بيروت } .
١١٣ـ زغل الدعاة ، سعيد بن ناصر الغامدي ،{ط١، دار الأندلس الخضراء ، جدة:١٤١٦هـ } .
١١٤ـ الزهد ،أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني ، تحقيق عبد العلي عبد الحميد ،{ط٢، دار الريان للتراث ، القاهرة :١٤٠٨هـ } .
١١٥ـ الزهد الكبير ، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله البيهقي، تحقيق عامر أحمد حيدر ،{ط٣، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت :١٩٩٦م } .
١١٦ـ زوابع في وجه السنة قديما وحديثا ، صلاح الدين مقبول أحمد ،{ط٢، دار عالم الكتب ، بيروت ، بدون } .
١١٧ـ سلاح المؤمن في الدعاء محمد بن محمد بن سرايا بن داود ، تحقيق محي الدين

مستو ، {ط١، دار ابن كثير ، دمشق : ١٤١٤هـ} .
١١٨ـ سلسلة مدرسة الدعاة فصول هادفة في فقه الدعوة والداعية ، عبد الله بن ناصح العلوان ،{ط٢، دار السلام ، مصر : ١٤٢٤هـ } .
١١٩ـ السلوك وأثره في الدعة إلى الله تعالى ، الدكتور فضل إلهي ،{ط١، إدارة ترجمان الإسلام ، باكستان :١٤١٩هـ } .
١٢٠ـ سنن ابن ماجة ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، { دار الفكر ، بيروت } .
١٢١ـ سنن أبي داود ، سليمان بن الأشعث ، تحقيق محي الدين عبد الحميد { دار الفكر ، بيروت }.
١٢٢ـ سنن البيهقي ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، { مكتبة الباز ، مكة :١٤١٤هـ} .
١٢٣ـ سنن الترمذي ، محمد بن عيسى الترمذي ، تحقيق أحمد شاكر ،{ دار إحياء التراث العربي ، لبنان } .
١٢٤ـ السياسة الشرعية ، محمد بن عبد الله السيف التميمي { دار المعالم ، بيروت } .
١٢٥ـ سير أعلام النبلاء ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، تحقيق شعيب الأرناؤوط , محمد نعيم العرقسوسي ، {ط٩، مؤسسة الرسالة ، بيروت :١٤١٣هـ } .
١٢٦ـ السيرة الحلبية ، علي الحلبي ، { دار المعرفة ، بيروت : ١٤٠٠} .
١٢٧ـ سيرة عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين ، عفت وصال حمزة ،{ط١، دار ابن حزم ، بيروت :١٤١٨هـ} .
١٢٨ـ السيرة النبوية دروس وعبر ، مصطفى السباعي ،{ط٩، المكتب الإسلامي ، بيروت : ١٤٠٦هـ } .
١٢٩ـ السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية ، الدكتور إبراهيم أحمد ، سلسة كتاب الأمة ، {ط١، تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر : ١٤١٧هـ }.
١٣٠ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي ، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط ، محمود الأرناؤوط ،{ط١، دار بن كثير ، دمشق

: ١٤٠٦ هـ } .
١٣١ـ شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة ، د. سعيد بن وهف القحطاني ، راجعه فضيلة الدكتور عبد الله الجبرين ،{ط٤، توزيع مؤسسة الجريسي ، السعودية : ١٤١٥هـ } .
١٣٢ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ، هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي أبو القاسم ، تحقيق الدكتور أحمد سعد حمدان ،{ دار طيبة ، الرياض :١٤٠٢هـ } .
١٣٣ـ شرح الزرقاني على الموطأ ،{ط١، دار الكتب العلمية ،بيروت : ١٤١١هـ } .
١٣٤ـ شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز ،{ط٤، المكتب الإسلامي ، بيروت :١٣٩١هـ } .
١٣٥ـ شرح العقيدة الواسطية ، لفضيلة الشيخ صالح بن فوزان الفوزان ،{ط٦، مكتبة المعارف ، الرياض : ١٤١٠هـ } .
١٣٦ـ شرح مقدمة التفسير للشيخ مساعد الطيار ،{ط١،دار ابن الجوزي ، الدمام : ١٤٢٧هـ } .
١٣٧ـ الشعب ، للبيهقي ، تحقيق محمد بسيوني زغلول ،{ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت : ١٤١٠هـ } .
١٣٨ـ صحيح ابن حبان ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ،{ط٢، مؤسسة الرسالة ، بيروت :١٤١٤هـ } .
١٣٩ـ صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل البخاري ،تحقيق مصطفى البغا ،{ط٣، دار اليمامة ، بيروت :١٤٠٧هـ } .
١٤٠ـ صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج القشيري ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ،{ دار إحياء التراث العربي ، بيروت } .
١٤١ـ الضعفاء للعقيلي ، تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي ،{ط١، دار المكتبة العلمية ، بيروت : ١٤٠٤هـ } .
١٤٢ـ الطبقات ، أبو عمر خليفة بن خياط الليثي العصفري ، تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري،{ط٢، دار طيبة ، الرياض: ١٤٠٢هـ } .

١٤٣ـ الطبقات الكبرى ، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري ، { دار صادر ، بيروت ، بدون }.
١٤٤ـ طبقات المفسرين ، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، تحقيق علي محمد عمر ،{ط١، مكتبة وهبة ، القاهرة :١٣٩٦هـ } .
١٤٥ـ طبقات المفسرين ، أحمد بن محمد الأدنه وي ، تحقيق سليمان بن صالح الخزي ، {ط١، مكتبة العلوم والحكم ، السعودية : ١٤١٧هـ} .
١٤٦ـ طريق الهجرتين ، محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية ، تحقيق عمر أبو عمر ،{ط٢، دار ابن القيم ، الدمام :١٤١٤هـ} .
١٤٧ـ ظاهرة الإرجاء في العالم الإسلامي ، سفر بن عبد الرحمن الحوالي ، بإشراف الأستاذ محمد قطب ، مجلدين ،{ط١، مكتبة الطيب ، مصر :١٤١٧هـ} .
١٤٨ـ العبودية ، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ، تحقيق علي حسن عبد الحميد ،{ط٤، دار المغني : ١٤٢٥هـ } .
١٤٩ـ عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية ، تحقيق زكريا علي يوسف ،{ دار الكتب العلمية ، بيروت } .
١٥٠ـ العدوان على المرأة في المؤتمرات الدولية ، الدكتور فؤاد بن عبد الكريم العبد الكريم ،{ط١، سلسلة تصدر عن مجلة البيان : ١٤٢٦هـ } .
١٥١ـ العزلة ، الإمام أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي ، تحقيق ياسين السواس ،{ط١، دار ابن كثير ، بيروت : ١٤٠٧هـ } .
١٥٢ـ العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب ، محمد حامد الناصر ،{ط١، مكتبة الكوثر ، الرياض : ١٤١٧هـ} .
١٥٣ـ العلاقة بين الفقه والدعوة ، مفيد بن خالد بن عيد ،{ط١، دار ابن حزم ، بيروت : ١٤١٦هـ }.
١٥٤ـ العلل لابن أبي حاتم ، تحقيق محب الدين الخطيب ، {بيروت : ١٤٠٥هـ} .
١٥٥ـ العلل ومعرفة الرجال ، للإمام تحقيق وصي الله بن محمد عباس ،{ط١، المكتب الإسلامي ، بيروت : ١٤٠٨هـ} .
١٥٦ـ العلمانية ، نشأ ا وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة ، الدكتور سفر

بن عبد الرحمن الحوالي ،{ط١، مطابع جامعة أم القرى : ١٤٠٢هـ } .
١٥٧ـ عنوان المجد في تاريخ نجد ، للأديب عثمان بن عبد الله بن عثمان الحرقوصي ، تحقيق عبد اللطيف آل الشيخ :١٠٩/٢،{طبع وزارة المعارف ، الرياض :١٣٩٤هـ}
١٥٨ـ عيوب النفس ، أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى السلمي ، تحقيق مجدي فتحي السيد ،{ مكتبة الصحابة ، طنطا :١٤٠٨هـ } .
١٥٩ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء،موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي ، تحقيق الدكتور نزار رضا ،{ دار مكتبة الحياة ، بيروت}.
١٦٠ـ الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة ، دراسة علمية حول مظاهر الغلو ومفاهيم التطرف الأصولية ، عبد الرحمن اللويحق ،{ط٣، مؤسسة الرسالة ، بيروت : ١٤١٦هـ } .
١٦١ـ غمز عيون البصائر شرح كتاب الأشباه والنظائر ، زين العابدين إبراهيم بن نجيم المصري ، شرح أحمد الحموي ،{ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت :١٤٠٥} .
١٦٢ـ فتح الباري ، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، تحقيق محب الدين الخطيب ،{ دار المعرفة ، بيروت } .
١٦٣ـ فتح القدير ، محمد بن علي الشوكاني ، { دار الفكر ، بيروت } .
١٦٤ـ الفرق الكلامية المشبهة – الأشاعرة – الماتريدية نشأ ا وأصولها وأشهر رجالها ومواقف السلف منها ، الدكتور ناصر بن عبد الكريم العقل، {ط١، دار الوطن ، الرياض : ١٤٢٢هـ } .
١٦٥ـ فصول في الدعوة الإسلامية ، حسن عبد الظاهر ،{ط١، دار الثقافة ، الدوحة :١٤٠٦هـ } .
١٦٦ـ فضائح الصوفية ،الشيخ عبد الرحمن بن عبد الخالق ،{ط٢، دار السلام ، الرياض : ١٤١٢هـ } .
١٦٧ـ فضائل القرآن ، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي ، تحقيق الدكتور فاروق حمادة ،{ط٢،دار إحياء العلوم ، بيروت : ١٤١٣هـ } .

١٦٨ـ فضل الدعوة إلى الله في ضوء الكتاب والسنة ، العلامة محمد زكريا الكاندهلوي ، اعتنى به سيد عبد الماجد الغوري،{ط١، دار وحي القلم ، بيروت : ١٤٢٥هـ}.
١٦٩ـ فقه الكسب ، الدكتور محمد القباطي ، {نشر دار الأندلس } .
١٧٠ـ فن إدارة الوقت ، ويليه البرنامج التفصيلي لطالب العلم ، الدكتور عبد الله بن مبارك البوصي ،{ط٢،دار طيبة ، الرياض: ١٤٢٥هـ} .
١٧١ـ الفوائد ، محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية ،{ط٢، دار الكتب العلمية ، بيروت : ١٣٩٣} .
١٧٢ـ فوات الوفيات،محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي،، تحقيق علي محمد بن يعوض الله، وعادل أحمد عبد الموجود ،{ط١، دار الكتب العلمية، بيروت:٢٠٠٠م} .
١٧٣ـ في ظلال القرآن ، سيد قطب ،{ط٩، دار الشروق ، بيروت:١٤٠٠هـ }.
١٧٤ـ القاموس المحيط ، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي،{مؤسسة الرسالة ،بيروت} .
١٧٥ـ القرارات النحوية والتصريفية مع اللغة العربية بالقاهرة جمعا ودراسة وتقويما إلى اية الدورة الحادية والستين عام ١٤١٥هـ ، خالد بن سعود العصيمي ،{ط١، دار التدمرية ، السعودية : ١٤٢٣هـ } .
١٧٦ـ القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ،تأليف صلاح الخالدي ، {ط١، دار القلم ، دمشق : ١٤١٩}.
١٧٧ـ القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه ، الدكتور عبد الرحمن المحمود ،{ط١، دار النشر الدولي ، الرياض : ١٤١٤هـ} .
١٧٨ـ القلب ووظائفه في الكتاب والسنة ، سليمان اليماني ،{ط١، دار ابن القيم ، السعودية : ١٤١٤هـ} .
١٧٩ـ قوارب النجاة في حياة الدعاة ، فتحي يكن ،{ط١٠، مؤسسة الرسالة ، بيروت : ١٤٠٥هـ} .
١٨٠ـ قواعد أساسية في مسيرة الدعوة الإسلامية ، الدكتور على الضويحي ، {نشر دار ابن الجوزي }.
١٨١ـ قواعد الدعوة إلى الله ، الدكتور همام سعيد ،{ط١، دار الفرقان ، الأردن

:١٤٢٥هـ } .
١٨٢ـ القواعد الشرعية ودورها في ترشيد العمل الإسلامي ، محمد أبو الفتح البيانوني .
١٨٣ـ قواعد فقهية لترشيد الصحوة الإسلامية ، ناصر درويش،{نشر مكتبة سمرقند} .
١٨٤ـ القواعد الكلية ، والضوابط الفقهية ، جمال الدين يوسف بن عبد الهادي الدمشقي الحنبلي،تحقيق جاسم الدوسري،{ط١، دار البشائر،بيروت :١٤١٥هـ}.
١٨٥ـ قواعد وضوابط فقه الدعوة عند شيخ الإسلام ابن تيمية دراسة فقهية ، عابد الثبيتي ، تقديم الدكتور عابد السفياني ، والدكتور أحمد بن حميد ،{ط١، دار ابن الجوزي ، الدمام :١٤٢٨هـ } .
١٨٦ـ الكاشف للذهبي ، تحقيق محمد عوامة ،{ط١، دار القبلة ، جدة :١٤١٣هـ} .
١٨٧ـ الكافي في القراءات السبع ، أبو عبد الله محمد بن شريح الأندلسي ، : {ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت:١٤٢١} .
١٨٨ـ الكشاف عن حقائق التنـزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي ،{ دار إحياء التراث العربي ، بيروت } .
١٨٩ـ كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة ، عبد الرحمن بن حسن بن حبنكة الميداني ،{ط١، دار القلم ، دمشق : ١٤٠٥هـ} .
١٩٠ـ كيف ندعو الناس ، عبد البديع صقر ،{ط٣، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية : ١٤٠٠هـ }.
١٩١ـ لباب التأويل في معاني التنـزيل ، لعلاء الدين علي بن محمد البغدادي ، والمشهور بابن الخازن ، تحقيق عبد السلام شاهين ،{ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت :١٤١٥هـ} .
١٩٢ـ لباب النقول في أسباب النـزول ،أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي ،{ دار إحياء العلوم ، بيروت ،بدون } .
١٩٣ـ لسان العرب ، محمد بن منظور ، الطبعة الأولى ،{ دار صادر ، بيروت } .
١٩٤ـ لسان اللسان تهذيب لسان العرب ، تم تهذيبه بعناية : المكتب الثقافي لتحقيق الكتب ، بإشراف الأستاذ عبدأ علي مهنا { دار الكتب العلمية ، بيروت } .

١٩٥ـ لطائف التفسير ، للشيخ أحمد فرح عقيلان ،{ط١، دار اليقين ، مصر } .
١٩٦ـ المئة الأوائل ، للدكتور ما يكل هارت ، ترجمة : خالد أسعد عيسى ، وأحمد غسان سبانو ،{ط١٣، دار قتيبة ، دمشق : ١٤٢٧هـ } .
١٩٧ـ مباحث في علوم القرآن ،مناع القطان ،{ط٢٤،مؤسسة الرسالة: ١٤١٤هـ }.
١٩٨ـ مبادئ علم أصول الدعوة ، محمد يسري إبراهيم حسين ، {ط١، دار طيبة ، الرياض : ١٤٢١هـ } .
١٩٩ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، علي بن أبي بكر الهيثمي ،{ دار الريان للتراث، القاهرة: ١٤٠٧هـ } .
٢٠٠ـ مجموع رسائل ابن رجب ، دراسة وتحقيق أبي مصعب طلعت الحلواني ،{دار الفاروق الحديثة ، مصر }.
٢٠١ـ مجموع الفتاوى ، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم ، وساعده ابنه محمد {طبع بأمر خادم الحرمين الشريفين الملك فهد آل سعود} .
٢٠٢ـ ا موع القيم من كلام ابن القيم في الدعوة ، والتربية ، وأعمال القلوب ، منصور بن محمد المقرن ،{ط١، دار طيبة ، الرياض : ١٤٢٦هـ } .
٢٠٣ـ محرر في أسباب ال ول من خلال الكتب التسعة ، دراسة الأسباب رواية ودراية ، للدكتور خالد بن سليمان المزيني ،{ط١، ابن الجوزي ، الدمام : ١٤٢٧هـ } .
٢٠٤ـ محرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ،{ط١، لبنان : ١٤١٣هـ } .
٢٠٥ـ مختار الصحاح ، محمد بن أبي بكر الرازي ، تحقيق محمود خاطر ،{ مكتبة لبنان ، بيروت : ١٤١٥هـ } .
٢٠٦ـ مخطط تدمير الإسلام وإبادة المسلمين في العصر الحديث ، نبيل بن عبد الرحمن المحيش ،{ط١، دار المنار ، الخرج : ١٤١٢هـ } .
٢٠٧ـ مدارج السالكين ، محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية ،تحقيق محمد حامد الفقي ،{ط٢، دار الكتاب العربي ، بيروت : ١٣٩٣هـ } .
٢٠٨ـ المدخل إلى علم الدعوة ، دراسة منهجية شاملة لتاريخ الدعوة ، وأصولها ،

ومناهجها ، وأساليبها ، ووسائلها ، ومشكلا ا في ضوء النقل والعقل ، محمد أبو الفتح البيانوني ،{ط٣، مؤسسة الرسالة ، بيروت : ١٤١٥هـ } .
٢٠٩ـ مدخل لتفسير التحرير والتنوير ، محمد بن إبراهيم الحمد ،{ط١، دار ابن خزيمة ، الرياض :١٤٢٨هـ }.
٢١٠ـ المدرس ومهارات التوجيه ، الشيخ محمد بن عبد الله الدويش ،{ط١،دار الوطن ، الرياض : ١٤١٣هـ }.
٢١١ـ المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمري المالكي ، { دار الكتب العلمية ، بيروت ، بدون } .
٢١٢ـ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ، علي بن سلطان محمد القاري ، تحقيق جمال عيتاني ،{ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت :١٤٢٢هـ } .
٢١٣ـ المسائل المشتركة بين أصول الفقه وأصول الدين ، محمد العروسي عبد القادر ،{ط١، دار حافظ ، جدة } .
٢١٤ـ المستدرك ، للحاكم ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ،{ط١،دار الكتب العلمية ، بيروت :١٤١١هـ }.
٢١٥ـ المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة ، عبد الكريم زيدان ،{ط١، مؤسسة الرسالة ، بيروت : ١٤٢٦هـ } .
٢١٦ـ مسند أحمد ، الإمام أحمد بن حنبل ، { مؤسسة قرطبة ، مصر } .
٢١٧ـ مشارق الأشواق إلى مصارع العشاق ، ومثير الغرام إلى بلاد السلام ، أبو زكريا أحمد بن إبراهيم الدمياطي ، تحقيق إدريس محمد علي ، ومحمد خالد اسطنبولي ،{ط١، دار البشائر ، بيروت :١٤١٧هـ } .
٢١٨ـ مشاهير علماء الأمصار ، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي ، تحقيق: م. فلايشهمر { دار الكتب العلمية ، بيروت :١٩٥٩م} .
٢١٩ـ مشكاة المصابيح للتبريزي ، بتحقيقه ، {ط٣، المكتب الإسلامي:١٤٠٥هـ } .
٢٢٠ـ المصباح المنير ، أحمد محمد الفيومي ، {المكتبة العلمية ، بيروت } .
٢٢١ـ المصباح المنير في ذيب تفسير ابن كثير ، إعداد جماعة من العلماء ، بإشراف الشيخ صفي الرحمن المباركفوري ،{ط١،دار السلام، الرياض : ١٤٢٠هـ }.

٢٢٢ـ المصنف ، ابن أبي شيبة ، تحقيق الحوت ،{ط١، الرياض : ١٤٠٩هـ } .
٢٢٣ـ "١٠"مفاتيح لتحقيق التدبر الأمثل ، د خالد اللاحم ، {ط : ١٤٢٥هـ} .
٢٢٤ـ مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة ، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ،{ط٣، الجامعة الإسلامية ، المدينة : ١٣٩٩هـ } .
٢٢٥ـ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ، محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية،{ دار الكتب العلمية ، بيروت } .
٢٢٦ـ المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم ، أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي ،{ط٢، دار ابن كثير ، دمشق : ١٤٢٠هـ } .
٢٢٧ـ مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، {ط٥، دار القلم، بيروت: ١٩٨٤م} .
٢٢٨ـ معارج القبول ، حافظ حكمي ، تحقيق عمر أبو عمر ،{ط١، دار ابن القيم ، الدمام :١٤١٠هـ} .
٢٢٩ـ المعجم الأوسط ،للطبراني،تحقيق طارق بن عوض الله وعبد المحسن الحسيني ،{ دار الحرمين ، القاهرة :١٤١٥هـ} .
٢٣٠ـ معجم البلدان ،أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي،{ دار الفكر ،بيروت} .
٢٣١ـ المعجم الجامع لغريب مفردات القرآن الكريم ، إعداد وترتيب الشيخ / عبد العزيز عز الدين السيروان ،{ط١، دار العلم للملايين ، بيروت } .
٢٣٢ـ معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس ،تحقيق عبد السلام هارون ،{ط١، دار الجيل ، بيروت : ١٤٢٠} .
٢٣٣ـ المعجم الوسيط ، إبراهيم مصطفى ، أحمد الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد النجار ، تحقيق مجمع اللغة العربية ، {دار الدعوة } .
٢٣٤ـ معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي ، تحقيق بشار عواد معروف , شعيب الأرناؤوط , صالح مهدي عباس ،{ط١، مؤسسة الرسالة ، بيروت: ١٤٠٤هـ } .
٢٣٥ـ معركتنا مع اليهود ، سيد قطب ، {ط٦، دار الشروق،القاهرة :١٤٠٣هـ } .
٢٣٦ـ مع الله ، دراسات في الدعوة والدعاة ، محمد الغزالي ،{ط١، دار القلم ، بيروت

:١٤٠٩هـ } .
٢٣٧ـ معوقات الهداية ، صالح بن مقبل العصيمي التميمي ، { من مطبوعات المكتب التعاوني للدعوة وتوعية الجاليات بالربوة : ١٤١٩هـ } .
٢٣٨ـ المغني عن حمل الأسفار ، تحقيق أشرف عبد المقصود ،{ط١، مكتبة طبرية ، الرياض : ١٤١٥هـ } .
٢٣٩ـ المقاصد الحسنة فيما اشتهر على الألسنة ، أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي ، تحقيق محمد الخشت ،{ط١، دار الكتاب العربي،بيروت :١٤٠٥هـ }.
٢٤٠ـ مقاصد الرعاية لحقوق الله عز وجل ، أو مختصر رعاية المحاسبي ، سلطان العلماء عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي ، تحقيق إياد خالد الطباعص ،{ط١، دار الفكر، دمشق : ١٤١٦هـ } .
٢٤١ـ مقومات الداعية الناجح ، الدكتور علي بادحدح ،{ط٢، دار الأندلس الخضراء ، جدة : ١٤٢٦هـ } .
٢٤٢ـ من أخبار السلف ، زكريا بن غلام قادر الباكستاني ،{ط٢،دار الرشد ، الرياض : ١٤٢٧هـ } .
٢٤٣ـ من أخلاق الداعية ، فضيلة الشيخ سلمان بن فهد العودة ،{ط١، الوطن ، الرياض : ١٤١١هـ } .
٢٤٤ـ منازل الحروف ، علي بن عيسى بن علي الرماني ، تحقيق إبراهيم السامرائي ،{ دار الفكر ، عمان } .
٢٤٥ـ من صفات الداعية،للشيخ محمد الصباغ، {ط٤،المكتب الإسلامي ،بيروت :١٤٠٥هـ }.
٢٤٦ـ من فقه الداعية ، عبد الرحمن بن أحمد الجرعي ،{ط١، دار ابن حزم ، بيروت :١٤٢٥هـ } .
٢٤٧ـ من معالم الدعوة الراشدة ، عوض بن محمد القرني ،{ط١، دار ا تمع ، جدة :١٤١٣هـ } .
٢٤٨ـ المنهاج شرح صحيح مسلم للنووي ،{ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت}.
٢٤٩ـ منهج الإمام محمد بن عبد الوهاب في مسألة التكفير ، أحمد بن جزاع الرضيمان

، بإشراف الدكتور ناصر العقل ،{ط١، دار الفضيلة ، الرياض :١٤٢٦هـ } .
٢٥٠ـ منهج الدعوة إلى الله على ضوء وصية النبي ﷺ لمبعوثه إلى اليمن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، الدكتور عبد الرحيم بن محمد المغذوي ،{ط١، دار إشبيليا ، الرياض :١٤٢٠هـ } .
٢٥١ـ الموافقات للشاطبي،{طباعة خيرية خاصة ، توزيع وزارة الشؤون الإسلامية بالمملكة العربية السعودية } .
٢٥٢ـ الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ، إشراف الدكتور مانع الجهني ،{ط٣، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع : ١٤١٨هـ }.
٢٥٣ـ مؤهلات الداعية المسلم العلمية والخلقية ، أحمد بن محمد الدسم العدناني ،{ط١،دار لينة ، الدمنهور : ١٤١٨هـ } .
٢٥٤ـ النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن ، د محمد عبد الله دراز ،{ط١، دار السعادة ، القاهرة : ١٩٦٠م} .
٢٥٥ـ النبوات ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق الدكتور / عبد العزيز الطويان ،{ط١، مكتبة أضواء السلف ، الرياض :١٤٢٠هـ } .
٢٥٦ـ نقض الإمام عثمان بن سعيد الدارمي على المريسي الجهمي العنيد ، أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي ، تحقيق رشيد بن حسن الألمعي ،{ط١، مكتبة الرشد ، الرياض :١٤١٨هـ } .
٢٥٧ـ النهاية لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير ، تحقيق طاهر الزاوي ، ومحمود الصناحي ، { المكتبة العلمية ، بيروت : ١٣٩٩هـ } .
٢٥٨ـ النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى ، محمد الحمود ،{ط١، مكتبة الذهبي ، الكويت : ١٤١٣هـ } .
٢٥٩ـ هل نحن مسلمون ، محمد قطب ، { دار الشروق ، القاهرة : ١٤٠٦هـ } .
٢٦٠ـ الوافي بالوفيات،صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق أحمد الأرناؤوط،وتركي مصطفى { دار إحياء التراث، بيروت:١٤٢٠هـ } .
٢٦١ـ الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية ، الدكتور محمد صدقي البورنو ،{ط٢، مكتبة المعارف ، الرياض : ١٤١٠هـ } .

٢٦٢ـ وسائل الدعوة ، الدكتور عبد الرحيم المغزوي ،{ط١، إشبيليا ، الرياض :١٤٢٠هـ } .

٢٦٣ـ وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ، تحقيق إحسان عباس ،{ دار الثقافة ، بيروت ، بدون } .

الدوريات :

٢٦٤ـ { مجلة البيان ، لندن : المنتدى الإسلامي ، العدد (١٢٤) ص (٦٢) ذو الحجة ١٤١٨هـ} .

٢٦٥ـ {مجلة المنار ، محمد رشيد رضا ، القاهرة : مكتب ماس للبرمجة ونظم المعلومات ، مقال بعنوان : الدعوة ، وطريقها وآدا ا } .

٢٦٦ـ { مجلة البحوث الإسلامية ، الرياض : رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتـاء ، العدد ٤٣ } .

المواقع الإلكترونية :

٢٦٧ـ http://www.islamweb.net/ver

فهرس الموضوعات